

24-1

العدد ١٣٧
شباط سنة ١٤٠٨

الجمهورية



مجلة فصلية محكمة تصدر عن دار الملك عبد العزيز بالرياض

العدد الأول . السنة الرابعة عشرة . شوال ١٤٠٨ هـ . مايو ١٩٨٨ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَأُوا

وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ

٤٠٠ - آل عمران



مجلة فصلية مُحرَّمة

تصدر عن داره الملك عبدالعزيز

العدد : ١٤٠٨ • السنة : ١٩٨٨
الاول : ١٤٠٨ • الرابطة : ١٩٨٨
عشرة : ١٤٠٨ • ذوالحجة : ١٩٨٨

داره الملك عبدالعزيز :

أُنشئت بمقتضى المرسوم الملكى الكريم رقم م / ٤٥
فى ١٣٩٢ / ٨ / ٥ هـ كرسية مستقلة ذات شخصية اعتبارية يديرها مجلس
إدارة مكونة من اعضاء الدولة لدراسة وتحقيق المسائل
والغرض من انشائها : خدمة تاريخ المملكة ومطهر ايتها ،
وأدائها ، وأعمالها الفكرية والعلمانية خاصة ، والفيزية ويدرهم
والإسلام بعامة ، وذلك عن طريق ابحاثها الجرد ونشائها ، ومطب
الوثائق والمخطوطات وتحقيقها ، وإصدار مجلة تحمل اسما لها
وهذه المجلة الوطنية للدراسات والبحوث بمقتضى الموافقة السامية
رقم م / ١٢٦٠ / ٥ فى ١٣٩٦ / ٥ / ٢ هـ

Organization of the Arabic
Library (GUAL)

٢٩٤٥ الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية



رقم الفاكس : ٠١ / ٩٦٦ / ١ / ٤٤١٧٠٢٠





رئيس التحرير
محمد حسين زيدان

■ ■ ■

هيثم التحرير

د. منصور إبراهيم الحازمي
عبدالله بن عبدالعزيز بن إدريس
د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري
د. عبدالله الصالح المشيمين
د. محمد السليمان السديس

■ ■ ■

سكرتير التحرير ، والمشرق الفني

مصطفى أمين جاهيم

الأمير العام للإدارة
ومدير عام المجلة

عبدالله بن محمد الحجيل



سجل الاشتراكات باسم
الأمير العام للإدارة
٤٤١٢٥٧١

الإدارة والتحرير
٤٤١٢٣١٧ - ٤٤١٢٣١٦

سجل الاشتراكات باسم
رئيس التحرير
٤٤١٧٠٢٠



• آراء الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة •

• الاشتراكات السنوية •

- ٢٠ ريالاً للاشتراك السنوي داخل المملكة العربية السعودية .
- وفي البلاد العربية ما يعادل القيمة لأربعة أعداد في كل بلد .
- ٦ دولارات خارج البلاد العربية .

- يراعى في البحث أن لا يزيد عن (٣٠) صفحة من القطع المتوسط ومنسوخ على الآلة.
- ترتيب البحوث داخل العدد يخضع لأسباب فنية لا علاقة لها بمكانة الكاتب..
- لا تُرَدُّ البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر..
- ترسل البحوث سريعاً إلى محكمين ويتم نشرها بعد النظر في صلاحيتها للنشر.

قيمة العدد

السعودية : ثلاثة ريالات - الإمارات العربية أربعة دراهم
- قطر : أربعة ريالات - مصر ٤٠ قرشاً - المغرب خمسة دراهم - تونس ٤٠٠ مليم
خارج البلاد العربية : دولار للعدد

- | | |
|--|---|
| • البحرين : مؤسسة الهلال للتوزيع
ص.ب ٢٢٤ المائة - ت ٢٦٢٠٢٦ | • السعودية : مؤسسة الجريسي للتوزيع
ص.ب ١٤٠٥ الرياض - ت ٤٠٢٢٥٦٤ |
| • مصر : مؤسسة الأهرام للتوزيع
شارع إجلال - القاهرة ت ٧٥٥٥٠٠ | • أبو ظبي : مكتبة المنيل
ص.ب ٣٧٧٨ أبو ظبي - ت ٣٢٣٠١١ |
| • تونس : الشركة التونسية للتوزيع
5 نج قرطاج | • دبي : مكتبة دار الحكمة
ص.ب ٢٠٠٧ - ت ٢٢٨٥٥٢ |
| • المغرب : الشركة الشريفة للتوزيع
ص.ب 683 الدار البيضاء 5 | • قطر : دار الثقافة
ص.ب ٣٢٣ - ت ٤١٣١٨٠ |

المجلة



صورة الغلاف:

نيابة عن خادم الحرمين الشريفين رعى صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز وزير الداخلية حفل توزيع جائزة الملك فيصل العالمية، (ص: ٢١٠)

في هذا العدد

- ٥ ■ الافتتاحية
- ٧ □ العمور السكاني والعمراني لمدينة الرياض د. عبدالرحمن صادق الشريف
- ٤١ ■ الزلازل والبراكين في جزيرة العرب وراثتهم د. محمد محمود محمدين
- ٦١ □ من مجيء الخبر على خلاف ظاهر الحال في القرآن الكريم د. عبده عبدالعزيز قلقيلة
- ٦٣ ■ رحلة في نهضة وصبر وجيل الحجاز، ترجمة وتحقيق وتعليق د. احمد بن عمر الزليعي
- ١٢٤ □ دور الشيخ عز الدين القسام في الكفاح الفلسطيني د. حسن صالح عثمان
- ١٤١ ■ نزعة التعصب بين العرب والموالى في الشعر الأموي د. السيد احمد عمارة
- ١٦٤ □ ايضاح على ملاحظات د. العثيمين حول كتاب: «سليمان بن صالح الدخيل» د. محسن عياض عجيل
- ١٦٩ ■ تعليق على ايضاح د. محسن عجيل د. عبدالله الصالح العثيمين
- ١٧٨ □ العلم رحم بين اهل ا. عبدالله بن حمد الحليل
- ١٨١ ■ مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة وعرض كتاب ا. ناصر عبدالله الغاني
- ١٨٤ □ البيت الشريف بقصيدة شعرية د. حسن جاد حسن
- ١٨٧ ■ الامثال العامة في نجد وعرض كتب ا. محمد عبدالله الحمدان
- ١٩٣ □ توزيع الحقائق العامة في المدينة المنورة د. محمد شوقي بن إبراهيم مكى
- ٢٠٩ ■ علوم... وفنون ا. مصطفى أمين جامين
- ٢٣٢ □ دراسة جودة المياه تحت السطحية بمنطقة خيبر د. احمد عبدالقادر المهندس
- ٢٤٧ ■ نظرات في كتاب: الإمام محمد بن عبد الوهاب ا. عبدالله بن سعد الرويشد
- ٥ □ ملخصات باللغة الإنجليزية
- كشاف والدائرة، المحطة الثالثة عشرة، وعقدت في العبد ا. احمد طلعت محمود برهام

إِنَّهَا مَكَّةُ حَرَمٌ أَمَدَتْ



● بقلم رئيس التحرير ●



وحاول الطغاة المخدوعون بما عقدوا، أو الكافرون بما اعتقدوا، أن يتلوا من المسجد الحرام من مكة من بكة من الكعبة، فحجزهم الله عنها، بعضهم لم يصل إليها وبعضهم وصل حتى الغسق.. حتى وادي محسر، أي داخل حدود المسجد الحرام، ذلكم أبرهة.. حبشي جاء من اليمن يقود جيشاً جراراً.. بل قاده حقد فوار، فإذا النار تأكل قلبه، يشد قوته ليهدم الكعبة، ليكون لهم بيت هناك في مركز ملكه.. لم يعرف الطريق، فإذا خوان من العرب هو (أبورغال) يصبح الدليل له، يسلك بالقبيل وأصحابه الطريق، أكلته الخيانة فأكلت تقديسه للبيت فتأكلت عرويته، ماتت نخوته، ليشيع بقيمة وعد بها، ولعله - في نفس أبرهة - سيكون طعماً لل سيف إذا ما انتصر صاحب الفيل، ولم يعلم صاحب الفيل عن الطير الأبايل، عن الحجارة من سجيل تهلكه هو وكل جيشه.. إلا (حمامة) أم سيدي العبد بلال، أبقاها الله لتلد، هذه العود من الابنوس.. هذا الأسود.. هذا الأسود - أسود لونه وبيض قلبه فإذا نور الإيمان في بلال يجعله أفضل من كثير ومن أكثر من الذين أسلموا بعده ويأبى الفيل - هو من ذلك الشيء الذي يسبح بحمد الله لأن الفيل يعرف الله أكثر من الكافرين الطغاة - أن يتجه إلى حيث يريد أبرهة، فقصاه ليتجه حيث أراد الله وإن لم يتحرك، ويقولها عبد المطلب بن هاشم جد محمد عليه الصلاة والسلام «أنا رب إيلي أما البيت فله رب يحميه» فحمي الله بيته، ولكن أين العرب؟ لماذا لم يحترموا أبرهة، وكلهم يحترم البيت؟ تلك قدرة الله.. إرادته.. أراد سبحانه أن يكون هو الذي يحمي بيته.

ونسأل عن التوقيت، ألأنَّ محمداً ولد هذا العام؟ ليكون الطير الأبايل إرهاباً تعظم به مكانة البيت فلا يضام، وليجد رسول الله قريشاً آمنة تسميه الصادق الأمين حتى إذا أرسل أسلم الصادقون وبقي المشركون على شركهم.

العرب ما تخاذلوا ولا خذلوا، وإنما الله يبطهم ليكون النصر من عنده، وليكون هذا النصر آية للذين يؤمنون بالله.

... وجاء من رجم الكعبة بالمنجنيق، حياه إسلامه وأمره إلى الله، وتوَلَّى خالد بن عبد الله القسري عاملاً لبني أمية أميراً على مكة، فما استحي من إسلامه، بني لأمه وفي بيته كنيسة لأنها كانت نصرانية .. هجر قول رسول الله ﷺ «أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب» «لا يجتمع في هذه الجزيرة دينان».

وجاء القرامطة، قرمطي كبير وقرامطة صغار، فخذلوا، ألدوا فأذاقهم الله العذاب، فالظلم بهذا البيت أو في هذا البيت إلحاد يذوق صاحبه العذاب، والأمثلة كثيرة، وما يوم حليلة بسر.

واليوم، حاول العبث الشعوبيون من الفرس، لا يعلنون الشعوبية، وإنما يتسترون وراء الإسلام، الإسلام يمنع العبث في الحرم يمنع إراقة دم المؤمن، فكيف تظعن سكين مسلمة قلب حاج مسلم، إنها أبرهة جديدة أو قرمطية مستجدة، ولكنه الله يحمي بيته .. أنعم على خادم الحرمين الملك فهد أن يتصدى لهذا العبث، ما تعدى وما تحدى ولكنه تصدى.

الحرم آمن، وأتحدى من يقول إنه بعد اغتيال عثمان بن عفان ذي النورين رضي الله عنه، عمّ الأمن جزيرة العرب .. حجازاً ونجداً وأعلى السراة وكل التهائم، لم يقع أمن إلا حين جمع الله هذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالمسلمون وأكثر العرب كانوا مع الملك فهد حين انتصب للعبث وحين قطع العلاقات، قتلها .. عروبي فرحت وإسلامي حزن، ولكن الإثم على باعث الحزن، الإسلام لا يرضى أن يفترق مسلم عن مسلم، قال صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض».

محمد حسين زيربان

النمو السكاني

والعمراني لمدينة الرياض

د. عبد الرحمن صادق الشريف

الخلفية الطبيعية لمدينة الرياض:

نشأت مدينة الرياض في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي على أنقاض مدينة حجر التي وجدت في عصر الجاهلية على ربوات قليلة الارتفاع، في وسط حوض رسوبي صغير يقع في غرب وادي البطحاء. فورت الرياض موقع حجر كعقدة مركزية بطرق القوافل في شبه الجزيرة العربية، وكأحد مراكز التبادل التجاري الداخلي.



تقع الرياض في وسط الجزء الشرقي من هضبة نجد الذي يتكون من صخور رسوبية مختلفة التركيب تسود فيها حجارة الجير وتنتمي للعصر الجوراسي. وترتفع الأرض نحو ٦١٠ م عن سطح البحر، ويتجه تصريفها المائي باتجاه وادي حنيفة الذي يقع إلى الغرب من موقع المدينة. وتتصف بمناخ صحراوي جاف شديد القارية حيث تبلغ معدلات الحرارة الشهرية العظمى ٤٣°م والدنيا ٧°م، ونسب الرطوبة الشهرية العظمى ٧٠٪ والدنيا أقل من ١٥٪، ويبلغ معدل الأمطار السنوية ١٠٠ مم فقط، تسقط في الشتاء والربيع بدون نظام ثابت.

تمثل الرياض مكاناً وسطاً بين دوائر العرض والطول التي تغطي المملكة. فموقعها على خط عرض ٣٨° / ٢٤° شمالاً، وعلى خط طول ٣٤° / ٤٦° شرقاً يجعلها تكاد تتوسط المملكة التي تترامى حدودها إلى الشمال والجنوب من الرياض نحو ٨ درجات عرضية، وتترامى إلى الشرق والغرب نحو ١٠ و ١١ درجة طولية^(١).

ومن الجانِب الجغرافي فإن موقع مدينة الرياض يعتبر مركزياً إذا بحثناه في عدة مستويات، فهو في موقع مركزي أولاً: بالنسبة لمواقع الاستقرار في وادي حنيفة، إذ أنه يتوسط عالية الوادي حيث العينة والجيلة وقرى ومدن منطقتي المحمل والشعيب بالقرب من عاليته في الشمال الغربي من مدينة الرياض بحيث لا يزيد أبعداً عن ١٠٠ كم، وسافلة الوادي حيث مدن وقرى منطقة الخرج في الجنوب الشرقي بحيث لا يزيد أبعداً عن ١٠٠ كم عنها أيضاً.

ثانياً: وتقع الرياض في موضع متوسط بالنسبة للهضبة الواقعة بين حافتي طويق من جهة والعرمة والهيت من جهة أخرى، والتي يخترقها وادي حنيفة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي منطبقاً على قطرها الكبير. وتتكون من سطح صخري حفرتة التعرية السطحية، وأوجدت فيه متجماً للبدو الذين لا بد لهم من الاتصال بمراكز الاستقرار المدني لتبادل السلع والحاجيات، والرياض واحدة منها.

ثالثاً: وتقع الرياض في موقع متوسط بالنسبة لأقاليم نجد، ففي الشمال الغربي تقع واحات الوشم على بعد نحو ٢٠٠ كم من الرياض، وتقع واحات سدبر إلى الشرق من السابقة على بعد ٢٥٠ - ٣٥٠ كم عن الرياض، وتقع واحات القصيم على بعد ٤٠٠ - ٥٠٠ كم، وحائل على بعد ٦٠٠ - ٧٠٠ كم. وفي الجنوب الغربي تقع واحات الحوطة والحريق على بعد ٢٠٠ - ٢٥٠ كم، وتقع الأفلاج على بعد نحو ٣٠٠ كم، وتقع الدواسر على بعد نحو ٦٠٠ - ٧٠٠ كم.

رابعاً: وتقع الرياض في موقع متوسط بالنسبة للمناطق الحضرية لشبه الجزيرة العربية كلها، فهي في مكان متوسط بالنسبة لطريق القوافل القديم بين نجران واليمن من جهة وبلاذ الرافدين من جهة أخرى. وفي مكان شبه متوسط بين شرق الجزيرة وغربها، إذ أنها تبعد عن مدن الحجاز الرئيسة: الطائف، مكة المكرمة، جدة والمدينة مسافة تتراوح بين ٨٠٠ - ١٠٠٠ كم. في حين أنها تبعد عن مدن المنطقة الشرقية ٣٥٠ - ٤٥٠ كم. ولكننا إذا اعتبرنا إقليم الخليج ابتداءً من الكويت شمالاً ومروراً بمدن الساحل السعودي والبحرين وقطر واتحاد الإمارات العربية حتى عمان، عندئذ فإن موقع الرياض يصبح متوسطاً بين إقليمي الحجاز والخليج. (شكل ١).

وهكذا نرى أن مدينة الرياض تحتل موقعاً وسطاً فيما بين الأماكن المعمورة داخل شبه الجزيرة العربية أو على أطرافها. ولذلك اختيرت لتكون محطة من محطات القوافل القديمة ثم

قوافل الحجاج. وقد تأكدت عقدية مدينة الرياض (*The nodality*) في العصر الحاضر باختيارها عاصمة الدولة السعودية وبظهور طرق ووسائط النقل الحديثة، حيث شقت أربع طرق برية رئيسة انطلقت منها على شكل محاور توصلها في الجهات الأربع للمملكة، ومن ثم لتوصلها بالأقطار العربية المجاورة. واتصلت بخط سكة الحديد بمدينة الدمام ثغرها الذي يوصلها بمختلف موانئ العالم. كما اتصلت عن طريق مطار الرياض باثنين وعشرين مطاراً داخل المملكة وبنحو أربعين مطاراً عربياً وعالمياً خارجها.

نشأة الرياض وتطورها العمراني

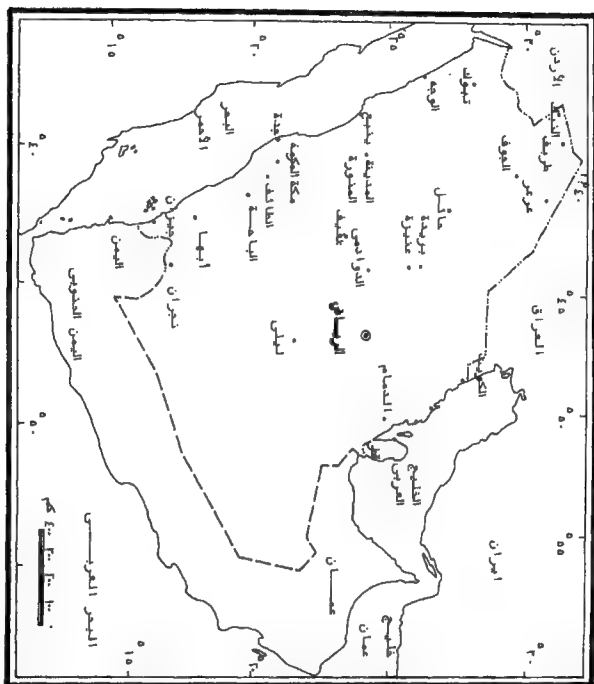
بدأ الاستقرار المدني في موضع مدينة الرياض منذ نيف وألني سنة على أيدي قبائل طسم الذين اتخذوا من مدينة «حجر» قاعدة لبلادهم، وأنشأوا فيها العديد من البيوت والحصون^(٢). إلا أنها هجرت وتخربت على أثر حملة أحد ملوك اليمن في نحو سنة ٤٢٠م وإيادته للطسميين. ثم عمرت حجر جماعة من حنيفة وأصبحت لهم القلبة، فاستعادت ازدهارها، واتخذت سوقاً يعقد من اليوم العاشر من شهر محرم إلى نهايته من كل عام^(٣). وفي ظل الإسلام أصبحت قاعدة إقليم الجمامة، ومركزاً لطرق القوافل، وسوقاً عامرة إلى أن تقلصت وانكشفت في أواخر العهد العباسي في ظل حكم الأخضرين منذ النصف الثاني للقرن التاسع الميلادي. وصار أمرها مجهولاً خلال القرون التالية^(٤)، ولو أن اسم حجر بقي معروفاً كمقاعدة الجمامة، وفي أواخر هذا العهد صار يطلق على الأجزاء المتناثرة المتبقية منها والتي تحولت إلى قرى منفصلة^(٥).

ظهور الرياض في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي ونموها الحديث:

يمكننا أن نتبع التاريخ العمراني لمدينة الرياض بعد ظهورها بهذا الاسم حسب التغيرات التي تركت آثارها على الحركة العمرانية فيها من خلال تقسيمها إلى أربع مراحل متتابعة هي:

أ - المرحلة الأولى وتبدأ منذ ظهور الرياض بهذا الاسم في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي وتمتد حتى عام ١٣١٩هـ، ١٩٠٢م.

لقد تقلص مدلول حجر في أواخر أيامها حتى انحصر في جزء صغير من موضع المدينة، في حين أن المدينة تجزأت إلى قرى منفصلة يحف بكل منها البساتين الخاصة بها، ومن هنا أطلق اسم «الرياض»



شكل (١) المملكة العربية السعودية •

ليشمل جميع ما تبقى من أحياء حجر وما حولها من أراض وساتين. وفي سنة ١١١٦هـ - ١٧٤٧م تغلب ابن دواس أمير متفوحة عليها، وأقام سوراً حول تلك القرى لتصبح الرياض^(٦). وبني في داخلها مبنى الإمارة وعدداً من الحصون نتيجة لازدياد الصراع بينه وبين الدولة السعودية الأولى القائمة في الدرعية. وقد انتهى هذا الصراع في سنة ١٧٧٣م بانضمام المدينة واتباعها

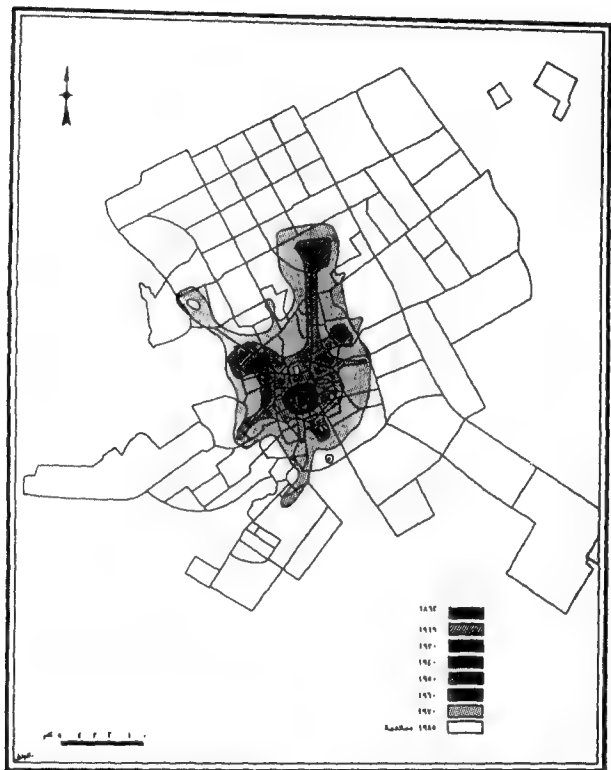
للدولة السعودية. وبقيت كذلك إلى أن احتلتها جيوش إبراهيم باشا سنة ١٨١٨م فهدمت^(٧). وفي سنة ١٢٤٠هـ - ١٨٢٤م استعاد الأمير تركي بن عبد الله الرياض، فأعاد بناء السور والجامع والقصر، وعاد إليها سكانها وعُمرت من جديد، وأُخذت عاصمته للدولة السعودية الثانية، إلى أن خضعت لإمارة حائل مدة عشر سنين بين (١٨٩٢ - ١٩٠٢م).

لقد تعرضت مدينة الرياض خلال هذه المرحلة إلى ذبذبات من الازدهار والانحيار تبعاً لتغير السلطة، وقد تمثل في تغير كثافة العمران داخل الأسوار وفي تهدم الأسوار وإعادة بنائها. وكانت الرياض سنة ١٢٧٩هـ - ١٨٦٢م كما وصفها بلجريف قرية من الشكل الدائري لا تتجاوز مساحتها نصف كيلو متر مربع، تتوسطها هضبة الصفاة التي تحيط بها ساحة، وبجانباها القصر والمسجد والأسواق، ويتفرع من الساحة أربعة شوارع تنتهي بأربعة أبواب محصنة في الجهات الأربع، وتقسم هذه الشوارع المدينة إلى أربعة أحياء مختلفة في مساحتها وفي مستوى سكان كل منها^(٨).

ب - المرحلة الثانية (١٣١٩ - ١٣٦٩هـ)، (١٩٠٢ - ١٩٥٠م): (الشكل ٢)

وتبدأ هذه المرحلة منذ تأسيس الدولة السعودية الثالثة عقب افتتاح الملك عبد العزيز الرياض وتنتهي بتاريخ تهديم أسوارها وزوالها. أي أنها تنطبق على فترة نمو وازدهار الدولة وتوحيدها. ولذلك شهدت الرياض نمواً مطرداً، فبعد أن كانت صغيرة المساحة، محصورة داخل سورها الطيني ذي الأبواب الخمسة، توسعت في جميع الاتجاهات، واستبدلت بعض المباني والأسوار، وزاد عدد الأبواب إلى سبعة^(٩). ثم ظهرت بعض المباني خارج الأسوار، بدأ بعضها كقصور كبيرة مثل قصر المربع وقصر البديعة، أو كأحياء شعبية مثل متفوحة الجديدة وحلّة العيد وعتيقة لايواء بعض الوافدين من البادية أو الريف^(١٠). ثم أخذت المدينة تتمدد باتجاه هذه الأحياء الخارجية مما جعل نمو المدينة يتحول من النمو الحلقي في أول هذه المرحلة إلى النمو نحو أربعة اتجاهات عرضية.

وتغطت المدينة وادي البطحاء من الشرق. وقد بلغت مساحتها في نهاية هذه المرحلة، وهي مبنية من الطين المخفف والطوب الطيني ٨,٥ كم^٢، امتدت على المحور الشرقي - الغربي مسافة ٤ كم وعلى المحور الشمالي - الجنوبي نحو ٣,٥ كم. وقد حالت بعض العقبات دون توسع المدينة في الاتجاهات الأربعة الواقعة بينها وهي: هضبة زهرات الوشام في الزاوية الشمالية الغربية ومقبرة السبالة وبعض البساتين في الزاوية الجنوبية الغربية، ومقبرة العود في الجنوب الشرقي وبعض البساتين في الشمال الشرقي^(١١).



• شكل (٢) التوسع العمراني بمدينة الرياض •

وقد نال النواة المركزية للرياض بعض التغيير خلال هذه المرحلة، فاستبدلت ببعض المباني القديمة مباني جديدة لتقوم باستيعاب احتياجات جديدة، كما استبدلت ببعض المباني أسواق متخصصة، وهلمت بعض البيوت لتوسيع الشوارع، وشيدت المحلات التجارية الجديدة على طول الشوارع المشعة من ساحة الصفاة. أي أن القلب التجاري للمدينة توسع على حساب المناطق السكنية فزاد الضغط على الأخيرة في الحلقة المحيطة بالمركز لتنمو في الحلقة المحيطة بها وفي الأطراف، ولم تعد الأسوار أو وادي البطحاء تحول دون هذا التوسع، وصار لا مناص من تخطي الوادي ومن التخلص من الأسوار فتمت إزالتها في عام ١٩٥٠م حيث انتهت بهذا الحدث العمراني الهام المرحلة الثانية.

جـ- المرحلة الثالثة (١٣٦٩ - ١٣٩٤هـ)، (١٩٥١ - ١٩٧٤م):

وقد تميزت هذه المرحلة بالنمو السريع والمطرد لعمران المدينة، وبالتحول من التمدد الحلقي إلى التمدد الإشعاعي في اتجاهات جديدة، كما تميز البناء بظهور طرز جديدة ومواد بناء لم تكن مستعملة سابقاً وهي مادة الخرسانة المسلحة والطوب الإسمنتي. وبدأ تخطيط الشوارع والأحياء كظاهرة جديدة مؤثرة. وقد برزت عوامل هامة مع بداية هذه المرحلة كان لها أثر عظيم على التغير المدني في الرياض مثل: تطور النشاط الاقتصادي في المملكة، نتيجة تطور المراكز البترولية بعد الحرب العالمية الثانية، ونقل الوزارات ورئاسات جميع الدوائر الحكومية من جدة إلى الرياض منذ سنة ١٩٥٣م، والثور على موارد مائية كبيرة أمكن ضخها بواسطة الأنابيب إلى الرياض. هذا بالإضافة إلى تبلور وظيفة الرياض العلمية والدينية مع تزايد افتتاح المدارس والمعاهد والكليات والجامعات، وكذلك ترسخ وظيفتها التجارية والاجتماعية بتطوير التجارة الخارجية وإنشاء طرق المواصلات الجوية والبرية والبحرية وسكة الحديد ثم التوسع في استعمال السيارات؛ أدت هذه العوامل إلى زيادة الطلب على المساكن والخدمات، لذلك نشطت أعمال الإنشاء وارتفعت قيم المستوردات لا سيما من مواد البناء.

أخذت مقدمات التوسع العمراني في هذه المرحلة صورة مشابهة لما حصل في السابق من إنشاء قصور أو أحياء منعزلة، يتبع ذلك توسيع هذه الأحياء ثم امتداد عمران المدينة إليها. ففي مطلع هذه الفترة أنشئ قصر الناصرية وتوابعه ثم العديد من البيوت الواسعة في شرق الناصرية وفي جنوبها وشمالها. وبني قصر البديعة إلى الجنوب منه، ثم بدأت تظهر المباني ابتداء من منطقتي القوطة والمرح وباتجاه الأول، ومن الشمسي باتجاه الثاني وفيما بينهما في منطقة عيشة، وباتجاه الشمال الغربي على امتداد طريق الدرعية وباتجاه أم الحمام الواقعة في وادي المحسن إلى الشرق من ذلك الطريق.

أنشئت محطة سكة الحديد في شرق الرياض في (سنة ١٩٥١م - ١٣٧٠هـ)، واختيرت منطقة المزرع الواقع إلى الجنوب الغربي من المطار القديم للتنمية، وفي أواخر هذه المرحلة أقيمت نواة حي العليا إلى الغرب من الحي الأخير. وسرعان ما اجتذبت هذه المناطق التوسع العمراني تبعاً وذلك من منطقة البطحاء باتجاهها. فنشأ شارع الريل ومنطقة غراني كمناطق متخصصة بورش إصلاح السيارات وبتاجر قطع الغيار والوكالات والمعارض وبعض الخدمات، وتعددت هذه المنطقة فيما بعد باتجاه الشرق أي نحو المحطة ثم الجنوب باتجاه طريق الخرج. وتجمع القادمون من القصيم في شرق المدينة، فنشأ حي القصمان، كما تجمع القادمون من الدواسر في الجنوب فنشأ حي «الدواسر». كما نشأ شارع المطار امتداداً لشارع البطحاء، ونشأت حوله مباني الوزارات وكثير من الدوائر الحكومية ثم الفنادق والمستشفيات ثم المحلات التجارية وغيرها. وفي أواخر هذه الفترة أخذ يتقدم العمران من شارع المطار ومن منطقة المزرع باتجاه طريق الدمام في الشرق.

وتوسعت الرياض باتجاه الجنوب أيضاً فنشأت منذ بدء هذه المرحلة أحياء: القرينة وصباح وجبونة وتوسعت عتيقة على طريق الحجاز، وقفز العمران عبر جسر وادي حنيفة في أواخر هذه الفترة إلى حي الشفا. وتوسعت كذلك مع امتداد وادي البطحاء باتجاه منفوحة وفيها بينها. وتوسعت باتجاه الجنوب الشرقي فالتحمت الأحياء السابقة: حلة العبيد والمرقب والقصمان والعود وزحفت منطقة خدمة السيارات والمنطقة الصناعية على طريق الخرج وإلى الشرق منه.

استمر التوسع الذي بدأ في الأذرع العمرانية التي بدأت منذ بدء هذه المرحلة مع الزيادة في التركيز الداخلي. ونشأت أحياء الصفيح «الصنادق» في بعض الأراضي الفضاء داخل المدينة لايواء الوافدين الفقراء من الريف، غير أن أمانة الرياض رحلتهم عنها في المرحلة التالية إلى حي القيصلية في جنوب شرق المدينة. وأصبحت الرياض في نهاية المرحلة تمتد نحو ١٧ كم من المطار القديم شمالاً حتى حي الشفا جنوباً، ونحو ١٠ كم من محطة سكة الحديد وطرف المنطقة الصناعية شرقاً إلى وادي حنيفة غرباً، ولا تقل المساحة المبنية منها عن ٨٥ كم^٢.

تطلب التمدد الأفقي على التمدد الرأسي في هذه الفترة، ولأن عدداً من المباني المتوسطة (من ٣ - ٧ طوابق) بدأت تظهر على جوانب الشوارع المشعة من منطقة القلب التجاري وعلى المحاور التجارية الهامة، كما أن عدداً محدوداً من المباني العالية (أكثر من ٧ طوابق) ظهرت في تلك المناطق بسبب

ارتفاع أسعار الأراضي. ذلك أن معظم الأبنية في مناطق التوسع الحديثة كانت على نظام القفل والتي لها حدائق، وتتضمن في أحيائها، ويحف بها مساحات فارغة تستطيع أن تستوعب المزيد من المباني. واستمر في هذه المرحلة تعرض النواة المركزية للتغيير، فأزيلت بعض الأحياء القديمة والمبينة من الطين ليحل محلها الطرق أو مواقف السيارات أو مجمعات الأسواق أو المباني العالية. وسيطرت المتاجر على طول الشوارع الرئيسية المشعة من القلب التجاري، وظهرت الأسواق المتخصصة وبعض المباني الإدارية والتعليمية والمساجد^(١٢).

وتم خلال هذه المرحلة تمديد شبكة الماء الجديدة وشبكة الكهرباء وحلّ الهاتف الأنوماتيكي محل الهاتف اليدوي، وتم رصف الشوارع الرئيسية ومعظم الفرعية، وأُنجزت مساحة كبيرة من شبكة مجاري الصرف ومصارف مياه الأمطار، وزاد التوسع في إنشاء المدارس والكلليات والمعاهد العليا والنوادي. وتحولت الرياض خلال هذه الفترة إلى ورشة إنشاء، موزعة في جميع الأنحاء، وقد رافق هذا النشاط لا سيما في أواخر هذه الفترة ارتفاع هائل في أثمان الأراضي وأثمان وأجور العقارات.

د - المرحلة الرابعة (١٣٩٥ - ١٤٠٥هـ)، (١٩٧٥ - ١٩٨٥م):

تنطبق هذه المرحلة على فترة خطتي التنمية الثانية والثالثة في المملكة، وتتميز بأن معدلات النمو العمراني فاقت فيها كل تصور وتجاوز التوقعات، يدل على ذلك أن نسبة الوحدات السكنية التي أنشئت أو أعيد بناؤها خلالها بلغت ٧٤,٤٪ من مجموع الوحدات السكنية في نهايتها حسباً أشارت دراسة (غازي مكي ١٩٨٥م)^(١٣). وقد اجتمعت عدة عوامل لإحداث هذه الطفرة العمرانية منها:

(١) الازدهار الاقتصادي الذي وصلت إليه المملكة خلال هذه الفترة. فقد ارتفع الناتج المحلي الإجمالي في المملكة من ١٤٨٨٠٠ مليون ريال عام ١٣٩٥/٩٤هـ إلى ٣٥٨١١٦ مليون ريال سنة ١٤٠٥/١٤٠٤هـ.

(٢) ارتفاع نصيب المشاريع في ميزانية الوزارات، فعلى سبيل المثال كان نصيب المشاريع الاستشارية لوزارة الشؤون البلدية والقروية في الخطة الإنمائية الثالثة والتي بدأت سنة ١٤٠٠هـ هو ٤٨,٥ بليون ريال، كان نصيب المنطقة الوسطى ٣٠,٢ بليون ريال.

(٣) التوسع في انتشار الخدمات البلدية وإيصالها لأماكن التنمية الجديدة.

(٤) زيادة الطلب على المباني وعلى الخدمات نتيجة الهجرة الداخلية والخارجية إلى الرياض.

(٥) زيادة السيولة النقدية أدى إلى المتاجرة بالأراضي والمضاربة بأسعارها ونشاط المساهمات العقارية خارج الرياض وتعمير هذه الأطراف هروباً من أسعار الأراضي العالية في الداخل.

(٦) القروض الميسرة من الدولة عن طريق البنك العقاري، فعلى سبيل المثال كان نصيب الرياض من الوحدات السكنية التي أنشئت بالاستفادة من قروض البنك العقاري حتى بداية جمادي الأولى سنة ١٤٠٤هـ ١٤٠٠٠ وحدة من مجموع ٥٣٨٧٨ وحدة في المملكة كلها^(١١).

(٧) منح الأراضي مثل أراضي الجامعيين وذوي الدخل المحدود في العريحا وظهرة لبن وفي جنوب الرياض.

(٨) كثرة المشاريع الإسكانية في الأماكن البعيدة الحكومية والأهلية: مثل سكن جامعة الملك سعود، ووزارة الخارجية، والحرس الوطني والدفاع ومؤسسة النقد ومشاريع بعض المستثمرين.

(٩) عدم وجود قيود طبيعية تحول دون التوسع في أي اتجاه وتشجيع الامتداد الأفقي.

اشتركت هذه العوامل في إحداث الطفرة العمرانية خلال هذه الفترة، إذ تطورت الأحياء التي سبق أن بدأت فيها عجلة التطور في المرحلة السابقة وتمددت باتجاه الأطراف، وخضعت مناطق تبعد عشرات الكيلومترات عن مركز المدينة للتنمية العمرانية من قبل مؤسسات حكومية أو شركات عقارية، أخذت تسمع وتقترب من المدينة، والمدينة تقترب منها على المحاور الرئيسية القديمة والمستجدة. ومن الأمثلة على ذلك في الشمال: ظهور حي شمال السلمانية الذي تغطي مطار الرياض القديم، وتوسع العليا وأم الحمام وظهور منطقة المغرقات والمرسلات، ومباني جامعة الملك سعود ثم مباني جامعة الإمام، ومجمعات الأسواق، وأخيراً أنشئ مطار الملك خالد في شمال المدينة وعلى بعد نحو ٥٠ كم من مركز الرياض. وفي الغرب أخذت الفراغات التي تفصل المدينة عن وادي حنيفة بالامتلاء وتحتلته باتجاه بعض الضواحي النامية في الوادي وإلى الغرب منه مثل: الدرعية وعرة ولبن وعريحا والبيدة وسلطانة وامتدت إلى السويدي ونمار. وخططت ضاحية ذوي الدخل المحدود في غرب العريحا وضاحية لبن للجامعيين وأصحاب المنح الصريحة وذلك في غرب وادي حنيفة.

وفي الشمال الشرقي استمر التوسع على محور طريق الدمام فظهرت إلى الشمال منه الأحياء: الروضة والأندلس وحي الملك فيصل والخليج والنهضة والجنادرية، وظهرت إلى الجنوب منه أحياء الربوة والمعارض والنسيم والسلي، وخشم العان وظهور بعدها النظيم على بعد نحو ٣٠ كم عن مركز الرياض.

وفي الشرق توسعت المنطقة الصناعية وتخطت خط سكة الحديد واتجهت نحو الجنوب الشرقي على جانبي طريق الخرج والتحت بمشاريع الإسكان للدفاع والطيران والأشغال العامة وإسكان المنطقة الصناعية ومصفاة الرياض على بعد ٢٠ كم عن مركز الرياض.

واستمر التوسع كذلك في الجنوب على محور طريق الحائر وفيها بينه وبين طريق الخرج فظهرت أحياء الغيرة وخنشلية والعزيزة والدار البيضاء. وعلى محور طريق الحجاز فتوسع الشفا وظهرت أحياء الزهيري وبدر والمعارض وحى الجامعيين وثامر وديراب والقواز حتى وصل العمران على بعد ١٨ كم من مركز الرياض في هذا الاتجاه.

استمر زحف المدينة في جميع هذه الاتجاهات حتى اتصلت معظم هذه الأحياء المتباعدة بعضها ببعض الآخر، وتقلصت بالتالي مساحات الفراغ فيها بينها، واتخذت المدينة شكلاً هندسياً يمتد مسافة تقرب من ٤٠ كم في أي اتجاهين متقابلين وبلغت مساحتها الإجمالية نحو ١٥٠٠ كم^٢، غير أن المساحات المبنية منها تقدر بنحو ٣٥٠ كم^٢ (١٥).

نمو سكان مدينة الرياض وتوزيعهم

يصعب تحديد أرقام تتعلق بعدد سكان مدينة حاجر وكذلك مدينة الرياض خلال تاريخها الطويل وحتى بداية القرن العشرين. فعددهما لم يكن ثابتاً أبداً نتيجة لعدم استقرار الأوضاع السياسية والاجتماعية وتعرضها باستمرار لفترات اضطراب الحكم وانتشار الأوبئة والكوارث الطبيعية والمجاعات في أوقات، أو لفترات الاستقرار والتوحيد والازدهار في أوقات أخرى، وانعكاس أي منها على تجمع السكان وتزايدهم أو تشتتهم وتناقصهم. ويمكن أن نعتبر تقدير بلجريف لعدد سكان الرياض في سنة ١٨٦٢م وهو (٧ - ٨) ألف نسمة (١٦) نموذجاً لعدددهم في وقت من أوقات ازدهارها خلال هذه الفترة الطويلة التي امتدت نحو ألفي سنة.

وشهد الثلث الأول من القرن العشرين الميلادي تأسيس واتساع وتوحيد المملكة العربية السعودية، ثم شهد استقراراً في الأوضاع السياسية يمتد لمدة طويلة لأول مرة في تاريخها، مما أدى إلى تجمع السكان وتزايد عددهم في مدينة الرياض عاصمة المملكة تزايداً مضطرباً. وشهد الثلث الثاني منه التطور الاقتصادي والإداري والاجتماعي نتيجة اكتشاف واستثمار الثروة البترولية مما أدى إلى تسارع هذه الزيادة في عدد سكان المدينة بشكل لم تعهده أبداً خاصة فيما بعد عام ١٣٩٤ هـ، ١٩٧٤م نتيجة التدفق السكاني الهائل من داخل المملكة ومن خارجها، لتوفر فرص العمل وللمساهمة في تنفيذ الخطط

الخمسية الطموحة حتى أصبحت الرياض من المدن المليونية. والجدول التالي يلخص نمو سكان الرياض في القرن العشرين:

جدول رقم (١)
تقديرات سكان الرياض خلال القرن العشرين

مسلسل	السنة	السكان	ما ساعد على التقدير
١	١٩٠٠، ١٣١٧هـ	٨٠٠٠	وثائق تاريخية
٢	١٩١٠م، ١٣٢٧هـ	١٠٠٠٠	وثائق تاريخية
٣	١٩٢٠م، ١٣٣٨هـ	١٩٠٠٠	جون فيلي
٤	١٩٣٠م، ١٣٤٨هـ	٢٧٠٠٠	بناء على وثائق تاريخية
٥	١٩٤٠م، ١٣٥٩هـ	٤٦٠٠٠	مكتب تخطيط المدن
٦	١٩٥٠م، ١٣٦٩هـ	٨٢٠٠٠	توتشل
٧	١٩٦٠م، ١٣٧٩هـ	١٥٥٠٠٠	مكتب تخطيط المدن
٨	١٩٧٠م، ١٣٩٠هـ	٣٥٠٠٠٠	عبدالرحمن الشريف
٩	١٩٨٠م، ١٤٠٠هـ	٩١٠٠٠٠	تخطيط المدن
١٠	١٩٨٥م، ١٤٠٥هـ	١٢٠٠٠٠٠	غازي مكي

كان لهذا التزايد السريع تأثيرات هامة على التركيب الاجتماعي للسكان وكذلك على توزيعهم وتوزيع كثافتهم وعلى تقسيمهم النوعي والعمرى والإنتاجي وغيرها. وبحسن بنا أن نتناول بعض هذه الآثار بالتحليل.

الأصل الانتمائي للسكان:

يتحدر سكان مدينة الرياض في الأصل وكذلك سكان مدن شبه الجزيرة العربية من أصول بدوية، وكان يخالطهم وافدون من أصول مختلفة بنسبة بسيطة. ولكن منذ نحو نصف قرن تزايد عدد الوافدين من داخل البلاد ومن خارجها حتى بلغت نسبتهم في سنة ١٣٩٧هـ ٥٧٪ من مجموع سكان الرياض حسب دراسة ست أنترناشيونال^(١٧)، ثم ارتفعت إلى ٦٩٪ في سنة ١٤٠٢هـ حسب دراسة

القباني^(١٨) ومن الملاحظ أن المقصود بالوافدين في تلك الدراسات هم الذين لم يولدوا في الرياض من ساكنيها.

لقد توافد المهاجرون من مختلف مصادر الهجرة وصار بالإمكان تقسيم سكان الرياض إلى أربع مجموعات هي :

(١) الذين ولدوا في الرياض.

(٢) المهاجرون من الريف والبادية.

(٣) المهاجرون من المدن.

(٤) الأجانب.

تختلف نسبة هذه الأصول في الرياض من حي إلى آخر حسب طبيعة ومستوى ووظيفة ذلك الحي. إذ ترتفع نسبة المهاجرين من الريف والبادية في بعض الأحياء خاصة الشعبية مثل حلة ابن دابل ومنفوحة والشميسي. وترتفع نسبة المهاجرين من المدن في بعض الأحياء الراقية كالقوطة والعليا والملاز. ورغم أن الدراسات أثبتت أن المهاجرين غير السعوديين زادوا زيادة هائلة في الفترة الأخيرة حتى بلغت نسبتهم في سنة ١٩٨٠ م ٢٨.٧٪ من سكان الرياض حسب دراسة القباني^(٢٠) وأنهم ينتشرون في جميع أحياء الرياض ؛ إلا أن مساحات واسعة في بعض الأحياء نشأت خصيصاً لإيواء القادمين الجدد فترتفع نسبتهم في تلك الأحياء أكثر من الأحياء الأخرى. مثل مجمعات عمال وموظفي الشركات الأجنبية في بعض الأحياء الواقعة في الشمال وعمال المنطقتين الصناعيتين في الجنوب الشرقي. وينطبق هذا الوضع على الفترة المبكرة من تاريخ تطور الرياض حيث تجمع القادمون من اليمن الشمالي في المناطق المجاورة للديرة والبطحاء.

وقد تنوعت مصادر الهجرة الأجنبية تنوعاً كبيراً واختلفت نسب هذه المصادر من وقت إلى آخر من أوقات النمو. فبعد أن كان اليمنيون الشماليون أكثر من نصف مجموع الأجانب في الرياض حتى سنة ١٩٧٢ م^(٢١). ارتفعت نسبة القادمين من البلاد العربية الأخرى خاصة مصر ومن دول جنوب شرق آسيا لا سيما الباكستان والفلبين وسريلانكا والهند وغيرها. وارتفعت كذلك نسبة القادمين من الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية مما أدى إلى تناقص نسبة القادمين من اليمن إلى درجة كبيرة.

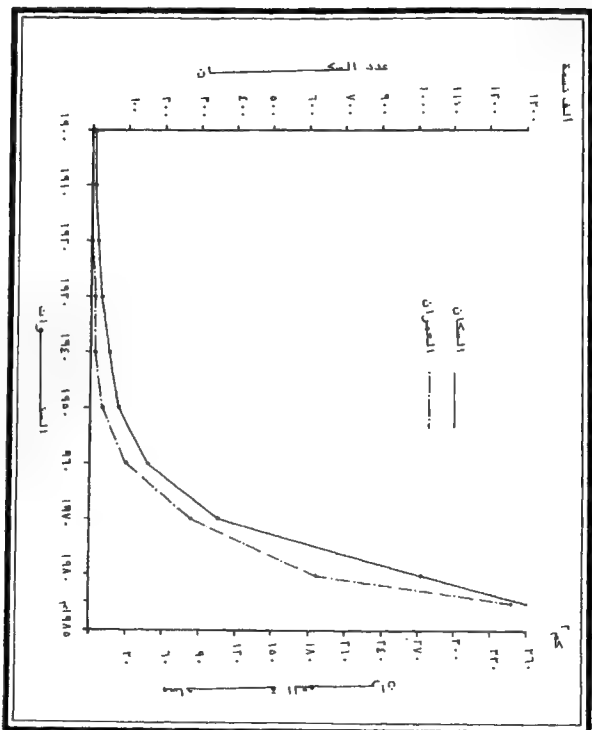
توزيع سكان الرياض:

كانت الرياض تتوسع من أطرافها، فتتشأ ضواحي متباعدة بدافع أن الأحياء القديمة تضيق عن استيعاب الزيادة الطارئة على السكان. وإذا توسع القلب التجاري للمدينة على حساب الأحياء السكنية المحيطة به، فنتجها الضغط السكاني إلى الحلقة التالية في الوقت الذي يستمر فيه التوسع الخارجي مما أدى إلى بقاء مناطق التوسع الحديث في الأطراف قليلة السكان لسهولة الانتشار فيها وتوفر الأراضي ورخصها نسبياً.

فخلال السبعينات من القرن العشرين فقدت المنطقة المركزية جزءاً من سكانها بسبب إزالة كثير من الأحياء الطينية وإنشاء الأسواق أو الشوارع أو مواقف السيارات وحتى بعض المباني المرتفعة. وكذلك بسبب استبدال استخدامها في أغراض غير سكنية كالمكاتب أو المستودعات بالرغم من إشغال المباني المرتفعة خاصة في طوابقها العليا بالأغراض السكنية. في حين زاد عدد سكان الحلقة الخارجية أيضاً ولكن بنسبة تقل عن زيادة الحلقة المحيطة بالمركز التجاري وذلك بسبب وجود الفراغات ومرونة هذه الأحياء وتوسعها من الأطراف. وهذا يدل على ارتباط زيادة السكان بالتوسع العمراني ارتباطاً وثيقاً ويؤكد ذلك أن حساب معامل ارتباط بيرسون بين هاتين الظاهرتين من واقع جدول تقدير تزايد السكان والعمران كل عشر سنوات ابتداء من بداية هذا القرن بلغت ٩٨,٠. والشكل (٣) يوضح خطي التزايد لكلا الظاهرتين. خلال القرن العشرين.

الكثافة السكانية في الرياض:

كانت الكثافة السكانية مرتفعة جداً في الرياض القديمة بسبب تجمع البيوت وضيق الطرقات والمساحات وعدم وجود فراغات، وهذا مرتبط بانخفاض مستوى المعيشة، بالرغم من قلة ارتفاع المباني. ويمكن تقدير الكثافة خلال الثلث الأول من القرن العشرين بـ ٣٥٠ نسمة/هكتار، وكانت أي زيادة في عدد السكان تقتضي توسعاً في المساحة على شكل حلقي. ثم أخذت الكثافة سبيلها إلى الانخفاض التدريجي بسبب التوسع السريع بالمساحة وارتفاع مستوى البيوت الجديدة خاصة بعد أن انطلقت المدينة دون قيود خارج الأسوار. ثم أخذت كثافة هذه الأطراف سبيلها إلى الانخفاض السريع مما جعل بالإمكان التمييز في الكثافة بين الأحياء القديمة والأحياء الجديدة لا سيما الموجودة في شمال وغرب المدينة (٢٢)



• شكل (٣) نمو السكان والعمران بمدينة الرياض بين ١٩٠٠ - ١٩٨٥ م

تزال أعلى مناطق الرياض كثافة بالسكان بالرغم من إزالة معظم الأحياء القديمة منها، ثم تتناقص هذه الكثافة باتجاه الأطراف (شكل ٤) SCET Inc. (٢٣) بسبب ارتفاع مستوى المباني وتباعده الأحياء واتساع الشوارع والمساحات واتساع المساحات المستخدمة في غير الاستخدام السكني.

ومثلما كانت المنطقة المركزية والحلقة المحيطة بها مزدحمة بالسكان فهي مزدحمة كذلك بعدد المباني وبكثافتها وبارتفاع كثافة الغرف في أحيائها لا سيما في الأحياء المنخفضة أو المتوسطة المستوى مثل منفوحة والعود والأحياء الواقعة في غرب المركز التجاري، حيث زادت كثافة أو ازدحام الغرف فيها عن ٢ فرد/غرفة، بالقياس إلى ١,٥ فرد/ الغرفة كمتعدل للمدينة ولأقل من ١ فرد/ غرفة في معظم الأحياء الخارجية حسب دراسة ست أنترناشيونال.

حجم الأسرة في الرياض:

ومن الظواهر الديمغرافية التي تعرضت للتغيير خلال فترة نمو الرياض حجم الأسرة. إذ كانت تسود في الرياض وجميع مدن الإقليم الأسرة الكبيرة الممتدة. وقد أثبتت الدراسات أن حجم الأسرة اتجه إلى التناقص في المراحل الأولى من هذه الفترة، فبعد أن بلغ معدل الحجم ٧,٥ فرد/ الأسرة في سنة ١٩٣٥م حسب تقدير دوكسادس انخفض إلى ٦,٢ فرد/ الأسرة سنة ١٩٦٠م^(٢٤) لكنه اتجه إلى الارتفاع ثانية في المراحل التالية فبلغ حسب إحصاء ١٣٩٤، ١٩٧٤م ٦,٢ فرد/ الأسرة، وإلى ٦,٣ فرد/ الأسرة حسب دراسة ست أنترناشيونال، وإلى ٦,٦ فرد/ الأسرة حسب دراسة القباني^(٢٥) ويعود ذلك إلى تزايد مستوى وحجم المباني على نظام الجماعات التي تزيد عندهم نسبة الخدم والسواقين، مثل معظم الأحياء الواقعة في شمال الرياض.

التركيب النوعي لسكان الرياض:

قد يكون التركيب النوعي والعمراني أكثر الظواهر الديمغرافية تأثراً بالهجرة إلى المدينة. فبالنسبة للتركيب النوعي اتجهت نسبة الذكور إلى مجموع سكان الرياض إلى الارتفاع المطرد منذ بدء التطور الحديث في المملكة بسبب تزايد تدفق المهاجرين لأغراض العمل أو التعلم أو التزود بالخدمات، وأغلبهم من الذكور. وتزايدت نسبتهم في الرياض بتزايد تدفق الهجرة، إذ بلغت نسبة الذكور في الرياض ٥٧٪ من مجموع سكانها سنة ١٩٦٢م، ارتفعت إلى ٥٨,٨ حسب إحصاء سنة ١٩٧٤م^(٢٦).

أي أن نسبة الذكور ارتفعت من ١٣٣ إلى ١٤٣ ذكر لكل ١٠٠ أنثى فيما بين التاريخين المذكورين.

التركيب العمري لسكان الرياض:

يتصف المجتمع السعودي بالفتوة أي بارتفاع نسبة صغار السن، إذ يؤخذ من إحصاء ١٣٩٤هـ أن نسبة من هم دون ١٥ عاماً بلغت في الرياض ٤٣٪ من مجموع السكان، علماً بأن قسماً كبيراً ممن تزيد أعمارهم عن ذلك يحسبون ضمن المعالين مثل الطلاب والنساء وكبار السن، وهذا يرفع من نسبة الإعالة ويزيد من التبعات على الأفراد العاملين وعلى الدولة.

ومع ذلك فإن تزايد تدفق الهجرة لا سيما في الفترة الأخيرة أدى إلى تزايد نسبة متوسطي الأعمار على حساب الأعمار الكبيرة لأن دوافع الهجرة لا تستقطب الشباب فقط بل الذكور منهم، فارتفعت نسبة من هم بين سن ١٥ - ٥٥ سنة إلى ٥٣٪ من مجموع السكان في حين أن من تجاوزت أعمارهم سن الخامسة والخمسين لم يزدوا عن ٤٪ فقط، مما يوضح أثر الهجرة دون لبس.

إن النمو العمراني والسكاني يؤثر على حياة المدينة وتركيبها وينعكس في طرق وأساليب استخدام الناس للأرض وفي تأمينهم مواردهم وحاجاتهم وهذا ينقلنا إلى الفقرة التالية.

التركيب الوطني في مدينة الرياض

خضعت استعمالات الأرض داخل مدينة الرياض إلى تغيير كبير ومستمر نتيجة طبيعية لنمو المدينة وتوسعها، فقد تركزت الوظائف الإدارية والثقافية بشكل لم يعهد بهما من قبل. ونال القطاع التجاري، وأعمال الإنشاء، والخدمات الحكومية، والشخصية، رواجاً هائلاً. وتبلور قطاع صناعي هام توسع في الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة. واتسعت المساحات الخضراء نتيجة لانضمام مساحات واسعة من وادي حنيفة وروافده وبساتينه، ونتيجة لكثرة الحدائق وملاعب الأطفال التي أنشئت في المرحلة الأخيرة (٦٠ حديقة)، ونشاط حركة تشجير الشوارع والأحياء حيث زرعت الأمانة ٨٠٠٠٠ شجرة^(٣٧). ومع ذلك فإن نسبة الأحياء والمناطق السكنية كانت تغطي على أي توسع خلال المراحل المذكورة، ومثلها المساحات القضاء نتيجة اتساع الحدود الخارجية للمدينة وتباعد الضواحي بعضها عن بعض. والجدول رقم ٢ يقارن بين مساحة الاستخدامات المختلفة في الرياض في عامي ١٣٩٢هـ، ١٤٠٠هـ.

جدول رقم (٢)

مساحة استعمالات الأرض في مدينة الرياض عامي ١٣٩٢هـ، ١٤٠٠هـ
بالدونم

نوع الاستخدام	سنة ١٣٩٢هـ	النسبة %	سنة ١٤٠٠هـ	النسبة %
السكنى	٣٢٢٥٠	٤٦,٧	١٠٠٠٠	٥٣,٩
الحكومي	٣٥٠	٠,٥	١٥٠٠	٠,٩
التجاري	١٢٠٠	١,٧	١٩٠٠	١,١
الصناعي	٢٠٥٠	٣	٢٥٠٠	١,٥
الديني	٢٥٠	٠,٤	٦٠٠	٠,٤
التخزيني	١٠٠٠	١,٤	٢٠٠٠	١,٢
التعليمي	١٧٥٠	٢,٦	٢٣٠٠	١,٤
الترفيهي	٩٠٠	١,٣	٠٤٠٠	٠,٨
الصحي	٣٦٠	٠,٥	٢٥٠٠	١,٥
المقابر	٦٦٠	١	٨٠٠	٠,٥
النقل (جوية، سكة حديد)	٢٠٠٠	٢,٩	٣٢٠٠٠	١٨,٩
الشوارع	٢٦٤٠٠	٣٨,٣	٣١٠٠٠	١٨,٣
الدفاع	٣٠	-	١٥٠٠	٠,٩
مجموع الاستعمال	٦٩٢٠٠	١٠٠	١٧٠٠٠٠	١٠٠

المصادر: استخلصت أرقام ١٣٩٢هـ من دراسة الشريف، مدينة الرياض ١٩٧٦، وأرقام ١٤٠٠هـ من: (scet Int./Sedes, 1979. P-102)

يوضح هذا الجدول تطور كثافة استعمالات الأرض في مدينة الرياض بمختلف أنواعها بين عام ١٣٩٢هـ أي قبل أن يبدأ صندوق التنمية العقاري وبقية البرامج الإنمائية في مزاولة نشاطاتها وعام ١٤٠٠هـ حيث ساهمت خطط التنمية في دفع عجلة البناء في كافة الاستخدامات. وأهم ما يؤخذ منه

أن اتساع المدينة في عهده الطفرة انعكس على أنواع الاستخدام بنسب متفاوتة نظراً لسرعة النمو واختلاف دوافعه، فالاستخدام السكني هو الاستخدام الطاغى والرئيسي ويشغل أكثر من نصف مجموع الاستخدام والذي يتميز بانتشاره في جميع الأحياء، فقد زادت نسبة انتشاره بين التاريخين ٥,٥٪ بسبب اتساع المساحات التي خضعت لبناء المساكن في خارج المدينة. ويمكن أن يقال مثل ذلك عن كل من الاستخدامين الحكومي والصحي رغم ضآلة النسبة التي يشغلها كل منهما، إذ لم تتجاوز مساحة الأول ١٪ والثاني ١,٥٪ من مساحة الاستخدام في سنة ١٤٠٠هـ. ويعود ذلك إلى التوسع الكبير في بناء المنشآت الخاصة باستخدامها في الرياض. (شكل ٥).

أما استخدام النقل فقد زادت مساحته بشكل خيالي حيث تضاعفت بقدر ١٦ مثل ما كانت عليه في عام ١٣٩٢هـ، بفضل ضم مساحة مطار الرياض القديم وحرم سكة الحديد داخل حدود الرياض. وأما باقي الاستخدامات، فبالرغم من التوسع الهائل في المساحة التي يشغلها كل منها حيث تراوح التوسع ما بين ٢٥ - ١٠٠٪ فبا بين هذين التاريخين، فإن نسبة ما يشغله أي منها لم يحار توسع المدينة ذاتها وبالتالي وجدنا أن نسب تلك الاستخدامات قد تراجعت عما كانت عليه في التاريخ الأول. (شكل ٦).

وقد ظهرت آثار هذا التوسع في استخدام الأراضي في كافة أحياء مدينة الرياض غير أن كثيراً من الأحياء الموجودة حالياً كانت وليدة هذه الطفرة المعمارية الكبيرة، ولم تكد تتبلور الاستخدامات فيها بعد، وظهر بعضها وكأنه أنشئ من أجل استخدامات معينة مثل منطقة المصانع الجديدة والحي الصناعي اللذين يزداد فيهما الاستخدام الصناعي عن الاستخدامات الأخرى. ومثل الدرعية وعرة ولبن التي تزداد فيها المساحات الخضراء أكثر من المناطق الأخرى، ومثل أحياء: الملك عبد العزيز والتزهة والجنادرية وغيرها والتي يمثل الاستغلال السكني الاستغلال الوحيد في كل منها حتى الآن. ولكن يجب أن لا يغرب عن البال أن معظمها لازال في طور البناء وستظهر فيها بعض الاستخدامات الأخرى بالتدريج.

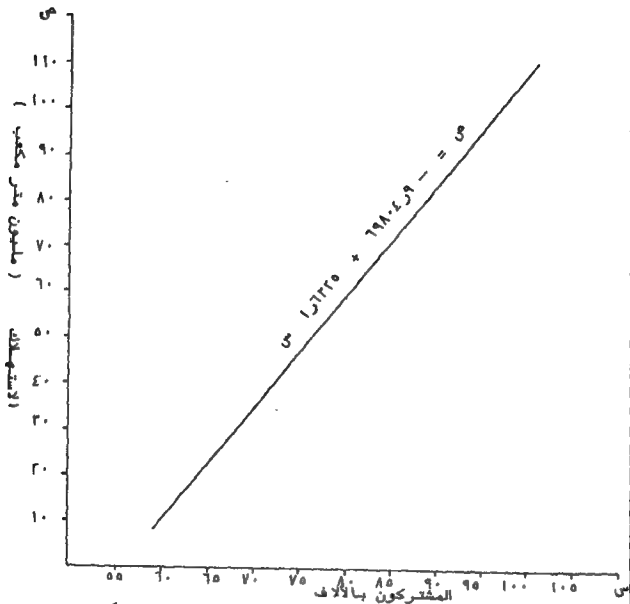
أما الاستخدام التجاري والذي هو مركزي بطبيعته فهو يشغل في الأصل قلب المدينة التجاري، وقد توسعت مساحته مع توسع القلب التجاري وغطى عدداً كبيراً من الأحياء المتجاورة، ويتمدد في الحلقة التالية من الأحياء عن طريق محاور الشوارع التي تنطلق من المركز إلى الأطراف. وقد ظهر الاستخدام التجاري كذلك في وسط كل من الضواحي القريبة والبعيدة، وهو في سبيله إلى التوسع ابتداء من تلك المراكز ومن نوى جديدة خططت لتكون أسواقاً في مراكز الأحياء الجديدة منذ



إنشائها. لقد أنشئت الأسواق المركزية (سوبرماركت) في الرياض متأخرة، إلا أنها انتشرت بسرعة هائلة نتيجة التغير الاقتصادي والاجتماعي السريعين حتى أن عددها ارتفع من ٣٢ سوقاً في سنة ١٣٩٩هـ^(٢٨) إلى ٢٤٨ سوقاً سنة ١٤٠٥هـ^(٢٩) ومع ذلك فإن الأسواق العادية والدكاكين لازالت تتبوأ مركزاً هاماً بديل توسعها في منطقة قلب المدينة التجاري والأحياء القديمة وانتشارها في الضواحي الجديدة.



مقدم لوزارة البلدية والقروية - وكالة تخطيط المدن



• شكل (٧) خط الحدار استهلاك الماء في الرياض / المشاركين •

باللامركزية وتنتشر أو لا بد لها أن تنتشر. في جميع الأحياء. ولو أن كثافتها لازالت في الأحياء داخل المدينة تفوق كثافتها في الأحياء الجديدة أي أن انتشارها لم يستطع أن يجاري توسع المدينة. ومع ذلك فقد ظهر الكثير من الاستثناءات لهذا التوزيع أي وجود أحياء يتركز فيها الاستخدام التعليمي كحي جامعة الملك سعود وعليشة والمربع الشمالي. وأحياء يكاد ينعدم فيها هذا الاستخدام بسبب حداثتها. والمباني الإدارية كذلك. ولو أنها منتشرة في عدد كبير من الأحياء إلا أنها تبدو أحياناً وكأنها متركزة في بعض الأحياء أكثر من الأحياء الأخرى مثل الديرة والمربع وشارع المطار.

• كفاءة تأمين موارد المدينة خلال فترة النمو •

إن سرعة تطور ونمو مدينة الرياض بهذه النسب يطرح تساؤلاً هاماً هو: هل استطاعت حركة إنشاء المرافق العامة وتأمين موارد المدينة وحتى تأمين الخدمات أن تسير ذلك التطور وتؤمن الاحتياجات؟ لأنه إذا لم يتحقق ذلك فإن مشاكل هامة - أو أزمات كما اصطلح على تسميتها - سوف تنشأ عن عدم تزامن وتناسق تأمينها مما يكون له بالغ الأثر على حياة السكان. أما الإجابة على هذا التساؤل فهي ليست من السهولة بمكان. وهي تختلف حسب طبيعة ونوع المرفق أو الخدمة أو درجة الاحتياج لها. ويحسن بنا أن نستعرض طريقة تأمين وحل أهم هذه المرافق والخدمات.

أ - تزويد مدينة الرياض بمياه الشرب:

كانت مدينة الرياض القديمة تزود بمياه الشرب من الآبار الخاصة داخل البيوت، وهي آبار ضحلة محدودة المياه. وحين زاد الطلب على المياه، بدأت منذ أواسط القرن العشرين، تعتمد على مياه آبار عميقة تتباعد أماكنها عن المدينة شيئاً فشيئاً وتسحب إليها المياه بالأنابيب، حيث حفرت الآبار العميقة أولاً في دخنة وفي البطحاء. ثم في المربع. ثم في السويدي وبوادي نمار ثم في وادي حنيفة قرب مصب وادي لبن، وقرب عرقه ومن أماكن أخرى.

وقد أنشئ في الرياض منذ تلك الفترة ثلاثة خزانات في منفوحة والشميسي والمزل لتجميع المياه وتوزيعها في المدينة من خلال ثلاث شبكات للتوزيع. ولكن زيادة الاستهلاك اقتضت سحب المياه من أماكن أبعد من ذلك. أي من منطقة الحائر ومن وادي نساخ ولحا. حتى بلغ مجموع المياه المستهلكة في الرياض من مختلف هذه المصادر ٢٨٣١٤٠٠٠ م^٣ سنة ١٩٧٣ م. وذلك من قبل ٦٨١٩٤ مشتركاً^(٣٠).

اقتضت هذه الظروف الحرجة إنجاز مشروع حديث لمعالجة وتوزيع المياه بالرياض بدأ الشروع فيه منذ سنة ١٩٦٥م، وتضمن إنشاء محطات معالجة أولية قرب مجموعات الآبار، ومحطات تنقية، وإنشاء خطوط النقل الرئيسية وخطوط التوزيع الجديدة، وإنشاء خزان مركزي في حديقة الشمسية، وإزالة العمل جارياً في توسيع شبكة التوزيع على البيوت. وفي أثناء ذلك أمكن الاستفادة من مصادر جديدة، فند سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م أمكن الاستفادة من مياه منطقة صلبوخ، ومن منطقة البويب في شمال المدينة. ومنذ سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م أمكن الاستفادة من مياه تكوين الوسيح - البياض من منطقة تقع على بعد ١٠٠ كم في شرق مدينة الرياض، وكذلك الاستفادة من المياه المزالة ملوحتها في الجليل على الخليج والمنقولة بالأنابيب لتخلط بمياه تكوين الوسيح.

ولذلك ارتفعت كمية المياه المستهلكة في الرياض في سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م إلى ١٠٨٨٩٣٣٧٠ م^٣ أي نحو أربعة أمثالها قبل عشرين سنة ولكن عدد المشتركين زادوا إلى ١٠٤٠٠٠ مشترك أي بزيادة ٥٣٪ فقط خلال نفس الفترة^(٣١). وهذا يعني وجود صلة إيجابية بين زيادة عدد المشتركين وكمية الاستهلاك، ولكنها تعني وجود عوامل أخرى بالإضافة إلى زيادة السكان تدعو إلى زيادة الاستهلاك زيادة متعاضمة وأنها تستمر مرتفعة في المستقبل القريب. لقد ظهر أن معامل ارتباط بيروسون بين كمية الاستهلاك وعدد المشتركين خلال الفترة الماضية بلغ ٠,٦٣، والشكل رقم (٧) يوضح العلاقة الارتباطية بينها ويساعد في تصور كمية الاحتياجات المائية في المستقبل والتي تبلغ في حدود ١٩٥ مليون م^٣ في سنة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

ومن حساب معامل التحديد (R^2) الناتج عن معامل الارتباط المذكور (والشكل ٧) نستدل على أن ما لا يقل عن ٤٠٪ من زيادة استهلاك الماء في مدينة الرياض يعود إلى عامل الزيادة السكانية وليس إلى محض الصدفة. ولكن يمكن تفسير ما لا يقل عن هذه النسبة إلى عامل تزايد معدل الاستهلاك الفردي في مدينة الرياض في تلك الفترة. إذ تشير الإحصائيات إلى أن معدل الاستهلاك الفردي ارتفع في الرياض من ١٧٢ لتر/ يوم في سنة ١٩٧٠م إلى ٢٤١ لتر/ يوم في سنة ١٩٨٣م^(٣٢). ويتجه هذا المعدل إلى الارتفاع أكثر من ذلك في المستقبل.

وبالرغم من الجهود الهائلة التي بذلت لتأمين الرياض بالموارد المائية فإن اتساع المدينة بهذا الشكل وتباعد أحيائها يجعل من الصعوبة بمكان تحقيق الكفاءة المطلوبة لشبكة التوزيع ولا زالت بعض

الأحياء الجديدة الخارجية تعتمد على مياه سيارات الصهاريج لتأمين حاجتها. ومعروف ما لذلك من مخاطر. وإذا حلت المشكلة من الناحية الكمية يجلب المياه المزالة ملوحتها من الجبيل، فإنه لا يمكن الاعتماد على المياه المجلوبة فقط، بل لا بد من خلطها بالمياه المحلية. وهذا يقتضي تحقيق توازن بين كمية المياه المستعملة من المصدرين بحيث لا يتزايد الاستنزاف المحلي عن طاقة الخزانات المحلية، أي بحيث لا يؤثر السحب على مستوى المياه الجوفية وبالتالي على نسبة ملوحتها. وهذا يطرح ضرورة ترشيد الاستهلاك عامة وتقليل نسبة الكيماويات الضائعة في الشبكة والمفقودة في الاستعمالات غير اللازمة أو في الاستعمالات التي يمكن استعمال مصادر بديلة عنها. وتشجيع الصناعات التي لا تحتاج لاستهلاك كميات كبيرة من المياه، وإمكانية دراسة تطبيق تكتيك جديد لأنظمة الماء المدني والشبكات بحيث توفر الاستهلاك أو تضبطه كاستعمال محابس وحفريات خاصة، والإقلاع عن استعمال المكيفات الصحراوية.

ب - معالجة المياه المستعملة

لم يكن في الرياض القديمة نظام مجار للتخلص من الفضلات، وكانت البيوت تعتمد على الحفر الامتصاصية للتخلص منها، ولكن نمو المدينة وتزايد سكانها أدى إلى تفاقم هذه الأوضاع بارتفاع مستوى المياه الباطنية وتلوثها، مما دعا إلى البدء منذ سنة ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م بتنفيذ المرحلة الأولى من مشروع شبكة المجاري. وفي سنة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م أنشئ مشروع معالجة مياه المجاري في الرياض والذي بلغت طاقته الإجمالية في سنة ١٩٧٩م ٥٠٠٠٠ م^٣/يوم، وارتفعت إلى ١٢٠٠٠٠ م^٣/يوم في سنة ١٩٨٤م. ومن المخطط أن تصل الآن ٢٠٠٠٠٠ م^٣/يوم حينما تعمل جميع الوحدات (٣٣) ولكن شبكة التجميع لم تستطع أن تغطي حتى سنة ١٩٨٢م جميع الأحياء الداخلية في الرياض، وبالتالي فإنه يستحيل عليها أن تغطي الأحياء الخارجية لا سيما البعيدة في غضون فترة محدودة.

لقد قامت محطة المعالجة والمقامة في جنوب الرياض بمعالجة ٧٤٦٩١ م^٣/يوم في عام ١٩٨٢م وبذلك استطاعت أن تزود مصفاة البترول بما مقداره ٢٠٠٠٠ م^٣/يوم وتزود الحقول الزراعية في كل من الدرعية وديراب بلقاء للري. وستزداد هذه الكميات المعاد استعمالها في المستقبل (٣٤). وينصح بأن تصرف لأغراض التشجير في المناطق الخضراء والحدائق ولزيد من الاستعمال الصناعي والإنشائي حتى يقتصر استعمال المياه العذبة الجيدة على الاستعمال المنزلي.

وإلى جانب مشروع المجاري بدأ العمل بتنفيذ مشروع تصريف مياه الأمطار في بعض الشوارع الرئيسية في مدينة الرياض خاصة البطحاء وشارع الشمسي الجديد وطريق مكة أو جزءاً منه وفي منطقة غراني والمزر. ولذلك فإن هذا المشروع لا يغطي سوى جزء من المدينة الداخلية.

ج - التخلص من القمامة والفضلات الصلبة

حتى منتصف هذا القرن كان عمال البلدية ينقلون الفضلات الصلبة من البيوت ومن الأحياء بواسطة الحيوانات. وفي أوائل الستينات وضع ١٥٠ صندوقاً حديدياً في مختلف الأحياء، وكانت محدودة المساحة حتى ذلك الوقت، ثم تنقل القمامة منها بواسطة السيارات إلى خارج حدود البلدية^(٣٥). ومع اتساع المدينة كان يتطور جهاز التنظيف، وصار يقوم بجمع الفضلات من الشوارع يومياً منذ سنة ١٣٩٢هـ. غير أن توسع المدينة الهائل وزيادة سكانها المفاجيء في الفترة التالية جعل جهاز التنظيف التابع للأمانة عاجزاً عن القيام بمهامه حتى وصل الوضع إلى درجة بالغة السوء، مما اضطر الأمانة للتعاقد مع شركات كبيرة للقيام بمهمة النظافة منذ سنة ١٣٩٦هـ. وقد تجهزت هذه الشركات بالعمال والآليات اللازمة لذلك حتى عادت الرياض نظيفة جميلة رغم اتساعها.

د - تزويد الرياض بالطاقة

كانت مشكلة التزود بالوقود في الرياض تحل بطريقة فردية، إذ كان كل ساكن يحرص على تأمين الحطب والفحم والشمع والنفط. غير أن التغير الحضري اقتضى استخدام الأجهزة الحديثة والأدوات التي تستعمل النفط أو الكهرباء، وزاد هذا الاستخدام بسرعة كبيرة خلال فترة نمو المدينة وصار النفط يجلب بواسطة الشاحنات من المنطقة الشرقية. ثم قامت شركتان بتوزيع الغاز المسال والمعبأ في اسطوانات فولاذية على المستهلكين. وفي سنة ١٣٨٢هـ أسست بترومين التي أنيط بها مهمة توزيع مشتقات البترول وأنشئت مصفاة الرياض في سنة ١٣٩٤هـ لتزويد المنطقة الوسطى بمنتجاتها، والتي تزايد إنتاجها حتى بلغ (٤٦,٦٦٣,٠٠٠ برميلاً) في سنة ١٩٨٣م^(٣٦) وتزويد هذه الكمية عن حاجة المنطقة الوسطى.

بدأ مشروع إنارة الرياض في نحو ١٣٧٠هـ، ١٩٥١م بتركيب ١٢٨٩ مصباحاً تعمل على الكيروسين في الشوارع. وأنشئت في نفس الوقت بعض المحطات الصغيرة الفردية لتوليد الطاقة الكهربائية^(٣٧)، كما أنشئت محطتان كهربائيتان للخاصة الملكية ومحطة ثالثة لبلدية الرياض. وفي سنة ١٩٥٦م، ١٣٧٦هـ أنشئت شركة كهرباء الرياض وضواحيها التي اشترت محطة البلدية ومولدات جديدة، ثم أدخلت توسيعات مستمرة على وحداتها التي تستهلك الديزل والوقود، ثم ضمت محطات الخاصة الملكية إليها. وأنشأت الشركة وحدات جديدة وركبتها في شرق

المنطقة الصناعية وغيرها. ومنذ أواسط العقد الماضي اندمجت شركة كهرباء الرياض بجميع الشركات في المنطقة الوسطى لتكوين «الشركة السعودية الموحدة للكهرباء في المنطقة الوسطى» والتي أنتجت من الطاقة ٧٤٩٧١٥١ ميجا.و.س. موزعة على ٣٩٢٧٨٣ مشتركاً في عام ١٩٨٣م^(٣٨) فإذا علمنا أن في الرياض وحدها في ذلك العام نحو ٢٤٠٠٠٠ مشترك فإن استهلاك الرياض يبلغ نحو ٦٠٪ من هذه الكمية تقريباً.

هـ تأمين الرياض بالمواد الغذائية :

إن ظهور مدينة مليونية في وسط بيئة صحراوية يثير التساؤل عن إمكانية تأمين هذه المدينة بالمواد الغذائية. وبالرغم من أن منطقة الرياض فقيرة من السابق بإنتاج مواد الغذاء بسبب ضآلة مساحات الأرض الزراعية وضعف الثروة العشبية والحيوانية، فإنها لم تكن تعاني من مشكلة النقص في المواد الغذائية لصغر الكميات المطلوبة لهذا الغرض إلا في أوقات حرجة كأيام الحروب والمجاعات. وبعد منتصف القرن العشرين توسعت الأراضي المنتجة للمواد النباتية والحيوانية في إقليم الرياض وفي بعض الأقاليم الأخرى من المملكة، إلا أن هذا التوسع لم يحار نمو المدينة وتزايد عدد سكانها وزيادة استهلاكهم بسبب ارتفاع مستوى معيشتهم. وكان الطلب على المواد الغذائية يتزايد باطراد.

لقد تزامن ظهور هذه المشكلة وتعمدها في وقت بدأت تزدهر فيه المملكة اقتصادياً فحلت المشكلة منذ وقت مبكر بالاستيراد، وأخذ الاستيراد يتزايد ويتضاعف بسبب زيادة الطلب عليها وسهولة استيرادها مع النمو الاقتصادي وتحسن البنية التحتية لا سيما تطور وسائل النقل بمختلف أنواعها، وقد تزايدت قيم الاستيراد من المواد الغذائية النباتية والحيوانية والمصنوعة بنسبة كبيرة بعد سنة ١٩٧٣م حتى بلغت قيمة المواد النباتية والحيوانية المستوردة في سنة ١٩٨٤م ٣٥٥٥ مليون ريال سعودي^(٣٩) أي ما نسبته ١١,٤٪ من مجموع الواردات في ذلك العام.

و - النقل والمواصلات

إن تطور وسائل النقل ملازم للتطور الاقتصادي كملازمة السبب والنتيجة، ولذلك فقد تطورت وسائل النقل وطرق المواصلات في مدينة الرياض العاصمة منذ منتصف القرن العشرين أكثر وأسرع من أي مكان آخر في المملكة، يدل على ذلك أن عدد المشتغلين في قطاع النقل والتخزين كان في الرياض ١٢٠٠٠ فرداً في سنة ١٣٩٤هـ^(٤٠)، وقدرت ست أنترناشيونال أن العدد سيكون في حدود

٢٥٠٠٠ في سنة ١٤٠٥هـ، وأن نسبتهم سترتفع من ٦٪ إلى ٧٪ من مجموع العاملين في كل من التاريخين^(٤١). ولكن هذا العدد يتوزع على المجالات التالية:

النقل الجوي

أنشئ مطار الرياض سنة ١٩٥٣م وساهم في نقل الأفراد من الرياض إلى المطارات الداخلية والخارجية وإليها. وقد خضع لسلسلة من التحسينات المستمرة نتيجة لزيادة الطلب على خدماته، كما خضعت طائراته للتجديد والتحسين وزيادة حتى ارتفع عدد القادمين إلى مطار الرياض والمغادرين منه من ٤٩٢١٠٤ راكباً سنة ١٩٧٤م إلى ٥٦٣٦٢٣٩ راكباً سنة ١٩٨٣م^(٤٢). ومع ذلك فقد هجر الطيران المدني هذا المطار في أواخر ذلك العام بعد تشغيل مطار الملك خالد الدولي ذي الإمكانيات الضخمة التي لم تشغل بكل طاقتها حتى الآن.

النقل بواسطة سكة الحديد

يربط خط سكة الحديد الوحيد في المملكة الرياض بالدمام، وقد أنشئ في سنة ١٩٥١م وساهم في إنعاش الحركة الاقتصادية في ذلك الوقت. ولكن التطور الاقتصادي والاجتماعي السريعين أدباً إلى عجز هذا الخط عن منافسة وسائل النقل الأخرى كالتائرات والسيارات التي كانت أكثر مرونة في مجارة الوضع الجديد، مما جعل مساهمته في نقل الركاب والبضائع والتي كانت تتطور ببطء تعجز عن مجارة حركة التنمية. وقد بلغت مساهمته في عام ١٩٨٣م نقل ٧٢٥١١ راكباً و٥٠٩١٦٣ طنناً من البضائع من محطة الرياض وإليها^(٤٣). ولذلك فقد أنشئ في أواخر هذه الفترة خط آخر حديث يسير بين المدينتين، فزيد عدد العربات والآليات عما كان في السابق.

النقل بواسطة السيارات:

لم يكن في شبه الجزيرة العربية طرق «مزلتة» حتى منتصف القرن العشرين، وقد بدأ إنشاء هذا النوع من الطرق في الرياض منذ سنة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م. لكنه توسع بسرعة هائلة قد تكون أسرع من حركة التنمية عامة، حيث بلطت جميع الشوارع الرئيسية والمحاور في المدينة وأنشئت الطرق الخارجية، وصارت الرياض عقدة مواصلات برية تشع منها الخطوط الخارجية التي تصلها بأطراف المملكة وبالخارج.

وتبعاً لذلك فقد زاد استعمال السيارات زيادة هائلة، يدل على ذلك أن المملكة زادت من استيرادها السنوي للسيارات من ٥١١٣٤ سيارة من مختلف الأنواع سنة ١٩٧٣م إلى ٤٢٣٩٠٦ سيارة في سنة ١٩٨٣م (الكتاب الإحصائي السنوي العدد ٩، ١٩). وقد استمرت حركة إنشاء الطرق الداخلية وتحسينها كمعاملات التوسيع وإحداث الكباري والأنفاق عند التقاطعات الرئيسية، وإنشاء الأرصفة وتشجيرها وأعمال الصيانة، وإنشاء الطرق في الأحياء الخارجية قبل إعمارها، وتحسين مداخل المدينة.

كان النقل يعتمد في الفترة الأولى من إنشاء الطرق على السيارات الخاصة وسيارات الأجرة الصغيرة. وقد بدأت الحافلات الصغيرة تقوم بنقل الركاب على خطوط محدودة منذ سنة ١٩٧٠م، ثم قامت مؤسسة النقل الجماعي التي تستعمل الحافلات الكبيرة بعملية النقل منذ أواسط العقد الماضي وتطورت خدماتها حتى صارت تشغل ٢٩٠ حافلة تعمل على ٢١ خطاً توصل بين أهم الأحياء المزدهمة بالسكان في عام ١٩٨٤م.

البرق والبريد والهاتف

لقد نفذ في الرياض خلال فترات الخطط الخمسية الثلاث مشاريع كثيرة لتوفير الخدمات البريدية والهاتفية والبرقية والتللكسية، بعضها في المراكز الرئيسية وبعضها في فروع فتحت في مناطق مختلفة من المدينة سواء في الأحياء القديمة أو الحديثة. فقد أنشئ مجمع بريد مركزي يتكون من ثمان طوابق و ٢٥ شعبة بريدية، و ١٤ مكتباً للبرقيات تتسع ٢٥٣٠٠٠ خط، بالإضافة إلى ٩٥١ خط هاتف عملة ١٨٠٣: هواتف سيارة حتى سنة ١٩٨٥م. وهذا يعني أن هذه الخدمة قد تطورت بشكل يساير تطور المدينة وتنميتها.

الحكمة

وقبل الختام يجدر بنا التوقف والتأمل والتساؤل: هل كان من الحكمة أن يطلق العنان لتوسع مدينة الرياض على تلك الشاكلة؟ وهل من الحكمة الاستمرار في هذا الاتجاه؟ وكيف يمكن تجنب المشاكل الناتجة عن مثل هذا التوسع؟ فالأمر يقضي أن يتم التوسع ببطء وضمن قيود تحددها تجنب الاضطراب الناتج عن عدم توصيل الخدمات إلى كل أنحاء المنطقة المبنية، وتأمين استخدام المرافق في الوقت وبالكميات اللازمة، وضمان تشغيل وصيانة تلك المرافق والخدمات وفي جميع المناطق مستقبلاً، لأن طبيعة بعض المرافق تقتضي التوسع فيها ببطء

ولا تستطيع مسايرة التمدد الحاصل معها بذل في سبيلها من جهود مثل شبكتي المجاري والسيول، وشبكة المياه، وحتى الخدمات الصحية والتعليمية إلى حد ما.

ومن ناحية أخرى فإن الكثافة السكانية ضمن المنطقة التي يفترض أن تصل إليها الخدمات والتي وصلت بعضها إليها فعلاً وتبلغ نحو ١٠٠٠ كم^٢ تبلغ ١٢ - ١٥ فرداً/هـ. وحتى لو حسبنا كثافة المنطقة المبنية فعلاً فإنها تبلغ ٣٥ - ٤٠ فرداً/هـ وهي منخفضة لكثرة الفراغات وكثرة المساكن الفارغة، ولا تبلغ نصف أولئك الكثافة المناسبة، وهذا يعني من ناحية اقتصادية أن تكاليف وتشغيل وصيانة المرافق والخدمات تكلف ما تكلفه مدينة يبلغ عدد سكانها نحو ٢ - ٣ مليون من الأفراد.

لقد نشطت الأمانة بالتعاون مع الجهات الحكومية الأخرى نشاطاً لا قبل لبلديات أخرى القيام به للحاق بهذا التوسع الهائل بإقامة وتشغيل المرافق ومع ذلك فقد عجزت عن اللحاق بسرعة النمو بتمديدات المجاري ومجاري السيول والأرصقة والتشجير، وأحياناً الخدمات الصحية والتعليمية والبريدية والنشاطات الاجتماعية.

والحل في رأيي يكمن في اتخاذ الإجراءات الإدارية والتنظيمية التي تحول دون توسع المدينة عن مساحتها المبنية الآن، وتحويل الضواحي البعيدة والقائمة فعلاً إلى مدن ضواحي. وذلك باستكمال الخدمات والمرافق اللازمة لكل منها، حتى تكفي بنفسها إلا في الأمور التي يلزم فيها مراجعة العاصمة، شأن المدن الأخرى، وتستمر الأراضي الفضاء فيما بينها وبين الرياض، وألا يسمح بالتوسع العمراني والمدني إلا ضمن الفراغات الداخلية لكل منها، حتى يمكن التحكم المدني فيها جميعاً على الوجه الأكمل.

●●●

الطواحين

- (١) عبد الرحمن صادق الشريف؛ مدينة الرياض. ص ٥٩ - ٦١.
- (٢) جواد علي؛ الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ص ٣٣٤ - ٣٣٧.
- (٣) حمد الجاسر؛ مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ. ص ٣٥.
- (٤) ياقوت الحموي؛ معجم البلدان، المجلد الرابع، دار صادر ص ٣١٩.
- (٥) حمد الجاسر؛ المرجع السابق ص ٨٧.
- (٦) Abdul Axi Al-Sheikh; locational Pattern of Cos Stations and Supermarkets, Riyadh. Journal Coll. Arts. Univ. Riyadh, Vol. 11.1 1-14.
- (٧) St. J. Philby; The Heart of Arabia P. 62.

- (٨) - W. A. Rugh; Riyadh, History and Guide. P. 19.
- (٩) - Philby; op. Cit P. 70.
- (١٠) - حد الجاسر؛ المرجع السابق ص ١٢٢.
- (١١) - عبدالرحمن الشريف؛ المرجع السابق ص ص ١٣٤ - ١٣٦.
- (١٢) - المرجع السابق ص ص ١٣٨ - ١٣٦.
- (١٣) - غازي مكي؛ أسلوب في التعرف على أنماط استخدامات الأراضي وتحديد حدود الأحياء وأصحابها في المدن، دراسة تطبيقية على مدينة الرياض مجلة مجتمع وعمران. العدد السادس مارس ١٩٨٥م. ص ص ٢٧ - ٥٣.
- (١٤) - وزارة المالية والاقتصاد الوطني؛ صندوق التنمية العقارية، تقرير.
- (١٥) - قدرت أرقام هذه المساحات اعتماداً على أحدث خرائط للرياض.
- (١٦) - Rugh; op. cit p. 15.
- (١٧) - SCET International/SEDES; Improved Master Plan to the city of Riyadh. Report No. 8, 1982.
- (١٨) - M. R. Al-Gabbani; Community Structure Residential Satisfaction and Preference in a Rapidly Changing Urban Environment the Case of Riyadh. P. 147.
- (١٩) - Al-Gabbani, op. cit, P. 82.
- (٢٠) - Loc. cit.
- (٢١) - عبدالرحمن الشريف؛ المرجع السابق ص ١٨٧.
- (٢٢) - المرجع السابق؛ ص ص ٢١٠ - ٢١٣.
- (٢٣) - SCET International/SEDES; Riyadh Action Master Plans. Report No. 6 1979.
- (٢٤) - مؤسسة دوكيادس؛ الوضع الراهن في مدينة الرياض. ص ١٠٢.
- (٢٥) - Al-Gabbani, op. cit, P. 149.
- (٢٦) - مصلحة الإحصاءات العامة؛ حصر السكان والمؤسسات لسنة ١٩٦٩م، والتعداد العام لسكان المملكة لسنة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- (٢٧) - وزارة الشؤون البلدية والقروية. مجلة البلديات، العدد ١٤٠٦٥هـ.
- (٢٨) - Al-Shelkh; op. cit, P. 1 - 14.
- (٢٩) - محمد شوقي مكي؛ الأسواق المركزية في مدينة الرياض، دراسة جغرافية في التوزيع والسلوك. ص ٢٩.
- (٣٠) - مصلحة مياه ومجاري منطقة الرياض؛ سجلات وتقارير المصلحة.
- (٣١) - سجلات مصلحة مياه ومجاري منطقة الرياض.
- (٣٢) - Abdul Rahman El-Sharif; Water Supply Problems of Riyadh, Saudi Arabia. Geojournal 11.3 239-243.
- (٣٣) - Loc. cit.
- (٣٤) - Moueffag Ibrahim Shuquer; The use of Purifying sewage Water is different Uses. Conference about dereloping and using water resources Vol. 1. PP 13-15.

- (٣٥) منصور خالد الشلهوب؛ الرياض سنة ١٣٩١هـ. ص ٥٦.
- (٣٦) مصلحة الإحصاءات العامة؛ الكتاب الإحصائي السنوي. العدد ١٩.
- (٣٧) المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر؛ أضواء على المملكة العربية السعودية سنة ١٣٧٧هـ.
- (٣٨) مصلحة الإحصاءات العامة؛ المرجع السابق، نفس المكان.
- (٣٩) مصلحة الإحصاءات العامة؛ التجارة الخارجية لعام ١٩٨٤م.
- (٤٠) مصلحة الإحصاءات العامة؛ الكتاب الإحصائي السنوي. العدد ١١.
- (٤١) SCET International; op. Cit, P. 48.
- (٤٢) مصلحة الإحصاءات العامة، الكتاب الإحصائي السنوي. العددين ١١، ١٩.
- (٤٣) نفس المرجع والمكان.
- (٤٤) نفس المرجع والمكان.
- (٤٥) ملحق جريدة الرياض؛ ٢٠ جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ، ١ مارس ١٩٨٦م.

المراجع

- ابن بلهيد؛ «صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار»، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥١م.
- أمين الريحاني؛ «تاريخ نجد الحديث وملحقاته»، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٥٤م.
- تويتشل، ك. س.؛ «المملكة العربية السعودية وتطورات مصادرها الطبيعية» الطبعة الثانية، سنة ١٩٥٢م، ترجمة شكيب الأموي، القاهرة.
- جواد علي؛ «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، الجزء الأول، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٨م.
- الحسن الأصفهاني؛ «بلاد العرب»، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، منشورات دار اليمامة بالرياض، ١٩٦٨م.
- حمد الجاسر؛ «مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ» - منشورات دار اليمامة بالرياض، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م.
- عبدالرحمن صادق الشريف؛ «مدينة الرياض»، مطبعة المدينة بالرياض، ١٩٧٦م.
- ———، «جغرافية المملكة العربية السعودية»، الجزء ١، دار المريخ طبعة سنة ١٩٨٧م.
- عبدالعزيز آل الشيخ؛ «مدينة الرياض خلال القرن التاسع عشر في ضوء نموذج مدينة ما قبل الصناعة»، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المجلد التاسع، ١٩٨٢م. ٣-١٣.
- عبدالمجيد داغستاني؛ «التطور الحضري والتخطيط»، وزارة الإعلام، الرياض ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م.
- غازي عبدالواحد مكي؛ «أسلوب في التعرف على أنماط استخدامات الأراضي وتحديد حدود الأحياء وأحجامها في المدن، دراسة تطبيقية على مدينة الرياض»، مجلة مجتمع وعمران، تونس، العدد السادس، مارس ١٩٨٥م، ص ٢٣-٥٣.
- جون فيليبي؛ «تاريخ نجد» تعريب عمر الديراوي، بيروت، ١٩٥٤م.
- قسم الجغرافيا؛ جامعة الملك سعود، «أطلس السكان للمملكة العربية السعودية» ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، الرياض.

- محمد شوقي مكي؛ «الأسواق المركزية في مدينة الرياض»، دراسة جغرافية في التوزيع والسلوك، نشرة قسم الجغرافيا والجمعية الجغرافية بجامعة الكويت رقم ٩٤. سبتمبر ١٩٨٦م/ محرم ١٤٠٧هـ.
- المعهد العربي لإنهاء المدن، وأمانة مدينة الرياض؛ «الرياض مدينة المستقبل»، مطابع جامعة الملك سعود، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- ملحق جريدة الرياض؛ «عدد خاص بمناسبة احتفالات مدينة الرياض بذكرى مرور ٥٠ عاماً على إنشاء أمانة مدينة الرياض، الرياض بين الماضي والحاضر»، ٢٠ جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ، ١ مارس ١٩٨٦م.
- منصور خالد الشلهوب؛ «الرياض سنة ١٣٩١هـ»، مؤسسة الندي، الرياض.
- المؤسسة العامة لتحلية المياه المالحة؛ «مشروع مياه التحلية لمدينة الرياض»، الرياض ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- مؤسسة دوكسادس؛ «الوضع الراهن في مدينة الرياض»، وكالة البلديات، الرياض ١٩٦٩م.
- الحمداني؛ «صفة جزيرة العرب»، نشر وتصحيح ابن بليهد، القاهرة ١٩٥٣م.
- وزارة التخطيط؛ «خطة التنمية الأولى ١٣٩٠ - ١٣٩٤هـ، خطة التنمية الثانية ١٣٩٥ - ١٣٩٩هـ - خطة التنمية الثالثة ١٤٠٠ - ١٤٠٤هـ - خطة التنمية الرابعة ١٤٠٥ - ١٤٠٩هـ - الرياض.
- وزارة الزراعة والمياه، قسم الهيدرولوجيا، البيانات الهيدرولوجية لمحطة الرياض. وقد صدر فيها أكثر من ١٠٠ عدد.
- وزارة الشؤون البلدية والقروية:
- مؤسسة دوكسادس، المخطط العام لمدينة الرياض، الرياض ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
- ست انترناشيونال - سيدس، الرياض، المخطط الرئيسي التنفيذي رقم ٨، وزارة الشؤون البلدية والقروية، الرياض. ١٩٨٢م.
- مجلة البلديات، العدد الأول، السنة ١ سنة ١٤٠٥هـ، العدد ٥، ١٤٠٦هـ.
- وزارة المالية والاقتصاد الوطني:
- تقرير مؤسسة م + ر الدولية، دراسة شاملة للإسكان في المملكة العربية السعودية. الرياض يوليو ١٩٧١م.
- مصلحة الإحصاءات العامة؛ الكتب الإحصائية السنوية. الأعداد (١١ - ١٩).
- مصلحة الإحصاءات العامة؛ بيانات التجارة الخارجية. آخرها سنة ١٩٨٤م.
- مصلحة الإحصاءات العامة؛ التعداد العام للسكان ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.
- ياقوت الحموي؛ معجم البلدان، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت ١٩٥٦م.
- **Al-Gabbani, M.R., Community Structure Residential Satisfaction and Preference in a Rapidly Changing Urban Environment: The Case of Riyadh, Saudi Arabia. Doctoral Thesis, University of Michigan, 1984.**
- **Al-Sheikh, Abdulaziz; Locational Patterns of Gas Stations and supermarkets, Riyadh, Saudi Arabia. J. Coll. Arts. Univ. Riyadh. Vol. 11.1 1-14.**
- **El-Sharif, Abdul Rahman; Water Supply Problems of Riyadh, Saudi Arabia. Geo-Journal 11.3 239-243.**
- **Philby, St. J.; The Heart of Arabia, London 1922.**
- **Rugh, W.A.; Riyadh, History and Guide 1969.**

الزلازل والبراكين في جزيرة العرب وتراثهم

د. محمد محمود عميلين

جرت العادة في بحوثنا نحن معشر العرب أن نبدأ بتفسير مدلول الألفاظ التي تدور حولها البحوث وأن نبعث في أصولها، ثم نحدد إطار هذه البحوث، ولو اتخذت عنواناً آخر لهذا البحث لكان (الزلازل والبراكين في جزيرة العرب، أحداثها وأحاديثها).

إذا ما تتبعنا أصل كلمة الزلازل ومدلولها نجد أنها اشتقت من فعل (زَلَّ) الذي يستخدم للحركة المعتادة، وزلزل للحركة الشديدة العظيمة، لأن معنى التكرار يشير إلى شدة الحركة، فالزلزلة إذا هي الحركة الشديدة والهزة الأرضية^(١). قال تعالى: ﴿إِنْ زلزلة الساعة شيء عظيم﴾. ولأجل شدة الحركة وصفها الله بالشيء العظيم^(٢).

ويستخدم لفظ الزلزلة للإزعاج الشديد، ففي الحديث الشريف: «اللهم اهزم الأحزاب وزلزلهم»^(٣).

والزَّلزال بالكسر، المصدر، والزَّلزال بالفتح الاسم، وقد وردت ألفاظ الزلزلة خمس مرات في القرآن الكريم، استخدمت بمعنى حركة الأرض الشديدة، وبالنسبة للأفراد استخدمت في مجال الإزعاج^(٤).

وقد عبر عن زلزلة الأرض في القرآن الكريم بألفاظ أخرى مثل: الراجعة (أي الحركة والاضطراب) ٦ / النزاعات، ٩١، ١٥٥ / الأعراف، ٣٧ / العنكبوت، كما استخدم تعبير رجَّت كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَجَّتْ الأرض رجًا﴾ ٤ / الواقعة. وورد ما يشير إلى الزلازل في الأحاديث الشريفة ثلاث عشرة مرة^(٥).

وأشار الرازي في التفسير الكبير أن الناس كانوا يسألون متى الساعة، فكانت الإجابة عن هذا التساؤل: إذا زلزلت الأرض زلزالها، كأنه تعالى أخبرهم بأنه لا سبيل إلى تعيين هذا الأمر بحسب وقته، ولكنه تعالى عينه بحسب علاماته وهي زلزلة الأرض^(٧).

ولما كانت سورة الزلزلة تذكر يوم القيامة، فقد وردت أحاديث عن فضل قراءتها. وروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ إذا زلزلت» عدلت بنصف القرآن، وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ إذا زلزلت أربع مرات، كان كمن قرأ القرآن كله»^(٨).

أما فيما يتعلق بالبراكين^(٩)، فقد عبر عنها الجغرافيون المسلمون (بجبال النار)، و (البرقان) وربما يكون ذلك بسبب خروج النار كالبرق^(١٠)، والحرار. وقد ذكر ياقوت الحموي في معجمه ثاني وعشرين حرة تبدأ من حول المدينة إلى الشام^(١١). وقد جاء ذكر حرة النار في الشعر الجاهلي، وجدير بالذكر أن تلك الحرة كانت لا تزال شائرة حتى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وقد ذكر ذلك الطبري وغيره من المؤرخين^(١٢).

وأشار الطهطاوي إلى أن جبال النار تسمى بالأفرنجية «الجبال البلكانية» ويسمى الجبل الناري (بُلْكان) بضم الباء الموحدة وسكون اللام، وقد صحف هذا الاسم بالعربية إلى لفظة «بركان» بالراء ولعله تعريب عن لغة أهل الأندلس^(١٣). لقد أصاب الطهطاوي في قوله إن بركان محرفة عن «بلكان»، لأن الرومان كانوا إذا شاهدوا الدخان الأسود يرتفع من فوهة الجبل وألسنة النار تخرج منها قالوا إن «فولكان» إله النار والحداة عندهم يصنع أجهزة قصف الرعد على سندانة (الجوبيتر) كبير آلهتهم، ويعد الأسلحة (لمارس) إله الحرب، وليست هذه الانفجارات إلا دقات مطرقة «فولكان»^(١٤).

أحداث الزلازل والبراكين في جزيرة العرب:

يصف الباحثون كوكب الأرض بأنه كوكب مصاب بداء الهزات وذلك لأن عدد الهزات التي يشعر بها الناس في السنة الواحدة تصل إلى ما يقرب من ٣٠٠ ألف هزة وذلك في أقطار العالم المختلفة ومدنه وفي البحار والمحيطات، أما تلك الهزات الخفيفة التي لا يشعر بها الناس وتسجلها أجهزة الرصد الدقيقة فتصل إلى مليون هزة^(١٥). ومعنى ذلك أنه لا تسلم بقعة من سطح الأرض من زلزلة وإن كان الناس لا يشعرون بها.

أما البراكين فهي ظاهرة مرئية تسبقها مقدمات أو أحداث منذرة مثل: الزلازل والهزات

الخفيفة أحياناً، وتصادد الدخان والأبخرة وارتفاع درجة حرارة الأرض. وكان هذه المقدمات وسائل إنذار مبكر تنذر الناس فيلوذون بالفرار، على عكس الزلازل التي تأخذ الناس على حين غفلة، ومن هنا كان عدد الذين يفتقدون حياتهم بسبب الزلازل أضفاف أولئك الذين يفقدونها بسبب ثوران البراكين^(١٦).

ولما كانت الجزيرة العربية، ابتداء من الزمن الجيولوجي الثاني وحتى الرابع، مسرحاً لحركات عنف جيولوجية، حيث يرجع الجيولوجيون بداية حدوث الحركات الانكسارية التي نجم عنها ظهور الأخدود الذي يشغله البحر الأحمر وظهور الحافات القافزة على جانبيه إلى العصر الكرتياسي الأعلى (الطباشيري)، وأنه في نهاية الزمن الثالث وفي الزمن الرابع زاد نشاط هذه الحركات^(١٧)، فلها لا بد وأن تكون قد تعرضت لكثير من الزلازل والثوران البركاني، ويؤكد ذلك ما نشاهده في أجزائها الغربية من صدوع وحرار وكأنها سطور تحكي لنا مآسيها الجيولوجية.

ويشير بعض الباحثين إلى أن أول إشارة للزلازل في الكتب السأوية تلك التي وردت في التوراة حينما ذهب موسى ليشاهد ربه على جبل سيناء^(١٨). ودلت الوثائق التاريخية على أن أريحا Jericho بفلسطين المحتلة قد تعرضت سنة ١١٠٠ ق.م لزلزال حطم جدرانها، وتشير تلك الوثائق إلى أن المنطقة التي تحيط بالأخدود الأفريقي العظيم والصدع الذي يمتد في البحر الأحمر وخليج العقبة والبحر الميت، وإن بدت من المناطق المستقرة، إلا أنها تعرضت بقسوة لزلزالين أو ثلاثة من الزلازل العنيفة كل قرن^(١٩).

وأقدم الإشارات العربية التي نعلم عليها بشأن الأحداث التكتونية من زلازل وبراكين ما ورد في الشعر الجاهلي، حيث جاء ذكر حرة النار وهي الحرة التي كانت لاتزال نائرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، والتي عرفت باسم أم صبار. قال النابغة:

إما عصيت، فإني غير منفلت في اللصاب، فجنبنا حرة النار
تدافع الناس عنا حين نركبها من المظالم تدعى أم صبار

إن الزلازل، والأصوات المزعجة، والبراكين التي كانت ترى من مسافات بعيدة، والبرق الذي كان يظهر من الحرار مثل حرة «القوس» التي كانت ترى كحريق مشعل وحرة «لبن» التي كان يخرج منها ما يشبه البرق، وتسمع منها أصوات كأنها صباح، هذه الظواهر كلها تركت صوراً مربعة في نفوس الجاهليين، وربما كان سبب تقديس أهل اليمن لحرة «ضروان» هو ما كان يخرج منها من أسنة اللهب،

وما كانت تقذفه من حمم وصلت إلى مسافات بعيدة عنها^(٢٠).

ومما يدل على النشاط البركاني وآثاره في الجزيرة العربية، ما أسهب العرب في وصفه من الحار، يقول ياقوت الحموي: الحرة أرض ذات حجارة نخرة كأنها أحرقت بالنار، والجمع: الحرات والأحرور، والحار والحرون. وقال الأصمعي: الحرة الأرض التي ألبستها الحجارة السود^(٢١). وتكون الحرة مستديرة فإذا كان فيها شيء مستطيل ليس بواسع فذلك الكراع، واللابة واللوبة ما اشتد سواده وغلظ وانقاد على وجه الأرض. ويبدو من ذلك أن الحرة فوهة بركانية، واللابة أو اللوبة هي اللافا أي الحمم البركانية، وأما الكراع فربما تكون أعناق الحار^(٢٢).

وقد ورد أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له عمر: ما اسمك؟ قال: جمرة. قال ابن من؟ قال ابن شهاب. قال ممن أنت؟ قال من الحرقرة. قال أين تسكن؟ قال: حرة النار. قال أيها الحار؟ قال بذات اللطى. فقال عمر رضي الله عنه أدرك الحمي حتى لا يحترقوا. قبل إن الرجل رجع إلى أهله فوجد النار قد أحاطت بهم^(٢٣).

وأخرج الطبراني في حديث لحذيفة بن أسد: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من رومان - أو روكية - تضيء منها أعناق الإبل ببصرى» قال الحافظ بن حجر: ورومان لم يذكره البكري، ولعله المراد رومة البئر المعروفة بالمدينة، ثم نقل عن البكري أن روكية بين المدينة والشام. وهذه النار مذكورة في الصحيحين في حديث «لا تقوم الساعة حتى تظهر نار بالحجاز» ولفظ البخاري: «تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى^(٢٤)».

وتشير بعض المصادر التاريخية ومنها الطبري إلى أن سحب الدخان كانت تخرج من بعض الجبال القريبة من المدينة في عهد عثمان بن عفان، وهذا دليل يؤكد أن النشاط البركاني لم يكن قد خمد تماماً، وأن باطن الأرض كان لا يزال قلقاً ولم يهدأ^(٢٥).

وهناك مصادر غير عربية تؤكد حدوث الزلازل في منطقة الجزيرة العربية والشام التي تعد امتداداً لها، إذ يذكر مالت Mallet في كتابه تاريخ الزلازل معلومات عن بعض الزلازل التخريبية، كما ذكر موريتز Moritz في كتابه، الصحراء السورية، بعض تلك الأحداث التكتونية، وجدير بالذكر أن بعض هذه الأحداث أوردتها المصادر العربية. من الزلازل التخريبية التي ذكرها مالت، زلزال حدث سنة ٥٥١هـ أصاب الساحل الشرقي للبحر المتوسط ومدنه وبالذات شواطئ سوريا ولبنان، حيث هدمت منازل كثيرة في بيروت وانتقل علماؤها إلى صور^(٢٦).

وفي سنة ٧٤٧م اشتدت الزلازل في فلسطين وسوريا وتركيا فهدمت أكثر من ٥٠٠ قرية وخرج أهل الشام إلى العراء. ولعل أكثر الأحداث التكتونية التي انتشر خبرها ما حدث سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م)، إذ يذكر السهمودي في «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى» أن المدينة الشريفة تعرضت لزلزلة بدأت في مستهل جمادى الآخرة أو أواخر جمادى الأولى سنة أربع وخمسين وسبعمائة (٢٧)، لكنها كانت خفيفة لم يدركها بعضهم مع تكررها بعد ذلك، واشتدت في يوم الثلاثاء على ما حكاه القطب القسطلاني، وظهرت ظهوراً عظيماً اشترك في إدراكه العام والخاص، ثم لما كان ليلة الأربعاء ثالث الشهر أو رابعه في الثالث الأخير من الليل حدث بالمدينة زلزلة عظيمة أشق الناس منها، وانزعجت القلوب لميتها، واستمرت تزلزل بقية الليل، واستمرت إلى يوم الجمعة ولها دوي أعظم من الرعد، فت موج الأرض وتتحرك الجدارات، حتى وقع في يوم واحد دون ليلة ثمان عشرة حركة على ما حكاه القسطلاني، وذكر القرطبي: قد خرجت نار الحجاز بالمدينة، وكان بدؤها زلزلة عظيمة.. وظهرت بقرينة بطرف الحرة... لا تمر على جبل إلا دكته وأذاته، ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر وأزرق له دوي كدوي الرعد، يأخذ الصخور بين يديه... واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم، فانتهت النار إلى قرب المدينة... وشوهد لهذه النار غليان كغليان البحر، وقال لي بعض أصحابنا: رأيتها صاعدة في الهواء نحو خمسة أيام، وسمعت أنها رؤيت من مكة ومن جبال بصرى (٢٨).

ونقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب الشريف سنان قاضي المدينة الشريفة وغيره، أنه في ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة حدث بالمدينة في الثالث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشقنا منها وباتت في تلك الليلة تزلزل، ثم استمرت تزلزل كل يوم وليلة مقدار عشرين مرات، وفي كتاب بعضهم أربع عشرة مرة، قال: والله لقد زلزلت مرة وغن حول الحجرة فاضطرب لها المنبر إلى أن سمعنا منه صوتاً للحديد الذي فيه، واضطربت قتاديل الحرم الشريف، زاد القاشاني: ثم في اليوم الثالث - وهو الجمعة - زلزلت الأرض زلزلة عظيمة، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم، فلما كان يوم الجمعة نصف النهار ظهرت تلك النار، فثار من محل ظهورها في الجو دخان متراكم غشى الأفق سواده، فلما تراكمت الظلمات وأقبل الليل سطع شعاع النار، فظهرت مثل المدينة العظيمة في جهة المشرق - وفي رأي مفكرتي المسلمين أن الحكمة في ظهورها في يوم الجمعة غير خافية، وأن الله أراد أن يخوف عباده فيه بذلك ليردهم إليه، فتلك النار نعمة في صورة نقمة، ولهذا وجلت منها القلوب وأشفتت، وأيقن الناس أن العذاب قد أحاط بهم، وكان أمير المدينة عز الدين منيف بن شيحة، الذي أعق كل ممالئكه، ورد على الناس مظالمهم وأبطل المكس - قد لجأ لمسجد النبي ﷺ وبات فيه ليلة الجمعة

وليلة السبت ومعه جميع أهل المدينة حتى النساء والصغار ... قال القطب: ولما عاين أمير المدينة ذلك ألقع عن المخالفة، واعتبر، ورجع عما كان عليه من المظالم وانزجر، وأظهر التوبة والإنابة وأعتق جميع مماليكه وشرع في رد المظالم، وعزم أهل المدينة على الإقلاع عن الإصرار وارتكاب الأوزار ... فصرف الله تعالى عنهم تلك النار من عرجها وسالت ببحر عظيم من النار وأخذت في وادي أحليين وأهل المدينة يشاهدونها من دورهم كأنهم عندها، ومالت من عرجها إلى جهة الشمال واستمرت مدة ثلاثة أشهر على ما ذكر المؤرخون^(٢٩).

وذكر السهمودي أن القطب القسطلاني أفرد كتاباً لهذه النار، وهو ممن أدركها، لكنه كان بمكة فلم يشاهدها، وقد أورد القسطلاني أن ابتداءها كان يوم الجمعة السادس عشر من جمادى الآخرة، وأنها دامت إلى يوم الأحد السابع والعشرين من رجب، ثم خمدت، فجعلته ما أقامت اثنان وخمسون يوماً، لكنه ذكر بعد ذلك أنها أقامت منطفية أياماً ثم ظهرت، قال: وهي كذلك تسكن مرة وتظهر أخرى فهي لا يؤمن عودها، وإن طفىء وقودها^(٣٠).

ونقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب القاضي سنان الحسيني أن سيل النار انحدر مع وادي الشظاة حتى حاذى جبل أحد وكادت النار تقارب حرة العريض وخاف الناس منها خوفاً عظيماً ... قال المطري: وأخبرني بعض من أدركها من النساء أنه كن يفرزن على ضوءها بالليل على أسطح البيوت بالمدينة الشريفة^(٣١). ونقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب الشريف سنان قاضي المدينة أن هذه النار رؤيت من مكة ومن الفلاة جميعها ورآها أهل ينبع^(٣٢).

إن كل من ذكر هذه النار يقول إن عجائبها وعظمتها يكفل عن وصفها البنان والأقلام، وتجل عن أن يحيط بشرحها البيان والكلام، فظهر بظهورها معجزة للنبي ﷺ لوقوع ما أخبر به وهي هذه النار، إذ لم تظهر من زمنه ﷺ قبلها ولا بعدها نار مثله.

وذكر المؤرخون أن النار استمرت مدة ظهورها تآكل الأحجار والجبال وتسيل سيلاً ذريعاً في واد يكون طوله مقدار أربعة فراسخ وعرضه أربعة أميال وعمقه قامة ونصف وهي تجري على وجه الأرض والصخر يذوب حتى يبقى مثل الآتكن (الرصاص) فإذا خمد اسود بعد أن كان أحمر ... قال القسطلاني: أخبرني جمع ممن أركن إلى قولهم أن النار تركت على الأرض من الحجر ارتفاع رمح طويل على الأرض الأصلية^(٣٣).

وقد وصف أحد شعراء المدينة هذا الحدث البركاني فقال:

يا كاشف الضر صفحا عن جرائنا
نشكو إليك عطوياً لا نطيق لها
زلازلاً تخشع الصم الصلاب لها
أفام سبعا يرح الأرض فانصدت
بحر من النار تجري فوقه سفن
ترمي لها شرر كالقصر طائشة
تشق منها بيوت الصخر إن زفوت
منها تكاليف في الجمر الدخان إلى
قد أترت سعة في البدر لفحتها

وقد وصف موريتز Moritz هذا الحدث البركاني الذي كان في سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) بأنه آخر حدث بركاني في الحجاز وأنه استمر بضعة أسابيع، وكان نتيجة نشاط إحدى الحارر شرقي المدينة حيث سال منها الصهير البركاني ووصل إلى مسافة بضعة كيلومترات فقط من المدينة التي كانت نجاتها أعجوبة من الأعاجيب، وبعد القرن الثالث عشر لم يحدث أي ثوران بركاني في مختلف بلاد العرب^(٣٦).

وجدير بالذكر أن لبنان قد تعرض في ١٦ مارس ١٩٥٦م لثلاث هزات أرضية بسبب نشاط بركاني حيث خرجت غازات بركانية كثيفة وظهر وهج في منطقة جبلية بها صدع ظاهر المعالم، وقد أصيب نتيجة هذه الهزات نحو ٢٣٦ قرية، وزاد عدد المساكن التي هدمت على ١٠٠٠٠ مسكن وبلغ عدد القتلى ١٤٠ قتيلاً، وعدد الجرحى زاد على المائة^(٣٧).

أما بالنسبة للزلازل فإن آخر زلازل تعرضت له جزيرة العرب كان منذ أكثر من خمس سنوات (١٣) ديسمبر ١٩٨٢م) حينما تعرضت بلدة «ذمار» في الجمهورية العربية اليمنية لزلازل أضر بنحو ٢٠٪ من مساحة اليمن، ودمر أكثر من ثلاثمائة قرية وأكثر من عشرين مدينة، وشملت الأضرار منشآت زراعية وصناعية، وقدر عدد الذين شردوا بنحو نصف مليون، وبلغ عدد المنازل التي صدعت وهدمت ٢٥ ألف منزل، وقدرت الخسائر بنحو ملياري دولار^(٣٨).

أهم ما ورد في التراث الإسلامي عن الزلازل والبراكين

يعد ما كتبه إخوان الصفاء وخلان الوفاء في القرن الرابع الهجري عن أسباب الزلازل من أقدم ما ورد في التراث الإسلامي عن هذا الموضوع، يقول إخوان الصفاء: «إن الكهوف والمغارات والأهوية

التي في جوف الأرض والجبال، إذا لم يكن لها منافذ تخرج منها المياه، بقيت تلك المياه محبوسة زماناً، وإذا حمى باطن الأرض وجوف تلك الجبال، سخنت تلك المياه ولطفت وتحللت وصارت بخاراً، وارتفعت وطلبت مكاناً أوسع، فإن تلك المنافذ، وإن كان ظاهر الأرض شديد التكاثف حصيفاً (أي مستحكماً) منعها من الخروج، وبقيت محتبسة تموج في تلك الأهوية لطلب الخروج، وربما انشقت الأرض في موضع منها، وخرجت تلك الرياح مفاجأة، انخفض مكانها، ويسمع لها دوي وزلزلة، وإن لم تجد لها مخرجاً، بقيت هناك محتبسة، وتدوم تلك الزلزلة إلى أن يبرد جو تلك المغارات والأهوية»^(٣٩).

ولقد تناقل كثير من الجغرافيين المسلمين أسباب الزلازل كما وردت عند إخوان الصفاء، وهي احتباس الأهوية والأدخنة وأن محاولة خروج هذه الأهوية والأدخنة هي التي تسبب حدوث الزلازل، ومن هؤلاء ابن سينا والقزويني وابن الوردني وغيرهم.

عرف ابن سينا (٣٧١هـ / ٩٨٠م - ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م) الزلزلة فقال: «الزلزلة حركة لجزء من أجزاء الأرض بسبب ما تحته، ولا محالة أن ذلك السبب يعرض له أن يتحرك ثم يحرك ما فوقه»^(٤٠).

وتعرض ابن سينا لأسباب الزلازل فقال: «وهذه الأنجرة والدواخن إذا احتبست في الأرض ولم تتحلل حدث منها أمور، أما الأنجرة فتنفجر عيوناً، وأما الدواخن فهي إذا لم تنسل في المنافذ والمسام زلزلت الأرض فربما خسفت وربما خلصت نار مشتعلة لشدة الحركة جارية مجرى الريح المحتبسة في السحاب، فإنها تحدث بشدة حركتها صوت الرعد وتنفصل مشتعلة برقاً أو صاعقة إن كانت غليظة كثيرة فإذا لم يبلغ قدر الأنجرة والدواخن في الأرض أن تنفجر عيوناً أو تنزل بقعة اختلطت على ضروب من الاختلاف مختلفة في الكم والكيف»^(٤١).

وفي موضع آخر يذكر ابن سينا «وربما احتبست الأنجرة في داخل الأرض فتميل إلى جهة فتبرد بها فتستحيل ماء فيستمد مدداً متدافعاً لا تسعه الأرض، فتشق فيصعد عيوناً، وربما لم تدعها السخونة تتكثف فتصير ماء وكثرت عن أن تتحلل وغلظت عن أن تنفذ في مجاري مستحصفة .. فاجتمعت ولم يمكنها أن تثور خارجه فزلزلت الأرض ... وربما اشتدت الزلزلة فخسفت الأرض، وربما حدث في حركتها دوي ... وربما حدثت الزلزلة من تساقط عوالي وهذه في باطن الأرض فيموج بها الهواء المحتقن فيزلزل الأرض وربما تبع الزلزلة بنوع عيون»^(٤٢).

وتناول ابن سينا في كتابه «الشفاء» الذي يقع في ثمانية وعشرين مجلداً، تعريفاً آخر عن الزلازل

فقال: حركة تعرض لجزء من أجزاء الأرض بسبب ما تحته ولا محالة أن ذلك السبب يعرض له أن يتحرك ثم يحرك ما فوقه، والجسم الذي يمكن أن يتحرك تحت الأرض يحرك الأرض، وهو إما جسم أرضي، والجسم الناري، لا يكون ناراً صرفه وفي حكم الرياح المشتعلة. ويقول ومن الدليل على أن أكثر أسباب الزلزلة هي الرياح المحتقة، أن البلاد التي تكثر فيها الزلازل، إذا حفرت فيها آبار وقنى كثيرة، حتى كثرت مخالص الرياح والأبجزة قلت الزلازل بها. وأكثر ما تكون الزلازل في بلاد متخلخلة غور الأرض - متكاثفة وجهها، أو مغمورة الوجه بماء يجري أو ماء غمر كثير، لا يقدر الريح على خرقه، ومن منافع الزلازل تفتح مسام الأرض للعيون، وإشعار قلوب الناس رعب الله تعالى^(٤٣).

وتعرض ابن سينا في كتابه «الشفاء، المعادن والآثار العلوية» كذلك لأنماط من الهزات الأرضية وميز بين كل منها مثل: الرعشة وهي الزلازل الاختلاجية العرضية التي ينتج عنها طيات ملتوية^(٤٤) والرجفة والرجفة وهي الهزة الأرضية التي يتخيل معها أن الأرض تقذف إلى فوق أي زلزلة رأسية، أما التي تحرك الأرض حركتين رأسية وأفقية معاً فهي السلمية، وينتج عنها الصدع السلمي، وأطلق ابن سينا على الزلازل التي تحرك الأرض من اتجاهين تسمية القطع^(٤٥).

وذكر القزويني في القرن السابع الهجري (٦٠٥هـ - ٦٨٢هـ) في كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات تحت عنوان: فيما يعرض للأرض من الزلزلة والحسف: «زعموا أن الأدخنة والأبجزة الكثيرة إذا اجتمعت تحت الأرض لا يقاومها برودة حتى تصير ماء وتكون مادتها كثيرة لا تقبل التحليل بأدنى حرارة ويكون وجه الأرض صلباً لا يكون فيها منافذ ومسام، فالبخارات إذا قصدت الصعود ولا تجد المسام والمنافذ تهتز منها بقاع الأرض وتضطرب كما يضطرب الحموم عند شدة الحمى^(٤٦) بسبب رطوبات عفنة احتبست في خلال أجزاء البدن فتشتعل فيها الحرارة الغريزية فتذيبها وتحللها وتصيرها بخاراً ودخاناً فيخرج من مسام جلد البدن فيهتز من ذلك البدن ويرتعد، ولا يزال كذلك إلى أن تخرج تلك المواد فإذا خرجت يسكن، وهذه حركات بقاع الأرض بالزلازل، فرمما يشق ظاهر الأرض ويخرج من الشق تلك المواد المحتبسة دفعة واحدة والله أعلم^(٤٧).

ويوضح القزويني بعد ذلك أن ارتفاع الجبال وشموخها جاز أن يكون بسبب زلزلة فيها خسف، فتتخفف بعض الأرض وترفع بعضها ثم المرتفع يصير حجراً^(٤٨).

وتناول سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي (توفي ٨٦١هـ / ١٤٥٧م) شرح أسباب الزلازل فقال: «خلق الله جبلاً يقال له قاف محيط بالعالم السفلي وعروقه متصلة بالصخرة التي عليها الأرض،

وهي الصخرة التي ذكرها لقمان عليه السلام حيث قال : (يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض) الآية، فإذا أراد الله تعالى أن يزلزل قرية في الأرض أمر ذلك الجبل أن يحرك العرق الذي يلي تلك القرية فتتزلزل في الوقت^(١٩).

ومن الجدير بالذكر أن سراج الدين بن الوردي أورد ما تداوله بعض الجهلة من الناس من أن تحت الأرض ثوراً والثور على صخرة وأن له أربع قوائم وأربعين قرناً وأربعين سناماً، رأسه بالشرق وذنبه بالمغرب، ومسيرة ما بين قرن وقرن من قرونه خمسون ألف سنة^(٢٠). وشاع بين الجهلة أن الثور إذا حرك رأسه حدثت الزلازل، وللأسف تمسك بعض المستشرقين بما أورده ابن الوردي وروجوه على أنه مازال رأي أغلب المسلمين في أسباب الزلازل حتى الآن، يحرك الثور رأسه فتتحرك الأرض^(٢١).

ولقد تصدى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية لحرافة الثور وفندها، يرى ابن تيمية أن الزلازل من الآيات التي يخوف الله بها عباده، كما يخوفهم بالكسوف وغيره من الآيات، والحوادث لها أسباب وحكم، فكونها آية يخوف الله بها عباده، هي من حكمة ذلك، وأما أسبابها : فمنها انضغاط البخار في جوف الأرض، كما ينضغط الريح والماء في المكان الضيق، فإذا انضغط طلب مخرجاً، فيشق ويلززل ما قرب منه من الأرض. وأما قول بعض الناس : إن الثور يحرك رأسه فيحرك الأرض، فهذا جهل، وأن نقل عن بعض الناس، وبطلانه ظاهر، فإنه لو كان كذلك لكانت الأرض كلها تزلزل وليس الأمر كذلك والله أعلم^(٢٢)، وليس بمستغرب ألا يذكر المستشرقون قول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية في الرد على الجهلة وإظهار بطلان قولهم بأن سبب الزلزلة يرجع إلى حركة الثور الذي يحمل الأرض، وذلك دأبهم دائماً في اختيار ما يمكن أن يستخدموه في مهاجمة المسلمين ومهاجمة قرائهم.

وما يؤسف له ما شاع حديثاً من القول في إذاعاتنا : «إن زلزالاً ضرب مدينة ما، أو ضرب بركان منطقة ما» ألبتق بنا نحن معشر المسلمين، حاة اللغة العربية، أن نستخدم عبارات تحمل بصمات من الوثنية التي كانت تسود أوروبا التي شغفت بتعدد الآلهة للظواهر الطبيعية المختلفة مثل إله جوف الأرض «بلوتو» وإله النار والحداة «فولكان» الذي اشتق منه اسم (البركان)، و(أطلس) الذي ثار على الآلهة فعوقب على ثوره وفرض عليه أن يحمل الدنيا على كتفيه.

لماذا نقول ضرب زلازل مدينة كذا؟ لما لا نقول : «زلزلت الأرض بمدينة كذا؟» اقتداء بالقرآن الكريم في قوله تعالى : «إذا زلزلت الأرض زلزالها». كما أن استخدام «زلزلت الأرض» أدق من القول

«ضرب زلزال» لأن الزلزال لا يضرب المدينة وإنما يزلزل الأرض التي تقوم عليها المدينة، وهناك فرق بين الزلزلة والضرب^(٥٣).

استمر اهتمام المسلمين بالزلازل والبراكين طوال العصور الوسطى، ومع احتكاك المسلمين المباشر بعلماء الغرب في القرن التاسع عشر، اتسع نطاق معرفتهم، فها هو ذرافاعة الطهطاوي رائد الجغرافيا العربية الحديثة (١٨٠١ - ١٨٧٣م) يتحدث لنا عن البراكين فيقول: «ثم أن جبال النار تسمى بالإنجليزية «الجبال البلكانية» ويسمى الجبل الناري «بلكان» (بضم الباء الموحدة وسكون اللام) ... وقد صحف هذا الاسم بالعربية إلى لفظة «بركان» بالراء، ولعله تعريب عن لغة أهل الأندلس. ويسمى (طَهُمَة) (يفتح الطاء، وسكون الهاء) كما ذكره المسعودي في كتابه المسمى (مروج الذهب)، وفوهة البركان تسمى بالفرنساوية «كراتير» *Cratere*» (بكاف وتاء فوقية مكسورتين، وفتح الراء الثانية)، ولا يوجد جبل النار غالباً إلا في الجزائر. وقد ذكر أرباب رصد هذا الجبل أن ارتفاعه على ظهر سطح البحر المحيط ألف وتسعمائة قدم وثلاثة أقدام، وأن دورة قاعدته نحو خمسة وخمسين فرسخاً فرنسائياً ودائرة فوهته ربع فرسخ.

ثم إن العادة أن جبل النار يهيج، ثم يسكن، ثم يهيج، وقد يمكث مدة مطفئاً حتى يظن الناس خموده بالكلية، ثم يهيج ثانية بعد مضي مدة أعصر.

وقد هاج جبل «أثنا» إحدى ثلاثين مرة، ومنها هيجانه سنة ١٨٠٩م بتاريخ الإفرنج، وأعظم هيجانه ما كان سنة سبعمائة وثلاث وتسعين، حيث ضرب مدينة «كابان» وأهلك ثمانية عشر ألف نسمة.

وعلاوة هيجان البراكين شدة العجيج والقرقرة والدوي تحت الأرض، وابتداء التدخين، وازدياده. قال بعض الطبائعية^(٥٤) إننا إذا قابلنا حوادث الزلازل بحدوث البراكين رأينا كأن هاتين الحادثتين معلولتان لعل واحدة وهي التيران التي تحت الأرض أي المختنقة في باطنها. إلا أن آثار الزلازل تظهر في متسع عظيم من الأرض، بخلاف آثار جبال النار فلا تمتد إلا بجوار قرب جبل النار.

وقد جرت العادة أيضاً أن الزلزلة تعظم بقدر البعد عن البركان، وعلل ذلك بعضهم بقوله: «إن النار التي تحت الأرض تحاول متنفساً لتخرج منه، فإن كان في الأرض بركان فإنها تخرج منه، فتذهب قوة النار فتنفد الزلزلة، بخلاف الأرض الخالية عن البراكين، فإن التيران تحاول متنفساً فيها، فلا تجده فترتج الأرض بذلك...»

ومن القواعد المقررة أن ثوران البركان يغلب كلما قل علوه، ويقل كلما عظم علوه، وهذا ما جرت

به العادة والله تعالى أعلم.

وقال بعض الحكماء: إن كلا من الحوادث البركانية والزلازل، صادر عن جاذبية المحاكاة، المسماة بالفرنساوية «الإكترسته» *Electricité* (بكسر الهمزة وسكون الكاف، وكسر التاء والراء وكسر السين وفتح التاء) التي هي خاصة الكهرباء عند حكمها^(٥٥).

ولعل أشمل ما كتب عن الزلازل من حيث أسبابها ونتائجها مكتبه أحمد أفندي ندى في القرن الثالث عشر الهجري (١٢٨٨هـ). أي منذ أكثر من مائة وعشرين عاماً في كتابه الذي يعد الأول من نوعه في العالم العربي والذي سماه «الأقوال المرضية في الكلام على الطبقات الأرضية»^(٥٦). وقد تناول فيه موضوع الزلازل فقال: زعموا أن الأبحر والأدخنة إذا اجتمعت تحت الأرض لا يقاومها برودة وتكون مادتها كثيرة لا تقبل التحلل بأدنى حرارة، ويكون وجه الأرض صلباً لا منفذ فيه ولا مسام فتتزم منها بقاع الأرض وتضطرب كما يضطرب المحموم عند شدة الحمى فلا تزال تهتز إلى أن تخرج تلك المواد منها فتسكن^(٥٧)... وقال متأخرو الإفرنج أن زلزلة الأرض والبراكين ناشتان عن سبب واحد، وذلك أن باطن الأرض مشغول بكتلة سائلة مضطربة بعد غور اثني عشر فرسخاً فحينئذ تنصور القشرة الأرضية عبارة عن غلاف صلب يحيط بكتلة عظيمة من نار مضطربة وهذه القشرة الرقيقة لا بد أن يقع عليها تأثيرات مختلفة من الحركات الاضطرابية لكتلة السائل المحيط بها.

وقال عصرنا^(٥٨) المعلم بربه الطبيعي أن الجذب القمري والشمسي الذي يقتضي مد البحار وجزرها على سطح كرة الأرض يؤثر أيضاً في المادة السائلة الكامنة في أغوار الأرض، فنسب زلزلتها إلى جذب القمر وقال إنها نتيجة مد وجزر الكتلة السائلة الباطنية الموجودة في القشرة الأرضية. فإذا صدمت الأمواج المضطربة سطح القشرة الأرضية الباطن اضطرب جزء من سطحها مختلف الاتساع فإذا كان الضغط الحاصل من الكتلة السائلة ذا قوة كافية في تمزيق القشرة الأرضية وإحداث اتصال بين ظاهر الأرض وباطنها انقذت أمواج الكتلة السائلة الباطنية إلى الخارج فتكون بركان، وإذا دام هذا الاتصال العارضي بين باطن الأرض وظاهرها وكانت الطفحات البركانية مستمرة كما في بركان استرومبولي أو منفصلة عن بعضها ببعض أعوام كما في الوازوف (فيزوف) والاثنا سمي البركان وهاجا فإذا انسد هذا الاتصال سمي البركان منطفئاً، والبراكين المنطفئة كثيرة على سطح الأرض... ووجود الطفحات البركانية في البلاد التي توجد فيها كالتراشيت والبازلت وبقاء الفوهات البركانية العتيقة الشبيهة فوهاتها بفوهات البراكين الحالية يحققان عند من اشتغل بعلم الأرض وجود براكين منطفئة في تلك البلاد^(٥٩).

ولنبتدىء بشرح زلزلة الأرض فنقول: أما زلزلة الأرض فقد ينشأ عنها تلف عظيم وذلك أنها في ظرف قليل من الثواني يمكن أن تهدم إياالات^(١٠) متسعة وتصور الأراضي ذوات الثروة قفاراً خربة وتهلك عدة من الناس تحت ردم الأبنية التي سقطت عليهم أو تبتلعهم الأرض إذا انشقت وقبل الشروع في سرد الحوادث التي من هذا القبيل ينبغي أن نذكر الأحوال التي جرت العادة بسبقها للزلزلة واتساع سطح الأرض التي تعرض لها هذه الزلزلة ومقدار زمن الاضطراب واتجاهه والنتائج التي تنشأ عنها بالنسبة لشكل الأرض والمتالف اليه، تنشأ عن هذه الظاهرة المهولة المفزعة للنوع الإنساني.

الأحوال التي تسبق حدوث الزلازل:

أغلب الناس يزعم أن زلزلة الأرض تكون مسبوقة باضطراب في الهواء وريح عاصفة محزنة وباضطراب غير طبيعي في الإبرة المغطسة، وليس كذلك إذ لا ارتباط للزلزلة بالأحوال الجوية، بل الغالب أن تحصل زلزلة الأرض والهواء ساكن والجو مصح فتحرب أراضي الزراعة وتهلك كثيراً من الأشخاص والحيوانات في لحظة عين وتحصل في الزمن المطر كما تحصل في غيره وفي الهواء الساكن والريح العاصف.

وقد شاهد المعلم «هومبولد»^(١١) زلازل كثيرة في بلاد أمريكا ورصد إذ ذاك الإبرة المغناطيسية فلم يرها تأثرت بها. والغالب أن يسبق الزلزلة أو يصحبها أو يعقبها لغط مزعج آت من أحشاء الأرض لا من الجو وسيله تمزق جزء عظيم من طبقات الأرض بالطفحات الملتبهة فتبدده.

وقد تقرر في علم الطبيعة أن الأجسام الصلبة موصلات جيدة للصوت كالمعادن والصخور فتنتقل التفوجات ذات الرنين بسرعة أكثر من سرعة الهواء والغازات .. إن اللغط المتكون في باطن الأرض من تمزق الصخور الصلبة يسري إلى بعد عظيم ويسمع بعيداً عن منشئه بمسافة عظيمة، وقد حكى المعلم هومبولد أنه سمع في كركاس ونحوها مما يحاورها صوتاً مزعجاً وقت خروج طفحة بركانية من بركان سن ونسان الذي يجزأثر الأنتيلا ... كما يسمع لغط الوازوف من باريز: وقد يحصل هذا اللغط بدون أن يصحب زلزلة الأرض أو يعقبها.

نطاق حدوث الزلزلة

وحيث إن الزلزلة عبارة عن تذبذب واضطراب في القشرة الأرضية فلا يكون الارتجاج مقصوراً^(١٢) على محل واحد من كرة الأرض بل يمتد إلى مسافة عظيمة فقد يكون اتساع الأماكن

المضطربة عظيمًا وذلك كالزلزلة التي حصلت في مدينة (أشبونة) (١٣) فإنها امتدت إلى نحو نصف الكرة الأرضية وكانت مساحة البلاد التي حصلت فيها الرجات قدر أوروبا أربع مرات أي أنه حصل اضطراب في أرض البرتغال وأسبانيا وأغلب أوروبا وشمال أفريقيا بل وصل هذا الاضطراب إلى أمريكا... وارتفع البحر جهة شاطئ أسبانيا ٣٠ متراً واضطربت الأنهار والينابيع والبرك اضطراباً زائداً في إنكلترا ... وحصل تذبذب لطيف في بلاد السويد والنرويج وهولاندة وفرنسا والنمسا والسويس (سويسرا) وإيطاليا ... وقوي التذبذب في شمال إفريقيا لأنه أهلك نحو عشرة آلاف شخص في الجزائر وفاس ... ولا تكون الزلزلة مقصورة على الأرض القارة بل قد يضطرب قاع البحر أيضاً فتتحرك كتلة المياه حركة قوية فإن بعض القبودانات كان مسافراً بسفينة في البحر فاضطربت فجأة اضطراباً أودت المسافرين فزعاً عظيماً حتى ظنوا أن السفينة لامست قاع البحر لكنهم علموا بعد إلقاء المراسي أنهم بعيدون عنه ثم أن اضطراب الأمواج من الزلزلة إنما يخاف منه إذا كان نحو الشاطئ.

مدة الزلزلة

ومدة الزلزلة تختلف فمن البلاد ما يمكث فيه الاضطراب أسبوعاً، ومنها ما يمكث فيه شهراً كاملاً ومنها ما يمكث فيه أشهراً، وقد شوهد ببلاد بيهو أن الزلزلة استمرت عدة سنين، وقد تكون دورية في بعض البلاد ففي بلاد المكسيك تحصل الزلزلة كل عام مرة، ومن البلاد ما تحصل فيه مدة ستة أشهر ومنها ما يحصل فيه مدة سنة ثم تنقطع مدة قرون وقد لا تمكث إلا يوماً أو ساعة أو ثانية كما في بعض البلاد فعلم بما ذكرناه أن مدة الزلزلة مختلفة، وعلى أي حال كان عدد الرجات، لا يكون مكث الواحدة منها إلا برهيا فالزلزلة تمكث زمناً كالعواصف إلا أن الرجة قد لا تمكث إلا ثواني قليلة أو تكون كالبرق، فالزلزلة التي حصلت سنة ١٦٩٣م وقلبت مدينة مسينة وعدة محال من جزيرة صقلية وكانت سبباً في هلاك سنين ألف شخص لم تمكث إلا خمس ثوان.

اتجاه حركات الأرض

يعسر معرفة اتجاه حركات الأرض لأنه بندر أن يوجد وقت الزلزلة راصد ذو ثبات لمشاهدة اتجاه حركات الأرض، وقد ذكر أرسططاليس أحد فلاسفة اليونان الذي شاهد زلزلة الأرض مراراً في جزائر بحر الروم وعلى شواطئ آسيا أن للرجات ثلاثة اتجاهات وكان معناه أن الرجات إما أن تكون موجية أي أفقية وإما أن تكون عمودية بأن ترتفع الأرض وتنخفض على التعاقب وإما أن تكون رحوية. والغالب أن تحصل الرجات الأفقية والعمودية في آن واحد. ومتى حصلت الرجات بالاتجاهات الثلاثة

المتقدمة فإنها تحدث إتلاقاً عظيماً وذلك كالزلزلة التي أخربت جزيرة صقلية.

وزعموا أن سلاسل الجبال تمنع انتشار زلزلة الأرض خصوصاً إذا كانت مكونة من صخور حبوبية غائرة في أعماق القشرة الأرضية ورد هذا الزعم بعدة مشاهدات.

آثار الزلازل

ليست الزلازل مقصورة على هدم المدن بل تنشأ عنها مع ذلك تنوعات مهمة في نفس الأرض فيمكن أن ترتفع كما في الزلزلة المفزعة التي حصلت في بلاد شيلي من أمريكا عام ١٨٢٢ وهي التي شوهد فيها ارتفاع جزء من شاطئ أمريكا طوله ٣٠٠ فرسخ، وهذه الكيفية يمكن أن تظهر جبال جديدة وتهدم جبال أخرى فتزدم الأودية وأحياناً تنشق الأرض فتظهر عليها بعد الزلزلة شقوق عظيمة طولها عدة فراسخ.

وهذه الشقوق لا تبقى دائماً فأحياناً تنطبق بغتة بعد حصول الزلزلة فتنتطح بين جدرانها المنازل التي ابتلعها وتغير استواء سطح الأرض الناشئ عن ارتفاع وانخفاض مسافة مختلفة الاتساع ... في عام ١٨١٩م حصل في بلاد الهند ارتفاع أكمة طولها عشرون فرسخاً وعرضها ستة فراسخ وكان ارتفاعها في وسط بلدة مسطحة وانخفض ما حولها من أرض البلدة وأخذ معه قرى أخرى وما حصل في بلاد الهند في اتساع عظيم من الأرض يحصل في كل زلزلة في اتساع قليل منها فينتفخ سطحها الأصلي وتغير سير الأنهار يكون نتيجة لذلك.

وكثيراً ما يرى انقذاف طفحات من مواد مختلفة من الشقوق التي انفتحت في الأرض وذلك كالماء والغازات واللهب والمياه التي تخرج من الأرض كثيراً ما تكون ممزوجة بالرمل ... ويعسر تمييز تصاعد الغازات على سطح الأرض لأنها تنوزع في الهواء الجوي وتشتت انتشاراً لا يتضح إلا إذا تكونت تحت طبقة من الماء فقد شوهد غليان في البحر مدة الزلزلة وتفجر فقاع غازية عظيمة على سطحه.

ثم أن ما ذكر في شأن زلزلة الأرض في جميع البلاد وكتب في جرائد أخبار جميع الأمم يتضح منه ما قلناه فقد ذكر فيها انشقاق الأرض وتكون هوات عظيمة فجأة ابتلعت الأجزاء الموجودة على سطح الأرض كالمنازل ومن جملة ما في هذه الجرائد أن هذه الشقوق كثيراً ما خرج منها كتل عظيمة من ماء سائل وأبحر مائة وخرج منها في بعض الأحيان لهب من غازات قابلة للاحتراق فاحترقت بأوكسجين الهواء وارتفعت في بعض الأحيان آكام في وسط سهول وتارة حصل ارتفاع في قاع البحر وتارة انهدمت جبال وحلقها برك وتارة غاصت نهيرات في مجار تحت الأرض تكونت دفعة واحدة وتارة

جفت البرك وتارة انبجست يتابع في مجال جافة جداً منها ما هو حار جداً.

وبالجملة فتتابع زلزلة الأرض المختلفة تشهد بصدق بعض ظواهر مذكورة في كتب المتقدمين فقد ذكر بليناس أن جزيرة صقلية انفصلت عن إيطاليا بزلزلة وذكر أيضاً أن جزيرة قبرص انفصلت عن الشام وماذاك إلا للسبب المتقدم فما يحصل الآن بين أيدينا يوضح ما حصل في سالف الزمان^(٦٤).

(خاتمة)

إن ظاهرة الزلازل والبراكين ظاهرة عرفتها جزيرة العرب. ويشهد بذلك ما انتشر من صدوع وحرار في غربيها، وما سجلته أشعار العرب. وكما قيل: إن الشعر ديوان العرب ومستودع علومها وخزانة حكمتها، ولقد أشار القرآن الكريم إلى الزلازل وأشارت أحاديث الرسول عليه السلام إلى الزلازل والبراكين (حيث خروج النار) ويقول بعض الباحثين إن الجزيرة العربية وإن بدت بعيدة عن الزلازل القاسية، فإنها تتعرض كل قرن لزلزالين أو ثلاثة من الزلازل العنيفة. وآخر هذه الزلازل زلزال «ذمار» في جمهورية اليمن العربية الذي وقع في ١٣ ديسمبر ١٩٨٢ وصدع ٢٥ ألف منزل ودمر أكثر من ثلاثمائة قرية وأكثر من عشرين مدينة. وإن كان الجغرافيون المسلمون الأوائل قد اهتموا بظاهرتي الزلازل والبراكين، وإذا كان زلزال «ذمار» كان بمثابة تنبيه، فإن جامعة الملك سعود قد أخذت على عاتقها إنشاء أول مرصد للزلازل في المملكة العربية السعودية، ليتابع دراسة ظاهرة الزلازل وفق أحدث ما وصل إليه العلم، وبذلك فصل يومنا الناهض بأمننا الزاهر لتستمر مسيرة التقدم.

• • •



- (١) هناك ارتباط وثيق بين الزلازل والبراكين، إذ أن كل حدث بركاني تصحبه غالباً زلزلة ظاهرة، لذا أقر الباحث الجمع بينهما.
- (٢) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٣٧٤هـ، ج ٢، ص ٤١، تاج العروس للزبيدي، ج ٧، مادة زلزل، من اللغة، للشيخ أحمد رضا، ج ٣، بيروت، ١٩٥٩، ص ٥٢.
- (٣) الإمام الفخر الرازي، التفسير الكبير، الجزء الحادي والثلاثون، الطبعة الأولى، التزام عبدالرحمن محمد، ميدان الأزهر بمصر، د.ت، ص ٥٧.
- (٤) لسان العرب، ج ٢، ص ٤١.
- (٥) (زلزلت) ١ / سورة الزلزلة، (زلزلوا) ١٢٤ / البقرة، (زلزالا) ١١ / الأحزاب، (زلزالها) ١ / الزلزلة، (زلزلة) ١ / الحج.
- (٦) أ.ي. ونستك، و.ي. ب. منسج، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ج ٢، مطبعة برييل، ليون، ١٩٤٣، ص ٣٤١.
- (٧) الرازي، التفسير الكبير، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨.
- (٨) تفسير القرطبي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧م، ج ١٩، ص ١٤٩.

(٩) يعتقد أن أول من استخدم مصطلح البركان من الجغرافيين المسلمين هو ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ) وذلك في كتابه صورة الأرض، حينما تحدث عن خوزستان ووصف جبلا تتقد منه النار ليلا ويالتهار يرمي بالدخان ليطفأ أبدا كالبركان الذي ينوحي صقلية (صورة الأرض، ص ٢٣٠).

(١٠) ذكر أبو الفداء في (تقويم البلدان: قبالة رومية في البحر جيلان شاختان لايزال يظهر منها الدخان نهاراً وليلاً، واسم أحد الجبلين بركان بضم الباء... واسم الآخر (استبرى)). ومعنى بركان استبرى (البرق والرعد).

(١١) الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٤٥ - ٢٥٠.

(١٢) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٤٨.

(١٣) رفاعة الطعطاوي، تخلص الإبريز في تلخيص باريس، تحقيق مهدي علام، أحمد أحمد بدوي، أنشور لوقا، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، د.ت، ص ٩٢ - ١٠٨.

(١٤) فردريك هـ. بول، كل شيء عن البراكين والزلازل، ترجمة الدرداش عبد المجيد سرحان، دار المعارف، ١٩٧١م، ص ٩.

(١٥) Billye W. Brown and Walter R. Brown, Historical Catastrophes, Earthquakes, Addison - Wesley Publishing Comp. 1974, P. 14.

(١٦) أدى زلزال تانجشان بالصين الذي وقع في ٢٧ يوليو ١٩٧٦م إلى موت نحو ٦٥٠ ألفا وإصابة ٧٨٠ ألفاً.

(١٧) Roy Leblicher, G. Rentz and M. Steine Ke, Aramco Handbook, 1960, pp. 264-267.

(١٨) Bruce A. Bolt, Earthquakes, San Francisco, 1978, p. 4.

(١٩) Ibid, p. 4.

(٢٠) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م، ط ١، ج ١، ص ١٤٨.

(٢١) الحموي، معجم البلدان، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٤٥.

(٢٢) لسان العرب، مصدر سبق ذكره، ج ٢ / ١٤٢، جواد علي، ج ١ / ١٤٦.

(٢٣) مجد الدين أبي الطاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، اللغات المطبوعة في معالم المطبعة، قسم المواضيع، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اللمعة، الرياض، د.ت، ص ١١٢.

(٢٤) السهمودي، وفاء السوفاء بأخبار دار المصطفى، الجزء الأول، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ص. ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٢٥) جواد علي، مرجع سبق ذكره، ج ١، ص ١٤٧.

(٢٦) محمد علي المغربي، الهزات الزلزالية، دار للمعارف بمصر، ١٩٥٨م، ص ٤٢.

(٢٧) جمع السهمودي في وفاء الوفاء كل من كتب عن هذه النار في ست عشرة صفحة، ص ١٣٩ - ١٥٥.

(٢٨) وفاء الوفاء، بأخبار دار المصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ص. ص ١٤٢ وجاء في مسند الإمام أحمد عن أبي ذر قال: أقبنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأينا ذا الحليفة، فتعجل رجال إلى المدينة وبات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبتنا معه، فلما أصبح سأل عنهم، فقيل تعجلوا إلى المدينة، فقال: «تعجلوا إلى المدينة والنساء، أما أنهن سيدعنهن أحسن ماكانت»، ثم قال ليت شعري متى تخرج نار بأرض اليمن وجبل الوداق تضيء منها أعناق الإبل ببصرى يروقا كضوء النهار رواه ابن شيه من غير ذكر «بأرض اليمن» وربما تكون تلك النار التي حدثت سنة ٦٥٤هـ هي ما عاها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢٩) وفاء الوفاء، مرجع سبق ذكره، ص. ص ١٤٤ - ١٤٥. وقد ورد مسند الفردوس عن عمر حديث لا تقوم الساعة حتى يسيل واد من أودية الحجاز بالنار يضيء له أعناق الإبل ببصرى.

(٣٠) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٥.

(٣١) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٧.

(٣٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٨.

(٣٣) وفاء الوفاء، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠.

(٣٤) أحقاء: مستحقوق.

(٣٥) الجبال العالية.

(٣٦) Moritz, s., The Syrian Desert, London, 1937, P. 13.

جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٤٧.

(٣٧) علي الحجاز، أسباب الزلازل في لبنان، محاضرة في أبريل سنة ١٩٥٦م.

- (٣٨) جريدة المدينة السعودية ١٤٠٣/٥/١٦، جريدة الرياض ١٤٠٣/٣/٣١.
- (٣٩) اخوان الصفا، رسائل اخوان الصفا، وخلان الوفاء، المجلد الثاني، الجسائيات الطبيعية دار بيروت للطباعة والنشر، سنة ١٣٧٦هـ - (١٩٥٧م)، ص ٩٧.
- (٤٠) ابن سينا، المعادن والأثار العلوية، تحقيق عبدالحليم منتصر وآخرون، القاهرة، سنة ١٩٦٥م، ص ١٥.
- (٤١) ابن سينا، تسع رسائل، طبع على نفقة أمين هتدي، القاهرة، سنة ١٩٠٨م.
- (٤٢) ابن سينا، النجاة، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٥٧هـ - (١٩٣٨م)، ص. ١٥٥ - ١٥٦.
- (٤٣) عبدالحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العرب في تقدمه، دار المعارف بمصر، ١٩٧٣م، ص ١٤٥.
- (٤٤) عبدالله يوسف الغنيم، مستنبات من المصطلحات العربية لأشكال سطح الأرض، الكويت، ١٤٠٤هـ - (١٩٨٤م)، ص ٤٥، نقلا عن كتاب الشفاء، المعادن والأثار العلوية، لابن سينا، تحقيق عبدالحليم منتصر وآخرون، ص ١٩.
- (٤٥) المرجع السابق نفسه، ص. ٥٢ - ٨١.
- (٤٦) ذكر شكسبير في روايته المشهورة ماكبث *Macbeth* أن بعض الناس يقولون أن الأرض كانت حمومة ولهذا اهتزت:
- (*Some say the earth was feverish and did shake*)
- (٤٧) زكريا القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، دار الأنساق الجديدة، بيروت ١٩٧٨م، ط ٣، ص. ١٩٨ - ١٩٩.
- (٤٨) المصدر السابق، ص. ١٩٨ - ١٩٩.
- (٤٩) سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردی (ت ٨٦١هـ / ١٤٥٧م)، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، مصطفى الباني الحلبي، مصر، د.ت، ص ٥.
- (٥٠) المصدر السابق نفسه: ص ٢٣٩.
- (٥١) ذكر *Billye W. Brown* في كتابه عن الزلازل ما يلي:
- "There were groups of people who thought (and some still believe) that the earth is held on the back of some huge animal and that earthquakes occur when this animal shifts its body; To many Moslems, it was a bull that supported the earth" *Billye W. Brown, Earthquakes, Addison. Wesley Publishing Comp. 1974, p. 15.*
- (٥٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وتوثيق عبدالرحمن بن محمد النجدي الحلبي، طبة ١٣٩٨هـ، ج ٤، ص ٢٦٤.
- (٥٣) محمد محمود محمددين، الوثنية اللفظية في الجغرافيا العربية المعاصرة، رسالة الجامعة، جامعة الملك سعود، ١٤٠٥/١/١١هـ، ص ١٠.
- (٥٤) الطائفة المهتمون بدراسة الظواهر الطبيعية.
- (٥٥) رفاعه الطهطاوي، تخلص الأبريز في تلخيص ياريس، مصدر سبق ذكره، ص. ٩٠ - ٩٢.
- (٥٦) يتناول البحث عرض أفكار أحمد ندى بشيء من التفصيل مع التصرف في عرض هذه الأفكار تحت عناوين فرعية.
- (٥٧) يشابه هذا النص ما ذكره القزويني في القرن السابع الهجري أي قبل أحمد ندى بستة قرون.
- (٥٨) عصر بنا أي معاصرا.
- (٥٩) تمثل الحرا التي يكثر وجودها في غربي شبه الجزيرة العربية نشاطا بركانيا قديما.
- (٦٠) أبالات: مقاطعات.
- (٦١) يقصد بذلك الكسندر فون هوبولت (١٧٦٩ - ١٨٥٩).
- Alexander Von Humboldt*
- (٦٢) في الأصل قاصرة.
- (٦٣) يقصد زلازل لشبونة الذي حدث سنة ١٧٥٥م.
- (٦٤) أحمد أفندي ندى، الأقوال المرضية في الكلام على الطبقات الأرضية، المطبعة العامة الزاوية الزاهرة، القاهرة، شعبان سنة ١٢٨٨هـ، ص. ٢٧ - ٣٩ (بصرف).

أهم المصادر والمراجع

- ١ - ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيب): كتاب صورة الأرض، لندن، سنة ١٩٣٨م، طبعة بيروت سنة ١٩٦٢م.
- ٢ - ابن الوردي (سراج الدين أبو حفص عمر): خريدة العجائب وفريدة الغرائب، طبعة الحلبي، بدون تاريخ.
- ٣ - ابن سينا (أبو علي الحسين بن عبدالله): المعادن والأثار العلوية، تحقيق عبد الحلیم منتصر وآخرين، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ٤ - ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم): لسان العرب، دار صادر، بيروت ١٣٧٤هـ، ١٩٥٥م.
- ٥ - أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن نور الدين): كتاب تقويم البلدان، طبعة مدينة باريس، سنة ١٨٤٠م.
- ٦ - إخوان الصفاء وخلان الوفاء: رسائل إخوان الصفاء، خمسة مجلدات، دار صادر بيروت ١٩٥٧م.
- ٧ - الحجار (علي الحجار): أسباب الزلازل في لبنان، محاضرة مطبوعة، بيروت، أبريل ١٩٥٦م.
- ٨ - الحموي (ياقوت الحموي): معجم البلدان، خمسة مجلدات، بيروت، ١٩٥٥م.
- ٩ - الرازي (الإمام الفخر الرازي): التفسير الكبير، ميدان الأزهر، د.ت.
- ١٠ - الزبيدي (السيد محمد مرتضى الحسيني): تاج العروس، طبعة دار ليبيا، بنغازي، د.ت.
- ١١ - السهودي (نور الدين علي بن أحمد المصري): وفاة الوفاء بأخبار دار المصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- ١٢ - الطهطاوي (رفاعة الطهطاوي): تخلص الإسبريز في تلخيص باريس، تحقيق مهدي علام، وآخرين، القاهرة، د.ت.
- ١٣ - الغنيم (عبدالله يوسف): منتخبات من المصطلحات العربية لأشكال سطح الأرض، الكويت، سنة ١٤٠٤هـ.
- ١٤ - الفيروزآبادي (محمد الدين أبو الطاهر) المغنم المطابة في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر، منشورات اليمامة، الرياض، د.ت.
- ١٥ - القزويني (زكريا بن محمد بن محمود): عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٦م.
- ١٦ - السعودي (أبو الحسن علي بن الحسين): مروج الذهب ومعادن الجوهر، أربعة أجزاء، طبعة القاهرة، سنة ١٩٥٨م.
- ١٧ - المغربي (محمد علي): الهزات الزلزالية، دار المعارف بمصر، ١٩٥٨م.
- ١٨ - رضا (أحمد رضا): متن اللغة، بيروت، ١٩٥٩م.
- ١٩ - سرحان (الدمرداش عبدالمجيد): كل شيء عن الزلازل، مترجم، دار المعارف، ١٩٧١م.
- ٢٠ - علي (جواد علي): المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٨م.

- ٢١- منتصر (عبدالحليم): تاريخ العلم ودور العرب في تقدمه، دار المعارف بمصر، ١٩٧٣م.
٢٢- ندى (أحمد أفندي): الأقوال المرضية في الكلام على الطبقات الأرضية، القاهرة، ١٢٨٨هـ.

المراجع الأجنبية

1. Bolt, Bruce A., *Earthquakes*, San Francisco, 1978.
2. Brown B. W. and Walter R. B., *Historical Catastrophes, Earthquakes*, Addison - Wesley Publishing Comp., 1974.
3. Lebkicher R., et al, *Aramco Handbook*, 1960.
4. Moritz, S., *The Sysian Desert*, London, 1937.



من مجيء الخبر على خلاف ظاهر الحال في القرآن الكريم

د. عبده عبد العزيز فلقيلة



الخبر قسم الإنشاء، لا يخرج الكلام عنها، وإذا كان السكاكي قد نص على أن المعتين بهما فرقان: فرقة تحوجهما إلى التعريف، وفرقة تغنيهما عنه، واختار رأي الفرقة الثانية^(١) فإننا على الرغم من تأخر الزمن بنا عن عصر السكاكي، بل لتأخر الزمن بنا عن عصر السكاكي نرى العكس، ونحاز إلى الفرقة التي تجعل تعريفهما مدخلاً لفهمهما وتمييزاً لأحدهما عن الآخر، وتأتي الأمثلة فتعمق هذا التمييز وذلك الفهم، وانطلاقاً من ذلك نقول: الخبر هو الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب لذاته أي لذات الخبر في نفسه وبصرف النظر عن قائله؛ لتدخل فيه الأخبار المقطوع بصدقها أو بكذبها، منظوراً في هذا القطع إلى ذوات قائلها أو إلى مضامينها.

والخبر الصادق هو ما طابق الواقع أو هو ما صدقه الواقع.
أما الخبر الكاذب فهو ما خالف الواقع أو هو ما كذبه الواقع.

من هاتف كليته يخبر زميل زميله بنجاحه ويهتبه به ويأتي الزميل ليري بنفسه، فإذا وجد اسمه في كشوف الناجحين كان كلام زميله صدقاً، وكانت تهنتته صادقة، وإذا لم يجد اسمه في كشوف الناجحين كان كلام زميله كذباً وكانت تهنتته مخرفة.

مضمون كلام الزميل هو النسبة الكلامية، وما في الكشف هو النسبة الخارجية، ومدار الصدق والكذب فيها على توافقهما أو تخالفهما.

● أضرب الخبر ●

الأضرب - بالضاد، ويمكن أن تكون بالدال - جمع ضرب أو درب، ومعناها الاصطلاحي واحد، فضرب الخبر أو دربه إنما هو نمط أسلوبه ونسيجه اللغوي، هل هو مرسل أو مؤكد؟ وهل جاء على حسب مقتضى ظاهر حال المخاطب به أو على خلافه؟ وما ذكرناه معناه أن لأضرب الخبر مجالين مختلفين:

مجالاً تجري فيه هذه الأضرب وفقاً لظاهر حال المخاطب من حيث علمه أو عدم علمه بمضمون الخبر، ومن حيث قبوله أو رفضه لهذا المضمون، بل من حيث درجة هذا الرفض إن كان ثمة رفض. ومجالاً تجري فيه الأضرب طبقاً لاعتبارات بعيدة عن ظاهر حال المخاطب، أي عن ظروفه من علم أو جهل بمضمون الخبر، ومن قبول أو رفض لهذا المضمون، والاعتبارات في هذا المجال أكثر دقة من الاعتبارات في المجال الأول؛ لأنها لا تطفو فوق السطح كما هناك، بل تكن في العمق وهو عمق مزدوج:

شقة الأول مرسل الأدب بغنيته وبرؤيته الجمالية.

وشقة الثاني مستقبل الأدب بما يحيط به ويكتنفه من ظروف دقيقة يصعب على غير البليغ فهمها والصدور في كلامه عنها.

والمجال الثاني باعتباره المزدوجة العمق أدخل في فن القول من المجال الأول، ولا عجب؛ فالراحة على قدر التعب، وعند الصباح يحمد القوم السرى.

● المجال الأول ●

أضرب الخبر في هذا المجال ثلاثة هي:

١ - الابتدائي:

وهو يتحقق بإلقاء الخبر غير مؤكد على خالي الذهن من مضمونه ليحصل له هذا المضمون

ويستقش في ذهنه ثبوتاً أو انتفاء.

تقول لشريكك الذي يقاسمك غرفتك في أحد التزل: أنا مسافر غداً، أو لست مسافراً غداً، مستغنياً عن أن تؤكد له كلامك بأي مؤكد؛ لأن غرضك من كلامك إنما هو إفادة شريكك القرار الذي اتخذته، وهذا الغرض قد تحقق كاملاً بما قلته، فإذا زدت عليه كانت هذه الزيادة لغواً، وقد تمثل السكاسكي في هذا الضرب وله بقول الشاعر:

أنا في هواها قبل أن أعرف الهوى وصادف قلباً خالياً فتمكنا
وسمي ابتدائياً لمطابقته ابتداء حال المخاطب وهو خلط ذهنه من مضمون الخبر.

٢ - الطلبی:

وهو يتحقق إذا كان المخاطب بالخبر متردداً في تصديق مضمونه، وحالة المخاطب هذه تستدعي تأكيد الخبر له بقدر الحاجة إلى هذا التأكيد. وقد رأى البلاغيون أن مؤكداً واحداً يكفي في هذه الحالة، وصدوراً عن ذلك نقول لمن أجاب إجابة متوسطة يجعله يقف على الأعراف بين النجاح والرسوب:

قد نجحت أو قد رسيت. هكذا يؤكد واحد؛ لأننا لو أخطينا الخبر من هذا المؤكد كنا مقصرين في حق المخاطب بتركه لشكه، ولو عكسنا فضاغننا المؤكد كنا متجاوزين حد الحاجة في الكلام البالغ. وإنما سمي هذا الضرب طلبياً، لأن المخاطب بشكه في مضمون الخبر، غداً وكأنه يطلب بلسان الحال لا بلسان المقال تأكيد هذا المضمون.

٣ - الإنكاري:

وهو يتحقق إذا كان المخاطب منكراً مضمون الخبر، وينبغي في هذه الحالة أن تؤكد له الخبر على قدر إنكاره:

فإن كان إنكاره متوسطاً أكدنا له الخبر بمؤكدتين، وإن كان إنكاره فوق المتوسط أكدنا له الخبر بثلاثة، وإن كان إنكاره شديداً أكدنا له الخبر بأربعة مؤكدات وربما أكثر.

لتصور طالباً أجاب عن سؤال واحد من أربعة أسئلة.

إنه في هذه الحالة ينكر إخباره بنجاحه، لكن الواقع أنه نجح بإضافة أعمال السنة وبالرأفة، ولتقنعه

بنجاحه يلزم - بلاغة - أن نقول له : إنك قد نجحت ، فإن صدقنا وإلا زدنا مؤكداً ثالثاً قلنا : والله إنك قد نجحت أو لقد والله نجحت وهكذا .

وسبيل من ذلك قول الله تعالى : «واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا : إنا إليكم مرسلون ، قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذيبون ، قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون»^(٢) .
في الإخبار الأول ، أكد الله سبحانه وتعالى الخبر بثلاثة مؤكدات هي : إن ، واسمية الجملة والقصر بتقديم ما حقه التأخير في «إليكم مرسلون» ، فقد قدم متعلق الاسم المشتق عليه ، وأصل الكلام : إنا مرسلون إليكم .

وفي الإخبار الثاني زاد الله سبحانه وتعالى على ما سبق مؤكدين آخرين هما القسم واللام .
والعلة واضحة في تسمية هذا الضرب بالإنكار ؛ فال مخاطبون به منكرون مضمونه على تفاوت بينهم في درجة هذا الإنكار ، يقول السكاكي بعد أن أجمل ثلاثة الأنصرب السابقة :

«إخراج الكلام في هذه الأحوال على الوجوه المذكورة يُسمى إخراج مقتضى الظاهر ، وإذا عملت فيه البصيرة استوتقت من جواب أبي العباس للكندي حين سأله قائلاً :

إني أجد في كلام العرب حشواً ، يقولون : عبدالله قائم ، ثم يقولون : إن عبدالله قائم ، ثم يقولون : إن عبدالله لقائم ، والمعنى واحد .

وذلك أن قال : بل المعاني مختلفة : فقولهم : عبدالله قائم ، إخبار عن قيامه ، وقولهم : إن عبدالله قائم ، جواب عن سؤال سائل ، وقولهم : إن عبدالله لقائم ، جواب عن إنكار منكر»^(٣) .

انتهى القول في المجال الأول ، والخبر فيه جار على مقتضى الحال ومقتضى الظاهر معاً ، أما أنه جار على مقتضى الحال ، فتنوعه وتوزعه على الحالات المتباينة للمخاطبين به ، وأما أنه جار على مقتضى الظاهر ، فلكونه المتبادر إلى الذهن والمناسب للموقف الكلامي بطريقه : مرسل الأدب ومستقبله .

* * *

وبحسن التنبيه إلى أن تردد الجمل الخبرية بين التوكيد وعدمه تردد في جمالي ؛ لأن قاعدته فنية جمالية ، أقصى مداهو : (ينبغي) و(يحسن) ونحوهما ، أما (يجب) و(يلزم) و(لا بد) ونحوها ، فهذه

وأما لما لا تكون إلا مع ما نصدر فيه عن القاعدة العلمية ، وهي ملزمة ؛ لأنها لصحة التركيب وسلامته من الخطأ.

يقول حازم في مثل ما نحن بصدده : «وكلامنا ليس واجباً على الشاعر لزومه ، بل مؤثر حيث يمكن ذلك»^(٤).

وفي باب الفصل والوصل من كتاب «عروس الأفراح» نقرأ قول السبكي : «حيث قلنا في هذا الباب : يجب الوصل أو قلنا : يجب الفصل ، نريد به الوجوب بحسب البلاغة وتطبيق الكلام على مقتضى الحال ، ولا نعي الوجوب بحسب اللغة»^(٥).

● المجال الثاني ●

سبق القول بأن أضرب هذا المجال هي الأبلغ ، ها هوذا السكاكي يهد لها بقوله : «ثم إنك ترى المفلقين السحرة في هذا الفن يفتنون الكلام لا على مقتضى الظاهر كثيراً» أجل «لا على مقتضى الظاهر كثيراً» ولا عجب ؛ فهم مفلقون سحرة «يرون سلوك هذا الأسلوب من كمال البلاغة وإصابة المحز» كما قال^(٦).

والاحتمالات العقلية لأضرب هذا المجال كثيرة منها:

١ - تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة خالي الذهن منه فيلقي عليه الخبر غلواً من أي مؤكد مثل أن أقول للمسلم الذي يعلم بحكم إسلامه وجوب الصلاة لكنه لا يعي : الصلاة واجبة.

ألقينا الخبر عليه والأصل أنه في غير حاجة إليه لعلمه المسبق به. هذا أولاً.

أما ثانياً : فقد جعلنا هذا الخبر غلواً من أي مؤكد تكرساً للحالة الجديدة التي حركناه إليها وهي اعتبار المخاطب به خالي الذهن من مضمونه أي جاهلاً هذا المضمون.

ومن هذا الضرب قول الفرزدق هشام بن عبد الملك لما تجاهل علي بن الحسين رضي الله عنها وقال : مَنْ هذا؟ فقد تحلّر الفرزدق بقوله :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يمرره والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا التقى النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله	يجده أنبياء الله قد ختموا

وليس قولك: من هذا؟ بضائره العرب تعرف من أنكوت والمعجم إلى آخر ما قال^(٧).

٢- تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة الشاك فيه، فيلحق إليه الخبر مؤكداً بمؤكد واحد، مثل أن أقول للمسلم الذي يعلم بحكم إسلامه وجوب الصلاة ولكنه لا يصلي: قد فرض الله الصلاة.

٣- تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة المنكر له، فيلحق عليه الخبر مؤكداً بأكثر من مؤكد مثل أن أقول للمخاطب السابق: إن الصلاة قد فرضها الله. أو والله إن الصلاة قد فرضها الله.

ومن هذا الضرب قول أبي نواس للقي من يبتها خفّ مركبه إلى مصر:

سألت: أما دون مصر للغنى مطلب؟

فأجاب: بلى. إن أسباب الغنى لكثير، مؤكداً بيان واللام واسمية الجملة.

٤- تنزيل خالي الدهن من مضمون الخبر منزلة الشاك فيه فيلحق عليه الخبر مؤكداً بمؤكد واحد مثل أن أقول لمن لا يعلم عودة أخيه من سفره: قد عاد أخوك من السفر.

٥- تنزيل خالي الدهن من مضمون الخبر منزلة المنكر له كأن أقول خاطبي السابق: إن أخاك قد عاد من السفر. أو والله إن أخاك قد عاد من السفر.

٦- تنزيل الشاك في مضمون الخبر منزلة خالي الدهن منه، فألقى عليه الخبر غير مؤكد، كأن أقول للشاك في نجاحه: نجحت، إهدواً مني لشكه كأنني غير معترف به أي بهذا الشك.

٧- تنزيل الشاك في مضمون الخبر منزلة العالم به، وهو هو الضرب السابق بمثاله ولكنه احتمال عقلي يخالف له.

٨- تنزيل الشاك في مضمون الخبر منزلة المنكر له. مثل أن أقول للشاك في نجاحه: إنك قد نجحت. أو إنك والله قد نجحت.

٩- تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة العالم به، كأن أقول للمسلم المنكر وجوب الزكاة: الزكاة واجبة.

قلنا. ولم يكن قولنا مطلوباً أولاً، ولما قلنا. لم نؤكد ثانياً.

١٠- تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة خالي الذهن منه. مثل أن أقول لمخاطبي السابق: الزكاة واجبة.

قلنا. وكان واجباً أن نقول، لكننا حين قلنا لم نواع أن مخاطبنا منكر. وهو هو الضرب السابق في الظاهر، لكنه احتمال عقلي مخالف له.

١١- تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة الشاك فيه، كأن أقول لمنكر فضل العلم: إن العلم ينفع صاحبه؛ تخلفاً من كثافة المؤكدات من جهة، وإسهانة بإنكار المنكر من جهة.

• • •

ما سبق هو أكثر أضرب الخبر الجاري على خلاف ظاهر الحال دوراناً في الكلام. وننشرف الآن يامعان النظر في القرآن الكريم لرصد ما يفتح الله علينا به من هذه الأضرب، مُرَبِّيةً على حسب ورودها في سورة.

سدد الله على طريق التوفيق خطانا وهدانا سواء السبيل آمين.

- ١ -

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » [الآية ٢ من سورة البقرة].

نفى الله الرب عن القرآن الكريم دون أن يؤكد ذلك، مع أن القرآن مستهدف منذ نزوله بالارتباب الشديد فيه من غير المؤمنين به، وقد فعل الله ذلك استناداً إلى أن القرآن من وضوح الدلالة وسطوح البرهان بحيث لا يصح الارتباب فيه. والآية الكريمة لهذا من تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة خالي الذهن منه، وهو الضرب العاشر من احتمالات الخبر الجاري على خلاف ظاهر حال المخاطب أو المخاطبين به والله أعلم.

- ٢ -

« وإذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض. قالوا: إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. وإذا قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء. ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون. » [الآيات ١١ - ١٣ من سورة البقرة].

• • •

هذه الآيات وما قبلها وما بعدها في سياقها من سورة البقرة تدور حول المنافقين الذين يعيشون في الأرض فساداً حتى إذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون، أي لسنا مفسدين، وهذا منهم حمق أي حمق، ولا عجب، فهم لا يشعرون أنهم مفسدون، وإذا كانوا لا يشعرون أنهم مفسدون فإن مقتضى ذلك هو الإخبار عنهم بالضرب الابتدائي بأن يقال: هم مفسدون، أو نحوه، لكن الله تعالى نزلهم منزلة المنكرين، بل عتاة المنكرين فقال: «ألا إنهم هم المفسدون» هكذا انحصرت مؤكدات هي [ألا] التنبئية، و(إن) المقررة، وتعريف الخبر، وضمير الفصل (هم) و(اسمية الجملة). وفي تكثيف التوكيد بهذه الدرجة، وإلى هذا الحد إيماء إلى غباء المنافقين، وتشجيع عليهم بفقدهم القدرة على التمييز بين الفساد، وهو خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به، والصالح: وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة^(٨).

* * *

وما قلناه في «ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون»، نقوله في: «ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون».

وهما من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة منكره وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ٣ -

«وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم، إنما نحن مستهزئون» [الآية ١٤ من سورة البقرة].

صورت الآية الكريمة لعب للمنافقين على الحبلين، وترددهم بين اليهودية والإسلام: إذا لقوا المؤمنين ساقوا إليهم الكلام مرسلأ دون توكيد ما، لا شيء إلا الإخبار بالحدث (آمنا) وهو الضرب الابتدائي في مجال مطابقة الكلام لمقتضى ظاهر الحال.

وإذا خلوا إلى كبرائهم ورجال دينهم سلخوا بهم أو إليهم الضرب الطلبي فقالوا لهم: (إنا معكم). والسبب في عدوهم عن الضرب الابتدائي إلى الضرب الطلبي أنهم - لجبنهم - قد استشعروا أن من يخاطبونهم شاكون في أمرهم، وسيكونون مترددين في تصديقهم لو قالوا لهم (نحن معكم) فترلوهم منزلة الشاكنين وقالوا لهم (إنا معكم) وهو الضرب الرابع من الاحتمالات السابقة.

وقولهم بعد ذلك: «إنما نحن مستهزئون».

إما أن نجعله توكيداً فوق توكيد، ويتحول الضرب به من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة المنكر له، وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة.

وإما أن نجعله استئناف كلام، وكأن الشياطين عقبوا على قول المناقين (إنا معكم) بقولهم لهم: فإياكم إن صح أنكم معنا تقولون للمؤمنين: آمنا؟ فقالوا: (إنما نحن مستهزئون).

و(إنما نحن مستهزئون) على هذا التقدير تكون من مجيء الخبر على حسب مقتضى ظاهر حال المخاطبين، وهو تكذيب رؤساء المناقين قول المناقين (إنا معكم) والله أعلم.

- ٤ -

«أنأمرون الناس بالبر وتتسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون. واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين»

[الآيات ٤٤، ٤٥ من سورة البقرة]

الخطاب في الآيتين الكرمتين موجه إلى أحرار اليهود الذين كانوا يأمرهم وأقاربهم وخاصتهم بالإيمان بمحمد ولا يفعلون هم ذلك تشبهاً بسلطاتهم الدينية، وحرصاً على منافعهم الدنيوية، وقد ينجم الله على ذلك بقوله: «أفلا تعقلون».

أي أفلا تفتنون لفتح ما أقدمتم عليه حتى يصدقكم استباحتها عن ارتكابها؟ لكانكم مسلوبو العقول.

ولما كان هذا التوبيخ من الله للأحرار يمثل جانب الشدة معهم والتفريع لهم، فإن الوجه الآخر للتربية الربانية وهو وجه الرفق بهم والنصح لهم، قد تمثل في الآية الثانية «واستعينوا بالصبر والصلاة» أي بالجمع بينها بأن تصلوا صابرين على تكاليف الصلاة محتملين مشاقها وما يجب فيها من إخلاص القلب ودفع الوسواس ومراعاة الأدب مع الخشية والخشوع واستحضار أن الصلاة إنما هي قيام بين يدي الله.

ولأن الصلاة بالكيفية السابقة أمر صعب وهو ما لم يكن في الحسبان عقب سبحانه بقوله: «وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين».

هكذا يتنزل الخالين من مضمون الخبر منزلة المنكرين له، وهو الضرب الخامس من المجال الثاني؛
إيماء بأن من يتهاى للصلاة يجب عليه أن يستحضر الله وإغراء للمصلين بأن يكونوا من الحاشعين.
وما كان هذا التوجيه بشقيه ليتحقق لو أن الله سبحانه ساق الخبر للأخبار أصلاً، ولغيرهم فرعاً
على مقتضى ظاهر حالهم وهو خلو أذهانهم من صعوبة الالتزام بإتقان الصلاة.

- ٥ -

«من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين»

[الآية ٩٨ من سورة البقرة]

نقف من الآية الكرمة عند جملة «فإن الله عدو للكافرين»؛ لأنها من تنزيل خالي الذهن من
مضمون الخبر منزلة المنكر له وهو الضرب الخامس من المجال الثاني.
ونوضح ذلك بالآتي:

ظاهر الحال يقتضي أن يقال: من عادى الله ورسوله وملائكته وبخاصة جبريل وميكال عاداه الله،
لكن لأن سياق الآية هو التهديد الشديد روعي فيها ما يأتي:
أ - مجيئها اسمية لتفيد الثبوت والثبوت تأكيد.

ب - توكيدها بأن تكتمل لهجة التهديد حدثها وتصل فاعليتها إلى أقصى المدى في تخويف
الكافرين.

ج - وضع الظاهر موضع الضمير مرتين:

مرة في «فإن الله» بدلاً من «فإنه»؛ تهويلاً عليهم بلفظ الجلالة.

ومرة في «عدو للكافرين» بدلاً من «عدوهم»؛ إيماء إلى أنهم بسبب عداوتهم لله وملائكته ورسوله
صاروا كافرين، والله أعلم.

- ٦ -

«ولئن أتيت الدين أتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلك، وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع
قبلة بعض، ولئن اتبعت أهواهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين»
[الآية ١٤٥ من سورة البقرة].

الخطاب في الآفة الكرمفة موجه ابتداء إلى رسول الله ﷺ، وللتكلم إنما هو الله سبحانه وتعالى يحيطه علماً بأن اليهود والنصارى ميثوس من إيمانهم مها بذل في ذلك من جهد ومها قدم لهم من دلائل، بل لو قدم لهم كل المعجزات وكل الدلائل.

وغير وارد بالدرجة نفسها أن يتبع محمد ﷺ دين اليهود أو دين النصارى.

يتمثل هذا أو ذاك في التوجه أو عدم التوجه إلى الكعبة، واتخاذها أو عدم اتخاذها قبله، ويمضي فيكرس اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم حتى إن بعضهم لا ولن يتبع قبله بعض.

* * *

ما مضى تم الإخبار به في هدوء، لم يحلب الله على رسوله فيه بهتيد أو وعيد، فلم يكن محمد قبله يعلم أن الطريق إلى هداية أهل الكتاب مسدود، ولا أن بينه وبينهم حائطاً يتحطم عليه أمله في أن يتجه الجميع نحو قبله واحدة صدوراً عن دين واحد هو الإسلام.

أما وقد بصر الله رسوله وأبان له حقيقة الموقف، فليس له بعد ذلك عذر إذا عاد إلى قبلته القديمة كما تمنوا عليه قائلين له: «لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذي نتظره»^(٩).

إلى هنا والإشارة خضراء، لكن ها هي ذات تتحول إلى صفراء، وعلى ضوئها الباهت وفي وقتها الضيق يقول الله لرسوله: «ولن اتبع أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم».

وي. إنه التذير والتحذير، وما هو ذا الضوء الأصفر يتلاشى ليحل محله الضوء الأحمر.

تأزم الموقف إذن، ولم يعد يحتمل المجازفة، فليكن هذا الحكم الجازم الصارم الذي يشق على مؤمن عاص، فما الظن بمؤمن منيب، بل ما الظن برسول كريم هو محمد خاتم الأنبياء والمرسلين؟! 111

لكنه الخطر الداهم لو قطعت الإشارة الحمراء. إنه الصدم والحطم، وما ذلك بشيء ذي بال في جانب قول الله لرسوله، أو من هم وراء رسوله مما يوحى به تلهب الموقف:

«إنك إذا لمن الظالمين».

ولما كان الشهيد سيد قطب بصدد ما نحن فيه سأل:

لماذا هذا الجدل الصارم في خطاب الله لرسوله؟

وأجاب:

«إن الأمر هنا يتعلق بالاستقامة على هدى الله وتوجيهه، ويتعلق بقاعدة التميز والتجرد إلا من طاعة الله ونهجه، ومن ثم يجيء الخطاب فيه بهذا الجزم والجزم وبهذه المواجهة والتحذير (إنك إذا لم تكن الظالمين). إن الطريق واضح والصراط مستقيم، فإما العلم الذي جاء من عند الله، وإما الهوى في كل ما عداه، وليس للمسلم أن يتلقى إلا من الله، وليس له أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلب، وما ليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد.

وإلى جانب هذا الإيحاء الدائم نلمح كذلك أنه كانت هناك حالة واقعة من بعض المسلمين في غمرة الدسائس اليهودية، وحملة التضليل الماكرة تستدعي هذه الشدة في التحذير وهذا الجزم في التعبير» (١٠).

انتهى كلام الأستاذ سيد قطب، وهو يسمح بأن يكون الخطاب في (إنك إذا لم تكن الظالمين) هكذا بالضرب الإنكاري إنما هو الرسول ﷺ وحده، أو بعض المسلمين وحدهم، أو هما معاً في موقف أمل تفرقه حركة العقل تحت تأثير صور زاهية وأحلام وردية بواقع ديني متفرد هو انتظام الناس في صف الإسلام.

تلك الصور وهذه الأحلام جعلت محمداً ﷺ أو بعض أصحابه أو هما معاً يبدون وكأنهم غير مدركين خطورة ما يعرضه أهل الكتاب عليهم، وما يترتب عليه لو قبلوه من إضعاف لموقفهم، ومن ظلم لدينهم وأنفسهم.

وتصعيداً من الله لحالتهم تلك خاطبهم خطاب المنكرين للخطر المحيط بهم لو تركوا كهنتهم، وعاودوا التوجه إلى بيت المقدس.

وتكون الآية الكريمة مثلاً لتحول الضرب الابتدائي إلى الضرب الإنكاري، وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ٧ -

«وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال؟ قال: إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم»

[الآية ٢٤٧ من سورة البقرة]

الآية الكرعة واحدة من آيات كثيرة وردت في سياقها وفي القرآن الكريم كله تحكي قصصاً مختلفة عن بني إسرائيل وتعطي مواقفهم مع الله سبحانه وتعالى ومع أنبيائهم وملوكهم موافقين ومخالفين، طامعين وعاصين.

وآيتنا والآية (٢٤٦) قبلها تقولان: إنهم طلبوا من نبي لهم اسمه شمعون أن يُصَبَّ عليهم ملكاً يحاربون بقيادته جالوت وجنوده، ولحنكة شمعون وخبرته بهم أبطأ في الاستجابة لهم ولما ألخوا عليه قال: أخشى إن كتب الله عليكم القتال ألا تقاتلوا، فردوا: «وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا؟» وحين اطمأن شمعون إلى أنهم جادون أخبرهم أن الله قد بعث لهم طالوت ملكاً يحكمهم ويقودهم في الحروب، لكنهم لم يرحبوا بهذا الخبر بل صدموا به وراحوا يتساءلون وهم متعجبون ومنكرون: أئني يكون له الملك علينا؟ ولو تأملنا لوجدنا أنهم لم يصدروا في تساؤلهم عن فراغ، ولم يحتجوا على طالوت من غير سبب بل إن لديهم لذلك لسيين وجييين في رأيهم ومن وجهة نظرهم:

أحدهما مرثي هو أن طالوت لم يؤت سعة من المال.

والآخر خفي فهمه من قولهم «ونحن أحق بالملك منه»؛ فهو متضمن أن طالوت ليس من أبناء الملوك، وفيهم من هو من أبناء الملوك.

وانطلاقاً من هذين السيين الوجييين في رأيهم ومن وجهة نظرهم أصدروا حكمهم المرسل (ونحن أحق بالملك منه) هكذا دون تأكيد ما. فلماذا؟ أجل لماذا؟!! وإنهم ليعلمون وهم يحادلون نبيهم شمعون أنه مع من اختاره الله لهم، وتلك حججه تنال على رؤوسهم كالمطارق حجة في إثر حجة. شمعون الذي هو من نسل هارون أي الفصح بالوراثة يحاجهم ويحادلهم فيكتفون وهم يثبتون أحقيتهم بالملك من طالوت بإلقاء الخبر عليه ابتدائياً غير مؤكد!! إنه لأمر محير، والمسألة لا تخرج عن احتمالين: أولها: أنهم ليسوا على مستوى الموقف قولاً وفعلًا. ومستحيل أن يكون هذا هو رأيهم في أنفسهم.

والثاني: أنهم أجروا خبرهم على خلاف ظاهر حال شمعون، وهذا الاحتمال هو المعقول، وبه كانت جملة (ونحن أحق بالملك منه) مما نحن فيه أي من مجيء الخبر على خلاف مقتضى ظاهر الحال في القرآن الكريم.

لقد كان المتوقع أن يقولوا: «إننا لأحق بالملك منه» أو «ورب موسى وهارون إننا لأحق بالملك من طالوت» لكنهم جاموا بالخبر خافاً مصمتاً كما نرى. مرة أخرى لماذا؟

وسبيل من الإجابة عن هذا السؤال الملح نعرف بأنه على الرغم من أن الأدلة على أحقية طالوت بالملك أدلة مادية ومعنوية، وهي بهذه الازدواجية كانت في حاجة إلى أن تُنقَضَ وتنقَضَ وتُنقَضَ وتنقَضَ، وهي مرات من النقض تتواءم وتلتام مع ما عند شمعون من خلفية عن الموقف برمته وإنها لخلفية رافضة ومناهضة ثم هي مركبة:

بعضها يتعلق بالمعارضين لطالوت وهو أنهم أقل منه في الجسم والعلم.

وبعضها يتعلق بطالوت. وما يتعلق بطالوت أمور منها:

أ - أن الله اصطفاه عليهم أي اختاره من بينهم، وإذا كان الله قد اختاره من بينهم فلا شك أنه يفضلهم.

ب - أن الله زاده بسطة في العلم والجسم.

ج - أن الله يؤتي ملكه من يشاء، وقد شاء الله طالوت ولم يشأ غيره.

وبهذه الخلفية المكثفة عند شمعون يتنى انتفاء تاماً أن يكون المجادلون له من وجهة نظره وفي اعتقاده أحق بالملك من طالوت، واستلال هذا الاعتقاد فيهم يقتضيهم - محواً له وإحلالاً لصدده محله - أن يؤكدوا أحقيتهم بالملك ما شاء الله من التأكيد. لكنهم لم يؤكدوا، وعلام التأكيد وهم في غير حاجة إليه؟!

إن أحقيتهم بالملك في اعتقادهم هم ومن وجهة نظرهم هم واضحة وضوح النهار الذي لا يحتاج إلى دليل. المسألة بالنسبة إليهم منتهية، وخارج نطاق الأخذ والرد، وقد راعوا في تقرير أحقيتهم بالملك حقيقة أمرهم هم وهي الحقيقة المطلقة عندهم لا حقيقة حال شمعون ولا ظاهر حاله.

ومن يدري فلعلهم تركوا لسان حالهم يقول عنهم، ولما خافوا ألا يُسمع له تفضلوا فقالوا دون تأكيد ما، وبمسهم أنهم قالوا.

مرة أخرى من يدري؟ فلعلهم كانوا يرون أن التعامل مع الواقع القايح في العقول أقوى وأصدق من التعامل مع الواقع الظاهر للعيون، وفي هذا تكن بلاغة وأفضلية مجيء الخبر مغالطاً لظاهر حال مخاطبين به على وجه العموم.

والآية الكريمة لهذا من تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة العالم به أو خالي الذهن منه أي من جعل

الضرب الإنكاري ابتداءً، وهما الاحتمالان التاسع والعاشر فيما سبق والله أعلم.

- ٨ -

«فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأُنثى وإني سميتها مريم وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» [الآية ٣٦ من سورة آل عمران]

تضمنت الآية الكريمة فصلاً من قصة مريم.

توقعت أمها حين حملت بها أن ما في بطنها ولد، فنذرت له للخدمة في بيت المقدس، ولما كان الوفاء بالنذر مشروطاً بأن يكون المولود ذكراً، فقد أصيبت أم مريم بالإحباط حين ولدت أنثى ولم تملك نفسها أن قالت: «رب إني وضعتها أنثى»، ولأن الله أعلم بما وضعت، فقد كان مقتضى ظاهر الحال ألا تقول أصلاً، وإن قالت فبالضرب الابتدائي لا الطلبي. تقول مثلاً: (أنا وضعت أنثى) أو (المولود أنثى).

فلماذا عدلت عن ذلك إلى «إني وضعتها أنثى»؟

يمكن القول بأن أم مريم لم تتوجه بخبرها إلى الله تعالى بل إلى نفسها.

وعن الجملة الإنشائية (رب)، فقد أتت بها لتشهد الله على نفسها، ولترى أسفها على ضياع أملها. ونمضي في استبطان زوجة عمران فنذهب إلى أنها إنما قالت ذلك على سبيل الاعتذار إلى الله عن عدم وفائها بنذرها، لأن مولودها أنثى، والأنثى في ذهنها وفي زمنها لم تكن صالحة للمهمة التي نوت نوطها بحملها لو جاء ولداً.

وسواء كان خبرها موجهاً إلى الله تعالى أو إلى نفسها فإنه من تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة المتردد في قبوله وهو الضرب الثاني من مجيء الخبر على خلاف مقتضى ظاهر الحال في القرآن الكريم.

* * *

وما قلناه في (إني وضعتها أنثى) نقوله في: «وإني سميتها مريم» وفي «وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» والله أعلم.

- ٩ -

«إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم، وجيباً في الدنيا

والآخرة ومن المقربين» [الآية ٤٥ من سورة آل عمران].

معنى «إن الله يشرك بكلمة منه» أي بمولود يحصل بكلمة من الله بلا واسطة أب. وظاهر الحال في الآية الكريمة يقتضي أن تأتي بدون (إن) لأن مريم كانت خالية الذهن مما بشرت به، وهو الضرب الابتدائي، لكن عدل عنه إلى الضرب الطبلي لاعتبارات خاصة منها:

(أ) نزول الملائكة على مريم؛ فالملائكة لا تنزل في الأمور السهلة.

(ب) استقطاب الملائكة لها بندايمهم المأدب عليها، نفهم ذلك من (يا) الدالة بأصل وضعها على نداء البعيد، فما كانت مريم خارج دائرة الصوت وقت مناداتهم عليها بل في بورتها.

ها هي ذات بين أيدي الملائكة وها هم أولاء يصيون اسمها في أذنيها.

(ج) ما آل إليه حال مريم نتيجة الأمرين السابقين من قلق نفسي وتوتر عصبي.

(د) الخبر الملقى عليها مظنة الشك فيه للإبغاث به ولذاته، ولا عجب؛ فهو من نوع «إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً».

ومجيئه ظليلاً لا إنكارياً دليل على مراعاة الله لظروف مريم من جهة، وعلى حسن ظنه بها من جهة والله أعلم.

- ١٠ -

«ويعلمه الكتاب والحكمة والإنجيل. ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً ياذن الله، وأبرئ الأكمة والأبرص وأحيي الموتى ياذن الله وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين» [الآيتان ٤٨، ٤٩ من سورة آل عمران].

• • •

(ورسولاً): أي ويجعل الله عيسى عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل، وهو عطف على (ويعلمه الكتاب) في صدر الآية السابقة.

والشاهد هو الخبر المتمثل في قول الله تعالى «إن في ذلك لآية لكم».

فقد نزل الله المقربين به منزلة المنكرين له فأكدته بثلاثة مؤكدات هي: (إنَّ) و(اللام)، و(القصر) بتقديم ما حقه التأخير، وهو الضرب الثالث من المجال الثاني فيما سبق.

والسبب البلاغي في ذلك أن الخبر مسبوق بأربعة أدلة على صدق رسالة عيسى، ولما كانت هذه الأدلة بالغة القوة، ناسب أن يعقبها خبر في مثل قوتها طرداً للباب على وثيرة واحدة هذا أولاً.

أما ثانياً: فهو أنه إذا كان اليهود لا ينكرون معجزات عيسى قولاً، فإنهم لم يرتبوا على عدم إنكارهم هذه المعجزات ما كان منتظراً منهم وهو الإيمان بعيسى فعلاً.

وقد جعل الله هذا السلوك منهم بمثابة إنكارهم رسالة عيسى قولاً وفعلماً معاً والله أعلم.

- ١١ -

«ولا يحسن الذين كفروا أنما على هم غير لأنفسهم إنما على هم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين» [الآية ١٧٨ من سورة آل عمران].

الإملاء للكافرين هو تخليتهم وشأنهم من أملى لفرسه إذا أرخى له الطوال ليرعى كيف شاء، أو هو إطالة أعمارهم^(١١).

والمعنى الكلي للآية هو: لا يظن الكافرون أن إطالنا أعمارهم مع إهمالنا لهم بدون عقاب خير لهم، فنحن بتفسيح المدة وترك المعالجة بالعقوبة نريد أن تزداد ذنوبهم ليزداد تبعاً لذلك عقابهم، وكان مقتضى ظاهر الحال أن يؤكد الله ما توعدهم به من العذاب المهين أشد تأكيد، ليضي السياق في مساره المحلق بلا الناهية وينون التوكيد الثقيلة وبأن المؤكدة وبالقصر ويزيادة الإثم، لكنه سبحانه نزل به عما كان متوقعاً له فقال: «ولهم عذاب مهين» هكذا بمؤكد واحد هو القصر بتقديم الخبر على المبتدأ علماً بأنهم ينكرون أنهم سيعذبون ذهاباً منهم إلى أنهم لو كانوا سيعذبون ما أملى الله لهم.

والسر البلاغي في تحول السياق من الشدة إلى اللين أن الله تعالى قد وكل الكافرين إلى عقوبهم، فلو فكروا لعلموا دون تأكيد ما أن عذاباً مهيناً ينتظرهم جزاء كفرهم.

وبهذا يكون الله قد نزل من ينكر مضمون الخبر منزلة الشاك فيه وهو الضرب الحادي عشر من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ١٢ -

«ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم

ستعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم. وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم. خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم»

[الآيات ١٠١ - ١٠٣ من سورة التوبة]

في الآيات الثلاث يخبر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بعامه ومحمداً ﷺ بخاصة أن من الأعراب المحيطين بالمدينة ومن أهل المدينة نفسها منافقين مردوا على النفاق أي لجوافيه وثبتوا عليه. هؤلاء سيُعذبهم الله مرتين أي نوعين من العذاب في الدنيا ثم يردون إلى عذاب عظيم في الآخرة. وعدا المنافقين خارج المدينة ودخلها يوجد المؤمنون الذين تحلفوا عن غزوة تبوك لانفاقاً بل كسلاً ثم ندموا على ما فعلوا، يقول الله في شأنهم: «خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً» أي خلطوا جهادهم السابق وخروجهم مع الرسول فيما كان من الغزوات قبل تبوك بتخلفهم عن تبوك. هؤلاء «عسى الله أن يتوب عليهم».

قال الطبري: «عسى من الله واجب ومعناه: سيتوب الله عليهم ولكنه في كلام العرب بمعنى الترجي».

وقد علل سيد قطب قول الطبري «إن عسى من الله واجب» بأنه «رجاء من يملك الرجاء سبحانه»^(١٧) وكان مخاطبين بما سبق وهم المسلمون والرسول حالياً والمسلمون والمسلمات مستقبلاً، أقول: كأن هؤلاء وأولئك حاك في صدورهم أو سيحك ما جعل الله يترطم منزلة المتسائلين عن السر في أن يتوب الله على المتخلفين وهم مذنبون، فأجاب عن التساؤل المفترض بقوله: «إن الله غفور رحيم» هكلاً بمؤكدين هما (إن) و(واسمية الجملة).

وبهذا التأكيد كان الإخبار بأن الله غفور رحيم مما جاء على خلاف مقتضى ظاهر حال مخاطبين لأن مقتضى ظاهر حالهم هو عدم التأكيد لهم.

وتصفية لموقف المتخلفين عن غزوة تبوك من أية شائبة، ورغبة في أن تعود صفحتهم إلى سابق بياضها أمر الله رسوله أن يأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم كي يلحقوا بإخوانهم الذين حضروا تبوك.

قال ابن جرير: «حدثني محمد بن سعد قال: حدثني أبي قال: حدثني عمي قال: حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قال: لما أطلق رسول الله ﷺ أبا لبابة وصاحبيه، انطلق أبو لبابة وصاحباه بأموالهم، فأتوا بها رسول الله ﷺ فقالوا: خذ من أموالنا فتصدق بها عنا وصلّ علينا، يقولون: استغفر لنا وطهرنا فقال رسول الله ﷺ: لا آخذ منها شيئاً حتى أؤمر، فأنزل الله «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم»، يقول: استغفر لهم من ذنوبهم التي كانوا أصابوا، فلما نزلت الآية أخذ رسول الله ﷺ جزءاً من أموالهم فتصدق به عنهم» (١٣) وكما نرى لم يقصر الله سبحانه وتعالى طلبه من محمد ﷺ على أخذ بعض أموالهم، بل أضاف إليه الصلاة عليهم.

وإذا كان سبب النزول ظرفاً للطلب الأول، فإن الأمر بالصلاة زائد على هذا الظرف وغير داخل فيه لسبب واضح هو أنه لم يكن وارداً على ذهن الرسول ﷺ، وبناءً عليه لم يكن الرسول ﷺ متوقعاً له، ومن شأن هذا السبب بشقيه أن يجعل الرسول ﷺ غير متوأم نفسياً مع أمر الله له بالصلاة عليهم.

وليم هذا التوأم جيء بالموكدين (إن) و(اسمية الجملة) في «إن صلاتك سكن لهم» كما جيء بها في «إن الله غفور رحيم» وهما لذلك من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة المتردد فيه وهو الاحتمال الرابع من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ١٣ -

«ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبدل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم»

[الآيات ٦٢ - ٦٤ من سورة يونس]

الولي بنص الآية الثانية هو المؤمن التقى، قال رسول الله ﷺ: «إن الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله، قالوا: أخبرنا من هم وما أعمالهم، قال: هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعل منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ: ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (١٤).

ونقف من الآيات الثلاث وقفتين: الأولى مع الآية الأولى، والثانية مع صدر الآية الثالثة أما الآية الأولى فهي خبر ضربة إنكارى؛ لأنه مؤكد بثلاثة مؤكدات هي (ألا) الاستفناحية و(إن) واستغراق النفي بلا المكررة، لكأن المخاطبين بهذا الخبر في غاية الإنكار له وفي منتهى الرفض لمضمونه، علماً بأنه لذاته، ولحظوا أذاهم من مضمونه قبل قوله، كان خليفاً أن يساق مرسلًا كأن يُقال: أولياء الله لا يخافون ولا يحزنون. أو: لن ينال الخوف ولا الحزن أولياء الله. فلما ذا عدل عن ذلك إلى الضرب الإنكارى؟ نجيب بأن المسألة مسألة مصير، ومن تأصيلها أنها نتيجة للإيمان وللتقوى. أجل: إنها ذكرا بعدها، لكن على أنها سببها والمسوغ لها، ولا ننسى أن إضافة الأولياء إلى الله تستدعي أسلوباً يحدد هويتهم ويؤكد خصوصيتهم وينسجم في النهاية مع ما قرره الله لهم من دعة وأمن، ومن فرج وسرور.

والآية لهذا من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر أو العالم به منزلة منكره، وهي لذلك تتردد بين الضربين الثالث والخامس من الاحتمالات السابقة.

وأما صدر الآية الثالثة (لهم البشرى) فلفخامته وعظمته، ولسعة رقعة البشارة به في الحياة الدنيا وفي الآخرة، قد أوشك على تجاوز المتوقع، وصار مظنة ألا يُصدق.

ولأنه قد أوشك على تجاوز المتوقع، وصار مظنة ألا يُصدق، كنا نتظر أن يأتي مؤكداً بأكثر من مؤكد، لكنه أتى شبه مرسل.

ويمكن القول لهذا بأن التصور الوهلي لنودجنا المزدوج قد جاء معكوساً هكذا:

ما كان متوقعا أن يأتي مرسلًا جاء مؤكداً بثلاثة مؤكدات في الآية الأولى، وما كان متوقعا أن يأتي مكثف التوكيد جاء شبه مرسل في الآية الثالثة، وإذا كنا قد عللنا الشق الأول، فإن من تعليل الشق الثاني أن نقول: إن الله بملكه وملكوته لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يشق عليه أمرٌ ما - حاشاه - من أمور الدنيا أو الآخرة، وبحسبه في وعده لأوليائه أن يقول: «لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة» هكذا بأسلوب القصر وكفى؛ اعتماداً على ما هو مستقر في أعناق المؤمنين من أن الله تعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون، وهو الضرب الحادي عشر من الاحتمالات السابقة، والله أعلم.

«إنهم مغرورون» في الآية الكريمة خبر أتى على خلاف ما يقتضيه ظاهر حال المخاطب به وهو نوح عليه السلام؛ لأنه كان خالي الذهن من مضمون الخبر، لكن لما نهاه الله عن أن يتشفع لديه لقومه، توجَّس خيفة وتردد حلمه بين نزول العذاب بهم ونجاتهم؛ وقد كان هذا التردد في جوانية نوح سبباً في أن يلقي الله عليه الخبر مؤكداً بمؤكدتين هما (إن) و(اسمية الجملة) وصولاً به إلى استقراره النفسي، وإشباعاً لغريزة حب الاستطلاع عنده.

وبهذا يكون خالي الذهن من مضمون الخبر قد نزل منزلة المنكر له وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ١٥ -

«وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم»

[الآية ٥٣ من سورة يوسف]

الآية الكريمة مما أجراه الله على لسان يوسف عليه السلام، وجملة «إن النفس لأمارة بالسوء» خبر جار على خلاف مقتضى ظاهر حال المخاطبين به.

بعد إدلال يوسف بعفته في قوله: «ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيبة»، وبعد توجهه إلى ما يشبه التشفي من خصمه بقوله: «وأن الله لا يهدي كيد الخائنين» قال: «وما أبرئ نفسي».

ولما كان هذا القول مظنة إنكار من يسمعه لأنه هو الطرف الآخر لما قبله، عقب عليه بقوله: «إن النفس لأمارة بالسوء» هكذا بأربعة مؤكداً هي (إن) و(اللام) و(صيغة المبالغة) و(اسمية الجملة) والمخاطب بعد موجه إلى خالي الذهن منه، أي إلى من لم يكن يعلمه، فهو من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة المنكر له وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ١٦ -

«وإلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون»

[الآية ٢٢ من سورة النحل]

بعد أن تهكم الله في الآيتين السابقتين على هذه الآية بالأصنام المعبودة من دونه قال: «وإلهكم إله

واحد هكذا دون تأكيد ما مع أن المخاطبين به هم المنكرون المستكبرون، ثم هم المتعجبون من أن عمداً ﷺ قد جعل الآلهة إلهاً واحداً.

وقد صدر الله سبحانه في هذه الآية عما صدر عنه في الآية الثانية من سورة البقرة فالوقوف هنا وهناك أوضح من أن يحتاج إلى دليل، والأمر فيها ومعها كما قال الشاعر:

وليس بضح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل
والآيتان لهذا تنصويان تحت الضرب العاشر من أضرب الخبر الجارية على خلاف مقتضى الظاهر وهو الخاص بتزليل منكر الخبر منزلة خالي الذهن منه، متى كان عنده أو حوله ما إن تأمله ارتدع عن إنكاره دون تدخل بلاغي والله أعلم.

- ١٧ -

«وقل الحق من ربكم لمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً»

[الآية ٢٩ من سورة الكهف]

الآية الكريمة مما نزل في عينية بن حصن ورفاقه، أتى النبي ﷺ وعنده جماعة من الفقراء منهم سلمان الفارسي وعليه شملة صوف قد عرق فيها، فقال عينية للنبي ﷺ: أما يؤذيك ريح هؤلاء؟! ونحن سادة مضر وأشرافها إن أسلمنا يسلم الناس، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحهم عنك حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلس، قالوا: فهم رسول الله ﷺ أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فلما نزلت الآية التي تسبق آيتنا وهي: «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فوطاء».

أقول: لما نزلت هذه الآية والآية التي معنا وآيتان بعدهما خرج رسول الله ﷺ يلتمس الفقراء، فلما رآهم جلس معهم وقال: الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرني ربي أن أصبر نفسي معهم.

والشاهد في آيتنا هو قول الله تعالى: «إنا أعتدنا للظالمين ناراً، فهو خبر جار على خلاف مقتضى ظاهر الحال؛ لأنه إن كان موجهاً إلى رسول الله فرسول الله يعلم مسبقاً أن الله أعد للظالمين ناراً، وإن كان موجهاً إلى عينية ورفاقه، فعينية خالي الذهن من مضمون الخبر وكذلك رفاقه.

وسواء كان هذا أو ذاك، فظاهر الحال في هذا أو ذاك يقتضي إلقاء الخبر مرسلًا غير مؤكد لكن الله سبحانه وتعالى أتى به مؤكداً يؤكد واحد؛ تنزيلاً للعالم بمضمون الخبر (محمد ﷺ) أو لحالي الدهن منه (عينية...) منزلة الشاك فيه. لماذا؟

لأنه سبحانه قد قاله على سبيل التهديد والوعيد لعينة وجماعته، ففي غير قليل من السخط وفي غير قليل من الغضب أمر الله رسوله أن ينهي إلى المتغطرسين من قومه أن ما جاء به من الدين إنما هو الحق من ربهم خالق الفقراء وخالقهم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لكن دون تشريط، ولم يكن ملائماً للسخط كما لم يكن ملائماً للغضب أن يحيى التهديد والوعيد دون تأكيد. والآية قبل وبعد تردد بين الاحتمالين الثاني والرابع من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ١٨ -

«يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم»

[الآية (١) من سورة الحج]

الآية الكريمة من تنزيل خالي الدهن من مضمون الخبر منزلة المنكر له.

والسبب في ذلك أن الله تعالى بدأ فأمر الناس - كل الناس - بتقواه، ولما كان كثير منهم يعصونه أو ينتظر منهم ذلك، فقد أتى سبحانه بالجملة الخبرية المهولة بما اشتملت عليه وأبرزته وهو أن زلزلة الساعة شيء عظيم، وناسب هذا النسق الجاد الصارم أن تسور الجملة بمؤكدتين يرسخان معناها ويحعلان احتمال التراجع عن التهديد بها أمراً غير وارد والله أعلم.

- ١٩ -

«وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لَكفور»

[الآية ٦٦ من سورة الحج]

يكثر في سورة الحج الضرب الإنكاري الجاري على خلاف مقتضى ظاهر حال مخاطبين به كقوله سبحانه قبل الآية ٦٦:

«وإن الله على نصرهم لقدير» [من الآية ٣٩].

«وإن الله لقوي عزيز» [من الآية ٤٠].

«وإن الظالمين لفي شقاق بعيد» [من الآية ٥٣].

«وإن الله هو خير الرازقين» [من الآية ٥٨].

«وإن الله لعليم حلیم» [من الآية ٥٩].

«إن الله لغفور غفور» [من الآية ٦٠].

«وإن الله سميع بصير» [من الآية ٦١].

«وإن الله هو العلي الكبير» [من الآية ٦٢].

«وإن الله هو الغني الحميد» [من الآية ٦٤].

«إن الله بالناس لرؤوف رحيم» [من الآية ٦٥].

وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور.

والآية الأخيرة هي موضوع هذه الفقرة.

لقد أوجز سبحانه وتعالى قصة الحياة والموت والبعث بأبلغ إيجاز وأوردتها في ثلاث كلمات كل كلمة منها عالم قائم بذاته ومرحلة ممتدة في الزمان والمكان بمقدار الزمان والمكان.

أحياكم أعماركم وأعاشكم إياها، ثم يميتكم ويقيكم في قبوركم إلى أن تقوم الساعة للحساب وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب.

والمراحل تغطي متراخية، فواصلها (ثم)، والمخاطبون بها لا يستشعرونها، ولأنهم لا يستشعرونها فإنهم لا يشكرون الله عليها، لكنهم يحجدونها.

ومن هنا كان تصعيد الخبر من الضرب الابتدائي إلى الضرب الإنكاري؛ تنزيلاً لخالي الذهن من مضمون الخبر منزلة منكروه.

وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ٢٠ -

«ثم إنكم بعد ذلك لميتون» [الآية ١٥ من سورة المؤمنون].

بعد أن سرد الله تعالى مراحل خلقنا وأطوار نشأتنا عطف على ذلك بقوله «ثم إنكم بعد ذلك لميتون» هكذا بثلاثة مؤكدات هي (إن) و(اللام) و(اسمية الجملة)، مع أن الموت مسلم به من كل

الناس، لا ينكره أحد ولا يماري فيه، وكيف ينكره أو يماري فيه وهو يعانيه من حوله وفي أهله وذات يوم في نفسه.

لكن الناس مع ذلك ينسون أنهم سيموتون، فيتصرفون كأنهم عابدون، ولهذا كثف الله لهم التوكيد، وهذا التأكيد من قبيل تنزيل العالم بمضمون الخبر مترلة المنكر له وهو الضرب الثالث من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ٢١ -

ثم إنكم يوم القيامة تبخون، [الآية ١٦ من سورة المؤمنون].

بعد الآية السابقة وهي آية الموت، أتت هذه الآية وهي آية البعث.

وإذا كان الموت مسلماً به من جميع الناس، فإن البعث ليس كذلك، وكان مقتضى هذا أن تؤكد آيته أكثر من تأكيد آية الموت، لكن الله تعالى قد رأى أن يكمل الناس في هذه القضية الشائكة إلى عقولهم، عساها تخلخل إنكارهم وتحركه من نقطة النهاية إلى نقطة الوسط، وتفاعل لهم بذلك فخطيئهم وهم منكرون على أنهم شاكون.

والآية لهذا من الضرب الحادي عشر والله أعلم.

- ٢٢ -

وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون، [الآية ٧٤ من سورة المؤمنون].

المتحدث عنهم في الآية الكريمة لا يؤمنون بالآخرة ولا يعرفون مع عدم إيمانهم بها أنهم ناكبون عن الصراط المستقيم، بل هم من وجهة نظرهم مستقيمون، وإذا كان هذا حاطم فقد كان يكفي الإخبار عنهم بالضرب الابتدائي، لكن الله سبحانه وتعالى نزلهم مترلة المنكرين، وتحدث عنهم بالضرب الإنكاري تمشياً مع السياق الذي بدأ بمحرقتهم والتشنج عليهم بأنهم ينظرون إلى الرسول ﷺ وكأنه ينتظر أجراً منهم على موالاته دعوتهم إلى الإسلام (أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين).

وهذا كمن يشع على قوم بفساد الاعتقاد ثم يعقب على ما ذكره بقوله: «إن هؤلاء لضالون» علماً بأنهم يصدرون في معتقدتهم عن موروث خاص بهم يجعلهم لا يشعرون بأنهم مخالفون إلى درجة الشذوذ، وهو من الضرب الخامس في الاحتمالات السابقة والله أعلم.

«قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير. الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور» [الآيتان ١، ٢ من سورة المجادلة].

غضب أوس بن الصامت على زوجته خولة بنت ثعلبة فظاهر منها أي قال لها: أنت علي كظهر أمي، ولما كان هذا الظهار يحرم الزوجة على زوجها ولكنه لا يطلقها منه أي يدعها معلقة فقد تضررت خولة منه وأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله. إن أوساً ظاهر مني فما ترى؟ فقال لها رسول الله ﷺ: ما أراك إلا حرمت عليه، لم تقتنع خولة، وأخذت تجادل الرسول وتقول له: ما طلقني يا رسول الله لكنه ظاهر مني، فبعد الرسول ﷺ عليها قوله السابق، ولم تملك خولة أن قالت: اللهم إني أشكو إليك. قالت عائشة رضي الله عنها وكانت بحيث تسمع: فما برحت حتى نزل جبريل بالآيات من أول سورة المجادلة.

والشاهد في قوله تعالى «وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً» وفي قوله تعالى: «إن الله لعفو غفور»، فيها من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة منكراً بتأكيده مرتين في الشاهد الأول وثلاث مرات في الشاهد الثاني؛ تويلاً على المظاهرين، وردعاً لهم، وتمهيداً من الله سبحانه وتعالى لرفع الظلم الواقع على الزوجات المظاهر منهن بما سيقوله جل شأنه في الآيتين الثالثة والرابعة من السورة، وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

«إن ربك لبالمرصاد» [الآية ١٤ من سورة الفجر].

بعد أن ذكر الله في الآيات السابقة على هذه الآية من سورة الفجر ما فعل بعاد وثمود وفرعون، وهو أنه سبحانه قد صب عليهم سوط عذاب، عقَّب - جلت قدرته وعظمت حكمته - فقال محذراً ومنذراً «إن ربك لبالمرصاد» هكذا بمؤكدتين هما (إن) و(اللام) أي بالضرب الإنكاري، مع أن محمداً ﷺ وهو المخاطب به «ألم تركيف فعل ربك بعاد»، وبالكاف في «وصب عليهم ربك سوط عذاب» وفي «إن ربك لبالمرصاد». محمداً صلى الله عليه لا ينكر ولا يمكن أن ينكر أن ربه بالمرصاد لعاد وأمثال عاد إلى أبد الآباد.

ما السبب إذن في العدول بالخبر من الضرب الابتدائي وهو ما يقتضيه ظاهر حال المخاطب إلى الضرب الإنكاري وهو ما اقتضاه خلاف هذا الظاهر؟ أقول:

لعل السبب في ذلك أن الخبر موجه بظاهر مبناه إلى محمد ﷺ، ويباطن معناه إلى كفار مكة الذين يسرون في الطريق نفسه الذي سارت فيه ثمود وعاد وفرعون ذوالأوتاد، وبناءً عليه يكون المقصود بظاهر اللفظ في الخبر قد نزل منزلة المقصود بباطن المعنى فيه، وقد سهل ذلك وساعد عليه وأزال أو على الأقل خفف الحرج منه أن مضمون الخبر في ذاته مقصود به التهديد والوعيد جنباً إلى جنب مع الإخبار، بل قبل الإخبار، وأكد أقول لا الإخبار، وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ٢٥ -

والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجل. وما خلق الذكر والأنثى. إن سعيكم لشتى.

[الآيات ١ - ٤ من سورة الليل]

الآيات الكريمة أسلوب قسم، وأسلوب القسم ينقسم إلى مقسم به ومقسم عليه، والشاهد هنا في المقسم عليه وهو: «إن سعيكم لشتى» أي مختلف، ففرضه إنكاري، علماً بأن المخاطبين به لم يكونوا يعرفون قبل ذكره على أي شيء يقسم الله بالليل والنهار وخلق الذكر والأنثى.

وكان ظاهر حالهم يقتضي أن يساق الخبر لهم مرسلًا غير مؤكد أي ابتدائياً، لكن الله سبحانه ساقه إنكارياً مؤكداً بثلاثة مؤكدات هي (إن) و(اللام) و(اسمية الجملة).

ونبحث عن السبب البلاغي في ذلك فنجد أمرين يمكن الوقوف عندهما:

الأمر الأول يتصل بالمقسم به، والمقسم به هنا تركيب كوني عجيب وحداته الليل والنهار وكل ما يدخل في حوزتها أو ينبثق عنها ذكراً كان أو أنثى.

والأمر الثاني يتصل بالمقسم عليه وهو تنوع سعي البشر ما بين خير له ثواب، وشر عليه عقاب.

ولم يكن متظراً في زحمة عظمة المقسم به والمقسم عليه أن يأتي الخبر عادياً يقال أو يكتب بلا عناء، ويُسمع أو يُقرأ بلا تدبر، بل لا بدَّ له وفيه من مؤكدات تريشه ليصل إلى أعماق العمق من قارئه أو سامعه مهما كان موقفه منه أي بصرف النظر عن ذلك، وهذا ما كان، وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

«كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِتْفَاحٌ. إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجْعِي،

[الآيات ٦ - ٨ من سورة العلق]

من الموضوعات التي عالجتها سورة [العلق] وتسمى أيضاً سورة [اقرأ] موضوع طغيان الإنسان حين يجد نفسه مستغنياً بالمال عن السؤال، والآيات التي معنا نص في هذا المعنى، فبدلاً من أن يشكر صاحب المال ربه الذي يسره له تجده قد تسبه وجحد فضله، لكأنه لم تعد له حاجة به أو إليه على حد قول الشاعر:

صلى وصام لأمر كان يطلبه فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صام

هذا التنكر لله بالسلوك المنحرف عن الله، ومنع الله معناه وجعله كذلك تنكراً بالجنان واللسان وبناءً عليه خاطب صاحبه خطاب غير المعترف بالبعث، وبما سيكون بعد البعث من لقاء الله للحساب وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب، وقد اقتضاه ذلك أن يؤكد له الخبر - وهو المقر به - مؤكداًين هما: [إِنَّ] و[القصر] بتقديم ما حقه التأخير: خبر إِنَّ [إلى ربك] على اسمها [الرجعي] تزيلاً للعالم بمضمون الخبر منزلة المنكر له، وهو الضرب الثالث من الاحتمالات السابقة، وتخريج الآية لهذا هو تخريج بيت حجلة بن فضلة.

جاء شقيق عارضاً رحمه إن بني عمك فيهم رملح

والله أعلم.

«قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ، وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ،

[سورة الكافرون]

الآيات من ٢ - ٦ في هذه السورة ضربها ابتدائي، وهي تتردد بين طرفين وتدور حول محورين: المحور الأول وهو هو الطرف الأول: أن النبي ﷺ لا ولن يعبد ما يعبد كفار مكة من الأصنام. والمحور الثاني وهو هو الطرف الثاني: أن كفار مكة لا ولن يعبدوا ما يعبد محمد ﷺ وهو الله سبحانه وتعالى.

جاء إعلان المحور الأول الذي هو الطرف الأول في الآية الثانية من السورة الكريمة في صيغة جملة فعلية متفية [لا أعبد ما تعبدون] وتم توكيده لفظياً بالآية الرابعة من السورة الكريمة في صيغة جملة اسمية [ولا أنا عابد ما عبدتم] جمعاً بين التجدد المستفاد من الجملة الفعلية والثبوت المستفاد من الجملة الاسمية.

وجاء إعلان المحور الثاني الذي هو الطرف الثاني في الآية الثالثة من السورة الكريمة بصيغة الجملة الاسمية ابتداءً [ولا أنتم عابدون ما أعبد]، وتم توكيده هو هو توكيداً لفظياً محضاً بالآية الخامسة من السورة الكريمة [ولا أنتم عابدون ما أعبد] وهي الجملة الاسمية السابقة نفسها؛ إيحاءً إلى أنهم قد ألغوا عقولهم من أول الأمر قولاً واحداً.

• • •

ونلتفت نحن بمئة إلى محمد ﷺ ودينه وموقفه.

ثم نلتفت يسرة إلى الكفار ودينهم وموقفهم، فلا نجد بارقة أمل في لقاء توهمه الكفار ممكناً بقبول محمد العرض الذي عرضه عليه وهو سبب نزول هذه السورة قال المفسرون:

إن قريشاً طلبت من الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، فقال: معاذ الله أن نشرك بالله شيئاً، فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك وتعبد إلهك فنزلت السورة، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملاء من قريش فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم فأيسوا منه وآذوه وآذوا أصحابه (١٥).

وما فعله محمد ﷺ هو الصواب أولاً، وإنه للمأمور به من الله ثانياً وحاشاه أن ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى.

أجل فالشرك شرك والتوحيد توحيد ولن يلتقيا؛ لأنه لا يصح إلا الصحيح، والصحيح فيما نحن فيه هو الخروج من الشرك جملة والدخول في التوحيد جملة، أو كما قال سيد قطب وهو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه، لا ترقيع ولا أنصاف حلول، ولا التقاء في منتصف الطريق مها تزيت الجاهلية بزي الإسلام أو ادعت هذا العنوان (١٦).

• • •

بقيت القفلة أو الخاتمة متمثلة في الآية الأخيرة من السورة الكريمة (لكم دينكم ولي دين) وإذا

كانت الآيات السابقة قد أكدت نفسها داخل حدودها بتكررها كما هي جملة اسمية في حالة الكافرين، وتكررها مراوفاً فيها بين الجملتين الفعلية والاسمية في حالة محمد ﷺ، فقد كان مقتضى ذلك، وبعبارة بلاغية أدق: مقتضى ظاهر الحال في ذلك أن تأتي الآية الأخيرة قاطعة للحوار المثار قبلها وأن تصعد إلى أفقها الذي توقعناه لها على سلم من التوكيد المكثف كأن تكون «إن لكم دينكم وإن لي ديني» أو «إن لكم لدينكم وإن لي لديني» ونحو ذلك، تكبيراً للصورة وإبرازاً للملاحظة. لكن مقتضى ظاهر الحال شيء، ومقتضى الحال نفسه شيء آخر، ولعلنا هنا أمام موقف من مواقف الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، فقد راعى الله سبحانه وتعالى الحال الحقيقي وهو حال مخاطبين المدرك بالبصيرة، ولم يراعِ ظاهر حالهم المدرك بالبصر وبعبارة مختصرة: تعامل مع الجوهر ولم يتعامل مع العرض.

ومن المسلم به دينياً وتربوياً أن اللين يعقب الشدة، وأن الرفق يعقب العنف وأن الكلام بعده السكوت.

وقد جاءت آية «لكم دينكم ولي دين» بمثابة النقطة توضع في آخر الكلام دلالة انتهاء علامة وقوف.

هو الختام إذن؛ بل هو القطام، وعلى الكافرين أن يتدبروا أمرهم فيما بينهم وحدهم وليس فيما بينهم وبين المسلمين، وأن يقرروا: يكونون أولاً يكونون.

و(لكم دينكم ولي دين) بذلك أو لذلك من تحول الضرب الطلبي أو الإنكاري إلى الضرب الابتدائي، وعلى وجه التحديد من تنزيل الشاك في مضمون الخبر أو المنكر له منزلة العالم به أو خالي اللذهن منه، وهو بذلك يتردد بين الاحتمالين السادس والسابع في حالة الشك، والتاسع والعاشر في حالة الإنكار.

والله أعلم.

«يسبلي ناراً ذات هب» [الآية رقم ٣ من سورة المسد].

مع أن السورة مبدوءة بجملة خبرية لفظاً إنشائية معنى؛ قصداً للدعاء على أبي هب.

وإذا كان من المفسرين من ذهب إلى أن الجملة الثانية (وتب) خبرية لفظاً ومعنى بدليل قراءة ابن

مسعود لها (وقد تب) فإني أرى أنها هي أيضاً خبرية لفظاً إنشائية معنى؛ قصداً للدعاء على أبي هب جملة، والمعنى على هذا: قطع الله يديه وقطعه.

ومع أنه يمكن لنا جعل (تب) بدا أبي هب) مجازاً مرسلًا علاقته الجزئية، من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، إلا أن الوقوف بالجملة عند الدعاء على اليبدين وحدهما ممكن، ونبره بأن يدي أبي هب كانتا تصحبان بل تسبقان لسانه في إيذاء المصطفى ﷺ.

ولا ننسى أن اسم السورة يتردد بين أن يكون (المسد) و(اللمب) و(تب) وقد تحدثت عن عدو الله أبي هب وأمر أنه حمالة الخطب بما لو نزل على جبل وعقل الجبل لمات من الكمد. مع ما سبق وعلى الرغم منه نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قد جعل آيات السورة بعد الآية الأولى وربما بعد الجملة الأولى خبرية أولاً ومن الضرب الابتدائي ثانياً.

والسبب البلاغي في ذلك إنما هو تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة العالم به أو خالي الذهن منه؛ فأبو هب لو أعمل عقله فيما يتعسر به من إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم لعلم أن عمله هذا مما لا يمكن قبوله ديناً أو عرفاً، ولتأكد وحده دون تدخل من جانب صاحب الخبر وهو الله سبحانه من أنه سيصلى حتماً ناراً ذات هب، والخبر لهذا مما يمكن التمثيل به للضريين التاسع والعاشر من الاحتمالات السابقة والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

...

• الهوامش •

- ١ - مفتاح العلوم ص ٧٨ الطبعة الأولى. مصطفى الباي الحلبي بمصر ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م.
- ٢ - الآيات: ١٣ - ١٦ من سورة يس.
- ٣ - مفتاح العلوم ص ٨٢.
- ٤ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني. تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة تونس ١٩٦٦م.
- ٥ - عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ج ٣ ص ١٥ الطبعة الأولى ١٣١٨هـ.
- ٦ - مفتاح العلوم ص ٨٢.
- ٧ - ديوان الفرزدق ج ٢ ص ١٧٨ - ١٨١ طبعة سنة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

- ٨ - الكشف عن حقائق التزويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - الطبعة الثانية - القاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م ج١ ص ١٧٩، ولا تكون الجملة الاسمية مؤكدة على سبيل الاستقلال، بل بالتبعية لغيرها من المؤكدات الكثيرة الأخرى، فإن كان هناك مؤكدة آخر، جعلت اسمية الجملة من المؤكدات، وإلا فلا.
- وإنما كانت اسمية الجملة مؤكدة، لأنها تفيد بأصل وضعها ثبوت شيء لشيء، وتفيد بالقرائن الدوام والاستمرار، وهاتان الإفادتان مشروطتان بأن يكون خبرها مفرداً أو جملة اسمية، فإذا كان خبرها جملة فعلية أو شبه جملة لم تكن مؤكدة، وانظر [البلاغة الاصطلاحية] للدكتور عيده قلقيه ص: ١٣٦ وما بعدها طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٧م.
- ٩ - صفوة التفسير ج١ ص ٨٩ ط (١) ١٤٠١هـ - ١٩٨١م دار القرآن الكريم - بيروت.
- ١٠ - في ظلال القرآن - المجلد الأول ص ١٢٩ ط (١٢) شركة دار العلم للطباعة والنشر بجدة ودار الشروق للطباعة والنشر بالقاهرة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ١١ - الكشف ج١ ص ٤٨٢.
- ١٢ - الطبري ١٢/١١ وصفوة التفسير ٤٥/٥ وفي ظلال القرآن ١٧٠٧/٣هـ.
- ١٣ - في رواية أنهم ثلاثة وفي رواية أنهم سبعة وفي رواية أنهم عشرة وأن ثلاثة منهم لم يربطوا أنفسهم وانظر ص ١٧٠٨ من «في ظلال القرآن» المجلد الثالث.
- ١٤ - الطبري ١٣٢/١١ وصفوة التفسير ٧٤/٥.
- ١٥ - صفوة التفسير ج٢ ص ١١٢.
- ١٦ - في ظلال القرآن - المجلد السادس ص ٣٩٩٢.



رحلة في

تهامة وعسير وجبال الحجاز

لترجمة وتحقيق وتعليق د. / أحمد بن عمر الزيلعي

المقدمة المترجمة

نشر هذا البحث عام ١٩٤٧م في مجلة عالمية معروفة، هي المجلة الجغرافية التي تصدر عن الجمعية الجغرافية الملكية في لندن. وهي من إعداد الأستاذ ولّفرد شيسجر، آخر عظماء الرحالة البريطانيين في البلاد العربية. ولد السيد شيسجر في أديس أبابا عام ١٩١٠م، وتعلم في إيتون واكسفورد، وعمل، بعد تخرجه، في السودان، والحبيشة، وسوريا، ثم في الصحراء الغربية. ومنذ أواخر الحرب العالمية الثانية، استهوته الرحلات والمغامرات، فقام برحلات عديدة إلى أقطار مختلفة، ومنها الجزيرة العربية، حيث قطع الربع الخالي مرتين في الفترة من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٤٨م. وتَسقّى له في عام ١٩٤٥م وفي العام الذي يليه، القيام برحلة عبر تهامة وعسير، وجبال الحجاز، كانت نتيجة هذا البحث الذي يقدم اليوم للقارئ العربي. وهو وصف دقيق حقاً للمجتمعات التي زارها، وتسجيل وثائقي للأوضاع المعيشية لأفراد هذه المجتمعات، وكذلك أنظمة حياتهم المختلفة، بما في ذلك عاداتهم وتقاليدهم، ونظام أسواقهم، والسلع التي تباع في هذه الأسواق، ونظم الزراعة والرعي، والحاصلات الزراعية، والحركة التجارية، والطرز المعمارية، ووصف البيئة النباتية والحيوانية والطبيعية، بما في ذلك وصف وتحقيق أسماء الأماكن، والجبال، والأودية، وغير ذلك مما لا يستغني عنه أي دارس لهذه المنطقة التي لم تلق عناية كبيرة من قبل الدارسين. وفوق هذا، فقد كان هذا الرحالة دقيقاً في وصفه، وأميناً في تصوير المجتمعات التي زارها، وبعيداً إلى حد ما عن التعصب، والسخرية والتعالي الذي يتصف به بعض الرحالة الذين سبقوه.

وكان لعمله في بعثة مكافحة الجراد، وحصوله على إذن من جلالة الملك عبدالعزيز، كما يتضح من خاتمة هذا البحث، الأثر الأكبر في إعطاء رحلته طابعاً رسمياً مكّنه من الإتصال بأمرأ المناطق التي زارها، وسهل عليه حرية الانتقال، والحصول على المعلومات التي يريدها. ومع هذا، فقد تجنب وصف موائد الطعام، واستقبله من قبل هؤلاء الأمراء، أو الحديث عن نفسه ومغامراته كما يفعل كثير من الرحالة، وركز، بدلاً من ذلك، على نقل المعلومات العلمية

المجردة مما جعل عمله هذا - رغم قصره - رائداً، ومرجعاً لدارسي المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة بمختلف تخصصاتهم.

وقد روعي في منهج الترجمة استخدام بعض المصطلحات المحلية، ومن ثم شرحها في الهوامش حتى يسهل على القراء فهمها، ولا سيما أولئك الذين لا ينتمون إلى البيئة التي يتناولها هذا البحث. كما روعي بقدر الإمكان الحرص على أمانة النقل باستثناء إضافات طفيفة وضعت بين خاضرتين []، وكذلك المحافظة على تعليقات المؤلف التي جاءت في إحدى وعشرين حاشية، حيث تمت ترجمتها وإثباتها ضمن التسلسل العام لحواشي التحقيق والتعليق مع وضع الحرف (م)، وتعني المؤلف، أمام الحاشية الأصلية في النص الإنجليزي، وذلك لتمييزها عن الحواشي الأخرى التي وضعت من قبل المترجم.

ولم يقتصر هذا العمل على الترجمة إلى اللغة العربية فقط، بل تعدى ذلك إلى تحقيق النص، والتعليق على بعض معلوماته، بعد مقارنة هذه المعلومات بتلك التي وردت في المصادر والمراجع المسورة عن بلاد عسير، والمناطق المجاورة لها. وقد تم تزويد هذا البحث بقائمة شاملة لأسماء هذه المصادر والمراجع حتى يسهل الرجوع إليها عند الحاجة. ومع ذلك فلن يغفل هذا العمل من هفوات أو سقطات يرجي أن يغفرها القارئ الكريم، والله ولي التوفيق...

في سنة ١٩٤٥م، وبعد أن أمضيت شهرين بين أهالي نجد المتمسكين بدينهم في شدة وصرامة، مرت سريعاً عبر تهامة من جدة إلى جيزان. ومنذ ذلك الحين، ظلت تطاردني ذكرى هذا الشعب اللبق البشوش، وبقيت هذه اللوحة الحافظة حليماً يراودني حتى سنحت لي الفرصة في سنة ١٩٤٦م، عندما اضطرت تحت وطأة حرارة الصيف إلى مغادرة الربع الخالي، والعودة مرة أخرى إلى تلك السلالة المحبة.

وبحكم عملي في وحدة الشرق الأوسط لمكافحة الجراد، قطعت خلال شهور إبريل ومايو ويونيه ٩٥٠ ميلاً، تنقلت أثناءها في تهامة، وعسير، وجبال الحجاز، من القنفذة حتى حدود المملكة العربية السعودية مع اليمن، ثم إياباً من أبها إلى الطائف^(١).

بدأت رحلتي من وادي الأحسبة، إلى الشمال من القنفذة^(٢)، وكان بصحبي أحد أخويا الإمارة، وهو شاب من الأشراف، وجمالان، وأربعة من الجمال المستكراة التي تسير، حسب العرف السائد في تهامة، ورؤوسها مقطورة إلى ذيول بعضها البعض، حيث لا يسمح لهذه الجمال بأن ترعى، بل إن أفواهاها تكتم، بصفة مؤقتة، بسلال على هيئة شبكة، ذات فتحات^(٣)، يقدم من خلالها

بواسطة اليد، غذاء الجبال المكون من قصب الذرة الذي نعمله على هيئة حزمتين كبيرتين نضعان فوق الأحمال من الجانبين. وهي في الغالب لا تحصل على كفايتها من الملف لما في ذلك من الصعوبة وارتفاع التكلفة. وتستطيع جبال نهامة أن تنقل أحمالاً ثقيلة، ولكنها غير قادرة على الحركة فوق الصخور، وسرعان ما يصيبها الحفا عندما تسير على أرضية حجرية. وهي ترد الماء يومياً وأحياناً مرتين في اليوم عندما يكون الجو حاراً. ويسافر هؤلاء الأعراب ليلاً خلال الصيف، وعندما ينامون يتكبرون فوق الأحمال وجاهلهم تسلك الطريق دونما تردد^(٤). وبالرغم من حرارة الجو، إلا أنني رفضت السفر بعد الظلام لأن عملاً كهذا سيحول دون ملاحظاتي.

وفي طريقنا إلى المَحْوَاة، سلكتنا وادي الأحسية حيث يسكن الأشراف العبادلة في السهل الساحلي من هذا الوادي، ولكنه سرعان ما يدخل الطريق في منطقة صخرية وعرة، لا توجد فيها إلا قرى قليلة، وزراعة حقيرة. وكانت تقع أمامنا بمسافة بعيدة أضدار جبال الحجاز^(٥)، وبالقرب منا تنتصب قتان من الجرانيت يصل ارتفاعها ٨٠٠٠ قدم، هما شدًا الجماني وشدًا الشامي، وهما أحد المعالم البارزة التي يسهل التعرف عليها من بعيد^(٦). وينمو شجر البن على هذين الجبلين، بالرغم من أنه لم يستتب حتى الآن على سلسلة الجبال الرئيسية الواقعة إلى الشمال منها.

• العيش، نموذج من المساكن في نهامة عسير •





• القرية والزراعة في بلاد قحطان الواقعة على مرتفعات جبال الحجاز •

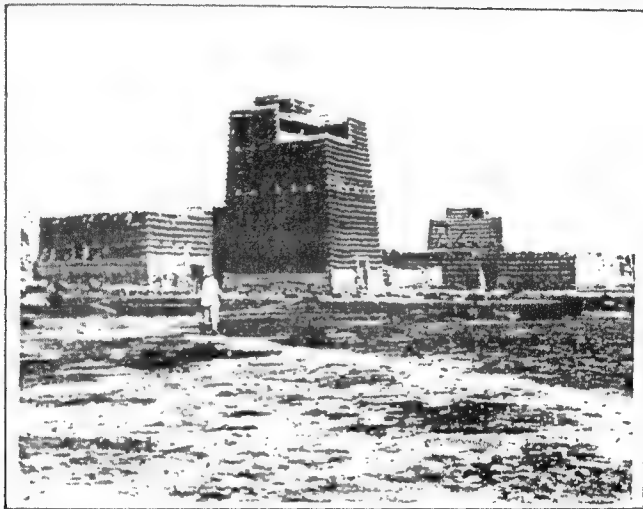
وتقع المَحْوَاة، بين شدا والأصدار في بقعة من الأودية المتشابكة، والتلال الوعرة المتوجة بأطلال القرى القديمة. وهي قرية بيوتها مبنية من الحجارة، وتتكون من دور واحد، وتقع في بلاد بني عُمَرَ^(٧)، وتتبع مدينة الظَفِير من الناحية الإدارية^(٨). ويعقد فيها سوق الخميس المهم^(٩)، حيث تباع فيه الأبقار، والأغنام، والماعز، والحُمير، وقليل من الجمال، وتباع فيه أيضاً الحبوب، والبن، والملح، والملابس، والأواني الفخارية، والحصر، والسلال، والحبال، والأرجحة، والخضروات، والعسل والنباتات ذات الروائح الذكية. وتهبط إلى هذا السوق جموع غفيرة من قبائل غامد، وزهران الذين يلبسون جَنَاني^(١٠) في أوساطهم، ويرتدون ثياباً فضفاضة، شغلت بأشكال مميزة من الخيوط الحمراء طبقاً للعرف السائد في جميع أنحاء الحجاز. وكثير من أفراد هذه القبائل حاسرو الرؤوس، توجت خصلات شعرهم بعصائب من النباتات الذكية الرائحة، بينما يلبس الآخرون صمائد وعقلاً قصبت بخيوط الذهب والفضة.

وعند مغادرتنا المحواة، سرنا عبر تلال جبلية ذات حوائط عمودية شديدة الانحدار، يبلغ ارتفاعها فوقنا ٣٠٠٠ قدم. وهذه المنطقة تخص فخذاً من قبيلة غامد القوية التي يسكن معظمها في الجبال إلى الشرق من هذا الموقع^(١١)، وتتناثر مزارعهم على طول وادي يَطَاط^(١٢)، حيث اكتظت ضفتاه بالزراعة التي تروى من الآبار والسيول معاً. ثم اجتزنا وادي قَتُونَا إلى الورا من بطاط، ودخلنا بلاد بَلْعَرِيَّان^(١٣). وهي منطقة جرانيتية خصبة، يقوم على حراستها العديد من أبراج المراقبة. ووصلنا في اليوم التالي إلى مركز إمارة تُرَيَّان الصغيرة حيث، احتفى بنا أميرها وأكرمنا^(١٤). ثم سافرنا من هنا في برد الصباح، وسط حشد من القرويين المتجهين على الحمير، والجبال المحملة إلى سوق الثلاثاء الواقع

على ضفتي وادي يّنة، في وسط بيئة من التلال المكونة من الصخور الجرانيتية، حيث يكتظ هذا الوادي بأشجار النخيل. ورأينا هناك ثمة محاصيل ممتازة من الذرة، والسمسم، تسقى من جدول يتدفق في الوادي، حيث يقوم سوق عُمارة [الذي يعقد كل يوم ثلاثاء]^(١٥). وعامرة قبيلة جذابة، تشبه أعراب تهامة، يلبس أفرادها مثائر قصيرة من القماش، ويشد الواحد منهم جَنْبِيَّة على وسطه من الأمام. أما شعورهم الطويلة، فقد زينت بنباتات ذكية الرائحة، اشترت من السوق لهذا الغرض. ويلبس معظم النساء وقليل من الرجال قبعات مصنوعة من الحصر، حيث تتميز قبعات الرجال بأن حوافها واسعة ومرتجة، أما قبعات النساء فهي قصيرة الخواف، ومتصلبة، وتيجانها مرتفعة^(١٦).

وعندما اجتزنا الجدول، كان ثمة راع شاب، يشبه رمز الغابات أو الجبال عند الرومان، وقد ملأ بساتين النخيل بترديده لأنغام موسيقية شجية تنبعث من مزماره^(١٧)، ثم دخلنا أرضاً مجذبة تتكون من الصخور النارية، والتلال الناتئة حيث توجد شجيرات متفرقة من السمر، ولو أنها عديمة الأوراق المزهرة. وتستمر هذه المنطقة المهجورة حتى وصلنا وادي خَاط^(١٨)، ثم أراضي قبيلة حُمَيْضَة الزراعية في بَارِق^(١٩). وهي تشبه قبيلة عمارة ويسكن أفرادها في بيوت مستوية الأسقف، بنيت من الحجارة بشكل جيد، وهذه القبائل المستقرة تلك قليلاً من الجبال وبعض الأبقار، وأحجاماً جيدة من قطعان الضأن والماعز^(٢٠)، ولكنهم أساساً مزارعون يقومون بزراعة الدخن والذرة سواء في سهول صغيرة تسقى عن طريق السيول، أو في بقع طينية في بطون الأودية. وإلى الورا من آل حميضة، توجد قبيلة آل جَبْلِي، وهم يسكنون على ضفتي وادي آل جبلي، أحد روافد وادي حَلِي المهمة^(٢١). وقد استطعنا أن نطوي هذا الوادي حتى نصل إلى وادي حلي الذي كنت تواقاً لتتبع مجراه حتى الشاطئ، لكي أزور أعراب تهامة الممتعين.

نحن الآن خارج المنطقة الزراعية، وبالتحديد في أرض البدو، وهذا الإصطلاح يستخدم هنا للدلالة على القبائل التي تعتمد أساساً على الرعي، وتسكن في المنطقة الوعرة الواقعة بين المرتفعات الجبلية، والسهل الساحلي، إنهم، وقبل كل شيء، رعاة قطعان الماعز، ولكنهم يملكون بعض الضأن، والبقر وقليلاً من الجبال، ويقومون بزراعة بقع صغيرة على طول ضفتي الوادي. ويسكن هؤلاء البدو في بيوت صغيرة من الحصر تعرف باسم الخدور. ولا يستطيع المرء أن يرى، في غرب جبال الحجاز، الخيام السوداء «بيوت الشعرة» المعروفة في وسط الجزيرة العربية. وأثاثهم الوحيد قليل من الأسرة المَحْبَلَة بجبال من الحصر. وهؤلاء البدو هم رَيْبَة الطَّحَّاحِينَ، ومُوسَيْفِرَة، وبنو هلال، ومَنْجَحَة، وإلى الجنوب منهم فخذ من بدو بني نُكَّار، وشهران، وقحطان، وخولان، والرَّيْث^(٢٢).



• برج ومنازل مبنية من الطين، ومنطقة بخطوط من الأحجار البارزة في بلاد قحطان •

وقد كانت هؤلاء، في الماضي القريب جداً، سمعة سيئة كقطاع طرق، وأهل عنف، ولكن تبدل هذا السلوك في الوقت الحاضر لميتهم من ابن سعود. ويلبس هؤلاء متأزر قصيرة من القماش مصبوعة باللون، الأخضر، والأزرق، أو البني المشوب بحمرة. ويلبس النساء قبعات من القش قصيرة الخواف عالية التيجان.

ثم وصلنا إلى حلي على امتداد يعرف باسم حَلَوِيَّة، حيث يوجد، عبر منطقة صخرية مكشوفة، جدول صغير يتدفق في الوادي ويحف به نبات الحلقاء، وأحراش السلم، والسمر وغيرها من الأشجار البرية مثل شجر الأراك، والمريخ، والمَصَّ ذي الزهر الأحمر، وشجرة العَلَكَن يزورها الحبيبة إلى النفس، وجذوعها العارية القبيحة، ولبنها الذي تدره من أغصانها ليتحول إلى صمغ، ثم نبات الصبار الذي ينمو في التلال المكونة من الصخور النارية. ورأيت على طول مجرى القَيْل الذي يعج ماؤه بصغار السمك، كثيراً من طيور البجع، وطيائر أبي اقة، وطيائر أبي منجل اللباع، ولوحظ أيضاً

طائر اللقلاق [أبو مشط أو أبو مطرقة]، وطائر البَلَشُون الأبيض، ومالك الحزين، وفي بعض الأحيان طائر الخطاف، والدجاج السوداني أو الغُرْغُر، وطائر الدُرَّاج الذي يشبه الحجل، وطائر البوقير، وطائر الشرْفُوق الحبشي، وآكل النحل ذو اللون الأخضر، وطائر الثَّمَر ذو البريق المعدني، وطائر الصَّرْد أو اللِّغْتَس، وطائر البابلر أو الأصفر العينين، وطائر البلبل، وطائر الوقواق، وأحياناً طائر النسر. وينساب وادي حلي عبر ممر حصن الطرفين الضيق إلى سهل ساحلي رملي، حيث توجد أول قرية في هذه المنطقة هي قرية السَّبْطَة التي تسكنها قبيلة العُمُور^(٢٤)، وفيها سوق الأربعاء، أحداً سوق وادي حلي^(٢٥).

تحتوي تهامة على سهل ساحلي رملي يتراوح عرضه بين ١٢ - ٢٠ ميلاً^(٢٦)، وهي تنقسم إلى تهامة الشام، وتعتمد من البرك إلى اللُّيْث شمالاً، ثم تهامة عسير، وتهامة اليمن. وتعرف المنطقة الجبلية التي تتوسط بين تهامة الشام وسفوح جبال السراة، ويتراوح ارتفاعها بين ٥٠٠ - ٤٥٠٠ قدم، باسم «العُرْضِيَّة»، يينا يطلق على المنطقة الواقعة إلى الجنوب من أبا اسم «الجَبَاظَة». ويطلق على جميع هذه السلسلة الجبلية بما في ذلك عسير التي يزيد ارتفاعها عن ٩٠٠٠ قدم اسم «الحجاز». ويستخدم هنا بشكل شامل اصطلاح الشام الذي يطلق على الشمال، واليمن على الجنوب، والجبل على الشرق، والبحري على الغرب. ويعرف سكان تهامة باسم التهاميين، ويتمركزن في الأودية التي تستمد سيولها من الجبال. وهم بصفة عامة مستقرون، ولا يوزع الرجل منهم أرضه خارج عشيرته، ولا يبيعها إذا كان له أبناء كبار دون أخذ موافقتهم. ويرث الأبناء حصصاً متساوية، والبنات نصف حصص الرجل. والأودية الرئيسية الواقعة في الشمال [تهامة الشام] هي اللُّيْث، ودَوَقَة^(٢٧)، والأَحْصَة، وقَنْوَنَا، وِيَّة، وحلي^(٢٨). وفي جميع الإعتبارات فإن وادي حلي، بروافده الواسعة الممتدة من شَرْي إلى الشمال إلى ثِيَّ في الجنوب، يعد من أعظمها أهمية، ولا يتفوق عليه إلا وادي يَش الذي يعتبر، مع وادي عثود وضَمَد الصغيرين، من الأودية الرئيسية في تهامة عسير^(٢٩). ويتسبب التهاميون بصورة عامة إلى أسماء أوديتهم، وهكذا، فإن سكان حلي يسمون «الحَلَاوَة»، وأهل يبة «الْيَابَة».

ويستوطن هذه الأودية كثير من القبائل المختلفة، ففي وادي حلي أربع قبائل كبرى هم: الحَلَاوَة، والصُّحْب، وكنانة، والعمور^(٣٠). ومن القبائل في وادي يبة، بنو يَغْلَى، والثَوَاثِرَة، وبنو عَثْر، والشَّوَارِدَة^(٣١). وتسكن في الأحصبة قبيلة الأشراف العبَادَة^(٣٢). ولا يجمع هذه القبائل أصل مشترك، ولكنهم عند إعلان الحرب يتحدون تحت راية واحدة. ويوجد من بين هؤلاء السكان فئة كبيرة من العبيد، وبصورة خاصة في تهامة عسير، ولكن كثيراً منهم الآن أحرار ويملكون أرضاً. وعندما

لا يسيل أحد الأودية فإن سكانه يهاجرون إلى أي مكان آخر في تهامة، حيث يستقبلون بالترحاب، ويساعدون في الحصاد، ثم يعودون بعد ذلك إلى أوطانهم، ومعهم أمحال من الحبوب. وعلى العكس عندما يصيب الخير ديارهم في بعض السنوات الأخرى، فإنهم يستقبلون مضيفهم السابقين. وهذا النظام يشمل الإقليم الممتد من جيزان إلى اللبث، وقد صادفت أسراً من أهالي المنطقة المحيطة بمدينة صَبَا في طريقهم إلى القنفذة. وتعاني الأودية الصغرى كثيراً من سنوات الجفاف العديدة، إلا أن وادي حلي ووادي ييش يستطيعان الاعتماد على السيول سنوياً، ففي السنة الماضية انفجر العُقم الرئيسي في وادي حلي^(٣٣)، وتبعاً لذلك، أصبح الوادي الذي في أعلى البَيْصَيْن مهجوراً^(٣٤)، فقد انتقل ساكنوه إلى وادي يية. وتأتي السيول في أي شهر خلال السنة، ولكن فصلي الخريف والشتاء أكثرها اعتياداً، حيث تمحز وتوزع على مساحات كبيرة بواسطة عدد من السدود الترابية تعرف باسم «زَبِير»، وهي تحتاج إلى انتباه منتظم؛ لأن السيول التي لا تُستطاع السيطرة عليها، ربما يلحق فيضانها أذى بالمحاصيل الياقعة.

والمحصولان الرئيسيان في تهامة هما: الذرة التي تنمو في الأراضي الطينية الرسوبية، وتنتج من بذرة واحدة من ثلاث إلى خمس حصصات^(٣٥). والدخن الذي يذخر بصورة عامة على المطر، وينمو في الحَبْت أو الأراضي الرملية بين الأودية. وتُحصد الذرة بعد ثلاثة أشهر من بداية زراعتها، ثم بعد ذلك

رجلان من تهامة عسِر، أحدهما يلبس مظلة من الخصر، والآخر يلبس خوذة مصنوعة من ورق النخل



كل شهرين، بينما يصرم الدخن مرة واحدة بعد ثلاثة أشهر من تاريخ غرسه. ويعتبر قصب الذرة، وليس الدخن، علفاً جيداً حتى ولو كان يابساً، والمحاصيل التي يكمل نموها في شهري يولييه وأغسطس تستخدم فقط لهذا الغرض، لأن الرياح الحارة التي تهب في ذلك الفصل تساعد على تخفيف الحبوب. ويزرع السمسم في أطراف الأراضي السيلية، حيث تزرع أيضاً مقادير صغيرة من القطن والفاصوليا. وليس لدى أهل تهامة دورة زراعية للمحصولات، فهم يذرون كلما وجد السيل. وتوجد حول بعض الآبار بساتين صغيرة تستنبت فيها الطماطم، والباذنجان، والبنامية، والدباء والحبيب والخريز، والنباتات ذات الروائح الذكية^(٣٧). ولا ينمو هنا البصل، والثوم، والفلفل الأحمر، فهذه المحاصيل مع محاصيل أخرى هي الليمون، والعنب، والمشمش، والخوخ، والمان، والموز، والبطاطس، والبرك، والشار، تجلب إلى أسواق تهامة من جبال الحجاز. والقر قليل، وينمو معظمه في أعلى وادي بية، وعلى طول الساحل بين عميق، والقحمة. وجملة الثمر المستهلكة هنا تصل عن طريق البحر، أو من واحة وادي بيشة. أما شجر الدوم الذي تصدر أوراقه، أيضاً تباع في هذه الأسواق، ويصنع منها الحصر، والزنايل، والسلال، والجبال، فإنه ينمو فقط في أودية تهامة عسير^(٣٧).

• وادي بيش عند دخوله من الجبالة إلى تهامة •



ولا يملك التهاميون إلا قليلاً من الحبال، ومعظمها تمتلكها القبائل الساكنة إلى الشمال من القنفذة، وهم يستخدمون البقر في حرث الأرض وإقامة العُقم، أو السدود الترابية، وقد علمت أن رجلاً غنياً يمتلك من ثلاثين إلى أربعين رأساً من البقر، لذا فن الواضح، أنهم يمتلكون أكثرهما رأيت. وتوجد أحجام طيبة من قطعان الماعز، وبعض الضان التي تودع بصورة عامة عند جيرانهم البدو لحفظها. وتربية الدجاج شائعة حول القرى، والحمير دواب ركوبهم المفضلة، وهم يسافرون عليها مسافات طويلة في وقت قصير يبعث على الدهشة، ويستخدمونها أيضاً في جلب الماء من الآبار في جرار كبيرة تعلق في شباك من الحبال على جانبي الحمار. والحطب شحيح على الرغم من وجود بقع من شجر الأراك، والأثل في الأودية؛ ويحافظون على أشجار السدر الكبيرة في الحقول لفاكهتهم^(٣٨). ويسكن هؤلاء الأعراب في عُشش مستديرة الشكل، جيدة التركيب، تُبنى في العادة على هيئة كتلة واحدة، على هيكل من الأغصان بدون عمود خشبي، وتكلس من الداخل بالطين، ومن الخارج تغطي بالخشيش الذي يحكم رباطه بحبال رفيعة. وتتكون المنازل في القرى من مجموعات، بينما يحاط بعضها بأبنية عالية مبنية من الأخشاب الرفيعة، ويحاط البعض الآخر بيزيرية من مرائد قصب الذرة. وقد جرت العادة أن تترجل عن الجمال، وتمشي على رجليك عندما تمر عبر هذه القرى^(٣٩).

أواني الطبخ، والماء، وفناجين القهوة، مصنوعة محلياً، وبصورة عامة من الفخار الأحمر؛ وأقداح الشرب مصنوعة من الخشب^(٤٠). أما أطباق الطعام والسلال فهي من ورق الدوم [الطُفي]، وأواني الزبدة من لحاء الدباء؛ وهذه تعلق على جدران المنازل في معاليق جلدية^(٤١). وتستخدم الأسيرة المصنوعة من الخشب والحبال، للنوم والجلوس معاً؛ لأن أرضية المنازل تنص بالكُرش [القراد الصغير]، ولو أن حشرات البق والبراغيث لا وجود لها في هذه القرى.

القهوة بالزنجبيل هي الشراب العام^(٤٢). والفنجان يملأ دائماً، ويعطى الضيف فنجانين دفعة واحدة^(٤٣). والغذاء الرئيسي هو خبز أو ثريد الذرة، وفي حالة عدم وجوده أو انعدامه فإن الدخن يؤكل عريكاً بسمن الزبدة النقي. ويؤكل السمك المحضف والمتمر بصورة عامة، ولكن اللحم وجبة ترفيحية، والحليب شحيح^(٤٤).

ويلبس الرجال بصورة دائمة مآزر من القماش مع خنجر أو جنبية مشدودة في الوسط من الأمام، ويحتملون بشكل اعتيادي سيوفاً في أغصدة مقلصة، والأطفال يكسبون الثياب منذ سن مبكرة. وليس جميع الذكور حتى الأطفال أحزمة من الجلد تحيط بالخصر^(٤٥)، وفي إحدى المرات كان أحد الأطفال يأكل معنا، وقد نسي أن يلبس حزامه بعد الإستحمام، وحالما لاحظ عدم وجوده على بطنه

رفض أن ينهي وجته وهرع لأخذه، وتلبس في الإحتفالات، بصورة خاصة، صديرية قصيرة، زاهية الألوان، ضيقة الأكمام، ويمتلك الأطفال، والشباب شعوراً طويلاً فرق في الوسط، وتمرخ على طول الفرق بمعجون اللباب الأبيض المسحوق. ويلف الشعر بشرط جلدي رفيع، مزخرف في بعض الأحيان بالفضة^(٤٦)، في حين تلبس بصورة دائمة عصابة من البرك، أو حزمة من النباتات الذكية الرائحة تفرز في الشلّاف^(٤٧). إنهم شعب نجيل البنية، وملونين، وشعورهم سوداء موجة، بجانب ما يظهر عليهم من صفات المرح، والسعادة، والإنطلاق، كما أنهم يعرفون بضحكهم، ووداعتهم، وعدم جذبهم، وكذلك بتصرفاتهم العفوية، وقد لاحظت عدداً من حالات التراخوما، وقليلاً من قرحة المناطق الحارة، وحالة واحدة تقريباً مؤكدة من حالات الزائدة اللدودية، ويوجد هنا مرض الدودة الغينية^(٤٨)، وقد رأيت فيها بعد حالات متعددة حول صيبا.

وصلت إلى البيضين، قرية المشايخ، لأجد الأهالي وجيرانهم يحتفلون بالختان^(٤٩). وهذا الإحتفال ذو أهمية عظيمة بين هؤلاء القبائل. وهو مناسبة للرقص الذي يستمر من أسبوعين إلى شهر. وتم عملية الختان لفتيان بين سن السادسة عشر، والخامسة والعشرين^(٥٠). وقد ختن في هذه المناسبة أربعة أولاد فقط، رغم أن عدد المختونين يصل في بعض الأحيان من ٨ - ١٠ أشخاص. إنهم يرتدون ثياباً مميزة تتكون من سروال ذي طرفين مشغولين بجيوب حمراء تحيطان بأسفل الساقين تحت تنورة كاملة البياض مشدودة بحزام على الوسط^(٥١)، ومعاطف حمراء براقّة [صديرية].

يتجمع الجمهور كل عصرية وفي المساء، والثلاثية يرقصون بينهم، والموسيقيون زنوج، وأدواتهم الموسيقية هي: الزلّة، وهي طبل واسع يضرب باليدين، واثنان من الأزيار [مفرد زير] يدقان بواسطة المضارب، وزمارتان تدعى الواحدة منها صُفْرِيّة^(٥٢).

تدار بواسطة الزلفة حركات الرقص المعقدة التي تخضع لطابع معين، ويرقص الثلاثية جماعة فرادى، وهم يمشون ويحجلون [يهكمون ويقفزون] بينما يحملون في أيديهم خناجر مسلوّة، يحرّكونها أمام أجسامهم، وقد انضم إليهم طفلان صغيران ليتعلما الرقص، وبقية الأطفال يتدربون خارج الحشد، بينما يوجد خلفهم الجيش أو الفرسان في صف واحد^(٥٣)، وهم يهزون أنفسهم على وقع الطبول، ويحملون في أيديهم سيوفهم المسلوّة والمشرعة إلى أعلى، وتراهم في ضوء القمر متوجين بالزهور، ونصف عارزين.

عقب إجراء عملية الختان يومين، انطلق الأولاد راكبين جملين، وبصحبتهم أصدقاؤهم، وتتقدمهم راية، ليدوروا حول القرى المحيطة بهم، حيث يحتفى بهم فيها، ويرقصون في كل منها^(٥٤).

ويوم الختان يتجمع حشد كبير من المتفرجين، وبعد ظهر هذا اليوم بوقت متأخر، يرتقص الأولاد، ثم ينسحبون إلى عشة معدة لتغيير ملابسهم، حيث يلبس الواحد منهم إزاراً من القماش، ويصعدون على أكتاف العيد، ثم ينزل هؤلاء الثلاثة، ويمشون بثبات أمام الجاهير ويقفون وأيديهم مشدودة إلى صدورهم، وعندئذ يتم تنفيذ عملية الختان بواسطة اثنين من العيد^(٥٥). ثم يصعد الثلاثة مرة أخرى على ظهور العيد الذين يأخذونهم إلى الفرقة الموسيقية، ويدورون بهم بين الجماهير، وهم يؤدون بدراعيم، وكتفهم حركات راقصة. وقد أعرض أحد هؤلاء الثلاثة عن الركب، وقدم عرضاً طويلاً ومدحاً من الرقص. ولم يظهر على أحدهم أي شيء من علامات الألم. وبالرغم من أن هذه العملية قد خففت في هذه الأيام بناء على أوامر الملك [عبد العزيز]، وأجرى عليها تعديل بمنع السلخ الذي كان سائداً في الماضي القريب، إلا أنها تجري بطريقة شاذة ومؤلة^(٥٦).

غادرنا حلي من كباد، وهي سوق كبيرة تعقد يوم الأحد، وتستخدم من قبل البدو المحيطين بها، وسرنا محاذين لقوس [حافة] وادي حلي عبر أراضي بني هلال^(٥٧). وهذه القبيلة الفتاة، ورثة الإسم المشهور في الأساطير، تسكن حالياً في منطقة بركانية تمتد بين محاليل، والبرك، والقحمة^(٥٨). وتنسب الرواية المحلية بطولات أبي زيد الهلالي إلى منطقة وادي حلي، ويذكر أن قبر ابنه العزيز هناك. وكان قطع الطريق، والقتل المتعمد، حتى وقت قريب، علامة مميزة لبني هلال، ويعتبرون حتى اليوم مبعث خوف للمسافرين الذين يسلكون هذا الطريق. إنهم قليلو العدد، ويعيشون حياة بدوية في هذه المنطقة البركانية^(٥٩). وقد حدث في الماضي كثير من الثورات، من جبل الشريف الذي تقع بالقرب منه نواة بركانية كانت في حالة نشطة جداً، وحقل الحرة الذي يبدو بوضوح أنه محمد منذ زمن طويل. وهي تمتد نزولاً من هنا حتى البحر فها بين عمق والرقبة، الواقعة إلى الجنوب من القحمة، بما في ذلك حَبَّابُ الشيخ المشهور بالقرب من البرك^(٦٠) ثم اجتزنا وادي حلي مرة أخرى بالقرب من محاليل، وهي قرية تتبع مدينة أبها إدارياً، وبها سوق السبت الهام، وتقع على ارتفاع ١٦٩٠ قدم فوق سطح البحر، وهي مثل جميع قرى العرضية، منازلها مبنية من الأحجار، ومن طبقة واحدة، وتنمو على سطوحها المستوية، في أوأان خاصة، النباتات الذكية الرائحة.

هنا [في محاليل] غيّرنا جالنا مرة أخرى، لأن الجمال لا يمكن أن تستكروى للسفر بعيداً عن القرى الخاصة بها. ثم سلكنا وادي تية إلى عقبة شَعار، الممر الذي يصعد عن طريقه إلى جبال الحجاز. وتية واد غني مزروع بشكل كثيف من قبل فخذ قبائل بني نُوعَة المستقرة^(٦١). وقد عملت السيول هنا على أحداث قطع بعمق ٤٠ قدماً نزولاً في الطين الرسوبي إلى قاع الحصباء في الأسفل، ولكن ثمة سلسلة

من القنوات تسقي جميع المستويات، حيث توجد محاصيل جيدة سقيت بسيول حديثة. وقد جلبت الأمطار الشديدة التي نزلت على الجبال خلال العشرة أيام الماضية، إلى الوادي طبقة كثيفة من الطمي. وهذا الوادي لا تزيد نهايته من أعلى عن ٢٠٠ ياردة في العرض. وهو حجري للغاية، ومعزول بواسطة جبال من الصخور الجرداء الشديدة الانحدار. إنه منظر رائع ويبعث على الرهبة، ومهجور إلى أبعد حد، والصخور التي حول عقبة شعار لها لمعان فضي غريب. وفي أعلى العقبة^(٢٣)، وهي سهلة نسبياً، توجد حلقة من القلاع التركية، ويوجد هنا أيضاً طريق تركي جيد يؤدي إلى أبها عبر بلاد بني مالك.

وقبائل عسير مجتمعة هي: بنو مُنيث، وبنو مالك^(٢٤)، وعَلَمَ وريبعة، ورُقَيْدَة، بالإضافة إلى القبائل الصغرى المكونة من عاصم ورجال أَلَمَع الذين يسكنون في أسفل السَّوْدَة^(٢٥). وعلى طول الطريق الذي يمر في أودية صغيرة عبر التلال الجبلية، توجد القرى، وحقول القمح والشعير، وبساتين الفاكهة. والمنازل هنا مميزة، وهي مبنية من الطين، ولها مداميك متعددة على هيئة شرفات بارزة من الحجر أو القرميد، وضعت في النصف الأعلى من الجدران، لتقيها من التعرية. وتُحرس الحقول والنقاط المرتفعة بواسطة كثير من أبراج المراقبة، سواء المربعة منها أو الدائرية، وقد بنيت من الصخور الكبيرة المشدبة، وزخرفت بأربعة أشرطة خارجية من المرو الأبيض. بينما الأخرى مستديرة الشكل بصفة دائمة، ومبنية من الطين سواء بشرفات بارزة من القرميد، أو بدون ذلك^(٢٦).

وأبها، مدينة صغيرة تقع على ارتفاع حوالي ٧٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، وقد بنيت حول قلعة، وبها عدد من الدكاكين، وهي مركز إداري هام، يتولى إمارتها الأمير تركي السديري، أكبر أبناء عائلة مشهورة يتولى أفرادها أيضاً حكم جيزان، والقنفدة، وجدة، والجوف، والظهران على الخليج.

ويعقد سوق أبها يوم الثلاثاء، وهو فريد في ألوانه، حيث يلبس النساء فيه فساتين زاهية الألوان، ويضعن على رؤوسهن شيلات براقه. ويوجد من بين الأنواع الكثيرة من القبائل التي تهبط هذا السوق، رجال من قبائل تامة، ونجديون في عباات مصنوعة من وبر الجبال، وبدو من الصحارى العظيمة إلى الشرق، ورجال من الجبال يشابههم الفضفاضة المطرزة بأشغال الإبرة، ورؤوسهم المتوجة بعصائب من النباتات العطرية، وبينهم أيضاً زوار من اليمن، وعبيد من أخويا الأمير. وتباع في هذا السوق، وفي زاوية مفصولة عن الأخرى، كل من الحبوب، والزبدة، والسمن، والحطب، والملح، والموز والجص أو البويات، والبن، والعسل، والبهارات، والأواني الفخارية، والأدوات الحديدية، والحصر، والسلال، والجبال، والملابس والجلود، والفاكهة، والأعشاب ذات الرائحة الذكية،

والأعلاف، وقليل من الماشية. ويزرع في هذه الجبال البر، والشعير في الشتاء؛ والذرة في الصيف. وقد وصلت أبها في الثاني من شهر مايو عندما كانت كثير من الحقول خالية، في حين أن بعضاً من الذرة كانت تبذر في الحال، وأن الشعير، والبر لم يحصد كله بعد. وقد عملت المنحدرات المزروعة في كل مكان على شكل مدرجات، وقليل من الحقول تروى بواسطة الآبار، وفاكهة الحجاز هي: المشمش، والخوخ، والبرقوق، والكثري، والتفاح الأخضر الصغير، والعنب، والرمان، والتين، والبرشومي، واللوز.

ثم سافرنا من هنا إلى ظهران الجنوب التي وصلناها بعد أربعة أيام ونصف. مررنا خلالها ببلاد شهران، ثم قحطان، إلى الوراق من مُشَيَّة، وهما قبيلتان كبيرتان وقويتان^(٢٦). وما يبعث على السرور حقاً، هو أن من يسافر عبر هذه المناطق الباردة والمنعشة حيث توجد قرى متصلة، يحصل على متعة لا نهاية لها. فهناك منازل متباعدة في أشكالها، وطرق بنائها التي أعدت للدفاع، وبنيت بأحجام كبيرة من أدوار متعددة، ولكنها جميعاً على درجة من البهجة، والجبال المتناغم. وغرف الضيوف [في هذه البلاد] هادئة، ورحبة، والجدران مزخرفة من الأسفل بأشرطة من الألوان الخضراء، والحمراء، والسوداء، حيث قضينا أمسيات طويلة، وسعيدة بين رجال القبائل الذين يتجمعون حول محمصة البن، والذين لم تقتحمهم بعد تأثيرات الغرب النشاز.

ثم اجتزنا عقبة قَوَارِي التي يبلغ ارتفاعها ٩٠٠٠ قدم والتي تكسي منحدراتها بأزهار القَابُور الذهبية اللون، ووصلنا في اليوم التالي إلى الظهران، بعد أن سافرنا في نصف اليوم الأخير عبر طبقة من الصخور النارية المهجورة التي تعلو طبقة أخرى من الصخور الجرانيتية. وتقع الظهران على ارتفاع ٧٥٠٠ قدم، وهي تسترعي النظر، لضيق، وازدحام، وكثرة أدوار منازلها التي بنيت على طول وادي عَرِين^(٢٧)، حيث ينمو فيه قليل من شجر البن. وتشيع في هذه المدينة أمراض العين بصورة غير عادية. ثم نزلنا من هنا إلى وادي قَاعَة عن طريق عقبة مفتاح الخَشْبَة^(٢٨). وهي عقبة صعبة، وقد تأكد لنا من قبل، أنها لا تصلح لسير الجبال.

كانت الجبال هنا مغطاة بيساط من الأزهار البرية، وأشجار العرعر المتناثرة التي تنمو على طول أعالي الجرف^(٢٩)، حيث سلكنا هذا الوادي عبر منطقة من شجيرات المناطق الحارة التي تكثر فيها طيور الفرغر أو الدجاج السوداني. وسرنا بمحاذاة سلسلة جبال مُشَيَّة [مُشَيَّط] حتى وصلنا جَلَّة الموت^(٣٠). وهي بقعة مشثومة، يبلغ ارتفاعها ٣٥٠٠ قدم، وتقع على نقطة التقاء وادي دَقَّامع وادي ضَبَّعَة في حوض بين جبال مرتفعة^(٣١). وفيها مركز حكومي صغير مات به من أثر الحمى أربعة

وأربعون رجلاً من أخويا الإمارة خلال سنتين. هنا في هذه المنطقة النائية المقفرة، التي يصعب الوصول إليها، والمتفشية فيها الحمى، بين قبائل متوحشة لم يتم إخضاعهم إلا قرياً، يعمل على تطبيق القانون، وحفظ النظام فيها، أمير، ومجموعة من الأخويا، بفضل هبة، واحترام اسم ابن سعود. ويوجد إلى الشرق من وادي دقا بدو قحطان، وإلى الغرب منه توجد قبائل الرثين، والمزنيين، وعلى طول الحدود اليمنية قبائل خولان آل تليد وقبائل بني مالك، وبلغازي^(٧٢). وقد وجدت هؤلاء القبائل مضيفة، ويختلفون في المظهر عن بدو العريضة. فالوأنهم فاتحة، وأنوفهم معقوفة، ولحاهم بارزة، وهم يشبهون بدو وسط الجزيرة العربية. إنهم ليسون مثازر قصيرة جداً من القماش لا تكاد تستر عوراتهم عندما يجلسون القرفصاء، وشعورهم طويلة، ولكن أولئك الذين لم يجثوا منهم بعد يحتفظون في أعلى رؤوسهم ببعة واسعة ملحقة^(٧٣). ويؤخر الحتان عند هؤلاء حتى يبلغوا من سن العشرين إلى الثلاثين سنة، وربما يكونوا قد تزوجوا، ولهم أطفال^(٧٤). وهم مسلحون بشكل جيد، ومعظم بنادقهم صناعة إيطالية مؤرخة سنة ١٨٨٩م. إنهم يقطنون في دائرة بسيطة، ووضيعة، وبأوون إلى مساكن من الحجر الخشن المسقوف بالحشائش وأغصان النبات، ويضعون عليها في الجور الرطب جلوداً مدبوغة لكي تبعد المطر، وتقي ما بداخلها من البلل. ولديهم قطعان كبيرة من الضأن، والماعز، وبعض البقر؛ ويمتلكون من الجمال أكثر مما تملكه القبائل التي إلى الشمال منهم، وينمو عندهم، في أعالي الجبال، بعض شجر البن، وقليل من البر، والذرة، والتبناك، ولكنهم بصفة عامة لا يشتغلون بالزراعة، وإنما يتاجرون بالسمن في سبيل الحصول على الحبوب، والبن من أسواق تهاة، وحدود اليمن، حيث يعملون على جلب السمن على ظهور جملهم عبر جبال شديدة الانحدار، عدية المسالك. وبدلاً من استعمال الشداد أو الخي، فإنهم يربطون الأكياس المصنوعة من جلد الماعز على ظهور الجمال فوق جلد آخر مطوي.

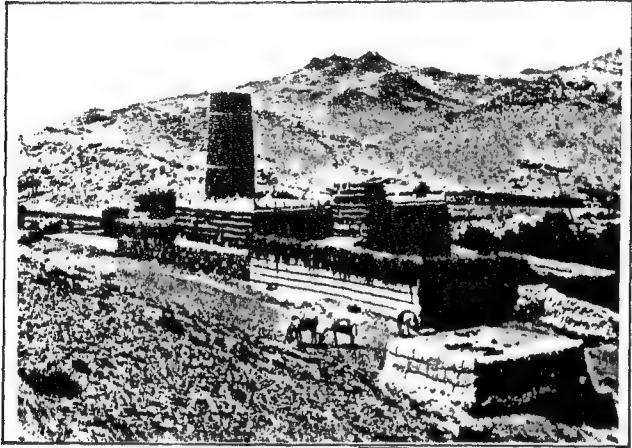
ويقع جبل فيفا على الحدود اليمنية، وعلى ارتفاع ٦٠٠٠ قدم، وهو مكثف بالمدرجات التي يزرع فيها شجر البن، والموز وثمر البتي، والعنب، والرمان، والخوخ، والبرشومي، والذرة، والبر، والشعير. ويحاوره جبل بني ملك على ارتفاع ٧٦٠٠ قدم، والزراعة فيه أيضاً على شكل مدرجات، حيث يزرع فيه شجر البن، والموز، والذرة، والبر، والشعير. أما إمدادات الماء فهي غير كافية في كلا الجانبين، وعليه فإن قرية الماء الكاملة تعطي، في جبل فيفا يوم السوق، مردوداً قدره أربعة ريالاً.

ثم سلكنا من جلة الموت طريق دقا الذي سرعان ما تغير اسمه إلى ييش، حيث نزلت أمطار غزيرة

ليلة على الجبال نتج عنها سيول متتابعة أدت إلى عرقلة رحلتنا بشكل سيء^(٧٥)؛ لأن طريقنا الوحيد يمر في مجرى الوادي. وكنا نرى القردة يومياً، وأحياناً في مجموعات كبيرة، وكذلك الأرانب البرية التي شاهدناها في كل مكان أثناء الرحلة. وهنا تكثر الذئب، والضبعان، والثور الصغيرة ذات الألوان المختلفة، والوعول التي تختلف على الجبال، ولكن الغزلان توجد فقط في السهل الساحلي. ثم واصلنا سيرنا حول الجانبين الشرقي والشمالي لجبل الريح، حيث يحف شجر الدوم الكثيف بوادٍ لا نهاية له، وهو يتلوى عبر تلال مجدية وقائضة. وكانت الحرارة شديدة، والسيل المعكر بالطين، وغير الصالح للشرب يلتف حول ركبنا، وبعد وصولنا إلى السهل، استدرنا جنوباً مجتازين حقاً، وصعدنا جبل هروُب، حيث كان الجو بارداً على منحدرات الجبل الذي تقع، على قمه وتحت إكليل من السحاب، أراضي العزيب ومُتجد، فهناك ينمو شجر البن، والبر، والشعير، وفي الوادي ينمو الموز، والبنو.

وفي طريقنا إلى صيبا، مررنا بصيبا الجديدة، عاصمة الإديسي المهجورة، التي تدعى قصرها المزخرف، وتحول إلى خرائب. وفي هذه الأيام يدور حديث عن الانتقال إلى هناك؛ لأن صيبا بالي [مدينة صيبا الحالية] تعاني كثيراً من السيول^(٧٦). وصيبا مدينة كبيرة، بيوتها من العشب، وبها قليل من المنازل المبنية من الحجر، وجميع القرى التي تغطي المنطقة المحيطة بها، أكبر بكثير من تلك التي في تهامة الشام. والزراعة تنتشر بكثرة حيث، ينمو هنا شجر التيلة، بالرغم من أن غوه لا يبعد كثيراً إلى الشمال، ويعمل منه الصباغ [التيل] في أوان كبيرة على آبار القرية. ومدينة جيزان ميناء محلي، ومنها تدار تهامة عسير؛ بينما القنفذة، وتعرف بصورة عامة باسم البندر، تخدم تهامة الشام. وكلا المينائين متاحان فقط لرسو السنايك التي تتوقف أيضاً في البرك، والقمحة. وهنا حضرنا سوق السبت في أم الحُشْب بوادي يش^(٧٧)، أحد أكبر أسواق تهامة، حيث تصنع الخوذ من ورق الدوم، وهذه الحرفة من خصائص هذا الجزء من تهامة، وهي تلبس من قبل الرجال، ولو أن المسنين منهم يفضلون قبعات القش ذات الأهرام الواسعة والحافات العريضة.

عدت الآن إلى أبها عن طريق وادي عتود، وعقبة ضلع السهلة، حيث يكثر الحمام الأخضر في هذا الوادي، وتوجد فيه أيضاً طيور الحباك، وطيور الرُفُاف، والكروان، والشبُد أو الضُوع، وطيور الأبلق ذو اللون الأشهب والذيل الطويل. ويشيع في هذه الجبال وجود طائر العقاب الكاسر الجناح^(٧٨)، وهو يهبط عبر التلال الجبلية إلى مستوى ٢٠٠٠ قدم، وتنمو هنا أنواع كثيرة من الزهور سواء على الصخور البركانية التي تكون الوجه الغربي للجبل، أو على القمة الجرانيتية.



• منازل طينية مغطاة بخطوط من القرميد البارز، وبرج مبني من الحجر في عسير •

ونظراً لأن الطريق الجبلي إلى الطائف غير عملي لاستخدام الجبال ولأن الإستثمار ينتج عنه تأخير متواصل، فقد اشترت من أبها ثلاثة من الحمير. وكان طريقنا هذا يمتد عبر الثمّاص، والظفير على طول امتداد قم سلسلة جبال السروات. حيث توجد عقبات كبيرة متعددة، وأضلاع لا نهاية لها من التلال المتتابعة الشديدة الانحدار. وعموماً، فمن المستحيل عليّ، تبعاً لذلك، أن أركب، لذا مشينا ثلاثة أرباع الطريق إلى الطائف، حيث وجدت صعوبة في المشي على قدمي، لأن حذائي تقطعت، ولم يكن في وسعي الحصول على أخرى.

تحتوي الجبال التي خلف عقبة شعار على صخور جرداء، ولكن توجد بالقرب من يثحان غابة كثيفة من شجر العرعر. وبعد أن ثقلت أسفل المنحدرات الجبلية، ثم على امتداد ذرى الجبال حتى الظهران، اعتقدت أن شجر العرعر الذي شاهدته حول السودة قبل سنة، كان استثناء في جبال جرداء خالية من الأشجار، ما عدا شجر الطلع المتناثر هنا وهناك. وكان عليّ الآن أن أجد ذلك إلى الشمال من أبها. إن قمة سلسلة جبال الحجاز جيدة التشجير بصورة عامة، وهي، في بعض الأماكن، كثيفة حقاً، ومكتظة بأشجار العرعر، والزيتون البري، والسّمّاق، والسنت، والطلع^(٢٧٩). ويتراوح ارتفاع

هذه الجبال بين ٦٥٠٠ - ٩٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، بحيث يكون أقصى ارتفاعها حول السوده، وهضبة ييجان.

وعوم الصخور هنا من أصل بركاني، ولكن القليل من القمم المشهورة مكونة من الحجر الجرانيت، مثل جبل منيع في تنومة، وجبل قشنة، جنوب الطفيق، وجبل إبراهيم في بلاد بني مالك، وجبل يئضان في بلاد بني سعد، وجبل إبراهيم هذا يشاهد من مسافة كبيرة، وهو عجيب الشكل ناعم الوجه، وذو نواة جرانيتية ترتفع من هضبة بازيلته.

ويلاحظ أنه من حدود اليمن إلى وادي جدرة، جنوب الطائف، تجري المياه بالقرب من سفوح الجبال، أحياناً في حدود ١٠٠ ياردة من الطرف، وقلما ترد عنها إلى أكثر من ميل. ويلف تهامة سديم دائم، وهو كثيف جداً في بعض الأحيان حتى أن الجرف الشديد الإنحدار الواقع على ارتفاع ٣٠٠٠ قدم يقع كلية تحت غشاوة تجعل رؤيته مفقودة.

وتدنى الرؤية خلال أشهر الصيف إلى أميال قليلة على السهل الساحلي، بسبب سحب بحري عال، وتكون هذه الرؤية مستقرة في أوقات الصباح الأولى، ولكنها تنخفض خلال النهار بفعل رياح غربية قوية للغاية، تهب في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، وتلاشي عند الغروب^(٨٠). وتقتصر الحياة النباتية على السفوح الشرقية، لأن المنحدرات الغربية الشاهقة صخرية، وتفتقر إلى التربة الصالحة، والعوامل المساعدة على الإنبات. والأعشاب غير شائعة هنا، ما عدا الورود البرية، والعوسج، وزهر العسل، وزهور الربيع المتعددة الألوان، وزهور القرنفل، والكحلأ، والكزبرة، والسرخس مع الحُمّاض، والقُرّاص [القُطْبَة أو الرُّغْب]، والبرسيم، وجميعها تنمو على امتداد الممرات، وبوفرة تشبه وفرتها في الصيف الإنجليزي، في حين تعطر نباتات الخزامي والشذاب بعبقها الهواء الدافئ. ويوجد قليل من شجر الصفصاف على امتداد الأودية، وكلما أمكن فإن جانبي الجبال والأودية مزودة بمدرجات تنمو عليها محاصيل البر، والشعير، والسيّال، والذرة^(٨١).

وتعتمد هذه الزراعة على الأمطار، ما عدا قليل من الحقول، غالباً حقول البرسيم، التي تسقى عن طريق الآبار، حيث يرفع منها الماء، بواسطة الحيوانات، في غروب جلدية تنزل إلى البئر على بكرة يحملها قائمان [سائيه]^(٨٢). وهي الطريقة الوحيدة المتبعة في رفع الماء من الآبار بغرض الري، سواء في الحجاز، أو في تهامة، وتنمو أشجار الكروم بشكل مألوف على عروش فوق هذه الآبار. ويزرع البطاطس، والطماط، والكوسة في المنطقة المحيطة بالنهاس. وتسقط الأمطار في أي شهر، ولكنها أكثر اعتياداً بين نوفمبر ويناير، أو في أغسطس وسبتمبر. وقد كان ثمة مطر حديث إلى الجنوب من النهاس

عندما مرت بها، ولكن إلى الشمال لم تكن هنالك إلا زخات خفيفة فقط منذ شهر نوفمبر. وقبائل شمال عسير هم: بَلَّحَمَر، وَلَلَسَمَر، وبنو عمرو، وبنو شهر الذين يسكنون حول النواص. وهذه القبائل الأربع تعرف جميعاً باسم رجال الحَجَر [الحجرية] ^(٨٣). وهم يسكنون في منازل متعددة الأدوار، مبنية من كتل كبيرة من الحجر المشذب، ومكسوة أحياناً بغطاء من الجص الأبيض، ومزخرفة، حسب العرف السائد في بلاد الحجاز، بناذج من المرو مثبتة حول النوافذ الضيقة. وتسكن القبائل الواقعة خلف النواص في بيوت بنيت بضخامة، وتتكون من طابق واحد، ولها في الغالب فتحات ذات أحجام كبيرة، وسقوفها تستند إلى صف من دعائم عملت من خشب العرعر، والطلح المزخرف بناذج محفورة، والمطلي بالقار الأسود. وفي بعض الأحيان، يسكنون في غرف أصغر، بنيت فوق حظائر الماشية، ومعظم هذه البيوت تخفي خلف جدران عالية مفرغة، وفي الجو الدافئ ينأمون في العراء فوق سطوح مكشوفة. أما بالنسبة لحشرات البق، والبراغيث فهي شائعة في البيوت في هذه الجبال.

وصلنا النواص في يوم الاحتفال بالختان، وهذه القبائل تقتصر فقط في احتفالاتها بهذه المناسبة على اليوم الذي يسبق هذه العملية والتي تتم لصبية من سن العاشرة إلى الثانية عشرة سنة. إنهم يحتفون بجميع القادمين على عكس الاحتفال في وادي حلي ^(٨٤)، فقد ظهر هنا نحو ١٥٠ فرداً من رجال القبائل مسلحين بينادق المَسَكِيَّت التي لا تطلق بواسطة زناد، وإنما بواسطة فتيل بطيء الاشتعال، ثم انقسموا إلى أربع فرق، واندفعوا مسرعين وفي تتابع مستمر إلى جَرِين خال، حيث أخذوا يرمون بنادقهم عالياً في الهواء، ثم أطلقوا وابلأ من النار المحتدمة، وتراجعوا ليعيدوا تعبئة بنادقهم مرة أخرى، بينما اندفع أفراد الفريق التالي بخفة، وهم يلبسون أفخر ثيابهم، ويتمنطقون بحلية من قنائن البارود الفضية، ويتزينون بأكسية أخرى مزركشة. فكانوا في منظر بطولي عبر دوامة من سحب الدخان، وجواهر كثيفة من المتفرجين الذين يغطون الأسقف والسطوح المجاورة، وهم يصمون الآذان بضجيج لا نهاية له.

وبعد أن ارتحلنا على امتداد بلاد بَلَّحَمَر، وختَم ^(٨٥)، دخلنا منطقة غامد التي تدار مركزياً من الظفير، وهي قرية صغيرة، بنيت حول قلعة، وسوقها الثلاثاء، ومنها يوجد منظر جميل لجبل شدا الشامي الذي يشكل إطاراً عند نهاية الوادي. لقد وجدت قبيلتي غامد وزهران، بشكل ظاهر، من أكثر قبائل الحجاز إكراماً للضيوف ^(٨٦).

ولا توصل الأبواب بين القبائل المضيافة، والضيوف يدخلون المنزل إذا كان صاحبه خارجاً عنه،

ويحملون أنفسهم كأنهم في بيوتهم: (٨٧)

وصلنا الطائف في الرابع والعشرين من شهر يونية، بعد أن غطينا من أبها ٣٠٠ ميل، قطعناها في ستة عشر يوماً من السير. فقد وصلنا الناص في أربعة أيام، والظفير في ستة أيام أخرى، مضافاً إلى ذلك ستة أيام إلى الطائف. ويوجد، قليلاً إلى الشرق من الظفير، طريق إضافي للجمال، يصل الطائف في أربعة أيام ونصف. ولكنه يستلزم حمل الماء لمدة يومين؛ لأن الماء ضروري في كل مكان من هذه الجبال. لقد سافرنا بجهد، وبمعدل نحو عشر ساعات يومياً على الطريق، وبالرغم من أن طعامنا غير المتنوع كان يتكون من خبز البر المغموس في الزبد، وأحياناً صحن من القز إلا أنني بقيت لائقاً جداً.

أمراء المناطق والمراكز الذين قابلتهم خلال هذه الشهور الثلاثة، قدموا لي كثيراً من المساعدة، وكرم الضيافة التي اشتهرت به الجزيرة العربية. وقد سافرت بين قبائل كثيرة لم يقابل أهلها إلا قليلاً من الإفرنجيين والمسيحيين، هذا إذا كانوا قد قابلوا أباً منهم، وكنت دائماً أستقبل استقبلاً جيداً، لأن المسافر الذي يسافر [في هذه البلاد] يأذن من ابن سعود، يُتَكَفَّل له في كل مكان بالأمن والمساعدة.

لقد تكرم السيد هـ. سانت ج. ب فيلي بمقابلة وتصحيح كتابة الحروف العربية بالحروف اللاتينية لجميع الأسماء العربية في هذا المقال، فأنا معترف بحميلة وفضله على مباشرته لهذا العمل، خاصة بعد أن رأى عدداً من الأخطاء التي كانت موجودة حقاً. كما أود أيضاً أن اعترف بحميلة في وضع مخطط رحلته من جازان إلى الليث بين يدي، وسماحه لي بأن أضيف جزءاً كبيراً منها إلى خريطتي (٨٨).

مجموعة من النباتات التي تم جمعها أثناء هذه الرحلة، هي في المتحف البريطاني (التاريخ الطبيعي).

•••

المواهب والتعليقات

(١) في شهري يونية ويولية سنة ١٩٤٧م، سافرت على جمل عن طريق الساحل من القنفذة إلى صيба وجيزان، ثم من أبي عريش إلى جبل فيفا، ومن هنا صعدت إلى جبل بني مالك، ثم من جبال آل تليد المشايكة والعدمية المنافذ إلى ظهران الجنوب، ومن الظهران زرت نجران، ثم من هناك سافرت إلى أبها. وقد ضُمَّت بعض المعلومات التي جمعت عن هذه الرحلة، إلى هذا المقال، أنظر أيضاً

(H. St. B. Philby, «The land of Sheba», Geogr. J. 92, (1938) - 1 - 21, 107 - 32 - and «Sheba's Daughter», London, 1939).

(٢) الحَسْبَة، أو الأَحْسَبَة: واد يقع إلى الجنوب من وادي نَاوَان، وإلى الشمال من وادي قَتَوْنَا، وهو ينحدر من جبال السروات، ويصب في البحر الأحمر، وترفده عدد من الشعاب، ويسكن في أعلاه بعض فخذ بني عَمَر، وغامد الزَّناد. وفي أسفله الأشراف العبدلة، وبعض فخذ زَيْتِد. انظر: السلوك، علي بن صالح، المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (بلاد غامد وزهران)، منشورات دار اليمامة بالرياض، بيروت ١٣٩١، ص ٤٦؛

Al-Zayla %, «The Southern Area of the Amirate of Makkah», Ph.D. Thesis, University of Durham, 1983, PP. 193 - 198.

(٣) هذه السلال تعرف محلياً باسم الفَدَاثِم (مفرد فِدَامَة)، وهي تصنع مع الطُّفِي، أو الحَصِيرِ المستخرج من ورق أشجار الدوم الذي ينتشر بكثرة في تهامة.

(م٤) الحَيّ: هو الشداد الوحيد الذي يستخدم في تهامة، وهو يوضع على امتداد ظهر الجمل بكامله. (الترجم) يصنع الحَي من الحَصِير الذي يحشي بنبات الحلفاء، أو اللَّلال (البَردي) بعد خياطته بأحكام بحبال تصنع أيضاً من الحَصِير، أو من لحاء السلم، أو اللرخ. وتثبت على جانبيه عصاتان قويتان ذات طرفين بارزين، تعرف الواحدة منهما باسم «الْمُضْصَح» وتلف عليها حبال التحميل الغليظة. ويدعم الحَي من الأمام باداة مثلية الشكل تعرف باسم «الشَّغِيَة»، وهي تصنع من خشب الاثل أو السدر.

(٥) الأَصْدَار: جمع صدر، وتطلق على المنطقة المشرفة على تهامة من جبال الحجاز. انظر: السلوك، علي بن صالح، بلاد غامد وزهران ص ٥١.

(٦) وعرهان باسم شدا الأعلى وشدا الأسفل، فالأول يقع إلى الجنوب من مدينة قَلْوَة المعروفة في تهامة الباحة، بحوالي خمسة عشر كيلومتراً، وأغلب سكانه من فخذ قبيلة زهران، ويقع الثاني إلى الجنوب من شدا الأعلى، وغربي مدينة المخواه المذكورة، بحوالي عشرة كيلومتراً، ويسكنه بعض فخذ قبيلة غامد المشهورة، انظر: السلوك، بلاد غامد وزهران، ص ١٤١ - ٣.

(٧) في الأصل «بنو عمرو».

(٨) كانت الظفير العاصمة الادارية لبلاد غامد وزهران في الفترة من سنة ١٣٥٣ - ١٣٧١هـ، ثم انتقلت منها إلى مدينة بَلْجَرَشِي، ومنها إلى مدينة الباحة في أواخر سنة ١٣٨٣هـ، ولاتزال الباحة إلى اليوم المقر الاداري لبلاد غامد وزهران، انظر: المرجع نفسه، ص ١٦١.

(م٩) وفيها يلي الأسواق المجاورة للمخواه:

القنفة، وسوقها الحميس. وادي الاحسبه، وسوقه الجمعة البائية [تعرف باسم جمعة زَيْتِد]. قَرَمَا، وسوقها الاحد. وادي يَس، وسوقه الاثنين (غامد). سوق الثلاثاء لبني عَيْسَى. وادي دَوَقَة، وسوقه الأحد. بنو سهيم، وسوقهم الاثنين. بنو بَحِير، وسوقهم الربوع، بنو المَشْتَر، وسوقهم الحميس. العَوَابِر، وسوقهم الاحد، شَمْرَان، وسوقهم السبت، بنو رِزْق، وسوقهم الاحد، عَمَارَة، وسوقهم الثلاثاء. آل سليمان، وسوقهم الاربعاء (في نِخَال)، الجَوَف، وسوقها الثلاثاء.

(١٠) واحدها حَبْنِيَة، وهي خنجر طويل تشد بحزام على الوسط، وهي السلاح المفضل في المنطقة الجبلية الذي يحمل من أجل الزينة والدفاع عن النفس، على عكس تهامة التي يفضل أهلها حمل السيوف،

والسكاكين ، والخناجر لهذا الغرض . ويختلف شكل الجنية من منطقة إلى أخرى ، فهي في بلاد غامد وزهران والعرضية قصيرة ومقنصة ، في حين أنها في منطقة تخايل وماجاورها ، طويلة وغمدتها من الخشب المغطي بالجلد الذي يتهي بذيل من السيور الجلدية .

(١١) يعرف هذا الفخذ باسم غامد الزناد ، وتنتشر ديارهم في بطاط والفرعة ونصبة والعطوة ، ويتس ، حيث تنتهي ديارهم من الغرب بالقرب من بلاد زبيد ، أنظر : حمد الجاسر ، في سرات غامد وزهران ، منشورات دار اليمامة ، الرياض ، ١٣٩١ هـ ، ص ٢٦٠ ، السلوك بلاد غامد وزهران ، ١٤ .

(١٢) وادي بطاط ، يطلق على أعلي وادي الأحسبة المذكور ، وبه مقر الشيخ الزندي ، شيخ قبائل غامد الزناد ، أنظر : حمد الجاسر ، في سرات غامد وزهران ، ص ٢٦٠ ، السلوك ، بلاد غامد وزهران ، ص ٥٧ .

(١٣) إحدى قبائل العرضية التابعة لمنطقة القنفذة . أنظر : البركاتي ، الرحلة اليمانية ، القاهرة ١٩١٢ ، ص ١٠٣ ، الواسعي تاريخ اليمن ، الطبعة الثالثة ، الدار اليمانية للنشر والتوزيع ١٤٠٣ ، ١١٤ .

(١٤) ثريان ، المقر الرئيسي لقبيلة بلقرن التهامية ، وهو يتبع إمارة القنفذة ، ويقع في أعلى وادي يبة ، وقبيلة بلقرن ، إحدى قبائل العرضية الرئيسية ، أنظر عن هذه القبيلة : كحالة ، معجم قبائل العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

(١٥) بلاد عُمارة ، وتعرف باسم العرضية الجنوبية ، وهي تتبع القنفذة ، وتقع بين ثريان من الشمال ، وبلاد بني شهر من الجنوب . وقبيلة عمارة ، إحدى فخذ قبائل بلقرن . أنظر : البركاتي ، الرحلة اليمانية ، ص ١٠٢ ، كحالة معجم قبائل العرب ، ج ١ ، ص ١٠٣ ، وج ٢ ، ص ٨٢٢ .

(١٦) تسمى الواحدة من هذه القبعات مظلة أو طَفَشَة ، وهي تصنع من ورق أشجار الدوم (الطفي) أو من خوص النخيل ، وتزين مقلات النساء بالدود ، ويسور ملونة من القماش أو الجلد .

(١٧) المزمار : يعرف علمياً باسم الصُفْرِيَّة ، وهي تصنع من لحاء عروق شجر السمر ، أو شجر العاش ، أو من مواشير حديدية خاصة .

(١٨) في الأصل حاط .

(١٩ م) أسواق بارق هي كما يلي :

آل حمضة ، وسوقهم الربوع [الاربعاء] (في العَجَمَة) . آل موسى ، وسوقهم الاحد (في الثُرَيْمَاء) [في الاصل قريجات] . آل حمضة وسوقهم الجمعة (في اثرب) [في الاصل اثرق] . آل سباعي ، وسوقهم السبت (في سَاحِل) [في الاصل ساحار] . بللسمر ، وسوقهم الثلاثاء (في المنظر) .

(المترجم) يطلق اسم بارق على منطقة تمتد من وادي خاط شمالاً إلى وادي بقرّة جنوباً ، ومن جبل اثرب شرقاً إلى حقو جبل مرسي غرباً . ويطلق اسم بارق أيضاً على مجموعة من القبائل التي تسكن المنطقة التي يشملها هذا الإسم ، ومنهم حمضة المشار إليها في النص . أنظر : النعيمي ، عسير في الماضي والحاضر ، مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر ، جدة ، ص ١٢ ، ٥١ .

(٢٠ م) الضأن ، لونها أبيض ، وفيوها مكتزة بالشحم ، وأحياناً رؤوسها سوداء ، والماعز تتراوح ألوانها بين البني ، والأبيض والأسود ، أو متعددة الألوان . ويوجد في العرضية نسل عمن من الماعز ، عادة ألوانها بنية ، ولها علامات في رؤوسها تشبه القرون . وفي الحجاز ، لون الضأن أبيض ، ولون الماعز هو الأسود [في الغلاب] .

(٢١) آل جبلي، أحد فخذ قبائل بارق المذكورة آنفاً، أنظر التعمي، المرجع نفسه، ص ٥١، وحلي واد كبير، ترفده كثير من الأودية الصغيرة، وهو يتبع من جبال السراة، ويصب في البحر الأحمر في المنطقة المعروفة باسم ساحل حلي. أنظر: البلادي، بين مكة واليمن، دار مكة للطباعة والنشر، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ، ص ١٧٦ - ٢١١. الزيلعي، «المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي»، حوليات كلية الآداب، الرسالة التاسعة والثلاثون، الحولية السابعة جامعة الكويت، ١٤٠٦هـ، ص ١١، والصفحات التي بعدها.

(٢٢) عن بعض هذه القبائل، أنظر: العقيلي، المخلاف السلياني، الرياض، ١٣٧٨، ج ١ ص ٧٩، التعمي، عسير في الماضي والحاضر، ص ٤١ - ٤٢، ٥٢، ٥٣، البلادي بين مكة واليمن، ٢٢٢ - ٣٠، ٢٨٨، ٢٩٦ - ٧.

(٢٣) هو الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود، مؤسس المملكة العربية السعودية، وقد اشتهر بهذه الكنية بين الكتاب العرب المعاصرين له، وهكذا يعرف بين الكتاب الغربيين حتى الآن. أنظر: فؤاد حمزة، في بلاد عسير، القاهرة ١٩٥١م. ص ١٠ - ١١.

Mansfield, Peter; *The Arabs*, 1st. edit.,

London, 1978, PP. 400 - 401.

(٢٤) يعرفون باسم عمور السبطة نسبة إلى اسم قريتهم التي تعتبر أول قرى حلي في سهل تهامة. أنظر: البلادي، بين مكة واليمن، ص ١٩٢.

Cornwallis, *Asir before World War I*, The Oleaner Press, Cambridge, 1978, 35.

(٢٥م) أسواق حلي هي:

يبدأ، وسوقه الأحد. غشوش، وسوقه الاثنين. السبطة، وسوقها الأربعاء. الرقعة في الأصل ربيعة [وسوقها الخميس]. (المترجم) انتقل هذا السوق إلى قرية الصفة، المركز الإداري لشرق حلي في الوقت الحاضر.

أسواق وادي يه هي:

قبيلة بَلْعَر، وسوقهم الثلاثاء. بنوعل، وسوقهم الأربعاء. وريعة، وسوقهم الجمعة. الشوادة، وسوقهم السبت. (المترجم) انتقل هذا السوق إلى قرية الحَيْل، إحدى قرى وادي يه الرئيسية، واستحدث سوق آخر هو سوق الخميس في قرية القَوَز المعروفة في المراجع باسم قوز بلعير، وهو الآن من أهم أسواق وادي يه بل من أهم أسواق ساحل منطقة القصيدة.

(٢٦) يذكر عبدالله الغنيم أن عرض سهل تهامة يتراوح بين ٢٠ و ٧٠ كيلو متراً. أنظر: جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك لأبي عبيد البكري، الطبعة الأولى، ذات السلاسل، الكويت ١٣٩٧هـ، ص ١١٠.

(٢٧) في الأصل، دونقة.

(٢٨) عن هذه الأودية، أنظر: البركاتي، الرحلة الهياتية، ص ٥٨، البلادي بين مكة واليمن، ص ٣٠ - ١٩٥.

Al-Zayla ^{٢١}, "The Southern Area of the Amirate of Makkah", P. 91.

(٢٩) عن هذه الأودية، أنظر: العقيلي، المخلاف السلياني، ج ١ ص ٣٦ - ٤٠.

Cornwallis, Asir before World War I, 36 - 37.

(٣٠) عن هذه القبائل، انظر فؤاد حمزة، قلب جزيرة العرب، الطبعة الثانية، مكتبة النصر الحديثة، الرياض، ص ١٥٣ - ٤.

(٣١) في الاصل، الشاردي، وهي نسبة الشخص الواحد إلى هذه القبيلة. وربما يقصد المؤلف ببلعير مكان القوز، ولكن بلعير تشمل سكان القوز والمقاعنة، سكان الحبيسل، والنواشرة، والشواردة. أنظر: كحالة، معجم قبائل العرب، ج ١ ص ١٠٣، البركاتي، الرحلة الميمنية، ١٠٢.

(٣٢) تسكن قبيلتا زبيد والسعدة في وادي لومة. وسكان دوقة هم: الجيرة، والمشايخ، والأشراف الحرازية، ويسكن وادي قنونا قبائل بني زيد، وبدو الرواشد يسكنون في وادي ناوان، وزبيد تسكن في وادي قريما، ويتو هلال يسكنون في وادي عقيق.

(٣٣) يعرف العقم الرئيسي في وادي حلي باسم جُميرة، ويليه في الأهمية الرصاص، ويقصد بالعقم السد الترابي الذي يحجز مياه السيول لغرض ري الأراضي الزراعية، عن العقم (العقوم) ونظام الري في هذه المنطقة، أنظر:

Abdufattah, Kamal, Mountain Farmer and Fellah in "Asir, Erlangen, 1981.

(٣٤) قرية المشايخ، وهي تقع في ساحل حلي، أنظر: الزليعي، «المواقع المندثرة في وادي حلي»، ص ٣٨.

(٣٥) خلال رحلتي عبر تهامة في عام ١٩٤٧م، تأكدت من هذا، بصورة لا تقبل الشك، عندما اطلعت في شهر يونيو على المحصول الخامس في وادي حلي. [المترجم] يطلق الاهالي على هذه الحصيدات على التوالي اسم: (١) الشب، (٢) الخلف، (٣) خلف الخلف، (٤) خلف الجنية أنظر:

Abdufattah, Mountain Farmer and Fellah in "Asir, p.43.

(٣٦) مثل الريحان، والشعيع، والشار، والكأني.

(٣٧) أوراق الدوم هذه تسمى عليلاً الطفي، ويستخدم في كثير من الاغراض المنزلية، وقد لقيت زراعته وصناعته والأثمار به قدراً كبيراً من الرواج منذ زمن طويل. أنظر: الزليعي، مكة وعلاقاتها الخارجية عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، الرياض ١٤٠١هـ، ص ١٨٩.

(٣٨) تسمى هذه الفاكهة الثقب، وهي تشبه ثمر التفاح الصغير البري أنظر:

Rutter, The Holy Cities of Arabia, The Westminster Press, London, 1928, vol. I, p.

(٣٩) هذه العادة كانت شائعة، لأن راكب الجمل يكشف البيوت من الداخل، ومن هنا فإن عليه أن يمشي على رجله كلما كان طريقه يشق المحلات السكنية، وإن لم يفعل فإن أهل المحلة يجبرونه على النزول عن ظهر جملة والمشي على رجله.

(٤٠) اشتهرت هذه المنطقة، ولاسيما حلي ابن يعقوب، بصناعة الأقداح من الخشب منذ مدة طويلة. أنظر: المقدسي، أحسن التقاسيم طبعة لندن، ١٩٠٦م، ص ٩٨، الزليعي، مكة وعلاقاتها الخارجية ص ١٨٩.

(٤١) هذه المعاليق تسمى سلال أو شباك (مفردها سلة أو شبكة)، وهي تعمل في تهامة من المشق المصنوع من الطفي، أما في المناطق الجبلية فتعمل من السيور الجلدية.

(٤٢) القشر: شراب أو نقيع يعمل من قشر البن، وهو أيضاً يشرب في تهامة عسير بصورة عامة.
(٤٣) يذكر فيلي هذه العادة أثناء زيارته لحلي، ونزوله ضيفاً على شيخ كنانة إبراهيم الكناني، جد شيخها الحالي، عبدالرحمن بن عيسى الكناني، ويضيف بأن الخادم صب له ثلاثة فناجين متتابعة قبل أن يقدم شيئاً لبقية الحاضرين، أنظر:

Arabian Highlands, New York, 1952, 687.

(٤٤) (والتهاميون بالمقاييس العربية ليسوا كرماء) ولا يري فيلي أن هذا الوضع ناتج عن بخل وإنما بسبب الفقر. أنظر:

Arabian Highlands, 689.

(٤٥) هذا الحزام يسمى جديلة، وهو يصنع عالياً من سيور الجلد الرفيعة ويوضع على البطن منذ الصغر، وكان الاعتقاد السائد أن هذه الجديلة تقي حاملها من الفتق، ومن دوالي الخصية.
(٤٦) يعرف هذا الشريط عالياً باسم الشلاف أو الغدار، ويصنع من السيور الجلدية الرفيعة ويرصع بحبيبات من الفضة.

(٤٧) حزمة النبات هذه تسمى طلالة أو غرزة، وهي تفرز في عصابة مصنوعة من النبات، أو من الخيزران الرفيع المرصع بحبيبات الفضة، وتعرف باسم المشقة.

(٤٨) بعض هذه الصفات التي ذكرها المؤلف كانت مرتبطة بالجهل، أما بعد إنتشار التعليم في الوقت الحاضر، فإن أهالي حلي أصبحوا في غاية التهذيب. أما مرض الدودة الغينية فيعرف عالياً باسم العرؤق، وهو يسبب آلاماً مبرحة، ويبدأ بتورم في الأطراف غالباً، ثم ينتج عنه تقيح لم يلبث أن ينكشف عن عرق أبيض يشبه الدودة، حيث يأخذ المريض في جرح هذا العرق رويداً رويداً حتى يتخلص منه الجسم. وبالتالي يشفي المريض، وتستغرق هذه العملية مدة طويلة، وينتج عن هذا المرض قصور أو تشوه في الأعضاء أحياناً.

(٤٩) يسمى هذا الاحتفال الهود، أنظر: العقيلي، الأدب الشعبي في الجنوب، منشورات دار اليمامة بالرياض، ١٣٩٢هـ، ص ٢٩.

(٥٠) عن عادة الختان في هذه المناطق، أنظر:

شاكِر، محمود، شبه جزيرة العرب (حسير)، دمشق ١٣٩٦هـ، ٨٥، رفيع، محمد عمر، في ربوع عسير، القاهرة، ١٣٧٣هـ، ص ٨٤-٨٧، النعمي، عسير في الماضي والحاضر، ص ٥٨، فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ص ١٠٩-١١١.

(٥١) لا تلبس الدكة، ولا السروال، ولا الحزام الخاص بهما إلا من قبل الثلاثة خلال الاحتفالات التي تسبق الختان. (المترجم) تعرف هذه التنورة، على الأقل في تهامة، باسم الدكة، وهي من قماش الحرير بألوانه الأحمر والأخضر والأصفر أو الأبيض. وتتكون من قطعة طويلة تتراوح بين ٧ و ١٠ أذرع، تحاط من الطرفين وتزم من الأعلى بقدر الحصر بحيث تلبس فوق السروال، وتشد بحزام الختنجر وعندما يستدير الثلاب أثناء الرقص فإن الشكل الفضفاض للدكة يرتفع بفعل الهواء من الأسفل محدثاً شكلاً مثل المظلة التي يستخدمها جنود سلاح المظلات. وتطلق كلمة الثلاثة على الفتية الذين ينون الختان، ويمارسون هذا النوع من الرقص قبل إجراء عملية الختان، والمفرد ثلاب. ويطلق عليهم في بعض

النطاق كلمة المُتَرَبِّين، مفرد مُتَرَّب، وفي جازان يطلق على الواحد منهم الدُّرَم. أنظر العقيلي، الأدب الشعبي في الجنوب، ص ٢٩.

(٥٢) عن هذه الأدوات الموسيقية، أنظر: العقيلي، الأدب الشعبي في الجنوب، ص ٢٤.

(٥٣) تطلق كلمة الحَيْش على نوع الرقصة، والمُحَيَّشَة (مفرد مُحَيَّش) على الرجال الذين يمارسونها، وتعرف في جازان باسم العَزَاوِي، أنظر: العقيلي، الأدب الشعبي في الجنوب، ص ٢٧.

(٥٤) تسمى زيارة القرى المحيطة من قبل هؤلاء باسم دَعِيَّة أو دَعْوَة، وفي جازان تعرف باسم المَطَالِيب، أنظر: العقيلي، الأدب الشعبي في الجنوب، ص ٣٠.

(٥٥) يسمى هذان العبدان الختان واللازم، وعن كيفية اجراء عملية الختان ولباس المختونين، أنظر: رفيع، في ربيع عسير، ص ٨٦-٨٧.

(٥٦) ختان السلخ الذي كان يمارس في تهامة قبل أربعين سنة، هو إزالة الجلدة تماشاً من الأسفل إلى داخل ما بين الفخذين، ولا يزال يمارسه بعض البدو. وقد خفضت في تهامة إلى سلخ القضيب بكامله واستمر ذلك حتى عهد قريب. ولكن هذه الطريقة منعت الآن من قبل الملك عبدالعزيز. ويمكن بمقتضى هذا المنع إزالة عرض بناتين فقط تبدأ من الأسفل. وترفع الغرلة ثم تقطع قطعتين، أحدهما إلى أعلى، والأخرى إلى أسفل، ويعالج الجرح يومياً بورق السَّلْع. وفي سنة ١٩٤٥م حكم على ثمانية أولاد من أهل وادي حلي بقطع يد كل منهم، لتجاوزهم الطريقة التبعة، وأجرائها على الشكل الممنوع. [الترجم] صدر الأمر بالعفو عنهم قبل اجراء عملية القطع.

(٥٧) تقع كباد على حافة وادي حلي الجنوبية، البلادي، بين مكة واليمن ص ٢١١، الزيلعي، المواقع الإسلامية المتدثرة في وادي حلي، ص ٣٣، ٣٥. أما قبيلة بني هلال، فهي من القبائل المشهورة التي تستقر حول مدينة البرك، وهي تتكون من أربعة أمخاض. أنظر: كحالة، معجم قبائل العرب، ج ٣، ص ١٢٢٠.

(٥٨) هذه المواقع من المراكز الرئيسية في المنطقة الجنوبية الغربية، أنظر: البلادي، بين مكة واليمن، ص ٢١٧، ٢٣٠، ٣١٠.

(٥٩) يقصد بهذه المنطقة البركانية حرة كنانة أو حرة بني هلال المعروفة في المصادر العربية، أنظر: الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، منشورات دار الينامة، الرياض، ١٣٩٤، ص ١١٨، ٢٥٨، ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٥٥م، ج ٢، ص ٢٥٠.

(٦٠) حقل المقلوفات البركانية [الحرة] يفصل تهامة الشام عن تهامة عسير. والبرك يتبع القنفذة من الناحية الادارية، أما القحمة فهي تابعة لجزان، وفي الماضي كانت تهامة عسير تحت حكم الإدريسي.

(٦١) في الأصل، ثوار، وعقبه شعار من العقاب المشهورة التي تقع بين محاليل وأبها، وهي على بعد حوالي ٢٨ كيلومتراً إلى الشمال من أبها، أنظر: فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ص ٩١.

(٦٢) العقاب، أو الممرات التي تؤدي إلى تهامة، وتقع إلى الشمال من أبها هي: عقبة سمعه (السودة)، وعقبة قضا (العصامي)، وعقبة شعار (وادي تية)، والجدة (بيحان)، وجلجلة (بللسمر) وعقبة ساقين (تسومة)، وعقبة سنان (النحاس). عن هذه العقاب، أنظر: فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ص ٩١-٩٣.

(٦٣م) توجد ثلاث قبائل يطلق عليها اسم بني مالك، وجميعهم من أصول مختلفة، وهم: بنو مالك جنوب الطائف، وبنو مالك المسيريون وبنو مالك على الحلود اليمنية في أعالي وادي ضمد ووادي دافا.
(٦٤) عن هذه القبائل المسيرية، أنظر: النعمي، عسير في الماضي والحاضر، ص ٣٤-٥٣. وعن قبائل بني مالك، أنظر: فؤاد حمزة في بلاد عسير، ص ١٠٤، العقيلي، المخلاف السلياني، ص ٨٨-٩٨، كحالة، معجم قبائل العرب، ج ٣، ص ١٠٢٦-٣٢.

(٦٥م) المنازل الحجرية في جميع أنحاء هذه الجبال تبني بأحجار مهذبة تقريباً، وتقل الفرج بالموثة حتى تصبح تقريباً مثل الحجر الأملس النحوت، وترصع جدران هذه المنازل في القالب بنهاج من المرو وبصورة عامة حول النوافذ، وأحياناً توظف النوافذ في البيوت المبنية من الطين بإطار من الدهان الأبيض أو البرتقالي.

(٦٦م) فروع قبيلة قحطان المستقرة هي: بنو بشر، ورويدة، وشريف، ومنحان، وعبيدة، ووادة. ومن شهران: تمينة، والمسقي، والجهر، وسيحان، ووادي ابن هشبل [في الأصل، هشبان] وناهس وتندعه، وعتود، وقارة [لعلها القارية]، وبنو ماجار [لعلها آل عاجر]، [الترجم] خلط المؤلف هنا بين أسماء القبائل وأسماء الأماكن، يتضح ذلك من مقابلة الأسماء التي أوردها هنا مع الكشف التي تضمنها كتاب عسير في الماضي والحاضر لمؤلفه هشام بن سعيد النعمي، ولزيد من المعلومات عن أسماء قبائل قحطان وشهران، وأسماء المواقع التي يتمتعون إليها، أنظر: المرجع نفسه، ص ١٤-١٩، ٤١-٤٦.

(٦٧) يبدأ وادي عرين من عرعر التي توالي تيماء من الغرب، ويصب في المجزعة، ومن القرى التي تقوم عليه: عرعر، والحصن، وآل المؤنس، ومدينة الظهران. أنظر: فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ص ١٣٩.

(٦٨م) العقاب أو المرات التي تؤدي إلى تيماء وتقع إلى الجنوب من أبها، هي: عقبة ضلع، وعقبة جدلة (عتود)، وعقبة القرون (تمينة)، وعقبة آل الخلف (وادي بيش)، وشراقيب (رأس بيش) ومفتاح الخشبة (وادي قاعة)، وعلب (حدود اليمن).

(٦٩م) هذه الجبال بركانية، ولكن في أعلى العقبة التي يبلغ ارتفاعها ٨٠٠٠ قدم، توجد طبقة من الحجر الرملي الوردي اللون المتناسك بالكريونات.

(٧٠) تعرف جلة الموت باسم قلة الموت، وتقع بالقرب من جبل الريث إلى الجنوب من أبها. أنظر: البلادي، بين مكة واليمن، ص ٢٩٦. جبال مشيت *Mushait*، هكذا وردت في الأصل، ولم أجد لها ذكراً في المصادر الميسورة، أو على خريطة المملكة. ولعلها جبال مشيط نسبة إلى بعض فروع قبيلة آل مشيط المعروفة، حيث أصبحت أن لها فروعاً هناك.

(٧١) وادي دفاً، أحد ووادف وادي بيش من شمال بلاد حولان، أنظر: العقيلي، المخلاف السلياني، ج ١، ص ٣٩.

(٧٢) عن هذه القبائل ومواطنهم، أنظر: العقيلي، المخلاف السلياني، ج ١، ص ٨٨-٨٩، البلادي، بين مكة واليمن، ص ٢٨٨-٢٩٧.

(٧٣) يذكر رفيع أن بعض قبائل هذيل القاطنة على بعد ثلاث مراحل من مكة، وجنوباً عنها على السراة

يتكون علامة على شعر الصبي الذي لم يتختن، ولا يحق له أن يرجل شعره على عادة المختونين إلا بعد الحتان. في ربيع عسير، ص: ٨٤.

(٧٤) من القبائل العسيرة التي كانت تزخر اختتان إلى ما بعد العشرين قبيلة ربيعة. أنظر: فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ص: ١٠٩.

(٧٥) ربما كان ذلك في عهد المؤلف، أما في الوقت الحاضر فقد منعت زراعة ومنع بيعه وترويعه (٧٥) وادي بيش من أكبر أودية منطقة جازان، وقد مر ذكره عند الحديث عن أودية تهامة. أنظر: العقيلي، المخلاف السلياني، ج ١، ص: ٣٩-٤٠، المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (مقاطعة جازان)، منشورات دار الينامة، الرياض، ١٣٨٩، ص: ٦١-٦٤.

(٧٦) لا تزال خرائب مدينة الأدرسي قائمة حتى اليوم، وهي ذات قيمة أثرية كبيرة، وقد قامت إدارة الآثار والمتاحف بتسويرها، وبنت متحفاً بالقرب من هذا المكان لحفظ آثار منطقة جازان فيه.

(٧٧) هروب، وسوقها الأحد. الحقو. وسوقها الاثنين. صيبا، وسوقها الثلاثاء. أبو عريش، وسوقها الربيع. ومغزل [في الأصل مغزى]، وسوقها الثلاثاء. الدرب، وسوقها الخميس، بيش (أم الحشيب)، وسوقها السبت.

(٧٨) طائر بين النسر والعقاب، ويعرف باسم كاسر العظام. وقد جاءت تسمية الكاسر من ضم الطائر جناحيه أثناء الانقضاض. أنظر: ابن منظور، لسان العرب المحيط، أعداد وتضنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، م ٣، ص: ٢٥٦.

(٧٩) يمتد معدل الحزام أو النطاق النباتي كما يلي: السلم، والسمر والائل، والسدر من السهل الساحلي إلى ارتفاع ٥٠٠٠ قدم، والفتاد والمقل والقرظ [وعوم الصمغيات] من ٥٠٠٠ - ٧٠٠ قدم، والطلع من ٦٥٠٠ - ٧٥٠٠ قدم، والزيتون البري من ٥٥٠٠ - ٧٥٠٠ قدم، والمرع من ٦٥٠٠ - ٩٠٠٠ قدم، والورد البري من ٨٥٠٠ - ٩٠٠٠ قدم.

(٨٠) تسمى هذه الرياح محلياً باسم الغبرة، وهي تهب على المنطقة في شهري يونيو وزيوليو من كل عام. أنظر: العقيلي، مقاطعة جازان، ص: ١٧.

(٨١) في الأصل: سيلان.

(٨٢) السائية (جمع سواني)، كانت وسيلة الري الوحيدة في المنطقة عن طريق الآبار، وقبل انتشار المضخات. أنظر:

Mughram, M.A., «Assarah, Saudi Arabia» Ph.D. Thesis, University of Durham, 1973. P. 75; Al-Zayla-
٦, «The Southern Area of the Amirate of Makkah» 195.

(٨٣) نسبة إلى الحجرين المنوبين الأزرد من قحطان. عن هذه القبائل وتسميتهن بهذا الاسم، أنظر: العمري، عمر غرامة، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (بلاد رجال الحجر)، دار الينامة، الرياض، ١٣٩٧-٩٨ هـ، ص: ٥١ والصفحات التي بعدها، النعمي، عسير في الماضي والحاضر، ٥١، ٤٦، فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ١٥٧ وما بعدها.

(٨٤) تسعى الولائم التي تقدم يوم الحتان في منطقة القنفذة باسم القرى، وفي جازان تسمى الجبر (أنظر العقيلي، الأدب الشعبي، ص: ٣٢)، وغالباً لا يقوم بها أبناء المختونين وحدهم، بل يتضامن معهم كل أفراد القبيلة، ويفرقونها بحسب الرأس فيها يعرف باسم «الفرقة». ولا ينبغي أن تؤخذ هذه العادة

مقياساً للكرم عند المقاومة بين قبيلة وأخرى كما فعل المؤلف. فبعض القبائل المستقرة ولا سيما في منطقة القنفذة عملت على إبطائها، لما فيها من البذخ والتبذير والخسائر الكبيرة، وعقدت فيما بينها اتفاقيات لهذا الغرض تعرف بأسم «المرابطة» يُعْرَمُ المخالف بمقتضاها غرامة كبيرة قد تنسف على تكاليف هذه الولائم. ومن القبائل التي أبطلت ولائم الختان قبائل ساحل حلي، وحاضرة وادي يبة، في حين أنها تقام بين قبائل شرق وادي يبه وقنونا والمناطق الواقعة إلى الشمال منها.

(٨٥) بلقرن وخشم من قبائل السراة المعروفة، أنظر: فؤاد حمزة، قلب جزيرة العرب، ص: ١٤٨، ١٩٠، كحالة، معجم قبائل العرب، ج ١، ص: ١٠٣ - ١٠٤، ٣٣١.

(٨٦) فيما يلي أقسام قبائل زهران وهم: بيضان، وبنو حسن، وبلخزم [بنو الحزم]، وبنو كنانة، وبنو عامر [في الأصل عمرو]، وبنو عمر، وبنو عدوان، وقريش (الترجم) عن هذه القبائل وغيرها من قبائل زهران، أنظر: السلوك، بلاد غامد وزهران، ٢٥٤ - ٨. (الترجم) المعروف عن قبائل بلقرن وخشم أنها من القبائل المضيفة، ولا يمكن أن تؤخذ تجربة المؤلف الشخصية وسيلة لتعميمها على هاتين القبيلتين المشهورتين بكرم الضيافة.

(٨٧) وكما قبل سابقاً عن بلقرن وخشم يمكن أن يقال عن بني سعد، وبني مالك الذين يشتهرون بكرمهم وحسن ضيافتهم، ويجب ألا يغيب عن البال أن المؤلف كان في آخر رحلته، وكان يسير بجدة للوصول إلى الطائف، فربما كان اتصاله فقط بالمقامي، والمحطات التي تقوم على الطرق والتي يعيش أهلها على ما يحصلون عليه مقابل تقديم هذه الخدمات للمسافرين. وليس بالضرورة أن يكون العاملون في هذه المقامي من القبائل التي ذكرها المؤلف؛ لأن هذه الأعمال كانت، حتى عهد قريب، تستعيبها القبائل المذكورة.

(٨٨) ارتحل فيليبي من جازان إلى الليث مروراً بالقنفذة في سنة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٦، وقد دون وصف هذه الرحلة والأماكن التي زارها في كتابه *Arabian Highlands, PP. 648-706*.

مصادر ومراجع التحقيق

أولاً: العربية

البركاتي، شرف بن عبد المحسن،

(١) /الرحلة الثانية، مطبعة السعدية، القاهرة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٢.

البلادي، عاتق بن غيث،

(٢) /بين مكة واليمن، دار مكة للطباعة والنشر، مكة المكرمة، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م

الجباسر، حمد،

(٣) /في سراة غامد وزهران، دار اليمامة، الرياض ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م

حمزة، فؤاد،

(٤) /في بلاد عسير، القاهرة ١٩٥١ م.

(٥) قلب جزيرة العرب، الطبعة الثانية، مكتبة النصر الحديثة، الرياض، ١٣٨٨هـ.

رفيع، محمد عمر،

(٦) في ربيع عسير، دار العهد الجديد، القاهرة، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

الزهراني، محمد مسفر،

(٧) بلاد زهران، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٣٩٠هـ.

الزليحي، أحمد بن عمر،

(٨) مكة وعلاقتها الخارجية (١٣٠١/٤٨٧هـ) عمادة شؤون المكتبات جامعة الرياض، الرياض،

١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٩) المواقع الإسلامية المنشرة في وادي حلي، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الرسالة

التاسعة والثلاثون، الحولية السابعة، الكويت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

السلوك، علي بن صالح،

(١٠) المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (بلاد غامد وزهران)، دار اليمامة بالرياض، بيروت،

١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

شاكور، م. س. محمد،

(١١) شبه جزيرة العرب (عسير)، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

العقيلي، محمد بن أحمد عيسى،

(١٢) الأدب الشعبي في الجنوب، دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

(١٣) المخلاف السلياني أو الجنوب العربي في التاريخ، مطابع الرياض، الرياض، ١٣٧٨هـ/

١٩٥٨م.

(١٤) المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (مقاطعة جازان)، دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٩هـ/

١٩٦٩م.

العمروي، عمر غرامة،

(١٥) المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (بلاد رجال الحاجر) دار اليمامة، الرياض

١٣٩٧هـ/ ٩٨هـ.

الغني، عبدالله يوسف.

(١٦) جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري، الطبعة الأولى، ذات

السلاسل، الكويت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

ع

كحالة، عمر رضا،

(١٧) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، دار العلم للملايين بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

المقدسي، محمد بن أحمد البشاري،

(١٨) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، مطبعة بريل، لندن، ١٩٠٦م.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي،

(١٩) لسان العرب المحيط، اعداد وتصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، بدون

تاريخ.

النعمي، هاشم بن سعيد،

(٢٠) عسير في الماضي والحاضر، مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر جدة، بدون تاريخ.

الواسعي، عبدالواسع بن يحيى،

(٢١) تاريخ اليمن، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

المحمداني،

(٢٢) صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، دار اليمامة، الرياض ١٣٩٤هـ /

١٩٧٤م.

ياقوت، أبو عبدالله الحموي،

(٢٣) معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٥٥م - ١٩٥٧م.

ثانياً / غير العربية

Abdulfattah, Kamal;

(1) **Mountain Farmer and Fellah in Asir Southwest Saudi Arabia**, Erlangen, 1981.

Cornwallis, Sir Kinahan;

(2) **Asir before World War I**, The Oleander Press, Cambridge, 1976.

Mansfield, Peter;

(3) **The Arabs**, 1st edit. Cox & Wyman Ltd, London, 1977.

Mughram, M.A.;

(4) «Assarah, Saudi Arabia», Ph.D. Thesis, University of Durham, 1973.

Philby, H. St. J.B.;

(5) **Arabian Highlands**, Cornell University Press, New York, 1952.

Rutter. E.

(6) **The Holy Cities of Arabia**, 1st edit., The Westminster Press, 1928.

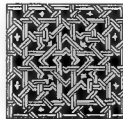
Al-Zayla'i, Ahmad "Umar;

(7) «The Southern Area of the Amirate of Makkah (3rd-7th/9th-13th Centuries) Its History Archaeology and Etymology», Ph.D. Thesis, University of Durham, 1983.

Asnaf Sagad Minas

Titicaca

Creasy Hist of the Ottoman Turks



دور الشيخ عز الدين القسام في الكفاح الفلسطيني

د. حسن صالح عثمان

عبد



في الثلث الأخير من القرن الماضي، لم تكن الحدود القائمة اليوم بين أجزاء الوطن العربي موجودة آنذاك، بل كان الوطن العربي وطناً واحداً مفتوحاً أمام المواطنين العرب، وكان الشباب العربي الواعي في مختلف البلاد العربية يتدارسون أوضاع وطنهم ويؤسسون الأحزاب والحركات الوطنية للنضال من أجل تحريره.

في تلك الفترة، ولد عز الدين عبدالقادر القسام سنة ١٨٧١م في بلدة جبلة قضاء اللاذقية، وقد نشأ نشأة قاسية، حيث كان والده فقيراً، فكان وهو في الثامنة من عمره يعين والده على كسب قوت العائلة وتدير أمور المعاشية، كما كان يعمل بأجر زهيد في حقول الأغنياء في زراعة الدخان وقطافه وفي حصاد القمح والشعير والذرة، فنجد أنه لم يستمتع بطفولته فيلهو ويلعب مع أنداده فكان يميل إلى العزلة والتفكير في هذه الحياة القاسية التي يعيشها أهله.

وفي المساء كان يحمل حقيبته وينطلق إلى بيت الشيخ محمود ليتعلم القراءة والكتابة وتلاوة القرآن وذلك مقابل أجر يوميّ محدد «رغيف وبيضة»^(١) وفي شبابه رحل إلى مصر سنة ١٨٨٥م للدراسة في الأزهر الشريف، وكان من عداد تلاميذ الشيخ محمد عبده^(٢). لمقاومة سلطة الانتداب واليهود في فلسطين، وأصبح الرأي العام ينظر إلى القسام وأتباعه نظرة تقدير بالغ وإكبار عظيم للأبطال الشهداء.

ولم يقصر الفتى اهتمامه على دروس الشيخ محمد عبده وحلقات الأزهر بل رافق هذا الاهتمام دراسة حركات التحرر، حيث كان الأزهر في أوائل هذا القرن منارة كبرى لنشر الإسلام وجامعة للفكر الوطني، ولما عاد إلى بلاده عمل مدرساً في جامع السلطان إبراهيم، وأخذ يسعى لتنوير عقول الناس وأفكارهم حتى كان اسم الشيخ عز الدين على كل شفة ولسان.

بداية جهاده

وامتدّت صلاته خلال الحرب العالمية الأولى برجال الحركة الوطنية الذين كانوا يسعون لرفع الظلم العثماني عن العرب حتى إذا انتهت هذه الحرب وجد القسام بلاده تخرج من قبضة الحكم العثماني لتصبح بين أنياب الإستعمار وهو الانتداب الفرنسي^(٣).

أمام هذا الاحتلال الجديد بدأ المواطنون في المقاومة، فاشترك الشيخ عز الدين القسام في عصبة عمر البيطار^(٤) وثورة الشيخ صالح العلي سنة ١٩٢٠م التي لم يحالفها النجاح^(٥) فحاولت السلطة العسكرية الفرنسية شراءه بإكرامه وتوليته على القضاء فرفض ذلك وكان جزاؤه إن حكم عليه الديوان العرفي بالإعدام^(٦) مما يدل على أن الاستعمار يعمل على استمالة الشرفاء إلى صفوفه بالترغيب فإن فشل فبالإرهاب.

جهاده في فلسطين

اشتدت ملاحقه الفرنسيين للشيخ عز الدين، فأجرى اتصالات مع صديق قديم له من فلسطين هو الشيخ كامل القصاب تمكن بعدها من التوجه إلى فلسطين في ٥ شباط ١٩٢٢م ولجأ معه من رفاق الجهاد الشيخ محمد الحنفي من مصر والشيخ علي الحاج عبيد^(٧) وذلك من أجل الإسهام في حركة الدفاع عن فلسطين نزل في قرية الباجور قرب مدينة حيفا، الميناء الفلسطيني الناشئ، فأحتفى به أهل حيفا احتفاء بالغاً لما عرفوا في الشيخ من شجاعة وصلابة وما رأوا منه من سماحة الخلق والتواضع.

وقد عمل الشيخ في بداية الأمر مدرساً في جامع النصر بحيفا، بينما اشتغل زميله في الزراعة ثم عمل خطيباً في جامع الاستقلال^(٨) أكبر مساجد حيفا، ومكّنه هذا من التعرف على عدد أكبر من المواطنين الذين يستمعون إلى دروسه وخطبه، حيث كان رجلاً علماً مؤمناً صادقاً، فكان يلتقي بتلاميذه في مسجد حيفا تحت ستار الدروس الدينية، وما كان درسه موقوفاً على البحث عن فتوى الزواج والطلاق ولا عن إفتراضات الفقهاء في عصور التآخر، ولكن كان درسه من دروس أعلام المسلمين

الذين يؤمنون بأن الجهاد العملي والقتال الصادق هو خير منطلق يجابه به الأعداء الذين يهاجمون أرضنا ومقدساتنا، وأنه لا كرامة لسلّم يرضخ للأعداء أو يعاملهم أو يصادقهم أو يطمئن إليهم، وما انتهى يوماً من الأيام من درسه إلا وختمه بقوله تعالى «ومن يتولهم منكم فإنه منهم»^(٩).

كما بدأ يكافح الأمية في صفوف الناس وذلك بإنشاء مدرسة ليلية وإعطاء دروس ليلية لهم^(١٠). بهذه الوسائل استطاع الشيخ الاتصال بمختلف فئات المواطنين في حيفا من شباب وشيوخ وعمّال وفلاحين وطلاب ونجارين وحدّادين وغيرهم من أصحاب الحرف البسيطة، ولكن هذا يظل مقتصرأً على مدينة حيفا ولا بد أن تتسع دائرة الاتصالات لتشمل القرى المجاورة فتقدم بطلب تعيين في وظيفة مأذون شرعي لينسب له الاتصال بالجميع^(١١)، فلما عيّن مأذوناً شرعياً من قبل المحكمة الشرعية، أصبح بمقتضى هذه الوظيفة يحضر حفلات الأعراس مما أعطاه فرصة لدراسة نفسيات الناس^(١٢) وللتجول بين الفلاحين والاتصال بهم وانتقاء العناصر الوطنية للحركة مستخدماً المأذونية ستاراً لعمله فأصبح فلاحاً والمنطقة الشمالية يُكنون له أبلغ الاحترام والمودة بفضل زيارته المتكررة لهم.

نلاحظ من ذلك أن الشيخ عز الدين كان يركّز حركته على الفلاحين والعمال وذلك لأنهم أكثر الفئات إنقياداً واستعداداً للتضحية، ولم يتصل بالأفندية (الطبقة الغنية) لأنهم مشغولون بعقاراتهم وأموالهم وثرواتهم ووظائفهم ويحاجهم، كما أن هذه الطبقة حريصة - غالباً - على التقرب من رجال السلطة وليست حريصة على التضحية فكانوا في وادٍ والقضية في وادٍ آخر.

كيفية اختيار أنصاره

لا شك أن الشيخ بما كسبه من خبره في نضاله ضد الاستعمار الفرنسي في سوريا، قد أدرك بفكره الثاقب أن الاستعمار وحده لا تتجزأ منها تنوعت أشكاله وأساليبه، كما أدرك أن الأخطاء التي وقعت في حركة النضال ضد الفرنسيين في سوريا يجب أن لا تتكرر في فلسطين^(١٣) وكان يرى أنه لا بد من الأعداد النفسية للثورة ضد الاستعمار وقد بدأ هذه المرحلة منذ أن قدم إلى حيفا، وساعده في هذه المرحلة عدد من العاملين المؤمنين، ومن هؤلاء الشيخ كامل القصاب وهاني أبو مصلح^(١٤) وعمد إلى اختيار الكيفية دون الكمية، ويقول أبو إبراهيم الكبير أحد رفاق القسام: إنه كان للشيخ «حلقات درس يعلم فيها المسائل الدينية، ولكنه كان أكثر المشايخ تطرّفاً لضرورة الجهاد ولتبع الصهيونية من أن تحقق أحلامها في بناء وطن قومي على أرض فلسطين، كان يركز على الاستعمار البريطاني وعلى الصهيونية»^(١٥)، وقد ذكر كثير من أخوان الشيخ القسام أنه كان يراقب المصلّين وهو يخطب فوق منبر

المسجد، ويدعو من يتوسم فيه الخير والاستعداد للجهاد إلى زيارته في منزله، وتتكرر الزيارات حتى يقنعه بالعمل لإيقاظ فلسطين مما يهددها من أخطار ضمن مجموعات سرية صغيرة^(١٦).

كما أثر الشيخ عز الدين السرية المطلقة لدعوته في فلسطين، حيث تلقن درساً من الحكم العسكري الفرنسي في سوريا، فكانت أعماله الخارجية من وعظ وتدريب سناراً لعمله الأساسي وهو اختيار الصالحين من هؤلاء التلاميذ، والمستمعين وقد صرف القسام السنوات الطوال^(١٧) في اختيار العناصر وإعدادها تحت لواء التعاليم الدينية العامة، ومنها الدعوة إلى الجهاد، حيث تألفت خلايا الجهاد السرية في أول تكوينها على نمط حلقات دار الأرقم بن أبي الأرقم أي من خمسة أشخاص على الأكثر من بينهم تقبيل مسؤول عن القيادة والتوجيه، كما سرت روح الجهاد بين الشعب فتابع تنظيم التشكيلات السرية^(١٨).

وقد حدد الشيخ طبيعة الرجال الذين يريدهم، بأنهم على استعداد للتضحية بالمال والروح، إنه يريد الرجل المقدم الصبور على الأذى، الحافظ للسراج المثار والمستقيم الخلق، الصادق في السر والعلن، ينكر ذاته ويجب خدمة الآخرين، قوي الحجة والمنطق قادراً على الإقناع، يطلب الموت فتوهب له الحياة.

من خلال هذه الصفات شرع الشيخ عز الدين القسام يختار أعضاء حركته، وكان الشخص الذي يقع عليه الاختيار يخضع لتجربة ومراقبة تتمحن خلالها عزيمته وقدرته على حفظ السر وللعضوية شرطان: أولها أن يقضي العضو السلاح على حسابه، وأن يتبرع بشيء من ماله قدر المستطاع^(١٩).

ويقول إبراهيم الشيخ خليل أحد أفراد العصبة القدامى بأن «المال للثورة كان له مصدران، مصدر الاشتراك الشهري وكان جيداً، والمصدر الثاني كان التبرع الطوعي، والتبرع كان يجري على أسس العقيدة الإسلامية، ويقع تحت حكم عدة آيات قرآنية كريمة مثل قوله تعالى: «انفروا خفافاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون» وقوله تعالى: «مثل الذين يتفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم».

«كان عدد كبير من أخوان القائد في وضع مالي حسن، حيث المزارع الكبير والتاجر والمقاول، وكانت أرباحهم وافية، وكان العديد منهم يتبرعون بكل ما يملكون بعد سد حاجتهم اليومية...» زد على ذلك أن بعض أخوان القائد كانوا على صلات حسنة جداً مع بعض الأثرياء من المواطنين وكانوا يحصلون منهم على بعض المال طواعية وعن طيبة خاطر^(٢٠).

وقد انتشر هؤلاء الطلائع في أواسط الشعب على نطاق واسع ولكن بحذر شديد، ليصّرون المواطنين بأبعاد الهجرة اليهودية إلى البلاد وآثارها في المستقبل، ويحدّرونهم من بيع الأراضي، كما عمل الشيخ وأخوانه على نشر روح المحبة والتآلف بين المواطنين، فازدادت أواصر الألفة والمحبة بين المواطنين، وبدأت روابط الوحدة الوطنية تقوى وتشتد، بعد أن كان الأتراك قد مزقوها شر تمزيق بما أثاروه من حزازات وعداوات عائلية وعشائرية وقبيلية، وكذلك فعل الإنجليز العمل نفسه^(٢١).

وقد حدد الشيخ عز الدين القسّام ثلاثة أهداف للجهاد والثورة المسلحة هي :

أ - طرد الاستعمار البريطاني من فلسطين.

ب - منع إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين.

ج - إقامة دولة عربية مؤقتة تعمل على تحقيق الوحدة العربية.

ولما وجد البلاد العربية ممزقة يعبث فيها الاستعمار فساداً، وكل بلد منشغل بحاله وبالمشكلات التي خلقها الاستعمار له كان قوله قاطعاً: «إنّ علينا عرب فلسطين الاعتماد على النفس وعلى إمكانياتنا الذاتية لا ننظر حتى تهبط علينا النجدات من السماء ولا حتى تصلنا من وراء الحدود».

ولذا كانت القيادة الأولى للحركة التي شكلت عام ١٩٢٨م تضم خمسة أشخاص، من بينهم الشيخ عز الدين القسّام، أما الأربعة الآخرون منهم العبد قاسم (حيفا) عمود زعزورة (حيفا) محمد صالح وأبو إبراهيم الكبير وكلهم من أصحاب الحرف البسيطة مثل بائع جاز أو فلاح أو صاحب دكان^(٢٢).

واستمر الشيخ عز الدين القسّام في تنظيمه السري حيث جئد ٢٠٠ ونظم ٨٠٠ من الأنصار، ولكن لم يتم باتصالات فعلية بالفلاحين والعمال الذين كان عليهم الاعتماد من جنوب فلسطين ووسطها^(٢٣) وذلك بسبب مراقبة الإنجليز الشديدة له، بينما يذكر إبراهيم الشيخ خليل بأن عدد الذين جندتهم ثورة الشيخ القسّام قد تجاوز المئات وأنه باعتقاده يربو على الآلاف^(٢٤).

ولم يكتف بهذا، بل وجد في جمعية الشبان المسلمين التي تألّفت في حيفا عام ١٩٢٧ فرصة لتوسيع نطاق علاقاته بالناس فكان رئيسها وحامل لوائها ويقول رشيد الحاج إبراهيم «لعل القسّام هنا بدأ في ممارسة ما كانت نفسه تتوق إليه، وهو أن ينشئ عصابة بعد عصابة من أهل الإيمان بهدف الثورة يوماً ما»^(٢٥). كما انضم إلى الحركة الوطنية الفلسطينية علانية، فكان أحد ممثلي مدينة حيفا في الاجتماعات الوطنية الخاصة التي كانت تعقد في القدس، وتشير بعض المصادر العربية إلى أن الشيخ

انتسب إلى حزب الاستقلال عندما أُسس في أغسطس ١٩٣٢^(٢٦) والواقع أن الشيخ لم يكن بعيداً عن تيار الحركة الوطنية في البلاد، وكانت له صداقات خاصة مع بعض أركان حزب الاستقلال المقيمين في حيفا ومنهم رشيد الحاج إبراهيم^(٢٧) كما كان الشيخ عز الدين القسام عضواً في اللجنة التنفيذية للحزب العربي الذي يتزعمه جمال الحسيني والذي تأسس في ٢٥ آذار ١٩٣٥^(٢٨). وقد نفى إبراهيم الشيخ خليل انتسابه إلى أي حزب قائلاً «أما بالنسبة لتبعية القسام وارتباطه بحزب معين، فإن الذي أعرفه معرفة حقيقية، ويعرفه العديد من أئوانى الأحياء أمثال أبو إبراهيم الكبير والشيخ سليمان أبو حاتم ومحمد عبد القادر أبو الهيجاء وحسن شبلاق والحاج حسين حمادة وأحمد الثوية والشيخ محمد الحنفي ومحمد علي دلول وغيرهم كثيرون.. بأن القائد الشهيد لم يكن له أي إرتباط حزبي مع أي حزب من الأحزاب، وأن ارتباطه الوحيد كان مع العقيدة الإسلامية وحدها»^(٢٩).

أعمال العصبة

تعتبر المنظمة القسامية أعظم حركة فدائية عرفها تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية بل تاريخ الجهاد العربي الحديث، فالأعمال التي قام بها القساميون كانت أروع وأعظم مما قام به المجاهدون في فلسطين، فقد كانوا يقومون بملاحقة الذين يخرجون عن الشعب ومصالحه، مثل التعاون مع الحكومة ضد الحركة الوطنية، أو التجسس لحساب المخابرات البريطانية، أو بيع الأراضي لليهود، أو السمسرة عليها لحساب الأعداء، والتصدي لدوريات الجيش البريطاني، والشرطة، والاصطدام بها، وقطع طرق المواصلات، والإغارة على ثكنات الجيش، ومراكز الشرطة^(٣٠).

وقد اشتركت جماعة عز الدين القسام في الاضطرابات التي نشبت في الحلي القديم في حيفا ورافقتها عدة غارات على حي هادارها كرمل ضاحية حيفا اليهودية الشهيرة^(٣١).

كما اشترك رفاق القسام في أحداث ثورة البراق^(٣٢)، وتشير بعض المصادر العربية إلى أنه بعد هبة البراق سنة ١٩٢٩م حدث إنقسام داخل حلقات القسام، إذ انشق عدد من أئوان القسام وعلى رأسهم أبو إبراهيم الكبير والدافع لهم هو أنهم رأوا أن الوقت حان لإعلان الثورة، حيث يرون الخطر يهدد كيان البلاد. وكان هذا الرأي لا يراه الشيخ القسام بمجة أن الإعداد للثورة لم يكتمل وسبب آخر دفع المنشقين هو أنه يجب أن تجبى الأموال اللازمة للثورة من الشعب بكل وسيلة ممكنة، بينما يميل القسام بل يُصرُّ على الانتظار وعدم استعمال العنف خوفاً من الانقسامات الداخلية منذ البداية، وأنَّ

الشعب سيدفع تبرعات كافية للثورة بعد إعلانها مباشرة وبعد أن يعرف أهداف الثورة وشاهد الانتصارات» (٣٣).

وفي ليلة ٢٢ كانون الأول ١٩٣٢ قام القساميون بإلقاء قنبلة على منزل يوسف يعقوبي في مستعمرة نخلال (٣٤) فأصيب صاحب المنزل وابنه داود بجراح خطيرة كانت سبباً لوفاتها فيما بعد، فثار اليهود بسبب هذه الحادثة وحلوا جنازة يعقوبي إلى شبه مظاهرة على رأسها الدكتور أرلوزوروف رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، كما أعلنت الحكومة عن تخصيصها مكافأة قدرها ٥٠٠ جنيه فلسطيني لأي شخص يقدم إخبارية تؤدي إلى إلقاء القبض على من قاموا بعملية نخلال أو إدانتهم (٣٥).

كما شارك رفاق القسام في ثورة ١٩٣٣ (٣٦) ثم قامت العصبة بثلاث عمليات أقوى من الأولى (٣٧) وبعد حوادث ١٩٣٣ بدأ القسام يجمع التبرعات لاقتناء كميات صغيرة من الأسلحة استعداداً للقيام بثورة ضد الحكومة التي اعتبرها الحماية الحقيقية للصهيونية في فلسطين وحافظ في اتصالاته وإعداداته على السرية التامة (٣٨).

وقد قفزت الصهيونية قفزات سريعة في أوائل منتصف الثلاثينات من القرن العشرين حتى نجحت في إغراق فلسطين بأكثر من ١٥٠ ألف يهودي جاءوا إليها من كل صوب وحذب، وأخذت سياسة التهويد طريق العنف والسرعة وذلك عن طريق نقل مساحة شاسعة من الأراضي نتيجة ما أصدره آرثر واكهوب من قوانين وتنظيمات، وقد راع العرب إمعان واكهوب في سياسة التهويد، وألحبت تصرفاته مشاعرهم، وعقدوا في طول البلاد وعرضها اجتماعات شعبية تنادي فيها عرب فلسطين إلى عدم التعاون مع سلطات الانتداب ومقاطعة لجانها بل تحدي قوانينها وأذاعت اللجنة التنفيذية العربية بياناً في آذار ١٩٣٣ طلبت فيه من عرب فلسطين أن يوجهوا كفاحهم ضد الإنجليز باعتبارهم أصل الداء (٣٩).

وبسبب تضخم الهجرة اليهودية، وازدياد مساحة الأراضي التي انتقلت لليهود، ووفاة موسى كاتظم الحسيني في آذار ١٩٣٤م رئيس اللجنة التنفيذية، وعدم قدرة تلك اللجنة على قيادة الحركة الوطنية، واكتشاف أسلحة وذخيرة حربية مخبأة في إرسالية اسمت مرسلة إلى اليهود (٤٠). كل ذلك دفع الشيخ عز الدين القسام وصحبه إلى تنظيم عملهم الثوري وتقسيمه إلى خمس وحدات أو فروع:

(١) الوحدة الأولى: خاصة بشراء السلاح، ومن قادتها الشيخ حسن البابر والشيخ نمر السعدي.

(٢) الوحدة الثانية: خاصة بالتدريب العسكري وهي بإشراف ضابط سابق في الجيش العثماني.

(٣) الوحدة الثالثة: للاستخبارات ومراقبة خطط الإنجليز واليهود السرية، ومن عناصرها الشيخ ناجي أبو زيد، وكان يجتد في هذه الوحدة العمال الذين يعملون في المصالح الحكومية وخاصة في دوائر البوليس، والعمال الذين يعملون مع اليهود لمعرفة النشاط السري للأحزاب اليهودية.

(٤) الوحدة الرابعة: وكانت من العلماء، وأبرز أعلامها الدعوة إلى الجهاد في المساجد والمجتمعات، وقد كان الشيخ كامل القصاب موجهاً ومستشاراً في هذه الوحدة.

(٥) الوحدة الخامسة: وهي خاصة بالاتصالات السياسية، ويقول صبحي ياسين «وقد عرفت من أفرادها الشيخ محمود سالم المخزومي وهو من قرية زرعين الذي اتصل بقتل إيطاليا في القدس أثناء حرب الحبشة وبقتل تركيا بقصد شراء أسلحة حديثة»^(١١).

وقد استبعد أحد المراجع اتصال الشيخ القسام بالإيطاليين للأسباب التالية:

أ - إن اتصال الإيطاليين قد تم بالفعل مع الحاج أمين الحسيني، وهو القادر على تحريك الجماهير العربية في فلسطين في ذلك الوقت.

ب - لم يكن الشيخ القسام، وهو رجل دين قد نسي ما قام به الإيطاليون ضد ديني آخر هو عمر المختار، ولم يفض على استشهاده أكثر من أربع سنوات.

ج - إن فكرة الحركة مالياً، حيث لم يكن في صندوق الجماعة عندما خرجوا من حيفا في أكتوبر ١٩٣٥م إلا مائة جنيه، يبنى ذلك الاتصال.

د - إن التقرير الرسمي البريطاني لعام ١٩٣٥م، لا يشير إطلاقاً إلى أي نوع من الأسلحة الإيطالية التي صادرتها واستولت عليها السلطات البريطانية طيلة ذلك العام^(١٢).

بينما لم تستبعد مراجع أخرى أن يكون القسام قد أقام بالفعل علاقات مع الإيطاليين الذين ازداد اتهامهم بشؤون فلسطين بعد حملتهم على الحبشة وما أعقب ذلك من توتر في علاقاتهم بالبريطانيين بسبب تلك الحملة^(١٣) ولم يكن الدافع لهذا الاتصال السري المحتمل بالإيطاليين سوى الضرورة العملية لإقامة تعاون مع العناصر والجهات المعادية للبريطانيين بالرغم أن الإيطاليين كانوا مكروهين في فلسطين بسبب اضطهادهم للشعب الليبي^(١٤).

وفي الحقيقة، لم أستبعد اتصال الشيخ القسّام بالإيطاليين باطلاع الحاج محمد أمين الحسيني الذي كانت تربطه به علاقة وثيقة والذي كان يتميز بشدة الحذر والحيلة والكمّان وذلك إبعاداً لاشتباة السلطات البريطانية وخصوم الحركة الوطنية^(٤٤).

إطلاق الثورة

بسبب زيادة الهجرة اليهودية، وزيادة عدد العاطلين من العرب عن العمل، والاستفزازات الصهيونية كالتدريب العسكري السافر ومهاجمة الفاشين اليهود من أتباع جابوتنسكي للقرى العربية^(٤٥). ومواقف الساسة الفلسطينيين المتساهلة الهزيلة نحو الحكومة^(٤٦) ونتيجة لذلك قام الشيخ عز الدين القسّام بالاتصال بالحاج محمد أمين الحسيني، فأرسل أحد أتباعه وهو محمود سالم المخزومي إلى المفتي طالباً منه إعلان الثورة في جنوب البلاد، في الوقت الذي يعلنها فيه القسّام في الشمال وقيل إن المفتي أجاب أنه يؤثر التوصل إلى حل سياسي على اللجوء إلى ثورة مسلحة^(٤٧) بينما يروي الأستاذ أميل الغوري بأن القسّام اتصل بالحاج أمين للوقوف على رأيه في الخروج، فوافق المفتي على رأي القسّام، وأقر خطوته وتعهّد بمدّ الثورة العتيدة بالرجال والأموال والسلاح^(٤٨).

نلاحظ: أ - الاختلاف الشاسع في الروايتين من حيث نتيجة الاتصال.

ب - مدى ثقة وصلة الشيخ عز الدين القسّام بالمفتي.

وبينا كانت السلطات البريطانية تراقب تحركات الشيخ ورفاقه وقد خصصت لذلك عدداً من رجال البوليس السري كان أبرزهم أحمد نايف^(٤٩) فقد صمم على الخروج.

وقد حدث خلاف بين القسّام وأحد رفاقه حول الخروج بالسلاح أو بدونه ويوضح لنا أبو إبراهيم الكبير المسألة فيقول «كان الشيخ قد أعد جماعة غيرنا (بسبب سجن أبي إبراهيم الكبير) واتفق معهم على الخروج إلى الثورة، وكنت ذات يوم في البيت، عندما جاءني قبل الغياب حسن الباير، من الذين هياهم الشيخ بعد سجنتنا، قال حسن الباير: أرسلني لك الشيخ في خبر، قلت ما هو؟ قال: الشيخ يريد رأيك في خروجنا قلت: عندما يقرر الشيخ شيئاً فعلياً التنفيذ قال: ولكن يريد رأيك، فلم أعطه الرأي وأوضح السبب أبو إبراهيم «لأننا كنا تلاميذه» وأضاف «ولقد عاد الباير وأخبر الشيخ بما حصل. فقال الشيخ: نصلي غداً في جامع الحاج عبدالله ونرى أبا إبراهيم، وفي الفجر التقينا في الجامع وصلينا واجتمعنا في غرفة هناك، قال الشيخ: نريد الخروج فما رأيك؟ قلت: ليس لي رأي ولكن الشيخ أصّر عليّ، فقلت له: يا شيخ، ماذا لدينا من السلاح نخرج خارجون لإعلان الثورة، وهذا يحتاج إلى

السلاح والمال، والثورة تحتاج إلى ذخائر كل يوم، وإلى مصروفات كل يوم، فإذا لدينا من كل ذلك، قال: ليس عندنا من الذخائر والسلاح إلا ما في أيدينا، قلت: إننا بما في أيدينا لا نستطيع الوقوف في وجه الإنجليز، فعلينا الاستمرار في عملنا كما هو الآن، أي القيام بالغارات ليلاً والعمل نهاراً، قال: نحن لا نريد أن نعلن الثورة، إنما نريد أن تسلم ونخرج إلى القرى كي نحميها ونحفظها على الجهاد. قلت: ولكن يا شيخ إن الجواسيس لن يتركونا، قال ستكون حذرين وأردف: سنخرج نحن والجماعة أما أنتم فعليكم أن تبقوا حيث أنتم لكي تساعدونا^(٥٠).

ويؤكد السيد إبراهيم الشيخ خليل في مقاله «رسالة من مجاهد قديم» ما روى إبراهيم الكبير حيث يقول «كان هناك خلاف بسيط على توقيت إعلان الثورة، ففي أوائل عام ١٩٣٥م رأى القائد بأن المستعمر يراقب تحركات القساميين مراقبة دقيقة، وكان القائد يتحسس بأن المستعمر سيعتقل النخبة الصالحة من أخوانه وإفساد جميع مخططات الثورة قبل أن تظهر للمواطنين، وكان رأيه الخروج إلى الجبال والطواف بالقرى وحث المواطنين على شراء السلاح والاستعداد للثورة، وكان رأي الأخ أبي إبراهيم وبعض الأخوان الزيث في الخروج إلى الجبال مسلحين بل الطواف بالقرى بدون سلاح وحث المواطنين على ما يلزم للثورة، ولكن هذا الخلاف كان بسيطاً جداً بحيث أنه عندما حزم القائد أمره على الخروج إلى الجبال كان يوجد في الصندوق مبلغ مائة جنيه فأخذته أبو إبراهيم من الصندوق وأرسله إلى القائد مع المرحوم الحاج علي الحلج من قرية يعبد^(٥١).

وقبل الخروج دعى القائد في أوائل تشرين الثاني ١٩٣٥ رجال قيادته وتدارسوا الموقف، ثم أصدر أمره^(٥٢) القيادي الأول «ليتوجه كل إلى أهله يستودعهم الله ويعاهدهم على اللقاء في الجنة، التجمع في بيت محمود سالم المخزومي» نستدل من ذلك على مدى قوة إيمانهم وعقيدتهم في العمل الذي سيقومون به واضعين أمام أعينهم الشهادة أو النصر المبين والحياة الكريمة.

واختلفت المراجع العربية في مغادرة القسام حيفا، أحدها تشير إلى أنه غادرها في ١٢ تشرين الثاني وبصحبته ٢٥ رجلاً^(٥٣) من أنصاره قاصدين منطقة جنين، بينما تشير مراجع أخرى إلى أن خروجه كان قبل ذلك، إذ يبدو أنه غادر حيفا ليلة ٢٦/٢٧ تشرين الأول ١٩٣٥ بعد الإضراب الشامل الذي عم فلسطين آنذاك احتجاجاً على عملية تهريب الأسلحة^(٥٤) وذلك لدعوة الفلاحين في تلك المنطقة لحمل السلاح في وجه البريطانيين والصهيونيين وإقامة قواعد سرية في قرى جنين لتبدأ بعد ذلك أعمال الثورة التي كان من المحتمل أن تبدأ بعملية عسكرية ذات هدف سياسي بارز بحيث يتم احتلال مدينة حيفا ثلاثة أيام كاملة لإسمااع العالم صوت الثورة قوياً من جهة، ولاستنهاض همم الدول

العربية من جهة أخرى وإحداث هزة على المستوى الفلسطيني ولا سيما بالنسبة للأحزاب والقيادات حتى توحد طاقاتها وتتخلى عن أساليب الاحتجاج والمذكرات والوفود التي سارت بالقضية إلى الخلف بدلاً من أن تدفعها إلى الأمام^(٥٥) وأعتقد أن الأمر مستبعد للأسباب التالية:

أ - إن حيفا كانت في ذلك الوقت قاعدة حرية بريطانية.

ب - إن الأمر يحتاج إلى مزيد من الاستعداد والعتاد والإعداد والوعي علماً أن عدد أنصار القسام لا يتجاوز الشبان.

ج - إن الشيخ عز الدين القسام يتميز بالحكمة وصواب الرأي والمعرفة التامة بقوة بريطانيا في فلسطين.

د - معرفته التامة علم استعداد القيادات الفلسطينية التقليدية لتأييده في ذلك العمل.

حقاً كان الشيخ القسام حريصاً على عدم اكتشاف أمره وجاعته^(٥٦) ولكن حدثت حادثة كشفت عن مركز القيادة القسامية في ١٤ تشرين الثاني ١٩٣٥ ويصف أبو إبراهيم الكبير ما حدث فيقول «هاجم مجهولون ليلاً مستوطنة عين حارود» الواقعة شمال شرقي نهر حيث كان القسام ومروا أثناء رجوعهم بالقرب من مركز الشيخ. وفي الصباح مرت دورية من ثلاثة أشخاص إنجليزي ويهودي وعربي مع كلب أثر، وكان محمود سالم ويوسف الذياوي يقفان حرساً، فلما رأى محمود سالم الدورية سأل الذياوي عما يفعل، فقال الذياوي إذا اقتربوا منك أطلق النار، فما كان من محمود سالم إلا أن أطلق النار فقتل الشاويش اليهودي، وعندما سمع الشيخ إطلاق النار، استفسر عن السبب، فأخبر بما جرى، فنادى جماعته وقال لهم: «لنرحل على الفور حتى لا نصطدم بالقوات البريطانية» ومنذ تلك اللحظة بدأت الجماعة مسيرتها، ولكن الجواسيس انتشروا في المكان، فما إن وصلت جماعة الشيخ إلى أحرار بعيد حتى كانت مطوقة^(٥٧) وتواصلت التعزيزات البريطانية تزيد من كثافة الطوق وتوسع دائرته ليشمل مجموعة من قرى جنين مثل بعبد، اليامون، برقين، كفرذان، فقوع، صندلة، البارد، وحاصرت قوات الاحتلال عربين البطل المجاهد، ودارت معركة غير متكافئة بين الثامنة والعاشرة صباح ٢٠ تشرين ثاني ١٩٣٥^(٥٨) صباح خلالها أحد أفراد البوليس العربي طالباً منهم الاستسلام، فرد عليه الشيخ قائلاً «إننا لم نستسلم، إن هذا جهاد في سبيل الله والوطن» والتفت إلى رفاقه وقال لهم «موتوا شهداء» كما ناداهم الضابط البريطاني وقال لهم «استسلموا تنجوا» ولكن الشيخ صرخ في وجهه قائلاً «لا لن نستسلم هذا جهاد في سبيل الله والوطن» ثم تلقت إلى أصحابه وهتف بهم «موتوا شهداء»

فردد الجميع «ليك يا فلسطين - ليك يا فلسطين، جثثك مستشهدين ... الله أكبر - الله أكبر» كانت نتيجة أن سقط القائد الشهيد مضر جاً بدمائه^(٩٠). وكان القائد القسام يحمل مصحفاً في جيبه وأربعة عشر جنياً ومسدساً كبيراً^(٩١) واستشهد معه اثنان من رفاقه^(٩٢) كما قبض البوليس على أربعة من رفاق القسام وهم حسن البابر من قرية (برقين) والشيخ أحمد جابر من (حيفا) وعراي البدوي من قرية (قبرلان) بنابلس والشيخ محمد يوسف من (حيفا) كما استولى على تسع بنادق وبندقية صيد وبندقية سريعة الطلقات وكمية من الذخيرة^(٩٣).

لقد كان لاستشهاد القسام على هذه الصورة وقع أليم وحزين في جميع أنحاء فلسطين، لقد أطلق عليه الشعب لقباً هو أبو الوطنية^(٩٤). كما أضحي القسام منذ صباح ٢٠ تشرين الثاني علماً من أعلام الجهاد يتردد اسمه في البلاد كلها، وكانت الثورة القسامية صفة قوية للسانة الفلسطينيين التقليديين الذين كان الجاه عندهم أهم من الوطن، كما جدد استشهاد في النفوس معنى التضحية والاعتزاز وقوى من عزائم شعب فلسطين الأبي برغم قلة العتاد وضآلة الزاد.

وقد انطلقت الصحافة العربية أثر استشهاد القسام مباشرة تشيد بجهاده وبادرت بتسمية أنصاره بـ (عصبة المجاهدين) وأصبحت هذه التسمية فيما بعد عصبة القسام، وقد جاءت هذه التسمية رداً على البلاغات الحكومية والأخبار الرسمية التي دعتهم بالعصبة الإرهابية تارة وبعصبة الأشقياء تارة أخرى. وقد غضبت الصحافة لهذه الإهانة وأخذت تكتب أنهم عصبة وليسوا عصبة وفي رثاء أكرم زعير للشهداء في جريدة الجامعة الإسلامية جاء أنهم (عصبة الأشقياء في البلاغ الرسمي وعصبة من الشهداء في سجل القضية)^(٩٥).

ورثاه الشاعر فؤاد الخطيب فقال:

أولت عمامتك العمام كلها	شرفاً تقصر عنده النيجان
إن الزعامة والطريق مخوفة.	غير الزعامة والطريق أمان
ما كنت أحب قبل شخصك أنه	في بردتيه يضمها إنسان
يا رهط عز الدين حبك نعمة	في الخلد لا عنت ولا أحزان
شهداء بلدر والبقيع تهلت	فرحاً، وهش مرحباً رضوان ^(٩٥)

وقد قال جمال الحسيني عن ثورة القسام: «ثورة القسام ثورة علينا جميعاً شباناً وشيوخاً وكهولاً، إذ يقول كل واحد منا في قلبي إيمان وفي نفسي إخلاص وعزيمة ولكني مثقل ووراثي عائلة كبيرة، أخاف

إن خرجت أن يتخطفهم الذل والعار والموت، وليس لدي ما يدفع عنهم عوادي الزمان، يسمعون القسّام ... هذا فيثورون ويخرجون ... يخرجون عن؟ يخرجون عن أعشاش فيها قطع من اللحم كأفراخ العصافير، ينتظر كل منها معيله ليسقط في مقاره ما يسد به جوعه ويروي عطشه... فيندفع القسّام وصحبه من تلك الأعشاش لتثبيت المبدأ وإحقاق الحق وإعلاء شأن الإيمان، ونحن إذ نرى منهم ذلك لا يسعنا إلا أن نشعر بتبكيك الضمير واحمرار الوجوه، فندعو الله أن ينير قلوبنا بالإيمان» (٦٦).

القسّام نودع القسّام

سرى خبر استشهاد القسّام في أنحاء فلسطين مسرى النار في الهشيم، ورأى الشعب بعينه الفارق بين قائد لا يتلفت إلى عرض الحياة الدنيا، فقد ثقّف ونظم وناضل حتى استشهد في سبيل الله والوطن، قاتل العدو بالسلح الذي يقاتله به، وخاطبه باللغة التي يفهمها، لغة النار والرصاص، وبين قادة يلهثون وراء مصالحهم الشخصية وتستغرق خلافتهم أكثر جهدهم، يخشون على مصالحهم فيكون نضالهم أقرب إلى رجاء سلطة الاحتلال منه إلى مقاومتهم.

وقبل أن يتسلم أهالي الشهداء جثثهم اشترطت سلطات الانتداب شرطين:

أ - أن يكون الدفن الساعة العاشرة في صباح الغد وذلك لانشغال الناس في أعمالهم في تلك الساعة مما يؤدي إلى عدم وجود شغب واضطرابات في حيفا.

ب - أن تسير الجنازة من بيت الشيخ عز الدين الواقع خارج البلدة رأساً إلى المقبرة في بلد الشيخ فلا يستطيع والحالة هذه السير بالشهداء داخل المدينة (٦٧) وذلك حتى لا يشترك الناس في الجنازة خوفاً من إثارة البغضاء والثورة ضد جنود الإنجليز والصهيانية والعرب الذين يعملون مع السلطات.

ونتيجة لذلك قام الأستاذ أكرم زعير بنشر بيان في جريدة الجامعة الإسلامية يدعو الزعماء ورؤساء الأحزاب وبقية الناس للسير في الموكب، ومما جاء في البيان «نمشي غداً في موكب تشييع صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عز الدين القسّام رئيس جمعية الشبان المسلمين في حيفا وخطيب مسجدها الكبير وأخوانه الذين استشهدوا في عياله إلى جنبه ونودعهم لحودهم في حيفا» «وأني لأدعو هذا اليوم الزعماء ورؤساء الأحزاب إلى السير في الموكب» (٦٨).

حمل المواطنون جثمان الشيخ عز الدين القسّام وجثمان الشيخ يوسف عبدالله الذي أوى وجثمان

سعيد عطية المصري إلى مسجد الجريئة (النصر) رغم أنف السلطات، وبعد صلاة الجنازة أبن الشيخ يوسف الخطيب قاضي مكة الأسبق الشهداء بكلمة مؤثرة بين فيها أجر الشهداء عند ربهم (٧٩).

وبعد ذلك سار موكب الجنازة مجللاً بالأعلام السورية والمصرية والعراقية والسعودية واليمنية (٨٠) وذلك تعبيراً عن إيمان الشعب الفلسطيني بالوحدة العربية التي عبر عنها الشيخ الشهيد بالروح والدم. وانقلب الجنازة إلى مظاهرة وطنية نادوا بسقوط الاستعمار البريطاني والوطن القومي اليهودي، وحدث صدام بين الشباب العربي وبين شرطة الانجليز جرح على أثره ثلاثة من الإنجليز وآخر عربي (٨١)، وأبت الجماهير التي تبلغ عشرين ألفاً (٨٢) إلا أن تُشيع الشيخ عز الدين القسام إلى مقره الأخير في قرية الياحور التي تبعد عن حيفا نحو عشرة كيلومترات مشتها على الأقدام، وقد وصف شاهد عيان الجنازة بقوله: «آلاف المشيعين والجثث على الأكف مرفوعة تصرخ «الله أكبر - الله أكبر» والنساء يزغردن من السطوح والشرفات والنوافذ، والكشافة ينشدون أناشيد تثير النخوات ثم ارتفع صوت - والجثث مرفوعة - يصرخ: الانتقام - الانتقام، فرددت الألوف بصوت واحد كالرعد القاصف: الانتقام - الانتقام، وبعد جهد شاق سار الموكب وثيداً ونحن وراء النعوش وأصوات «الله أكبر - الله أكبر» تدوي في الآفاق (٨٣) وقد ووريت الجثث في حالتها الطبيعية وفي ملابسها المخضبة بالدماء الزكية، وقد استغرق السير بالجنازة من الجامع الكبير في ساحة الجريئة إلى مقبرة الياحور ثلاث ساعات ونصف الساعة (٨٤).

وقد حضر الجنازة وفد من نابلس مكون من عادل زعيترو وأكرم زعيترو، راشد أبو غزالة بشير الشيخ ياسين، الحاج فوزي الخياط، حريز الحبش، وكذلك صبحي الخضراء ورشيد الحاج إبراهيم (٨٥). أما بقية الزعماء السياسيين فقد تخلفوا عن السير في الجنازة، وكانت برقيات التعزية التي أرسلوها فاترة، إذ لم يفهم التنبيه إلى أن حركة القسام كانت بمثابة دليل على عقم أساليبهم، كما أن تضحيته وتجرده فصححت نفعيتهم وأنانيتهم (٨٦).

وقد نُعي الشيخ الشهيد عز الدين القسام ورفاقه من مآذن المسجد الأقصى ومساجد فلسطين، وصلى الناس عليهم في كل مكان صلاة الغائب (٨٧).

وكان لاستشهاد القسام أثر عميق في فلسطين كلها، فأيقظهم من غفلتهم وأفهمهم أن لسان القوة هو اللسان الوحيد الذي يجب أن تحاطب به السلطة المنتدبة، وأن لغة الرصاص هي اللغة الوحيدة التي تفهمها وهكذا برهن القسام أن الكفاح المسلح والإيمان الوطني الصحيح هما الطريق

لمقاومة سلطة الانتداب واليهود في فلسطين، وأصبح الرأي العام ينظر إلى القسام وأتباعه نظرة تقدير بالغ وإكبار عظيم للأبطال الشهداء.

الخاتمة

يعتبر جهاد الشيخ عز الدين القسام رائد النضال القومي في فلسطين، فقد كان معروفاً بالوطنية الصادقة، وعرف عنه الخلق في تشكيل التنظيمات السرية الفعالة.

وكان العامل الديني هو العامل الأساسي في قيام الشيخ الشهيد عز الدين القسام في ثورته، فهو شخصية دينية كبيرة ورجل ذو مكانة اجتماعية، ولكن تربيته الدينية وفهمه للإسلام جعلاه رافضاً للظلم مستعداً لمقاومته، ليس لمجرد الإسهام في تحرير جزء من وطنه بل تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى من وجوب الجهاد في سبيله ومقاومة الظلم والظالمين.

وقد ألفت ثورة القسام ظلاً كبيراً على المسرح السياسي الفلسطيني وأصبحت كل محاولة لإقامة تقارب بين الفلسطينيين والسلطات الحكومية مكتوباً عليها الفشل، حيث أكد القسام بأنه لا حل لقضية فلسطين إلا عن طريق الجهاد الإسلامي وأن الأحزاب ما هي إلا عبث وفساد والأعيب إذا لم تكن قائمة على الإيمان الصحيح.

والحق لقد كان استشهاد عز الدين القسام ورفاقه في أحراش يعبد بمشابة الشرارة التي اشعلت نار الثورة في صدور العرب وحفزتهم للمقاومة سنة ١٩٣٦ ضد بريطانيا والصهيونية.

• • •

المراجع:

- (١) عبد العزيز السيد أحمد: عز الدين القسام ط١ ١٩٧٧ ص ٧ - ٨.
- (٢) كامل محمود خلة: فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٣٩، مركز الأبحاث ١٩٧٤ ص ٣٧٥.
- (٣) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ١٢.
- (٤) عادل حسن غنيم: «ثورة الشيخ عز الدين القسام» شؤون فلسطينية عدد ٦ كانون ثاني ١٩٧٢م ص ١٨١.
- (٥) صالح سمود يو بصير: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، دار الفتح ١٩٦٩ ص ١٧٥.
- (٦) بيان نوبيس الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ - ١٩٤٨ مؤسسة الدراسات - بيروت ١٩٨١ ص ٣١٩.
- (٧) صبحي ياسين: الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ - ١٩٣٥، دار الفناء للطباعة ١٩٥٩ ص ١٩ - ٢٠.
- (٨) أميل الفوري: ملحمة القداء الفلسطيني - الحية العربية العليا ص ٢٦ - ٢٧.
- (٩) صالح سمود يو بصير: المرجع السابق ص ١٧٦ - ١٧٧.

- (١٠) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط ٨، بيروت ٨١ ص ٢٩٣.
- (١١) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ٢٤ - ٢٥.
- (١٢) شؤون فلسطينية عدد ٦ كانون ثاني ١٩٧٢ ص ١٨٢.
- (١٣) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٧٥.
- (١٤) بيان نوبيض الحوت: المرجع السابق ص ٣٢٢.
- (١٥) الثورة الفلسطينية عدد ١٩ في ١٥/٩/١٩٦٩ ص ٢٤.
- (١٦) شؤون فلسطينية: عدد ٦ ص ١٨٢.
- (١٧) صبحي ياسين: المرجع السابق ص ٢٠ - ٢١.
- (١٨) صالح مسعود أبو بصير: المرجع السابق ص ٧٦ - ١٧٧.
- (١٩) بيان نوبيض الحوت: المرجع السابق ص ٣٢٣.
- (٢٠) إبراهيم الشيخ خليل: «رسالة من مجاهد قديم» مجلة شؤون فلسطينية عدد ٧ في آذار ١٩٧٢ ص ٢٦٧ - ٢٦٨.
- (٢١) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ٢٥.
- (٢٢) صبحي ياسين: المرجع السابق ص ٢١.
- (٢٣) عبد الوهاب الكيالي: المرجع السابق ص ٢٩٣.
- (٢٤) شؤون فلسطينية عدد ٧ ص ٢٦٩.
- (٢٥) عادل حسن غنم: «ثورة عز الدين القسام» مجلة شؤون فلسطينية عدد ٦ كانون ثاني ١٩٧٢ ص ١٨٢.
- (٢٦) محمد عزة دروزة: حول الحركة العربية الحديثة ج ٣ ص ١٢٠ - ١٢١.
- (٢٧) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٧٨.
- (٢٨) أميل الغوري: فلسطين عير ستين عاماً ص ١٩٧.
- (٢٩) مجلة شؤون فلسطينية عدد ٧ آذار ١٩٧٢ ص ٢٦٩.
- (٣٠) أميل الغوري: فلسطين عير ستين عاماً ص ٢٥١ - ٢٥٢.
- (٣١) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث - ص ٢٣٩.
- (٣٢) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٧٧.
- (٣٣) صبحي ياسين: المرجع السابق ص ٢٣ - ٢٤.
- (٣٤) لقد تم اختيار لخلال لما لها من أهمية عند الصحابة، وقد اعترفوا بإيمان بذلك بقوله وإن لخلال مستعمرة ذات قيمة خاصة في نظري لأنها فيها ابتدائي لساكني وبها أخضعها وهي رمز عملنا العظيم في مرج ابن عامر ولست أبالغ إذا وصلتها بأنها قلب للرج وانظر الجامعة العربية عدد ٥٥٣ في ٢٠ آذار ١٩٣٢.
- (٣٥) جريدة الجامعة العربية: عدد ٩٨١ بتاريخ ٢٩ كانون الأول ١٩٣٢.
- (٣٦) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٧٨.
- (٣٧) بيان نوبيض الحوت: المرجع السابق ص ٣٢٢.
- (٣٨) عبد الوهاب الكيالي: المرجع السابق ص ٢٩٣ - ٢٩٤.
- (٣٩) حسن صبري الخولي: سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين، دار المعارف بمصر ص ٥٨٣ - ٥٨٥.
- (٤٠)
- (٤١) صبحي ياسين: الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ص ٢٢ - ٢٣.
- (٤٢) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٨٣.
- (٤٣) ناجي علوش: للقاومة العربية في فلسطين ١٩١٧ - ١٩٤٨ ص ١٠٢.
- (٤٤) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث ص ٢٩٣.
- (٤٥) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

- (٤٦) رفضت لجنة ضمت ممثلين عن جميع الأحزاب الفلسطينية إعلان الأضراب بمناسبة وعد بلفور، الأمر الذي أدى إلى انتقادات عنيفة ضد الزعماء.
- (٤٧) صبحي ياسين: الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ص ١١.
- (٤٨) أميل القروي: فلسطين عبر سنتين عاماً ص ٢٥١ - ٢٥٢.
- (٤٩) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٨١.
- (٥٠) الثورة الفلسطينية عدد ١٩ ص ٢٧ - ٢٨.
- (٥١) شؤون فلسطينية عدد ٧ آذار ١٩٧٢ ص ٢٦٧.
- (٥٢) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ٢٨.
- (٥٣) يروي دروزة أن عدد الذين خرجوا مع القسام كانوا عشرة هم: يوسف الزياوي، حنيفة للصري، نمر السعدي، أسعد المقلح، حسن الباي، أحمد عبد الرحمن جابر، عراقي اليلوي، محمد يوسف، محمد الحلحولي، معروف الحاج جابر. انظر محمد عزة دروزة: حول الحركة العربية الحديثة ج ٣ ص ١١٦.
- (٥٤) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٨١.
- (٥٥) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ٢٨.
- (٥٦) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٨١.
- (٥٧) الثورة الفلسطينية عدد ١٩ ص ٢٨.
- (٥٨) يقول عبد الوهاب الكيالي وبأنه المجاهدین خاضوا المعركة في ١٩ تشرين الثاني.
- (٥٩) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ٢٨.
- (٦٠) الجامعة الإسلامية في ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٥.
- (٦١) ما يوسف عبدالله الزياوي من قرية الذيب (عكا) والسيد/ سعيد عطية أحمد مصري الأصل.
- (٦٢) أكرم زعير: يومية أكرم زعير - الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥ - ١٩٣٩. مؤسسة الدراسات الفلسطينية ط - بيروت ١٩٨٠ ص ٢٩.
- (٦٣) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٩٢.
- (٦٤) بيان نوبتس الحوت: المرجع السابق ص ٣١٨.
- (٦٥) صالح مسعود يو بصير: المرجع السابق ص ١٧٧.
- (٦٦) جريدة الجامعة العربية: عدد ١٧٢٥ في ٧ كانون ثاني ١٩٣٦.
- (٦٧) أكرم زعير: يومية أكرم زعير (الحركة الوطنية الفلسطينية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ط ١ بيروت ١٩٨٠ ص ٢٩.
- (٦٨) المصدر نفسه: ص ٢٩.
- (٦٩) المصدر نفسه: ص ٣٢.
- (٧٠) شؤون فلسطينية: عدد ٦ كانون الثاني ١٩٧٢ ص ١٨٦.
- (٧١) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٨٢.
- (٧٢) كامل محمود خله: المرجع السابق.
- (٧٣) أكرم زعير: المصدر نفسه ص ٣٢.
- (٧٤) أكرم زعير: المصدر نفسه ص ٣٢.
- (٧٥) أكرم زعير: المصدر نفسه ص ٣٢.
- (٧٦) عبد الوهاب الكيالي: المرجع السابق ص ٢٨٥ - ٢٩٦.
- (٧٧) شؤون فلسطينية عدد ٦ ص ١٨٦.

نزعة التعصب بين العرب والموالي في الشعر الأموي

د. السيد أحمد عمارة



تردد كلمة الموالي كثيراً في العصرين الأموي والعباسي، فما مدلولها؟ وما المراد منها في هذا الحديث؟

الموالي : جمع مولى، وهو من ألقاب الأصدقاء، فالولى النعم المعتقد، والمولى النعم عليه المعتقد^(١). كما يطلق على ابن العم وعلى الحليف، وعلى الجار وعلى الصهر، وعلى المالك وعلى الرب، وإلى هذه المعاني التي ترجع في مجلتها إلى النصرة والحجة تشير كتب اللغة^(٢). والمقصود بهم هنا كل من أسلم من غير العرب، سواء استرق أو لم يسترق، لأنهم إما أن يكون أصلهم أسرى حرب، استرقوا ثم اعتقوا فصاروا موالي، وإما أن يكونوا من أهل البلاد المفتوحة، وهؤلاء كانوا حينما يسلمون ينضمون إلى العرب ويتحالفون معهم، لكي يعتزوا بقوتهم، فيصبحوا موالي بالخلف والوالاة، وبذلك سمي العجم موالي، لأن بلادهم فتحت عنوة بأيدي العرب، وكان للعرب استرقاقهم، فإذا تركوهم أحراراً فكأنهم اعتقوهم، والموالي هم المعتقون^(٣).

وفي العصر الأموي اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وتم في عهدها أغلب الفتوحات العربية، حتى أصبحت بلاد فارس أشبه بجزيرة عربية وسط المحيط العربي الكبير الذي امتد بين الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن فرنسا شمالاً إلى أواسط إفريقيا جنوباً، وبذلك أظلت الدولة شعوباً شتى من أجناس متعددة، وكان غالبية الموالي من الفرس والروم، ثم المصريين واليوون وغيرهم.

هؤلاء جميعاً أظلمهم الإسلام وعاشوا تحت لوائه، ودخل منهم عدد كبير فيه وكان من المفروض أن يسير خلفاء بني أمية على نهج أسلافهم الخلفاء الراشدين الذين هدهدوا من العصبية القبلية التي كانت سائدة في عهد أسلافهم الجاهلين، وخففوا من غلوها، أمثالاً لقول الحق سبحانه: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»^(١) وقول الرسول الكريم في حجة الوداع: «... أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»^(٢) وغير ذلك من آيات الذكر الحكيم والهدي النبوي الشريف الذي يجعل التقوى معياراً للمفاضلة والموازنة بين الناس، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسوي بين العربي ومولاه في العطاء، وحين جاءه بنو عدي - وهم عشيرته - طالبين منه أن يفضلهم على مواليمهم ويزيد في عطائهم غضب وقال لهم: «يغ يخ بني عدي أردتم الأكل على ظهري وأن أهب حسناتي لكم، والله لئن جاءت الأعاجم بعمل، وجئنا بغير عمل لهم أولى بمحمد منا يوم القيامة، فإن من قصر به عمله لم يسرع به نسبه»^(٣).

فعمر الخليفة العادل يسوي بين العرب ومواليمهم، لأنهم بدخولهم في الإسلام أصبحوا إخوة ولم يكن هناك ما يدعو للتمييز أو التفاضل، وإن كان سؤالهم هذا يدل على ميلهم إلى التعصب للعرب، وفترتهم من المساواة بينهم وبين مواليمهم، المهم أن عمر زجرهم وهو خليفة المسلمين الذي يصدر الناس عن أمره وينزلون على حكمه، ومن قبل عمر حقق الرسول ﷺ المساواة العملية بين الناس حين وضع من أسلم من الموالي من أمثال بلال الحبشي وسلمان الفارسي جنباً إلى جنب مع المسلمين من العرب ذوي المكانة العالية والمترلة الرفيعة، فقد احتل سلمان الفارسي مكانة سامية من نفس رسول الله ﷺ وأصحابه، إلى الحد الذي جعله الرسول من خاصته وآل بيته، فكان يحدث عنه قائلاً «سلمان منا آل البيت» وقد ولي قسمة الغنائم بين المسلمين في واقعة جلولاء، وكان يقول مفتخراً بإسلامه «أنا ابن الإسلام»^(٤).

وكان عمر يقول حين يتذكر صنيع أبي بكر وعنته لبلال: أبو بكر سيدنا وأعنتق سيدنا^(٥)، فتزعة تفضيل العرب على غيرهم كادت تمحى من النفوس طوال عهد الرسول والراشدين من بعده، وكثيراً ما كان يتاح لهذه النزعة أو للعصبية القبلية فرصة الظهور، فلا تكاد تظهر إلا نادراً، إذ إن سياسة الخلفاء الراشدين الرامية إلى التسوية بين الناس جميعاً والقضاء على نظام الطبقات كانت قد خففت من حدتها، حتى جاء عصر الأمويين، فوجدنا العصبية القبلية تظل بشبهها البغيض، فكان العربي يفخر بقبيلته في الإسلام كما كان يفخر بها في الجاهلية، وربما كانت النقائص التي اشتهر بها هذا العصر

تعبيراً عن روح هذه العصبية وانعكاساتها، فقد حكى المبرد أن رجلاً من الأزد كان يطوف بالبيت وهو يدعوا لأبيه، ف قيل له ألا تدعو لأملك؟ فقال إنها تيمية^(٩). وكأن عصبية هذا الأزد قد أعمته عن الصواب وأوردته موارد العقوق والعصيان في حين أنه كان يؤدي فريضة الحج وهو الوقت الذي تصفو فيه نفس الإنسان فيتجرد من حوله وطوله ويقبل على ربه بكلّيته عسى أن يغفر ذلته ويقبل توبته ثم أخذت هذه العصبية تنمو، حتى وجدنا تعصباً للجنس العربي كله ضد الشعوب الأجنبية على حد قول أحدهم: ^(١٠).

**إنّا من النضر الذين جياهم طلعت على عاد بريح صرصر
وسلبن تاجي ملك قيصر بالقنا واجتزن باب الدرب لابن الأصفر**

وأصبحوا ينظرون إلى الأعاجم - من أسلم منهم ومن لم يسلم - نظرة هي مزيج من البغض والاحتقار ولعل مرد ذلك إلى ضعف سريان روح الإسلام في نفوسهم لبعدهم بصاحب الرسالة من جهة، وللنصرة العربية المتأصلة في نفوسهم منذ القدم بحكم الحياة البدوية التي غرست فيهم حب الأنفة والكبرياء من ناحية أخرى، وربما كانوا ينظرون إلى أصحاب هذه البلاد المفتوحة على أنهم فيء أفاء الله به عليهم فأعتقوا رقابهم، وكان ذلك سبباً في إشعال نار العداوة في نفوس الأعاجم كتيار عكسي لما كان من بني أمية.

يقول الأستاذ أحمد الشايب معلقاً على هذا الاتجاه: «ولما استطال العرب على الموالي واحتقروهم، واعتبروهم دونهم دماً وجنساً، ولغة، وأدباً وشجاعة، وخلقاً، تولد في نفوس الموالي تيار عكسي نقموا به على العرب لخروجهم على الإسلام الذي يسوى بين أهله ولا يعرف جنساً ولا طبقة... وهكذا نشأت أصول الشعبية التي أثارت جدلاً شديداً في الدولة العباسية^(١١)».

ويلتمس بعض الباحثين العذر لمسلك بني أمية نحو الموالي، ويرى أنه موقف طبيعي يلائم سنة التطور، ويتفق وطبيعة الأشياء، فسلك الأمويين من الموالي لم يكن أمراً غريباً.. بل كان ضرورة تخمها الظروف والملايسات التي كانت قائمة آنذاك، فالأمويون من الجنس العربي الفاتح، وإلهم آل الحكم وتدبير الأمر، بالإضافة إلى أن العربي هو الجنس الفاتح المنتصر، والموالي مسترقون لهم، وأنهم أجناس مغلوبة على أمرها فن السياسة إذن كبح جماح هذه الأجناس، وتذكيرهم بالسيطرة العربية حتى يتطامنوا ويخضعوا لها، ولا تحدّثهم نفوسهم بالخروج عليها^(١٢).

وإذا كان هذا تعليلاً لموقفهم من الموالي إلا أنهم بهذه السياسة قد نقضوا مبدأ هاماً من المبادئ

التي أرساها الإسلام وهي المساواة التامة بين معتقيه، فلم تحاول الدولة أن تسوي بين العرب وبين أجناس الشعوب التي دخلت تحت سيطرتها، أو تتألفها، وتحكم فيهم بحكم الإسلام، بل على العكس من ذلك تميزت للجنس العربي وقلدته كل مناصب الدولة، وحرمت الأعاجم من أن يلوا أمراً، باستثناء عدد قليل جداً من الوظائف. بل إنها ألزمتهم مواضع بعينها لا يتجاوزونها حتى لا يتغلغلوا في المجتمع العربي، وألزمت الداخلين منهم في الإسلام بالولاء لقبيلة عربية، وربما حرمت عليهم الهجرة إلى حواضر الإسلام، كما فعل الحجاج حين أعادهم إلى قراهم بالقوة^(١٣) ولذلك يقول عنهم: إنما الموالي علوج، وإنما أتى بهم من القرى، فقراهم أولى بهم، وقد أمر بترحيلهم من الأمصار وأقر العرب بها، وإمعاناً في إذلالهم، وتعبيراً عن هوانهم أمر أن ينقش على يد كل منهم اسم قريته، حتى لا يفر منها إلى غيرها، ويسهل عليه الاستدلال عليها إن ضل عنها، وكان الذي تولى ذلك رجل من بني سعد بن عجل، فقال شاعرهم مشيراً إلى ذلك^(١٤):

وأنت من نقش العجلي راحته ففر شيخك حتى عاذ بالحكم
كما عبر عن ذلك أحد الرجاز قائلاً^(١٥):

جارية لم تلد ما سوق الإبل أخرجهما الحجاج من كن وظل
لو كان بلدر حاضراً وابن حمل ما نقشت كفاك في جلد جلد

وازداد الأمر سوءاً حين رفض الأمويون إسقاط الجزية عن أسلم من الموالي حتى لا يتأثر بيت المال، وإن كان عمر بن عبد العزيز قد رفض هذا الوضع الجائر طوال حياته لكن الأمر ما لبث أن عاد إلى ما كان عليه بعد وفاته لأن ذلك كان لا يمثل سياسة الدولة، فلا عجب أن نجد العناصر الأعجمية نحن إلى مجدها القديم، فتبقت في نفوسهم النزعات القومية التي اصطدمت بالعصبية العربية، فكان بينهما صراع عنيف، بدأ ظهوره في هذا العصر، وبلغ غايته في العصر العباسي، وقد مثل الشعر هذا الصراع، والواقع أن الصراع بين العرب والفرس، أو بين العرب والشعبية بمفهومها العام الذي يتضمن العداء للعرب والإحساس بالتمييز عليهم بدأ منذ العصر الجاهلي حين فكر كسرى في غزوهم، فأخذوا ينوون بفضلهم، وبما هم من سجايا تفوقوا بها على سائر الأمم رداً على انتقاص كسرى لهم واستهانتهم بأمرهم، فهذا عمرو القضاعي يفتخر بانتصار قبيلته على الفرس حين أغارت عليهم، منوهاً بفروسيتهم والروح الحربية التي كانت تسيطر على هذا الجمع الحاشد من الجنود والفرسان^(١٦):

لقيناهم يجمع من علاف وبالحيل الصلادمة المذكور

فلاقت فارس مَّا نكالا وقتلنا هرايد شهر زور
دلفنا للأعاجم من بعيد يجمع كالجزيرة في السعير
والأعشى يتخذ من انتصار بني شيان على الفرس في يوم «ذي قار» مادة خصبة للفخر بهم، فأخذ
يصور قوتهم، وما لقيت فارس على أيديهم من ذل وانكسار^(١٧) :

فدى لبني ذهل بن شيان ناقي وراكها يوم اللقاء وقلت
هم ضربوا بالخنو خنو قراقر مقدمة الهامرز حتى تولت
إلى أن يقول:

أذاقوهم كاساً من الموت مرة وقد بدخت فرسانهم وأدلت

وقد فاضت ألسنة كثير من الشعراء بالنصر الذي تحقق في هذا اليوم كرد فعل لما كان يحس به
العرب من عداء الفرس لهم وغطرستهم، والرغبة في إخضاعهم والتطاول عليهم، وفي الإسلام أحسن
الفرس الذين أزال العرب ملكهم الكسروي وحرروا أرض العجم من جورهم ونشروا الإسلام في
ربوعها أحسوا بعداء شديد للعرب، وأخذوا يتحينون الفرصة للانتقام منهم وبمحاولة التخلص من
سلطتهم وإعادة الدولة الفارسية، وتمثل ذلك في مقتل الخليفة العادل عمر بن الخطاب على أيديهم
حيث تم في عهده فتح بلاد الفرس والروم، ولذلك عمدوا إلى قتله والتخلص منه، فعمد أبو لؤلؤة
«فيروز» الجوسي غلام المغيرة بن شعبة إلى المسجد متسللاً بين الصفوف، وطعنه عدة طعنات أودت
ب حياته، كما كانت نهاية الإمام علي رضي الله عنه على أيديهم حين تمكن الشعبي الفارسي عبد الرحمن
بن ملجم من قتله، وهو يؤم المسلمين في مسجد الكوفة، وظل الموالى طوال هذا العصر يخفون ما في
صدورهم من عصبية على العرب، هذه العصبية التي كانت تظهر أحياناً كلما لاح لها فرصة الظهور
على يد الذين تعلموا العربية منهم وفاض الشعر على ألسنتهم، وإن كان الشعر المعبر عن حقيقة
موقفهم، والمشحون بالثورة والتفرد على العرب لم يصلنا منه إلا القليل ربما يكون ضاع فيما ضاع من
التراث، لأن الدولة لم تجز إذاعته، أو أن الرواة تحفظوا في نقله لأنه يجرح مشاعر المسلمين ويسيء
إليهم، كما يتضمن السخط على الخلفاء والحاكمين وعلى النظام الاجتماعي الذي بدت فيه مظاهر
الطبقية المقيتة، وإذا كان شعر الموالى في هذه الفترة قد فقد، فإن ما بقي منه هو ما اتصل بالدولة
الأموية مديحاً للخلفاء وتقريظاً لسياساتهم أو فضحاً لأعدائهم، وقد فطنت الدكتور «بنت الشاطئ»^{١٨}
للوقوف على هذه الحقيقة حين ذكرت: «ضاع شعر الموالى أو صودر، ولم يضع شعر «نصيب» لأنه

كان من شعراء البلاط الذين استأثروا بالشهرة، واشتهر معهم من شعراء الحزب الزبيري «عبدالله بن قيس الرقيات» لأنه تذكر لمأذنيه وتعلق بركاب عبد الملك بن مروان ... فلو لم تصل أسباب هؤلاء الشعراء بالقصر لكانوا مظنة أن يوضعوا في منطقة الظل»^(١٨) وقد عبر الشعر العربي عن نظرة العرب إلى الموالى بصورة صريحة وواضحة حين نزل جرير بن عطية الخطفي بقوم من بني العنبر ورفضوا أن يضيفوه حتى اشتري منهم القرى فانصرف غاضباً مذكراً إياهم أن بيع القرى لا يمكن أن يصدر من عربي، فالبيع لا يكون إلا للموالى، وفي هذا احتقار لمشاعرهم وتصريح بأنهم يباعون بيج السوام^(١٩):

يا مالك بن طريف إن بيعكم رفد القرى مفسد للدين والحسب
قالوا نبيكمه بيعاً فقلت لهم بيعوا الموالى واستحيوا من العرب

ويعلق المبرد على ذلك بقوله: «إن جلة الموالى أنفت من هذا البيت، لأنه حطهم ووضعهم ورأى أن الإساءة إليهم غير محسوبة عيباً»، واعتمد بعض الشعراء في هجائهم لفريق من العرب على أنهم ليسوا بعرب، بل هم كالفرس أو الروم أو الأنباط، ولذلك فقد استحقوا الذم واستوجبوا الهجاء.

فالفرزدق يسمى طيئاً الأنباط ويقول فيهم:

وما كنت أخشى طيئاً أن تسبي وهم نبط لم تعصب بالعمائم
نبيط القرى لم تختمر أمهاتهم ولا وجدت مس الحديد الكوالم
متى يببط الطائي أرضاً ولم يكن به وشم موشوم يكن غم غنام

فهو لا يعبأ بهم ولا يبالى بهجائهم لأنهم نبط أو كالنبط، فلا يضره قدحهم ولا ينفعه مدحهم وكأنه يعلن ويجاهر في صراحة أنه لا يخشى الهجاء ولا يطرب للمديح إلا إذا كان صادراً من عربي صليبة، ويبدو أن الفرزدق اتخذ من جوار طيء للأنباط منطلقاً بلج منه إلى هجائهم يقول في هجاء أيوب بن عيسى الضبي:

فلو كنت قيسياً إذا ما حبستني ولكن زنجياً غليظاً مشافره

وتظهر نظرة الأمويين غير المتكافئة للموالى في إبعادهم عن مناصب الدولة بينما استأثروا هم بكل وظائفها، لأن العرب - في نظرهم - لا ينضمون لغير العرب، فإذا حدث وتولى أحد الموالى منصباً لكفاءته واقتداره على القيام بتمتعته عد ذلك أمراً غريباً، وخروجاً على النهج السوي بل كارثة تؤذن

بقيام الساعة، وقد صور ذلك أحد الشعراء حين ولي «نوح بن دراج» - وكان من الموالي - قضاء الكوفة، مع استحقاقه لذلك^(٢٠) :

إن القيامة فيما أحسب اقتربت إذ كان قاضيكم نوح بن دراج
لو كان حيّاً له الحجاج ما بقيت صحيحة كله من نقش حجاج

فهذا الشاعر يرى أن الأمر وسد لغير أهله، وقلبت الموازين وهو ما يؤذن بقرب الساعة ورحم الله الحجاج الذي كان يسم أيدي النبط بالمشرط، ويعاملهم بما يستحقون، ولا شك أنه كان ينفذ سياسة الأمويين الرامية إلى الاستعلاء على كل من ليس بعربي، على أن هذا النقش كان علامة إذلال وامتهان حتى استغله الشعراء في هجائهم.

وتأكد هذه النزعة لدى العرب حين نراهم يجمعون عن مصاهرة الموالي، ويترفعون عن تزويجهم ويرون أن زواج الموالي من العرب فيه من النقيصة والعار، فوق ما يتحملة العربي الأصل الذي يتخذ من صراحة النسب مجاًلاً للمباهاة والمفاخرة، فحين تزوج أحد الموالي بفتاة عربية من بني سليم، وشي محمد بن بشير الخارجي إلى والي المدينة، واستعداه عليه، ففرق بين الزوجين وضرب المولى مائتي سوط وخلق رأسه ولحيته وحاجبيه.

يقول محمد بن بشير يبارك عمل الوالي ويمتدح قضاءه^(٢١) :

قضيت بسنة وحكت عدلاً ولم ترث الحكومة من بعيد
إذا غمز القنا وُجدت لعمري قناتك حين تغمز غير عود
إلى أن يقول:

وفي المائتين للمولى نكال وفي سلب الخواجا والحدود
إذا كافأتهم ببسات كسرى فهل يجد الموالي من مزيد
فأي الحق أنصف للموالي من اصهار العبيد إلى العبيد

وليست هذه حالة فردية، فإن من يقرأ قصيدة أبي بجير في تأنيب عبد القيس وسخرته منهم لتزويجهم الموالي تتأكد له هذه النزعة، ويرى أن العرب كانوا ينكرون هذا الاقتران ويحاربونه، ويرون فيه مذلة وهواناً، وكأنه ليس بزواج، وإنما هو اعتداء على الحرمات مها علت منزلة المولى حتى لو كان من سراة الأعاجم، فأين الحفاظ على الأعراض ورعاية حق النسب؟ إنهم بفعلتهم هذه استرجعوا الحزني، وانسلوا من صفوف العرب، فلا يحق لهم فخر بعد ذلك^(٢٢) :

أمن قلعة إلى أن قبلتم دعاوة زراع وآخر تاجر
وأصهب رومي وأسود فاحم وأبيض جعد من سراة الأحامر
منشى قال إني منكم فصدق وإن كان زنجياً غلبط المشافر
على علمكم أن سوف ينكح فيكم فجذعاً ورغماً للأنوف الصواغر
إلى أن يقول:

أطعم في صهري دعياً مجاهراً ولم نر شراً من دعى مجاهر
ولذلك فلست مع القائلين بأن نظرة العرب إلى الفرس أو غيرهم من الأعاجم لم يكن فيها شيء من
تعالم، أو إثارة من عصبية، وإنما كانوا يحتضنون جميع الأمم التي شاركتهم الإسلام، وشاطرتهم التفؤ
بظلال الدولة العربية ومنحومهم أصفى الود وأعق مشاعر الإخاء (٢٣).

صحيح أن نزعة التعصب هذه قلت بتحسن أحوال الموالي وحيازتهم للأموال وإقبالهم على الثقافة
العربية والإسلامية، ونبوغ بعضهم فيها، وكلما اتجهنا إلى نهاية الدولة الأموية كلما ازدادت فرصتهم في
التزوج من العرب، حتى سمعنا من يدافع عن حقّه في الإصهار إليهم رغم المعارضة الشديدة التي كانت
موجودة آنذاك، فيجى بن أبي حفصة جد مروان بن أبي حفصة كان مولى لعثمان بن عفان وقد أعتقه
يوم الدار، وحين تزوج بجى هذا من عمرة بنت إبراهيم بن النعمان بن بشير وأصدقها عشرين ألف
درهم، ثار جدل طويل حول هذا الزواج، ولام الناس إبراهيم، وقالوا زوجت عبداً وفضحت أباك،
وخالفت ما تعارف عليه الناس، ولو عاش أبؤك وأجدادك إلى الآن لرفضوا هذا القران غير
المتكافى، والذي هو أشبه بصنيع اللثام، يقول أحدهم معيراً إياه (٢٤).

لعمري لقد جلّت نفسك خزية وعالفت فعل الأكثرين الأكارم
ولو كان جدك السلطان تابعا ببدر لما رامنا صنيع الألام
فقال إبراهيم بن بشير يرد على لائمه الذين أرادوه على انتزاعها:

لما تركت عشرون ألفاً لقاتل مقالا ولم أحفل بمقالة لائم
فإن كنت قد زوجت مولى فقد مضت به سنة قبلي وحُب الدراهم
ويبدو من هذا الرد أن إبراهيم لم ير غضاضة من التزوج إلى الموالي، لأن الدراهم قد أنسته
عصبته، أو خفت - على الأقل - من حداثتها، بحيث لم يعد هناك مجال للوم اللائمين، لا سيما وأن

هذه هي وجهة النظر الإسلامية التي تسوي بين المسلمين دون نظر إلى جنس أو لون، وقد جرت بذلك سنة الخلفاء الراشدين.

والعجير السلولي حين غاب عن الشام جعل أمر ابنته إلى خالها طالباً أن يزوجه بكفء، ولما خطبها مولى لبني هلال ذي مال رغبت فيه أمها وأمرت خالها أن يزوجه منه، ولما قدم العجير فسخ النكاح وخلع ابنته من المولى مستنكراً ما حدث مع قرابتها لأمر المؤمنين، مهدداً إذا لم يتم الفراق فلا بد أن يراق دمه حتى تخضب به الأرض (٢٥) :

ألا هل لبمجان الهلالي زاجر وبمجان مأدوم الطعام سمين
أليس أمير المؤمنين ابن عمها وبالحنو آسادها وعشرين
تسالونها أو تخضب الأرض منكم دم خر عنه حاجب وجبين
المهم أننا حين نتقدم في هذا العصر نجد هناك من يوافق على هذا الزواج، سواء أم كم في حالة زواج يحيى بن عمرة، أم حصل التفريق بعد ذلك.

ويبدو أن نصيباً كان يدرك مكانة الموالى الاجتماعية في وسط مجتمع يتباهى بالأنساب ومحسب لها ألف حساب فإذا كان عبد الملك بن مروان قربه منه فإنه كان يعلم أنه ما اكتسب هذه المنزلة إلا بتعلمه للغة العربية وموهبته الشعرية وحسن جوابه ولم يكتسبها بانتائه إلى أم أو أب شريفيين، وقد حدث بذلك عن نفسه حين دعاه عبد الملك إلى الطعام معه فقال له: «إن لوني حائل وشعري مفلفل وخلقتي مشوهة ولم أبلغ ما بلغت من إكرامك إياي بشرف أم أو أب أو عشيرة، وإنما بلغته بعقلي ولساني» (٢٦).

وبعضهم كان يشعر بهوانه لا سيما السود منهم، حتى شكى نصيب هذا إلى عمر بن عبد العزيز انفضاض الناس عن الزواج من بناته لسواد بشرتهن، فأعطاه سيدنا عمر إرضاء لنفسه وتطبيعاً لحاظه. ولم تكن نظرة العرب هذه تقف عند حد امتناعهم عن التزويج إليهم بل كانت تمثل إجحافاً عاماً - على الأقل - عند الخلفاء والولاة، عبر عنه جرير في قوله: (٢٧)

وما جعل القوادم كالذنانبي وما جعل الموالى كالصميم

فاحساس العرب بامتيازهم عن رعاياهم من غير العرب كان يزداد عمقاً باتساع اتصالاتهم المباشر بهم وكان شعورهم بالسخط والفضب على ما يرونه من إفساد لنقايتهم العنصري من جراء اختلاط هؤلاء الأجانب بهم بارزاً، في هجاء الشعراء ونقائضهم (٢٨).

كما أنها لم تكن قاصرة على الموالي فحسب، بل امتدت إلى المولدين، فكانوا يحتقرون ابن الأمة من العربي ويسمونه بالهجين إشارة إلى ما لحقه من نقص، والتاريخ الأدبي خير شاهد على ذلك، حين سابق عبد الملك بن مروان بين سليمان ومسلمة الذي كانت أمه أمة وسبق سليمان مسلمة، فقال عبد الملك متمثلاً بقول القائل (٢٩):

ألم أنهمكم أن تحملوا هجاءكم على خيلكم يوم الرهان فتدرك
وما يستوي المرآن هذا ابن حرة وهذا ابن أخرى ظهرها مشترك
إلى أن يقول:

وأدركنه حالاته فنزعنه ألا إن عرق السوء لا بد يترك
لكنها كانت أقل حدة بالنسبة لهم نظراً لعملية المزج والاقتران بين العرب وغيرهم من الأجناس
الأخرى والتي ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري، حتى رأينا بعض الخلفاء يتقلدون شئون الحكم
وليسوا بعرب خلّص بل أمهاتهم أمهات أولاد، كيزيد بن الوليد، ومروان بن محمد وغيرهما، ومن
الطبيعي ألا تكون معاملتهم للموالي كغيرهم، ومنهم خولتهم.

مع أن النظرة الإسلامية الصائبة تجاهي هذا الاتجاه، وتمنع من هذا المسلك البغيض الذي يوغر
الصدور ويملؤها بالحق والكراهية، فالإسلام في عدالته وسماحته لا يجد غضاضة في أن يتزوج المولى
من العربية أو يقترن العربي بالأعجمية، لكن الأمويين أحيوا هذه العصبية البغيضة التي حاربها
الإسلام، وحاول أن يمحّث جذورها ويقتلعها من النفوس بعد أن سيطرت عليها زمناً طويلاً وكانت
دعوته صريحة في ذلك، تمثلت في كثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، وفي سيرته
وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده، كما تمثلت في شعر بعض شعراء المسلمين في هذا العصر الذين أدركوا
أن الفخر الحقيقي إنما يكون بالإسلام، وليس بالحسب الزائل أو النسب الموروث، على حد ما نجد عند
نهار بن توسعة في قوله (٣٠):

أي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم
أو قول تميم بن أبي بن مقبل:

فنحن بنو الإسلام والله واحد وأولى عباد الله بالله من شكر

يقرها الإسلام حين قال: «والحق أن الحكم الأموي لم يكن حكماً إسلامياً يسوى بين الناس ويكافئهم من أحسن عريباً كان أو مولى، ويعاقب من أساء عريباً كان أو مولى.. وكانت تسود العرب النزعة الجاهلية لا النزعة الإسلامية، كما كان الحق والباطل يختلفان باختلاف من صدر عنه العمل» (٣١) ويرى بعض الباحثين أن هذا الموقف التي اتخذته الدولة من الموالي كان سبباً في اشتغالهم بالعلم ونبوغهم فيه حتى تزعموا الحركة الفكرية ليتساووا مع العرب ويتخلصوا من المهانة التي كانت تصيبهم، وكأن العصبية ضد الموالي كانت ذات أثر فعال في خدمة العلوم اللغوية (٣٢) والشرعية.

ومن الإنصاف لهذا العصر أن نقول إن نزعة التعالي والعداء التي كانت تصدر من العرب نحو غيرهم من الشعوب الأخرى كانت لا تشمل - غالباً - من اشتهر منهم بالتقوى والصلاح، ومن نبغ في الثقافة العربية والإسلامية كالحسن البصري، وسعيد بن جبيرة ومحمد بن سيرين وغيرهم ممن تحدثنا عنهم كتب الطبقات والتراجم، فقد كانوا يصادفون نوعاً من التكرم على يد خلفاء بني أمية وولاتهم، فلم نكد نصل إلى أواخر هذا العصر حتى تخف حدة هذه النزعة، ويكثر التزاوج والامتزاج بين بعض العرب ومواليهم ويعبر الفرزدق عن هذا الاتجاه حين يتحدث عن ابنته التي كانت أمها فارسية الأصل في قوله (٣٣).

فإن يك خالها من آل كسرى فكسرى كان خيراً من عقاب
وأكثر جزية تهدي إليه وأصبر عند مختلف الموالي

كما يعبر عنه جرير حين يتحدث عن شعوره نحو زوجته الفارسية التي أهداها إليه الحجاج وقد ولدت له بلالاً وحزرة وحكيماً، وكان أهلها عرضوا عليه عشرين ألف درهم ويطلق سراحها فأبى وقال:

إذا عرضوا عشرين ألفاً تعرضت
لقد زدت أهل الري عندي مودة
ثم أخذ يمتدح بلالاً ابنه منها:

إن بلالاً لم تشنه أمه
كان ريح المسك مستحمة
لم يتناسب خاله وعمه
ما ينبغي للمسلمين ذمه

وإن كان لم يتخلص من نزعته تماماً كما يظهر من عدم التسوية بين الخال والعلم.

كما ظهر على مسرح السياسة بعض الخلفاء ممن كانت أمهاتهم غير عربيات مثل يزيد بن الوليد الذي كانت أمه فارسية، ونراه يفتخر بنسبه هذا قائلاً^(٣٥) :

أنا ابن كسرى وأبي مروان وقبصر جسدي وجدي خاقان

كما نجد الوليد بن يزيد يعهد بالخلافة من بعده لولديه الحكم وعثمان، فخالف بذلك نهج الخلفاء السابقين الذين كانوا لا يؤمنون ابن الأمة، وجعل الحكم مقدماً على عثمان مع أنه ابن أمه^(٣٦) وكتب بذلك إلى الأمصار. ولم يأبه باحتجاج بعض بني أمية ولا بانتقاد بعض السادة من معاصريه وربما يدل هذا على تحول اجتماعي وتطور جديد في الفكر السياسي الذي يعمل على إشراك الهجاء تدريجياً في أكبر الوظائف السياسية التي كانت حكراً على العرب وحدهم، فتجاوز بذلك نهج الخلفاء السابقين الذين كانوا يبايعون لأبنائهم الصرخاء، ويخرجون من المبايعات للهجاء على الرغم من كفاية بعضهم.

وكانت هناك ردود فعل متفاوتة من جانب الموالي، نظراً لما تحملوه من عنت الأمويين وقسوتهم، وما ترسب في أعماقهم أصلاً من الاستعلاء على العرب لا سيما الفرس منهم، لذلك فقد عاودهم الحنين إلى مجدهم الزائل وسلطانهم القديم، وأخذوا يتحينون الفرصة للقضاء على العرب وسلب سلطانهم، والاشتراك في الثورات التي كانت تقوم للقضاء على سلطان الأمويين ويخططون للإطاحة بهم. وإن كانت هذه التركة لم تظهر بوضوح في هذا العصر، بل كانت تظهر بين الحين والحين وعلى استحياء، نظراً لقوة نفوذ العرب آنذاك وتصديهم لكل من يخرج عليهم أو يتقص منهم لكن ذلك لم يمنع بعض الموالي ممن تعلموا العربية وجرى الشعر على لسانهم أن يترجموا عما استكن في صدورهم من حقد دفن على الأمويين الذين لم يتحرروا من عقدة النسب، ولم يبتعدوا بمشكلاتهم الاجتماعية والسياسية، على نحو ما نجده عند يزيد بن ضبة مولى ثقيف، وكان منقطعاً إلى الوليد بن يزيد في حياة أبيه، فلما آلت الخلافة إلى هشام، أتاه يزيد ليمدحه، فأعرض عنه، وقال: اذهب إلى الوليد فامدحه فذهب إليه فأكرمه وأحسن وفادته، فقال يذكر صنيع هشام به^(٣٧) :

**أرى سلمى: عهد وما صدنا وغير صدودها كنا أردنا
لقد بخلت بنائلها علينا ولو جادت بنائلها حمدنا**

ولعله كان يرمز بسلمى هذه إلى هشام الذي رفض أن يعطيه، فحرك ما في نفسه من كراهية للعرب، وأخذ يحن إلى بني جلدته ويفتخر بهم:

ألم تر أننا لما ولينا أموراً خُرِّقَتْ قوهت سدودنا
إذا هاب الكربة من يليها وأعظمها الهيوب لها عمدنا
وجبار تركناه كليلاً وقائد فتنة طاغ أزلنا

ثم يذكر ما كان من تقدير الملوك لهم وولايتهم على الناس وحسن سياستهم:

وقد كان الملوك يرون حقاً لو افدنا فنكرم إن وفدنا
ولينا الناس أزماناً طوالاً وسناهم ودسناهم وقدنا
إلى غير ذلك مما يعد فخرأ بقومه على الأمويين.

ويندد بعضهم بالعرب من طرف خفي، أو يتهم عليهم في ملح خاطف، فيروون أن هشام بن عبد الملك دعا إسماعيل بن يسار في خلافته لينشده، متوقفاً أنه سيمدحه، فإذا به ينشد شعراً يباهي فيه بقومه، ويتيه بهم على العرب كقوله (٣٨):

إني وجدك ما عودي بذئ عور عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم
أصلي كرم ومجدي لا يقاس به ولي لسان كحد السيف مسموم
أحمي به مجد أقوام ذوي حسب من كل قرم بتاج الملك معموم
من مثل كسرى وسابور الجنود معاً وأهرمزان لفخر أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروح إن زحفوا وهم أذلوا ملوك الترك والروم
يمشون في حلق الماضي سابغة مشي الضراغمة الأسد اللهامي
هنالك إن تسألني تسبي بأن لنا جرثومة قهرت عز الجرائم

ويبدو أن إسماعيل نسي أنه بحضرة الخليفة الأموي، فأخذ يتحدث عن كرم أصله، ونفاسه معدنه، وقوة يانه، وانتائه إلى كسرى وأهرمزان، ويدلف من ذلك إلى ألقاب الشجاعة، فيسبغها عليهم، مما أغضب هشام، وقال أعليّ تغمز، وإياي تنشدد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك؟ غطوه في الماء، فغطوه في البركة حتى كادت تزهد روحه، ثم أمر بإخراجه ونفاه إلى الحجاز.

ولم يكن إسماعيل يقنع بهذا الفخر أو يرضى به، وإنما أخذ بعد ذلك يتهم بالعرب، ويزري بهم، ويستغل شاعريته في تحقيق هذه الغاية الخبيثة، يقول:

رب خال متوج لي وعم ماجد مجتدى كرم النصاب

إنما سمي الفوارس بالفخر من مضاهاة رفعة الأنساب
فاتركي الفخر يا أمام علينا واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألني إن جهلت عنا وعنكم كيف كنا في سالف الأحقاب
إذ نوري بناتنا وتدسو ن سفاهاً بناتكم في التراب

ويكنى عن العرب بأمامة، ويصفهم بالجور والبعد عن الصواب، ولذا فهم أولى من العرب
بالفخر، إذ يتكثون على حضارة قديمة ومجد تليد في غابر الأزمان، وهو بهذا يكشف القناع عن عذائه
المستخفي للعرب، وعصبيته البغضة عليهم.

ولم يكن هذا اتجاه إسماعيل بن يسار وحده، بل هو اتجاه يكاد يكون عاماً لدى غالبية الموالى عبر
عنه شعراؤهم بصورة تختلف وضوحاً أو خفاءً، ولذلك فلسنا نتفق مع أستاذنا الدكتور «شوفي ضيف»
الذي يرى في شعر إسماعيل بن يسار النسائي الذي يمجّد الفرس ظاهرة شاذة في هذا العصر^(٣٩).
ودليلنا على ذلك أن هناك أكثر من شاعر منهم وقف من العرب هذا الموقف كما سيتضح فيما بعد،
بالإضافة إلى أن كثيراً منهم لم يتعمق الإسلام في هذا العصر لحدائنه عهدهم به، فكان من الطبيعي ألا
يكون ولاؤهم له كاملاً، وأن تهتز في نفوسهم قيم الوفاء والإخلاص لهذا الدين، وللدولة العربية
ورجالها الذين أذاقوهم كثيراً من الهوان وحرمانهم من المساواة التي كانوا يشدونها في ظل دولة ترى أن
دينها الإسلام الذي من أول مبادئه أنه لا يفرق بين عربي وعجمي، وهذا ما انتهى إليه بعض
الباحثين، فإن وطأة الحكم وقيود السياسة لم تكن لتجيز لإسماعيل بن يسار وفريقه أن يذيعوا في الناس
هذه المعاني، وكلها تطاول ومناوأة للعهد القابض على السلطة، وربما كان ذلك بعينه هو ما جعلهم
يختزنون هذه المعاني، فبقيت حبسية الجوانح، تدمدم في أعماقهم، وتهجس في خواطرهم دون أن
يتكوا أستاذنا ويفضحوا أسرارها^(٤٠).

فلم يكن إسماعيل بن يسار الذي جاهر بالفخر بالفرس وتغنى بحضارتهم ومجدهم الزائل ظاهرة
شاذة إذ لو وصلنا شعره كله وشعر أمثاله الناقين على العرب، لوجدنا من ذلك الكثير، وقد ظهرت
هذه النغمة وتلك الدندنة واضحة في العصر العباسي، وعالوا بعدائهم للعرب، وهذا ما دعا بعض
شعراء العصر الأموي أن يعترف بالفخر الذي ظهر على ألسنتهم في هذا العصر، وقد يجاريهم في هذا
لسبب ما على نحو ما نجد عند جرير وهو يتحدث عنهم^(٤١):

إذا افتخروا عدوا الصبيز منهم وكسرى وآل الهرمزان وقيصرا

نرى منهم مستبصرين على الهدى وذا التاج يضحي مرزباناً مسؤولاً
وربما كان ذلك لتزوجه منهم.

ورغبة في التخلص من الأمويين شارك الموالي في الثورات التي قامت ضدهم، وصاروا أنصار كل
فتنة يشعلون نارها، كثورة المختار التي كانوا منها بمثابة القلب النابض، والرأس المدبر، وكان أكثر جنده
منهم، إذ انخرط في جيش إبراهيم بن الأشتر الذي أعده المختار لمقاتلة الأمويين عشرون ألف رجل،
كان جلهم من أبناء الفرس بالكوفة الناقين على العرب، وقد رأينا أحد قواد الأمويين، يخاطب جنده
قبل القتال: يا أهل الشام إنكم إنما تقاتلون العبيد الأباقي، وقوماً تركوا الإسلام وخرجوا منه، ليست
لهم تقية، ولا ينطقون العربية^(٤٢).

وحين خرج عبد الرحمن بن الأشعث على الأمويين انضمت الموالي إلى جانبه، وكان عددهم
على ما يذكره الطبري مائة ألف مقاتل ممن يأخذون العطاء، ومعهم مثلهم من مواليهم^(٤٣) هؤلاء
جميعاً تجمعهم كراهية الأمويين والرغبة في التخلص منهم، وقد رأيناهم ينضمون إلى عبدالله بن الزبير
في خروجه على بني أمية ومطالبة بالخلافة، لكن ابن الزبير كان شحيحاً بالمال حتى على المقربين إليه
وقد أظهر التقشف والزهد في الدنيا، وقال إنما بطني شبر، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا فانفضوا
من حوله ونفروا منه، مستغلين ذلك وسيلة للتشهير به ورميه بكل منقصة، ونجد الهجاء يوجه إليه من
أقرب الناس له «كأنى حرة» الذي يقول على لسان الموالي، ويعبر عن حقيقة موقفهم منه^(٤٤):

إن الموالي أمست وهي عاتبة على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينا وماذا كان يرزقنا أي الملوك على ما حولنا غلبا
ثم فارق ابن الزبير، وقال فيه بعد ذلك:

ما زال في سورة الأعراف يدرسها حتى بدا لي مثل الخزفي اللين
لو كان بطنك شيراً قد شبت وقد أفصلت فضلاً كثيراً للمساكين
إن امرأ كنت مولاه فضيعي يرجو الفلاح لعمري حق مغبون

وهو بهذا يتكلم بما ادعاه ابن الزبير من الزهد والقناعة، وقوله: إنما شبر بطنه، وأن بطنه شبر.
ويعبر أحد الشعراء عن استيائه للموقف الذي وقفه الموالي من العرب، مؤكداً عزمه على ضرب
هامتهم، ومن تآزر معهم من العرب في الخروج على سلطان الخلافة الأموية، يقول «حميد بن مسلم»
في يوم جبانة السبع^(٤٥):

لأضرين عن أي حاكم مفارق الأعبد والصميم

وقد وزع الموالي أنفسهم على الأحزاب السياسية، ليحتموا بها أو ينالوا من برها، لأنها الأحزاب التي كانت تتصارع على الحكم، وهذا لا يمنع أن يكون بعضهم ناصرها مخلصاً كما نجد عند «عمرو بن الحصين» من موالي بني تميم، فقد انضم إلى الخوارج وأصبح أحد شعرائها الذين يدينون بعقيدتهم، ومجاهرون بها دون مواراة أو تخفي على عادة الخوارج، يقول مصوراً المعركة التي دارت رحاها يوم قديد بينهم وبين الأمويين^(٤٦):

فندور نحن وهم وفيما بيننا كأس النون نقول هل من شارب
لنظل نسقيهم ونشرب من قنا سمر ومرهفة النصول قواضب
ويرئي أبا حمزة وغيره من الشراة في قصيدة طويلة يتحدث فيها عن بلائهم وخفائهم في عقيدتهم متمنياً أن يلقي الله وهو على ما هم عليه^(٤٧):

يا رب أسلكني سبيلهم ذا العرش واشدد بالتقى أزرى
في فتية صبروا نفوسهم للمشرفة والقنا السمر
يا الله ألقى الدهر مثلهم حتى أكون رهينة القبر

والواقع أن من أخلص منهم للمذهب كان نادراً، لأنهم كانوا يفرحون بكل خارج على الأمويين ويرون أن الصراع القائم بين الدولة وخصومها سيؤدي حتماً إلى إضعاف الجميع، وفي ذلك قوة لهم، ولذلك كانوا يعمقون الخلاف بين الدولة وخصومها، فأبوا العباس الأعلى يلوم عبد الملك ويعتب عليه أنه أخذ الزبيريين باللين، وتهاون في التعامل معهم، وكان أخرى به أن يأخذهم بالقسوة حتى يعدلوا عن فكرتهم ويدخلوا في طاعته يقول^(٤٨):

أبني أمية لا أرى لكم شيا إذا ما التفت الشيع
ممة وأحلاماً إذا نزع أهل الخلود فضرها النزع
الله أعطاكم وإن رغمت من ذلك أنف معاشر رتعوا
أطمعتم فيكم عدوكم فما بهم في ذاكم الطمع

وزياد الأعجم مولى عبد القيس كان مشهوراً بتعلقه بقبيلته، وميله للأمويين، ومع ذلك كان يخرج وهو بجراسان وعليه قباء ديباج تشبهاً بالأعاجم^(٤٩) وحينئذ للأعاجم وميله للتشبه بهم هو ما

أغضب يزيد بن المهلب، وأمر به فقتل، وضرب أسواطاً ومزقت ثيابه، ثم قال له: «أبأهل الكفر والشرك تشبهه، لا أم لك».

فكان كثيراً ما يمين إلى أصله يتباهى به ويفتخر على غيره، كقوله في الرد على كعب الأشقر حين هجا عبد القيس وكان مولى لها^(٥٠):

لئن نصبت في السوقين معترضا لأرمينك رميا غير نرفيع
إن المائل والأحساب أروني منها المجاميع ذكراً غير موضوع

ونحن لا ندري هنا إذا كان يغضب لنفسه أو لعبد القيس أو لها معاً، فكان لا يفتأ يذكر كسرى وإيوانه وقصوره حتى وهو يمدح الأمويين، مع أن مقام المدح يقتضيه أن ينسى ذلك ولو إلى حين، ولكن نزعة الفارسية وجه لأصله أنسياء ذلك.

وهو حتى في مديحه لا نحس فيه الصدق ولا تدفق المشاعر والأحاسيس، بل نشعر بفنور العاطفة وخواتمه من المضمون كقوله في ابن الحشرج^(٥١):

إن السباحة والمروءة والنسب في قبة ضربت على ابن الحشرج

فقد تعود أن يمدح من يفد عليه إذا أعطاه، فإن أطبقت عنه يداه عرض به وذمه، وكان هذا موقفه من عباد بن الحصين الحطبي حين أمه ووضع بين يديه حاجه مؤملاً قضاءها، فلما لم يقضها صب عليه جام غضبه، ووجه إليه سهامه، سالباً منه ما يعتز به العربي من القيم الخلقية الأصيلة والتي هي مجال للمباهاة والمفاخرة كقوله رامياً له بالبخل الذي تأصل في نفسه حتى صار لا يرجى خيره ولا يؤمل معروفه^(٥٢):

سألت أبا جهضم حاجة وكنت أراه قريباً يسيراً
وكيف الرجاء لما عنده وقد خالط البخل منه الضميراً
أقلفني أبا جهضم حاجتي فإني أمرؤ كان ظني غروراً

ومن العجب في أمر زياد أنه كان يهجو قوماً من العرب بأنهم أعاجم كقوله في بني يشكر^(٥٣):

ألم تر أن اللؤم حل عماده على يشكر الحمر القصار السوالف

لأن الغالب على ألوان العرب السمرة، والأدمة، بينما يغلب على ألوان العجم البياض والحمرة، ويصف بني يشكر بأنهم قصار الأعناق بينما يتمدح العرب بطولها، ولعله بذلك يتقرب إلى خصومهم.

وإسماعيل بن يسار انتقل من الزبيريين إلى مدح عبد الملك وكل من جاء بعده من الخلفاء، ولم يكن في مديحه هذا صادقاً، فيروون أنه أستاذن على «الغمر بن يزيد بن عبد الملك» فحجبه ساعة ثم أذن له، فدخل باكياً، ولما سأله عن سبب بكائه، قال: كيف لا أبكي وأنا على مروائتي ومروانية أبي وأحجب، واستمر في بكائه حتى أعطاه، وسأله رجل بعد خروجه: أي مروانية كانت لك أو لأبيك؟ قال بغضنا إياهم^(٥٤).

ورحل إلى رجل من أهل المدينة يقال له «عبدالله بن أنس» وأنشده مديحاً له، ومث إليه بالجوار والصدقة، فلما لم يعطه أخذ يهجو^(٥٥):

لعمرك ما إلى حسن رحلنا	ولو زرنا حيناً يابن أنس
ولا عبداً لعبدهم فتحظي	بحسن الحظ منهم غير نخس
ولكن ضباً جندلة أتينا	مضرباً في مكانه يُفسي
فلما أن أتيناها وقلنا	بما جئنا تلون لون ورس
وأعرض غير منبلج لعرف	وظل مقرباً ضرساً بضرس
فقلت لأهله أبه كزاز	وقلت لصاحبي أتراه يمي
فكان الغم أن لنا جميعاً	مخافة أن نزن بقتل نفسي

فهذا الشعوي يصمه بأقبح صفات الهجاء التي تزيى بنفس العربي وتحط من قدره، فهو ليس بإنسان كريم يهتز للندى، ويسر للعطاء، وإنما قد قلبه من صخر أصم، وحين جاءه وصرح له بما جئته تغير لونه، واصفر وجهه، وكأنما ألت به نائبة أو حلت به مصيبة، حتى خشي عليه إسماعيل أن تخرج روحه بخروج نفسه، وقدر أن السلامة والغنيمة في تركه لثلا يتهم بقتله.

هذا الهجاء الذي يفيض حقداً ويقطر بغضاً وكرهية لم يكن موجهاً لهذا الرجل وحده، بل للجنس العربي كله الذي لم يسو بينهم وبين العرب، ولم يملأ له جيوبه، ولذلك لم تكن له هوية معينة، بل كان يركب كل موجة ويسير مع كل ركب، وكذلك فهو حين يمدح لم يكن صادراً عن إخلاص ومحبة وإنما كان يمدح رغبة في المال والخطوة: أو رهبة من شريعته، بعد أن فقد هو وأمثاله كل أمل في إسقاط الدولة الأموية، وقد استطاع بمدحه للوليد بن يزيد وأخيه الغمر أن يحصل من المال ما عجز عنه أمثاله.

وإذا كان بعض شعراء الموالي أثر الصمت، ولم يتعرض لنظام الحكم، ولم يشارك في العداء للعرب

بصورة صريحة، واندماج في المجتمع لأنه أحس بحاجته إلى العيش في سلام فسرعان ما يفتضح أمره ويخلع ثوب النفاق إذا تبدل به الحال، كما نجد عند أبي عطاء السندي ذلك العبد الأسود الذي نشأ في الكوفة وعاش فيها، وسال الشعر على لسانه، وكان الذي يؤرقه أن في لسانه لكنة تحول بينه وبين فصاحة التعبير، فأخذ يتوسل إلى سليمان بن سليم راجياً أن يمدّه بغلام يروي شعره للناس^(٥٦).

أعوزني الرواة يا بن سليم وأبى أن يقيم شعري لساني
وغلى بالذي أجمع صدي وجفاني بمجمي سلطاني
ويحدد حاجته التي تتلخص في غلام فصيح يرفع عنه الحرج ويبلغ شعره فصيحاً لملقيه وسامعيه:

فاكفي ما يضيّق عنه روائي بفصيح من صالح الغلمان
يفهم الناس ما أقول من الشعر فإن البيان قد أعياني
وأخيراً يزجي إليه الشكر ويكيل له الثناء بأبيات غر تجري على كل لسان:

فاعتمدني بالشكر يا بن سليم في بلادي وسائر البلدان
ستوافيهم قصائد غر فيك سبابة لكل لسان
وحين يستقر الأمر للعباسيين ينقلب على عقبيه ويحاول أن يتقرب إليهم بهجاء خصومهم من الأمويين فقد صار الأمويون الآن أراذل الأشرار حيث وصلوا إلى الحكومة ظمناً ولم تكن لهم قوة تساندهم أو مجد يتكئون عليه، أما بنو العباس فهم سادة الناس وخيارهم، يتمنون إلى بني هاشم ذوي الأصول الكريمة والأعراق الطاهرة، يقول في مدح أبي العباس السفاح^(٥٧):

إن الخيفار من البرية هاشم وبنو أمية أراذل الأشرار
وبنو أمية عودهم من خروع وهاشم في المجد عود نضار
أما الدعاة إلى الجنان فهاشم وبنو أمية من دعاة النار
وهكذا يتناول هذا العبد على سادته ويطلق لسانه بدمهم، مدعياً أنهم أراذل من يمشي على الأرض وأن دولتهم لم تقم على الحق، بل اغتصبوا الملك من أصحابه، وبذلك كانوا ودعاتهم في النار ونسي هذا العلج أنه كان في يوم ما من الشعراء الذين وقفوا ببابهم، ويحت أصواتهم بالدعاء لهم، وحين لم يصله بنو العباس، وقبضوا أيديهم عنه أخذ يهجوهم، ويدم عهدهم، ويتذكر الأيام الخوالي التي عاشها في رحاب بني مروان، متمنياً أن تعود مع ما فيها من جور، فهي خير من أيامه هذه، وإن عدل فيها بنو العباس:

يا ليت جور بني مروان عاد لنا وأن عدل بني العباس في النار
ثم يتكلم بهم قائلاً:

بني هاشم عودوا إلى غلاتكم فقد قام سعر التمر صاعاً بدرهم
فإن قلم رهط النبي وقومه فإن النصارى رهط عيسى بن مريم
فهو ينصحهم في سخرية لاذعة أن يعودوا إلى الصحراء بجوار نخلهم فإن هذا مكانهم، ليثمروا
الغرويزيدوا من غلته، فقد علا سعره، وينهاهم ألا يتخذوا من قريهم للنبي ﷺ سبباً للخلافة، فإن
كانوا رهط النبي فإن النصارى رهط عيسى بن مريم.
فلم يكن هؤلاء الموالي الذين تظاهروا بحب بني أمية والولاء لهم بصادقين في مدحهم، ولكنهم
كانوا مخلصين لملهم يشتهونه ويحرصون عليه.

وكان الشعراء منهم لسان حال من وراءهم والمعبرين عن اتجاههم حيث راحوا يكشفون القناع عن
عدائهم المستخفي وعصبيتهم العارمة على العرب، وأخذوا يخططون لتحويل الخلافة العربية إلى دولة
فارسية.

وهكذا عظم حقد الموالي على الدولة وملأت الخفيضة والموجدة صدورهم، والتف منهم جماعات
كثيرة حول أبي مسلم داعية العباسيين بخراسان، وما لبثوا أن زحفوا في جيش ضخم أدالوا به للعباسيين
من الأمويين، وللفرس من العرب إدالة نفذوا في أثناءها إلى مناصب الدولة العباسية العليا بحيث كان
منهم أكثر القواد وأكثر الولادة، وخاصة حين استولى على أزمة الحكم البرامكة في عهد الرشيد وبنو
سهل في عهد المأمون^(٥٨) وبذلك ارتفعت منزلتهم ورجحت كفتهم، فقد برح الخفاء وجأهروا
بالعداوة للعرب وعلا صوت العصية مدوياً، وأخذوا يعبرون عن آملهم ويفتخرون بنسبهم ويعتزون
بقوميتهم في جو طليق بعيد عن الاضطهاد، حتى رأينا أحد الأعاجم وهو أبو نواس يقول في الطعن
على العرب وانتقاص قدرهم^(٥٩):

دع الأطلال تسفها الجنوب	ولي عهد جدتها الخطوب
ولا تأخذ عن الأعراب هوا	ولا عيشا فميشهم جديب
إذا راب الحليب قبل عليه	ولا تخرج لها في ذاك حوب
فأطيب منه صافية شمول	يطوف بكأسها ساق لبيب

فذلك العيش لا شحر البوادي وأين من الميسادين الزروب
وسار على هذا النهج يحث الناس على ترك مآثر أسلافهم، داعياً إلى التحلل منها، وحملهم على
عدم احترامها، واستبدال مقدمات القصائد بأخرى تنطوي على عبث ومجون، ويسخر بأصحاب
الأطلال والواقفين عليها في قوله:

قل لمن يبكي على رسم درس وألفا ماض لو كان جلس
تصف الربع ومن كان به مثل سلمى ولبينى وخنس
اترك الربع وسلمى جانباً واصطح كرخية مثل القيس

وقد أدرك الدكتور طه حسين حقيقة التحول الذي طرأ على موقف الموالى حين قال عن أبي نواس
في دعوته هذه إنه لا يمثل مذهباً شعرياً فحسب، وإنما هو مذهب سياسي أيضاً، يذم القديم - لا
لأنه قديم - بل لأنه قديم ولأنه عربي، ويمدح الحديث - لا لأنه حديث - بل لأنه حديث، ولأنه
فارسي، فهو إذن مذهب تفضيل الفرس على العرب، مذهب الشعبية المشهور^(٦٠).

ورأينا بشاراً يتبرأ من الولاء للعرب، بعد أن لم تعد بهم حاجة إلى هذا الولاء، واعتبر هذه العلاقة
نوعاً من التبعية للعرب والعبودية لهم، وحملهم على نبذها والعودة إلى أصلهم وأعلن عن دعوته هذه
من خلال أبياته التالية^(٦١):

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم مولى العُرب فخذ بفضلك فالأخ
مولاك أقرب من تميم كلها أهل الفعّال ومن قریش الشعر
فارجع إلى مولاك غير مدافع سبحان مولاك الأجل الأكبر

كما دفعت العصبية الجنسية حماداً الراوية إلى إفساد تاريخ الشعر العربي، بما كان يصنعه منه ويضيفه
إلى الجاهليين نظراً لقدرته الفنية على التقليد، ومعرفة بمذاهب الشعراء، وقد نبه الأقدمون على ذلك،
كذلك وضعت الرسائل وألفت الكتب في مناقب العجم ومفاخرها ومثالب العرب^(٦٢)، وهكذا
تمادى هؤلاء الشعبيون في الاستهتار بالعرب، وصارت مكارمهم وأخلاقهم الحميدة موضع طعن
الشعبيين ومثار سخطهم، نتيجة لضعف سلطان الخلفاء وتراخي قبضتهم على الحكم، والنفوذ الكبير
الذي أصبح للموالى في العصر العباسي.

- (١) الأضداد لابن الأثيري ٢٩ ، المطبعة الحسينية بدون تاريخ .
- (٢) انظر على سبيل المثال لسان العرب والقاموس المحيط مادة «و.ي».
- (٣) راجع في ذلك فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين، ٨٩ ط الثانية عشرة، والموالي في العصر الأموي للأستاذ الدكتور محمد الطيب النجار ١٤ ط ١٩٤٩.
- (٤) الحجرات آية ١٠.
- (٥) البيان والبيان للجاحظ ٣٣/٢.
- (٦) فتح البلدان للبلاذري ٥٤٩/٣، تحقيق د/ صلاح الدين المنجد، ط لجنة البيان العربي ١٩٥٧.
- (٧) أسد الغابة لابن الأثير المجلد الثاني ٤٢١، ط الشعب.
- (٨) السابق المجلد الأول ٢٤٥، والبداية والنهاية لابن كثير ٧/٢٠١ الأولى ١٩٦٦ بيروت.
- (٩) الكامل للمبرد ١٩٨/١ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط نهضة مصر.
- (١٠) ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين ٢٠/١ ط التاسعة ١٩٧٧.
- (١١) تاريخ الشعر السياسي للأستاذ أحمد الشايب ٢٦٩ ط نهضة مصر ١٩٧٦.
- (١٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري د/عبد مصطفى هدارة ٣١ ط دار المعارف ١٩٦٣.
- (١٣) تاريخ الدولة العربية، فلهوزن ٢١٨ وما بعدها ترجمة أبو ريدة .
- (١٤) العقد الفرید ٤١٧/٣ شرح أحمد أمين وآخرين ط الثالثة.
- (١٥) الكامل للمبرد ٩٦.
- (١٦) تاريخ الطبري ٢٨/٢ — ط القاهرة ١٩٦١.
- (١٧) ديوان الأعشى ٤٠ دار الكاتب العربي بيروت.
- (١٨) قيم جديدة للأدب العربي بنت الشاطيء ١١١/١ ط دار المعرفة.
- (١٩) الكامل للمبرد ٥٩/٢، وديوان جرير ٤٣٦/١ تحقيق د/ نعمان محمد أمين ط دار المعارف مع تغيير بعض الكلمات.
- (٢٠) العقد الفرید ٤١٧/٣.
- (٢١) الأغاني ١٠٧/١٦ ط دار الكتب المصرية .
- (٢٢) العقد الفرید ١٣٥/٦.
- (٢٣) انظر مقالات من أثر الشعوبية في الأدب العربي د/ نعيم الغزاوي ٢٩ ط بغداد ١٩٨٣.
- (٢٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ٤٤ ط المعارف، ط الرابعة، وكامل المبرد ٧٣/٢.
- (٢٥) الأغاني ١٤/١٣.
- (٢٦) السابق ٣٥٢/١.
- (٢٧) ديوان جرير المجلد الثاني ٥٨٨.



- (٢٨) شعر البصرة في العصر الأموي د/ عون الشريف ٢٨٦ دار الثقافة بيروت.
- (٢٩) العقد الفريد ١٣٠/٦.
- (٣٠) الكامل للمبرد ١٧٩/٣.
- (٣١) ضحى الاسلام ٢٧/١.
- (٣٢) الموالى في العصر الأموي ٨٣.
- (٣٣) الأغاني ٣٢٠/٢١.
- (٣٤) الكامل للمبرد ١٢٣/٢.
- (٣٥) مروج الذهب للمسعودي ٢٣٩/٣ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ط السعادة.
- (٣٦) تاريخ الطبري ٢١٨/٧.
- (٣٧) الأغاني ٢٥٣٥/٧ مصور عن دار الكتب .
- (٤٠) طالع في هذا مقال في معترك تحقيق الذاتية بين الشعبية والتيار القومي، للأستاذ الدكتور فتحي ابو عيسى مجلة كلية اللغة العربية بالمتنوعة ص١٩ العدد الأول ١٩٨٣.
- (٤١) الديوان ٤٧٢/١.
- (٤٢) تاريخ الطبري ٤٢/٦ ط دار المعارف .
- (٤٣) السابق ٣٤٥.
- (٤٤) الأغاني ٢٤/١.
- (٤٥) تاريخ الطبري ٥١/٦.
- (٤٦) شعر الجوارح ٢٨٠ جمع وتحقيق د/ إحسان عباس ط الثالثة.
- (٤٧) السابق ٢٢٤.
- (٤٨) الأغاني ٣٠٢/١٦.
- (٤٩) السابق ٣٨٤/١٥.
- (٥٠) شعر زياد الأعجم ٨١ جمع وتحقيق د/ يوسف بكار ط دار المسيرة ١٩٨٣.
- (٥١) السابق ٤٩.
- (٥٢) السابق ٦٩.
- (٥٣) السابق ٨٤.
- (٥٤) الأغاني ٤١٠/٤.
- (٥٥) نفسه .
- (٥٦) نفسه ٣٦٨/١٧.
- (٥٧) الشعر والشعراء ٧٧٣/٢.
- (٥٨) العصر الهامي الأول ٧٥ د/ شوقي ضيف دار المعارف ط السابعة.
- (٥٩) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٠٠.
- (٦٠) حديث الأربعاء ٩٠/٢ ط دار المعارف ط ١٢.
- (٦١) الأغاني ١٣٩/١٣.
- (٦٢) يراجع في ذلك الفهرست لابن النديم ١٧٩، ١٨٠ دار المعرفة بيروت، وبلوغ الأرب في معرفة أصول أحوال العرب للأكومي ١٦٠/١ ط الثانية بيروت .



إيضاحات على ملاحظات الدكتور العثيمين

حول كتاب :

سليمان بن صالح الدخيل

د. محمد عياض عجيل

مقدمة



كان مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة قد شرفني بنشر كتابي المتواضع (الصحفي السياسي المؤرخ النجدي سليمان بن صالح الدخيل) سنة ١٩٨٢م. وهو كتاب إستعرضت فيه سيرته وآثاره ومنهجه العلمي وجهاده السياسي، ثم ألحقت ذلك بنشر بحوثه النجديات، وهي سبعة عشر بحثاً كان قد نشرها بين سنتي ١٩١١ - ١٩١٤م في مجلة لغة العرب التي كان يصدرها ببغداد المرحوم الأب أنستاس الكرمل. ومعظم تلك البحوث كانت عن جزيرة العرب وإماراتها وقبائلها وعن بعض المدن التي أنشأتها تلك القبائل على حدود العراق مستقراً لهجراتها. وكنت ألحقت بالكتاب رسالة صغيرة عنوانها (حقيقة المذهب الوهابي) كان الأستاذ الدخيل قد نشرها ببغداد سنة ١٩١٣م، وقد رأى المركز حلفها من الكتاب عند نشره لكونها نشرت مستقلة سابقاً ولوجودها في مكتبات بغداد العامة ولعلم ندرتها اليوم.

وكننت قد أرسلت مسودة الكتاب قبل تقديمه للنشر، أثناء عملي أستاذاً بجامعة الإمارات العربية المتحدة، إلى عالم جليل من علماء المملكة وفضلائها، أسأله النصيح والمشورة في أمر نشره، وتحسباً أن يكون في الكتاب أمريسي إلى تاريخ المملكة ورجالها مما لم أتنبه له، وهو شيء لا أحب وقوعه في كتاب أقوم على نشره، لما أحمله في نفسي للمملكة وأهلها من ذكريات طيبة خلفها حسن الضيافة والرعاية الكريمة التي حظيت بها منهم أثناء عملي أستاذاً في كلية الشريعة بمكة المكرمة، وقد كتب لي ذلك العالم السعودي الجليل ما يدل على إعجابه بالكتاب وحضني على نشره.

ملاحظات الدكتور العيمين على دراسي للدخيل

ومعلوم ان الكتاب إذا نشر خرج من يدي صاحبه وصار ملك الناس يقولون فيه ما يشاؤون. وقد حظي كتابي هذا بمحمدالله بعناية خاصة من الزميل الكريم الدكتور عبدالله الصالح العيمين فشرفتي بملاحظات قيمة تناولت دراستي له وبحوث الأستاذ الدخيل ، وقد نشر الزميل تلك الملاحظات في مجلة الخليج العربي التي يصدرها مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة (المجلد الخامس عشر، العدد الأول، سنة ١٩٨٣م) ثم أعاد نشر تلك الملاحظات في مجلة (الدائرة) السعودية (العدد ٣ السنة التاسعة ربيع الثاني ١٤٠٤هـ يناير ١٩٨٤م) ولعله فعل ذلك تعميماً للفائدة.

وليس هذا رداً على الزميل الكريم وإنما هو إيضاح ومشاركة في الحديث. وأنا، بعد، لا أجد في نفسي حرجاً من التسليم له بصواب بعض ملاحظاته وأنه كان موفقاً بها غاية التوفيق، ومن ذلك:

١ - التداخل الحاصل بين نص كلام الأب الكرمل وما نقلته عنه بتصرف، في حديثه عن كتاب العقد المتلالي.

٢ - عدم الدقة في نقل كلام الأب الكرمل عن كتاب عنوان المجد.

٣ - عدم الدقة في نقل كلام الشيخ الجاسر عن كتاب القول السديد.

٤ - خطأ الجزم بوجود عدد واحد من جريدة الرياض وضياع بقية الأعداد، وقد رجح الزميل الكريم احتمال وجودها في مكتبات تركيا أو مكتبة المتحف البريطاني، ولعل الدكتور العيمين يسره أن يعلم أنني عرفت بعد نشر الكتاب من أحد أصهار آل الباججي (الزميل الدكتور وليد خالص) أن جريدة الرياض توجد كاملة في مكتبة المرحوم مزاحم الأمين الباججي رئيس وزراء العراق الأسبق.

أما قول الأستاذ الجاسر في وصف الدخيل بأنه (أديب نجدي) وتحريفها إلى (أديب نجد) فقد كانت غلطة مطبعية أعتذر إليه وإلى أستاذنا الجاسر عنها، ولا مصلحة لي أن يكون الدخيل أديب نجد أو أديباً نجدياً.

ولم أجد مبرراً لما ذكره الدكتور من عدم إقتناع القارئ بقولي: إنني لم يتح لي الإطلاع على ملف المرحوم الدخيل المحفوظ بوزارة الداخلية، إذ لا مصلحة لي في الإشارة إلى وجود ذلك الملف وعجزني عن الإطلاع عليه، ولم أجد مبرراً لإطلاع القارئ الكريم على تفصيلات محاولتي في سبيل ذلك وإنني قدمت طلباً للوزارة فاعتذرت عن إجابته، فقد وجدت ذلك من فضول القول الذي لا يعني القارئ.

ولا يهجم. أما جزمي بوجود سجل كامل لمناصبه الإدارية وبيان أسباب نزوله في التدرج الوظيفي في ذلك الملف، فقد كان القياس فيه ما نعرفه من إحتفاظ تلك الملفات بنسخ من الكتب الرسمية المتعلقة بصاحب الملف.

أما إنني ذكرت اسمي الشيخ الجاسر والأستاذ بطي مقرونة بألقاب التعظيم إذا وافقت أقوالها هواي ثم ذكرتها مجردة من ذلك إذا اعترضت على ما ذكره عن الدخيل فقد علم الزميل الكريم وعلم الناس أن شهادة مثلي في مثله لا تضرهما ولا تنفعهما فليس مثلها من يحتاج إلى تركية مثلي وثناؤه.

وقد ذكر الزميل الكريم أنني نقلت ماوافق هواي من كلام المرحوم بطي عن جريدة الرياض وأعرضت عن بقية الكلام الذي حمل تشكيكاً في صحة أخبار تلك الجريدة. والحق أنني نقلت القسم الأول من كلام الأستاذ بطي حول خدمة جريدة الرياض لقضايا العرب وعنايتها بأخبار أهل الجزيرة، عند حديثي عن جهاد الأستاذ الدخيل الوطني والطومي، ولو أضمن الدكتور القراءة لوجد أنني لم أنجاهل بقية النص وإنما ذكرته في موضعه عند الحديث عن أمانة الدخيل العلمية (ص ٣٨).

ملاحظات الدكتور على بحوث الدخيل

ولا شك أنني لست ملزماً بالدفاع عن بحوث الأستاذ الدخيل حول نجد وإماراتها، إذ أنني لست مختصاً بتاريخ المملكة الحديث الذي يبدو أنه اختصاص الدكتور الذي لا تنازعه فيه ولا نملك حق الحكم على قيمة ملاحظاته تلك وإنما هو أمر متروك لزملائه الذين يشاركونه الإختصاص نفسه.

ولرب سائل يسأل أين كان الدكتور العظيم عن تقويم تلك البحوث كل هذه المدة الطويلة وقد نشرت بين سنتي ١٩١١ - ١٩١٤ وما الذي أقدمه عن ذلك إن كان قد أطلع عليها سابقاً، وإذا كان لم يرها حتى أعيد نشرها في هذا الكتاب، أفليس من فضل هذا الكتاب عليه أن يسدله الإطلاع على بحوث لم يرها سابقاً وهي من صميم إختصاصه بغض النظر عن قيمتها العلمية.

وقد كنت ذكرت في ص ٣٤ ما نصه (وإذا كان بعض هذه البحوث ليس جديداً على أهل نجد الآن فإنها كانت جديدة كل الجدة عند العراقيين قبل سبعين سنة من الزمان) وهذا فضل الأستاذ الدخيل الذي أبى الدكتور أن يقره له. فقد أنكر أن يكون الدخيل قد سبق إلى كتابة ما كتبه عن نجد وإماراتها، ثم قصر نقده وملاحظاته على ما يقع تحت إختصاصه وأهم بقية بحوث الدخيل وهي:

١ - بعض الأعراب غير المنسوبة. ٢ - الخميسية أو لؤلؤ البرية.

- ٣- سوق الشيوخ. ٦- الأرطوية أو بلدة جديدة في ديار نجد.
٤- مشاهير بيوت وقبائل سوق الشيوخ. ٧- بقايا بني تغلب.
٥- بلد البوعيين. ٨- تيماء.

ولسائل أن يسأل لماذا تجاهل الدكتور نصف عدد البحوث المنشورة في الكتاب ولم يعرض لها بالنقد والملاحظة، ولماذا لم يذكر إن كانت أصيلة بكرة أو سبق الدخيل إلى الكتابة فيها غيره، وإذا لم تكن تلك البحوث ضمن دائرة اختصاصه ولا علم له بها، فقد علمه المرحوم الدخيل من ذلك ما لم يكن يعلم وكان له عليه فضل الأستاذ والمعلم وكان من حقه عليه أن يقر له بذلك.

وقد أنكر الدكتور الفاضل علي أن عدت معظم بحوث الأستاذ الدخيل من المبتكر الأصل الذي لم يسبق إليه ومن ذلك ما كتبه عن نجد وإمارة آل رشيد، وقال إن كتابات كثيرة كانت قد نشرت عن ذلك بلغات مختلفة قبل كتابة الدخيل عنها ومن ذلك تاريخ ابن غنام الذي طبع سنة ١٩٠٢.

وأقول: إن الزميل الكريم لم يستطع أن يذكر لنا تلك الكتابات الكثيرة التي نشرت بلغات مختلفة ولم يثبت أنها نشرت فعلاً قبل أن يكتب الدخيل ما كتبه، ولم يجد غير تاريخ ابن غنام مستشهداً على صحة أقواله. وفي هذا ظلم للدخيل، الفترة المتأخرة من تاريخ نجد، أي أنه سجل كثيراً من الحوادث التي لم يسجلها ابن غنام والتي وقعت بعد وفاته سنة ١٨١١م.

وكان معظم حديث الدخيل عن نجد التي عاصرها هو، أقسامها ومدنها وعادات أهلها وأخلاقهم وأعمالهم ونقودهم وديانتهم وعلومهم، ثم تحدث مفصلاً عن أمارتي آل سعود وآل رشيد وما جرى بينها من حروب ومنازعات، مما عاصره وكان قريب العهد به وهو ما لم يسجله ابن غنام وما لم يستطع الدكتور أن يثبت أن كتاباً قد تناوله ونشر قبل كتابة الدخيل له بين سنتي ١٩١١ - ١٩١٤م.

وإذا سلمنا للدكتور جدلاً بعدم جدة ما كتبه الدخيل عن نجد وإماراتها، فقد سلمت له ثمانية بحوث على سبيل الجدة والإبتكار، وهو عدد قد لا يسلم مثله لكثير من أساتذة الجامعات المختصين بالتاريخ الحديث مع ما توفر لهم الآن من الدراسة في الجامعات الأجنبية والإطلاع على كثير من الدراسات في مختلف اللغات، وهو ما لم يتوفر مثله للمرحوم الدخيل.

فإذا أضفنا إلى ذلك اعتياد المرحوم الدخيل للمنهج العلمي في كتاباته وبحوثه مثل ذكره لمبررات اختياره لموضوع البحث ثم وضعه خطة له وتقسيمه إلى موضوعات جزئية، بعنوانين فرعية واستخدامه للترقيم والحواشي وذكر مصادره المطبوعة والمخطوطة مع المشاهدة والاختبار الشخصي، ثم استدراكه لما أخطأ به ومسايرته إلى تصحيحه.

أقول : إذا أضفنا إلى أصالة بحوثه الثمينة استخدامه ذلك المنهج العلمي المتكامل ، الذي لم يتح له أن يتعلمه في جامعة كما يفعل الناس الآن ، كان ذلك كله دليلاً على فضل الرجل ومدعاة للإعجاب به .

وإذا كان الدخيل لم يكن دقيقاً في بعض معلوماته أو خالف شيئاً من أسس المنهج العلمي في الحواشي والتزقيم ، أفلا يقوم له عذراً عند الدكتور أننا نجد مثل ذلك وزيادة الآن وبعد نصف قرن من وفاته ، في كثير من الرسائل العلمية التي نال بها أصحابها درجة الدكتوراه وأنفقوا في إعدادها ودراسة مناهج البحث العلمي سنين عدداً ، ثم كان ذلك كله بإشراف أستاذ كبير ولجنة جامعية ممتحنة . ولو لم يكن للمرحوم الدخيل من فضل غير كون بحوثه تلك المتواضعة قد أصبحت الآن من مصادر دراسة المختصين بالتاريخ الحديث للجزيرة كالدكتور العثيمين وزملائه ، يتناولونها بالدرس والتفكير والتصويب والتصحيح ، ثم يتخذون من ذلك كله وسيلة للتزقية العلمية وذبوح الصيت وشهادة على غزارة العلم وجودة البحث ، لكفاه فضلاً وكان له أجر السابق المجتهد .

إعجابي بالمرحوم الدخيل

وقد عاب الدكتور العثيمين عليّ أنني معجب بالدخيل وأريد دفع القارىء لمشاركتي في ذلك الإعجاب ، وهي تهمة لا أنكرها واللهم قد فعلت ذلك ، على أنني لم أعاصر الرجل ولم أره ولا تربطني به رابطة نسب أو قرابة ولا أعرف حتى الآن أحداً من أسرته أو عشيرته .

ورجل مثله خرج من (بريدة) إلى الهند فقيراً في طلب الرزق وعمل كاتب حسابات عند التاجر عبدالله الفوزان ثم دفعته همته وطموحه إلى تعليم نفسه وتثقيفها والرحلة للعراق للتعلمة على كبار علمائه والأخذ عنهم . ثم شاركته بالصحافة والكتابة والتأليف والنشر والجهاد الوطني ووصله إلى مناصب إدارية رفيعة . وما حققه لنفسه بعصاميته وكفاحه من شهرة حتى صار علامة مميزة في تاريخ الصحافة العربية وحتى كتب عنه وعُني به رجال من مثل الكرمللي والزركلي والجاسر ورفائيل بطي وكوركيس عواد وعبد الرزاق الحسيني وعلي جواد الطاهر وعبدالله الصالح العثيمين .

أقول : إن رجلاً هذه صفته ومؤهلاته جدير بالإعجاب وحسن الذكر ، ولا نجد الإنسان المنصف في نفسه ما يمتنع من ذلك ، وقد كان الدكتور العثيمين أولى مني بهذا الإعجاب بسبب أن ذلك الرجل المتوفى سنة ١٩٤٤ قد دفع عالماً فاضلاً مثله ، بعد نصف قرن تقريباً ، إلى تعقب بحوثه وتصويبها والاستدراك عليها ، وأتاح له أن يظهر أهل العراق وأهل الجزيرة على ما آتاه الله من علم وفضل هو أهل له وبه جدير .

تعليق على ايضاح

الدكتور محسن عجيل

د. عبدالله الصالح العثيمين



نشر الدكتور الفاضل محسن غياض عجيل في مجلة الخليج العربي^(١)، التي تصدر عن مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، إيضاحاً على ملاحظات سبق أن نشرتها في مجلة الدارة^(٢) حول كتابه عن المرحوم سليمان بن صالح الدخيل.

وللدكتور محسن خالص الشكر على اهتمامه بما كتبه من ملاحظات، وعلى ما دونه من إيضاح يتعلق بها.

وأحسب أن القارئ الكريم لو رجع إلى الملاحظات المذكورة وقارنها بما كتبه الدكتور محسن من إيضاح لكانت الفائدة أكبر. على أن هذا لا يمنع من التعليق على الإيضاح ذاته لتأكيد الهدف الذي قصده من كتابة الملاحظات.

لقد ذكر الدكتور محسن في إيضاحه صواب بعض ملاحظاتي على كتابه، وأورد من ذلك أربعة أمور. ولا شك أن الحق ضالة المؤمن. وليس مهماً إيراد كل ما لم يشر إليه الدكتور بتأييد أو معارضة من تلك الملاحظات. ذلك أن من أراد معرفتها كلها فإن من السهل عليه الرجوع إليها في الموضوع الذي نشرت فيه من مجلة الدارة. لكن المهم، هنا، عرض ما ورد في إيضاح الدكتور محسن مما لم يقتنع فيه نقطة نقطة.

١ - قال: «أما قول الأستاذ الجاسر في وصف الدخيل بأنه (أديب نجدي) وتحريفها إلى (أديب نجد) فقد كانت غلطة مطبعية أعذر إليه - يعني كاتب الملاحظات - وإلى أستاذنا الجاسر عنها، ولا مصلحة لي أن يكون الدخيل (أديب نجد) أو (أديباً نجدياً)».

وكننت قد أشرت في الملاحظات إلى إعجاب الدكتور محسن بالمرحوم الدخيل، وحرصه على أن يشاركه القارئ هذا الإعجاب، وأن من وسائله لذلك:

أ - تفخيم مكانة من كتب عن الدخيل إذا كان في كلامه ما يوحى بفضله، وترك ذلك التفخيم إذا لم يكن فيه ما يوحى بفضله.

ب - تغيير كلام من تحدثوا عن الدخيل إما يذكر جوانب المدح في كلامهم عنه غير مقرونة بجوانب الذم من ذلك الكلام، وإما بتغيير منطوق الكلام ليدل على عظمة من قبل فيه^(٣). وقد أعطيت أمثلة على ما أشرت إليه. ومنها ما ورد في كتاب الدكتور محسن نقلاً عن أن الشيخ حمد الجاسر قال عن الدخيل:

«أديب نجد» في حين أن الشيخ قد قال عنه: «أديب نجد».

وقلت: إن الفرق واضح بين مدلولي التعبيرين^(٤).

وقد ذكر الدكتور محسن في إيضاحه أن ذلك كان غلطة مطبعية. ومعلوم أن القارئ يبني أحكامه على ما بين يديه مما هو مطبوع. ولولا مبالغات الدكتور محسن في مدحه للمرحوم الدخيل في كثير من مواضع دراسته عنه لرجح أن يكون هناك غلط مطبعي في تغيير عبارة الشيخ حمد من «أديب نجد» إلى «أديب نجد». وصحيح أنه لا مصلحة للدكتور محسن في أن يكون المرحوم الدخيل «أديب نجد» أو «أديب نجد». لكن القارئ إذا لاحظ أن شيخاً جليلاً مثل الشيخ حمد قد قال عن المرحوم الدخيل إنه «أديب نجد» فإن إعجابه به سيكون أكثر مما لو قال عنه «أديب نجد». وكل القرائن الموجودة في دراسة الدكتور محسن تدلّ على أنه أراد بكل وسيلة أن يُعجّب القارئ بالمرحوم الدخيل كل الإعجاب.

٢ - قال الدكتور محسن في إيضاحه: «ولم أجد مبرراً لما ذكره الدكتور - يعني كاتب الملاحظات - من عدم اقتناع القارئ بقولي: إنني لم يتح لي الاطلاع على ملف المرحوم الدخيل ... إلى قوله: أما جزمي بوجود سجل كامل لمناصبه الإدارية وبيان أسباب نزوله في التدرج الوطني في ذلك الملف .. إلخ».

وكننت قد أشرت في الملاحظات إلى قول الدكتور محسن: «لم يتح لنا الاطلاع على ملف خدمة المرحوم الدخيل المحفوظ في وزارة الداخلية العراقية، وقوله عن ذلك الملف: ولا شك أن فيه سجلاً

كاملاً لمنصبه الإدارية .. إلخ. وقلت: إذا كان الملف محفوظاً في الوزارة وهو من الأهمية بالدرجة التي أشار إليها الدكتور حسن فهل يقتنع القارئ من مؤلف عراقي بالذات بعبارة: لم يتح لنا الاطلاع دون إبداء ما يثبت محاولته الاطلاع وفشله في تلك المحاولة؟ ومادام المؤلف لم يطلع على الملف فكيف يجزم بأنه يشتمل على ما ذكره؟ أليس من الأفضل في مثل هذه المسألة أن يقال: «ومن المحتمل» أو «ومن المرجح» بدلاً من «ولا شك»؟^(٥)

وأحسب أن إجابة الدكتور حسن عن هذه المسألة في إيضاحه لا تقتنع القارئ. إن عبارة: «لم يتح لنا الاطلاع» تحتمل أن يكون مُنِع من الاطلاع، كما ذكر في الإيضاح، وتحتمل أن تكون مشاغله حالت دون اطلاعه. فإن كانت الوزارة قد منعه من ذلك - وهذا ما يعرفه إخواننا العراقيون أكثر مني - فإن الأجدر به أن يقول، مثلاً: «إن الأنظمة تحول دون الاطلاع عليه. أو يقول: إنه حاول الاطلاع عليه، فلم يَكنْ من ذلك. ولا يحتاج القارئ بطبيعة الحال إلى تفصيلات عما قام به في محاولته. أما مسألة جزمه بوجود سجل كامل لمناصب المحروم الدخيل في ذلك الملف .. إلخ فقد قال في إيضاحه: إن مرد ذلك القياس .. إلخ.

ولوسلم للدكتور حسن بأن الملفات، عادة، تحتفظ بكل شيء مما ذكره فإن استعمال عبارة مثل «ومن المرجح» أصوب؛ خاصة إذا قرنت بعبارة مثل: «لأن الملفات، عادة تشتمل على هذه الأشياء.

٣- قال الدكتور حسن: «أما أنني ذكرت اسمي الشيخ الجاسر والأستاذ بطي مقرونة (هكذا) بألقاب التعظيم إذا وافقت أقوالها هواري ثم ذكرتها مجردة (هكذا) من ذلك إذا اعترضت على ما ذكره عن الدخيل فقد علم الزميل الكريم وعلم الناس أن شهادة مثلي في مثلها لا تضرهما ولا تنفعهما. فليس مثلها من يحتاج إلى تركية مثلي وثنائيه».

وغريب أن يفهم الدكتور حسن أن ما أشرت إليه في الملاحظات كان تبيين أن شهادته في الشيخ حمد والأستاذ بطي تضرهما أو تنفعهما.

لقد أشرت في الملاحظات إلى أن وسائل الدكتور حسن لإقناع القارئ في مشاركته الإعجاب الشديد بالمحروم الدخيل ما سبق أن قلت في هذا التعليق من تضخيم لمكانة من كتب عن الدخيل إذا كان في كلامه ما يوحى بفضل، وترك ذلك التضخيم إذا لم يكن فيه ما يوحى بفضل. وضرت دليلاً على هذا بقولي: فحمد الجاسر «علامة نجل ومؤرخها الأستاذ حمد الجاسر» حين قال: «إن الدخيل أول نجدي مارس الصحافة»^(٦). لكنه وصفه قبل ذلك بالأستاذ حمد الجاسر حين لم يكن في كلامه ما يدل

على أسبقية الدخيل^(٧). ورفائيل بطي: «الصحفي الكبير الأستاذ رفائيل بطي» حين قال عن جريدة الرياض: إنها جريدة ذات لون خاص في الصحف العراقية، بل في الصحف العربية قاطبة في ذلك الجيل.^(٨) لكنه وصفه قبل ذلك بالأستاذ رفائيل بطي حين لم يكن كلامه عن الدخيل يوحى بعظمة^(٩).

وبهذا يتضح أن ما ورد في الملاحظات لم يكن المراد منه الشهادة بفضل كلي من الشيخ حمد والأستاذ بطي وإنما تبين وسيلة من وسائل الدكتور محسن في إقناع القارئ ليشركه إعجابه الشديد بالمرحوم الدخيل.

٤ - ذكر الدكتور محسن في إيضاحه أنه أعرض عن إيراد بقية كلام الأستاذ بطي عن جريدة الرياض - وهو الجزء الذي حمل تشكيكاً في صحة أخبار تلك الجريدة - وأورده عند الحديث عن أمانة الدخيل العلمية.

والذي قام به الدكتور محسن في هذه المسألة أنه أورد في الموضوع المعنون: نشاطه الصحفي ما يلي: «وقد أشاد الأستاذ رفائيل بطي طويلاً بهذه الجريدة - يعني جريدة الرياض -، وقال: إنها خدمت القضية العربية، وساعدت على نشر الوعي القومي، وإنها كانت مصدراً لكل ما ينشر في العالم آنذاك من أخبار الجزيرة العربية وحوادثها، وإن أكثر مروياتها تشيع في عالم الصحافة فتتناقلها الجرائد في العراق والشام ومصر. وقد تشغل بعض مروياتها عن جزيرة العرب أسلاك البرق ودواوين الدولة العثمانية أياماً بل أشهراً».

ولم يورد، هنا، غير ذلك من كلام الأستاذ بطي^(١٠). ثم أشار في الموضوع المعنون: الأمانة العلمية إلى أن الأستاذ الدخيل «لا يذيع خبراً ولا يكتب شيئاً قبل الاطمئنان إلى صحة مصدره وعدالة ناقله ورواته».

وأورد نصين للدخيل أراد بهما إثبات ما قاله عنه. وبعد ذلك مباشرة قال:

«وعجيب حقاً أن نجد بعد ذلك، من يتهم الأستاذ الدخيل بالترديد والمبالغة وعدم الأمانة، ومن اتهمه بذلك ظلماً للأستاذ رفائيل بطي في قوله: «وقد تشغل بعض مروياتها، أي جريدة الرياض، عن جزيرة العرب أسلاك البرق ودواوين الدولة العثمانية أياماً بل أشهراً بينما يكون الحادث من أساسه من مبتدعات خيال مدير الرياض أو محررها»^(١١).

وكننت قد أشرت في الملاحظات إلى ما أورده الدكتور محسن من كلام الأستاذ بطي عن جريدة الرياض، ثم أشرت إلى كل ما قاله هذا الأستاذ عنها؛ ومنه ما قاله بعد ثنائها عليها:

«وليس عليكم بعد ذلك أن تدققوا أو تلتحفوا في تمحيص صحة ما ترويه صحيفة الرياض من أخبار الإمارات العربية وسلطات الخليج وزعامات البوادي. فللبالغة بادية عليها. ولكن هذا لا يهم الكاتب أو الناشر، إنما المهم أن أكثر مرويائنا تشيع في عالم الصحافة فتتناقلها الجرائد في العراق والشام ومصر. وقد تشغل بعض مرويائنا من هذا اللون أسلاك البرق... الخ»^(١٢).

ولعل القارئ الكريم يلاحظ أن الأستاذ بطي لم يقل عن جريدة الرياض: «إنها كانت مصدراً لكل ما ينشر في العالم آنذاك من أخبار الجزيرة العربية وحوادثها» - وهو الأمر الذي ادّعى الدكتور أنه قاله^(١٣). ومعلوم أن الأستاذ بطي لو قال هذا الكلام لما صدّق. ولا يخفى على القارئ الكريم الأسلوب الذي اتبعه الدكتور محسن في إيراده جزءاً من نقد الأستاذ بطي لجريدة الرياض؛ إذ يؤيد هذا الأسلوب ما سبقت الإشارة إليه من أتباعه مختلف الوسائل لإقناع القارئ بمشاركته الإعجاب بالمرحوم الدخيل.

٥ - ثم انتقل الدكتور محسن في إيضاحه إلى مناقشة قليل مما أشرت إليه في الملاحظات حول أعمال المرحوم الدخيل، وقال:

«ولرب سائل يسأل أين كان الدكتور العيمين عن تقويم تلك البحوث كل هذه المدة الطويلة... الخ.

وعجيب أن يربط الدكتور محسن بين تقويم أي إنتاج وبين زمن نشره؛ والجميع يعلمون أن التقويم يمكن أن يحدث لأعمال نشرت منذ مئات السنين! لكن الأعجب من ذلك أن ينبغي عليه المراد بملاحظاتي على ما ناقشته من أعمال المرحوم الدخيل مع نصي في تلك الملاحظات على ذلك المراد. فلقد قلت في ديباجتها:

«والملاحظات على الكتاب بعضها يتعلّق بدراسة المؤلف - وهو الدكتور محسن - وبعضها يتعلّق ببعض ما كتبه الدخيل.

وإذا كان تناول الدراسة مهماً في حد ذاته فإن الهدف الرئيسي من تناول بعض ما كتبه الدخيل إبداء ما قد يساعد في تقويم ما ذكره المؤلف عنه»^(١٤).

وهذا يتضح أني لم أكُتب ما كتبه عن بعض أعمال المرحوم الدخيل تقويماً لها ابتداءً، وإنما للمساعدة في تقويم الدراسة التي كتبها عنه وعن أعماله الدكتور محسن. وما يوضح ذلك أنني في نهاية مناقشتي لبعض أعمال الدخيل قلت:

«وبعد هذا أتُرك للقارئ الكريم تقويم ما ذكره الدكتور عجيل عن الأستاذ الدخيل، ووصفه إياه بأنه كان عادلاً جداً في تحليله وتعليقه، ولم يكن متعصباً ولا متحيزاً، وأن كتاباته كانت موضوعاتها وأصيلة بكرةً كان الدخيل أول من بحث فيها لم يسبقه أحد من الباحثين»، وأنه كان «حريصاً كل الحرص على ترقيم مئونه باستخدام حواشي الصفحات فيما تستخدم به عادة من الإشارة إلى المصادر»، وأنه «قد أبعد بجوئه عن أن تكون مجرد جمع للمعلومات وسرد لها، وأضاف عليها طابع البحث العلمي الدقيق»، وأنه «قد أخذ بأسباب المنهج العلمي كاملة، واستوفى جوابه إستيفاء من دقة في اختيار الموضوعات وخطة متكاملة في بحثها ومعالجتها، وحرص على ذكر المصادر والإشارة إليها واستكمال لما يقتضيه البحث من الترقيم والحواشي والتعليقات وتحقيق الشخصية الباحثة المتميزة من خلال المناقشة والاستدراك والتحليل والتعليل»^(١٥).

٦- قال الدكتور محسن في إيضاحه: «وقد كنت ذكرت في ص ٣٤ ما نصه وإذا كان بعض هذه البحوث ليس جديداً على أهل نجد الآن فإنها كانت جديدة كل الجدة عند العراقيين قبل سبعين سنة من الزمان. وهذا فضل الأستاذ الدخيل الذي أبى الدكتور - يعني كاتب الملاحظات - أن يقره له... الخ.

ومرة أخرى يثير الدكتور محسن العجب. ذلك أني لم أعلق على العبارة التي أوردتها في هذا الإيضاح، وإنما قلت فيما يتعلق بموضوع حكمه على أسبقية الدخيل في الكتابة عما كتب عنه ما يلي:

«ومن الواضح أن إعجاب الدكتور عجيل بالدخيل جعله يصف كتاباته وصفاً غير مطابق للواقع في بعض الأحيان. فقد ذكر - مثلاً - أن معظم كتاباته جاءت بكرةً لم يسبقه أحد إلى الكتابة فيها، وتوفرت فيها الجدة والطفرة. وعدّ من ذلك ما كتبه الدخيل عن نجد وإمارة آل رشيد^(١٦). ومن المعلوم أن كتابات كثيرة كانت قد نشرت عن نجد وإمارة آل رشيد بلغات مختلفة قبل كتابة الدخيل عنها. بل إن تاريخ ابن غنام، وهو مصدر مهم عن نجد ودعوة ابن عبد الوهاب وتاريخ آل سعود، كان قد طبع سنة ١٩٠٢م^(١٧).

وبهذا يتضح أنني لم أحاول إنكار أسبقية المرحوم الدخيل في الكتابة عن كل الأمور التي كتب عنها أو إثباتها، وإنما حاولت أن أبين عدم دقة الدكتور محسن حينما عدّ من الموضوعات البكر التي كتب فيها الدخيل كتاباته عن نجد وإمارة آل رشيد.

٧- ثم قال الدكتور محسن: وإن الزميل الكريم - يعني كاتب الملاحظات - لم يستطع أن يذكر لنا تلك الكتابات الكثيرة التي نشرت بلغات مختلفة، ولم يثبت أنها نشرت فعلاً قبل أن يكتب الدخيل ما كتبه، ولم يجد غير تاريخ ابن غنام مستشهداً به على صحة أقواله.

والواقع أنني اعتقدت أن من هو في مثل مرتبة الدكتور محسن العلمية يستطيع بسهولة - لو أراد - أن يعرف كثيراً مما كتب عن نجد وإمارة آل رشيد - وهذا ما ركزت عليه الحديث - قبل الدخيل. وذكرت تاريخ ابن غنام مثلاً من تلك الكتابات. ولست أرى داعياً للإثقال على القارئ بذكر كثير من الكتب والمقالات التي تضمنت معلومات عن نجد وإمارة آل رشيد، والتي نشرت قبل نشر الدخيل لما كتبه عنها. ولا أدعي أنني ملم بكل ما كتب عنها، ولكني أودّ أن أشير إلى عدد مما يحضرنى من الكتابات برغم ما يتضمّنه بعضها من أخطاء، مثلها مثل كثير من الكتابات.

- كتابه نبور التي وردت فيها معلومات عن نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونشرت مترجمة إلى الإنجليزية عام ١٧٩٢م.

- كتابه دوسامي: ملاحظات حول الوهابيين، المنشورة بالفرنسية عام ١٨٠٥م.

- كتابه وارينج ضمن رحلته إلى شيراز. وقد نشرت بالإنجليزية عام ١٨٠٧م.

- كتابه كورانسز: تاريخ الوهابيين .. بالفرنسية. وقد نشرت عام ١٨١٠م.

- كتابه بوركهات في مؤلفيه رحلات في بلاد العرب وملاحظات على البدو والوهابيين. وقد نشر بالإنجليزية الأول سنة ١٨٢٩م والثاني سنة ١٨٣١م.

- كتابه بردجز بعنوان تاريخ موجز للوهابيين، ملحقه بكتابه عن رحلته إلى البلاط الإيراني. وقد نشرت بالإنجليزية عام ١٨٣٤م.

- كتابه مانجان ضمن كتابه عن محمد علي بالفرنسية. وقد نشرت عام ١٨٣٩م.

- كتابه شودزكو عن عقيدة إتياع الشيخ محمد. وقد نشرت بالفرنسية عام ١٨٤٨م.

- كتابة والين عن نجد وآل رشيد المنشور بالإنجليزية عام ١٨٤٨م.
- كتابة بالجريف عن نجد وآل رشيد المنشورة بالإنجليزية عام ١٨٦٥م.
- كتابة دحلان بالعربية في مؤلفيه الدرر السنية .. المنشور عام ١٨٨٤م.
- وخلاصة الكلام .. المنشور عام ١٨٨٧م.
- كتابة هوبير عن نجد وآل رشيد بالفرنسية. وقد نشرت عام ١٨٨٨م.
- كتابة زويمر عن الوهايين المنشورة بالإنجليزية عام ١٩٠١م.
- كتابة سالدانا عن الأحداث الجارية في جزيرة العرب؛ خاصة نجد والخليج بين عام ١٩٠٤م و١٩٠٦م، والمنشورة بالإنجليزية خلال هذين العامين.

٨- وبعد أن تحدّث الدكتور محسن في إيضاحه عن مسألة أصالة كتابات المرحوم الدخيل تكلم عن أتباعه للمنهج العلمي، ثم قال:

وإذا كان الدخيل لم يكن دقيقاً في بعض معلوماته أو خالف شيئاً من أسس المنهج العلمي في الحواشي والتزقيم، أفلا يقوم له عذراً (هكذا) عند الدكتور - يعني كاتب الملاحظات - أننا نجد مثل ذلك وزيادة الآن وبعد نصف قرن من وفاته في كثير من الرسائل العلمية... إلخ.

ولعلّ القارئ الكريم يترك أن تساؤل الدكتور محسن في غير محله. ذلك أني قد أوضحت سابقاً أن تناول كتابات المرحوم الدخيل في الملاحظات كان الهدف الرئيسي منه تبين تقويم دراسة الدكتور محسن لتلك الكتابات.

وقد أوضحت في تلك الملاحظات - وفي هذا التعليق - أن ما قاله الدكتور محسن عن منهج المرحوم الدخيل مخالف للواقع. ومادامت الملاحظات لم تتناول بعض ما كتبه المرحوم الدخيل إلا للمساعدة في تقويم دراسة الدكتور محسن عنه فإنه لا داعي لتلمس أخطاء للمرحوم الدخيل. ذلك أن اللوم لم يكن منصّباً عليه أساساً، بل على من وصفه بأوصاف غير مطابقة للواقع.

٩- ثم اختتم الدكتور محسن إيضاحه بذكر مصدر إعجابه بالمرحوم الدخيل. ولكن الإعجاب بعصامية الدخيل يجب ألا يطفى على عاطفة باحث فاضل؛ مثل الدكتور محسن، فينسب في خضمّ الحاس إلى المعجب به ما لا يتصف به. ذلك أن المبالغة قد لا يقتصر ضررها على اهتزاز الثقة بكتابها،

وإنما قد يتجاوزوه إلى المكتوب عنه. ولو وزن الدكتور محسن كتابات المرحوم الدخيل بميزان نقدي عادل لكان ذلك كافياً لإظهار المزايا التي أنصفت بها تلك الكتابات.

وفق الله الجميع لما فيه الخير والسداد.

المواضع:

- (١) انظر العدد الثالث من سنة ١٩٨٧م، ص ص ٢٤٥ - ٢٤٨.
- (٢) انظر العدد الثالث من السنة التاسعة، ١٤٠٤هـ، ص ص ٨١ - ٩٧.
- (٣) العدد الثالث الدارة: ص ص ٨٣ - ٨٤.
- (٤) العدد الثالث المصدر نفسه: ص ٨٤.
- (٥) العدد الثالث الدارة: ص ٨٣.
- (٦) كتاب الدكتور محسن، الصحفي السياسي المؤرخ النجدي سليمان بن صالح الدخيل، مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، ١٩٨٢م، ص ١٨.
- (٧) المصدر نفسه: ص ص ١٤ و ١٧.
- (٨) المصدر نفسه: ص ١٨.
- (٩) المصدر نفسه: ص ص ١٥ و ١٧.
- (١٠) المصدر نفسه: ص ١٩.
- (١١) المصدر نفسه: ص ص ٣٧ - ٣٨.
- (١٢) رفايل بطي الصحافة في العراق، معهد الدراسات العربية، القاهرة، ص ص ٢٨ - ٢٩.
- (١٣) كتاب الدكتور محسن السابق ذكره: ص ١٩.
- (١٤) الملاحظات في الدارة: ص ٨٢.
- (١٥) المصدر نفسه ص ص ٩٦ - ٩٧.
- (١٦) كتاب الدكتور محسن: ص ٣٣.
- (١٧) الملاحظات في الدارة: ص ٨٢.

○○○



العلم رحم بين أهله

للأستاذ عبدالله بن حميد الحفيل

الحضارة ودليل على المعرفة .. والمكتبة تقدم الدارسين والباحثين، وأصبحت اليوم موضع اهتمام الأمم، وتحرص الجامعات ومراكز البحوث على تطوير مكباتها وتسخيرها لخدمة طلابها وروادها .. فالمكتبة هي المكان الذي يجمع المادة المكتوبة وينظمها ويحفظها ويسر استعمالها لمن يبتغيها وعلى مدى قرون من الزمان لم يكن أمام الإنسانية من وسائل الثقافة غير الكتاب .. ولذا فكم يسعد المرء حيناً يسمع بقيام البعض من العلماء والأدباء بوقف مكباتهم للجامعات .. ولا شك أن هذا العمل يعتبر بادرة طيبة وعملاً جليلاً وتاريخاً مجيداً .. ففى قدم المرء مكتبته لإحدى الهيئات العلمية فإنها ستعنى بها، وستحافظ على ما بها من مخطوطات نادرة وتعمل على صيانتها والحفاظ عليها وتحقيق ما يستحق التحقيق وطابعته ونشره ..

وتشهد بلادنا اليوم نشاطاً مكتيباً عريقاً ولا غرو فتاريخ الكتاب والمكتبات عند أسلافنا تاريخ ممتد طويل .. ولذا نرجو من كل صاحب

المكتبة ركن أساسى في الحياة العلمية ومظهر حضارى في حياة الأمم والشعوب .. حيث أن الكتاب من أهم وسائل المعرفة وفي تكوين طلاب العلم تكويناً سليماً وعلى مدى التاريخ كله مازال الكتاب يضيف إلى تراث الأمم مزيداً من المعارف في مختلف مجالات الفكر والإبداع .. وقد بدأ الاهتمام بالعلم عند المسلمين منذ بداية الدعوة الإسلامية وذلك التزاماً بالأمر الرباني لرسوله صلى الله عليه وسلم بقوله عز وجل «اقرأ» وبالأحاديث النبوية التي تحت على العلم والبحث عنه ..

فالكتاب وسيلة تثقيف ومعرفة وترفيه .. وفي المكتبة يلتقي الماضي بالحاضر، ويطل الحاضر على المستقبل .. وعلى مدى التاريخ فالمكتبات تجسد بحلاء صورة أمانة لتاريخ الأمم وستظل المكتبات من أهم مراكز الإشعاع الثقافي والفكري ومازالت تعمل على عائقها هذه المسؤولية التاريخية الجيدة فهي شاهدة على

والفاطميين في القاهرة، والأمويين في قرطبة من أعظم المكتبات، ولها الفضل الكبير في حفظ التراث الإسلامي..

إن الكتاب ركن أساسي من أركان العملية التعليمية لا تقوم إلا به، ولذا ينبغي أن نحرص على اقتنائه وتوفيره لطلاب العلم ليسهم في زيادة رصيدهم العلمي من المعرفة والثقافة .. ولقد روى ياقوت أن عدداً من المكتبات تبرع بها أصحابها وأن الكثير من العلماء كانوا يوصون بأن تؤل مكتباتهم إلى دور العلم، كما فعل الصاحب بن عباد حين أوقف مكتبته على الري، كما أن مروكان بها في مطلع القرن السابع الهجري عشر خزائن للوقف وجميعها مجانية والإعارة فيها بدون رهن. وكذلك في البصرة والكوفة والقاهرة والأندلس كانت مساجدها تحتفظ بكنوز الثقافة وديعة غالية تصونها وتؤديها لأبناء الإسلام جيلاً بعد جيل..

إنه نداء موجه إلى كل صاحب مكتبة في بلادنا ألا يجلسها أو يجعلها عرضة للتلف والإهمال إذ لا ينبغي حبس الكتب والمخطوطات.. ولقد اتصل بي منذ أيام مجموعة من الإخوة الباحثين يسألون عن بعض المخطوطات، ويرغبون في تحقيقها وجزء منها لدى ورثة أصحاب تلك المكتبات الخاصة وبالاتصال بهم لتصويرها واستعارتها استجاب البعض ورفض البعض بكل أسف إن وقف المكتبة

مكتبة أن يادر بالتبرع بها للهيئات والمؤسسات العلمية حفاظاً عليها وصيانة لها من التلف والفساد بعد وفاته .. فقد يرثها من لا يعرف قدرها وقيمتها العلمية، وكونها تراثاً والتراث لا يورث، وإنما هو ملك للجميع .. فكم من مكتبات أحرقت وضاعت وأُهملت وفقدت لأنها تركت في أيدي لا تعرف قدرها..

لقد شغف علماؤنا بالكتب وجمعها حتى كانوا يرون نكبتهم في أموالهم أسير عليهم من نكبتهم في كتبهم، والأدب العربي هو أغنى الآداب العالمية القديمة بالإشادة بالكتاب والولع به والتحدث عنه حتى حق لعالم كبير مثل غوستاف لويون أن يقول: إن حب العرب للعلم والكتاب كان عظيماً وأنهم بلغوا درجة رفيعة من الثقافة بعد أن أعوا فترحمهم بزمان قصير حتى استطاعوا أن يدعوا حضارة أينعت فيها الآداب والعلوم والفنون وبلغت الذروة.

إن الكثير من المكتبات الخاصة تحفل بتفائس المخطوطات النادرة والكتب القيمة .. لقد كان أسلافنا يرحمهم الله يعنون بالكتاب ويحرصون على ابتياعه أو نسخه وكانوا يوصون بوقفه على معاهد العلم والمساجد مع الحرص على اختيار الحذاق من النساخ والمهرة في الضبط والنقل، والإجادة في التجليد. ومن المعروف أن مكتبة العباسيين في بغداد

شرعاً، وثواب ذلك يعود لمؤلف الكتاب،
وناشره، وناقله لغيره.. والساعي في طلبه،
وميسره لكل ظمآن لطلب العلم.. فكن
يا أخي واحداً من هؤلاء.. ولتكن قدوة
حسنة، ومثلاً طيباً في التسابق لهذا العمل
الحقيري الجليل.. فالعلم رحم بين أهله..
والله الموفق والهادي إلى أقوم طريق..

والتبرع بها للمدارس والجامعات والأندية
الأدبية والمكتبات العامة والهيئات العلمية
إلى غير ذلك عمل خيري عظيم، لأنه ذو
نفع كبير فهو كالصدقة الجارية.. فقاريء
الكتاب يستزيد منه علماً، وهذا العلم ينفع
به نفسه، وينفع الآخرين.. ونناشر
المخطوطة يبرز ما فيها من علم دفين، فأتاحه
لنفسه ولغيره.. وتداول العلم مطلوب



مجلة البحوث والدراسات العربية

• تعني المجلة بنشر البحوث العلمية والدراسات الأصيلة التي لم يسبق نشرها، ويتقدم بها الأساتذة
والباحثون من أعضاء هيئات التدريس بالجامعات العربية وغيرهم، وذلك في المجالات المتصلة
ببحث القضايا والمشكلات العربية المعاصرة في أبعادها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية،
والتاريخية، والجغرافية، والقانونية. كما تعني بإبراز الملامح الرئيسة للأدب والفكر العربي المعاصر،
وخاصة ما يعكس منها الروابط الثقافية بين الأنظار العربية، إلى جانب اهتمامها الخاص
بالدراسات الفلسطينية.



• يراعى في البحث أن يتراوح حجمه بين ستة آلاف وثمانية آلاف كلمة، وأن يرفق به موجز بإحدى
اللغات الأوروبية لا يزيد عن ألف كلمة، ويطبق هذا أيضاً على البحوث المقدمة للنشر بلغات
أجنبية.



ترسل المكاتبات الخاصة بالمجلة أعلى العنوان التالي:

الأستاذ الدكتور/ محمد صني الدين أبو العز. رئيس معهد البحوث والدراسات العربية.

١ شارع الطلمبات - جاردن سيتي - القاهرة (ص. ب ٧٧٩). تليفونياً: إيرياليا، ٣٥٤٠٦٥١



مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة

عرض الأستاذ ناصر بن عبد الله الغالي

يتناول الكتاب المرافق والخدمات المدنية التي قدمت للحجاج في الأراضي الإسلامية المقدسة منذ السنة الثامنة من الهجرة وحتى سقوط الخلافة العباسية.



وقد صدر الكتاب هذه الأيام ضمن مطبوعات دائرة الملك عبد العزيز، ويحتل الرقم ثمانية وثلاثين في هذه السلسلة ومؤلفة الدكتور سليمان عبد الغني مالكي أحد أعضاء هيئة التدريس بجامعة أم القرى. وهذه الدراسة التي تقع في مائة وأربع وسبعين صفحة من الحجم المتوسط، دراسة تاريخية وصفية، تناولت بشيء من التفصيل، تلك الخدمات التي قدمت للحجاج، في كل من مكة والمدينة. وترجع أهمية دراسة الخدمات التي قدمت للحجاج، إلى أن حصر تلك الخدمات، ومعرفة أنواعها، ووسائلها، وتطورها، والتغير الذي حدث لها من زمن لآخر، يعطينا فكرة واضحة موثقة، عن الاهتمام الذي تحظى به تلك الأماكن، من حكام المسلمين في كل مكان، وذلك لما لها من أهمية في نفوس المسلمين عموماً. وعندما يخرج القارئ بعد قراءته الكتاب بمعرفة هذه الخدمات، سيدرك مدى ضخامة ما يقدم للحرمين الشريفين من خدمات، وتوسعة، واهتمام بالغ .. وما يقدم لكل زائر هذه الأماكن من جهد واضح، وخدمته والسهر على راحته حتى يتسنى له العبادة في جو آمن يعقب بشذا الأمن والرخاء ..

واستطاع الكاتب أن يجمع شتات مادته من أوعية العلم المختلفة، من مصادر خطية، وأخرى مطبوعة بلغت الخمسين مصدراً، ومراجع حديثة، عربية، وأجنبية، وعدد من الدوريات العلمية، والمجلات.

وقسم المؤلف كتابه إلى مقدمة ، وأربعة فصول :

وقد ينت المقدمة أهمية دراسة هذه الخدمات ، وسبب اختيار الكاتب لهذا الموضوع ، حيث أنه كان بعيداً عن أنظار الكتاب ولم يتناولوه بالدراسة والبحث.

أما الفصل الأول : فقد درس مكة والمدينة قبل ظهور الإسلام ، وتحدث عن جغرافية هاتين المدينتين وتاريخهما ، وعن أهم الخدمات التي قدمت لها في العصر الجاهلي ، وتنظييات قصي بن كلاب التي تمثلت في السقاية ، والرفادة ، والحجابة ، ووضَّح الدور الزراعي ، والاقتصادي ، الذي قامت به المدينة في العصر الجاهلي ، وتحدث عن طرق التجارة ، وتجارة المدينة الداخلية والخارجية .

والفصل الثاني : يعقده المؤلف للحديث عن مرافق الحج في مكة المكرمة ، والمشاعر ، وما قدم فيها للحجاج . من خدمات ، كتوفير المياه أثناء موسم الحج ، من الآبار والعيون ، وتوفير الأطعمة ، والمأكولات والسكن .

لذا اهتم الخلفاء ، والأمراء ، والتجار ببناء الدور ، والأربطة الخاصة لسكن الغرباء ، والمنقطعين والحجاج . يلي ذلك الفصل الثالث : ويشتمل على خدمات الحجاج ومرافق الحج في أمكنة المشاعر ،

ودور سكان مكة في توفير الإقامة للحجاج بها فترة أداء نسك الحج .

كما تحدث المؤلف في هذا الفصل عن أعطيات الخلفاء لولاة مكة ، والأحداث السياسية التي وقعت في مكة ، وفي أمكنة المشاعر ، والتي كانت صدى للتنافس بين خلفاء العباسيين ، والفاطميين ، ومن بعدهم سلاطين الأيوبيين ، وسلاطين الرسوليين على سيادة الأماكن المقدسة ، وعلى إخضاع أشرف مكة لسلطانهم .

كما يلي ذلك الفصل الرابع والأخير والذي عقده المؤلف للحديث عن خدمات الحجاج في المدينة المنورة .

وقد بدأ هذا الفصل بالحديث عن الطريق من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وما أقيم فيه من خدمات للحجاج .

وعن المياه في المدينة ومدى عناية الخلفاء بالعيون ، والآبار التي تتوفر بها .. وعن الدور والأربطة التي كانت تنشأ لزوار المدينة المنورة .

كما تعرّض أيضاً لدور الأعطيات التي كان يقوم الخلفاء بإرسالها إلى ولاية المدينة، وسكانها فقد حرص خلفاء الدولة الأموية، وخلفاء الدولة العباسية، وخلفاء الدولة الفاطمية، وغيرهم من سلاطين الأيوبيين، ثم الرسولين، على رعاية أهلها، وكسب أمرائها، وتقديم الأعطيات لهم، لتثبيت نفوذهم السياسي في العالم الإسلامي.

وهذا الكتاب الذي صدر حديثاً يتميز بمميزات عدّة منها:

- إنه حصّر تلك الخدمات وقصر دراسته عليها.
- وصفه لتاريخ وجغرافية مكة والمدينة، وذلك لبيان ما لهذه الخدمات من أهمية.
- دراسة لتنظّمات قصي بن كلاب، وذلك لترتيب الموضوع بشكل منطقي، ومعرفة تسلسلها التاريخي.
- بيان ما حصل في هذه الديار من أحداث، وما حل بها من دمار، بسبب السيول الجارفة، وذلك لكي يعرف القارئ مدى حاجة الحجاج لهذه الخدمات.
- التقصي الجيد للمعلومات، وتحري صدقها، وذلك بالرجوع إلى كثير من المصادر، والمراجع، حتى الأجنبية منها.

وأخيراً فإن الدراسة دراسة تاريخية وصفية، اعتمد فيها المؤلف على المصادر القديمة .. فخرج بهذه الدراسة التي بيّنت ما قدم لحجاج بيت الله الحرام من خدمات .. ويثبت أهمية تلك الأماكن في نفوس المسلمين عامة على مرّ الأمانة.

وهي دراسة مهمة ومفيدة للقارئ. إذ يخرج منها وهو على معرفة بتاريخ تلك الخدمات. ويعرف من أين وكيف بدأت؟ وإلى أي صورة وصلت في عصرنا الحاضر؟ وفي عهد خادم الحرمين الشريفين حفظه الله، الذي أولاها جلّ عنايته بتوسعة الحرمين الشريفين، وأخذ على عاتقه خدمة الحجاج، والسهر على راحتهم، فشق لهم الطرق، وأفسح لهم الأرض، ورغب بذلك إلى رضا الله، لا إلى ثناء الناس.

فوصلت في عهده حفظه الله، إلى الروعة في البناء، والبراعة في الخدمة، والعمل بصمت.

وبعد فالدراسة - فيما أرى - دراسة جيدة، وجهد علمي مشكور..



البيت

زَفَرَاتُ هَذَا الْقَبِيضِ مِنْ زَفَرَاتِهِ
ضَاقَ الشَّهَارُ أَسَىً بِجَمَلِ هُمُومِهِ
عَارٍ تَكْشِفُ لِلْخَطُوبِ فَلَا أَبَ
لِلَّ وَاهِيِ الْخَفَقِ بَيْنَ ضُلُوعِهِ
أَسْوَأُ تَدْرُكُ شَجْوَهُ مِنْ صَوْتِهِ
وَأَخْوُ مُحِبًّا كَالْخَضَمِ مَخْضِي
خَطَ الشَّقَاءِ عَلَيْهِ قِصَّةُ يُتْبِعِهِ
وَطَرِيدُ كَوْنٍ ضَلَّ فِي أَقَائِهِ
وَإِذَا أَقَامَ لَهَا بَقِيَّ إِلَى حِمَى
حَمَلِ الْفَوَادِحِ رَأْسَهُ مَا ضَمَّهُ
وَمَشَى يَتَيْنُ لَهَا أَقَالَتَهُ يَدُ
عُقِمَتْ أُمَانِيهِ وَلَكِنْ دَهْرُهُ
كَمْ حَسْرَةٍ قَدْ أَوْرَثَتْهَا نَظْرُهُ
وَيَرَى الْبَشَاشَةَ فِي مَوَاقِبِ لَهْزِهِمْ
بَا رَبُّ طِفْلٍ صَاحٍ مِنْهُمْ: يَا أَيْ
أَوْ صَاحٍ: يَا أُمِّي فَكَانَتْ هِنْفَةً
وَكَاثَهُ مِنْ دَهْرِهِمْ تَقْطِيبَةً
وَهُمُ أَغَارِيدُ الْحَيَاةِ شَدَّتْ بِهَا

وَمُوعُ هَذَا الْغَيْمِ مِنْ عِبَائِهِ
وَانْشَقَّ صَدْرُ اللَّيْلِ مِنْ آتَائِهِ
يَحْنُو وَلَا أُمَّ طَوْتُ سَوَائِهِ
زَادَتْ كَوَارِثُهُ عَلَى دَقَائِهِ
وَتَحَسَّرُ ذَلِكَ الْيُسْتَمُ مِنْ فِرَائِهِ
يَطْوِي الشُّحُوبَ أَسَافَةً فِي طَيَّائِهِ
إِنْ تَلَقَّاهُ تَعْرِفُهُ مِنْ قَسَائِهِ
فَجَمِيعُهَا إِنْ سَارَ مِنْ غَايَاتِهِ
يَحْنُو عَلَى الْمَشُوبِ مِنْ لَوْعَاتِهِ
صَدْرٌ يَلْمُ الشَّعْثَ مِنْ أَشْتَائِهِ
مَسَحَتْ عَلَى الْمَكْدُودِ مِنْ شَعْرَاتِهِ
أَعْيَا مَنَاكِبَهُ بَعْبَهُ بَنَائِهِ
لِمَتَى الطُّفُولَةُ فِي وَجْهِهِ لِدَائِهِ
فَيَذُوقُ طَعْمَ الْمَوْتِ قَبْلَ مَمَاتِهِ
فَيَكَادُ يَضْمُقُهُ صَدَى صَنِيعَاتِهِ
تَنْشَقُّ مِنْهَا النَّفْسُ عَنْ حَسْرَاتِهِ
لِغُيُوبِهِ تَبْدُو عَلَى صَفْحَاتِهِ
شَفَّةُ الرَّبِيعِ الطَّلُقِ فِي بَسَائِهِ

الشريد

شعر الذكور: حسن جاد حسن

عَنَى من الأشجان في آهائه
مَلَأَتْ أَغْنِي البُحر فوق لَهائِه
خُلِقَتْ مع الأُفجان في حَدَقائِه
وأشاع في الدنيا سَنَا بَهْجائِه
تَشَوَّى سقاها العبدُ من تَشَوَّائِه
وعلى وَجُوهِهُمُ سنا لَمَحائِه
يطوي الصلوعَ أَسَى على جمرائِه
مُتَعَتِّراً في الذُّلِّ من عَطَوائِه
ويصبُّ مُرَّ الصابِ في كَسائِه
تُضَنَّى وتجديدُ لِظُلْمِ حَبائِه
يَعْبَا بها فَيْتِيه في عَمَرائِه
ويُقبِلُه في العيش من عَنَرائِه
للدهر صارت بعدُ مِن حَسَنائِه
بالمفجزات الفُرَّ من آيائِه
قد صَيَّر الإغفالَ من آفائِه
يوماً يهابُ اللَّيْثُ من وُلبائِه
وأطْلَتِ الآمالُ مِن رِياسِئِه
فَمَحَا دُجَاهَ وكانَ خَيْرَ هُدائِه

إن ساجلوه الشَّلَوُ في أفراحهم
أو رام تنعيم السرور له قَمُ
أبدأ تمالُّهُ الدموعُ كائِها
وإذا أَهْلُ العبدِ في آفائِه
وسابِقُ الأطفالِ فيه مواكباً
وعلى جُؤمِهِمُ جَدِيدُ لِيائِه
أَبْصَرَتْ مَطَوِّياً على أَهْلالِه
حيرانَ ينظرهم ليرجع باكياً
العبدُ يملأُ كَنَسهم من شَهْدِئِه
ما العبدُ للمحزونِ إلا لوعةُ
ذكرى لألام البِيتِ مريسةُ
مَنْ لليتيم يحوطه برعاية
شُدُّوا عَزائِمَهُ قُرْبُ إِساءَةٍ
واحْمُوا مواجِبَه يَجْثُكُم في غِدِ
إنَّ الذي خلق النبوغَ مواهباً
ولربِّ مغمورِ الطفولة حاملي
ولربما نهض اليتيم بِقَوَمِئِه
الْيَتِمْ أَنَجَبَ لِلزمانِ عمداً

الأمثال

العامية

في نجد



عرض للأستاذ محمد بن عبد الله الحمدان

الأمثال في كل بلد هي لسان أبنائه وتعبرهم اليومي عن شعورهم ومعاناتهم، وتعكس مدى الوعي والإدراك الذي يتمتع به أولئك، والأمثال العامة معين لا ينضب ولا يمكن إحصاؤها أو حصرها في وقت وآخر تسمع مثلاً جديداً عليك لم يطرُق سمعك من قبل. وقد تسمع في قرية مثلاً لا يوجد في القرية المجاورة لها فما بالك بالمنطقة والبلاد. وهذه المنطقة غنية بالأمثال الصادقة المعبرة الجميلة كما أن الشعر العامي أو (الشعبي) أو (النبطي) أو (البدوي) مليء بتلك الأمثال.

وتحت عنوان «الأمثال العامة في نجد» كتب الأستاذ محمد بن ناصر العبودي عدة مقالات في الصحف والمجلات السعودية القديمة وعلى رأسها مجلة (الجزيرة) الشهيرة المحتجة ثم خرج له كتاب بنفس العنوان ضم ألف مثل من الألف إلى الباء جعله الجزء الأول وقد علق عليه الشيخ عبدالله بن خميس وأثنى عليه ولاحظ أن المؤلف أكمل الحروف الهجائية في الجزء الأول بينما المقروض أن يجعل الجزء الأول لقسم من الحروف الهجائية والجزء الثاني لبقيتها.

وقد عقلت على الكتاب بأن نشرت حلقات في مجلة الجزيرة أوردت فيها أمثالاً لم ترد في الكتاب المذكور.

ثم أخرج الأستاذ عبد الكريم الجهيمان كتابه (الأمثال الشعبية في قلب جزيرة العرب) في ثلاثة مجلدات أورد فيه ٢٨٥٢ مثلاً ويختلف منهجه قليلاً عن منهج سابقه بأنه يتوسع في إيراد الأمثال ويأتي بشواهد لها من الشعر الشعبي بينما العبودي يختار من الأمثال ويورد أصولها وشواهد لها من المصادر العربية ويحاول مقارنتها بالأمثال العربية والعامية في بعض الدول العربية.

ثم دارت الأيام ونشط الرجلان واشتدت المنافسة الشريفة بينهما والعمل الدعوب المتواصل وأصدر العبودي كتابه هذه المرة في خمسة مجلدات تضم ٣٠٠٠ مثل جاءت في أكثر من ١٨٠٠ صفحة وموضوعات الأمثال في ٢٣٥ صفحة ورجع لأكثر من ٤٠٠ مصدر ومرجع، وشرح الكلمات العامية في قرابة ١٠٠ صفحة. وأصدر الجهيمان كتابه في عشرة مجلدات ضمت حوالي ٩٠٠٠ مثل، المجلد العاشر ملحق للكتاب يضم أمثالاً مستدركة من الألف إلى الياء و٧٦ صفحة تضم أمثالاً مختارة

ومبوبة من جميع أجزاء الكتاب.

وكتب الأستاذ عبدالله الهويش ملاحظات على صنيع الجهيمان نشرت في العدد ٤٨٧٩ الصادر في ١٤٠٦/٥/٢٧هـ من جريدة الجزيرة والملاحظات في رأيي جيدة باستثناء إحداها.

ومن كتب الأمثال العامية التي صدرت في المملكة كتاب للأستاذ أحمد السباعي رحمه الله (الأمثال الشعبية في مدن الحجاز) في مائة صفحة. وكتاب الأستاذ حسين عبدالله محضر (كتاب الأمثال العامية في مكة المكرمة) ضم ٨٨٠ مثلاً. وكتاب الأستاذ عاتق بن غيث البلادي (طرائف وأمثال شعبية من الجزيرة العربية). وكتاب الأستاذ يحيى الألمي (الأمثال الشعبية في المنطقة الجنوبية) ضم ١٠٨٦ مثلاً. ولاهتمامي بالأمثال واحتفاظي بملف في مكتبي يضم ما أسمع من الأمثال الجديدة في الحياة اليومية أرسلت للأستاذ الجهيمان عن طريق الشيخ حمد الجاسر بعض الأمثال التي سجلتها والتي لم ترد في كتابه أو كتاب الشيخ العبودي.

ولازال ذلك الملف موجوداً في مكتبي أضف إليه الأمثال التي أسمعها بين الفينة والأخرى. ولازال أحد رفوف مكتبي المتواضعة يضم مجموعة كتب عن الأمثال الفصيحة والعامية لعل من المناسب إطلاع القراء على أسمائها من باب العلم بالشيء وربما الفائدة.. وهي:

- الأمثال البغدادية المقارنة مع أمثال ١١ قطراً عربياً/ عبد الرحمن التكريتي.

- فرائد اللآل في مجمع الأمثال (كتاب نادر) ٩٠٠ صفحة جزءان في مجلد/ إبراهيم بن علي الأحمد طبع عام ١٣١١هـ.

- المستقصى في أمثال العرب (مجلدان)/
جارالله محمود الزمخشري.

- الأمثال الجمانية مع مقارنتها بنظائرها من
الأمثال الفصحى والعامية في البلاد العربية/
إسماعيل الأكوخ.

- زهر الأكم في الأمثال والحكم/ الحسن
اليوسي تحقيق د. محمد حجي ود. محمد
الأخضر .. المغرب ٣ مجلدات.

- الأمثال العربية ومصادرها في التراث/
محمد أبو صوفة.

- مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي/
أحمد قبش

- أمثال العرب/ للمفضل الضبي.
- حقائق الأمثال العامية/ فائزة حسن
راغب.

- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال/ أبو
عبيد البكري.

- الأمثال/ لأبي عكرمة الضبي تحقيق
د. رمضان عبد التواب.

- جمهرة الأمثال الفراتية/ حسين علي
الحاج حسن.

- اللرة الفاخرة في الأمثال السائرة/
الأصبهاني (مجلدان).

- كتاب جمهرة الأمثال/ أبو هلال
المسكري (مجلدان).

- أمثال العرب/ فراد علي رضا.

- الأمثال الدارجة في الكويت/ عبدالله
النوري.

- أمثال المتنبي/ جمعها الصحاب بن عباد.

- في الأمثال العربية/ د. ابراهيم السامرائي.

- الأمثال في القرآن الكريم/ ابن القيم.

- الأمثال العامية/ محمد صادق دياب.

- الأمثال الشعبية/ محمد صفوت.

- الأمثال العربية القديمة/ رودولف زهايم.

- كتاب الأمثال المسمى الفرائد والقلائد
(العقد النفيس ونزهة الجليس) للتعالي.

- مجمع الأمثال/ للميداني.

- الفاخر/ للمفضل بن سلمة بن عاصم.

- من الأمثال العامية/ خالد سعود الزيد.

- السحر الحلال في الحكم والأمثال.

- العانيون .. حكمهم وأمثالهم الشعبية/ أي

اس جي جاياكار.

- كتاب مضاهاة أمثال كتاب كليله ودمنة

بما أشبهها من أشعار العرب محمد بن حسين
الميني.

- أمثال وحكم/ عبدالله مخايل دياب.

- الأمثال الشعبية في حياتنا اليومية/ وفاء

الختاجري.

- ربع مليون من أمثال الشرق والغرب/

- مع خيط الما يا دجاجان.

- الملقق يطيح.

- يا مدور التمر عند مخصصة العبس.

- كل شاة بعضها معلقة.

أمثال أوردها العبودي ولم يوردها

الجهيمان:

- الولد والقعود مخلفين الوعود.

- أحد ياقط واحد يمتنى النسبة. (والنسبة

هي اللبن القليل المخلوط بماء كثير وقد أورده

الجهيمان كلمة الشينة بدل النسبة وما أورده

أنسب وأقرب للمعنى).

- الضحكة تعلم.

- يا جده نادي جدتك.

- شلفا ذياب.

أمثال أوردها الجهيمان ولم يوردها

العبودي:

- كوخا وعصاية.

- لا تبوق ولا تخف.

- قوله الحمد لله ولا قوله أخلف الله عليك

(أو أنعم الله عليك) وهذا المثل موجود عند

إخواننا المصريين بلفظ (أخذ الحاجة بأيدي ولا

أقول يا سيدي).

أمثال بالجملة:

وفيما يلي بعض الأمثال العامية التي سجلتها

في (الملف) الموجود في مكتبي لم أتمكن من

يوسف وصلاح الدين البستاني.

- الأمثال من الكتاب والسنة/ محمد بن

علي الحكيم الترمذي.

- كتاب أمثال الحديث/ الحسن بن عبيد

الرحمن الراهمزمزي.

- تمثال الأمثال/ محمد بن علي العبدري

الشيبي (مجلدان).

- بحوث ومقالات كثيرة جداً عن الأمثال

العامية في بعض الدول العربية نشرت في مجلة

التراث الشعبي العراقية.

أمثال لم ترد في أي من كتابي الجهيمان

والعبودي:

والأمثال التالية لم ترد في أي من الكتابين

المذكورين:

- الدز من المز والتغار من الشبة (التغار هو

التنفس من الشبعان بصوت مرتفع وهي عادة

سيئة).

- الثلثة ما يبينها قضاضاها.

- القرم منجا والكرم معان (القرم هو

الشجاع) وأصله موجود في الأمثال العربية

الفصيحة.

- طقه بالموت يقنع بالكنن.

- الكيفة على الكيفة ما تمسك.

- أول بواشيرها القوارير والحداء.

- دلني في الخطوة وأذلك في الدباب.

مقارنتها بكتاني الأستاذين، أوردها من باب
الفائدة العامة:

- أكلب من صوابة الليل.
- أكل الفهود ولا أكل السنائر.
- إلى سلمت أنا وبنيتي فيصر امي
واخياني.
- اقر دينك أين تعزى مهول.
- الى بغيت تهنه فاكرب يمينه.
- أما حصه والا شاذوب.
- الى قام الذكر عمي البصر.
- الى ادبرت ادبرت.
- أول لعبة للشيطان.
- ان كان في الهند مروة فالرز فيه قوه.
- إن لقمعت والا ما ضرها الجمل.
- أراد أن يعرّبه فاعجمه.
- الشيخ أنخص.
- عز الشيخ نطاحة.
- اسود كنه الليل.
- اسود كنه الكحل.
- أبيض كنه الشطوط.
- اما عاد عززي الي تنزي.
- إن طاعك السوق والا طعه.
- إن كانك حير فالناس حبور.

- إلى فائك البطيخ فاشرب من الماء.
- ابليس يعرف ربه.
- أبين من الشمس.
- أسرع من البرق.
- أكبر من ویش.
- أقرب من يدك لا ثمك (للمك).
- إن قام طقه الغار وان قعد كلته النار.
- إن حسب الزارع ما زرع.
- إلى حجت السويدا.
- إلى حجت البقرة على قرونها.
- إن كانك فسقان فاحفر فبب والا
جربوع براس عدايه.
- البن تقوم ناقة صالح.
- إلى نامت الحسده والفسده وابليس
وولده.
- أب جزم.
- إلى شفته حافي فقل يا كافي (بسبب
الصافي).
- أمس الأدنى من خمس وثلاثين سنة.
- أكويح عباتي واتاحي لشافي.
- أصعدت.
- أكثر ما في دار السو الحطب.
- أمطرت وأصبخوا ياقطون.
- أبوك من الكاف والسين.

- أدق من تراب الحجر.
- أبوكم ردي وطاحت عليه المنسفة.
- إلى كذبت فسند.
- إياك نعبد وإياك نستعين.
- إزبن طويق.
- الأحذب يعرف كيف ينام.
- احسب سقايفه.
- راح يجب شقص (له قصة طرفه).
- أنت أبوها وسماها.
- أنت أبونا والله ربنا.
- إلى كلت بصيل لكل بصيل.
- إحك في الداب وولم المقلاب.
- إحك في الكلب وولم العصا.
- إحك في الحصان وولم العنان.
- إزمر على قد فلوسك.
- بينهم مثل ما بين سهيل والجدي.
- بعير شال.
- بعد وذره (له قصة).
- لا تقروا ولا بدخن (له قصة).
- جمشة بير (له قصة).
- بيت الطوى ولا عشا ردي.
- تراب العيش عيش.
- تيس الجماعة.
- تمدحك حريم المشاش.
- توعى وهي رابضة.
- قال ياكتر حكيم قال من توديده.
- تنقلت الغروب.
- توق حلالك قبل ما يتوقاك.
- قاطع القوم حلالك.
- نحيلة من أسفل الدرجة ولا نحيلة من علوها.
- تشابه البقر علينا.
- ثغنى اليدين ولا ثغنى عواملها.
- تسقم رغبة بلا هوميل (له قصة).
- يصلح العيد بلا حنا.
- ثورة بارود.
- جربوع ما يسوى خطبه.
- جلة كليفه.
- جنة حار ثغب وثيل.
- الجادة ولو طالت وبنت العم ولو بارت.
- الجراذه من جراد والمطيه من ركاب.
- الجلا فنا.
- جزاك يا ناقة الحج ذبحك.
- جاك الذيب جاك وليده.
- إلى آخر تلك الأمثال الكثيرة.

توزيع الحدائق العامة

في المدينة المنورة

د. محمد شوقي بن إبراهيم مكّي

مقدمة

لا شك أن زيادة نمو المنطقة المبنية وزيادة نمو السكان يعني أيضاً زيادة مساحة الحدائق العامة أو المساحات الخضراء اللازمة للترفيه. ومن المعروف أن اصطلاحاً الترفيه والنمو أصبحا متلازمين في الوقت الحاضر، ويشكلان تحدياً واضحاً للمخططين، وواضحاً للقرارات.

وقد أصبحت المساحات المخصصة للترفيه في المدن، سواء كانت مساحات خضراء أو مساحات حرة، أو متزهات ضرورية ملحة للمدن العصرية. ولأهمية هذا الاستخدام فقد عرف في المدن منذ فترات تاريخية بعيدة، إذ طبق في المدن الإغريقية والرومانية والعربية القديمة^(١)، حيث استخدمت المساحات العامة للمبادلات التجارية والاجتماعات الشعبية. ولكن النمو العمراني كثيراً ما يؤدي إلى تناقص المساحات الخضراء نتيجة لتوسع طرق النقل والمساكن والمصانع والأسواق المغطاة، مع أن أهمية هذه المساحات تعتبر أكثر إلحاحاً مع زيادة النمو العمراني لأنها تعتبر عاملاً أساسياً في مواجهة التشريعات الجديدة التي تزيد من تحديد وقت الفراغ لدى الموظف العامة وربة البيت، كما أنها أيضاً مهمة جداً لمكافحة أخطار المدنية الآلية. فالمساحات الخضراء تعمل على تطهير وتجديد الهواء، وإبطال تأثير الغازات السامة وامتصاص الأندريدكاربونيك، وحجز الغبار بواسطة الترسب على الأوراق والخضير، وبت الأوكسجين والأزون، وتنظيم حالة الرطوبة ودرجة الحرارة، والقضاء على بعض الروائح، والعمل كستار واقٍ ضد انتشار ضجيج حركة المرور ودخان المصانع. ولا شك أن هذه الفوائد مهمة جداً لحالة السكان الفيزيولوجية بوجه عام ولأصحاب البنيات الضعيفة بوجه خاص، كالأطفال وكبار السن.

وتؤثر المساحات الخضراء أو المفتوحة على نفسية السكان المدنيين، فالعامل أو الطالب المرهق من أجواء العمل والدراسة، يجد تغييراً في النشاط الذهني بتأمل منظر يدخل الهدوء والراحة النفسية عليه حتى ولو كان المنظر مصطنعاً، أو بممارسة نشاط فيها يعبر فيه عن ذاته، وإمكاناته بدون توقع وانتظار المكافأة المادية. ولهذا فأهمية الحدائق العامة أكثر ضرورة في المدن التي تقل فيها الحدائق الخاصة في المساكن. ويعتبر بعض علماء الاجتماع أن إيجاد الوقت والمكان المناسبين للترفيه ضروري جداً لتخفيف ضغط عبء العمل على العامل الفقير، وأن نقص هذا الجانب يؤدي إلى ظهور عصابات الشباب التي تتخذ أي عمل حتى ولو كان تخريبياً لهدف التسلية^(٢). بل إن البعض اعتبر الترفيه من الأنشطة المهمة لأنه يحدد نشاط العامل والموظف وبالتالي يزيد من إنتاجيته، ولهذا فهو إذن نشاط إنتاجي وليس مجرد هدر للوقت^(٣).

ونظراً لما سبق ذكره من أهمية هذه المساحات الخضراء فقد كان هدف هذه الدراسة مقارنة وضعها في المدينة المنورة بين سنة ١٣٨٢هـ وسنة ١٤٠٦هـ (السنوات التي تتوافر عنها البيانات) في ضوء تغير مساحة المدينة المنورة وعدد سكانها وطبقاً للمواصفات العالمية مع التأكيد على فعالية توزيع الحدائق العامة في سنة ١٤٠٦هـ، وذلك أملاً في الإسهام في تحديد فعالية أحد الأساليب الموجودة المستخدمة لغرض الترفيه، وبالتالي تقوم أي قصور فيها لغرض تطويرها، أو تحسينها، لخدمة سكان وزوار المدينة المنورة.

ومن المعروف أن مساحة الحدود البلدية للمدينة المنورة ازدادت من ٥٨,٨ كم^٢ في سنة ١٣٨٢هـ (١١,١ كم^٢ منها تشكل المناطق المبنية)^(٤)، إلى ٣٣٠ كم^٢ في سنة ١٤٠٦هـ (٦٨ كم^٢ منها تشكل المناطق المبنية)^(٥). كما ازداد عدد السكان من ٧١٩٩٨ نسمة في سنة ١٣٨٢هـ إلى ٣١١٢٨٤ نسمة في سنة ١٣٩٨هـ بنسبة نحو سنوي ٤,٨٪^(٦). ولو اعتبرنا نسبة النمو السنوي نفسها لأصبح عدد السكان في سنة ١٤٠٦هـ ٤٣٠٩٢٧ نسمة. أما المساحات الخضراء فقد بلغت ٦,٨ كم^٢ في سنة ١٣٨٢هـ (١,٠٢ كم^٢ منها تشكل الحدائق العامة)^(٧)، وازدادت إلى ٨,٨ كم^٢ في سنة ١٤٠٦هـ (٠,٩٥ كم^٢ منها تشكل الحدائق العامة)^(٨).

المرادفات - المناهج

بدأت بعض الحكومات، والمؤسسات الدولية، مثل الحكومة الأمريكية، والحكومة السوفيتية، ومكتب العمل الدولي، الاهتمام بالمساحات الخضراء والنشاطات التي تمارس فيها منذ العشرينات من القرن

العشرين^(١٠). وقد تناول علماء الاجتماع دراسة موضوع الترفيه كوسيلة اجتماعية وثقافية ونفسية لممارسة حياة سكان الحضر مثل دراسة بيير *Pleper* الذي حاول تحديد مفهوم الترفيه كحالة من الشعور منفصلة عن المكان والزمان^(١١). وهناك دراسة ويلنسكي *Wilensky* عن دور الترفيه في تنمية ثقافة ومهارات الجمهور والاعتماد على الذات وكسره لقيود التقاليد^(١٢). كما اهتم بعض الجغرافيين بدراسة الترفيه من منظور جغرافي، أي من حيث التوزيع المكاني للخدمات الترفيهية مثل دراسة ماندلكر *Mandelker* الذي ربط بين نسب نمو التضرر ونمو المساحة الخضراء في المدن^(١٣). ولا ننسى الدراسات العديدة التي تمت عن الأحزمة الخضراء حول المدن والتي تهدف بالإضافة إلى غرضها الأساسي في تطبيق استخدامات الأرض إلى خلق مجال مساعد للترفيه.

أما الدراسات العربية المهتمة بالترفيه فمحدودة جداً ومعظمها يقتصر على تقارير الشركات والمؤسسات الاستشارية التي تتناول دراسة تطوير استخدامات الأرض في المدن العربية. بالإضافة إلى بعض الأطروحات العلمية التي تناولت دراسة تركيب المدن مثل رسالة محمد صبحي عبد الحكيم عن مدينة الإسكندرية والتي طبعت في سنة ١٩٥٨م^(١٤). ومن الدراسات العربية الحديثة التي اهتمت بالترفيه كموضوع قائم بذاته دراسة إسحق القطب من منظور اجتماعي ودراسة عبد الإله أبو عياش من منظور جغرافي. كما اهتمت حديثاً منظمة المدن العربية بموضوع الترفيه والمساحات الخضراء في المدن العربية. ففي سنة ١٩٧٢م أشرفت المنظمة بالتعاون مع أمانة مدينة بغداد على تنظيم ندوة خصصت

شارع المطار في المدينة المنورة

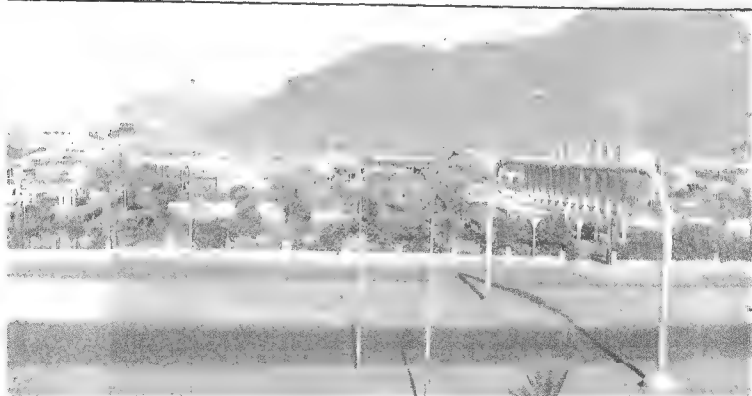


جميع مواضيعها لمشاكل التشجير وتجميل المدن في العالم العربي^(١٤). كما خصصت مواضيع المؤتمر السادس لمنظمة المدن العربية المنعقدة في الدوحة بدولة قطر سنة ١٩٨٠م لمعالجة الجوانب المختلفة للترفيه في المدن العربية. وقد اهتم بحتان من مجموع ٣١ بحثاً من بحوث هذه الندوة بموضوع التشجير والمساحات الخضراء في المدن العربية. ففي البحث الأول شحّص الباحث أسباب قلة المساحات الخضراء في المدن السعودية واقترح بعض الحلول لمواجهة هذا النقص^(١٥). وفي البحث الثاني تعرّض الباحث لجهود أمانة مدينة جدة حيال خلق المساحات الخضراء للترويح^(١٦).

مفهوم المساحات الخضراء

يعرّف البعض الأراضي الخضراء، بأنها الحدائق العامة والخاصة، والملاعب العامة، وملاعب النوادي والأراضي الزراعية في البيئات الحضرية والأراضي الخالية والمساحات المائية^(١٧). ومن الواضح أن هذا التعريف واسع جداً إذ أنه أدخل حتى الأراضي الخالية ضمن المساحات الخضراء مع أن هذه قد تكون غير منظمة أو مكاناً لإلقاء النفايات خاصة في الدول النامية، وبالتالي عدم إمكانية ممارسة أي نشاط فيها. وفي اعتقادي أن تحدد هذه المساحات بالحدائق العامة أو الخاصة التي يستطيع الجمهور الدخول إليها والاستفادة منها في عملية الترفيه وقضاء وقت الفراغ.

وتصنف هذه المساحات تبعاً لنوعية مستخدمها إلى عدة مستويات وهي:

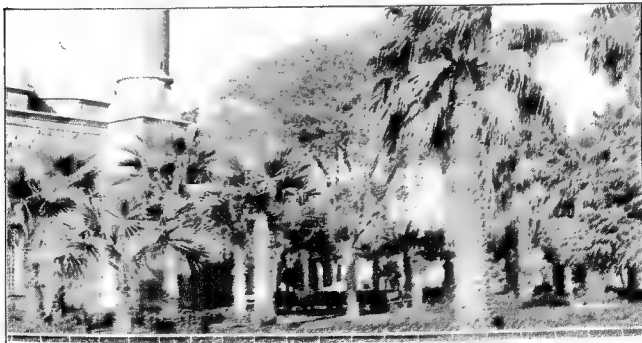


١ - على مستوى الحي : ويكون الهدف من إنشاء المساحات الخضراء على هذا المستوى خدمة سكان الحي فقط.

٢ - على مستوى المدينة : والهدف من مساحات هذا المستوى هو خدمة سكان جميع أحياء المدينة.

٣ - على المستوى الإقليمي والوطني : وتوجه هذه المساحات لخدمة سكان المدن والمستوطنات الأخرى في الإقليم كله أو ما وراء ذلك في الأقاليم الأخرى من الدولة.

وفي المدينة المنورة يتوافر النوعان الأولان كما سنرى عند دراسة توزيع الحدائق العامة فيها. أما النوع الثالث فغير موجود في المدينة المنورة في الوقت الحاضر. وهذا النوع الأخير غالباً ما يهدف إلى خدمة السكان لقضاء وقت الفراغ في الإجازات السنوية أو الفصلية بعكس النوعين الأولين اللذين يقدمان الخدمة لقضاء وقت الفراغ اليومي والأسبوعي، ولكن الأهمية الدينية للمدينة المنورة تدفع إلى وجود نمط مختلف من النشاط الترويحي فيها حيث يقد إليها سنوياً الزوار للسلام على الرسول ﷺ وقضاء عدة أيام أو أسابيع فيها للصلاة في المسجد النبوي الشريف طمناً في كرم الله عز وجل الذي جاء على لسان سيد الخلق محمد ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في فضل الصلاة في المسجد النبوي بأنها خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام^(١٨). وتخلق هذه الزيارات نشاطاً ترويجياً للزائرين يعمل على تعميق الإيمان، ونشاطاً اقتصادياً لقطاع كبير من سكان المدينة المنورة الذين يقدمون خدماتهم ل هؤلاء الزوار. ولا شك أن هذا النوع الأخير من الترويج يتفق مع تعريف جراي Gray للترويج بأنه عمل تأملي جمالي ونفسي وروحي وفلسفي^(١٩).



حديقة في المدينة المنورة

الاحتياجات المدنية للمساحات الخضراء

لقد أوصى المؤتمر الدولي لتخطيط المدن الذي عقد في باريس في سنة ١٣٤٧هـ (١٩٢٨م) بأن تقل المساحة المخصصة للحدائق العامة عن عشر مساحة المدينة^(٢٠). وهناك توصية أخرى تقترح بأن مساحة أياكر واحد (٤٠٥٠م^٢) من المساحات الخضراء ضرورية لكل ألف ساكن^(٢١)، بل إن آراء أخرى ترفع المعدل إلى ٧ أياكر (أو ٢٨٣٥٠م^٢) لكل ألف شخص^(٢٢). أما روبرت أوزيل فقد قدر ضرورة توافر ٢ - ٥م^٢ لكل ساكن في المدينة، ويمكن أن يقل هذا المعدل إذا ما توفرت البساتين والأحراج حول المدينة^(٢٣).

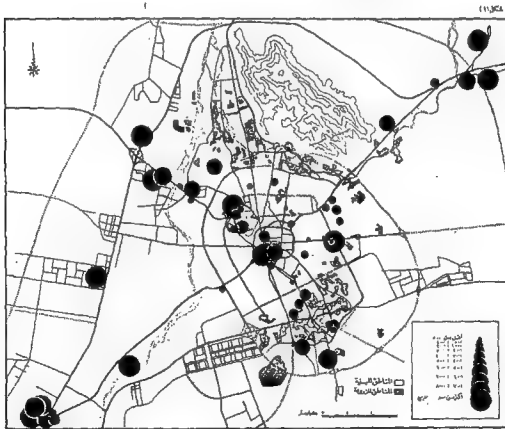
وفي المدينة المنورة نجد أن المساحة الخضراء في سنة ١٣٨٢هـ ربما كانت تدخل بشكل عام ضمن المقياس العالمي إذ أنها كانت تشكل أكثر من عشر المساحة الإجمالية للمدينة المنورة، ولكن المساحة المخصصة للاستخدام العام بعيدة كل البعد عن هذا المقياس إذ أنها كانت تقل عن العشر بنسبة ٩٩,٧٪. وإذا نظرنا إلى مقياس عدد السكان نجد أن نصيب الأياكر (كل ٤٠٥٠م^٢) من المساحات الخضراء العامة هو ١٥٢٠ ساكناً. ويفوق هذا المعدل المقياس العالمي المنخفض بمقدار النصف.

وفي سنة ١٤٠٦هـ ازدادت مساحة المنطقة المبنية كثيراً وأصبحت المساحة الخضراء تشكل نحو ٢٧٪ فقط من عشر المساحة الإجمالية للمدينة المنورة، ولكن المساحة الخضراء العامة كانت تشكل نحو ٣٪ فقط من قيمة العشر المناسب لمساحة المدينة المنورة. وأصبح نصيب الأياكر (أو كل ٤٠٥٠م^٢) من المساحة الخضراء العامة نحو ٢٠٠ نسمة حسب المقياس المنخفض. ويعني هذا المعدل أن المساحات الخضراء العامة تبعاً لمقياس عدد السكان أصبحت تزيد على احتياجات السكان بنسبة ٨٠٪. وتكفي هذه الزيادة سكان المدينة المنورة لنحو ١٢٠ سنة قادمة. ولكننا إذا ما أخذنا المقياس المرتفع فإننا نجد أن نصيب كل سبعة أياكر (أو كل ٢٨٣٥٠م^٢) ١٤٠٠ نسمة. ويعني هذا المعدل أن هناك نقصاً في المساحات الخضراء في الوقت الحاضر في المدينة المنورة. وربما كان هذا المعدل الأخير هو الأقرب إلى الواقع والملائم لنمو السكان ولتعبئة مساحة المدينة المنورة. وإذا ما أخذنا في الاعتبار أن بعض الحدائق الخاصة يمكن أن تستقبل بعض السكان لقاء أجر أو بدون أجر لأمكن الاستنتاج بأن المساحات الخضراء في المدينة المنورة أصبحت تقترب من تلبية احتياجات السكان في الوقت الحاضر، ولكن إذا ما أخذنا في الاعتبار تحقيق هدف أمانة المدينة المنورة في إيجاد ٨ - ١٠م^٢ لكل فرد من سكان المدينة المنورة^(٢٤)، لأصبح على الأمانة زيادة المساحة الحالية بنسبة ٢٦٨٪.

توزيع الحدائق في المدينة المنورة

تباين مساحة الحدائق العامة في المدينة المنورة بين أقل من ٢٥٠٠ م^٢ إلى أكثر من ٢٨٠٠٠ م^٢ (شكل ١)، ولكن الحدائق الأكثر انتشاراً هي ذات الحجم المتوسط التي تتراوح مساحتها بين ١٠٠١ - ٢٣٠٠٠ م^٢، فقد بلغ عدد هذه الحدائق المتوسطة ١٩ حديقة، أي بنسبة ٣٨٪ من مجموع الحدائق العامة (جدول ١). أما الحدائق الصغيرة التي تتراوح مساحتها بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ م^٢ فتشكل نحو ١٤٪ من مجموع الحدائق العامة. وتشكل الحدائق الكبيرة (٣٠٠١ - ٢٨٠٠٠ م^٢) والحدائق الكبيرة جداً (أكثر من ٢٨٠٠٠ م^٢) نحو ٣٠٪، ١٨٪ من مجموع الحدائق العامة في المدينة المنورة على التوالي:

توزيع الحدائق العامة في المدينة المنورة مصنفة حسب الحجم ١٤٠٧ م



(جدول ١) أعداد ونسب الحدائق العامة في المدينة المنورة

مصنفة حسب الحجم، ١٤٠٧هـ..

النسب المئوية	العدد	حجم الحدائق العامة بالمتر المربع
٤,٠٠	٢	أقل من ٥٠٠
١٠,٠٠	٥	٥٠١ - ١٠٠٠
٢٤,٠٠	١٢	١٠٠١ - ٢٠٠٠
١٤,٠٠	٧	٢٠٠١ - ٣٠٠٠
٤,٠٠	٢	٣٠٠١ - ٤٠٠٠
٤,٠٠	٢	٤٠٠١ - ٥٠٠٠
١٢,٠٠	٦	٥٠٠١ - ٦٠٠٠
٤,٠٠	٢	٦٠٠١ - ٧٠٠٠
٦,٠٠	٣	٧٠٠١ - ٨٠٠٠
١٨,٠٠	٩	أكثر من ٨٠٠٠
١٠٠,٠٠	٥٠	المجموع

المصدر: أمانة المدينة المنورة، الإدارة العامة للحدائق والتشجير.

وباستخدام قاعدة صلة الجوار *Nearest Neighbour Analysis* يمكن معرفة نمط توزيع هذه الحدائق في المدينة المنورة. ويمكن التعبير عن صلة الجوار بالقاعدة الحاسوبية التالية: (٢٥).

$$r = \frac{2}{n} \quad \text{ن} \quad \text{م}$$

حيث تمثل:

r = معيار صلة الجوار.

n = متوسط المسافات الحقيقية الفاصلة بين الحدائق.

n = مجموع عدد الحدائق.

m = مساحة المدينة المنورة

وتنحصر قيمة (ر) عادة بين صفر التي تشير إلى التوزيع للمتمركز وبين ٠,١٥ التي تشير إلى التوزيع المتجانس. ويمكن أن يتضح التوزيع العشوائي في المنطقة إذا اقترب معيار صلة الجوار من القيمة. وتطبيق القاعدة السابقة على توزيع الحدائق العامة في المدينة المنورة اتضح أن قيمة صلة الجوار

(ر) تساوي ٠,٢٨. وتعني هذه القيمة أن نمط التوزيع المكاني لهذه الحدائق هو نمط التوزيع المتباعده مع مسافة فاصلة غير منتظمة بين الحدائق. وقد يعزى سبب هذا النمط في التوزيع إلى التوسع المساحي الأفقي السريع للمنطقة المبنية ومحاولة أمانة المدينة المنورة إيجاد الحدائق العامة في مختلف أحياء المدينة وحيث يمكن إيجاد الأرض المناسبة لإقامة مثل هذه الحدائق، لأنه لم يكن في التخطيط السابق للمدينة المنورة تركيز كبير على إقامتها.

ومن المرجح أن يعتقد كل قارئ بوجود الفرض البديهي بأنه كلما ازدادت مساحة المدينة ازدادت أعداد الحدائق العامة ومساحتها. وقد لاحظنا صحة هذه الفرضية بالنسبة للبيانات العامة حيث ازدادت مساحة المدينة المنورة وازداد عدد سكانها وكذلك ازدادت مساحة الحدائق العامة فيها. ولكن لمعرفة مدى انسجام هذه العلاقة في كل أرجاء المدينة المنورة فقد استخدم تقسيم الأمانة للمدينة المنورة إلى تسعة قطاعات (شكل ٢)، وحسب معامل الانحدار الكلي *Multiple Regression* بين متغيرات مساحة القطاع، وعدد سكانه، وعدد حدائقه، ومساحة هذه الحدائق (جدول ٢).

جدول ٢: توزيع الحدائق العامة في المدينة المنورة تبعاً للقطاع
١٤٠٦ هـ (الأرقام بين الأقواس تشير للمساحة الخضراء بالأكبر)

القطاع	المساحة المبنية في القطاع بالكم ^(١)	عدد سكان القطاع ^(٢)	عدد الحدائق العامة ^(٣)	مساحة الحدائق العامة في القطاع بالتير المربع ^(٤)	نصيب الأكبر من السكان (١)
العتيق	١٣,٥	١١٢٦٣٣	٧	(٥٢٣,٩) ٢٢١٢٠٠	٢١٥
العاقول	٩,٥	٤٧٩٠٢	٢	(٢٥٣,٤) ١٠٧٠٠٠	١٨٩
الميفعات	٩,٤	٤٢٤٨٩	٨	(١٦٧,٣) ٧٠٦٢٠	١٣٤
أحمد	٩,٢	٣٧٩٧٥	٩	(١٩٠,٨) ٨٠٥٥٠	١٩٩
قباء	٧,٣	٣٧٤٧٣	٦	(٥٩,٢) ٢٥٠٠٠	٦٣٣
العوالي	٦,٧	٣٥٠٨٥	١٣	(٥٨,٨) ١٤٨٢٠	٥٩٧
العزيرية	٥,١	٦٤٤٤	٢	(٩٢٣,٧) ٣٩٠٠٠٠	٧
الصيون	٤,٨	٥٦٨٥٥	-	-	-
الحرم	٢,٥	٧٤٠٧١	٣	(٧٩,٤) ٣٣٥٠٠	٩٣٣
المجموع	٦٨,٠	٤٣٠٩٢٧	٥٠	٩٥٢٦٩٠ (٢٢٥٦,٥)	١٩١

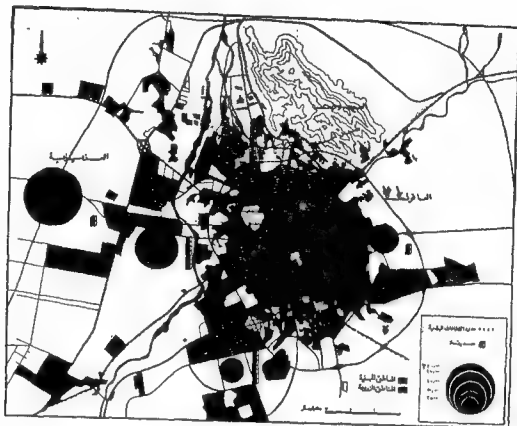
المصادر: ١- من حساب الباحث.

٢- تقدير الباحث اعتماداً على نمو السكان بين سنة ١٣٨٢ هـ وسنة ١٣٩٨ هـ.

٣- أمانة المدينة المنورة، الإدارة العامة للحدائق والتشجير.

ويلاحظ من الجدول رقم (٢) أن أكبر القطاعات مساحة ليست هي التي تضم أكثر الحدائق عدداً أو مساحة. ويؤكد هذه الحقيقة أن قيمة معامل الانحدار الكلي بين مساحة القطاع وعدد الحدائق أو مساحتها منخفضة، كما أن قيمة مربع معامل الارتباط (R^2) لا تشرح إلا نسباً منخفضة من العلاقة (جدول ٣)، وبالتالي فإن قيم اختبار (ف) لم تكن ذات دلالة. والعلاقة الوحيدة المقبولة إحصائياً هي علاقة عدد سكان القطاع وعدد الحدائق فيه حيث كانت قيمة معامل الانحدار ٠,٤٩، والتي تشرح نحو ربع نسبة التباين عند مستوى دلالة ٠,٠٥، ودرجات حرية ٢٠.

وتعني هذه الحقائق أن هناك أسباباً أخرى تحدد حجم الحدائق العامة الحالية لعل من أهمها إمكانيات توافر الأرض المناسبة وبأسعار غير مكلفة جداً للأمانة.



جدول ٣: معامل الانحدار الكلي بين مساحات القطاعات وعدد سكانها وعدد الحدائق ومساحتها في هذه القطاعات

المتغيرات	معامل الارتباط (R)	مربع معامل الارتباط (R ²)	قيمة اختبار ف (F)
مساحة القطاع - وعدد سكانه	٠,٢٩	٠,٠٨	٠,٤٤٨
مساحة القطاع - وعدد حدائقه	٠,٢١	٠,٠٤	٠,٢٢٥
مساحة القطاع - ومساحة حدائقه	٠,٣٨	٠,١٤	٠,٨٢٩
سكان القطاع - وعدد حدائقه	٠,٤٩	٠,٢٤	١,٥٦٦
سكان القطاع - ومساحة حدائقه	٠,١٥	٠,٠٢	٠,١١٨

المصدر: جدول رقم (٢).

ويبدو أن الحدائق في داخل المدينة المنورة موجهة لخدمة سكان الحي حيث نجد أنه بالرغم من صغر إجمالي مساحتها إلا أن نصيب الأيكر من السكان مرتفع كما هو الحال مثلاً في قطاعات الحرم وقباء والعوالي. أما القطاعات الواقعة في أطراف المدينة المنورة فتتميز بكم مساحه حدائقها وقلة نصيب الأيكر من سكان القطاع الذي تقع فيه بالرغم من ازدحامها بالرواد مما يعني أنها تخدم سكان جميع قطاعات المدينة المنورة. ولا شك أن هذا الاتجاه يعوض مشكلات صغر الحجم أو التوزيع غير المتوازن للحدائق العامة في داخل المدينة المنورة.

النتائج والتوصيات

لقد اتضح من هذه الدراسة أن مشكلة الأراضي الخضراء العامة في المدينة المنورة لم تعد في الوقت الحاضر مشكلة نقص المساحة وإنما مشكلة التوزيع المتجانس. فنجد أن نحو ٧٥٪ من مساحة الحدائق العامة تتركز في ثلاثة قطاعات وهي العقيق والعاقول والعزيزية والتي تضم نحو ٤٠٪ فقط من مساحة المنطقة المبنية. وهناك قطاعات لا تضم حدائق عامة إطلاقاً مثل قطاع العيون. وفي التخطيط الحديث يعتقد بأن المسافة الفاصلة بين المناطق الخضراء يجب ألا تزيد على ٨٠٠ كم^(٢٦)، ولكننا نجد في المدينة المنورة تصل أحياناً إلى ٦ كم. وتعني هذه الحقائق أنه في المرحلة القادمة يجب على أمانة المدينة المنورة الاختيار الدقيق لإنشاء الحدائق العامة الجديدة التي تخدم سكان الأحياء. ومثل هذه الحدائق قد ثبت نجاحها كما في قطاع العقيق حيث حديقة المجد التي تعتبر متنفساً يومياً لسكان حي العقيق



حديقة في المدينة المنورة



(صورة ١) تنوع النشاطات في حديقة المجد حيث لعب الأطفال والحيوانات الداجنة

والأحياء المجاورة به (صورة ١). ولا شك أن هذا الاختيار سيدعم العلاقة بين عدد السكان وعدد الحدائق ومساحتها أيضاً في القطاعات البلدية للمدينة المنورة.

ولتجسين توزيع الحدائق العامة في المدينة المنورة يمكن ذكر التوصيات التالية:

١ - التوسع في إنشاء الحدائق العامة لتحقيق طموحات أمانة المدينة المنورة ولمقابلة احتياجات نمو السكان وخاصة من الحدائق ذات الحجم المتوسط في المناطق التي توجد فيها الحدائق الصغيرة جداً في الوقت الحاضر. فالحدائق الصغيرة لا توفر الخصوصية للزائر (صورة ٢).

٢ - القيام بدراسات تفصيلية عن السكان الذين يفترض أن تخدمهم هذه الحدائق وذلك لتحديد العوامل الاقتصادية والتركيبات العمرية للسكان المحليين من أجل تقديم أفضل الخدمات لهم.

٣ - المرونة في تنفيذ مخططات الحدائق العامة بحيث تأخذ في الاعتبار التحولات في التركيبات الاقتصادية والاجتماعية للسكان، وفي تقنية الإنشاء. ولا شك أن هذه التحولات تؤثر على تكاليف الإنشاء والصيانة. وعلى أية حال فإن التخطيط المرن والمراجعة الدورية تجعل تسهيلات الحدائق العامة تتخدم المجتمع إلى ما لا نهاية.

٤ - الربط بين احتياجات السكان وطبوغرافية القطاعات البلدية مما يمكن من إنشاء الحدائق العامة في المناطق التي تبدو متفجرة بعد إجراء بعض التعديلات عليها وإدخال بعض التسهيلات التي تجعلها آمنة وجذابة.

٥ - وما يساعد على خفض تكاليف إنشاء الحدائق العامة زيادة مساحة قطع الأرض لمخططات المسكن لكي يستخدم ٤٠ - ٦٠٪ منها في الزراعة مما يجعل السكان أنفسهم يساهمون في خلق إطار طبيعي جذاب يساعد على قضاء وقت الفراغ في أعمال الحديقة أو في النشاطات الأخرى

التي تمارس فيها. أما النمط السائد في الوقت الحاضر في انتشار قطع الأراضي ذات مساحة ٢٤٠٠م^٢ فلا يسمح بإنشاء حدائق فعلية لكل مبنى. ويقترح زيادة معدل المساحة لكل قطعة إلى نحو ٢٩٠٠م^٢.

٦ - تدعم جهاز إدارة الحدائق والتشجير بالأمانة بالمختصين في التخطيط للتزيين. ويمكن أن يكون هذا الدعم من مستشارين من خارج المدينة المنورة ممن تتوافر لديهم الخبرة والمهارة ولكن بالاشتراك مع المخططين المحليين الذين يكونون على دراية أكبر بالسمات الخاصة للمجتمع. وقد أثبت التجارب أن تكلفة استخدام المستشارين من خارج المنطقة على مدى فترة محدودة غالباً ما يعوضه استخدام الخبرات المحلية على مدى أطول في مجالات البحث وتنفيذ المخططات (٢٧).

٧ - إيجاد وسيلة في الحدائق الكبيرة الحجم التي تخدم سكان مختلف قطاعات المدينة المنورة مثل حديقة التخييل بحيث تمنح المضاميق مختلف مجموعات المستخدمين مثل العزّاب والعوائل. وقد تكون هذه الوسيلة باستخدام حاجز من مظهر طبيعي للأرض أو حاجز اصطناعي جذاب (صورة ٣) أما الوضع الحالي ففيه من الاختلاط والمضاميق مما يتنافى مع التقاليد والأعراف السائدة والأهم من هذا وذلك مع الشريعة الإسلامية. وقد ثبت نجاح استخدام هذه الفواصل في مدن أخرى من المملكة.

٨ - الاهتمام بصيانة الحدائق العامة ووضع ذلك في الحسبان عند إنشاء الحدائق العامة لأن تكاليف الإنشاء تشكل جزءاً بسيطاً من التكاليف إذا ما اعتبرنا تكاليف الصيانة. ويجب أن تكون الحدائق المنبسطة والمتضررة مهتة لاستخدام الآلات الميكانيكية في الصيانة مما يقلل من التكاليف. كما يجب أن تخضع عمليات الصيانة لجدول زمني مقنن لإنجاز مختلف عمليات الرش والبذر والتسميد والتقليم والرش والعناية بشبكة المياه وبالممرات والحواجز والإضاءة والعلامات الإرشادية.

٩ - العناية بإنشاء مواقف لسيارات رواد الحدائق العامة لما يلاحظ بالنسبة للحدائق الموجودة حالياً في داخل المدينة المنورة هو إما عدم وجود المواقف أو صغرهما مما لا يشجع السكان على ارتيادها.

١٠ - بث الوعي بين المستخدمين وأطفالهم بأهمية الحفاظ على الحق العام وضرر العبث وإفساد أجزاء الحدائق العامة على المستخدمين الآخرين. ويمكن القيام بذلك بدعوة أرباب الأسر إلى حفل

عام في الأحياء التي تفتح فيها الحدائق العامة.

- ١١- النظر إلى عملية إنشاء الحدائق العامة كجزء مهم ضمن خطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية الشاملة. وبالتالي يمكن أن تطعم الحدائق العامة بخدمات وتسهيلات مكملّة للممارسة بعض النشاطات الترويحية والثقافية وخاصة في الحدائق المتوسطة والكبيرة الحجم. ويهدف هذا المركب من ممارسة النشاطات في الحدائق العامة إلى جعل الترفيه ليس تضييعاً للوقت وإنما هو وقت له قيمته في الرقي بسلوك ومفاهيم وحيوات الفرد والجماعة. ومن أمثلة هذه النشاطات إيجاد مكان مكشوف للممارسة بعض الألعاب الشعبية أو إيجاد طريق دائري حول الحديقة لركوب الدراجات العادية التي ندر استخدامها في الوقت الحاضر مع أنها تعتبر وسيلة رياضية مفيدة لجسم الإنسان.
-



حديقة في المدينة المنورة

المراجع

- ١ - أوزيل، روبر، ١٩٧٤م، فن تخطيط المدن، بيروت، ص ١٠٩ (ترجمة بهيج شيخ).
- ٢ - Perry, N., 1976, «Social Theory and Urban Leisure», in Royal Town Planning Institute, The Urban Crisis: Leisure in the Urban Environments, London, P. 5.
- ٣ - Kraus, R., 1972, Recreation and Leisure in Modern Society, Appleton-Century, N.Y., P. 298.
- ٤ - Makki, M.S., 1982, Medina, Saudi Arabia: A geographical Analysis of the City and Region, Avebury, London, P. 138.
- ٥ - فارسي زكي بن محمد علي، ١٤٠٦هـ، خريطة المدينة المنورة، أمانة المدينة المنورة، المدينة المنورة.

- ٦ - مكي، محمد شوقي بن إبراهيم، ١٤٠٥هـ، أطلس المدينة المتورة، لجنة الأطلس الوطني، قسم الجغرافيا، جامعة الملك سعود، الرياض، ص ٢٨.
- ٧ -
- ٨ - فارسي، زكي بن محمد علي، مرجع سابق؛ بيانات غير منشورة لدى الإدارة العامة للخدمات والتشجير بأمانة المدينة المتورة.
- ٩ - القطب، إسحق بن يعقوب، ١٩٧٤م، «مفهوم الترويح ونظرياته في المجتمعات الحضرية المعاصرة»، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، مجلد ٨، ص ٢٧٥.
- ١٠ - Pieper, J., 1952, *Leisure, The Basis of Culture*, Panthom Books Inc., N.Y., PP. 79-85.
- ١١ - Wilensky, H.L., 1964, «Mass Society and Mass Culture: Interdependence or Independence?» *Amer. Soc.*, Vol. 22 (4), pp. 173-197.
- ١٢ - Mandelker, D., 1962, *Green and Urban Growth*, Univ. of Wisconsin Press, Wisconsin.
- ١٣ - عبدالحكيم، محمد بن صبيح، ١٩٥٨م، مدينة الإسكندرية، مكتبة مصر، القاهرة.
- ١٤ - المعهد العربي لإنماء المدن، دون تاريخ، التشجير وتجميل المدن، الرياض.
- ١٥ - الشريف، عبدالرحمن، ومحمد، السيد البشري، ١٩٨٠م، «الترفيه في المدن السعودية»، المؤتمر السادس لمنظمة المدن العربية - الدوحة - ١ - ٤ مارس ١٩٨٠م، منظمة المدن العربية، الكويت.
- ١٦ - عبدالله، كامل، ١٩٨٠م، «الخدمات الترويحية في مدينة جدة»، المؤتمر السادس لمنظمة المدن العربية - الدوحة - ١ - ٤ مارس ١٩٨٠م، منظمة المدن العربية، الكويت.
- ١٧ - أبو عياش، عبدالإله، ١٤٠٣هـ، والتخطيط للخدمات الترفيهية في المدن، في أبو عياش، عبدالله بن يوسف، التخطيط والتنمية في المتطور الجغرافي: دراسة مختارة، وكالة المطبوعات، الكويت، ص ٤٢٤.
- ١٨ - الملوي، مصطفى بن محمد بن عبدالله، ١٤٠٤هـ، إتحاف المؤمنين بتاريخ مسجد خاتم المرسلين، المكتبة العلمية، المدينة المتورة، ص ٩٤.
- ١٩ - Gray, D., 1974, «This Alien Called Leisure», in Murphy, J., (ed.), *Concepts of Leisure*, Englewood Cliffs: N.J., P.3.
- ٢٠ - مكاي، محمد بن حسين، ١٩٣٨م، التقدم العمراني لمدينة القاهرة والمدن المصرية الأخرى، القاهرة، ص ١٦.
- ٢١ - عبدالحكيم، محمد بن صبيح، مرجع سابق، ص ٣٢٠.
- ٢٢ - أبو عياش، عبدالإله، مرجع سابق، ص ٤٢٤.
- ٢٣ - أوزيل، روبر، مرجع سابق، ص ١١١.
- ٢٤ - دار الوطن للنشر والإعلام، ١٤٠٦هـ، دليلك إلى المملكة: المدينة المتورة دار الوطن للنشر والإعلام، الرياض، ص ٣٩.
- ٢٥ - Hammond, R., & McCullagh, P., 1978, *Quantitative Techniques in Geography: An Introduction*, 2nd ed., Clarendon Press, Oxford, P. 271.
- ٢٦ - Makki, M.S., Op. Cit., P. 177.
- ٢٧ - Matthes, L.R., «Evaluating and Implementing Recreation Planning in the Small Community», in Wolensky, R.P., & Miller, E.G., (eds.), *Proceeding of the First Conference on the Small City and Regional Community*, March 30-31, Vol. 1, Univ. of Wisconsin, Stevens Point
- ٢٨ - مكي، محمد شوقي بن إبراهيم، ١٤٠٥هـ، سكان المدينة المتورة، دار العلوم، الرياض.



إلى كتّاب الدارة الكرام !!

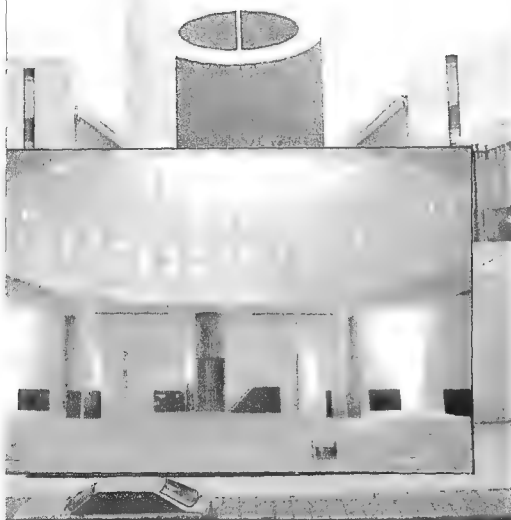
نرجو مجلة الدارة من كتابها الكرام أن يعطوا إليها بحوثهم وموضوعاتهم ومقالاتهم
وقصائلهم باسم رئيس التحرير ص.ب/ ٢٩٤٥ الرياض ١١٤٦١
المملكة العربية السعودية.

■ أن تكون مطبوعة على الآلة الكاتبة حتى تخرج سليمة من الأخطاء.
● أن تزود المجلة بالصور والخرائط الأصلية أو الشرائح الملونة، - إذا احتاج
البحث ذلك - حتى تخرج البحوث والموضوعات بصورة جيدة ترضي القراء.
● ألا تزيد صفحات البحث الواحد عن ثلاثين صفحة لتنوع ونشر أكبر عدد
ممكّن من البحوث والموضوعات.

■ أن تزود المجلة بصورتين شمسيّتين وبيانات عن حياة الكاتب العلمية. وذلك
مرة واحدة إذا كان الكاتب دائم الكتابة بالمجلة.
● ألا تبعثوا بنسخة أخرى من البحث إلى مجلة أو جريدة أخرى.
■ أن يكون عنوان وهاتف الكاتب واضحاً ومفضلاً للاتصال به عند اللزوم.

بيوت
الملك

علوم
وفنون



١٠ مسهّدان من الخارج والداخل لمسجد القريّة بتصميمه المتميز □

سلطان، أمين، جاهدين

- حفل توزيع جائزة الملك فيصل العالمية لعام ١٤٠٨ هـ ص ٢١٠
- شخصيات تاريخية : الملك محمد الخامس ص ٢١٢
- تاريخ في صور « زيارة المستشار النمساوي للدارة » ص ٢٢٠
- مكتب حديثة ص ٢٢٢
- أحداث تاريخية ص ٢٢٤



نيابة عن خادم الحرمين الشريفين ، حفظه الله ،
 رعى صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبد العزيز
 حفل توزيع جائزة الملك فيصل العالمية
 لتسعة من كبار العلماء في أنحاء العالم



من اليمين أصحاب السمو الملكي الامراء عبد الله الفيصل ونايف بن عبد العزيز ، وخالد الفيصل
 مساء الثلاثاء ٤ شعبان ١٤٠٨ هـ، الموافق ٢٢ مارس ١٩٨٨ م، نيابة عن خادم الحرمين
 الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز «أيده الله وحفظه»، رعى صاحب السمو الملكي
 الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية، الحفل السنوي العاشر لتوزيع جائزة الملك فيصل العالمية
 لتسعة من كبار العلماء في أنحاء العالم وهم:





• أحد الفائزين يتسلم الجائزة •



• الأستاذ محمد قطب أثناء تسلمه الجائزة •



• د. عبد الله المشيخي أمين عام الجائزة يلقى كلمة •

- الأستاذ محمد قطب إبراهيم حسين شاذلي.
- د. مقداد بالجن محمد علي.
- «فازا بجائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية».
- د. محمود يوسف علي مكي.
- د. محمد بن شريفة.
- «فازا بجائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي».
- د. جانت ديفسن راولي.
- د. ملفن فرانسيس قريفي.
- «فازا بجائزة الملك فيصل العالمية للطب».
- د. ريكاردو ميليدي.
- د. يير شامبون.
- «فازا بجائزة الملك فيصل العالمية للعلوم».



صاحب الجلالة الملك محمد الخامس

"طيب الله ثراه"

ينتمي صاحب الجلالة الملك محمد الخامس إلى أسرة شريفة نزحت من مدينة بنيع النخل (بالمنطقة الغربية في المملكة العربية السعودية) إلى المغرب سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م)، واستقرت في مدينة سجلماسة بإقليم الرشيدية (تفيلات سابقا) ولما ملكت هذه الأسرة المغرب سنة ١٠٦٠ هـ (١٦٥٠ م) عرفت بالأسرة العلوية نسبة إلى علي الشريف أحد جدودها المشهود له بالفضل والبركة.

وكانت ولادة جلالاته يوم الجمعة ٢٣ رجب عام ١٣٢٧ هـ (١٠ أغسطس سنة ١٩٠٦ م) بالقصر الملكي بفاس التي كانت عاصمة للمغرب يومئذ، وكان والده الأمير يوسف خليفة للسلطان بها، فلما بويع والده سلطاناً عام ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) وانتقل إلى الرباط التي صارت منذ ذلك العام عاصمة للمغرب انتقل معه إلى سكنائها، فتلقى بها العلوم الدينية واللغوية على يد فقهاء وأساتذة كان أكثرهم يعمل بالقصر الملكي، كما تلقى مبادئ اللغة الفرنسية وعدداً من العلوم المعاصرة على يد أساتذة تنفصوا ثقافة عصرية، وكان اتصاله بالحضارة المعاصرة سنة ١٩٢٥ عندما رافق والده في الزيارة الرسمية التي قام بها إلى باريس.

ولما بويع والده السلطان يوسف بفاس يوم الخميس ٢٤ جمادى الأولى عام ١٣٤٥ هـ (١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٧ م) بويع الأمير محمد بها يوم الجمعة الموالي، وجاءته بيعات المدن والقبائل من الأقاليم الدانية والفاصية في الأيام القليلة التالية، وقد اختاره رجال الحزن وعلماء الأمة وأعيانها لمنصب الملك الرفيع من بين إخوته لما كان يمتاز به على صغر سنه من الذكاء والحوية ويتسم به من الجدية وحسن الخلق، فانتقل إثر مبايعته من القصر الملكي بفاس إلى القصر الملكي بالرباط، وكان من التصرّحات الواعدة التي صدرت عنه في الأسبوع الأول لملكه قوله:

"إن الشعب المغربي ينتظر منا مجهوداً مستمراً لا من أجل تنمية سعادته المادية وحدها، ولكن

لنكحل له أيضاً الانتفاع من تطور فكري يكون متلائماً مع احترام عقيدته، ويستمد منه الوسائل التي تجعله يرقى درجة عليا في الحضارة بأكثر ما يمكن من السرعة.

وكانت هذه التصريحات والأقوال مصحوبة بالمنجزات والأعمال، فقد 'فكر' جلالة في الحالة المزرية التي كان يعيشها شعبه في ظل نظام الوصاية الأجنبية، فرأى أن لا مخلص منها إلا بنشر التعليم بين المغاربة، ذكوراً وإناثاً وحثهم على تجديد الفلاحة، وتطوير الصناعة، وتنمية الشعور الوطني في نفوسهم، وكذلك شجع تأسيس المدارس الحرة وأهاب بالشبان لمواصلة تعلمهم بالكليات والمعاهد العليا، وطوّر التعليم بالكليات الدينية، وحارب شيوخ الطرق الصوفية الذين كانوا يتعاونون مع النظام الاستعماري، وقد رزق الله جلالة في السنين الأولى من ملكه بابن سيشتدّ به عضده في درب النضال الطويل هو الأمير الحسن الذي ولد يوم الثلاثاء ١ صفر عام ١٣٤٨ هـ (٩ يوليو ١٩٢٩ م).



• الملك محمد الخامس يستعرض الجيش في يوم الجيش •

ولما نظّم الأحرارُ الغيورون من الشبان والكهول المغاربة صفوفهم في كتلة العمل الوطني وضعوا أيديهم في يد جلالته وصاروا يعملون جميعاً في انسجام لإخراج المغرب من الحالة البئسة التي فرضها عليه الاستعمار إلى حالة ينعم فيها أهله بالحرية والديمقراطية وتكون فيها ثرواتهم وإمكاناتهم الاقتصادية بين أيديهم، وكان تقديم (مطالب الشعب المغربي) إلى جلالته من طرف كتلة العمل الوطني سنة ١٩٣٣م واحتجاجه على محاولة دمج المغرب في لجنة فرنسا ما وراء البحار سنة ١٩٣٤م من المواقف العلنية الأولى التي وقفها ضد المشاريع الاستعمارية.

وحاول الاستعماريون أن يغفوه بملذات الشباب وشهوات الصبالبما بدرت منه هذه البوادر، ولكن كان له من شرف النسب، واستقامة الخلق، وحمية الشباب وشدة الطموح ما جعله يعرض عن كل الملذات والشهوات المقترحة عليه والمعروضة، وبقي دائماً يعالج الأمور بحكمة ويعمل على حماية مصالح شعبه قدر المستطاع، وعلى مآلتي الشعب المغربي منهم من أذى ومكروه، لا سيما الوطنيين الأحرار الذين اقتيد الكثير منهم إلى المنافي والسجون منذ سنة ١٩٣٧م فإنه رحمه الله وقف موقفاً نبيلاً عندما اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية في شهر سبتمبر ١٩٣٩م فأعلن انضمام المغرب إلى دول الحلفاء، وساعد بإرسال الفرق العسكرية المغربية إلى ميادين القتال في أوروبا على قهر النازية والفاشية، وكان القصد من ذلك أن ينال المغرب حظه من النصر، فيعترف له الحلفاء وفي طليعهم فرنسا التي ذاقت مرارة الاحتلال، بحقه في استعادة سيادته الكاملة.



• الملك محمد الخامس ، والملك الحسن الثاني مع الاميرة للا أمينة •



• الملك محمد الخامس في زيارة لأحد المستشفيات •

وخلال سنوات الحرب لم تسنح لجلالة الملك محمد الخامس فرصة دون أن يختنمها للتذكير بحقوق وطنه وطموح شعبه إلى التخلص من الوصاية الأجنبية وعودته إلى الحياة الطبيعية التي عاشها طيلة قرون، ذكرّ بذلك خلال اجتماعه بروزفلت وتشرشل مساء يوم الجمعة ٢٢ يناير ١٩٤٣م بالدار البيضاء، وفي أثناء تقديم عريضة الاستقلال إليه يوم ١١ يناير سنة ١٩٤٤م وخلال اجتماعه في باريس بالجنرال ديغول في شهر يونيو ١٩٤٥م وحينما زار طنجة وألقى بها خطابه التاريخي يوم الخميس ١٨ جمادى الأولى عام ١٣٦٦هـ (١٠ أبريل سنة ١٩٤٧م).

وإزاء المواقف المتصلبة لجلالة الملك محمد الخامس التي أخذت تعظم وتزداد شيئا فشيئا، وتحت ضغط المستوطنين الفرنسيين الذين كان لهم تأثير كبير على الحكومة والبرلمان بباريس قررت الحكومة الفرنسية يوم الأربعاء ١٤ مايو ١٩٤٧م تعيين الجنرال الفونس جوان مندوباً سامياً لفرنسا بالمغرب، فاهتزّت الأوساط الاستعمارية فرحاً لهذا التعيين، لاشتهار هذا الجنرال بأعماله القمعية وللأفكار الغريبة التي كان يحاهر بها حيال بلدان الحامية والمستعمرات، كفكرة السيادة المشتركة، فجاء هذا الجنرال إلى المغرب، ولكنه وجد من صلابة محمد الخامس، واستمسك به بحقوق شعبه، والتفاف شعبه حوله، ما جعل كل المشاريع التي جاء لتطبيقها تفشل، وكانت مقاومة محمد الخامس واعتراضه يتجلى على الخصوص في رفض المصادقة على مشاريع الظواهر التي ترسل إليه للمصادقة عليها، وطبعها، ويرى فيها

مساساً بحقوق شعبه، حتى كادت حركة التشريع والتقنين تتوقف في المغرب، وحينئذ بدأ الجزال جوان-الذي صار مرشالاً فيما بعد-يفكر في سلوك طريق آخر لإرغامه على المصادقة على مشاريعه وتشريعاته، وهو طريق التهديد بخلعه ونفيه، وقد سبق له أن سلك هذا الطريق بتونس عندما نفي ملكها الشرعي (المنصف باي) لِمَا استردها الحلفاء من أيدي الألمان والإيطاليين بدعوى أن الباي كان يتعاون معهم، وبالفعل شرع الجزال جوان في تنفيذ خطته بالتعاون مع بعض شيوخ الطرق الصوفية والقواد الإقطاعيين الكبار، فكانت الأزمة الكبرى الأولى يوم ٢٥ فبراير ١٩٥١م ثم توبع مسلسل التهديد بالخلع بعدما نقل الجزال جوان من المغرب في شهر سبتمبر ١٩٥١م وخلفه تلميذه الجزال كيوم على رأس المندوبية السامية الفرنسية في الشهر التالي، وهو أيضاً من ضباط الأمور الأهلية الذين شاركوا في عمليات الفتح والقمع في المغرب، فسار هذا الجزال على نهج سلفه في التضييق على الملك والبطش بأحرار شعبه، وواصل محمد الخامس سياسة المقاومة والمعارضة للمشاريع الاستعمارية، تلك المعارضة التي كانت تحظى بالموافقة والتشجيع من معظم طبقات الأمة، إلى أن انتهى الأمر يوم ٢٠ أغسطس ١٩٥٣م بإزالة بالقوة عن عرشه ونفيه وولي عهده الأمير الحسن وسائر أهل بيته إلى جزيرة كورسيكا ثم إلى جزيرة مدغشقر.

وتنفس الاستعماريون الصعداء ظانين أنه بنفي محمد الخامس يذل شعبه ويخنق ويقتل بالأمر الواقع، ولكن ظنونهم ما لبثت أن منيت بخيبة ومرارة، لأن الشعب المغربي انطلق كاللارد - بعد فترة الذهول الأولى - إلى مخاطبة الاستعماريين باللغة التي لا تصغي آذانهم لغيرها، لغة الحديد والنار والتخريب والتدمير فشوها مقاومة مسلحة وحرباً مخزبة على المستعمرين، دفاعاً عن شرف ملكهم وكرامة وطنهم، على الرغم من ضعف وسائلهم وقوة وسائل عدوهم، فكانت ثورة الملك والشعب حقاً وصدقاً، وطالت هذه الثورة طيلة مقام الملك في المنفى الذي استمر ٢٧ شهراً رغم ما بذله الحكم الاستعماري من مجهود لإخماد تلك الثورة، ولكن جميع جهوده باءت بالفشل، فبدأ بالتفكير في إيجاد مخرج من الورطة وحل للأزمة، وشرعت الحكومة الفرنسية في باريس بإرسال الرسل إلى محمد الخامس تعرض عليه في مناه بعض الحلول التي لا ترضيه ولا تحقق مطامحه ومطالب شعبه، فكان يُصر على أن الحل الوحيد هو الاعتراف للمغرب ببحريته الكاملة وسيادته التامة، وكان له ما أراد، فانتقل إلى فرنسا في صباح يوم الاثنين ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٥م (١٤ ربيع الأول عام ١٣٧٥هـ) ثم عاد إلى المغرب يوم الأربعاء ١٦ نوفمبر (١ ربيع الآخر) وتبوأ عرشه من جديد وعرشاً آخر لم يفرغ بغيابه، هو قلوب جميع المغاربة.

وكان على جلالاته أن يبدأ بناء وطنه وشعبه من الصفر، حيث كانت الإدارة والاقتصاد والجيش

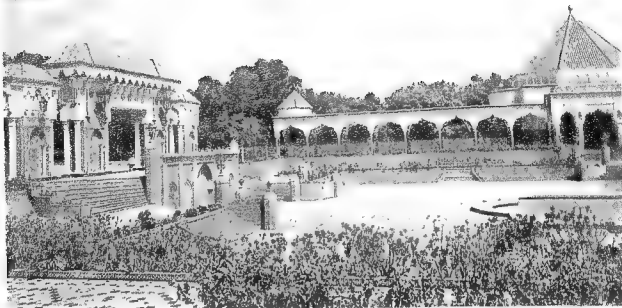
والأمن وسائر مرافق الدولة الحيوية بيد موظفين أجنب، لذلك لم يخف عن أمته المصاعب التي ستواجهه وتواجهها خلال السنين التالية، وكثيراً ما كان يردد بعد رجوعه من المنفى قول المصطفى ﷺ عندما رجع إلى المدينة من إحدى غزواته: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر! وعلى ذلك شرع بما أوتي من حكمة وحكمة في وضع أسس المغرب الجديد وإقامة أركانه، فأنشأ حكومة وطنية يوم الأربعاء ٢٢ ربيع الآخر عام ١٣٧٥هـ (٧ ديسمبر ١٩٥٥م) وعين ولاية الأقاليم الذين استلموا السلطة من رؤساء النواحي والمراقبين والضباط الأجانب، واتخذ سلسلة من التدابير التي أعادت الطمأنينة إلى النفوس كسريح آلاف من المسجونين والمبعدين السياسيين، ثم سافر بصحبة ولي عهده الأمير الحسن وعدد من وزرائه إلى باريس صباح الاثنين ١ رجب ١٣٧٥هـ (١٣ فبراير ١٩٥٦م) لوضع اللامسات الأخيرة على معاهدة مغربية فرنسية جديدة تحل محل معاهدة فاس المضادة سنة ١٩١٢م فوقت يوم الجمعة ٢ مارس المعاهدة التي اعترفت فيها فرنسا للمغرب بسيادته الكاملة، ثم سافر إلى مدريد حيث صدر تصريح مشترك يوم ٧ أبريل تعترف فيه إسبانيا بمثل ما اعترفت به فرنسا، وتمهد بذلك الطريق لإلغاء نظام الإدارة الدولية الذي كانت تخضع له مدينة طنجة والمنطقة المحيطة بها.

وإذ ذاك شرع جلالاته يمحوا ما بقي من مظاهر عهد الوصاية الأجنبية، فأنشأ جيشاً وطنياً يوم ١٤ مايو أسند رئاسة أركانه لصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير الحسن، كما أنشأ الأمن الوطني والدرك الملكي ووزارة للخارجية، وشرع ينشئ المرافق الأخرى التي كانت الدولة في حاجة إليها أو يحددها وينظمها على أسس جديدة تضمني عليها الطابع المغربي الكامل، كتنظيم القضاء، وتحديد التشريع وإنشاء مجلس استشاري، وإحداث جامعة عصرية، وتحرير الاقتصاد، واسترجاع منطقة طرفاية، وإثارة مشاكل الحدود والمناطق السلية ووضع حداً لوجود القوات والقواعد الأجنبية في المغرب، وتوطيد الصلات بالعديد من الدول الشقيقة والصديقة وعقد مؤتمر للدول الأفريقية المستقلة، ووضع أول ميثاق إفريقي بالدار البيضاء، وتنظيم ولاية العهد وإسنادها في حفل وطني بهيج إلى صاحب السمو الملكي الأمير الحسن.

وما زال جلالاته يواصل المساعي ويصرف الجهود لخير وطنه وشعبه حتى توفاه الله عشية يوم الأحد ١٠ رمضان عام ١٣٨٠هـ (٢٦ فبراير سنة ١٩٦١م) إثر عملية جراحية صغيرة أجريت له بمصحة القصر الملكي بالرباط. فحزن الناس لوفاته حزناً كبيراً واتبعوه دعوات طيبة وثناة عطراً على ما كافح وجاهد وأسدى من الأيادي البيضاء حتى أخرجهما من نظام الحجر والحماية إلى الحرية والكرامة، وتسلم ولي عهده الملك الحسن الثاني مقاليد الحكم من بعده فقاد شعبه بالوفاء والإخلاص، إلى المستقبل الزاهر...

- المساحة: ٧١٠٨٥٠ كم^٢.
- في الشمال، سلسلة جبال الريف على طول البحر الأبيض المتوسط.
- في الوسط، سلسلتا الأطلس الكبير والأطلس المتوسط (أعلى قمة: ٤١٦٥ مترًا).
- في الجنوب، سلسلة الأطلس الصغير والصحراء الغربية.
- في الغرب، سهل شاسع.
- في الشرق والجنوب الشرقي، سهول مرتفعة قاحلة.
- الطقس: شبه استوائي، حار في الصيف ومعتدل في الشتاء.
- السكان: ٢٠٤١٩٥٠٠ (إحصاء ١٩٨٢ م).
- أهم المدن (إحصاء ١٩٨٢ م): الرباط - سلا (٨٠٣,٠٠٠ نسمة)، الدار البيضاء (٢,١٥٠,٠٠٠ نسمة)، فاس (٤٤٩,٠٠٠ نسمة)، مراكش (٤٤٠,٠٠٠ نسمة)، مكناس (٣٢٠,٠٠٠ نسمة)، طنجة (٢٦٦,٠٠٠ نسمة)، أغادير (١١٠,٠٠٠ نسمة).
- نسبة الزيادة السنوية في السكان: ٢,٦٪ - ٥٧٪ يعيشون في البادية والقرى - ٤٣٪ يعيشون في المدن - ٥٢,٥٪ عمرهم أقل من عشرين سنة.
- اللغة الرسمية هي العربية: اللغات الأخرى المستعملة: الفرنسية، الأسبانية والإنجليزية.
- الديانات: الإسلام هو الديانة الرسمية - ١٪ من اليهود و ١٪ من المسيحيين.
- العملة: الدرهم (دولار أمريكي = ٨,٢٨ درهم).
- (فرنك فرنسي = ١,٤٠ درهم) بتاريخ ١٩٨٧/١١/٤ م.
- المسافات بين الرباط وأهم المدن (كلم):

الداخلة	١,٨٠٢	الكورة	٢,٢٢٧
أغادير	٦١٤	مراكش	٣٣٤
الدار البيضاء	٨٦	مكناس	١٣٨
الجديدة	١٩٢	وجدة	٥٤٢
الصويرة	٤٤٤	آسفي	٣٤٩
فاس	١٩٨	السمارة	١,٤٩٨
العيون	١,٢٦٣	طنجة	٢٨١



الطاقم الاجتماعي والاقتصادي

التعليم : عدد التلاميذ والطلبة الابتدائي : (٢,٢٧٩,٠٠٠) - الثانوي : (١,١١٩,٦٨٨) - العالي : (١١٩,٩٢٠).

الصحة : ٢,٥٠٠ طبيباً أي طبيب واحد لكل ٨,٦٠٠ من السكان، ٢٤,٩٠٠ سريراً بالمستشفيات.
الطرق : ٥٧,٥٩٢ كلم منها ٢٦,٣٤٥ كلم معبدة.

القطار : محور طنجة - مراكش مروراً بالرباط والدار البيضاء،

محور الدار البيضاء - وجدة مروراً بالرباط وفاس ومكناس.

النقل الجوي : • المطارات الدولية : الدار البيضاء، الرباط - سلا، طنجة - أغادير - مراكش - فاس - وجدة - الحسيمة - ورزازات.

• الشركة الوطنية : الخطوط الملكية المغربية.

النقل البحري : • الموانئ الدولية : الدار البيضاء، المحمدية، طنجة، آسني وأغادير - ميناء الجرف الأصفر، وهو من أكبر الموانئ الإفريقية، مخصص لتصدير الفوسفات.

الإعلام : عشرات الصحف والمجلات بالعربية والفرنسية.

الإذاعة : عدة محطات تبث بالعربية والبربرية والفرنسية والأسبانية والإنجليزية.

التلفاز : قناة واحدة تبث برامج عربية وفرنسية وقناة أخرى تحت الدراسة.

المرجع : مكتب مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للعلوم الإنسانية بالدار البيضاء - المغرب.





زيارة الشيخ النجدي

د. فرائس فراتجي النجدي

١٩٨٨/٤/٢٩ = ١٩٨٨/٨/١٩

كتب حديثة



حبات رمل «الجموعة الثانية»
عبد الرحمن إبراهيم الحقييل
٩٥ صفحة.



درجات التفسير للكتاب
السعودي نحو عمل المرأة في المجتمع.
د. محمد يومي علي حسن
٩٠ صفحة - الطبعة الأولى.
الناشر: مركز النشر العلمي -
جامعة الملك عبد العزيز بجدة.



عقربيات شامية.
عبد الغني العطري.
٢٠٧ صفحة - الطبعة الأولى.



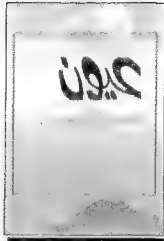
كثر الأنساب وجمع الآداب
محمد بن إبراهيم بن عبد الله
الحقييل.
٥٩٤ صفحة - الطبعة الحادية
عشر ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.



نحو دراسات وأبعاد لغوية
جديدة.
د. يحيى جبر
٢٤٥ صفحة.
سلسلة أسفار عربية (٦).



في افان التراث الوطني في
المملكة العربية السعودية.
د. سليمان بن عبد الرحمن
الحقييل.
٢١٥ صفحة.
الناشر: دار عالم الكتب للنشر
والتوزيع بالرياض.



عيون تمشق السهر شعر،
أحمد سام باعطب .
٢٢٥ صفحة .



أيام في تونس .
عبدالله بن سعد الرويشد .
٤٠٥ صفحة .
الناشر: رابطة الأدب الحديث
بالقاهرة .



قراءات في الاقتصاد
الإسلامي .
إعداد مركز أبحاث الاقتصاد
الإسلامي كلية الاقتصاد
٤٤٥ صفحة .
الناشر: مركز النشر العلمي -
حلة



تصريف مياه الأمطار
بالعاصمة المقدسة .
زهير محمد جميل كتي .
٤٠ صفحة - مطبوعات أمانة
العاصمة المقدسة .



مجموع فتاوي ومقالات متنوعة
«الجزء الأول» وقف لله تعالى
الشيخ عبد العزيز بن عبدالله
ابن عبد الرحمن بن باز .
٤٥٤ صفحة - الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .



دليل قسم الجغرافيا .
«جامعة أم القرى - كلية العلوم
الاجتماعية» .
١٢٦ صفحة - ١٤٠٨ هـ -
١٩٨٨ م .

ندوة المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي

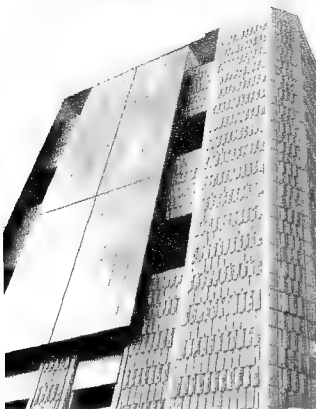


• من يوم الخميس ٢١/٨/١٤٠٨هـ - ٧/٤/١٩٨٨م إلى يوم السبت ٢٣/٨/١٤٠٨هـ -
٩/٤/١٩٨٨م، تفضل معالي الأستاذ محمد بن عيسى وزير الشؤون الثقافية المغربي، بافتتاح ندوة
«وضعية المخطوطات العربية في الغرب العربي الإسلامي، وكيفية التعامل معها» التي نظمتها مؤسسة
الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء - المملكة المغربية.
هذا وقد دارت هذه الندوة حول:

- ١ - تقارير عن وضعية مخطوطات الغرب العربي الإسلامي بأهم الخزانات داخل المغرب العربي وخارجه.
- ٢ - عروض حول مشكلات توثيق وفهرسة وتنظيم وتصوير ونشر وصيانة المخطوطات العربية.
- ٣ - محاضرات حول إشكاليات تحقيق ودراسة التراث المخطوط للغرب العربي الإسلامي من النواحي النظرية والمنهجية.

هذا وقد شارك في هذه الندوة نخبة من الباحثين المتخصصين من جميع الدول العربية والغربية.

•••



مستشفى الملك فيصل التخصصي ومركز الأبحاث

• مساء الأحد ٢١ من شهر شوال ١٤٠٨هـ - ٥ يونيو ١٩٨٨م، تفضل صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير منطقة الرياض، بافتتاح المؤتمر الدولي عن: «أثر الأمراض الفيروسية على الرعاية الصحية في المملكة العربية السعودية ومنطقة الشرق الأوسط»، وذلك بقاعة الأمير/ سلمان ابن عبد العزيز للمؤتمرات بمركز الأبحاث في مستشفى الملك فيصل التخصصي.

وقد بدأ الحفل بآي من الذكر الحكيم، ثم ألقى صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز، كلمة قال فيها:

«يسرني أن يوافق افتتاح هذا المؤتمر البدء في تشغيل خمسة مشروعات هامة بمستشفى الملك فيصل التخصصي.

«في غضون سنوات قليلة استطاعت المملكة أن تحقق إنجازات هامة في المجالات المختلفة.

«إنني أشكر الإخوة من العلماء الذين حضروا هذا المؤتمر من جميع أنحاء العالم، آملاً لهم إقامة طيبة في بلدنا، وأن يكون مؤتمرهم هذا له انعكاسات إيجابية على الحركة العلمية بشكل عام، والأمراض الفيروسية بشكل خاص.



بعد ذلك ألقى الدكتور فهد العبد الجبار المشرف العام على مستشفى الملك فيصل التخصصي ومركز الأبحاث الطبية، ورئيس المجلس المشترك للدراسات الطبية العليا، كلمته.

بعد ذلك ألقى كلمته الأستاذ إدوارد كيرستاك مدير المنظمة الدولية لعلوم الفيروسات، وقد اختتم الحفل بكلمة معالي الدكتور حسين الجزائري المدير الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية.

بعد ذلك قام سمو الأمير سلمان، بالفتاح عدد من المشاريع، حيث قام بقص شريط مشروع المبنى الإداري، ومشروع عيادة الموظفين، ومشروع وحدتي العناية المركزة للأطفال والمواليد الجدد، ومشروع سكن الموظفين، وقسم الأشعة مع الجهاز الجديد للتصوير بالرنين المغناطيسي.

هذا وقد استمر المؤتمر حتى يوم الخميس ٢٥ من شهر شوال ١٤٣٠ هـ - ١٩٨٨/٦/٩ م، ألقى خلاله (٨٥) خمسة وعشرون بحثاً طبياً جديداً لكبار الباحثين من الأطباء العالميين.

وفي ختام المؤتمر، صدرت عدة قرارات وتوصيات طبية هامة.

■ ■ ■

الندوة القومية لكتابة التاريخ في بغداد

عقدت في بغداد الندوة القومية لكتابة التاريخ تحت شعار «نحو مدرسة عربية لفهم التاريخ وكتابته وذلك في الفترة من ٧ - ١٤٠٨/٥/٩هـ.

وقد تدارست الندوة على مدى ثلاثة أيام وعبرست جلسات جوانب كتابة التاريخ العربي في إطار المحاور الرئيسية التالية:

١ - الأسباب الداعية لإعادة كتابة التاريخ العربي.

٢ - مناهج كتابة التراث العربي.

٣ - تيارات كتابة التاريخ الدائمة وإنجازاتها.

٤ - الرؤية القومية الحضارية للتاريخ العربي وقد شاركت الدارة في فعاليات هذه الندوة ومثلها الأستاذ عبدالله محمد البابطين مدير عام الشؤون الفنية بالدارة وقدم بحثاً بعنوان .. دراسة في منهج كتابة التاريخ العربي..

وفي الجلسة الختامية للندوة أقر المتدنون التوصيات التالية:

أولاً: الانطلاق عند دراسة تاريخ الأمة العربية من معطيات الحاضر من أجل فهم ودراسة التطورات التي حصلت في الماضي..

ثانياً: تبني المنهج القومي الحضاري في دراسة تاريخ الأمة العربية ودراسة الحياة الاجتماعية، وظهور الدول وسقوطها في إطار المعطيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الشاملة للحياة العربية.

ثالثاً: العمل على اعتماد التقسيم الزمني الحضاري للتاريخ العربي بما يضمن تكامل حقه وتواصله الحضاري ويؤمن التطور الصاعد في التاريخ ويغطي أفاقاً «الوطن العربي» واعتماد توحيد مصطلحاته.

رابعاً: الإفادة من فكرة الوحدة والتنوع في دراسة حضارات الوطن العربي القديمة ومدى تفاعلها مع الحضارة العربية الإسلامية من أجل كشف التواصل والعطاء الحضاري لأبناء الأمة العربية.

خامساً: الاهتمام بتطور الفكر التاريخي العربي بما يمكن من الوعي بتاريخ التآريخ وإدخاله مادة

دراسة في أقسام التاريخ في الجامعات العربية.

سادساً: إعطاء أهمية خاصة للتحديات التي تواجهها الأمة العربية وفي مقدمتها التحدي الصهيوني والتحدي الشرقي أفقاري والتوجه لدراساتها وكشف طبيعتها العدوانية وجذورها وأسبابها وممارساتها التخريبية المختلفة. ومخاطرها على الإسلام والأمة العربية وعلاقتها بالشعوب الإسلامية واعتبار ذلك واجباً وقومياً على المؤرخين العرب.

سابعاً: إدانة محاولات الكيان الصهيوني لطمس الشخصية العربية الفلسطينية وسرقة تراثها القومي وتزوير تاريخها واعتبار ذلك واجباً وقومياً ينهض به المؤرخون العرب، ويحيي المجتمعون انتفاضة سكان الأرض المحتلة وما تمثله ثورة الحجارة من تحدٍ للصهيونية ومهجيتها.

ثامناً: دعم الهيئة العليا لكتابة تاريخ الأمة العربية في اتحاد المؤرخين العرب وتمكينها من تنسيق النشاطات التاريخية التي تمارسها الهيئات الوطنية لكتابة التاريخ العربي والجمعيات التاريخية وأقسام التاريخ في الجامعات العربية.

تسعاً: تشجيع النشر التاريخي العربي المشترك وتوسيع العلاقات بين الجمعيات التاريخية العربية وإتاحة فرص الالتقاء والحوار بين المؤرخين العرب.

عاشراً: إعادة النظر في مناهج التاريخ بالتعليم العام بما يضمن تعميق الوعي القومي والحضاري والإنساني والعلمي بالتاريخ العربي، وبعث الثقة والاعتزاز بالأمة العربية وتاريخها.

حادي عشر: نشر المعرفة التاريخية وتعميق الوعي الجاهيري بالتاريخ العربي واعتماد ذلك في نشاط المؤسسات الإعلامية في الوطن العربي بما يضمن وحدة واستمرار الشخصية القومية للأمة العربية.

لثاني عشر: زيادة اهتمام الدولة العربية بجميع الوثائق والمخطوطات وتيسير اطلاع الباحثين عليها، وضرورة السعي لتأمين الوصول إلى الوثائق في اتفاقياتها الثقافية مع الدول المختلفة وبخاصة تلك التي كانت لها علاقة بالوطن العربي في أي من حقبة التاريخية..

■ ■ ■

● في يومي السبت والأحد، ٢٧، ٢٨ من شهر رجب ١٤٠٨ هـ، شارك الأستاذ حمد بن عبد الرحمن العمرو مدير المخطوطات والوثائق بالدارة، في الاجتماع الذي عقد بالبحرين، لمناقشة فهرسة الوثائق العثمانية، بناء على الدعوة الموجهة من المراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية.



توصيات اللجنة المكلفة بمتابعة مشروع فهرسة وجمع الوثائق العثمانية:

التاريخية في البحرين ونائب الأمين العام في حضور
الجلسات وحضر الاجتماع كل من الدكتور بدر
اليقوب الأمين العام المساعد ورئيس تحرير مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية بالكويت
والدكتور محمد مرسي عبدالله مدير مركز الوثائق
والدراسات في أبو ظبي والدكتور عثمان سيد
أحمد إسماعيل مدير مركز الوثائق والدراسات
الإنسانية بجامعة قطر والأستاذ بهاء الإبراهيم
مدير مركز الوثائق في الديوان الأميري بالكويت
والأستاذ حمد عبد الرحمن العمرو مدير المركز
الوطني للوثائق والمحفوظات بدار الملك عبد
العزيز في الرياض.

وافتح الدكتور علي أبا حسين الجلسة باسم
الله وانتقل بعد ذلك الحاضرون إلى مناقشة
الموضوعات المدرجة على جدول الأعمال وهي:

- ١ - تمويل صندوق الأمانة العامة.
- ٢ - كيفية صرف هذه الأموال.
- ٣ - ما يستجد من أعمال.

وبعد المناقشة توصل المجتمعون إلى
التوصيات الآتية:

اجتمعت لجنة مشروع فهرسة وجمع
الوثائق العثمانية اجتماعها الأول في الساعة
التاسعة والنصف من صباح يوم الثلاثاء ٢٧
رجب ١٤٠٨ هـ الموافق ١٥ مارس ١٩٨٨م في
قاعة البديع بفندق شيراتون البحرين واجتماعها
الثاني في الساعة التاسعة من صباح يوم الأربعاء
٢٨ رجب ١٤٠٨ هـ الموافق ١٦ مارس
١٩٨٨م في القاعة نفسها بالأعضاء الذين تم
إنتخابهم في الدورة التاسعة المنعقدة في أبو ظبي
بتاريخ ١٨ - ٢٠ نوفمبر ١٩٨٦م والتي تقرر
تشكيلها برئاسة الأمين العام سعادة الشيخ
عبدالله بن خالد آل خليفة وعضوية كل من:

- ١ - مركز الوثائق والدراسات في أبو ظبي.
- ٢ - مركز الوثائق والدراسات الإنسانية
بجامعة فوار.

٣ - مركز الوثائق في الديوان الأميري بدولة
الكويت.

- ٤ - دار الملك عبد العزيز بالرياض.
- ٥ - مركز الدراسات والبحوث اليمنى
بصنعاء.

ولما كان سعادة الأمين العام خارج البحرين
في هذه الفترة فقد أناب عنه مدير مركز الوثائق

صويغت تحت إشراف من المركز المذكور مقابل أجر شهري قدره ثمانمائة وخمسون =/ ٨٥٠ دولاراً. وقد رصد المركز مبلغ وقدره اثني عشر ألف ١٢,٠٠٠ دولار سنوياً في سفارة دولة الإمارات العربية المتحدة في أنقرة. لذا اعتبر هذا المبلغ هو حصة مركز الوثائق والدراسات في أبو ظبي لعام ١٩٨٨.

٤ - يكلف الدكتور محمد مرسي عبدالله مدير مركز الوثائق والدراسات في أبو ظبي بالإتصال بالأستاذ عثمان زكي صويغت لشرح التطور الجديد في المشروع ويبلغه بإرسال الفهرسة الجديدة مباشرة إلى الأمانة العامة في البحرين التي تقوم بدورها بتوزيعها على المراكز، على أن تظل المعاملة المالية مع الأستاذ عثمان زكي صويغت مرتبطة بمركز الوثائق والدراسات بدولة الإمارات أو السفارة في أنقرة بخصوص مستحقاته المالية لعام ١٩٨٨م وذلك في حدود المبلغ المرصود لهذه المهمة في السفارة على أن تتحمل الأمانة العامة منذ بداية عام ١٩٨٩م هذه المسؤولية تجاه الأستاذ صويغت أو أي شخص يقوم مقامه ويقوم مركز الوثائق والدراسات في أبو ظبي بسداد حصته السنوية مباشرة إلى الأمانة العامة.

٥ - يحق للأمين العام اختيار أشخاص آخرين للقيام بهذا المشروع وفقاً لمقتضيات الحاجة.

١ - أن يقوم سعادة الأمين العام بالحصول على موافقة الجهات المسؤولة في الجمهورية التركية على التصريح. للأمانة العامة بفهرسة وتصوير الوثائق العثمانية المتعلقة بدول الخليج العربي والجزيرة العربية كما يطلب من الجهات الرسمية التركية الاستثناء من الإجراءات المتبعة في الأرشيفات التركية من حيث عدد الوثائق المصورة والإجراءات الروتينية الأخرى التي تعيق إعداد المشروع، كما يطلب من الحكومة التركية تسعبة شخص من قبلها يكون حلقة اتصال بينها وبين الأمانة العامة لتحقيق هذا المشروع.

٢ - تلتزم كل دولة من الدول الأعضاء بالأمانة العامة بدفع مبلغ قدره عشرة آلاف ١٠,٠٠٠ دولار سنوياً كحد أدنى اعتباراً من الأول من يناير ١٩٨٨م وأن يفتح باب التبرع لمن يريد أن يضيف إلى هذا الصندوق وفي حالة تعدد المراكز في الدولة الواحدة يحق لها تقسيم هذا المبلغ فيما بينها.

٣ - لما كان مركز الوثائق والدراسات في أبو ظبي قد قام بفهرسة جانب من الوثائق العثمانية المتعلقة بتاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية مع موجب لكل وثيقة ورقها ومكانها ومجموعة المجلد ورقم الصفحة والبالغ عددها حوالي اثني عشرة ألف ١٢,٠٠٠ وثيقة في نحو أربعة آلاف ٤٠٠٠ صفحة وقام بهذا العمل الأستاذ عثمان

الأمانة العامة على كل ما يتعلق بتحقيق هذا المشروع من فهرسة وتصوير ونحو ذلك. وتتولى الأمانة العامة الإشراف والمتابعة لتنفيذ المشروع بصفة دورية أو بالوسائل التي تراها مناسبة لتحقيق هذا الغرض.

٩- توجيه الشكر لسعادة الأمين العام على اهتمامه ورعايته لهذا المشروع، كما تمنى اللجنة أن ترى الأمانة العامة في مزيد من الازدهار بتوجيهاته وحكمته المعهودة في هذا المجال.

١٠- لما كان مركز الوثائق والدراسات في أبو ظبي سابقاً في جمع وفهرسة الوثائق وقد أبدى المركز استعداداه لتقديم ما قام به من فهرسة الوثائق عن الخليج العربي والجزيرة العربية، لذا يتوجه المجتمعون بالشكر والتقدير للقائمين على هذا المركز وعلى رأسهم معالي الشيخ أحمد خليفة السويدي لشكره بالموافقة على إرسال نسخ من فهرسة الوثائق الثمانية التي تمت في أبو ظبي إلى مراكز الوثائق والدراسات في الخليج العربي والجزيرة العربية عن طريق الأمانة العامة مع تمنياتهم بمزيد من التقدم لهذه الجهود التي تدعم جهود الأمانة العامة.

٦- تكتب رسائل المراكز الدراسات والوثائق التابعة للأمانة العامة وبها رقم الحساب لصندوق الأمانة العامة حتى يسهل تحويل المبالغ المخصصة سنوياً من المراكز لدعم هذا المشروع. ويتابع الأمين العام عملية دفع حصص الدول الأعضاء وتنفيذ التزاماتها. أما رقم حساب الأمانة العامة فهو (٦٧٠٠٧٩) على بنك البحرين والكويت - فرع الرفاع الغربي.

٧- ارتأت اللجنة أن يترك لسعادة الأمين العام الوسيلة المناسبة لتقديم فهرس الوثائق للمستولين في الدول الأعضاء وذلك على سبيل الإهداء وبيان نشاط الأمانة العامة في هذا المجال بصفة شخصية أو تكليف من ينوب عنه بالقيام بهذه المهمة.

٨- تقوم الأمانة العامة بتصوير نسخ من فهرس الوثائق الموجود في مركز الوثائق والدراسات في أبو ظبي وتوزيعه على المراكز التابعة للأمانة العامة والجهات التي يحددها الأمين العام على أن تكون تكلفة التصوير والتجليد من ميزانية الأمانة العامة. كما تفوض اللجنة سعادة الأمين العام بالصرف من ميزانية



دراسة جودة المياه

تحت السطحية

بمنطقة خيبر

جنوب المملكة العربية السعودية

إعداد د. أحمد عبد القادر المهندس

وتوضح الدراسة تأثير جيولوجية المنطقة على انسياب المياه والتركيب المعدني على المكونات الكيميائية لهذه المياه. ومن خلال التحاليل الكيميائية للمياه تحت السطحية يظهر أن مياه بئري الظر والطلاح بمنطقة خيبر هي أفضل المياه التي يمكن استخدامها لأغراض الشرب والإستهلاك الآدمي. أما بقية المياه في الآبار الأخرى، فتحتاج لمعالجة كيميائية خاصة، ويمكن مع ذلك استخدامها لأغراض الزراعة، ويحتوي أحد الآبار على كمية أكبر من الكبريتات مقارنة بالآبار الأخرى، ويعزى هذا إلى أن الصخور المتحولة التي تكون الخزان تحتوي على معدن البايرايت بكمية صغيرة والذي يتأكسد ليعطي الكبريتات.

تقع منطقة خيبر في الجزء الجنوبي الغربي من المملكة العربية السعودية وترتفع عن سطح البحر بحوالي (١٧٠٠) متراً. وتتميز المنطقة بقلّة سقوط الأمطار نسبياً، كما تتميز بطبوغرافية الجبال المنفردة في سهل واسع. ويشكل وادي السليل وما يتفرع منه من وديان أهم المظاهر الهيدروجرافية في المنطقة. ويبدو من الدراسة أن معظم الخزانات للآبار الرئيسية في المنطقة توجد في الصخور المتحولة، حيث توجد المياه تحت السطحية في الشقوق والفتحات لهذه الصخور، ما عدا بئر واحدة توجد فيها المياه تحت السطحية في رسوبيات الوادي وفي شقوق الصخور التارية.





تقع منطقة خيبر في الجزء الجنوبي الغربي من المملكة العربية السعودية وتقع قرية خيبر في مركز متوسط بين القرى، كما تقع فيها الإمارة والتي تتبع من الناحية الإدارية لإمارة عسير (خريطة رقم ١). وتتميز منطقة خيبر بارتفاع درجات الحرارة ومعدلات التبخر وبلغت الرطوبة النسبية وقلة سقوط الأمطار. وتكون المنطقة أساساً من الصخور النارية والمتحولة. وتتميز منطقة خيبر بأنها سهل تحاني واسع، وترتفع المنطقة حوالي (١٧٠٠ متراً) فوق سطح البحر مع وجود تضاريس سطح منخفض وأنظمة صرف جيدة النمو، كما تتميز المنطقة بطبوغرافية الجبال المنفردة في سهل واسع، وتوجد الكتل الجرانيتية في هذا السهل غرب وجنوب قرية خيبر التي تقع عند خط طول ٤٢° ٥٢' ٤٠" وخط عرض ١٨° ٤٧' ٤١" بحوالي ٦٠ كيلومتراً شمال شرق مدينة خميس مشيط. ويبلغ سكان قرية خيبر والقرى المجاورة حوالي ٥٠٠٠ نسمة يعملون أساساً في الزراعة، وهناك بعض البدو الذين يعيشون حول القرى لرعي الماشية. ويوجد في منطقة خيبر نوعان من الموارد المائية هما:

- أ) مياه السيول خلال مواسم الأمطار.
- ب) المياه تحت السطحية من الآبار الضحلة القليلة والمحفورة يدوياً.

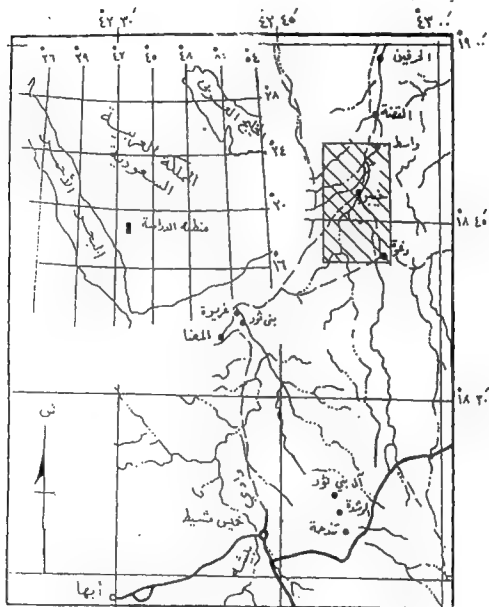
إن الغرض من هذه الدراسة هو إلقاء بعض الضوء على صلاحية المياه تحت السطحية في منطقة خيبر للشرب وزراعة المحاصيل مع التركيز على النواحي الجيولوجية والتركيب المعدني للصخور الحاملة لهذه المياه.

● طريقة الدراسة ●

تقوم الدراسة على عمل حقل في المنطقة أجراه الباحث خلال عام ١٩٨٠م لفحص الآبار المختلفة في المنطقة من حيث أعماقتها ونوعية صخورها ووضعها على الخريطة الجيولوجية، كما أمكن بالإعتماد على خريطة رقم GM-4 (Coleman, 1973) بالإضافة إلى الصور الجوية تحديد حدود التماس الصخرية ومواقع العينات. وقد جمعت عينات المياه (حوالي ٣ لتر لكل عينة في زجاجات نظيفة من البولي إيثيلين Poly-ethylene ومغطاة جيداً بغطاء مطاطي، وأخذت العينات بعد ثلاثة أيام من جمعها للتحليل في المعمل الكيميائي بكلية الصيدلة، جامعة الملك سعود. وقد عملت التحاليل طبقاً للطريقة المتبعة في هذا المعمل. Vogel (1972), APHA-ANWA-WPCF (1976)

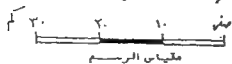
كما أن الصخور المختلفة والتي تشكل الخزانات للمياه تحت السطحية بالمنطقة أمكن التعرف عليها وذلك بعمل قطاعات رقيقة حيث تم

شكل رقم (١) خريطة جغرافية توضح موقع منطقة خيبر في المملكة العربية السعودية، وكذلك موقعها بالنسبة للمدن الرئيسية والقرى في جنوب غرب المملكة العربية السعودية.



دليل الخريطة

- | | |
|----------------|---------------|
| طريق رئيسي مفت | منطقة الدرامه |
| طريق محلي | مدينة |
| واديان متقطعة | قرية |



من النيس التي غزت الصخور المتحولة الحديثة في نفس الوقت بينما توجد صخور الجابرو داخل Syn forms للصخور المتحولة الحديثة (Coleman, 1975) أما صخور الكوارتز مونزونيت التابعة لبني ثور فهي تقطع جميع التراكيب الجيولوجية والصخور الموجودة في المنطقة ولذلك تعد أحدث صخور في المنطقة. توجد بعض القواطع الرأسية dykes الأنديزيتية والرايوليتية التي يمكن أن تكون ذات علاقة بـ East-West normal Faulting والتي يمكن أن تكون قد نتجت عن تكون البحر الأحمر.

ويوجد دليل واضح على الصدع Faulting في منطقة خيبر، ويبرز هذا الدليل في جبل شاع الذي يحتل مكاناً بارزاً في هذه المنطقة (أنظر خريطة رقم ١٢٠). يوجد هنا صدع رئيسي ذو اتجاه شرق - غرب بالإضافة إلى صدوع صغيرة أخرى داخل الجبل. وربما يمتد الصدع الرئيسي تحت وادي السليل. توجد بعض الرواسب الحديثة والتي تتكون أساساً من الرمل والكريونات والغرين في داخل وادي السليل وبقية الوديان المتفرعة منه.

هيدروجيولوجية المنطقة

إن أهم المظاهر الهيدروجرافية في منطقة خيبر هي وادي السليل وما يتفرع منه مثل وادي رغو. ويأتي وادي السليل من أعالي جبال

فحص العينات تحت المجهر لمعرفة معادنها المختلفة.

● جيولوجية المنطقة ●

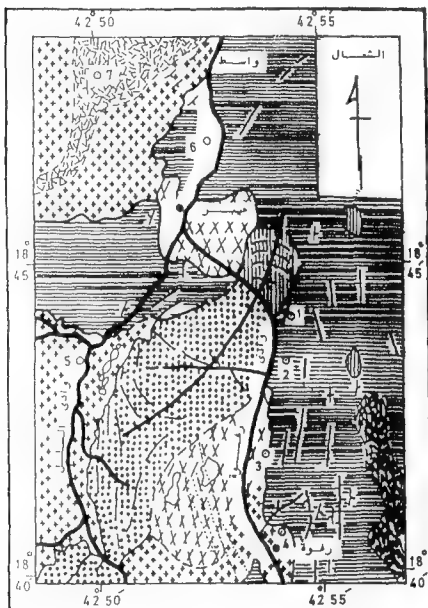
معظم الصخور في منطقة خيبر تتبع صخور ما قبل الكامبري، وتمثل الأجزاء العميقة من الدرع العربي. ويمكن تقسيم الصخور إلى وحدتين أساسيتين هما:

(١) المعقد القاعي لجبال عسير.

(٢) الصخور المتحولة التي يمكن أن تكافئ في العمر مجموعات حلي ويش والباحة (Schmidt et al, 1973)

ويتكون المعقد القاعي من أورثونيس، بارانيس، مجاثات، أمفيولايت ورخام؛ وتسمى هذه الصخور نيس خميس مشيط. ويبدو أن النشاط التكتوني خلال تكون جبال عسير بالإضافة إلى الأحداث التكتونية التالية تجعل من الصعوبة في بعض الأماكن التفريق بين الصخور البلوتونية التابعة لجبال عسير من صخور نيس خميس مشيط. ويوجد فوق نيس خميس مشيط سلسلة سميكة من الصخور المتحولة والصخور البركانية والرسوبية على سطح عدم توافق. لا يوجد كونغلوليرات قاعدية أو أي سطح عدم توافق يمكن رؤيته في الخامس بين نيس خميس مشيط والصخور المتحولة الحديثة. وتوجد أجسام من الجرانيت وقباب

شكل رقم (٢) خريطة جيولوجية لمنطقة خير، جنوب غرب المملكة العربية السعودية.
(معدلة من خريطة GM - 4، ١٩٧٣).



دليل الخريطة



فواضع راسية من الألبانست
والمرابوالت
كوارتز مونونيت
جرانيت بن شدر
جاسور
صخور جرانيتية متزايدة الشكل
ميتا جاسور
صخور متزايدة حديثة
خمس ميس شيط

سدوع
غلة مقصورة
ميل وطرف الشرق
في الصخور
صودي
وادي
لرصة
أرقام الألبان



بينها أقل من (٥٠٠) متراً، وعندئذ تصل إلى مجرى وادي السليل الذي يصب في خيبر. يوجد عدد من الآبار المحفورة باليد في منطقة خيبر. ويبدو من خلال الدراسة الحقلية أن المياه تحت السطحية في منطقة خيبر توجد في الرواسب والصخور المتحولة والنارية. أما النطاقات ذات النفاذية قرب الصدوع والمغطاة بالتربة السمكية فيمكن أن تكون خزاناً مائياً مناسباً. كما تتميز الصخور المتحولة والنارية في المنطقة بمسامية ونفاذية عالية نتيجة لوجود التشققات والتحلل في هذه الصخور. ويتراوح بعد الماء تحت السطحي في الآبار ما بين متر واحد إلى أكثر من ١٧ متراً تحت سطح الأرض. ويوضح جدول رقم (١) بعض المعلومات عن سبعة آبار رئيسية تمت دراستها في منطقة خيبر (أنظر الخريطة رقم (٢)).

عسير في الجنوب ويسير متجهاً نحو الشمال لمسافة تقرب من ٣٠٠ كم حتى يلتقي بوادي تليلث ووادي الدواسر والذي ينتهي في الربع الخالي. وينحدر وادي السليل حوالي ثلاثة أمتار في الكيلومتر الواحد. ويتميز هذا الوادي بأنه عبارة عن سهل عريض في منطقة خيبر، وفي شرق الوادي توجد منطقة جبلية عالية تميل للاحية وادي السليل (أنظر صورة رقم ١١)، أما إلى غرب الوادي فتوجد منطقة الجبال الجزيرية وهي أجسام جرانيتية في سهل منبسط. ويتميز هذا السهل بأنه ذو تضاريس منخفضة مع نظام تصريف مائي جيد، ونظام التصريف على شكل مواز للجبال التي تحده المنطقة. وعلى بعد حوالي عشرة كيلومترات من قرية خيبر إلى الجنوب تضيق أرض الوادي وتبدأ السلسلتان الجبلتان الشرقية والغربية في الإقتراب حتى يبلغ البعد

جدول رقم (١)

جدول يوضح أسماء الآبار وأرقامها وأعمارها ونوعية خزاناتها ومواقعها في منطقة خيبر - جنوب غرب المملكة العربية السعودية

رقم البئر	الموقع	العمق إلى مستوى الماء (متر)	نوعية الخزان	اسم البئر
١	خيبر	١٧,٤	رواسب + صخور متحولة	عرق الدواسر
٢	خيبر	١٤,٢	رواسب	القطر
٣	وادي رغوة	١٥,٩	صخور متحولة	البردان
٤	وادي رغوة	١٥,٩	صخور متحولة	رغوة
٥	وادي السليل	١٣,٤	صخور متحولة	برم
٦	واسط	٩,٩	صخور متحولة	طلاح
٧	المنعزب	١,٢	رواسب + صخور نارية	الظفر

عمق مستوى الماء تحت السطحي يقع عند بئر عرق الدواسر (١٧,٤ متراً) وأقل عمق مستوى الماء تحت السطحي يقع عند بئر الظر (١,٢ متراً). ويظهر من خلال هذا الجدول أن معظم الخزانات **Aquifers** في منطقة خيبر هي الصخور المتحولة حيث يوجد الماء في الشقوق والفتحات لهذه الصخور، وهناك بئر واحدة تتميز بأن الماء يوجد كلياً في رسوبيات الوادي وهي بئر الكظر. ويوجد الماء فيها على عمق (١٤,٢ متراً). أما بئر الظر فهي البئر الوحيدة التي يكون فيها الماء على عمق صغير، وتتميز بأن الماء فيها يوجد في رسوبيات الوادي وفي شقوق الصخور النارية. ويظهر من جدول رقم (٢) أن مياه خيبر شفافة وبدون رائحة ولكن طعمها ملحي ما عدا بئر الطلاح والظر، ويختلف الطعم حسب كمية الأملاح الصلبة الكلية. وتراوح قيم الرقم الهيدروجيني ما بين ٦,٥ و ٨,١. وهذا يدل على قلوية هذه المياه إلى حد ما.

إن دراسة المنطقة تبين أن الميل العام لمستوى الماء **Water Table** يتجه إلى الشرق، وهذا يدل أيضاً على أن الماء تحت السطحي يتجه من الغرب إلى الشرق. وتمثل الصور الفوتوغرافية رقم (١) مناظر مختلفة لثلاثة آبار في منطقة خيبر الجنوب، وجميعها محفورة باليد. ويمثل الجدول رقم (٢) الخواص الطبيعية لمياه خيبر تحت السطحية. وتوجد في المنطقة بعض العقوم أو السدود الترابية التي بينها المزارعون هناك خلال الوديان حتى يتمكنوا من الاستفادة من مياه الأمطار. وتسقط الأمطار عادة في شهر مارس وأبريل ومايو، أما الشهور التي لا تسقط فيها الأمطار عادة فهي سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر (Ministry of Agriculture and Water, 1975). وتبين الخريطة رقم (٣) معدل سقوط الأمطار السنوية على منطقة خيبر مقارنة ببقية المناطق في المملكة العربية السعودية (شلس، ١٩٧٣).

النتائج

عند فحص الجدول رقم (١) يبدو أن أكبر

● جدول رقم (٢) الخواص الطبيعية لمياه خيبر تحت السطحية ●

اسم البئر						
الخواص الطبيعية	عرق الدواسر	الكظر	البردان	رغوة	برم	الطلاح
اللون	لالون	لالون	لالون	لالون	لالون	لالون
الرائحة	لارائحة	لارائحة	لارائحة	لارائحة	لارائحة	لارائحة
الطعم	ملحي	ملحي	ملحي	ملحي	ملحي	عذب
الرقم الهيدروجيني	٧,٩	٧,٨	٧,٧	٧,٧	٧,٨	٨,١
						٧,٥

لمعظم مياه خبير. أما الصخور التي تقع وتغطي منطقة المعزب (بئر الظر) فهي صخور نارية متوسطة الحبيبات وقد أظهرت الدراسة الجهرية أن هذه الصخور ذات تركيب معدني يقع في حقل الجرانيت إلى كواوتز مونزونيت. أما فحص التربة في الحقل فيدل على أنها عبارة عن تربة رملية متوسطة إلى خشنة الحبيبات.

وعند دراسة قطاعات الصخور المتحولة تحت الجهر تبين أنها عبارة عن أمفيبوليت amphibolite تحتوي على المعادن التالية: بلاجيوكليز (أنورثايت ٢٠)، هورنبلند أخضر، أيدوت، بيروكسين وسفين وبعض المعادن القائمة التي يحتمل أن تكون معدن بايريت. وصخور الأمفيبوليت هي الصخور الحازنة

جدول رقم (٣)

التحليل الكيميائي لمياه خبير تحت السطحية جنوب - غرب المملكة العربية السعودية

رقم العينة	اسم البئر	الرقم الميسر وجي	التوصيل الكهربائي	الكالسيوم	الكربونات	الكبريتات	الكالسيوم	المغنسيوم	الصوديوم	البوتاسيوم
١		٧.٩	٣٤٧٩	٤١٨	٣٥٣.٥	١٨٣.٠	١٤٥	٩١	١٥٤	٢.١
٢	الكنتفر	٧.٨	١٥٥٠	٣٩٧	٣١٠.١	١٧٩.٠	١٤٩	٩٣	١٤٢	٢.٠
٣	الرداد	٧.٧	٢٠٠٠	٣٠٠	١٤٣.٠	٣٢١.٠	٤٨٨	١٨٩	١٦٨	٤.٠
٤	رعوة	٧.٧	٢٠٩٠	٢٩١	٢٥١.٠	٣٤٢.٠	٥١١	١٧٨	١٧١	٣.٩
٥	رم	٧.٨	١٥٠٧	٣٢٠	١٥٦.٠	٣٥٣.٨	٥٢٢	١٩٢	١٧٤	٤.٤
٦	ملاح	٨.١	١٢٥٠	١٣١	١٣٥.٠	١.٨	٤٥	١٩.٩	٣٤	٣.١
٧	الظر	٧.٥	١١٠٠	١٢٢	١٢٤.٠	١.٢	٤٢	١٧.٢	٣٦	٢.٩

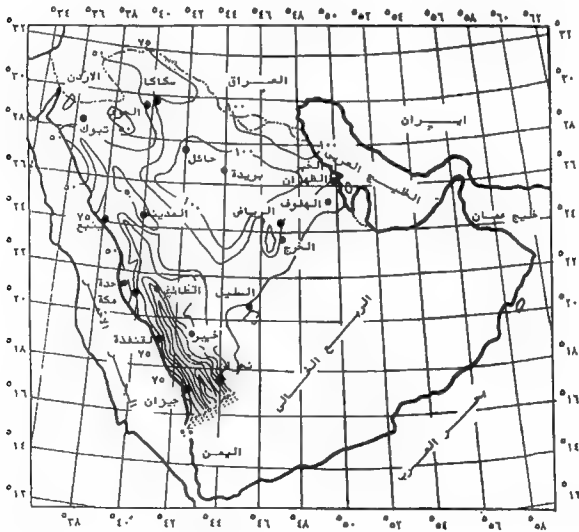
الكلية ما بين ٧٦٠ و ٢٤٣٥ جزء في المليون. وتتراوح نسبة الكلور ما بين ١٢٢ جزء في المليون في بئر الظر و ٤١٨ جزء في المليون في بئر عرق الدواسر، أما نسبة الكبريتات فتتراوح ما بين ١٢٤ جزء في المليون في بئر الظر لترتفع إلى ٣٥٣ جزء في المليون في بئر عرق الدواسر وتتراوح نسبة اليكربونات ما بين جزء في المليون في بئر الظر لترتفع إلى حوالي ٣٥٤ جزء في المليون في بئر

ويوضح الجدول رقم (٣) التحاليل الكيميائية لمياه خبير ويظهر هنا أن التوصيل الكهربائي للمياه المحلاة يتراوح ما بين ١١٠٠ و ٣٤٧٩ ميكروموز ، وهذه القيم عندما تضرب في معامل ٠.٧٥ تعطي كمية الأملاح الذائبة الكلية تقريباً () بالرغم من وجود بعض الاستثناءات لهذه القاعدة. وتتراوح كمية الأملاح الذائبة

المليون في بئر الظر وترتفع هذه النسبة لتصل إلى ١٧٤ جزء في المليون في بئر برهم. وتبلغ نسبة البوتاسيوم ٤,٤ جزء في المليون في بئر برهم وتنخفض هذه النسبة إلى ٢ جزء في المليون في بئر الكظر.

برهم. أما نسبة الكالسيوم فتتراوح ما بين ٤٢ جزء في المليون في بئر الظر لتصل إلى ٥٢٢ جزء في المليون في بئر برهم، أما نسبة المغنسيوم فتتراوح ما بين حوالي ١٧ جزء في المليون في بئر الظر لتصل إلى ١٩٢ جزء في المليون في بئر برهم. وتتراوح نسبة الصوديوم ما بين ٣١ جزء في

شكل رقم (٣) خريطة الأمطار (معدل سقوط الأمطار السنوية) بالمملكة العربية السعودية.



معدل سقوط الأمطار في المملكة العربية السعودية

للفترة ١٩٦٦ - ١٩٧٤ م

في جميع الآبار تعود إلى خزان جوفي واحد، ولكن يمكن القول أن كل بئر لها خزان مغلق تكون داخل شقوق الصخور المتحولة والثارية وفي الرواسب. ولا شك أن المواسم الأمطار دوراً كبيراً في تحسين نوعية المياه في جميع الآبار ولا سيما في آبار الجهة الغربية من منطقة خيبر.

إن تركيب مياه خيبر تحت السطحية تتأثر بالجفاف، وخاصة في أيام الصيف مما يزيد في تركيز كمية الأملاح وذلك بواسطة التبخر.

إن جودة المياه تحت السطحية في منطقة خيبر تعكس إلى حد كبير جيولوجية الخزانات، فلما يميل عادة إلى إذابة العناصر الموجودة في الصخور التي يمر خلالها. إن الأيونات الرئيسية التي تذيبها المياه تحت السطحية هي: الصوديوم، الكالسيوم، المغنسيوم، البيكربونات الكلورايد والكبريتات بالإضافة إلى بعض العناصر الأخرى بكميات قليلة جداً

(Davis and Deweist, 1976)

وجودة المياه هي تعبير شامل يصف مجموع للميزات الكيميائية للماء. وتحدد جودة المياه الاشتعالات المختلفة لهذه المياه. والواقع أن جودة المياه ذات أهمية بالغة بالنسبة للمملكة العربية السعودية حيث أنها تؤثر على صحة الأفراد والمجتمع، كما أنها تؤثر على تنمية الزراعة والصناعات المختلفة. وفيما يلي مواصفات منظمة الصحة العالمية (WHO, 1971) بالنسبة لبعض الأيونات الرئيسية في المياه:

ملاحظة: جميع التحاليل بوحدة (PPM) جزء في المليون ما عدا الرقم الهيدروجيني والتوصيل الكهربائي أجريت جميع التحاليل في المعمل الكيميائي بكلية الصيدلة - جامعة الملك سعود.

● المناقشة ●

يظهر من الخريطة الجيولوجية رقم (٧) أن الجيولوجية المنطقة والتركيب الجيولوجي دوراً واضحاً على انسياب المياه تحت السطحية بالإضافة إلى تأثير التركيب الجيولوجي على المكونات الكيميائية لهذه المياه، فبئر عرق الدواسر موجود على صدع واضح ذو اتجاه شمال شرق - جنوب غرب وهو من أغزر الآبار في المنطقة، ولكن مياهه غير جيدة لأغراض الشرب أو الزراعة وهذا يعود ربما إلى زيادة نسبة الأملاح المنابة نتيجة لكثرة الشقوق مع تحلل الصخور إلى مكوناتها العنصرية. ويبدو أن معظم الآبار تتأثر بالصدوع الصغيرة الموجودة قرب جبل شاع بالإضافة إلى الصدع الكبير ذو الاتجاه شمال شرق - جنوب غرب وهو الصدع الرئيسي في المنطقة. ويظهر أن بئري الطلاح والظلم تتأثر بالصدوع في المنطقة، كما أن مياهها أكثر نقاءاً وعلوية، كما أن الميل العام للمنطقة هو إلى الناحية الشرقية، وهذا يجعل المياه تحت السطحية تذيب المزيد من الأملاح عند انسيابها من الناحية الغربية إلى الناحية الشرقية من المنطقة ولا يوجد دليل على أن المياه

الحد الأقصى	المفضلة	الوحدة
١٥٠٠	٥٠٠	الأملاح الكلية المذابة جزء في المليون
٩,٢-٦,٥	٨,٥-٧	تركيز الرقم الهيدروجيني -
٢٠٠	٧٥	كاليسيوم جزء في المليون
٦٠٠	٢٠٠	كلورايد جزء في المليون
لا يوجد	لا يوجد	صوديوم -
لا يوجد	لا يوجد	بوتاسيوم -
١٥٠	٣٠	ماغنسيوم جزء في المليون
٤٠٠	٢٠٠	كبريتات جزء في المليون
لا يوجد	لا يوجد	بيكربونات -

بعض عينات مياه خبير تحتوي على نسبة عالية من اليكربونات ولكنها أقل من النسبة الضارة بالصحة العامة. ويبدو أن ارتفاع نسبة الأملاح المذابة الكلية في بعض عينات مياه خبير يمكن أن يسبب بعض الإضطرابات المعوية إذا شرب بكية كبيرة (WHO, 1971) وتتميز مياه خبير تحت السطحية، وخاصة بئر عرق الدواسر بكية عالية من الكبريتات ويعود هذا إلى أن الصخور المتحولة الذي تكون الخزان لهذه المياه تحتوي على كمية صغيرة من معدن البايريت، حيث يعطي تأكسد هذه المعادن الكبريتات. ويختلف تركيز الصوديوم من بئر إلى أخرى، وقد وجد أن تركيز الصوديوم يكون عادة أقل من ٢٠٠ جزء

ويظهر من استعراض مواصفات منظمة الصحة العالمية ومقارنتها بالجدول رقم (٣). أن مياه بئر الظر والطلاح تعد مياه جيدة إلى حد كبير، ويمكن استخدام هذه المياه لأغراض الشرب أما بقية المياه للآبار الأخرى فتحتاج لمعالجة كيميائية خاصة لجعلها صالحة للشرب والاستهلاك الآدمي، ولكن يمكن أن تستخدم مياهها لأغراض الزراعة فقط. وقد وجد أن الزيادة في نسبة أيونات اليكربونات غير موصى بها بالنسبة للإستهلاك الآدمي، وخاصة إذا زادت عن ٥٠٠ جزء في المليون (Hem, 1959) أما الزيادة في نسبة البوتاسيوم فيعدمهمافي تغذية النبات. ويبدو أن



● منظر يمثل اجزاء من منظمه خيبر، ويوضح مجرى وادي السليل.

السيانخ، اسباراجوس النخيل، البصل،
الجزر، البطاطس، الخس، القريبط، الطماطم
والخيار.

● التوصيات

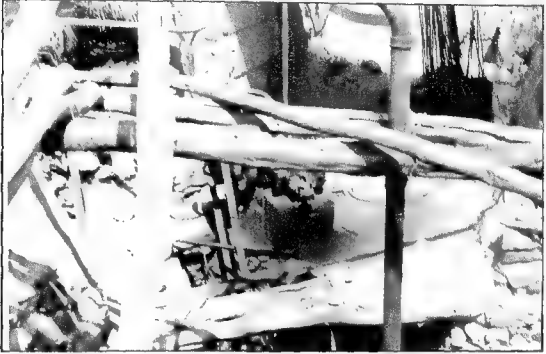
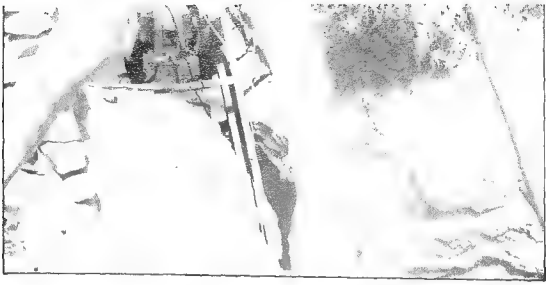
فيما يلي ثلاث توصيات للمحافظة على
المياه تحت السطحية واستخدامها الأمثل
للزراعة وأغراض الشرب في منطقة خيبر.

١ - بناء سد خرساني رئيسي في المنطقة
وذلك لحجز مياه الأمطار واستخدامها
للشرب، بالإضافة إلى تعويض المياه
تحت السطحية المفقودة.

٢ - استخدام بعض الطرق الحديثة في

في المليون في ماء الشرب، (NAS & NAE
1972) ويكون تركيز الصوديوم عادة أقل من
٢٠٠ جزء في المليون في جميع عينات مياه
خيبر.

وتختلف النباتات في تحملها للتركيب
الكيميائي لمياه الري ونوعية التربة، وهما من
أهم العوامل التي تحدد أو ربما تمنع نمو بعض
أنواع المحاصيل، أما بعض الأنواع فيمكن أن
تنمو بطلاقة. وتتميز مياه خيبر بأنها ذات ملوحة
متوسطة إلى عالية (U.S. Salinity Lab. Staff, 1954)
ولذلك فإن المحاصيل الزراعية
المتوسطة أو عالية التحمل يمكن أن تنمو بنجاح
في هذه المنطقة، وتشمل هذه المحاصيل



● مناظر مختلفة تمثل ثلاثة آبار مختلفة في منطقة خير، وجميعها محفورة باليد ●

المراجع

باللغة العربية:

- شلش، علي حسين (١٩٧٣)، أطلس خرائط توزيع الأمطار في المملكة العربية السعودية - جامعة الملك سعود، الرياض.

باللغة الإنجليزية:

- American Public Health Association, American Water Work Association and

الري والزراعة مثل طريقة التنقيط وهي إحدى الوسائل الناجحة في ري أشجار الفاكهة والخضروات.

- ٣ - إنشاء معمل صغير لمعالجة المياه وتقطيرها لأغراض الشرب في المنطقة، حيث أن معظم المياه تحت السطحية في منطقة خير غير صالحة للشرب والاستهلاك الأدمي حسب مواصفات منظمة الصحة العالمية.

●●●

don, Longman, pp. 801-802.

- World Health Organisation (1971). International Standards of Drinking Water. 3rd. Ed., Geneva.

- Davis, S.M. and Dewiest, R.I.M. (1966). Hydrogeology, John Wiley and Sons, New York, 2nd. Ed., 340pp.

- Hem, J.D. (1959). Study and interpretation of the chemical characteristics of natural water; U.S. Geol. Survey Water Supply Paper 1473, 269pp.

- Logan, J. (1961), Estimation of electrical conductivity from chemical analysis of natural water. J. Geophys. Res., Vol. 66, No.8, pp. 2479-2483.

- Ministry of Agriculture and Water, Dept. of Water Resources and Development, Hydrology Division (1976). Hydrological Publication No. 97, Vol. 1, Year 1971-1975, 117pp.

- National Academy of Science & National Academy of Engineering (1972). Water quality Criteria. Report Prepared by the Committee of Water Criteria at the

Water Pollution Federation (1976). Standard methods for the Examination of Water and Wastewater, 4th Ed., Washington, D.C., U.S.A.

- Coleman, R.G. (1975). Reconnaissance Geology of the Khaybar quadrangle. DGMR, Map. GM-4.

request of USEPA, Washington, D.C., 594pp.

- Schmidt, D.L., Hadley, D.G., Greenwood, W.R., Gonzales, L., Coleman, R.G., and Brown G.F. (1973). Stratigraphy and tectonism of the Southern part of Precambrian shield of Saudi Arabia. US.G.S. Saudi Arabian Project Report No. 139, D.G.M.R. Bull. 8, Jeddah, Saudi Arabia, 13pp.

- U.S. Salinity Laboratory Staff, 1954. Diagnosis and Improvement of Saline and Alkali Soils, USDA Handbook No. 60; U.S. Government Printing Office, Washington, D.C., 160pp.

- Vogel, A.I. (1972). Textbok of Quantitative Inorganic Analysis, 3rd. Ed., Lon-

نظرات في كتاب :

الإمام محمد بن عبد الوهاب أو "انتصار المنهج السلفي"

عرض ودراسة للأستاذ عبد الله بن سعد الرويشد

عقيدة الإمام ومنهج دعوته . . ويقول المؤلف عن فكر الإمام (ص: ٩) . . «فكر إيجابي كله، والإيمان فيه إقرار وعمل» . . ويقول (ص: ٨) : من أجل الاعتبار بما صنعه ابن عبد الوهاب وحاجة العصر الحالي إلى التأمي بكل كلمة قالها، وكل صنع صنعه، وضع هذا الكتاب، ليذكر كل ذي بصيرة أن صفحات هذا التاريخ العظيم تتكرر .

ولتتابع خطوات المؤلف في كتابه :

الباب الأول من الكتاب في مسيرة الفكر

الإسلامي حتى عصر الإمام محمد بن عبد الوهاب على امتداد ألف ومائة عام، من الفكر السلفي إلى الفكر الشيعي، إلى التصوف الفلسفي، إلى العودة للمنهج السلفي عند ابن تيمية وابن قيم الجوزية، والثاني في ظهور الفكر المنحرف والثالث عن العودة إلى المنهج السلفي.

الإمام محمد بن عبد الوهاب علم كبير في الإصلاح الديني وفي الفكر الإسلامي وشيخ جليل من شيوخ الإسلام في العصر الحديث آراؤه وفكره ومنهجه تقوم عليها دول الجزيرة العربية وتنادي بها وتدعو إليها الأقلام الصادقة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي كتب عن الدعوة والداعية آلاف الدراسات، وخرجت عنها مئات الكتب والبحوث العلمية مدرسته السلفية اليوم مدرسة كبرى من مدارس الفكر الإسلامي، فأعلام العقل العربي كتبوا عنه وحلّلوا مضامين دعوته .

بين يدي اليوم كتاب الأستاذ/ عبد الحليم الجندي «الإمام محمد بن عبد الوهاب أو انتصار المنهج السلفي» الذي نشرته دار المعارف المصرية في أكثر من عشرين ومائتي صفحة، والكتاب يجب أن يطلعه كل إنسان ليفقه على كثير من أصول

والباب الثاني من الكتاب في الدعوة إلى التوحيد .. على يدي داعية التوحيد الإمام محمد بن عبد الوهاب؛ وهو في ثلاثة فصول: الأول: عن الداعي إلى الله ابن عبد الوهاب.

الثاني: عن دعوته للتوحيد.

الثالث:

عن عقيدته بين الاجتهاد والتأويل.

أما الباب الثالث فهو عن انتصار المنهج السلفي وهو في أربعة فصول:

الأول: عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والثاني: عن المارك التي نشبت بين أنصار الدعوة السلفية وخصومها.

والثالث: حول نشأة الدولة السعودية في ظلال المنهج السلفي، وكفاح أئمة هذه الدولة، ونجاح محمد بن سعود والملك عبد العزيز والملك فيصل ابن عبد العزيز.

والرابع: حول دعاة المنهج السلفي الإسلامي.

يقول المؤلف في كتابه (ص ١١٩):

ما الذي يدلي به الشيخ في مجاله أو في كتبه؟

رسالات للعلماء يشرح فيها دعوته السلفية الخيرة وله مؤلفات تعد بالعشرات تُنفع عن عقيدته السلفية وتدعو إلى الإسلام الخالص.

وهو قد جلس للتدريس ستين عاماً أو تزيد، وأوفد الوفود، وأوصى الكتاب في الزخوف، وعلم الأمراء والعلماء والجمهور والمتفهمة.

إن الجواب يمكن تلخيصه في كلمات هي:

١ - الدعوة للتوحيد وتحرير الذات الإنسانية من الاستعباد للبشر؛ فلا إله إلا الله وحده.

٢ - تحرير الفكر الإنساني من مذلة التقليد واتباع السابقين.

٣ - تحرير الفكر الإسلامي مما يدخله عليه المؤولون من آراء.

٤ - الدعوة الصادقة للإسلام بالجهاد في سبيل الله أمراً بالمعروف أو تنهياً عنه ونهياً عن المنكر أو انتهاء عنه.

والشيخ في تطبيق هذه المبادئ الأربعة وتعليمها ينجح نهج الرسول عليه الصلاة والسلام وهو التعليم، ثم الجهاد للدفاع عن جوهر ما تعلموه.

والمؤلف يعلم رأي المصريين وعلماء الأزهر في الدعوة السلفية (ص ١٧٢) ... يقول:

إن الجبرتي مؤرخ مصر، وعالم الأزهر في القرن الثالث عشر وفي عصر محمد علي نفسه، قد أعلن رأي المسلمين في الأبطال من آل سعود: إنهم ذهبوا مع الشهداء.

ولسوف نقرأ بعد مائة عام رأي إمام مصر
الشيخ محمد عبده، حيث يقول عن محمد
علي:

فليقل لنا أحد من الناس أي أعماله ظهرت
فيها رائحة الدين الإسلامي الجليل؟ لا يذكرون
إلا مسألة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب،
وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على
الدين.

ويتقل المؤلف إلى أمر آخر وهو انتصار
الحقيدة الدينية مع هزيمتها العسكرية ...
فيقول: التاريخ يسجل إنهاء معركة الدرعية
العسكرية، ويسجل ابتداء انتصار عقيدتها
الدينية واتصالها بالعالم، وجريان سيرتها على
الألسن وعلى أقلام العلماء وفي دروسهم.

ويذكر المؤلف في هامش صفحتي ١٧٦
و١٧٧ الحقائق الآتية:

١ - إن الجيش المصري لم يتكون إلا بعد
سنة ١٨٢٠ أي بعد معارك الدرعية التي حدثت
عام ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م.

٢ - إن محمد بن علي كان يدبر لجيشه
مذبحة في الجزيرة العربية ليتخلص من مواطنيه
الألبانيين الذين تمردوا عليه سنة ١٨٠٧م.

وهذا يتأكد أ، الشعب المصري لم يشارك
في معارك الدرعية بأي شكل من الأشكال.

ثم يقول المؤلف (ص ١٨٠):

بدأ بالملك عبد العزيز التاريخ العالمي للدولة
الجديدة وللدعوة في القرن الرابع عشر للهجرة

أو العشرين للميلاد.

وبعد فإن هذا الكتاب القيم جدير بالتأمل
والقراءة:

أولاً: لأهمية مؤلفه ومنزله في الفكر
الإسلامي المعاصر.

ثانياً: لأهمية ما تضمنه كتابه من أفكار عن
الإمام محمد بن عبد الوهاب ودعوته.

ثالثاً: لأهمية النصوص والمصادر التي استند
إليها المؤلف في دعم آرائه.

والكتاب يضيء لنا جوانب كثيرة من سيرة
الإمام محمد بن عبد الوهاب ودعوته، وهو
وثيقة صادقة على انتصار الدعوة السلفية،
دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب على مر
الأجيال منذ قيامها حتى اليوم.

ورصيد الدعوة السلفية ورائدها المحدد
الإمام محمد بن عبد الوهاب في إحياء الفكر
الإسلامي وفي تجديد مسيرة الإصلاح الديني،
رصيد كبير، نرجو أن يتفع به المسلمون
المعاصرون في دينهم ودنياهم.

إن المملكة العربية السعودية، وهي
تصدر اليوم عالماً الإسلامي والعربي لتعد
بحق رائدة في مجال الإصلاح الديني
والسياسي وإني لأدعو لها بالتوفيق في خدمة
الإسلام والمسلمين، وأن تحل على يديها
مشكلات العالم الإسلامي الكبيرة وأن
تستمر مسيرة الإصلاح والتجديد فيها من
أجل خدمة الإسلام والمسلمين. ●●●

Abstract

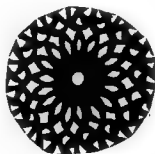
The Distribution of Public Gardens in Medina

By Mohammad S. Makki

The purpose of this research is to compare the green area in Medina during the period extended from 1382 to 1406 A.H. (the period of the available data) in relation to the changing total area of Medina city and the number of its population and according to the international standards with more emphasis on the distribution of public gardens in 1406 A.H. The aim of such comparison is to test the efficiency of one of the aspects available for recreation in Medina. This test hopefully will lead to the development of green area to serve the local and visitor population.

The research used the nearest-neighbour analysis and the multiple regression to explain the pattern of public gardens distribution in Medina, and the relationship between the area and number of these gardens and the area of Medina's quarters and the size of population.

It was evident that the problem in Medina is not related to the lack of green areas but to the non-efficient distribution of these areas. Several recommendations were suggested to increase the efficiency of such distribution.



the male ratio, and for the size of the family to become smaller.

The exploitation of lands has undergone several changes. The concentration of administrative, educational and religious posts has been unprecedented in the history of Riyadh. The residential areas, the commercial and service sectors have flourished at an astronomical rate. Simultaneously, a significant industrial sector has been crystalised. The green areas have become more extensive as a result of annexing part of Wadi Hanifa, parks as well as children's playgrounds and the plantation of roadsides.

The supply of water and the extension of its net-work has become a necessity to meet this expansion. Part of Riyadh water has been brought from Wasih at a distance of 100 Km east of Riyadh, and the other part from desalinated water from Jubail. The increased consumption of propane and electricity, and the increase in imports of vegetables and animal stock to supplement the local production. It is worth noting that some of the services have lagged behind construction projects.

Thus the population and area of Riyadh have increased at an astronomical rate which has necessitated to rethink of new ways of solving the resulting problems especially the failure of providing services to some of the built-up areas.

The solution lies in the adoption of some measures to stop any further expansion, and the transformation of the existing outskirts to suburban towns, so that they will have their own services, and to stop the urban expansion on the lands that are located between these suburbans and Riyadh, but to build on lands that are inside each zone so that services can be catered.



The Population and Urban Growth of the City of Riyadh

Dr. Abdul Rahman El-Sharif

The city of Riyadh was built over the ruins of Hejr town, which was established about 2000 years ago on the west of Wadi Batha. The city of Riyadh, which was considered as a node of caravan transportation routes in the Arabian Peninsula, was one of its famous markets, and one of its administrative capitals.

It is possible to pursue four stages of Riyadh urban development. The first stage began in the middle of the 18th century and ended when it was restored by the Saudi family in 1902 during which it witnessed prosperity at one time and recession at another, depending on political and economic stability. But the second stage lasted the first half of the 20th century, that is, the period of the establishment of the Saudi State, its expansion and unification which facilitated the growth of Riyadh inside and outside the walls until it became 8.5 Km². The third stage covered the late part of the 20th century, that is, the period which witnessed the socio-economic growth. Riyadh is characterised by the gigantic extension and utilisation of concrete, and the area has been developed to become 65 Km² approximately. The fourth stage began in 1974, which was called the economic boom, resulting from oil royalties which led to the astronomical rise of revenues of the state. Consequently, more projects were implemented, and more loans under lenient terms were granted. Public and private housing, and road constructions were established. This has caused the extension of Riyadh to about 40 Km in every direction, in which the built-up area exceed 350 Km² in 1986.

This urban development has witnessed a parallel growth in population which was estimated to have been under 8000 people during the early part of the 20th century. The population gradually increased to reach 80,000 in 1950, but it surpassed 660,000 in 1974, and 1.2 million in 1985. This rapid increase is interpreted to be due to the natural rate of growth as well as the rural and foreign immigration.

The density of population in the old city of Riyadh was high because of the lay-out of houses and of the narrow roads. This density has begun to diminish owing to the external extension, widening of the roads, and the demolition of old quarters, which led to a decrease in building or room density. There has been a tendency in Riyadh for raising the percentage of the middle-age groups especially

The revolution of El-Qassam was a strong blow to Palestinian politicians to whom honor and fame were more important than the homeland.

To say the truth, the martyrdom of El-Qassam and his comrades in the forests of "Ya'bad" was the spark of the Palestinian revolution against Britain and the zionism in 1936.

In the morning of 20 November 1935, he became "a mark of Jihad". His name echoed throughout the country; his martyrdom revived the meaning of sacrifice and pride, and strengthened the will and resolution of Palestinians although they lacked ammunition and supply.

● ● ●

**Bulletin of
Arab Research
and Studies**



**Published
Annually
by the
Institute
of Arab
Research
and Studies**

- Contributions are invited from all over the Arab World especially from members of the teaching staff of Arab Universities. The focal domain of this Bulletin embraces all studies and researches relevant to current Arab problems in the fields of: Politics, Economics, Sociology, Law, Geography, History, Arabic Literature and Palestinian Studies.
- Papers written in Arabic or in any other foreign language must be accompanied with a resume or abstract of not more than 1000 words. The average length suggested is 6000 words.

All correspondences should be addressed to the following:

Prof. Dr. M.S. Abulezz

1, Sharia El-Tolombat, Garden City, Cairo, Egypt, (P.O. Box 229).

Conclusion

Eziddin El-Qassam in his Jihad (holy War) was the pioneer of the national strife in Palestine. He was true patriotic and brilliant in forming effective underground organizations.

Religion was the main factor that made Eziddin El-Qassam declare his revolt; he was a well-known religious and socially esteemed personality. His religious education and understanding of Islam made him refuse the oppression and be ready to confront it not only as a contribution to restoration of a part of his usurped country, but also as an execution of the order of God the almighty which dictates the "Jihad" in the cause of God and confrontation of oppression.

As an "Imam" of Al-Istiqlal mosque, he made use of his position to achieve, at the same time, three objectives: Instigation, Organization, and Training. The objectives of his "Jihad" were:

1. Expel the British colonization from Palestine.
2. Prevent the establishment of a jewish state in Palestine.
3. Establish a temporary Arab state in preparation for the achievement of comprehensive Arab unity.

The revolution of El-Qassam left a great shadow on the Palestinian political life. All attempts to have rapprochement between Palestinians and British authorities were failure because El-Qassam believed that only by Islamic "Jihad", the Palestinian issue could be solved. He also believed that all factions are just amusement, corruption and pastime unless they are based on true faith.



Vol. 3 - Year 13 - Number 585 - July-Aug 1975-76



Cover Picture:
Public Garden
In Al-Madina
Al-Munawara

The writers' views do not necessarily reflect those of the magazine.

Articles are arranged technically regardless of the writer's prestige.

Annual
Subscriptions :

- Saudi Arabia : 20 Riyals.
- Arab Countries : The equivalent of 4 issues price.
- Non-Arab Countries : US \$ 6.

Articles can not be returned to authors whether published or not.

● PRICE PER ISSUE ●

- | | |
|----------------------|------------------|
| - Saudi Arabia | : 3 Riyals |
| - U. A. E. | : 4 Dirhams |
| - Qatar | : 4 Riyals |
| - Egypt | : 40 Piastres |
| - Morocco | : 5 Dirhams |
| - Tunisia | : 400 Millicimes |
| - Non-Arab Countries | : 1 U.S. \$ |

Saudi Arabia : Al-Greisy Distributing Est.,
P.O. Box 1405, Riyadh, Tel.: 4022564.

Bahrain : Al-Hilal Distributing Est.,
Manama, P.O. Box 224, Tel.: 262026.

Abu-Dhaby : P.O. Box 3778, Abu Dhaby,
Tel.: 323011.

Egypt : Al-Ahram Distributing Est.,
Al-Gataa Street, Cairo, Tel.: 755500.

Dhubai : Dar-Al-Hikma Library.
P.O. Box 2007, Tel.: 228552.

Tunisia : The Tunisian Distributing
Company 5, Nahg Kartaj.

Qatar : Dar-Al-Thakafa.
P.O. Box 323, Tel.: 413180.

Morocco : Al-Sharifia Distributing Company,
P.O. Box 683, Casablanca, 05.





**Director General
of ADDARAH
Secretary General King
Abdul Aziz Research Centre
Abdullah Hamad Al-Hoqail**



All correspondence should
be directed to the Editor-in-Chief.

Editorial Director:

☎ : 4412571

EDITOR-IN-CHIEF

MOHAMMAD HUSSEIN ZEIDAN



EDITORIAL BOARD

**DR. MANSOUR IBRAHIM AL-HAZMI
ABDULLAH ABDUL-AZIZ BIN EDRIS
DR. ABDUL-RAHMAN AL-TAYYEB AL-ANSARI
DR. ABDULLAH AL-SALEH AL-UTHAYMIN
DR. MOHAMMAD AL-SULAYMAN AL-SUDAIS**



EDITORIAL AND TECHNICAL SECRETARY:

MOUSTAFA AMIN JAHEEN

All correspondence should be directed to the Editor-in-Chief. Tel.: 4417020

Editorial Board . Tel : 4412316 - 4412317



IN THE
NAME OF ALLAH.
THE MERCIFUL.
THE BENEFICENT



An Academic Quarterly
Issued by: King Abdul Aziz Research Centre

• Shawwal • May
No. 1 • Year 14 • D. Qudah 1408 A.H. June 1988 A.D.
• D. Hijjah • July

**King Abdul Aziz
Research Centre**

- Established by a Royal Decree No. M/ 45 dated 5/8/1392 A.H. as an autonomous body with independent juristic identity.
- Run by a Board of Directors vested with full authority to have its objectives materialized.

Objectives:

- To further studies pertaining to the history of the Kingdom, its geography, literature, intellectual and cultural heritage in particular as well as those of the Arab and Islamic world in general.
- Issue a cultural magazine carrying its name, **ADDARAH**.
- In accordance with the Royal approval No. 5/12608 dated 20/5/1396 A.H. the Centre has become the home of the National Saudi Archives and Manuscripts.

P. O. Box 2945 Riyadh-11461 Kingdom of Saudi Arabia

Facsimile No.: 00/966/1/4417020



رقم الفاكسبيل: ١٠/٩٦٦/١/٤٤١٧٠٢٠



ملِكُ الْغَرْبِ السَّعْدِيِّ

[illegible]

١٤٠٩ هجرية
1409 A.H

● **الإجازات الوظيفية.**

● **اليوم الوطني للمملكة.**

AL-DARAH



No. 1 • Year 14 • ShawwaL 1408 A.H • May 1988 A.D.

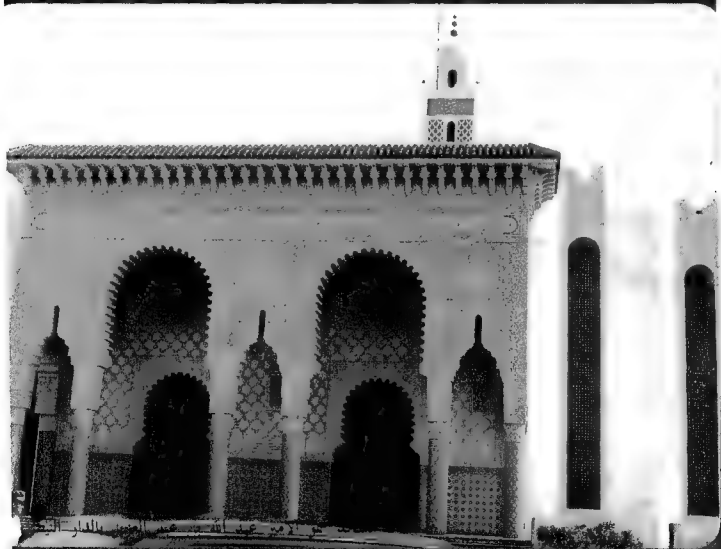


جديدة عامة في المدينة المنورة

الذاكرة



الذاكرة



المدرسة الإسلامية أو دار الفالدين بمكة المكرمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَالَّذِي يُضَوِّتُ النَّجْمَ
وَالَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ
وَالَّذِي يُجْعِلُ فِي
الْجِبَالِ سُرَادِسَ
وَالَّذِي يُجْعِلُ فِي
الْجِبَالِ سُرَادِسَ



مجلة فصلية مُحَكَّمة
تصدر عن دار الملك عبد العزيز

العدد الثايف . السنة الرابعة عشرة

الحرم، صفر، ربيع الأول ١٤٠٩هـ . أغسطس، سبتمبر، أكتوبر ١٩٨٨م

دارة الملك عبد العزيز :

أنشئت بمقتضى المرسوم الملكي الكريم رقم م / ٤٥
في ١٣/٨/ ١٣٩٩هـ كهيئة مستقلة ذات شخصية اعتبارية، يديرها مجلس
دارة لكافة الصداحيات اللازمة لتحقيق أهدافها .
والغرض من إنشائها ، خدمة تاريخ المملكة، وجغرافيتها ،
وأدائها . وآثارها الفكرية والعمرانية بخاصة ، والجزيرة وبلاد العرب
والإسلام بعامة ، وذلك عن طريق إنجاز البحوث ونشرها ، وجلب
الوثائق والخطوط وتحقيتها ، وإصدار مجلة تحمل اسمها . كما أنها
"المركز الوطني للوثائق والخطوط" بمقتضى المرافقة السامية
رقم ١٢٦٠٨٠ هـ في ١٢٦٠٨٠ هـ / ٥ / ١٣٩٦ هـ .

رقم الفاكسيميلى :

٠٠/٩٦٦/١/٤٤١٧٠٢٠

٢٩٤٥ - الرياض : ١١٤٦١

المملكة العربية السعودية



الأمين العام للدارة
ومدير عام المجلة

عبد الله بن حمد الحقيبل

رئيس التحرير

محمد حسين زيدان



• هيئة التحرير •

ترسل الاشتراكات باسم
الأمين العام للدارة

☎ : ٤٤١٢٥٧١

د . منصور إبراهيم الحازمي
د . عبد الله بن عبد العزيز بن إدريس
د . عبد الرحمن الطيب الأنصاري
د . عبد الله الصالح العنيميين
د . محمد سليمان السديس

ترسل البحوث باسم

رئيس التحرير

☎ : ٤٤١٧٠٢٠



الإدارة والتحرير

☎ ٤٤١٢٣١٦ - ٤٤١٢٣١٧

«سكرتير التحرير، والمشرق الفني»

مصطفى أمين جامين

الجمعية العلمية للدراسات والبحوث في اللغة العربية

* الاشتراكات السنوية *

- ٢٠ ريالاً للاشتراك السنوي داخل المملكة العربية السعودية .
- وفي البلاد العربية ما يعادل القيمة لأربعة أعداد في كل بلد .
- ٦ دولارات خارج البلاد العربية .

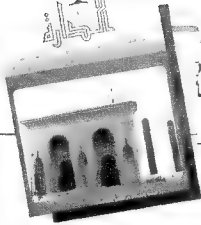
- يراعى في البحث أن لا يزيد عن (٣٠) صفحة من القطع المتوسط ومنسوخ على الآلة .
- ترتيب البحوث داخل العدد ينضج لأسباب فنية لا علاقة لها بمكانة الكاتب ..
- لا لثة البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر ..
- ترسل البحوث سريعاً إلى محكمين وهم لشرها بعد النظر في صلاحيتها للنشر .

قيمة المبد	
السعودية :	- ثلاثه ريالات
الامارات العربية :	- أربعة دراهم
قطر :	- أربعة ريالات
مصر :	- ٤٠ قرشاً
المغرب :	- خمسة دراهم
تونس :	- ٤٠٠ مليم
خارج البلاد العربية :	- دولار للمبد

- البحرين : مؤسسة الهلال للتوزيع
ص. ب. : ٢٢٤ التامة - ☎ : ٢٦٢٠٢٦
- مصر : مؤسسة الأهرام للتوزيع
شارع الجلاء - القاهرة ☎ : ٧٥٥٥٠٠
- تونس : الشركة التونسية للتوزيع
5، نج قرطاج
- المغرب : الشركة الشريفة للتوزيع
ص. ب. : 683 الدار البيضاء 05

- السعودية : مؤسسة الجزيرة للتوزيع
ص. ب. : ١٤٠٥ الرياض - ☎ : ٤٠٢٢٥٦٤
- أبو ظبي : مكتبة النبل
ص. ب. : ٢٧٧٨ أبو ظبي - ☎ : ٣٢٣٠١١
- دبي : مكتبة دار الحكمة
ص. ب. : ٢٠٠٧ - ☎ : ٢٢٨٥٥٢
- قطر : دار الثقافة
ص. ب. : ٣٢٣ - ☎ : ٤١٣١٨٠

الموزعون



صورة الغلاف : مسجد صاحب السمو الملكي الأمير
« عبد الله بن عبد العزيز » ولي العهد الأمين ، بمدينة
الدار البيضاء - المملكة المغربية .

في هذا العدد

- الافتتاحية ٥ رئيس التحرير
- المدرسة الإسلامية أودار الفالازين بمكة المكرمة ٧ د. عبد اللطيف عبد الله بن ديش
- الإنقطاع العسكري في العهدين المملوكي والعثماني ١١ د. محمد رجائي ريان
- مقاومة القبائل لسكة حديد الحجاز ٤٦ د. خالد حمود السعدون
- نموذج للتمو العمراني في مدينة سعودية صغيرة
« حرملاء » ٦١ د. صلاح عبد الجابر عيسى
- إدارة الرسول ﷺ للصراع في شبه الجزيرة
العربية ٩٠ لواء أ. ح. محمد جمال الدين محفوظ
- قراءة في مخطوطة (مفتاح القرب في آداب الأكل
والشرب) ١٠٧ د. محمد عثمان الملا
- قراءة في كتاب (تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب
الصحراء) ١١٥ أ. فاضل خليل إبراهيم
- الفرق بين (مِنْ) التبعية و (مِنْ) التبعية ١٢١ تحقيق د. محمد حسين أبو الفرح
- الرواية التاريخية حول صدر الإسلام في بلاد الشام
بين الفن والتاريخ ١٤٢ د. إبراهيم السعافين
- رحلات علماء نجد إلى الشام ١٧١ أ. عبد الله حمد الحقيقل
- التربية التنموية ١٧٩ د. عبد الرحمن محمد الميسوي
- علوم .. وعلوم ١٩٣ أ. مصطفى أمين جاهين
- حوار مع مدير مؤسسة الملك عبد العزيز بالمغرب ٢٢٦ أ. عبد الله إبراهيم الحقيقل
- الأسرة الشاعرة ٢٣٦ د. محمود جبر الريدادي
- قافية الشعر العربي ومحاولة الخروج عليها ٢٥٥ د. محمد الباتل
- السياسة الخارجية السعودية « عرض كتاب » ٢٧٩ د. عبد الله حسن الأشعقل
- جهاد شعب فلسطين ٢٨٦ د. إسماعيل أحمد ياغسي
- جهاد شعب فلسطين (مترجم إلى اللغة الإنجليزية) ٤ ترجمة أ. عبد السلام عبد النعم



واشمخت الإمامة

● بقلم رئيس التحرير ●

واشمخت الإمامة . وحجرها الرياض ، قبلًا في الجاهلية وإسلاميًا في صدر الإسلام ، فمنها ومن هو حولها من كل قبائل نجد ، كانوا صغار الإسلام ، والجفوة التي شفيت بها جزيرة العرب ، لم تنل من الإمامة إلا حاسيتها لأن تعود إلى ارتفاعها المسلم وشيوخها العربي بدعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وبسيوف الأئمة من آل سعود .

والحق يحاربه الباطل ، فإذا عبد العزيز بن عبد الرحمن يعود إلى الإمامة بالسيف ، فإذا هي تعود مسمخرة بالعقيدة وبالوحدة والأمن وينشر العلم .

وأبت الإمامة إلا أن تشمخر وتؤسس فيها - كما الجامعات - مكتبة باسم الملك عبد العزيز يؤسسها ابنه ولي العهد الأمين عبد الله ، جمعت التراث لتصون الميراث حتى أن الكتاب (الإكليل) يحفر جزيرة العرب المهداني ، قد ضاع ، تهاجته الأيدي من مكتبة صنعاء ، بيت المهداني ، فإذا رجل يجمع الإكليل في أجزاء من أكثر من مكتبة ، أخذه الجد ، فإذا الاجتهاد يعطيه ، ماذا يصنع به ؟ قالت مكتبة الملك عبد العزيز هاته .. اشترته استطعه إن لم يكن الآن تحت الطبع .

لقد كنت أذم سارق الكتاب يوم تسلط السراق على مكتبة عارف حكمت ومكتبة السلطان محمود والمكتبات الأخرى يسرقون الكتب ، كتب أدمهم لكي الآن أشكرهم ، لقد باعوها إلى من صانها .. باعوها في أوروبا .. واشترتها المكتبات ، فإذا كل هذه الكتب مضانة في كل مكتبة أوروبية ، لأنهم يعضوا للكتبات من حيث هو كتاب ، من حيث هو تراث إنساني ، لكن يخالف عقالدهم ، فإنه يتألف مع الفكر المتقف الذي تنقف أول الأمر بما وصل إليه عن طريق الأتدائن عن طريق مقلدته عن طريق القسطنطينية .. عن طريق بخاري .. عن طريق روما .. أخذوا عن كتابنا القيم الحضارية فهم لم يعرفوا راسطوا والفراطة وأقليندس إلا عن فلاسفتنا

هذا .. شمخت البشارق وألتي على صنائن الكتاب ، وألتي كان لي أن أفرح بطلبت من مؤسسة الملك عبد العزيز هذه أن يتغلب اختيار من رحلها يذهب إلى مكتبة الفايكان

التي جمعت أكثر من خمسين ألف كتاب ، حتى صحائف الجلد وعليها الآيات توجد في مكتبة الفاتيكان ، لو طلب ذلك منها رسمياً لما رفض البابا هذا الطلب . لا نأخذ الكتاب وإنما نصوره ، حتى يصبح الكتاب الثمين في روما وفي حجر الإمامة .

لقد اشتمخت الإمامة بهذه المؤسسة أعني المكتبة ، كما اشتمخت بالجامعات ، وكل ذلك كما الدولة كلها .. كما الكيان الكبير كله هو مؤسسة الملك عبد العزيز ، ولا أنسى الدارة فهي من الرديف وكل الرديف أصبح رديف ثقافة يذوق ثمارها الذين يتشققون .

وما نيت أن أكذب عن المؤسسة في المغرب فهذا العدد هو الذي يكتب عنها ويكتفي ذلك . كل ما فعلته هو أنني استجيت أو أنني رأيت أن تصدر الدارة ملخصاً عن ندوة المخطوطات العربية في هذا العدد . وليس بكثير على ابن عبد العزيز الأمير عبد الله ولي العهد . أن تأخذ الوراثة للعقيدة والوفاء للصدقة أن يذل ما بذل في سبيل تنظيم العلاقة الثقافية بين من هم أهل ثقافة واحدة ، ثقافة اللغة الشاعرة .. لا .. ثقافة القرآن . فقد حفظه المغاربة وفسروه ، وكان حبيب لنا نحن المشارقة حبا لا يعلى عليه .

فأقول من صدق شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب من أهل الأمصار ما كان إلا السلطان سليمان ، ولقد تعلمت هذه من الزعيم المغربي الشيخ علّال الفاسي في محاضرة ألقاها في بستان الزاهر بصفتة عضواً في رابطة العالم الإسلامي . ولا أدري هل أجدها عند الدارة أو في أي مكتبة أو حتى في الرابطة . فقد لعبت بعض الأيدي ببعض المحاضرات .

لعلاقة الملكة حرمًا وسياجًا وصحراء وبيت الشعر وبيت المدر والرجال ، علاقتهم وليقة بالمغرب العربي كله لأنهم كما ذكرت من قبل أهل النبات والإثبات يحبون هذه الأرض وإنسانها . فليسوا ، غلاظ الأكباد ، بل هم رفاق القلوب ، ورواة الحميرية الحنية وأخلاق الإسلام ، فتن شُع نوره في الحرم وسياجه ، فقد انتشرت أنواره من المغرب كله بالفاتحين الذين كانوا من هنا حتى تكتفونوا هناك سواء كانوا الفاتحين الأول أو كانوا بني هلال وبني سليم .. الفاتحون نشروا الإيمان وموجة نجد ومن لف لقه فيها من القبائل . هم الذين غزوا ، قالما عبد الحميد بن باديس ، يوم غابوا بني هلال بأنهم غزبوا . فقال يرجه الله - وهو بربري صنهاجي ، لكنه شيع من القرآن - قال : لئن قيل إنهم غزبوا ، لفتقل إنهم غزبوا .

ولست بهذا أتزيد ولا أتسئد ، وإنما أستجدي القارئ أن يعرف نفسه .. أن يعرف ما هم العرب ، ليعرف من هم العرب .. ولا أريد أن أزيد .

● محمد حسين زيدان ●

المدرسة الإسلامية أو دارالفائزين

بمكة المكرمة

● د . عبد اللطيف عبد الله بن دهيش ●

هي ثالث مدرسة أهلية حديثة تؤسس في مكة المكرمة بعد المدرسة الصولتية والمدرسة الفخرية العثمانيين خلال فترة الحكم العثماني للحجاز . ومؤسسها هو الشيخ/عبد الخالق محمد حسين البقالي ،^(١) وكان تأسيسها في عام ١٣٠٤ هـ (١٨٨٦ م) . وقد أطلق عليها مؤسسها عند تأسيسها اسم المدرسة الإسلامية ،^(٢) وخصص لها في البداية منزلاً مناسباً قرب المسجد الحرام ، ثم بنى لها من ماله الخاص داراً كبيرة في محلة السفلة ، أوقفها على المدرسة ، وذلك في السنة التالية من تأسيسها . كما أنه اشترى عدداً من الدور الصغيرة القريبة منها ، فأوقفها على المدرسة ، وخصص ريعها للإنفاق منه لصالح المدرسة ، بالإضافة إلى ما كان ينفقه عليها من ماله الخاص . رغبة منه في تأمين سير الدراسة بها ، ومساهمة خيرة منه في سبيل نشر العلم والمعرفة بين أبناء المنطقة وخاصة من الوافدين إليها .

وقد اشترط الواقف والمؤسس الشيخ عبد الخالق المذكور أن تكون النظارة على هذه المدرسة ، وأوقفها بعد وفاته ، أولاً لابنه محمد ، ثم في حال انقراض ذريته تكون النظارة لأهل الحيثية والمكانة من اليمين القاطنين في مكة المكرمة .^(٣)

وإلى جانب هذا العون المادي السخي من المؤسس ، فهناك عدد من المعونات المالية كانت تصل إلى المدرسة من أهل الخير ، وخاصة من مسلمي الهند ، ومن جملة هؤلاء الشيخ دولا بينباري البنقالي ، الذي تبرع هو الآخر بدار كبيرة ، ليتم تأجيرها وينفق من إيرادها لصالح المدرسة ، وذلك في عام ١٣٠٦ هـ الموافق ١٨٨٨ م .^(٤)

أما عن المنهج الدراسي في هذه المدرسة ، فهي مدرسة شبه ابتدائية ، ويدرس فيها علوم عدة منها : القرآن الكريم ، الهجاء والقراءة العربية ، والخط والحساب ومبادئ الفقه الإسلامي ، على أنه لم يكن لها برنامج أو خطة معينة تسير عليها لتدريس المواد المقررة بها ، بل كان برنامجها دائماً مضطرباً ، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى أنها كانت تحت أيدي أشخاص لم تكن لديهم أي خبرة في مجال التربية والتعليم .

وكان بها معلمون لا يقل عددهم في الغالب عن اثنين أو ثلاثة ، وكانت إدارتها تضم أشخاصاً يعيّنهم المؤسس ، الذي كان يتولى هو بنفسه رئاسة المدرسة وإدارتها والنظارة على أوقافها . وقد كان بها في السنوات الأولى من افتتاحها عدد من الطلاب لا يقل عددهم عن العشرين طالباً^(٥) . لكن هذا العدد أخذ في الازدياد تدريجياً ، على أننا لم تتمكن من الحصول على إحصائيات ثابتة وموثوق بها لعدد الطلاب والمدرسين بالمدرسة خلال هذه الفترة ، وذلك لعدم توفر سجلات بذلك .

وقد سارت الدراسة في هذه المدرسة طيلة حياة المؤسس محققة المزيد من التقدم في مجال نشر العلوم والمعرفة في مكة الطاهرة لكن عندما توفي المؤسس في حوالي عام ١٣٣٢ هـ الموافق ١٩١٤ م آلت ثروته إلى ابنه ، كما آل إليه أيضاً الإشراف على المدرسة والنظارة على أوقافها ، فأخذ في تبديد ثروة أبيه على مصالحه الخاصة ، ولم يعط المدرسة ما كانت تناله من والده من عناية واهتمام ، لكن أهل الخير من أصدقاء والده وقفوا له بالمرصاد ، فما كان منه إلا أن هرب إلى الهند ، حيث توفي هناك عام ١٣٣٤ هـ/ ١٩١٦ م ، فآلت النظارة على المدرسة وأوقافها من بعده إلى أحد التجار من الميمن ، وهو الشيخ عبد الستار أبو طالب . وبذلك احتفظت المدرسة بطابعها بعد أن كادت تغلق أبوابها ، وتم تغيير اسمها إلى مدرسة دار الفائزين . وقد عمل هذا التاجر على تسير الدراسة بالمدرسة على أحسن وجه ، كما استطاع تدبير المال اللازم لدفع مرتبات المدرسين والموظفين بالمدرسة ، بالرغم من المصاعب المالية التي كان يواجهها في تلك الفترة ، وذلك رغبة منه في أن تستمر هذه المؤسسة التعليمية في أداء واجبها ورسالتها العلمية على خير ما يرام .

وفي الوقت نفسه تم تعيين الأستاذ/عباس عبد الجبار مديراً لها وقد استمر في إدارتها مدة خمس سنوات وقام بتطوير الدراسة بها ، فازداد إقبال الطلاب عليها ، ونتيجة لذلك زاد عدد الفصول والمدرسين . وقد خلفه بعد ذلك الأستاذ/محمد سعيد جان^(٦) فبذل جهوداً

موفقة في سبيل رفع المستوى العلمي بالمدرسة ، وعمل على تشجيع الطلاب ومنح المتفوقين منهم جوائز تشجيعية .

ولذلك احتفلت المدرسة بالمتفوقين من طلابها وأقيم حفل كبير بهذه المناسبة ، وقد نشرت جريدة القبلة ذلك الاحتفال ،^(٧) مما يدل على أن المدرسة أخذت تخطو خطوات حثيثة إلى الأمام ، وذلك بفضل الله ثم بفضل الجهود الموفقة التي قام بها مديرها الجديد الأستاذ/محمد سعيد جان .

وقد استمرت المدرسة في أداء رسالتها العلمية طوال عهد الشريف حسين ، وكان الشيخ عبد الستار أبو طالب يدعم المدرسة عاماً بعد آخر ، بالهبات السخية ، ويشجع القائمين على إدارتها وهيئة التدريس بها ، ويحضهم على المزيد من الجهد والمثابرة على العمل ، فكان لذلك الدعم المادي والمعنوي أثره الكبير في جعل المدرسة تقوم بواجبها بمجد طيب .

وفي ٢٩ ربيع الأول عام ١٣٣٨ هـ الموافق ٢١ ديسمبر ١٩١٩ م ، أعلنت المدرسة في جريدة القبلة عن التنظيم الجديد الذي أدخل في مناهجها وتعيين عدد من المدرسين الأكفاء للتدريس في هذه المدرسة ، مع توفير اللوازم المهمة التي تحتاج لها المدرسة .^(٨)

وعلى ضوء هذا التنظيم أصبحت مدة الدراسة في هذه المدرسة أربع سنوات ، ويدرس الطالب خلالها المواد التالية : القرآن الكريم ، التجويد ، الهجاء ، القراءة ، الكتابة ، مبادئ العلوم الدينية ، مبادئ علوم اللغة العربية (النحو ، المطالعة ، والمخفوظات) ، والحساب ، والهندسة ، والجغرافيا ،^(٩) وأن جميع الكتب في هذه المواد تقدم للطلاب مجاناً .^(١٠)

وقد سارت الدراسة بالمدرسة حسب المهج الجديد فذاع صيتها وازداد الإقبال عليها عاماً بعد آخر ، ففي عام ١٣٤١ هـ الموافق ١٩٢٣ ، كان بالمدرسة خمسة مدرسين وأكثر من مائة طالب موزعين على السنوات الدراسية الأربع .^(١١)

وفي العام التالي احتفلت المدرسة بتخرج دفعة من المتفوقين من طلابها ، وذلك في حفل بهيج حضره أمير مكة وجمع غفير من الأعيان والمسؤولين .^(١٢)

وبعد فترة توفي الناظر/عبد الستار أبو طالب فأدى ذلك إلى صراع مرير بين القائمين على المدرسة ، لأن كل واحد منهم يطلب أن تكون النظارة على المدرسة وأوقافها بيده ، مما أدى إلى تدني المستوى الدراسي بها . ثم بعد فترة أصبح الإشراف على هذه المدرسة بيد عدد

من النظار الذين لم يتموا بالمدرسة والمستوى الدراسي بها ، فضعفت الموارد المالية التي كانت تسهم في بقاء المدرسة حتى كادت تقفل أبوابها . وقد أدى ذلك إلى تدخل مديرية المعارف العامة وهي الجهة المسؤولة عن التعليم في المملكة فقامت بإعادة تنظيم المدرسة وجعلت مناهجها تتماشى مع ما هو مطبق في المدارس الحكومية . وتم في عام ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٥ م تعيين الأستاذ/محمد سليم رحمت الله مدير المدرسة الصولتية مشرفاً عاماً على هذه المدرسة . وقد قام بتنظيمها تنظيمًا جيدًا . وعمل بجهد على حل مشاكلها المالية والإدارية فسارت الدراسة بها بصورة جيدة .^(١٣) لكن بعد فترة قل الإقبال عليها فأدى ذلك إلى إغلاقها ، وكان ذلك في عام ١٣٧٢ هـ الموافق ١٩٥٢ م ■

• الهوامش •


- (١) هو من أهالي الهد المهاجرين إلى مكة المكرمة ولم يعثر على تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته ، والمعلومات التي لدينا تؤكد لنا أنه عاش في الفترة ما بين أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجري ، وأنه عمل مطوفاً للسقاليين في مكة المكرمة . كما أنه درس في المدرسة الصولتية ودارم دروس السبح رحمت الله مؤسس المدرسة الصولتية ، وهو الذي اقترح عليه أن يفتح بعض ماله في مكة المكرمة ويؤسس بها مدرسة ويوقف بها دوراً لمصنع الحبوب ، وكان عند الخالي مؤسس المدرسة الإسلامية ذا مال كثير أفق حراً منه في إنشاء هذه المدرسة ونأمن مواردها المالية .
- (٢) جميع صكوك الوصية المسجلة في محكمة مكة المكرمة ومسجلها بالترسيم الأساسية القديمة بسميتها بهذا الاسم .
- (٣) محمد سليم رحمت الله - تقرير عن المدرسة الإسلامية ، محفوظ لدى ، ص ١ .
- (٤) ص ٣٨٦ رقم تاريخ ١٣٠٦/٦/٢٤ هـ الموافق ٢٥ فبراير ١٨٨٩ م . اعلمكم بالشرعية الكبرى بمكة المكرمة - العهد الأول عام ١٣٠٦ هـ .
- (٥) محمد سليم رحمت الله ، تقرير عن المدرسة الإسلامية محفوظ لدى ، ص ١ ، انظر أيضاً محمد حلمي . تقرير عن المدرسة الإسلامية ، محفوظ لدى ، ص ٨ .
- (٦) محمد سليم رحمت الله : تقرير عن المدرسة الإسلامية . ص ٢ .
- (٧) القبة : عدد ٣٤٥ ، ٣٤٦ .
- (٨) القبة عدد ٣٤٢ في ١٣٣٨/٣/٢٩ هـ الموافق ٢١ ديسمبر ١٩١٩ م .
- (٩) محمد سليم رحمت الله - التقرير انساق ، ص ١ ، والقبة عدد ٣٤٢ ، ٣٤٦ .
- (١٠) القبة عدد ٣٤٢ ، ٣٤٦ .
- (١١) مجلة المعارف الهدية ، عدد ١٢ لعام ١٩٢٣ م ، ص : ٣٥٥ .
- (١٢) القبة : عدد ٦٧٤ .
- (١٣) محمد سليم رحمت الله - تقرير عن المدرسة الإسلامية . ص ٣ .

الإقطاع العسكري

في العهدين المملوكي والعثماني

خزينة التاريخ
وجوانبه

د . محمد رجائي ريان ●

 مقدمة : تناول الباحثون الإقطاع ، ولكنه لا يزال بحاجة إلى دراسة ، لأن جوانبه التاريخية عديدة ودلالاته متعددة ، ومفاهيمه متطورة ، وستناوله في هذه الدراسة لا كفترة من الفترات أو كقطر من الأقطار وإنما كنظام لعهدين متعاقبين ، العهد المملوكي والعهد الإقطاعي .

ولما كانت لفظة الإقطاع قد اكتسبت عدة مدلولات قبل ظهور هذين العهدين فإن هذا يوجب علينا التعرض لهذه المدلولات في عهود سابقة ، لنصل بذلك إلى إدراك الجذور التاريخية للإقطاع للدخول في الإقطاع كنظام في العهدين المذكورين .

إن المنهج التاريخي يحتم علينا الولوج ولو بإيجاز في تلك العهود السابقة من منطلق أن الإقطاع مظهر حضاري له جذوره الاقتصادية والاجتماعية ، والمتصلة بالأرض التي عاش عليها الإنسان الذي يمثل هذا المظهر الحضاري ، ولما كان أي منهج تاريخي يعتمد في أساسه على البحث العلمي ، فإننا في الدراسة التاريخية التي تعتمد على الحقائق التاريخية لابد من الإطار الزمني للوصول إلى الأهداف التي وضعناها لهذه الدراسة .

لن نتعرض للإقطاع من جوانبه الفقهية أو أبعاده الإقليمية أو صفاته النظرية وإنما سنأخذ من جوانبه العملية ، كنظام عام ضمن دراسة تاريخية ، وهذه الدراسة ستحتم علينا الدخول في جنبات العصور الوسطى كعهد مملوكي والعصور الحديثة كعهد عثماني ، مع صعوبة الانقسام بينها لصعوبة التفريق ووضع الحواجز والقفز من عهد إلى آخر لتشابك العناصر الحضارية فيها .



أولاً : الجدور التاريخية للإقطاع في مفهومه الإسلامي :

لما كانت الحضارة الإسلامية ، قد جاءت بعد حضارات أخرى ، فقد وجد العرب بعد قيام دولتهم التي أسسها النبي محمد ﷺ إقطاعاً قديماً ففي الدولة الساسانية كان الفلاحون مرتبطين بالأرض ويعرون على القيام بأعمال السخرة ، ويخدمون في الحرب مشاة تحت لواء نبيل من النبلاء ، وهذا يدل على أن الساسانيين عرفوا اقطاعيات النبلاء .

وفي الدولة البيزنطية شرع قسطنطين في ٣٣٢ م قانوناً يصر على أن الملاح (Colonus) إن ترك أرض سيده أعيد إليها قسراً وبصير عبداً وفي ٣٥٧ م شرع قسطنطيوس بأن آل (Colonus) أي الاقنان يجب أن يباعوا مع الأرض . وفي اليمن حين قامت ملكية سبأ وذو ريدان زال الملا التجاري واستندت الملكية إلى شيوخ قبائل إقطاعيين ، فالأرض تعطى لشيخ القبائل لتتولى هذه زرعها ، وكانت الأرض تعطى في الأصل مقابل خدمة عسكرية ، كما صارت تعطى مقابل دفع مبلغ من المال ^(١) .

هذا الإقطاع هو الذي كان موجوداً في البلاد المفتوحة . فلما فتح العرب هذه البلاد اعتبروا أراضي الأسر الحاكمة وأراضي النبلاء الإقطاعيين الكبار الذين هرب جلهم أو قتل أثناء المعارك بالإضافة إلى أراضي معاند النار ، تعود ملكيتها لبيت المال ، ويصرف الخليفة شؤونها كما يريد ، فيعطيه بالمزارعة أو يترك فلاحها عليها يزرعونها ، وبذلك أصبحت عائلية هذه الأراضي للدولة ^(٢) .

لقد كانت الفتوحات الإسلامية عاملاً هاماً في تدمير الإقطاع القديم في البلاد المفتوحة ، وبذلك بدأ يبرز مفهوم إسلامي جديد للإقطاع يحل محل المفهوم القديم ^(٣) ، حيث أصبح معناه

في البلاد الإسلامية منح الأرض التي لا مالك لها مقابل الخراج أو العشور أو منح غلة الأرض في مقابل إعطاء شيء أو ضمانته لبيت المال ، والإقطاع حسب هذا المعنى صار إما إقطاع إقليم بأكمله لعامل من العمال أو يخصص دخل قطعة من الأرض أجراً أو معاشاً ، ثم اتسع مدلول الإقطاع حتى استعمل للدلالة على جمع الضرائب والمكوس والجزية .^(٤)

ولتوضيح هذا المفهوم ودلالته نورد هنا شواهد تاريخية عملية ، ففي خلافة عمر بن الخطاب أقطعت بعض الأراضي ، فقد منح أراضٍ لأفراد من الكوفة ، وقال الليث بن سعد « ولم يبلغنا أن عمر بن الخطاب أقطع أحداً من الناس شيئاً من أرض مصر إلا ابن سندر ، فإنه أقطعه أرض منية الأصبغ ، فلم تزل له حتى مات فاشترها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان من ورثته ، فليس بمصر قطيعة أقدم منها ولا أفضل »^(٥) . واصطفى عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أرض السواد أموال كسرى وأهل بيته وما هرب عنه أربابه أو هلكوا ، فكان مبلغ غلته تسعة آلاف درهم وكان يصرفها في مصالح المسلمين ولم يقطع شيئاً منها^(٦)

وعندما جاء عثمان توسع في ذلك قال الأعمش عن إبراهيم بن المهاجر عن موسى بن طلحة ، قال : أقطع عثمان رضي الله عنه عبد الله بن مسعود النهرين وعمار بن ياسر أسنا وأقطع خباباً وصهيباً وأقطع سعد بن أبي وقاص قرية هرمز^(٧) . وبشكل عام فقد شجع الخلفاء الأولون القبائل على الهجرة إلى المدن الجديدة والمراكز الأخرى للالتحاق بالقوات المقاتلة وجعلوا ذلك شرطاً للعطاء ، في الوقت الذي أسكنت فيه بعض القبائل في المدن الساحلية (روابط) وأقطعت الأراضي لضمان تموينها واستقرارها .^(٨)

ونلاحظ أنه في عهد الخلفاء الراشدين أن المصدر الأول إقطاع الأرض من قبل الخلفاء وأكثر من توسع في ذلك هو عثمان بن عفان ، يقول البلاذري « ومع أن الإقطاعات الممنوحة كانت متواضعة إلا أن بعضها كانت قرية أو ضيعة كبيرة »^(٩)

وفي العصر الأموي ، حصل توسع كبير في منح الإقطاعات ، بدأ ذلك في أيام معاوية حيث منح الأراضي واستصفي أراضٍ في سورية اتخذها لنفسه وسار العديد من الخلفاء الأمويين على نفس الطريقة^(١٠) . والإقطاعات كانت من الصوافي أو من الأرض الموات ،^(١١) وكان الملاكون في العصر الأموي يقيمون في المدن ويديرون مزارعهم بالوكلاء ، وكان بعض الأمراء من أكبر ملاكي عصرهم مثل منبلة بن عبد الملك ، وأقطع سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب إقطاعاً واسعاً مثل عدد من الضياع والأشجار ومثل خالد القسري أوج هذا الاتجاه .^(١٢)

وفي العصر العباسي استولى العباسيون على ضياع الأمويين وأمرائهم وأحدثوا ديواناً خاصاً للضياع السلطانية، وكانت الضياع السلطانية واسعة وغنية وموزعة في أرجاء بلاد الخلافة.^(١٢) وفي القرنين الثالث والرابع للهجرة (التاسع والعاشر للميلاد) تطورت الحياة الزراعية وتوسعت الملكيات الزراعية وظهر إقطاع يقول عنه الدوري بأنه إقطاع زراعي بصورة واضحة وواسعة وكان للتجارة دور في ذلك.^(١٣)

إن هذا الإقطاع الذي استعرضناه من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخلفاء بني أمية وخلفاء بني العباس حسب دلالاته ومفهومه الإسلامي يجمله المقرئزي « بأنه إقطاع العطاء وهو استمرار لما كان موجوداً في صدر الإسلام وظهر واضحاً بهذا المعنى في مصر ».^(١٤) وبدورنا نستطيع القول بأن المفهوم الإسلامي للإقطاع بقي خلال هذه العهود التي ذكرناها هو العطاء وإن حدث توسع في بعض الأحيان لهذا المعنى إلا أنه بقي إقطاع عطاء في مفهومه الواسع ثم من الناحية العملية .

ثانياً : الإقطاع العسكري :

لكن المفهوم السابق بدأ في التغير ، في ظل معطيات جديدة ، تتعلق بمؤثرات تركية ومغولية أو ما يمكن تسميته بالسلط الأجنبي ، أدت إلى إفراز ما سمي بالإقطاع العسكري .

ففي القرن الثالث الهجري ، اعتمد العباسيون على المرتزقة من الجند الترك ، فأدى ذلك إلى ضعبعة سلطانهم وأكد الحركات الانفصالية والاجتماعية .

والحقيقة أن أصول هذا الإقطاع يجري فيها خلاف بين من بدأ الأخذ به، فبولياك (Poliak) يرى أنه بدأ في دولة محمود الغزنوي ثم انتقل إلى السلاجقة ولكن بوزورث (Bosworth) بين أن الغزنويين الأوائل دفعوا أعطيات الجند بالنقد وأن الإقطاع ظهر لديهم بعد السلطان مسعود وأشار إلى تخمين كوبريلي بأن الغزنويين ربما اقتبسوا ذلك من السلاجقة وترى لامبتون (Lambton) أصول هذا الإقطاع في القرن الرابع الهجري نتيجة الحاجة إلى المال أما كلود كاهين (Cl. Cahen) فيرى جذور الإقطاع العسكري قبل البويهيين ويرى أن خطهم يمثل أوج تطور بدأ بتفوق العسكريين قبل قرن من ذلك.^(١٥)

وقد تصدى لهذا الموضوع مؤرخون عرب معاصرون ومنهم أحمد المختار العبادي الذي يرى « أن نظام الملك في عهد السلاجقة كان أول من أقطع الإقطاعات للمماليك الأتراك ، فبعد أن كان عطاء الجندي يدفع نقداً صار يقطع إقطاعاً ».^(١٦)

أما الدوري فإنه يرى أن خط البويهيين هو بداية مرحلة الإقطاع العسكري وأن السلاجقة أتوا ما بدأه البويهيون ، على أساس أن البويهيين انطلقوا من نظرة قبلية تعتبر الأرض المفتوحة غنيمة بحق ، وأهلوا المفهوم الإسلامي بالنسبة للأرض ، وهذه في اعتقاد الدوري نقطة التحول الهامة في الإقطاع.^(١٧)

وهذا الرأي يؤيده إبراهيم علي طرخان حيث يقول « إن الوزير نظام الملك الفارسي الأصل الذي وزر لألب أرسلان (١٠٦٥ - ١٠٧٢) ولابنه ملكشاه من بعده وهما من الأتراك الغز لم يكن المبكر لهذا النظام وإن كان هو الذي عممه ، فقد سبقه إليه بنو جلدته من البويهيين ».^(١٨)

وفي اعتقادي بعد عرض هذه الآراء أن بداية مرحلة الإقطاع العسكري كانت عند البويهيين هي الغالبة مع عدم إنكارنا لأهمية من سبقوا البويهيين أو عاصروهم في هذا المجال .

أما كيف تمت هذه البداية ، فقد حدث أن معز الدولة البويهي ، بعد ضجيج الجند من الديلم ومطالبتهم بالعطاء ، أعطى الإقطاعات لقادته وخاصة الجند بذل العطاء وكانت هذه الإقطاعات من الضياع المصادرة وكذلك من أرض الخراج ، وأعطى إقطاعات لوزرائه وكبار موظفيه ، ثم توسع في إقطاع جنده الأتراك ، وبمرور الزمن توسع هذا الإقطاع العسكري ليشمل معظم المناطق البويهيّة وانتشر على حساب ضياع الخلافة والصوفاي والأُملاك الخاصة ، حتى أن عضد الدولة أقطع أراضي الوقف للجند.^(١٩)

والتفسير التاريخي لبداية نشوء الإقطاع العسكري يورده الدوري على أساس « أن البويهيين كانوا في وضع حضاري متخلف ألفوا في بلادهم حياة اقطاعية تقوم على رؤساء القوافل (كخزنا) ، وقد جاؤوا على رأس جيش أجنبي من ديلم وترك يعتمدون عليه ، وغلب الاتجاه العسكري في الدولة ، وكان الغزو الأجنبي البويهي فاتحة عهد السيطرة الأجنبية في البلاد العربية وبداية انحراف في التطور الاقتصادي من الاعتماد على التجارة والتد إلى الاعتماد على الزراعة ولدى نشوء نظام من الإقطاع العسكري ، فبدل أن يدفع البويهيون الرواتب لجندهم ذهبوا إلى

إقطاعهم الأراضي والقرى يأخذون من وارد ضرائبها بدل الرواتب وأعطيت الأراضي التي لم يشملها الإقطاع بالضمان^(٢٠).

وإقطاع البوبيين يختلف عن النوعين المعروفين من قبل وهما إقطاع التملك وإقطاع الاستغلال ، فإقطاع التملك يفترض فيه أن يكون من أرض الموات لإحيائها أو من أرض الصوافي ويعطي صاحبه حق الملكية ويدفع عنه العشر ، أما إقطاع الاستغلال فهو مؤقت وهو شبيه بالمزارعة ويدفع صاحبه عادة الخراج^(٢١).

أما إقطاع البوبيين فهو في الأساس إقطاع لوارد الأرض في أراض لها زراعتها وملاكها إلى الجند والقادة ، ومن صفات الإقطاع البوبيي العسكري أنه لم يكن من حيث المبدأ وراثياً ، ولم يكن بالضرورة مدى الحياة ، حيث بإمكان الأمير البوبيي إلغاء الإقطاع إذا أراد ، كما أن المفروض أن هذا الإقطاع أعطى محل العطاء وأن المقطع مسؤول عن دفع مبلغ للخبزينة بالنقد أو النوع^(٢٢). أما الواقع فهو أن الجند عملوا على عدم الوفاء بذلك وتصرفوا وكأن الإقطاعات ملكاً لهم وتركوا الإقطاعات لوكلائهم^(٢٣).

ومن الملاحظ أنه أصبح عند البوبيين إقطاع عسكري ، وأساسه هو أن يعطى بدل العطاء مقابل خدمة المقطع العسكرية ، لكنه لم يكن يعني تنظيمياً للسلطة كما في الغرب الوسيط^(٢٤). وإقطاع البوبيين كان مستمداً من جذورهم القبلية المبنية على نظرتهم الإقطاعية التي ترى أن الأرض ملك للغالب ، وترى حق الجيش في اقتسام خيراتها^(٢٥).

ثم جاء السلاجقة ، عندما بلغ الإقطاع العسكري شكله المتكامل وأصبح السياسة الرسمية نظرياً وواقعياً .

لقد كان أمام السلاجقة الإقطاع العسكري البوبيي والغزنوي ، فقام الوزير نظام الملك (ت ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) ، وعمل على تنظيم هذا الإقطاع وتعميمه ، والحقيقة أن ارتباط نظام الملك بهذا العمل فيه إجماع عند المؤرخين ، فقد وجد أن مملكة السلاجقة قد اتسعت فرأى أن يسلم إلى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقل على قدر طاقته^(٢٦). كذلك فقد ورث السلاجقة عن البوبيين تركة اقتصادية متدهورة نجمت عن سوء تصرف بني بويه وخاصة في النواحي المالية^(٢٧) ، في الوقت الذي أدى سوء تصرف بني بويه وأعوانهم إلى خراب البلاد فضلاً عن إقصاء السكان العرب عن بلادهم تدريجياً وكثرت الفتن والاضطرابات ، كل هذا حمل أصحاب

السلطة الجديدة في بغداد أي السلاجقة إلى إعادة النظر في النظم القائمة وعلاجها على النحو الذي بدا لهم ، ولذلك قام الوزير نظام الملك من أجل إصلاح هذا الوضع الذي أصبحت فيه الأموال لا تحصل من البلاد حيث أصاب الخلل الإيراد أي الدخل ، ففرق الأرض على الأجناد إقطاعات مما زاد في الدخل بعد توفر المحاصيل وارتفاع إيراداتها^(٢٨)

وفي رأي الدوري أن من الأسباب التي جعلت نظام الملك يأخذ بالإقطاع العسكري « أن الدولة السلجوقية لم تعد تستطيع الاعتماد على القبائل التركمانية ، كما كانت الحال في البدء ، وصارت قوتها بالدرجة الأولى من الممالك والرقيق ، فكان الإقطاع العسكري وسيلة لمواجهة نفقاتهم »^(٢٩)

لقد كانت الدوافع التي جعلت نظام الملك يتخذ الإقطاع العسكري في مجملها ، تدخل ضمن إطار حل مشكلات الدولة السلجوقية ، وعلى أساس أن تسليم الأرض للمقطعين يضمن عمارتها وعناية مقطعيها بها ، وفي ذلك ما يحفظ للدولة السلجوقية قوتها وثروتها ، حيث يتم عن طريق النظام الإقطاعي العسكري مواجهة المشكلات التي واجهت الدولة وهذا يمثل جانباً عملياً في عملية الأخذ بهذا النظام .

لذلك سار سلاطين الدولة على ذلك النظام ، فمناحوا القلاع والمدن والولايات إقطاعاً للقادة من مملكتهم وذلك مقابل الخدمات العسكرية التي يؤدونها لهم وقت الحروب ، وعلى هذا الأساس صار معظم أراضي فارس والجزيرة والشام مقسماً إلى إقطاعات عسكرية يحكمها ممالك السلاجقة وهؤلاء جعلوا لأنفسهم جيوشاً من الممالك في مختلف الولايات ، حتى إذا دعت الحاجة إلى حضورهم للخدمة في الحروب ، جاء الوالي المملوكي بمماليكه وعدته وسلاحه للمشاركة في القتال^(٣٠) بهذا نستطيع القول إن الإقطاع العسكري السلجوقي كان مبنياً على فكرة الإقطاع مقابل الخدمة وفيه استمرار لخليق ما لما جرى زمن البويهيين ، لكنه لم يكن على نفس الصورة التي كان عليها زمن البويهيين ، لأنه نظام الملك لم يرغب في أن يكون هذا النظام صورة طبق الأصل لما شهدته في العهد البويهي .

لذلك اتجه به نظام الملك نحو مبدأ الوراثة ليحقق به الأغراض التي من أجلها وضع في الدولة السلجوقية ، ووجد أنه بهذا يمكن تحقيق تلك الأغراض ، ولكن لم يظهر مبدأ الوراثة في أيامه بشكل واضح ، من حيث التطبيق ، بل بدأ التطور في هذا الموضوع في أيام نظام الملك إلى أن أصبح إقطاعاً وراثياً في أواخر الفترة السلجوقية^(٣١)

أما المقريري في خططه فقد ذكر أن السلاجقة عدلوا النظام الإقطاعي فجعلوا الإقطاعات وراثية . ولم يذكر نظام الملك بالاسم كصاحب لهذا التعديل في مقابل الخدمة العسكرية ، ذلك لأنهم كانوا قبيلة من البدو همهم اجتذاب أكبر عدد ممكن إلى الجيش ، وظنوا أنهم بذلك يضمّنون لأنفسهم جيشاً مخلصاً ، ويقول المقريري « إن جندياً في جيش الأمير السلجوقي أتاك (٣٢) ، نور الدين صاحب حلب قال : الإقطاعات أملاكنا يرثها أولادنا ، الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها » (٣٣) .

ومن الأسس التي وضعها نظام الملك في الإقطاع العسكري السلجوقي واختلفت عنه في عهد البويهيين تفريقه لإقطاع الجندي الواحد في بلاد مختلفة ولم يجعله جملة واحدة في بلد واحد ، فقد جعل نصفه أحياناً على بلد في آسية الصغرى ونصفه أحياناً على بلد في أقصى خراسان . (٣٤) حتى لا يقوى المقطع بما يكون له من عصبية وقوة قد تكون خطراً على الدولة ، واتخاذ نظام الملك هذا الأساس كان إجراءً وقائياً ليحد من خطورة المقطع على السلطة المركزية .

وما يجدر ذكره أن هذا التطور الذي حدث في الإقطاع العسكري السلجوقي كان مستمداً من نظرة السلاجقة القبلية التي تستند إلى الملكية المشتركة للأرض وتراث البويهيين في الإقطاع العسكري ، ثم أن نظرة الدولة السلجوقية كما عرضها نظام الملك كانت مبنية على أساس بأن الأرض وأهلها تعود للسلطان ، وهذه النظرة أكسبت الإقطاع العسكري أساساً نظرياً بالإضافة إلى أسسه العملية التي قام عليها .

كذلك فإن الإقطاع العسكري السلجوقي الذي كانت مظاهره الواضحة قد ظهرت أيام قوة السلاجقة والذي بني على أشخاص من كبار مماليكهم أطلق عليهم الأتابكة ومنحوا الإقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم على شؤون الأبناء وتأدية الخدمة العسكرية وقت الحرب ، هؤلاء الأتابكة سرعان ما صاروا أصحاب النفوذ الفعلي في تلك الإقطاعات حيث انتهزوا ضعف الدولة السلجوقية وتفككها واستقلوا بولاياتهم شيئاً فشيئاً حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم ، (٣٥) وعن طريق هؤلاء انتقل الإقطاع العسكري واستقرت مبادئه في الدول التي نبتت وتفرعت في أحضان السلاجقة ثم ورثهم من بعد ومن هذه الدول ، الدولة الزنكية . (٣٦)

أما الفاطميون ، فعهدهم يمثل فترة انتقالية ما بين الزنكيين والأيوبيين من ناحية الإقطاع العسكري ، فالتطورات التي حصلت في عهدهم مهدت لإدخال الإقطاع العسكري إلى دولة

الأيوبيين ، في الوقت الذي كان طبيعياً أن تسير الدولة الأيوبية في التوزيع الإقطاعي العسكري على سنن أساتذتها من السلاجقة وآل زنكي .

لقد بدأ صلاح الدين الأيوبي فعلاً منذ صار نائباً لنور الدين بعد وفاة العاضد عام ١١٧١ م وقبل أن يستقل بالبلاد ، يقول المقرئزي « وأما منذ كانت أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فإن أراضي مصر كلها تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده » .^(٣٧)

وفي مكان آخر من خططه يقول المقرئزي « واعلم أنه لم يكن في الدولة الفاطمية بديار مصر ولا فيها قبلها من دول أمراء مصر لعساكر البلاد إقطاعات ، بمعنى ما عليه الحال اليوم - أي منذ زمن المقرئزي في القرن الخامس عشر الميلادي وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات » ،^(٣٨) معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم » .^(٣٩)

وما نستنتجه من المقرئزي أن الإقطاع العسكري دخل مصر بدخول صلاح الدين الأيوبي إليها وعلى أساس أنه لأول مرة تم فيها توزيع البلاد إقطاعات بين السلطان وجنوده .

ثالثاً : النظام الإقطاعي في عهد المماليك

استمد النظام الإقطاعي المملوكي مقوماته الأساسية من عنصرين : الأول الإقطاع الإسلامي السلجوقي والأيوبي خاصة ، والثاني الإقطاع اللاتيني على النحو الذي نقله الصليبيون من بلادهم إلى الإمارات التي كونوها في الشرق الأدنى الإسلامي والمسيحي على السواء .^(٤٠)

والحقيقة أن معظم مقومات الإقطاع المملوكي جاءت من الإقطاع السلجوقي والأيوبي ، أما ما جاء من الإقطاع اللاتيني ، فقد حدث تأثيره في فجر عهد المماليك ، وهو تأثير ضئيل .^(٤١)

لقد كانت دولة المماليك دولة إقطاعية ،^(٤٢) واعتبر عهد سلاطين هذه الدولة (١٢٥٠ - ١٥١٧) العصر الذي اكتملت فيه النظم الإقطاعية الحربية في منطقة الشرق الأدنى ، فقد نشأ المماليك في هذا النظام زمن الأيوبيين وأقاموا دولتهم الإقطاعية الكبرى على أنقاض دولة أساتذتهم من الأيوبيين واعتبرت الأرض ملكاً للسلطان وجنوده وهو الاعتبار الذي وضع زمن السلاجقة .

وما يندر ذكره أن السلاطين من بني أيوب اصطنعوا طوائف من الأجناد الممالك ووضعوا لإعدادهم والترقي بهم وتوليهم المناصب نظاماً خاصة واقطعواهم الأراضي حتى تولى الممالك الحكم ، فذهبوا في تطبيق هذا النظام إلى غايته ، وربطوا بين نظام الأراضي والأداة العسكرية على نحو لم تعرفه الدولة الإسلامية من قبل حتى أصبحت الأرض وكأن لا وظيفة لها إلا «إعاشة الأجناد ، وأصبح هؤلاء الممالك الذين تولوا السلطة يشكلون طبقة حاكمة منظمة بشكل جيوش إقطاعية في غالبيتها من عناصر أجنبية الأصل ، ففي القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد كان أكثرهم من الأورود الذهبي (القبائل التتارية في روسيا الشرقية) وفي القرن الخامس عشر والسادس عشر كان معظمهم من القوقازيين والجراسية بنوع أخص وكل هؤلاء كانوا ينسبون أنفسهم إلى الأتراك .^(٤٣)

من هنا كانت أصول الإقطاع المملوكي ، إقطاعاً حريياً في صفاته العامة ولذلك يقول المقرئزي « إن أرض مصر زمن الممالك كانت تنقسم إلى سبعة أقسام :

- ١ - قسم يجري في ديوان السلطان وهو ثلاثة منه ما يجري في ديوان الوزارة وما يجري في ديوان الخاص وما يجري في المفرد .
- ٢ - والقسم الثاني أقطاعية السلطان للأمرء والجند .
- ٣ - وقسم جعل وفقاً على الجوامع والمدارس .
- ٤ - أرض الأجناس .
- ٥ - ملك يباع ويشترى ويورث .
- ٦ - قسم لا يزرع للعجز من زراعته .
- ٧ - قسم لا يصله ماء النيل فهو قفر ولا يزال كذلك .^(٤٤)

وما تجدر ملاحظته في هذا التقسيم ، القسم الثاني وهو الإقطاع الحربي ، ومع ذلك فإن جميع الأقسام الأخرى رغم مسمياتها المختلفة تعرضت للتوزيع الإقطاعي ، يقول القلقشندي « كانت البلاد بجمليتها جارية في الدواوين السلطانية وإقطاعات الأمرء وغيرهم من سائر الجند إلا النزر اليسير مما يجري في وقف ملوك مصر على الجوامع والمدارس والخوانق ونحوها مما لا يعتد به لقلته » .^(٤٥)

إن هذا النظام الإقطاعي المملوكي العسكري الذي شمل معظم أراضي الدولة المملوكية

تميز باكتمال النظم العسكرية فيه وبالتالي فلا بد من الخوض فيه لإبراز صفاته العملية ومنهجه الذي سار فيه الممالك كدولة إقطاعية عسكرية .

الإقطاعية^(٤٦) ، في عهد الممالك هي كناية عن إخاذة (تعرف بالخبز أو المثال)^(٤٧) تمنحها الدولة للأمرء والفرسان وتعتبر ملكاً مؤقتاً لهم يستغلونه حسبما يشاؤون ، إذ تتنازل الدولة عن هذه الإقطاعات فتقسم على الأمرء والفرسان تبعاً لرتبهم العسكرية^(٤٨) . كتب القلقشندي « تجري الإقطاعات في الدولة المملوكية على الأمرء والجند وعامة اقطاعاتهم بلاد وأرض يستغلها مقطوعها ، ويتصرف فيها كيف شاء ، وربما كان فيها نقد يتناوله من جهات وهو القليل ويختلف باختلاف أربابها » .^(٤٩) لكن تراعي الدولة أن يكون دخل الإقطاعية كافياً لسد فاقتهم ، لذا كانت الدولة تفرض على آخذني معظم الإقطاعات الصالحة للزراعة رسماً أو ضريبة تدفع من دخلها في بدء كل عام للحكومة الرئيسية ، كذلك فإن الإقطاعات لم تقتصر على مختلف أنواع الأراضي بل تعدتها إلى جميع موارد الدولة وهذا ما يؤكد القلقشندي حيث يقول « صارت الإقطاعات ترد من جهة الملوك على سائر الأموال من خراج الأراضي والجزية وزكاة المواشي والمعادن والعشر وغير ذلك »^(٥٠).

لقد تركزت غالبية الإقطاعات في العهد المملوكي في رجال السيف ، وتنصرف كلمة رجال السيف إلى السلطان وأمرائه وأجناده أي إلى الجيش المملوكي بأجnasه وفرقه المختلفة ، فقد كان الجيش المملوكي جيشاً إقطاعياً يتألف من ثلاثة أقسام رئيسية :

القسم الأول : أجناد الحلقة ، وهم فرسان يأترون بإرادة السلطان دون أن يكونوا ملكاً له .^(٥١)

القسم الثاني : يعرف بالممالك الملكيين وهم ملك السلطان يعتنون بالمشتروات والسلطانية والسيفية .

القسم الثالث : يشتمل على الأمرء ومماليكهم .^(٥٢)

وبما يجدر ذكره أن أول رجال السيف هو السلطان ، ويعرف إقطاعه باسم الخاص السلطاني ، والخاص السلطاني غير الأملاك الشريفة السلطانية ، فالخاص هو الإقطاع الذي يحوزه السلطان ، وحسب القاعدة العامة في التوزيع الإقطاعي ، فقد كان خراج مصر يقسم إلى أربعة وعشرين قيراطاً ، توزع أجزاؤها على القرى توزيعاً متناسباً مع طاقتها ، فقد اختص السلطان

فيها بأربعة قراريط وعشرة قراريط للأمرء والعشرة قراريط الباقية اختص بها أجناد الحلقة. (٥٣)

ومن خلال مبدأ التوزيع الإقطاعي الذي كانت تقوم عليه دولة الممالك فإن الأراضي المقطعة كانت ثلاث درجات من حيث الري والخصوبة ووفرة الإنتاج وبطبيعة الحال فقد اختص السلطان وكبار أمرائه على قدر منازلهم بأجور هذه الأراضي ويسمي القلقشندي هذا النوع من الأراضي (البلاد النفعية الكثيرة التحصيل) أما المتوسطة الجودة فتقطع للممالك السلطانية ويولي ذلك أرض الدرجة الثالثة ، وهذه تقطع لأجناد الحلقة والعربان والتركمان. (٥٤)

لقد كان طبيعياً بعد أن ترسخت أقدام النظام الإقطاعي العسكري ، أن تحدث فيه تطورات في أجهزته المتعددة ، بعد أن تعدى مرحلة فجر دولة الممالك وأن تصبح له قواعد معينة وثابتة تغطي كافة إداراته ليصل هذا التطور إلى مرحلة اكتمال الصفة العسكرية لهذا النظام ولتصبح دولة الممالك دولة إقطاعية عسكرية بمعنى الكلمة .

لقد أصبح لهذا النظام إدارة ، وتشمل هذه الإدارة ورأسها السلطان : الدواوين والموظفين المنوط بهم أمر النظر في الإقطاع ، وأول هذه الدواوين ديوان الجيش فهو مظنة الإقطاعات أي سجلها على قول القلقشندي ، (٥٥) ويسميه المقرئ أيضاً ديوان الإقطاع ، (٥٦) فقد كان عبارة عن مجلس حكومي مختص بحق إسناد الإقطاعات ومراقبتها ، وله مكتب رئيسي في القاهرة وينقسم إلى فرعين :

١ - ديوان الجيش المصري مخصص لمصر .

٢ - ديوان الجيش الشامي مخصص بالإقطاعات السورية واللبنانية والفلسطينية. (٥٧)

وكان هذا الديوان من أكبر الدواوين المختصة بالشؤون المالية. (٥٨) حيث تحسب فيه مدخول الإقطاعات. (٥٩)

وقد برزت أهمية الدواوين في النظام الإقطاعي المملوكي عندما أدخلت إقطاعات السلطان في الدواوين السلطانية التي تقع في أربعة أصناف واعتبر ذلك تطوراً ملحوظاً في إدارة الإقطاع المملوكي ، وهذه الأصناف الأربعة هي :

الصنف الأول يشرف عليه ديوان الوزارة والصنف الثاني ويشرف عليه ديوان الخالص ،

وفي عهد السلطان برقوق تطور الإقطاع مرة أخرى بإنشاء الديوان المفرد الذي أفرد له السلطان بلاداً معينة ، ثم أحدث ديواناً آخر هو ديوان الأملاك .^(٦٠)

ومن مظاهر اكتمال النظام الإقطاعي المملوكي عملية التوزيع الإقطاعي التي كانت تتم ضمن أسس معينة تخضع لأحوال عديدة وعوامل متعددة .

ومن هذه الأحوال وهي أحوال عامة ، وهي أنه عند قيام سلطان جديد يعمل هذا السلطان على تدعيم عرشه ، حتى لو اقتضى ذلك مجاملة سلفه المعزول ، خاصة وأن تغير السلطان يقتدر في معظم الأحوال بكثير من إحداث الفتن والمنافسة ، فلا بد لولي الأمر الجديد من إجراء حركة توزيع ومناقلات أو زيادة أو عزل . أو أثناء قيام أحد الأمراء بتدبير المملكة نيابة عن السلطان الذي لم يبلغ سن الرشد أو عند انحلال الإقطاع بسبب وفاة صاحبه أو مصرعه .^(٦١)

كذلك إذا ما اتسعت رقعة الأرض سواء أكان بالفتح الخارجي أم بإصلاح الأراضي البور وزرعها ولي الأمر إقطاعات بين أقرانه وأجناده وسائر الممالك على هذه القاعدة حسب أصول شرعية^(٦٢) ، ومن الوسائل العامة العادية الكثيرة الوقوع في عصر الممالك في التوزيع الإقطاعي ما هو معروف بعبارة عرض الجند .^(٦٣)

ومما يجدر ذكره أن هذه التوزيعات قد تكون عملية وفي نطاق محدود وقد تكون عامة شاملة وهناك توزيعات إقطاعية تتم ضمن أحوالاً ثانوية يمكن أن يتم فيها التوزيع الإقطاعي عند الممالك كأن يكون للسلطان هوية خاصة فيمنح في سبيلها الإقطاعات الواسعة وبعض الأحوال الأخرى .^(٦٤)

ولكن يبقى أنه قد توجد عوامل تدفع ولي الأمر إلى إعادة النظر في التوزيع الإقطاعي إعادة شاملة عامة ومن هذه العوامل : العامل المالي والاجتماعي .

فكثيراً ما يحدث هذا التوزيع عند حاجة السلطان إلى المال لإعداد الجيوش وقت الحرب أو استجابة لرغبة في الانقياد من منافسيه ، وفي مثل هذه الأحوال وقع الاعتداء على الأوقاف الإسلامية والذمية بالحل والإقطاع .^(٦٥)

ومن خلال العامل المالي والاجتماعي كان يتم التوزيع الإقطاعي كأن يتظلم الأمراء المقطعون من تراكم الخراج عليهم وعجزهم عن الدفع أو يشكوا بعض الأجناد من معاملة أمرائهم ، لهذا

يجد ولي الأمر نفسه مضطراً في سبيل الإصلاح لإعادة النظر في التوزيع الإقطاعي بشكل شامل فيقوم بمسح الأراضي لحصرها ، وعرفت هذه العملية في المصطلح باسم الروك .^(٦٦) وفكرة الروك كما يقول بولياك « مقتبسة عن المغول والفكرة في تطبيقها عملياً مأخوذة من التقسيم السنوي الذي يحدث في القرى كل عام » . والحقيقة فإن الروك ليس من مبتكرات المماليك أو النظام الإقطاعي المملوكي فهو نظام قديم عرفه مصر منذ فجر الإسلام ، فقد جاءت تفاصيل تنفيذ فكرة الروك من نظام تقسيم الأراضي وتوزيعها الذي يجري بين سكان القرية منذ القديم ، إذ تقرر فرض الضرائب على قاعدة ما تنتجه مساحة معينة من المحصول^(٦٧) ويذكر بولياك أيضاً أن تعبير الروك استعمل بمعنى التقسيم السنوي لممتلكات الدولة على دافعي الضرائب زمن الفاطميين وهذا التقسيم كان مسبقاً بقياس المساحة ، لكنه لم يكن صورة طبق الأصل « لروك » المماليك فيما يختص في تقسيم مشاعات القرى .^(٦٨)

أما عملية الروك التي تمت في عهد المماليك فالذي هدف إليه سلاطين المماليك هو وضع حد نهائي للروك أي تقسيم الأراضي بين الإقطاعيين والسلطان ، والتقسيم يجري على الوجه التالي ؛ يأمر السلطان بإجراء كشف مستعجل يطلق عليه اسم كشف البلاد ، ثم تقسيم الأملاك بين السلطان والإقطاعيين ، وقد ضمت الدولة ثلاثة أنواع من الروك : روك الحسامي في مصر والروك الناصري في سورية ولبنان وفلسطين والروك الناصري في مصر .^(٦٩)

ومن الأسس التي قام عليها الإقطاع المملوكي وأعطته شكلاً ثابتاً ما يسمى بالواجبات والحقوق الإقطاعية . ويمكن دراسة ذلك من جانبين ، أحدهما أدبي والآخر مادي ، فمن حيث الجانب الأدبي للالتزامات يقوم المقطع بأداء يمين الولاء لسيده وهو ولي الأمر القائم بوصفه سلطاناً .

أما الجانب المادي فأهمه أداء الخدمة الحربية ، وهي الأساس في حيازة الإقطاع ، حتى إذا عجز الأمير^(٧٠) عن أداء هذه الخدمة أقام بديلاً عنه ، بل عليه أن يدفع قدرأ من المال إذا لم يستطع إقامة البديل ، وهذا يؤكد خطورة الالتزام الحربي ، في الوقت الذي يتوجب على الأمير أن يقوم ضمن هذا الالتزام بأعمال حفظ الأمن وما يتعلق بها في الداخل والخارج . إن موضوع الواجبات بطابعها المادي قد أعطت التطور في الإقطاع المظهر الأساسي وهو المظهر العسكري ، ولذلك تقدمت مرتبة أرباب السيوف على رتبة أرباب الأقلام ولذلك فالخدمة العسكرية هي الأساس الأول لحيازة الإقطاع .

ومن مظاهر هذه الخدمة الحربية التي تميز بها الإقطاع المملوكي أن المقطع يلبي نداء ولي الأمر في وقت الحرب مع أتباعه من الفرسان المجهزين في أي وقت ولأي فترة. ^(٧١) ومن الجانب المادي في الواجبات: الناحية المالية، فالمقطع ملزم بدفع الخراج، المقرر على الإقطاعات وهو من أهم مصادر بيت المال، ويقول القلقشندي، هي جل البلاد في الوجهين البحري والقبلي. ^(٧٢)

أما الحقوق التي يتمتع بها المقطع نظير تقديمه الإلتزامات السابقة فمنها: الجانب الأدبي، الألقاب والنعمت التي تخلع عليه وتنسب إلى الجهاد الديني لإشعال الحماس الديني وتشد كسيف الدين وعز الدين وركن الدين وهكذا، يقول القلقشندي « إن الممالك ورثوا هذه الألقاب عن أساتذتهم الأيوبيين وهؤلاء ورثوها عن آل زنكي ». ^(٧٣)

أما الحقوق المادية التي ينالها المقطع غير المتمتع بغلة إقطاعه ما عرف باسم الاطلاقات وهي التي يحوزها من ولي الأمر، وهناك المنح والمخصصات التي تعطى له بحكم العرف. ^(٧٤) إن هذه القواعد والأسس التي بني عليها الإقطاع المملوكي وجعلت منه إقطاعاً حربياً متكاملًا، وأصبح النظام السائد في دولة المماليك إلى الحد الذي أصبحت فيه تمتع بأنها دولة إقطاعية حربية، هذه القواعد والأسس كان لها ظواهر ميزت هذا الإقطاع.

ومن هذه الظواهر ظاهرة كبرى ميزت الإقطاع المملوكي وهي ظاهرة المناقلات الإقطاعية، ينفرد بها هذا النظام عن غيره من النظم المشابهة.

والمناقلات الإقطاعية تعبير ساد في مصطلح النظام الإقطاعي في مصر والشام في عصر السلاطين المماليك للدلالة على انتقال الإقطاع الواحد من يد إلى أخرى حسبما يرى السلطان، وانفرد النظام الإقطاعي بهذه الخاصة لارتباط الإقطاعات بالوظائف والخدمات التي يؤديها المقطعون للدولة في شخص السلطان، وما المقطعون على أخلافهم إلا موظفون في حكومة مركزية على أشد. ما تكون المركزية. ^(٧٥)

والحقيقة التي يمكن أن نتوصل إليها في دراستنا السابقة للإدارة المحلية للإقطاعات واستغلالها أن هناك أربع حقائق كبرى مميزة لهذا الاستغلال المحلي البحث.

أولى هذه الحقائق، بروز الجانب التقني والتشريع والجدل الفقهي في كيفية تسليم الأرض للفلاحين.

وثانياً أن هذا الاستغلال لم يختلف في تفاصيله في إقطاع السلطان عنه في إقطاع الأمير والفارق في المسميات فقط .

والحقيقة الثالثة لم يعن الأمير المقطع بالإقامة في إقطاعه ليرعى شؤونه ، بل أقام في القاهرة في قصوره أو حيث تكون وظيفته ، وهذه الظاهرة من خصائص النظام الإقطاعي في دولة المماليك ، هو عدم إقامة المقطع في إقطاعه لأن الإقطاع نفسه غير ثابت وغير مضمون البقاء في يد صاحبه في أي وقت . أما أجناد الأمراء فعاش أغلبهم في إقطاعاتهم لأنهم فوق وظيفتهم الحرية التي يؤدونها عند الطلب للنفير العام يتولون شؤون الإدارة الإقطاعية اليومية .

أما الحقيقة الرابعة ، فهي خضوع الاستغلال المحلي لتدخل السلطان ، وهذا التدخل نشأ عن شدة حرصه على حصوله على حقوق من المقطعين وهذا أمر طبيعي في دولة إقطاعية منح الإقطاع فيها كما تمنح الوظائف .^(٧٦)

وبما لا شك فيه أن الإقطاع الحربي المملوكي ، بلغ درجة من التنظيم خاصة في أوج دولة المماليك وأصبحت له مظاهره المتعددة وخصائصه الثابتة وساد بطريقة صبغت فيه الدولة بهذه الصبغة التي جعلت منها دولة إقطاعية حربية بكل ما في الكلمة من معنى .

ولكن في أواخر العهد المملوكي دخلت هذا النظام عناصر أفسدته ومهدت لانتهائه . ومن هذه العناصر إبطال الإقطاع الوراثي الذي أخذه المماليك عن الأيوبيين ،^(٧٧) ففي فجر الدولة المملوكية كانت الإقطاعات وراثية تعطي لولاة السلطان أو لأصحاب القوة البدنية من البورقة بغية مساعدتهم على إتمام الواجب العسكري كفرسان لاعمين ،^(٧٨) ولكن بمرور الزمن زالت طبقة الإقطاعات الوراثية وأخذ الإقطاعيون يبدلون كل ما في وسعهم ليسجلوا بأسماء سلالاتهم ولو جزءاً يسيراً من ممتلكاتهم .^(٧٩) في الوقت الذي حرص فيه أمراء المماليك أنفسهم على ألا تصبح السلطة وراثية وبالتالي ينتقل إقطاع المرشح للسلطة بعد تربيته على عرشها إلى أمير آخر .^(٨٠)

ونشير أيضاً إلى ما أصبحت تجري به عادة المماليك من بيع الإقطاعات « الافراغ » أو النزول عنها ، وبذلك دخلت طوائف شتى من غير أهل الجندية في صفوف الجندية من أهل الحرف أو الفلاحة أو غيرها ، فيبدون من خيراتها ، ولكنهم يتجنبون أعبائها وكذلك سمح لطوائف من الأمراء بأن يوفدوا إلى الحرب من ينوب عنهم ، ولذلك أخذت تتحلل الرابطة القائمة

بين الأرض وأهل الجندية ، فكان ذلك أقوى معول هدم للإقطاع الحربي المملوكي والذي مهد لانهار الدولة المملوكية .^(٨١)

إن الإقطاع المملوكي أصبح إلى حد ما في أواخر عهد الدولة المملوكية عبارة عن أداة للتعيش والنفقة على الجند وابتعد عن مجرد أداة للحكم ، كذلك أصبح الأمراء في أكثرهم منتجين ، وبالتالي فقد برزت في الإقطاع الحربي المملوكي مظاهر جديدة دلت على فقدان أصوله العسكرية وهذا ما أدى إلى أفول هذا النظام ، حيث كانت الصفات العسكرية بارزة فيه في عهد فجر الدولة وفي عتفوان قوتها .

رابعا : النظام الإقطاعي العثماني

أخذت الدولة العثمانية بالنظام الإقطاعي في وقت مبكر جداً من تاريخ آل عثمان ومن المحتمل أنه قد اتبع بالفعل منذ بداية حكمهم .^(٨٢)

لكن لم يكن هذا النظام من اختراع العثمانيين في الإسلام ، فقد اقرب هذا النظام كثيراً من النظام الذي اتخذ في عصر السلاجقة . ويعتقد بعض المؤرخين أن النظام الإقطاعي العثماني مستقى من النظام البيزنطي ، وإذا كان النظام الإقطاعي الذي لجأ إليه السلاجقة في آسيا الصغرى وهو النظام الذي كان النظام العثماني تقليداً مباشراً له قد اختلف عن الإقطاع في الدولة السلجوقية الأم في فارس والعراق ، فقد يكون ذلك لتأثره بالنظام البيزنطي ولا يرجع ذلك إلى أن آسيا الصغرى بقيت بالفعل جزءاً من الامبراطورية الرومانية الشرقية حتى احتلالها على أيدي السلاجقة ، بل يرجع أيضاً إلى أن آسيا الصغرى بعد الاحتلال الذي لم يكن سوى احتلال جزئي ، ظلت متاحة لأملاك كانت لا تزال تابعة للدولة البيزنطية ، ولذلك كان من السهل على العثمانيين الاقتباس من النظم البيزنطية وحيث ورثوا أملاك تلك الدولة في أوروبا .^(٨٣)

وما يجدر ذكره أن الدولة العثمانية ظهرت دولة غازية على حدود مدنيات متنافسة ، وظلت دولة غازية في جوهرها على الرغم من كل التطورات التي أعقبت نشوعها ، وهذه النشأة هي التي وسمت الامبراطورية العثمانية بسماتها المميزة ، أي أصبحت دولة عسكرية ، وأصبحت حضارتها القائمة على الحدود المزدوجة أشد تحرراً من حضارات البلاد الإسلامية القديمة وأقدر منها على تلقي التأثيرات الجديدة .^(٨٤)

لقد نشأت الدولة العثمانية بطبيعة عسكرية ، تحرص على أن يصبح المالك الحقيقي لكل البلاد التي تفتحها ، وبعد نشوئها غلبت النظرية السياسية العثمانية القائمة على حق السلطان المطلق بوصف الامبراطورية ممتلكات خاصة له ، ومن ضمن هذا الإطار تميز الحكم العثماني بأنه حكم عسكري بمعنى أنه يتفرع من الجيش العثماني أداة الحكم في الولايات ، فالجيش أداة للحرب وأداة للحكم معاً. ^(٨٥) ومن ضمن هذا الإطار أيضاً نظم العثمانيون دولتهم على أساس إقطاعي عسكري ، وأبقت الدولة العثمانية على الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت سائدة لدى الشعوب الخاضعة حتى افتتاحها ، لذلك بقيت الأرض كالسابق في ظل الإقطاعات القديمة ، ومن هنا اتخذ العثمانيون النظام الإقطاعي المملوكي أساساً في تنظيم الأراضي في البلاد التي كانت تابعة للمماليك فلم تغير السلطنة العثمانية النظام الاجتماعي السياسي أي البنية الاقتصادية القائمة على الإقطاع وإنما غيرت الإقطاعيين وأجرت تقسيمات جديدة. ^(٨٦)

ما نلاحظه أن النظام الإقطاعي العثماني صاغته مؤثرات حضارية استمدت أصولها من عناصر متعددة ومن طبيعة الدولة العثمانية خاصة من حيث نشأتها كدولة عسكرية غازية . أما اتجاه العثمانيين نحو الإقطاع وصيغ دولتهم بصيغة إقطاعية كان حصيلة لما سبق ذكره وحصيلة لمتطلبات الدولة العثمانية ، كما أحاط بذلك ظروف وعوامل جعلتهم يأخذون به ويطورونه بالطريقة التي تفي بحاجاتهم الأساسية ضمن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي ورثوها ووجدوا أنفسهم في خضمها .

لذلك ومن خلال تلك المنطلقات ، فقد نظم العثمانيون دولتهم على أساس إقطاعي عسكري. ^(٨٧) ورحب السلاطين العثمانيون به منذ البداية ، لأنهم وجدوا أنه بهذا النظام يوفرهم أسباب العيش لفئات مختلفة من الجند ، بدلاً من النفقة عليهم باعتبارهم قوة ثابتة ، وقد تضمن منح أراضٍ لهؤلاء المحاربين ، وفي مقابل ذلك كانوا يلزمون بأداء الخدمة العسكرية ، لهذا كان عليهم أن يجهزوا أنفسهم ويعيدوا التحيل ليس فقط لأنفسهم ، ولكن عادة لعدد من الأتباع يختلف باختلاف مساحة كل إقطاع ، وعلى هذا النحو وجدت الإقطاعات. ^(٨٨)

لقد كان ضروريا بالنسبة للعثمانيين لاتصاف دولتهم بالطبيعة العسكرية أن يكون هناك جيش متأهب للسفر لدى أية إشارة ، لأن الحرب عند دولة غازية كالامبراطورية العثمانية كانت حالة تكون دائمة ، ولما كانت الفضة وهي العملة الوحيدة في تلك الأيام نادرة ، فقد كانت الدولة العثمانية مضطرة أن تجمع مواردها المالي الرئيسي وهو في هيئة سلع ، وهذه الضرورة ألجأتها

إلى أن تقسم الأرض المفتوحة بين جنودها الكثيرين مع تخصيص هذه الضرائب رواتب لهم^(٨٩).

وكان من أغراض الدولة العثمانية من النظام الإقطاعي وخاصة في بداية عهدها أن تخفف عن الإدارة المالية للدولة عبء جمع الضرائب وأداء مرتبات الجند نقداً في الوقت الذي يم فيه ربط الفرسان بالأرض خاصة في فترة الاتساع السريع للإمبراطورية والفتوح الجديدة مما أوجد طبقة من الفرسان المسلمين المرتبطين بالفاتحين وهذا حال دون اتخاذ الفتوح مجرد احتلال عسكري^(٩٠)، في الوقت الذي ضمن فيه سلاطين الدولة العثمانية زراعة الأرض وضمنوا من جهة أخرى الحصول في أوقات الحرب على قوات لازمة دون تكاليف تذكر لأن صاحب الإقطاع كان يأتي للحرب ومعه سلاحه وجواده ، وهذا يفسر لماذا طبق نظام الإقطاع على فرق الفرسان في الجيش العثماني دون المشاة ، ثم إن هذا النظام كان يعني الدولة عن دفع مرتبات الجنود أوقات السلم^(٩١).

وللخوض في الإقطاع العثماني لإدراك تفاصيله ومدلولاته لابد من التعرض لأنواعه وواجبات المقطاعين وحقوقهم ، ثم خصائص ذلك النظام وأخيراً تدهوره وانحلاله .

والخوض في أنواعه يتم عن طريقين : الأول الهيكل الذي بني عليه وهو التنظيم العسكري الذي تميزت به الدولة العثمانية ، والطريق الثاني هو الأرض التي تمثل الأساس الذي يشكل الإقطاعات ، أو بمعنى آخر للإقطاع العثماني وجهان عسكري وأرضي .

لقد سيطر على الدولة العثمانية منذ بداية تكوينها وخلال نحوها المبكر فئة المحاربين المسلمين أحرار المولد ، وقد شكل هؤلاء المحاربون طبقة عسكرية إسلامية (السباهيون)^(٩٢) ، الذين يتشكلون ضمن مجموع النظام الاجتماعي العثماني ، والذين يؤلفون خيالة إقليمية في المقاطعات^(٩٣) ، وينسب تنظيمهما إلى الوزير (ديمور طاش باشا) في عهد مراد الأول (١٣٥٩ ميلادية - ١٣٨٩) ، وجعل إعلامهم اللون الأحمر والذي أصبح شعار الدولة العثمانية^(٩٤).

لقد خصصت الدولة للسباهيين ملكيات عقارية ، من خلال الإقطاعات التي أوجدتها لإعالة هؤلاء الفرسان والتي كانت تعرف باسم دير يلكات (جمع دير يلك) بمعنى رزق^(٩٥).

وفي هذه الحالة كانت هذه الإقطاعات تسمى تيمار وزعامت. ^(٩٦) وتؤخذ أصلاً من أراضي الدولة (الأراضي الميرية) أو الميري وهي أكثر أنواع الأراضي انتشاراً. ^(٩٧)

وكان التمييز بين التيمار والزعامت تمييزاً مالياً ، فالإقطاع الذين يدر دخلاً يتراوح بين ٢,٠٠٠ و ٣,٠٠٠ إلى ١٩,٩٩٩ أقة ، ^(٩٨) سنوياً كان يسمى تيماراً ، أما الإقطاع الذي يدر أكثر من ذلك إلى ٩٩,٩٩٩ أقة ، فكان يسمى زعامت ، وكل واحد من الإقطاعين كان من الممكن أن يتكون من جزئين هما الأرض الأصلية المسماة « قليج » ^(٩٩) ، والإضافات المسماة « ترقى » التي تمنح كل منها بقصد توفير عشر الدخول التي يدرها « القليج » وكانت أجزاء الإقطاع المكتوبة من هذه الإضافات تسمى حصصاً ^(١٠٠) وفي حالة شغورها - بعكس ما كان عليه الحال بالنسبة إلى القليج - كان من اقتطاعها منه من جديد وإضافتها إلى ملكيات أخرى. ^(١٠١)

ويذكر جب وبون سبب وضع هذه القاعدة « بقصد تشجيع فرسان السباهي » على القيام بمهامهم على أكمل وجه ، فإلى جانب إمكان تجريدهم من أملاكهم بشكل مؤقت أو دائم في حالة عدم قيامهم بواجبهم على الوجه المرضي يجزي المالك الذي يقوم بواجبه على نحو مرضٍ بمثل هذه الترتيبات ^(١٠٢) « والذي كان يحدث أن السباهية العاديين من أصحاب التيمارات كانوا في فجر تاريخ الدولة على الأقل يطمحون إلى الترقى إلى مرتبة زعيم أي صاحب زعامت » ، وكان كبار الضباط من السباهي هم حكام الولايات .

أما الفئة الثالثة في الإقطاعات فكانت أكبر من زعامت وتسمى خاص ، وهي الإقطاع الكبير الذي يزيد إرداها على ١٠٠,٠٠٠ أقة ، ^(١٠٣) وكان بعضها من هذا النوع ملكاً خاصاً للسلطان وتسمى بخواصي همايون ، ^(١٠٤) ويمتج بعضها الآخر للولاة وأفراد الأسر الحاكمة والمقرنين إليهم ، كما أُلحق ببعض المناصب الإدارية لينفق أصحاب هذه المناصب من إزاداته. ^(١٠٥)

ومن أنواع الإقطاعات نوع رابع يعطى للعسكر وهم طائفة المسلمين المستقرين الذين يبلو أنهم كانوا أصلاً من البدو وكذلك من الجنس التركي ، ومع ذلك ففي مقابل التعهد بخدمة السلاطين بانتظام كان كل منهم يمنح قطعة صغيرة من الأرض يعفى من دفع أية عشور أو ضرائب عنها ، ومن هنا جاء اسم مسلم ، بمعنى معفى ، ^(١٠٦) وكانوا يقولون أنفسهم باستثمار أراضيهم ،

فلا يقبضون أية رواتب ، ومن هنا كان وضعهم شبيهاً بوضع السباهية الذين كانوا خيالة مثلهم .^(١٠٧)

أما منح الإقطاعات السابقة فقد كان في الأصل يتم على يد أعلى الإقطاعيين مرتبة وهم بكوات البكوات (جمع بكلي بكلي) ، وحين يمنح البكوات الإقطاع كان يعطي صاحب الإقطاع شهادة الحق الامتلاك تسمى براءة ، ولكن الحكومة المركزية سحبت هذا الحق في عام ١٥٣٠ في عهد السلطان سليمان القانوني ،^(١٠٨) وحينئذ كان بكوات البكوات لا يفعلون أكثر من تزويد المرشح لأحد الإقطاعات بمذكرة أو خطاب توصية يسمى تذكرة « تقدم إلى مكتب خاص في العاصمة » .^(١٠٩)

بما لا شك فيه أن السباهية كانوا يشكلون العمود الفقري في النظام الإقطاعي العسكري العثماني فكانت عليهم واجبات ولهم حقوق ، فقد كان من واجهم أن يقوموا مقابل إقطاعهم الإقطاعات أن يخرجوا إلى الحرب متى دعا إلى ذلك في نظير الإيرادات التي كانوا يستمتعون بها ، وإن سمح لهم في أوقات متأخرة بعدم الخروج إلى الحرب بشرط أن يقدموا بدلاً معيناً ، لكن بقي الواجب الأساسي الذي يقدمه الإقطاعي هو الخدمة العسكرية .^(١١٠) ولذلك فإن المصادر تشير إلى أنه نتيجة للنظام الإقطاعي العثماني ، فإنه في عهد سليمان القانوني كانت الأراضي المقطعة في أوروبا تقدم إلى الدولة نحواً من ٨٠,٠٠٠ فارس ، في حين كانت الأراضي المقطعة في آسيا تقدم نحو ٥٠,٠٠٠ فارس ،^(١١١) وفي بعض الأحوال فإن مجموع القوة التي كان يقدمها السباهية مع أتباعهم كانت تصل في بعض الأوقات إلى حوالي مائتي ألف (بما في ذلك الأتباع الذين كانت تقدمهم الإقطاعات الخاصة ، وقد قدرت مراجع مجموع القوة المجموعة من الإقطاعات في إبان عظمة الامبراطورية بما لا يزيد على ١٤٠ ألفاً أو ١٥٠ ألفاً)^(١١٢) ، وهذه الأرقام وإن دجلها التخمين لأن الدولة العثمانية لم تكن تستطيع التأكد من الأعداد التي تحت يدها ، إلا أنه كانت لها دلالاتها العسكرية .

وفي مقابل هذه الواجبات التي يقدمها أصحاب الإقطاعات ، أعطيت لهم حقوق ، فقد حولتهم الجهود التي منحه إياها السلطان ، أن يجمعوا لأنفسهم ضرائب معينة على الأرض ، كما أنهم باعتبارهم يمثل الدولة فقد منحوا حقوقاً في الإشراف على استعمال الأرض وتحويلها ، ولكن حدود سلطتهم وتفصيلات دخلهم ، كانت محددة تحديداً واضحاً في الدفاتر وفي صحف

« القانون نامة ويدخلون ضمن رقابة شديدة تقوم بها الحكومة المركزية ، مع أنهم كانوا يقومون بمهام إدارية معينة لصالح السلطنة في إدارة مناطقهم وضبط الأمن » .^(١١٣)

كذلك فإن منح مقاطعة من المقاطعات إلى شخص من الأشخاص ما كان يعني تملكه القرى والأراضي التي تؤلف تلك المقاطعة ، إنما كان يعني تفويضه حق جباية الأعشار وسائر الرسوم والضرائب المترتبة عليها وكانت الأراضي والقرى والمزارع تبقى تحت تصرف مالكيها على أن يدفعوا الضرائب التي تفرض عليها إلى صاحب المقاطعة أو من يوكله تسليمها^(١١٤) . وبالتالي فإنهم لم يمارسوا أية سيادة أو سلطة إقطاعية على الفلاحين الذين كانوا يعملون في إقطاعاتهم ، وكان للفلاحين في الواقع الإجارة الوراثية المضمونة على القطع التي يفلحونها ، في حين لم يكن للتيماريين مثل ذلك ، فلم تكن التيمارات قابلة للتوريث وعند قيام كل سلطان جديد كان يجري تغيير الحائزين بصورة منتظمة لمنع تحصنهم .^(١١٥)

لكن من الحقوق الثابتة لصاحب الإقطاع أنه كان يتمتع به مدى الحياة ما دام يؤدي واجباته العسكرية طيلة هذه الحياة على ما يرام ، ولكون الإقطاع لا يورث بل يعود إلى الدولة في حالة وفاة صاحبه ،^(١١٦) فإنه يمكن أن ينتقل إقطاعه إلى أولاده وهذا ما كان يحدث في الغالب ، لكن يمنح هؤلاء عقداً جديداً يدفعون بموجبه بدلاً نقدياً للخزينة .^(١١٧)

أما محمد فريد فإنه يذكر أنه كانت إقطاعات التيمار والزعامت تورث ، لكن لا يرثها إلا الذكور من الأعقاب ، وإذا انقرضت الذرية الذكور يعود الإقطاع إلى الحكومة وهي تقطعها إلى جندي آخر بنفس الشروط السابقة ، وهي أن يسكن الجندي المقطع في أرضه وقت السلم ويقعد للحرب عند الاقتضاء على نفقته ، وأن يقدم جندياً آخر معه .^(١١٨)

وما يجدر ذكره أن النظام الإقطاعي العسكري الذي أُنحنا إليه في الدولة العثمانية لم يكن عاماً ، بل إنه تمثل واستقر في الأناضول والأجزاء الأوروبية من الامبراطورية أو بالأحرى ، فإن نظام الإقطاعية العسكرية كان سائداً فقط في آسيا الصغرى وفي شبه جزيرة البلقان ، أي أنها كانت داخلة في نظام التيمار والزعامت . أما في العالم العربي ، فكان هذا النظام موجوداً في بعض مناطق الحدود الواقعة شمال سورية والعراق وبعض مناطق حلب والموصل وطرابلس الشام ودمشق^(١١٩) ، في حين أن معظم الإقطاعات العربية الأخرى ، الجزيرة العربية والعراق ومصر ، فقد كان الشائع إعطاء مقاطعات أو ولايات مقابل دفع مبلغ للسلطان ، وقدر محدود من الضرائب للخزينة ، لأنه عندما فتح السلطان سليم الأول الشام ومصر ١٥١٦ م مسح الأرض

من جديد وقسمها من حيث هي إلى أملاك واقطاعات سلطانية وفقاً للنظم العثمانية ، ففي مصر استقرت بصورة عامة نظام تملك الأراضي الإقطاعية الذي كان سائداً في عهد سلاطين المماليك وكانت تعود كافة الأراضي إلى الإقطاعيين ، كذلك احتفظ الأتراك بالنظام الإقطاعي في سورية ولبنان على غرار ما فعلوه في مصر فظلت الأراضي في أيدي الأشراف الإقطاعيين العرب المحليين ، بالإضافة إلى المقطعين الأتراك وشيوخ القبائل بأسلوب شبه وراثي .^(١٢٠)

وفي العراق كان السلطان يمنح أجزاء من أرضه إقطاعات لخاصته وأصفياه على أن يؤديوا له نظير ذلك خدمات حربية وقت اللزوم ، وقد كان في هذا النظام فائدة نسبية للسلطان ، ولكن الحال لم يدم على ذلك طويلاً ، إذ أخذ أصحاب الإقطاعات في العراق يقصرون في تقديم الجنود لأن السلطان لم يعد يرب الإقطاعات للقادرين من رجاله بل للمحبين إليه ، وإزاء هذا المقطع يحمل هذا الواجب ويكتفي بجمع المال للسلطان تماماً كما كان يحدث في أقطار عربية أخرى .^(١٢١)

وهذا يعني أن الدولة العثمانية بالنسبة للإقطاع شهدت نظامين :

١ - النظام الإقطاعي العسكري .

٢ - مقاطعات أو ولايات مقابل دفع مبلغ للسلطان وقدر محدد من الضرائب للخزينة .

ويمكن إرجاع ذلك إلى أصول تاريخية وجغرافية ساعدت على هذا التمييز فالنظم الإقطاعي العسكري لم يمتد قط بشكل كامل إلى الأراضي العربية البعيدة الواقعة في مؤخرة الامبراطورية والتي تم فتحها في أوائل القرن السادس عشر ، حيث كان من الممكن الاستغناء عن سلاح الفرسان ، بعكس الوضع على الحدود المسيحية وفي داخل الأراضي التركية ، ولذلك لم يكن ثمة لثيمار أو زعامت في غالبية الولايات العربية ، بل كانت فيها حاميات انكشارية .^(١٢٢) ولذلك فإن الأقاليم العربية كانت تلعب دوراً اقتصادياً أهم بكثير من دورها العسكري في الامبراطورية ،^(١٢٣) لأن الإقطاع العثماني الذي اتخذ في الأقاليم العربية والمستمد من النظام الإقطاعي المملوكي نزعته منه صنعتها العسكرية ، فقد تقرر فيه إعطاء الأراضي بمقاطعات مع بيان حدود كل واحدة والضرورة اللازمة ، ولكنها لا تعطى كتيماً مقابل الخدمة العسكرية ، بل كأمانات تدار ويرسل الوارد بعد أن يأخذ المقطع راتبه .^(١٢٤)

ومن ناحية أخرى فإن للإقطاع العسكري العثماني عيوبه ، ففي الوقت الذي كان فيه هذا النظام موجوداً فإن العهد العثماني كان يتضمن اشتراطات معينة ، فالإقطاعي حتى في وقت

الحرب يؤدي خدمته العسكرية لمدة محدودة (٤٠ يوماً مثلاً) ، فإذا انتهت هذه المدة يحق له العودة إلى أرضه رغم استمرار الحرب ، ثم أن الإقطاعي في أيام السلم كان يميل عادة إلى الكسل فيعمل تدريبه ويتقاعس عندما يدعى للحرب وعدم الرغبة في ترك أرضه فتغلب عليه نزعة الفلاحة على نزعة الحرب .^(١٢٥) كذلك فإن الشروط المرتبطة بمخدمات الإقطاعيين لم تكن تسير على وتيرة واحدة ، فإن بعضهم كانوا يقيمون دائماً على الخروج إلى الحرب ، على حين أن البعض الآخر كانوا يقومون بالخدمة مناوبة .^(١٢٦)

لقد بدأ الخلل يتسرب إلى نظام الإقطاعات العسكرية ، وذلك عندما اتسعت رقعة الامبراطورية حيث ترك السلاطين للبكر بكوات مهمة توزيع الإقطاعات ، فاستغلوا ذلك ومنحوا تيمارات بأكملها لأتباعهم الخصوصيين وبمرور الزمن تضعف هذا النظام ، فادخل الأسلحة النارية قلل فائدة الفرسان ، في حين بدأ السباهية يتحللون من واجباتهم العسكرية بالرشوة أو بإرسال بديل عنهم مع سعي لجعل الإقطاعات وراثية ، وأخذت الحكومة تعتمد على أخذ الإقطاعات الشاغرة فتعطيها إلى المقرين والحاشية بتأثير الرشاوى أو تقطعها إلى ملتمزي الضرائب .^(١٢٨)

ولظهور هذه العيوب والمفاسد وتغلغلها في جسم النظام الإقطاعي العسكري العثماني بدأ هذا النظام يدخل في مرحلة من الانحطاط ، ويمكن ربط ذلك بالانحلال الذي أصاب الدولة العثمانية بشكل عام ، في أجهزتها ومؤسساتها ، بفعل التفوق العسكري والاقتصادي لأوروبا وتوقف التوسع الاقليمي منذ أوائل القرن السابع عشر ، ففي ظل هذه الظروف أصيب نظام التيمار بالانحطاط ، ذلك أن الخيالة الخفيفة التي كان يوفرها السباهيون أصبحت متخلفة عسكرياً لئلا تطور الأسلحة الأوروبية والتطور المستمر في الجيوش للدولة المسيحية ، وكذلك لم يستطع هؤلاء الفرسان التيماريون مواجهة القوة النارية الثقيلة للأوروبيين بسبب هبوط قيمة مداخيلهم ، ووسط هذا الفساد المتعظم في الدولة العثمانية اتجهت الدولة إلى تخصيص المزيد من التيمارات لكبار الموظفين لأغراض غير عسكرية ، أو امتصاصها واستعادتها إلى الخزينة ، وكان نتيجة ذلك هبوطاً كبيراً في فاعلية السباهيين في أوائل القرن السابع عشر ، ومنذ ذلك الحين بدأت الجيوش العثمانية تعتمد إلى حد كبير على سرايا من وحدات حملة البنادق أو الصكبانة .^(١٢٩)

لقد أخذ الباب العالي يعمل على هدم نظام التيمار كمؤسسة مع الخيالة السباهيين حيث اعتمد على سياسة متعددة في استرجاع الأراضي من التيماريين ، أما عن طريق ضمها إلى

ممتلكات الأسرة المالكة ومن ثم إعادة تأجيرها إلى المضاربين للحصول على مدخولات نقدية أكبر ، أو عن طريق مجرد تخصيصها لحائزين خاضعين لسيطرة موظفي القصر ، وبذلك جرى تحول عام في شكل الاستغلال العثماني من التيمار إلى الالتزام^(١٣٠) ، وتحولت الإقطاعات العسكرية إلى مزارع ضريبية (Tax - Farms) تهيئ موارد نقدية متزايدة للخزينة .

وكان الباب العالي قد طور نظام الالتزام للمرة الأولى في الولايات الآسيوية الأكثر بعداً مثل مصر حيث لم يكن بحاجة إلى المقاتلين الخيالة من الطراز المحتشد في الروميلي ، وفي القرن الثامن عشر أخذ الباب العالي بمنح أعداداً متزايدة من المزارع مدى الحياة أو المالكاني (Malikane) ، وحل التيمار وخاصة في البلقان عموماً ما أصبح يعرف بنظام الجفليك (Chiflik)^(١٣١) ، ولذلك فإن التفسخ الذي أخذ يصيب الدولة العثمانية ساعد على استمرار النظام الإقطاعي العسكري^(١٣٢).

وفي القرن التاسع عشر ، دخلت الدولة العثمانية في مرحلة جديدة ، فقد لازمت هذا القرن إصلاحات قام بها السلاطين العثمانيون (التنظيمات) ، في الوقت الذي قام فيه محمد علي بإصلاحاته أيضاً ، وكان من ضمن هذه الإصلاحات ما مَسَّ جوهر الإقطاع العسكري من شمولها لنواحي عسكرية وأخرى لها صلة بالأرض ، مما كان له تأثير مباشر في هدم الإقطاع العسكري ثم زواله .

بدأت الإصلاحات العثمانية أيام سليم الثالث وسار بها محمود الثاني ، ففي عام ١٨٢٦ ألف محمود الثاني نظام الانكشارية ، ثم أمر بتوحيد الإقطاعات مع أراضي الدولة^(١٣٣) وهذا النجاح الذي توصل إليه جعله يلغي وحدات السباهية الإقطاعيين ، وما تبقى من الإقطاعات العسكرية ، وجرى إلغاء نظام التيمار رسمياً في عام ١٨٣١ وإن يكن قد تلاشى في الواقع قبل ذلك^(١٣٤) ، وفي زمن السلطان عبد المجيد صدر المرسوم الهمايوني وكان من ضمن ما جاء فيه إلغاء الإقطاع والالتزام بمبدأ تولي الموظفين للجباية مباشرة ، وفي عام ١٨٤٦ اتخذت خطوة جديدة وهي إحداث نظام البطابو ، أي منح حق استغلال أراضي للأفراد من قبل الحكومة^(١٣٥) . وقد أدى كل ذلك إلى استقرار الملكية الخاصة داخل الامبراطورية وتدعم ذلك بصدور قانون عام ١٨٥٨ ، حيث أعطى هذا القانون حقوقاً محددة للوراثة لحائزي الأرض أو المنتفعين بها ، في الوقت الذي جاء في أحد بنود هذا القانون الرئيسية أنه لا يسمح لأي

شخص أن يمتلك قرية بأكملها^(١٣٦). وفي عام ١٨٦٧ حصل المالكون المحليون على الملكية القانونية لأراضيهم^(١٣٧).

وعلى الجانب الآخر كانت إصلاحات محمد علي ، وهي إصلاحات ساهمت في هدم الإقطاع العسكري ، فقد نتج عن قضاء محمد علي على غالبية زعماء المماليك في مذبحه القلعة أن شغل كثير من الالتزام الذي كان يتصرف به المماليك ، وأدى هذا إلى استرجاع الدولة الأراضي التي أصبحت بدون ملتزمين ، والملتزمون الذين كانوا أشبه بالإقطاعيين ، وعرفت أراضي الالتزام المصادرة التي ألحقت بالدولة باسم المربوط ، ثم قام بعملية الروك (مسح الأراضي) أيضاً ما بين ١٨١٢ و ١٨١٤ وبموجب ذلك سجلت الأراضي باسم سكان القرية وأصبحوا مسؤولين عن دفع الضرائب مباشرة للدولة دون وساطة الملتزمين ، وعمد إلى أسلوب مصادرة الأملاك التي ليس بيد أصحابها مستندات تدل على أنها ملك لهم بوصفه نائباً للسلطان وصادر جميع الإقطاعات من أصحابها^(١٣٩).

وفي النصف الثاني من حكمه ، عمد إلى إعطاء مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية المعروفة باسم (جفتلك) إلى أفراد أسرته وإلى بعض الأعيان وكبار الموظفين ، وكان منح هذه الأراضي يقوم في البدء على حق التصرف ، وانقلب هذا الحق في عام ١٨٣٦ إلى حق وراثي ثم إلى ملكة فردية^(١٤٠).

وبين عام ١٨٣٣ و ١٨٣٥ ألغى محمد علي الجيوش العسكرية الإقطاعية في سورية وفلسطين ولبنان ، وذلك بتجريد السكان من السلاح بالقوة دون التمييز بين الأشراف والأعيان وسواهم وأدخل نظام التجنيد العسكري ، وكان القضاء على الجيوش العسكرية الإقطاعية مقدمة لحل النظام الإقطاعي فيما يتعلق بالأراضي ، وفي عام ١٩١٤ ، بعد إلغاء الجزية السلطانية العثمانية أسدل الستار على آخر أثر شرعي لنظام الإقطاع في مصر^(١٤١).

وهكذا تكون الإصلاحات العثمانية (التنظيمات) والخطوات الإصلاحية التي قام بها محمد علي قد ساهمت مساهمة كبيرة في زوال الإقطاع العسكري العثماني خاصة من الناحية الرسمية ، لأن هذه الإصلاحات أصابت لب ذلك النظام المبني على دعائمي العسكرية والأرض وبالتالي أصبحت أكثر الأراضي ملكاً ، إما ملكيات كبيرة أو صغيرة وأدخل نظام الأجور المباشرة للجنود وفرضت الخدمة العسكرية في الامبراطورية العثمانية على جميع المسلمين .

• الخاتمة •

إن قيام الفتوحات الإسلامية دمر الإقطاع القديم في البلاد المفتوحة وبدأ يبرز مفهوماً إسلامياً جديداً للإقطاع يحمل محل المفهوم القديم ، حيث أصبح معناه في البلاد الإسلامية منح الأرض التي لا مالك لها مقابل الخراج أو العشور ، أو منح غلة الأرض في مقابل إعطاء شيء أو ضمانه لبيت المال أي أن الإقطاع حسب مفهومه الإسلامي هو إقطاع العطاء .

ولكن الإقطاع العسكري بدأ يبرز نتيجة لمؤثرات خارجية لها صلة بالتسلط الأجنبي ، وأن البويين أول من بدأ به ، وكان إقطاعهم في الأساس إقطاعاً لوارد الأرض في أراضيها زراعتها وملاكها إلى الجند والقادة ، وبذلك أصبح الإقطاع العسكري عند البويين يعطى بدل العطاء مقابل خدمة المقطع العسكري ، ثم جاء السلاجقة الذين جعلوا من الإقطاع السياسة الرسمية نظرياً وواقعياً لدولتهم وخاصة على يد الوزير نظام الملك الذي عمم الإقطاع العسكري بعد أن نظمته .

وعندما جاء المماليك ورثوا الإقطاع العسكري البويي والسلجوقي ، وفي عهد سلاطين هذه الدولة اكتملت النظم الإقطاعية الحربية وبرزت جوانبه العملية ، وأصبح نظاماً مرتبطاً بدولة إقطاعية ويطبق عملياً على الأرض ومن خلال المؤسسة العسكرية المملوكية المتداخلة في معظم جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

وفي الدولة العثمانية ، كان الإقطاع العسكري قد استقى من أصول حضارية سبقت العثمانيين ومتأثرة بتلك الحضارات التي تأثر بها العثمانيون عند قيام دولتهم التوسعية حيث ورثوا أملاك حضارات تلك الدول في أوروبا وآسيا ، بالإضافة إلى كون الدولة العثمانية دولة غازية على حدود مدنيات متعددة ، كل ذلك أدى إلى صياغة إقطاع عسكري عثماني تحم على الدولة العثمانية أن تأخذ به لتلبيتها ، خاصة المتطلبات المالية والعسكرية ، وفكل المخاريون في هذا النظام طبقة عسكرية كان (السباهيون) عمودها الفقري ، حيث خصصت لهم الدولة الإقطاعات لإعالة هؤلاء الفرسان ، والذين كانوا يخرجون للحرب مقابل إقطاعهم الإقطاعات وبقي واجبه الأساسي هو الخدمة العسكرية .

ولما كان الإقطاع بشكل عام مظهر حضاري ، يلزم مجتمع الدولة ملازمة تامة ، فقد تأثر هذا النظام بجانبه العسكري في الدول التي نشأ فيها من حيث القوة والضعف ، فعندما

فسدت أحوال دولة المماليك فسد هذا النظام وشارف على الأفول مع أفول شمس تلك الدولة . وينطبق ذلك على الدولة العثمانية مع الاختلاف من حيث إن الإصلاح الذي أصاب تلك الدولة في أواخر أيامها كان من عوامل هدم الإقطاع العسكري العثماني ، لأن هذا الإقطاع لم يعد يقدم للدولة ما أرادت منه ، ومع ذلك فقد زال بزوالها ■

الهوامش

- ١ - عبد العزيز الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٢) ، ص ٢٣ - ٢٥ .
- ٢ - نفس المرجع ، ص ٢٥ .
- ٣ - يقال : اقتطع طائفة من الشيء أخذها والقطعة ما اقتطعه منه واقطعتني إياها سأله أن يقطعه إياها ، وأقطعه نهراً أو أرضاً أباح له ذلك . انظر : تقي الدين أحمد بن علي المقرئ (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) الخطط والآثار ج ١ ، بولاق ١٢٧٠ هـ ، ص ٩٥ .
- ٤ - دائرة المعارف الإسلامية مجلد (٤) ، دار الشعب ، القاهرة ، بالنسخة العربية ، ص ١٢٣ : إقطاع .
- ٥ - المقرئ الخطط ج ١ ، ص ٩٦ .
- ٦ - نفس المصدر والصفحة .
- ٧ - نفس المصدر والصفحة .
- ٨ - أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٩٧ هـ / ٨٩٢ م) ، فتوح البلدان ، بيروت ، ١٩٥٧ وما بعدها .
- ٩ - نفس المصدر ، ص ٣٨٤ .
- ١٠ - الصوائف ، الأملاك والأرض التي جلا عنها أهلها أو ماتوا ولا وارث لها واحد منها صافية والموات هي الأرض التي لا أثر فيها للزراع ولا مالك لها .
دائرة المعارف الإسلامية ج ٤ ، ص ١٢٤ .
- ١١ - الدوري : نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية ، بغداد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٧٠ ، ص ١٠ .
- ١٢ - نفس المصدر ، ص ١٢ .
- ١٣ - مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ٧٢ .
- ١٤ - المقرئ ، الخطط ج ١ ، ص ٩٧ .
- ١٥ - نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية ، ص ١٤ - ١٥ .
- ١٦ - أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام (بيروت : دار النهضة العربية ،

- ١٩٨٢) ، ص ٧٥ . وقد اعتمد العبادي في وجهة نظره تلك على : عماد الدين محمد الأصفهاني في كتابه دولة آل سلجوق ، القاهرة ١٩٠٠ ، ص ٥٥ وصدر الدين أبو الحسين في كتابه أخبار الدولة السلجوقية لاهور ، ١٩٢٣ ، ص ٦٨ .
- ١٧ - نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية ، ص ١٤ .
- ١٨ - إبراهيم علي طرخان النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى (القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٨) ، ص ٢١ .
- ١٩ - ابن الأثير (علي بن محمد الجزري الملقب بعز الدين و ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) ، الكامل في التاريخ ، القاهرة ١٣٠٣ هـ ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣ وكذلك ابن مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد ت ٤٢٠ هـ / ١٠٣٠ م) ، تجارب الأمم ج ٢ ، القاهرة ١٩٢ ، ص ٩٢ .
- ٢٠ - مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ٨٦ .
- ٢١ - أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب المصري للموردي (ت ٥٤٠ هـ / ١٠٥٧ م) ، الأحكام السلطانية ، مصر ، ١٢٩٨ هـ ، ص ١٨١ - ١٨٨ .
- ٢٢ - ابن مسكويه ، تجارب الأمم ج ٢ ، ص ٩٧ - ٩٩ .
- ٢٣ - نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية ، ص ١٨ - ١٩ .
- ٢٤ - حول النظام الإقطاعي الأوروبي في العصر الوسيط راجع : السيد الباز العربي ، الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى ، القسم الأول (بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٨) ، ص ١٦ وما بعدها .
- ٢٥ - لمعرفة المزيد حول هذا الموضوع ، راجع : النوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة (بغداد : شركة الرابطة للطبع والنشر ، ١٩٤٥) ، ص ١٢ وما بعدها .
- ٢٦ - المقرئزي ، الخطوط ج ١ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .
- ٢٧ - النوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .
- ٢٨ - راجع : الفتح بن علي البنداري ، دولة آل سلجوق ، مصر ١٣١٨ هـ ، ص ٥٥ .
- ٢٩ - مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ٩٦ .
- ٣٠ - أحمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٧٥ - ٧٦ .
- ٣١ - مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ٩٧ .
- ٣٢ - أتابك جمعها أتابكة وهو لفظ تركي معناه الأب أو الأمير والذي يرثي ابن السلطان ثم أصبح لقباً تشريعياً يمنح لكبار القواد بمعنى قائد الجيوش ونائب السلطنة .
- ٣٣ - المقرئزي ، خطوط ج ٢ ، ص ٢١٦ و ج ٣ ، ص ٣٥١ .
- ٣٤ - Bernard Lewis, The Arabs in History (London : Hutchinson's University Library, 1950), P. 148 . وكذلك : الفتح بن علي البنداري ، دولة آل سلجوق ، مصر ١٣١٨ هـ ، ص ٥٥ - ٥٦ .
- ٣٥ - أحمد مختار العبادي ، للمرجع السابق ، ص ٧٧ .
- ٣٦ - من أمثلة كبار الأمراء الذين حازوا الإقطاعات الحربية زمن الدولة الزنكية نجم الدين أيوب وأسد

الدين شريكوه ، فقد اقطعهما عماد الدين زنكي في عام ١١٣٨ هـ إقطاعاً « سينا » في شهر زور بشمال العراق وأفرد أسد الدين بإقطاع الموزر ، وبذلك صاروا من أجناده .

راجع : طرخان المرجع السابق ، ص ٣٠ - ٣١ .

٣٧ - المقرئزي ، الخطط ج ١ ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ . ص ١٥٦ .

٣٨ - قبائل وقبالات جمع قبالة وهي الأرض يتقبلها أصحابها ، أي يضمونها بمبلغ من المال يؤدونه عنها كل سنة ، ولكل نوع من الأرض قطعة أي ضريبة خاصة تناسب حاله . انظر : شهاب الدين أحمد ابن عبد الوهاب التويري (ت ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٣ م) ، نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٨ (رقم ٥٤٩ بدار الكتب) ، ص ٢٤٨ .

٣٩ - المقرئزي ، الخطط ج ١ ، ص ١٣٨ .

٤٠ - أحمد عزت عبد الكريم ، دراسات في تاريخ العرب الحديث (بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٧٠) ، ص ١٠١ .

٤١ - A.N. Poliak, Journal of the Royal Asiatic Society 1937, PP. 97, 99.

وحول الاختلاف بين الإقطاع المملوكي والإقطاع اللاتيني ومدى تأثير اللاتيني به انظر : أحمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

٤٢ - N. Ziadeh, Urban life in Syria under the early Mamluks, Beirut, 1953. راجع : وكذلك : الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١٠٣ وما بعدها .

٤٣ - أ. ن. بولياك : الإقطاعية في مصر وسورية وفلسطين ولبنان ، نقله عن الانجليزية عاطف كرم (بيروت : دار المكشوف ، ١٩٤٨) ، ص ١٤ - ١٥ .

٤٤ - المقرئزي ، الخطط ج ١ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

٤٥ - أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الفلقشندي (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م) ، صبح الأعشى في صناعة الأنشا ، ج ٣ ، طبع دار الكتب المصرية ، ص ٤٥٥ .

٤٦ - إن لفظة إقطاعه كانت مستعملة لممتلكات ديوان المفرد وديوان الدولة وربما أطلق عليها اسم إقطاعات ، لأن أكثر غلتها توزع على الفرسان وهذا ينطبق على الأقطاع السلطانية ، أما الممتلكات التي يحتفظ بها السلطان لنفقاته الخاصة فلا يطلق عليها اسم إقطاعة .

راجع : ابن إلياس (محمد بن أحمد المصري الخنفي) ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، م ٥ بولاق ١٣١١ هـ ، ص ٤٢٠ .

٤٧ - جرت العادة في أحوال توزيع الإقطاعات أن يأمر السلطان ناظر الجيش بالكتابة للمستحق للإقطاع فيحرر الناظر ورقة مختصرة تسمى الخلال مضمونها « خبز فلان كذا » انظر : المقرئزي ، الخطط ج ٣ ، ص ٣٥٣ .

والتويري ، نهاية الأرب ج ٨ ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

٤٨ - حول الرتب العسكرية راجع : ابراهيم طرخان ، المرجع السابق ، ص ٥٨ وكذلك بولياك ، الإقطاعية

- في مصر وسورية ولبنان ، ص ٢٠ - ٢١ .
- ٤٩ - القلقشندي ، صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٥٠ .
- ٥٠ - نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٤٨٥ .
- ٥١ - في البداية كان يطلق على خاصة جند السلطان الأيوبي اسم الحلق ، ثم تطور لفظ الحلق حتى صار يدل على الجيش المملوكي الذي ينشئه السلطان دون ذات ممالك الأمراء ، وصارت الحلق أكثر الفئات المملوكية عددا . انظر : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، بولاق ، القاهرة ١٢٩٠ هـ ، ص ٢٢ وكذلك : المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة ١٩٣٤ - ١٩٣٩ ، ص ٦٥٨ وما بعدها .
- ٥٢ - القلقشندي ، صبح الأعشى ج ٤ ، ص ١٤ .
- ٥٣ - المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، مصر ١٩٣٦ ، ص ٨٤٢ .
- ٥٤ - القلقشندي ، صبح الأعشى ج ٣ ، ص ٤٥٨ .
- ٥٥ - القلقشندي ، صبح الأعشى ج ١٣ ، ص ١٥٣ .
- ٥٦ - المقريزي ، الخطط ج ٢ ، ص ٢١٧ .
- ٥٧ - بوليوك ، الإقطاعية في مصر وسورية وفلسطين ولبنان ، ص ٦٥ .
- ٥٨ - النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٨ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
- ٥٩ - بوليوك ، المرجع السابق ، ص ٦٧ .
- ٦٠ - حول هذه الدواوين الإقطاعية راجع : القلقشندي ، صبح الأعشى ج ٣ ، ص ٤٥٥ - ٤٥٧ .
- ٦١ - ابن إلهاس : بدائع الزهور ج ١ ، ص ١٣٠ وما بعدها .
- وللتوسع في ذلك راجع : طرخان ، الإقطاع في الشرق الأوسط ، ص ٦٧ - ٦٨ .
- ٦٢ - الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٨٥ - ١٨٧ .
- ٦٣ - كان يلجأ أولوا الأمر لهذه الوسيلة لقطع العاجز والمشكوك فيه ولأنه من أصحاب الإقطاعيات أو الأجناد واستخدام غيرهم فضلاً عن توفير بعض الإقطاعيات للخزينة وهذا ما يعني عرض الجند .
- ٦٤ - حول هذه الأحوال وصور متعددة عنها راجع ، طرخان ، ص ٧٥ - ٧٦ .
- ٦٥ - يذكر طرخان في كتابه ص ٧١ أن الاعتلاء على هذه الأوقاف جرى مرات عديدة خلال عصر المماليك برغم معارضة الفقهاء .
- ٦٦ - الروك كلمة قبضية أصلها روش ومعناها الحبل ، ثم استعملت بدلالة على عملية قياس الأرض بالحبل وهي بلورها مشتقة من اللفظ الديموطيقي (روح) ومعناها تقسيم الأرض انظر : طرخان ص ٩٦ .
- ٦٧ - انظر : H. Idris. Bell, Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest (Oxford : 1948), P. 99 .
- وللتوسع في موضوع الروك راجع : المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٨٤١ وما بعدها ، القلقشندي ، صبح الأعشى ج ٣ ، ص ٤٥٨ وما بعدها .
- ٦٨ - بوليوك ، ص ٧٣ .
- ٦٩ - = ٧٤ - ٧٥ وكذلك المقريزي ، الخطط ج ١ ، ص ٨٨ .

- ابن إلياس بلطاع الزهور ، م ١ ، ص ١٧٩ .
- ٧٠ - الأمير هو اللقب الذي استعمله الكتاب العرب ترجمة للقب بك ، وهو لقب يخلع على كل فارس يأمر كوكبة مؤلفة من خمسة ممالك على الأقل . راجع : بوليك ، ص ٢٠ .
- ٧١ - حول الواجبات المادية التي يقوم بها المقطع في العهد المملوكي راجع : طرخان ، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى ، ص ١٨٩ - ١٩٤ وللتوسع فيها راجع : المقرئزي ، الخطط ج ٢ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .
- الأصفهاني ، دولة آل سلجوق ، مصر ١٣١٨ هـ ، ص ٥٥ .
- أبو المحاسن ، جمال الدين بن يوسف (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٥ م) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٧ ، طبعة دار الكتب ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .
- ٧٢ - القلقشندي ، صبح الأعشى ج ٣ ، ص ٤٥٩ .
- المقرئزي ، الخطط ج ١ ، ص ١٦٧ - ١٧٣ .
- ٧٣ - القلقشندي ، صبح الأعشى ج ٥ ، ص ٤٨٨ .
- ٧٤ - للتوسع في موضوع الحقوق المادية والأدبية ، راجع : طرخان ، الإقطاع في الشرق الأوسط ، ص ٢٠٥ - ٢١٨ .
- ٧٥ - نفس المرجع ، ص ٢٦٥ - ٢٧٠ .
- ٧٦ - نفس المرجع ، ص ٢٣٣ .
- ٧٧ - النوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١٠٤ .
- ٧٨ - شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) ، التعريف بالمصطلح الشريف ، مصر ١٣١٢ هـ ، ص ٩٣ .
- ٧٩ - بوليك ، ص ٩٥ .
- ٨٠ - طرخان ، الإقطاع في الشرق الأوسط ، ص ٢٦٦ .
- ٨١ - أحمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ١٠٣ .
- ٨٢ - هاملتون جب وهارولد بوون : المجتمع الإسلامي والغرب ج ١ ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧١) ، ص ٦٧ .
- ٨٣ - نفس المصدر ، ص ٦٨ .
- ٨٤ - خليل اينجاليق : مشكلات الأرض في التاريخ التركي ، الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، مجموعة بحوث ودراسات إسلامية (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢) ، ص ٤٤٣ .
- ٨٥ - محمد أنيس ، محاضرات في تاريخ الشرق الأوسط الحديث ١٥١٦ - ١٩١٤ ج ١ مكتبة دار العالم العربي ، ببلون تاريخ) ، ص ٧٥ .
- ٨٦ - في بعض الحالات لم تبق السلطنة الثمانية على البنية الاقتصادية والاجتماعية (الإقطاعية) المملوكية فحسب ، بل استخدمت بعض زعماء الممالك لحكم الولايات المركزية ، ومثال على ذلك جان بردي

- الغزالي انظر : اميل توما ، فلسطين في العهد العثماني (عمان : الدار العربية للنشر والتوزيع بدون تاريخ) ، ص ١١ ، ٢٣ .
- ٨٧ - الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١١٦ - ١١٩ .
- ٨٨ - جب وبون ، ص ٦٨ . اميل توما ، المرجع السابق ، ص ١١ .
- ٨٩ - خليل اينجاليق ، مشكلات الأرض في التاريخ التركي ، ص ٤٤٥ .
- ٩٠ - جب وبون ، ص ٦٨ .
- ٩١ - محمد أنيس ، محاضرات في تاريخ الشرق الأوسط الحديث ، ص ٧٥ .
- ٩٢ - اسباهية كلمة فارسية معناها الجيش (سباهي وليس سيباه ومعناها الفارس) وقد حرفها البريطانيون إلى (Sepoy) وأطلقوها على الجنود الهنود .
- أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص ٦٠ و ٦١ هامش ٢٣ .
- ٩٣ - بيري اندرسون ، دولة الشرق الاستبدادية ، ترجمة بلديع عمر نظمي (بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٨٣) ، ص ١٣ .
- ٩٤ - محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق الدكتور إحسان حقي (بيروت : دار النفائس ، ١٩٨٣) ، ص ١٣٢ وكذلك بيري اندرسون ، المرجع السابق ، ص ١٦ .
- ٩٥ - جب وبون ، ص ٦٩ .
- ٩٦ - التيمار كلمة فارسية ومعناها الأصلي كل ما يعطي للمريض أو للحيوان أو حتى للأرض والنباتات من مؤونة أو عناية ، انظر : محمد فريد بك المحامي ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ ، هامش (٢) .
- أما عمر عبد العزيز عمر فيذكر أنها ترجمة لكلمة (Pronola) اليونانية وهي تقابل في اللفظة اللاتينية لفظة (Cura) واشتقت منها (Curator) اللاتينية ومعناها (Curateur) أي ناظر وقف أو وصي أو وكيل تركة أو ولي أو قيم . انظر كتابه السالف الذكر ، ص ٦١ هامش ٢٤ .
- ٩٧ - كانت الأرض عند العثمانيين مقسمة إلى ثلاثة أصناف رئيسية : أراضي الدولة (الميري) وأراضي المؤسسات الدينية والأراضي الخاصة (الملك الصرف) . انظر : لوتسكي ، تاريخ الأقطار العربية الحديث .
- موسكو : دار التقدم ، بدون تاريخ ، ص ٩ - ١٠ .
- ٩٨ - اقجة أو اسبرس وهي قطعة من الفضة .
- ٩٩ - قليج كلمة تركية بمعنى سيف ، وكان هذا الركن الأساسي للإقطاعية يسمى بهذا الاسم لأن إراداته كانت تعتبر كافية لإعالة السباهي ذاته ، ومن هنا كانت تمد السلطان بسيف في أثناء الحرب . انظر : جب وبون ، ص ٧١ هامش (٤) .
- ١٠٠ - ترقى من كلمة ترق العرية ، وحصنة من كلمة حصنة العرية ومعناها نصيب من تقسيم الملك .
- ١٠١ - جب وبون ، ص ٧١ .
- ١٠٢ - نفس المصدر ، ص ٧١ - ٧٢ .
- ١٠٣ - ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠) ، ص ٢٩ .

- ١٠٤ - كلمة مهايون فارسية الأصل ، ومعناها الأصلي مبارك ، مقدس ، حسن الحظ ومن هنا ملكي .
- ١٠٥ - عبد الكريم رافق ، العرب والعثانيون (دمشق : مكتبة أطلس ، ١٩٧٢) ، ص ٤٥ وانظر بيدي أندرسون ، دولة الشرق الاستبدادية ، ص ١٧ - ١٨ .
- ١٠٦ - من الكلمة العربية مسلم بمعنى معطي شيئاً أو حقاً متنازلاً عليه ، ومن هنا كان معناها في الفارسية « معنى من الأعياء العامة » .
- ١٠٧ - لمعرفة المزيد حول هذا الموضوع راجع : جب وبون ، ص ٧٨ - ٧٩ .
- ١٠٨ - في عهد السلطان سليمان القانوني احتكرت سلطات اسطانبول حق منح الإقطاعات إلا في حالات قليلة حين يكون الإقطاع صغيراً أي حين يقل دخله عن ٦,٠٠٠ اقجة فيتحول ذلك إلى الوالي .
- انظر : عبد الكريم رافق المرجع السابق ، ص ٤٦ .
- ١٠٩ - جب وبون ، ص ٧٢ - ٧٣ .
- ١١٠ - بيدي أندرسون ، المرجع السابق ، ص ١٧ .
- ١١١ - عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص ٤٧ .
- ١١٢ - جب وبون ، ص ٧٦ .
- وانظر : Halil Inalcik, The Ottoman Empire, Conquest Organization and Economy, Collected Studies : (London Variorum reprints, 1978, PP. 108 - 113.
- ١١٣ - خليل ايجاليق ، مشكلات الأرض في التاريخ التركي ، ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .
- وكذلك بيدي أندرسون ، المرجع السابق ، ص ١٧ - ١٨ .
- وحول الرقابة الشديدة ، يذكر عمر عبد العزيز عمر ، أن هذه الرقابة الشديدة كانت منصبة في معظمها على إقطاع التيمار والزعامات حيث كانوا يخضعان لنظام التفتيش الذي قام به موظفوا الحكومة العثمانية وهم الدختر - داريون ، أما الإقطاع الخاص فلم يكن خاضعاً للتفتيش . انظر : كتابه السالف الذكر ، ص ٤٧ .
- ١١٤ - ساطع المصري ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .
- ١١٥ - بيدي أندرسون ، ص ١٨ .
- ١١٦ - عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٦ .
- ١١٧ - لوتسكي ، المرجع السابق ، ص ١١ .
- ١١٨ - انظر كتابه ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٢ .
- ١١٩ - لوتسكي ، ص ١٢ .
- أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني (بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٢) ، ص ١٢٠ ، وللتوسع في هذا راجع : جب وبون ، ص ٨ - ٩ .
- ١٢٠ - لوتسكي ، ص ١٤ - ١٥ وكذلك الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١٢١ .
- ١٢١ - حسين مؤنس ، الشرق الإسلامي في العصر الحديث ، (القاهرة : مكتبة حجازي ، ١٩٣٨) ، ص ٣٣٣ - ٣٣٢ .
- ١٢٢ - مصطلح انكشارية ، دني جرى بمعنى القوات الجديدة ، مصدره الدرويش حاجي بكتاس الذي اشتهر

بورعه ، وقد جند الانكشارية من مسيحي أوروبا ، وكانوا يتقاضون مرتباتهم نقدا من خزانة السلطان . حول الانكشارية يمكن العودة إلى : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ - ١٢٤ . محمد أنيس ، المرجع السابق ، ص ٢٠ - ٢١ .

Edward. S. Creasy, History of the Ottoman, Turks, (Beirut, Khayats, 1961), P. 4.

- ١٢٣ - ييري أندرسون ، ص ١٧ .
- ١٢٤ - النوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١١٧ .
- ١٢٥ - محمد أنيس ، المرجع السابق ، ص ٧٥ .
- ١٢٦ - جب وبون ، ص ٧٢ .
- ١٢٧ - عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .
- ١٢٨ - النوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١٢٠ .
- ١٢٩ - ييري أندرسون ، ص ٣٢ .
- ١٣٠ - ما جاء القرن الثامن عشر حتى كانت الأرض الزراعية التي يقوم عليها العسكريون بالفعل قد تحولت إلى نظام الالتزام ، ثم اتسع نظام الالتزام تدريجيا فشمّل أراضي الدولة والإقطاعات بل أراضي الوقف ، في نفس الوقت حين كان يموت السباهي ولا يترك ورثا مناسباً ، وبذلك يصبح إقطاعه شاغراً (محلول) كانت الخزانة تحتفظ به وتدفع به إلى الملتزمين وبهذه الطريقة قلت أعداد فرسان السباهية . انظر : جب وبون ج ٢ ، ص ٨٠ - ٨١ .
- ١٣١ - وكذلك : النوري ، المرجع السابق ، ص ١١٤ - ١١٥ .
- ١٣١ - للتوسع في مفهوم هذا النظام راجع : Stanford Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol. 1, (Cambridge, 1976), PP. 120 - 126.
- ١٣٢ - ييري أندرسون ، ص ٣٧ .
- ١٣٣ - مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١٢٢ .
- ١٣٤ - أحمد عبد الرحيم مصطفى ، المرجع السابق ، ص ١٩١ .
- ١٣٥ - مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١٢٢ .
- ١٣٦ - خليل اينجاليق ، مشكلات الأرض في التاريخ التركي ، ص ٤٥٠ .
- ١٣٧ - ييري أندرسون ، ص ٣٩ .
- ١٣٨ - مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١١٦ .
- و كذلك عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ، ص ٣٩١ .
- ١٣٩ - فيليب حتي ، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى (بيروت : الدار المتحدة للنشر ، ١٩٧٥) ، ص ١٢٦ .
- ١٤٠ - G. Baer, History of Landownership in modern Egypt 1800 - 1950, London, 1962, PP. 2 - 7.
- و كذلك : النوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ١١٩ .
- ١٤١ - بوليك ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

مقاومة القبائل لسكة حديد الحجاز

أسبابها ، وتطوراتها

● د . خالد حمود السعدون ●

ترغّب على ازدهار الصناعة في أوروبا وتراكم رؤوس الأموال فيها أن اتجهت بعض دولها إلى استثمار جزء من أموالها في الدول الأخرى الأقل تطوراً . واتجه قسم كبير من تلك الاستثمارات في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي إلى مشاريع إنشاء السكك الحديدية . إذ تميزت تلك المشاريع بتقديم عائد مالي ثابت ، وإقامة نفوذ سياسي مستقر للدولة البانية في المنطقة التي تمر خلالها السكة ، إضافة إلى ما يترتب عليها من فتح أسواق استهلاكية جديدة أمام المنتجات الصناعية الأوروبية المتزايدة .

خلال عامي

١٣٢٦ و ١٣٢٧ هـ

١٩٠٨ ، ١٩٠٩ م .

وكان للدولة العثمانية نصيب من تلك المشاريع ، إذ صادف ذلك الاتجاه الأوروبي حساساً لدى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (١٢٩٣ - ١٣٢٧ هـ / ١٨٧٦ - ١٩٠٩ م) وكبار قواد جيشه ، الذين أرادوا إنشاء شبكة من السكك الحديدية تغطي كل أجزاء الدولة العثمانية . ودعم هذا الاتجاه أيضاً كبار موظفي الدولة الذين رأوا في إنشاء شبكة سكك حديدية وسيلة فعالة لتوحيد أطراف الدولة وتنشيط الحركة التجارية فيها .^(١) ونتج عن ذلك إنشاء عدة شبكات من السكك الحديدية في الأناضول وبلاد الشام ، إضافة إلى سكة حديد بغداد التي اكتسبت شهرة كبيرة من جراء الصراع الذي دار حولها بين ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وروسيا .

وضمن هذا التوجه العام ولد مشروع سكة حديد الحجاز . ورغم ارتباط هذا المشروع في أذهان الناس بالسلطان عبد الحميد ، إلا أن فكرته كانت سابقة لعهد هذا السلطان . فأول من طرح فكرته هو الدكتور زامبل Zambel ، الألماني الأصل الأمريكي الجنسية . وكان ذلك عام ١٢٨١ هـ / ١٨٦٤ م ، حين اقترح على الحكومة العثمانية إنشاء سكة حديد تربط بين دمشق وساحل البحر الأحمر . ولم يلق اقتراحه صدىً إيجابياً على الفور ، ولكن الاهتمام به تجدد سنة ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م حين أقر وزير الأشغال العثماني الفكرة بصورة مبدئية . وأحيل المشروع إلى المختصين لدراسته ، فاعترضوا على الفكرة بحجة أن المنطقة التي يزمع مد السكة فيها تقطنها قبائل لا يؤمن جانبها ، إضافة إلى أن النقل البحري يمثل بديلاً أقل كلفة لإنشاء السكة .^(٢) ولم يكن تخوف أولئك المختصين من القبائل مبالغاً فيه ، إذ أنها طالما اعتدت على قوافل الحجاج البرية المارة في ديارها ، فسلبتها ونهبها واحتجزتها وفرضت عليها الإتاوات ، رغم أن تلك القوافل كانت تسير تحت حماية قوات حكومية في العادة . ومن أجل كسب ود تلك القبائل وإغرائها بالكف عن الاعتداء على قوافل الحجاج ، كانت السلطات الحكومية مضطرة لصرف مبلغ ستين ألف ليرة عثمانية سنوياً على شكل هدايا وإعطيات لمشايخ القبائل .^(٣)

ولم تن تلك العقبة السلطان عبد الحميد عن عزمه على تنفيذ المشروع ، فأعلن في ذي الحجة ١٣١٧ هـ / أبريل ١٩٠٠ م عن تصميم حكومته على وضع المشروع موضع التنفيذ . واتبع ذلك الإعلان بحملة دعائية واسعة في العالم الإسلامي تهدف إلى حث المسلمين

على التبرع للمشروع لما له من هدف ديني يتمثل في تسهيل سفر الحجاج إلى المدينة المنورة ومنها إلى مكة المكرمة . وبدأ هو نفسه حملة التبرعات بمبلغ ثلاثمائة وعشرين ألف ليرة عثمانية . ثم لاقت دعوة التبرع استجابة إسلامية واسعة ، ف تبرع بعض ملوك وأمراء المسلمين بمبالغ كبيرة ، كما تشكلت جمعيات في الأقطار الإسلامية لتلقي تبرعات الأفراد . وقد بلغت حصيلة تلك التبرعات سبعمائة وستين ألف ليرة عثمانية . وبالإضافة لذلك أمر السلطان بتخصيص إيرادات بعض المناطق وبعض الضرائب لصالح تنفيذ المشروع ، كما أمر بتنازل موظفي الدولة عن مرتب شهر واحد في البداية ، ثم خصم عشرة بالمائة من مرتباتهم عن شهر واحد في كل سنة من أجل المساهمة في تغطية نفقات المشروع ^(٤).

وهكذا توفرت الاعتمادات المالية اللازمة لتغطية نفقات المشروع ، والتي قدرت بمبلغ إجمالي قدره خمسة ملايين ليرة عثمانية . فبادرت الدولة لتوفير المواد اللازمة للبدء في المشروع . من حصيلة التبرعات ، ثم اعتمدت على حصيلة الضرائب السنوية المرسدة للمشروع والبالغة مائتين وخمسين ألف ليرة عثمانية للصرف على نفقات الإنشاء السنوية ^(٥) . وعلى هذا بدأت شركة ألمانية بتنفيذ المشروع في ربيع الأول ١٣١٧ هـ/سبتمبر ١٩٠٠ م . وكانت نقطة البدء هي قرية « المزريب » في منطقة حوران جنوبي دمشق ، ذلك لأن شركة فرنسية كانت قد أنشأت سكة حديد ربطت دمشق بالمزريب ^(٦).

وقد حظي المشروع باهتمام كبير من قبل الدبلوماسيين الأجانب العاملين في الدولة العثمانية بسبب المقاومة القبلية التي واجهته . وكان من أولئك الدبلوماسيين القنصل العام الأمريكي في بيروت ، الذي اهتم بتحري الأسباب الكامنة وراء حرص السلطات العثمانية على إنشاء السكة - فربط ذلك الحرص بعزم الحكومة العثمانية بعد « حرب القرم » ^(٧) على توسيع نفوذها الفعلي في أطراف شبه جزيرة العرب مثل بوادي الشام والعراق ، ثم التوغل في داخل شبه الجزيرة ذاتها . وأضاف : « إن سكة حديد مكة لم تصمم فقط لتؤمن للسلطان امتلاكاً غير قابل للتزاع للأماكن الإسلامية المقدسة ، ولكن لتسهيل عليه أيضاً ضم نجد وتهدة اليمن » ^(٨) . ولا شك أن لسكة حديد الحجاز بالإضافة إلى هدفها الديني المعلن ، هدف استراتيجي مصاحب ، يتمثل من ربط غرب شبه الجزيرة مع مركز الدولة بطريق بري سريع يتجنب التحكم البريطاني في الطريق البحري المار عبر قناة السويس ولا استبعد أن يكون ضم نجد من أهداف الدولة الكامنة خلف سكة حديد الحجاز ، إذ يحسن هنا أن نذكر تدخل الدولة العثمانية المستمر إلى جانب حائل

في صراعها ضد الرياض - ومن أبرز مظاهر ذلك التدخل ؛ الحملة الحربية العثمانية على القصيم سنة ١٣٢٢ هـ/ ١٩٠٤ م . ولعل من مظاهره أيضاً محاولة الشريف حسين الفاشلة للتوغل في القصيم سنة ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠ م.^(٩)

وقد قوبلت أعمال مد السكة حين وصلت للحجاز^(١٠) بمقاومة عنيفة شنتها قبائل المنطقة . وعلل القنصل البريطاني في دمشق تلك المقاومة بالخسائر المادية الكبيرة التي كانت ستلحق بالبدو من جراء إنشاء سكة الحديد . فأولئك البدو كانوا يتولون نقل الحجاج والزوار المتجهين إلى المدينة المنورة من موانئ البحر الأحمر الشمالية ، وخاصة ينبع . ويتقاضون مبالغ كبيرة من المال لقاء تلك الخدمة ولقاء توفير الدلالة والحماية لهم . وبعد اكتمال إنشاء السكة كان أولئك الحجاج والزوار سيسلكون طريق حيفا أو دمشق ويركبون من هناك القطار إلى المدينة المنورة.^(١١) ولم يكنف القنصل العام الأمريكي في بيروت بهذا التعليل الاقتصادي فقط ، وإنما حاول أن يجعل للمقاومة هدفاً سياسياً أيضاً ، وهو التصدي للتوغل العثماني في أراضي شبه الجزيرة العربية.^(١٢)

وزاد القنصل العام على ذلك بمحاولة استشفاف الآفاق المستقبلية لتلك المقاومة القبلية . فأشار إلى احتمال وجود علاقة بينها وبين الوضع في داخل نجد ، رغم عدم توفر دليل ملموس على ذلك ، وأضاف : « يتوقع بالتأكيد من الوهابيين أن يلموا شعبهم ضد آخر (البدع الشيطانية) التي جاء بها (لابسو الطرايش والبنطلونات) الترك الملاعين . إنهم ، باتفاق غريب وذي معنى مع جماعة الشريف في مكة ، يلعنون صراحة السلطان لسماحه بحفر قناة السويس ، ومد خط برق البحر الأحمر ، وإدخال الحجر الصحي (بدلاً من الثقة القديمة والبسيطة في الله) ومنع تجارة الرقيق (رسمياً فقط) ، وإقامة القناصل الأجانب في جدة ، والوقوف من جراء ذلك كله في أيدي (الكفار) . إن من الطبيعي تماماً توقع غضبهم من سكة الحديد باعتبارها وسيلة ناجحة يمتلكها الآخرون . [أي الكفار] لتدمير دينهم وحرمتهم ... ».^(١٣) ولا شك في أنه كانت هناك في نجد فئة تحفظ على إدخال المخترعات الحديثة ، وهي الفئة التي اعترضت فيما بعد على إدخال المغفور له الملك عبد العزيز لتلك المخترعات كما هو معروف . ولكن المبالغة واضحة في وصف القنصل العام لموقف تلك الفئة ، وخاصة فيما يتعلق بقناة السويس والخط البرقي ، إذ لا صلة مباشرة لأهالي نجد حينئذ بهذين الأمرين . كما تتضح مبالغته أكثر في تعميمه

موقف تلك الفئة وجعله موقفاً لكل أتباع الدعوة السلفية التي يسميها بـ « الوهابية » والدليل على مبالغته أن توقعه لخمسة وقوفها ضد السكة الحديدية لم يتحقق أبداً .

ولم يكن الفصل العام بتوقعه السابق ، بل أضاف له توقعاً آخر وهو انضمام حائل لحركة مقاومة السكة الحديدية ، فقال : « يمكن الظن أيضاً بأن ابن رشيد ترجع معارضته للغزو التركي بعنف . إذ يقال إنه يدفع مبلغاً صغيراً (ربما عشرين ألف دولار) سنوياً إلى شريف المدينة ، اعترافاً بمكانته الدينية من ناحية ، ولتأكيد سلامة ممتلكاته النائية عن العدوان التركي من ناحية أخرى ، ولكنه رغم ذلك لا يعتبر نفسه مستقلاً عن الحكومة التركية فقط ، بل أيضاً حامل لواء أي شعور وطني وطموح قومي ربما يوجد في واحات ووديان نجد ... »^(١٤) ويغالب الصواب الفصل العام في رأيه هذا أيضاً . إذ إن من المعروف أن ابن رشيد كان وثيق الارتباط بالدولة العثمانية ، وأنه كان في تلك الفترة يتقاضى منها راتباً شهرياً مقداره مائة وخمسون جنيهاً استرلينياً .^(١٥) ولم يمر على ما يشر إلى أنه كان يدفع رسم خضوع سنوي للشريف .

ووسع الفصل الأمريكي العام نطاق توقعاته ، حين قال : « في كل المنطقة المعتدة من العقبة - أو حتى من معان - إلى المدينة هناك قبائل على جانبي طريق الحجاج يحمل أنها على استعداد كامل لقتال الترك شريطة أن يتحدد البدو ليكونوا في وضع يمكنهم من إظهار مقاومة فعالة ... إضافة لذلك فإن عزلة المرعبة أحياناً قد غزواتها حتى حوران ، بل وحتى الحجاز ، ويمكن أن تشارك بسهولة في أي شجار على طول سكة الحديد ... مع ذلك فإن أولئك الذين خبروا السياسات البدوية ، التي نادراً ما ترتفع فوق مستوى الرغبة في النهب ، وعرفوا الحذر البدوي الذي يشمل حتى الأقارب الأقربين ، وأدركوا طمع البدو وجشعهم ، لا يبدو لكثير منهم أن قتالاً واسعاً يمكن أن يحدث ما لم يقم رشيد أو سعودي فيوحد القبائل في عمل مشترك يخلق مملكة وطنية ، كما فعل مرة داود ، في قبيلة جودا Judea ، في فلسطين !! ومع التحفظ على تشبيه الفصل لقبائل شمال شبه الجزيرة العربية بالقبائل العبرانية في فلسطين لبعده ذلك التشبيه عن الواقع ، فإن ملاحظته حول عدم إمكان اشتراك القبائل العربية في عمل موحد إلا تحت لواء قيادة تاريخية تبدو ملاحظة صائبة تؤيدها الكثير من الشواهد .

وقد أثبتت الأحداث أن توقعات الفصل العام تلك كانت مفرقة في الخيال . إذ لم تقم حركة مقاومة عامة للسكة الحديدية تشمل كل قبائل وسط وشمال شبه الجزيرة ، كما لم تنضم

لذلك المقاومة قبائل عنزة القاطنة في بلاد الشام . بل اقتصرت المقاومة على القبائل القاطنة شمال الحجاز ، وحول المدينة المنورة تحديداً . وقد عدد القنصل البريطاني في دمشق القبائل الحجازية الرئيسية المعارضة لد السكة وهي بنو علي ،^(١٧) وجهينة ،^(١٨) والحمدة ،^(١٩) وولد محمد والحوازم .^(٢٠) والاسمان الأخيران هما لبطنين من قبيلة حرب ،^(٢١) التي قامت بالدور الرئيسي في مقاومة مد السكة حسب رواية القنصل العام الأمريكي في بيروت . وقد توسع هذا القنصل في الحديث عن قبيلة حرب فوصفها بأنها كانت المسيطرة على شمال الحجاز حينئذ ، وأنها رغم الإعانات المالية التي تقدمها لها السلطات الحكومية العثمانية كانت تقوم بسلب ونهب قوافل الحجاج . ففي ربيع سنة ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ م قامت تلك القبيلة باحتجاز قافلة الحجاج المصريين الذين يرافقهم جنود الخديوي لمدة زادت عن أسبوعين ، ولم تسمح لهم بمواصلة السير إلا بعد أن دفعوا فدية باهظة .^(٢٢)

وانتقل القنصل العام الأمريكي بعد ذلك لتقدير قوة هذه القبيلة من الناحية العددية ، فذكر أن الرحالة بيركهاردت Burkhardt زعم في سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣١ م أن القوة المقاتلة لهذه القبيلة تتراوح بين ٣٠ - ٤٠ ألف مسلح . وتحفظ القنصل على ذلك التقدير ، ورجح ما ذكره رحالة آخر هو بارون نولده Baron Nolde الذي قدر قوة تلك القبيلة القتالية بخمسة عشر ألف مقاتل .^(٢٣) ويبدو لي أن التقدير الأخير هو الأرجح ، لأن شخصية معاصرة مطلقة قدرت عدد أفراد تلك القبيلة سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م بعشرين ألف نسمة .^(٢٤) ولما كانت المعلومات التي توفرت للقنصل العام تقدر عدد المسلمين في أفراد القبائل الذين يقاومون مد سكة الحديد بأربعين ألف مسلح ، فإنه عاد للتشكك حول ما إذا كانت قبيلة حرب قد تلقت نجدات في داخل نجد .^(٢٥) وهو تشكك ليس له ما يبرره ، إذ أن ذلك القنصل أغفل أن يدخل في تقديره القبائل الحجازية الأخرى المجاورة لحرب مثل جهينة وأولاد علي .

وقد كانت السلطات العثمانية كما مر تتوقع منذ البداية أن تلقى عملية إنشاء سكة الحديد مقاومة من القبائل ، ولذلك خصصت خمسة آلاف جندي للقيام بعملية الحماية اللازمة . لكن ذلك لم يكن رادعاً كافياً للحيلولة دون قيام القبائل بالأعمال العدائية المتوقعة . فأخذت القبائل تقوم بعمليات السطو على معدات السكة ، ثم انتقلت للهجوم المباشر على قوات الحماية الحكومية . فشنت هجوماً على قوة كانت مرافقة للمشير كاظم باشا ، المشرف العام على السكة ،

وقتل مائة من أفرادها. (٢٦) وعندما اضطرت السلطات العثمانية لزيادة قوات الحماية تلك حتى بلغ عددها في صيف عام ١٣٢٦ هـ/ ١٩٠٨ م أكثر من خمسة عشر ألف رجل ، يضمهم أولئك العاملون في مد السكة. (٢٧)

ويلاحظ هنا أن عنف المقاومة القبلية ازداد في ذلك الصيف مع اقتراب إيصال مد السكة إلى المدينة المنورة . ففي حوالي جمادى الأولى سنة ١٣٢٦ هـ/ يونيو ١٩٠٨ م احتشدت القبائل المعارضة قرب المدينة وخاضت معركة عنيفة ضد القوات الحكومية ، التي استخدمت المدفعية لقصف تجمعات القبائل المعادية مما اضطرها للتراجع بعد أن خسرت أكثر من سبعين قتيلًا. (٢٨) وكان ازدياد عنف المقاومة على ذلك الوجه مؤذناً بفشل الجهود الاسترضائية التي كانت الحكومة تقوم بها تجاه القبائل . وتتمثل تلك الجهود في إيغاد بعثة من دمشق ضمت عبد الرحمن باشا ومحمد فاضل باشا ، توجهت إلى منطقة المدينة المنورة لتقديم الهبات إلى مشايخ القبائل ومنحهم الوعود بتخصيص رواتب سنوية لهم مقابل الكف عن معارضة مد سكة الحديد. (٢٩) وقد أخفقت جهود تلك البعثة ، فعاد عضواها إلى دمشق في غضون شهر جمادى الثانية ١٣٢٦ هـ/ يوليو ١٩٠٨ م . كما تم أيضاً سحب كاظم باشا مفتش عام السكة نتيجة فشله في التعامل مع مشكلة المقاومة القبلية ، وعين بدلاً عنه عبد الله باشا المشير السابق للجيش الخامس المتمركز في الشام. (٣٠)

لقد مالت الدولة بعد إخفاق جهودها السلمية للركون إلى القوة في التعامل مع القبائل المعارضة . واختارت لهذه المهمة قائداً كردياً في أورفه هو إبراهيم باشا ، بعد أن اقترعته بالتوجه إلى الحجاز على رأس ألف وخمسمائة من فرسانه للمساعدة في إخماد المقاومة القبلية . وعلق الوكيل القنصلي الأمريكي في دمشق على إسناد تلك المهمة لإبراهيم باشا بقوله إن كثيراً من الأساط تشك في أن ذلك التكليف ولید رغبة حكومية مضرة هدفها تدمير سمعة إبراهيم باشا القتالية وإضعاف قوته. (٣١) ولمح القنصل الأمريكي العام في بيروت إلى عدم ارتياح الحكومة لمكانة إبراهيم باشا الكبيرة بين قومه الأكراد ، ووصف فرسان إبراهيم باشا بأنهم « سيفو السمعة » (٣٢) وإضافة لفرسان إبراهيم باشا ، عززت الحكومة قواتها العاملة في الحجاز بنجندات من الحاميات الحكومية في المناطق المجاورة . فقد أرسلت خمسمائة من جنود حامية عكا إلى المدينة المنورة. (٣٣) كما توجه إليها ثلاثمائة وخمسون جندياً قدموا من طرابزون على البحر الأسود عن طريق ميناء حيفا. (٣٤)

ولم يؤد وصول إبراهيم باشا وفرسانه والتعزيزات الأخرى إلى تثبيط همة المعارضين القبليين ، إذ شنوا في أواخر يولية ١٩٠٨ م غارة دموية على أحد مخيمات القوات الحكومية تحت جنح الظلام . وبعد أن اغتالوا الخفراء الذين كانوا يحرسون المخيم ، تسللوا بصمت إلى داخله وذبحوا كل الجند وعددهم ثلاثمائة جندي ، وانسحبوا دون أن يتركوا وراءهم سوى سبعة قتلى من زملائهم^(٣٥) . ويلاحظ هنا أن القبائل طورت أساليبها القتالية ضد القوات الحكومية ، فأخذت تعتمد على الغارات الليلية المفاجئة ، وهو من أساليب « حرب العصابات » حسب المصطلحات المعاصرة . ولا شك أن هذا التطوير كان وليد الرغبة في تجنب الدخول في معركة مواجهة كبيرة تكلف القبائل خسائر فادحة في الأرواح نتيجة تفوق القوات الحكومية في الأسلحة النارية ، وخاصة المدفعية التي ثبت أن القبائل لا تطيق الصبر على مواجهة قذائفها .

وقد أدت أعمال المقاومة القبلية تلك بلا ريب إلى إعاقة سرعة إنجاز العمل في مد السكة ، كما أنها كلفت الدولة خسائر كبيرة في الأرواح والأموال . ولكنها لم تستطع رغم كل ذلك ، وما كان بإمكانها ، الحيلولة دون المضي قدماً بمد السكة ، التي أوصلت إلى المدينة المنورة في أوائل أغسطس ١٩٠٨ م . وما حل اليوم الثاني عشر من ذلك الشهر حتى غادرت حيفا أول قاطرة تجر تسع عربات محملة بالنفط متجهة إلى المدينة المنورة . أما التدشين الرسمي للسكة فتقرر أن يقام في محطة المدينة المنورة في اليوم الأول من الشهر التالي^(٣٦) . وقد جرى ذلك التدشين في موعده المقرر بالفعل في حفل كبير وسط مظاهر حماسة كبيرة أبداها أهالي المدينة المنورة ، الذين هزهم أن يروا هذه السكة تمتد مسافة ١٣٠٠ كيلومتر لتصل مدينتهم بالعالم الخارجي^(٣٧) .

ولم يمه تشغيل سكة الحديد المقاومة القبلية ، بل زادها تأججاً ، لأن أبناء القبائل حسوا عملياً خلال موسم الحج الأول الذي مرّ بعد افتتاح السكة مقدار الخسائر التي لحقت بهم وحرمتهم من موارد مالية كثيرة كانوا يعتمدون عليها . وقد لاحظ القنصل البريطاني في دمشق في أوائل ربيع الأول ١٣٢٧ هـ / أواخر مارس ١٩٠٩ م أن نشاط القبائل المعادي لسكة الحديد قد ازداد عندئذ بصورة أكبر مما كان عليه في الشتاء الماضي . إذ أخذت القبائل تشن هجمات متواصلة ضد السكة وحراسها ، وغالباً ما يكون هناك في كل يوم سفك دماء في هذا الجانب أو ذاك . وأضاف أن هدف المهاجمين هو تدمير السكة لغاية محطمة المدائن الواقعة على بعد حوالي

مائتين كيلومتر شمال المدينة . وقد نجحوا مؤخراً بالفعل في قلع ما طوله كيلومتراً واحداً من القضبان والعوارض الخشبية وحملوها معهم بعيداً . ولكن الجزء المخرب وضع تحت الإصلاح فوراً وأعيد الاتصال ثانية . وختم القنصل روايته بالقول أن هذه الروح العدوانية لدى القبائل أكثر سوءاً مما كانت عليه قبلاً ، وهي مستمرة ، ويرجح استمرارها .^(٣٨)

ولإزاء ذلك الوضع المتردي عادت السلطات الحكومية لمحاولة التفاهم مع القبائل ، وأوكلت تلك المهمة إلى بحري باشا متصرف المدينة المنورة والشريف حسين أمير مكة المكرمة . فأخذ الأخير يسعى للقيام بالتوفيق بين القبائل والسلطات الحكومية لتسوية القضية . وذكر القنصل البريطاني في دمشق أن جهود الوساطة تلك لم تلق نجاحاً ملحوظاً في البداية .^(٣٩) ولكن تلك الجهود حققت بعد شهرين نتيجة إيجابية ، إذ كتب القنصل البريطاني في جدة إلى سفير دولته في استانبول ، ناقلاً عن سليمان البسام ، التاجر الكبير المقيم في مكة المكرمة ، قوله : « ... بالنسبة لبدو الحجاز فقد جلبوا للسكنة بإجراءات الشريف الحكيمة - فخذنا قبيلة حرب الكبيران - المسروح وبنو سالم ، اللذان كان يهاجمان سكة القطار قديماً خضوعهما وضماناتهما طبقاً للعادات العربية معلنين أنهما لن يهاجما سكة القطار بعد ذلك » .^(٤٠)

ويبدو أن تلك الضمانات التي قدمتها القبائل للشريف حسين ، وما حصلت عليه مقابل ذلك من ترضيات مادية ، كانت كافية لهدوء الموقف حول سكة الحديد خلال السنوات التالية . إذ ليس بين يدي ما يشير إلى تجديد غارات القبائل على السكة خلال الفترة الواقعة بين عام ١٣٢٧ و ١٣٣٤ هـ/ ١٩٠٩ و ١٩١٦ م . إلى أن تجددت تلك الغارات على أيدي أتباع الشريف حسين نفسه حين أعلن ثورته على الترك في التاسع من شعبان ١٣٣٤ هـ/ العاشر من يونيو ١٩١٦ م . وكانت تلك الغارات هي القاضية على سكة حديد الحجاز التي لم تقم لها بعدها قائمة . ولا فائدة في الاستفاضة هنا في الحديث عن تلك الغارات فهي خارج نطاق هذا البحث .

ونعود الآن للحديث عن توقعات الدبلوماسيين الأجانب عن الفوائد التي يتوقع تحقيقها للمنطقة من جراء إكمال إنشاء السكة ، وعلى وجه خاص تأثيراتها على سكان المنطقة وقبائلها . فالقنصل البريطاني في دمشق ذكر أن الآمال كانت واسعة قبل افتتاح السكة في أنها ستؤدي

إلى ازدهار كبير في التجارة ، ولكنه لاحظ بعد مرور سبعة أشهر على افتتاحها وجود صعاب تقف في طريق الانتفاع منها بما يحقق أقصى الفوائد المتاحة .^(٤١) ولا أعتقد أن فترة قصيرة كهذه كافية للحكم على مدى المنفعة الاقتصادية للتحقق من مشروع كبير مثل السكة ، خاصة وأن تلك الفترة كانت بداية التشغيل ، ورافقتها الغارات القبلية على الصورة التي مر ذكرها . ويحسن ألا يغيب عن البال هنا أن الموقف البريطاني تجاه السكة عموماً كان يتسم بالحفظ منذ البداية ، خوفاً من أن يكون منفذو المشروع الألمان يهدفون من ورائه إيجاد موطئ قدم لهم في غرب وجنوب شبه الجزيرة يمكنهم من القفز إلى مياه المحيط الهندي دون حاجة للمرور بالبحر الأحمر الذي تتحكم بريطانيا في منفذه قناة السويس ومضيق باب المندب .

أما القنصل العام الأمريكي في بيروت فقد كان حتى قبل افتتاح السكة أكثر تفاؤلاً من زميله البريطاني ، إذ كتب قائلاً : « ... لا أستطيع إلا الإيمان بأن التقدم العثماني في الحجاز ، والمناطق الساحلية الواقعة خلفه ، سوف يكتمل عاجلاً أو آجلاً ، وستهل على البدو أياماً أكثر سعادة ، بالرغم من نقائص الترك . فعلى طول ساحل البحر الأحمر ، في الحجاز وعسير واليمن ، هناك أرض واسعة قابلة لتطوير مادي . ومن الممكن أن يتم في تلك المناطق إدخال آلات حديثة وخلق صناعات جديدة وتنمية التجارة ... لقد كُتِبَ وقيل الكثير عن الإمكانيات المتاحة لبلاد العرب التركية في ظل حكومة مستقرة وتقدمية . ولكن اعتباراً قليلاً أعير لأهمية وجود سكان مجدين كادحين بدونهم لا يمكن أن ينجح في إصلاح البلاد ، الحكومة التركية سيئة السمعة ، ولكنها ليست أكثر سوءاً مما يستحق العرب ... وفيما يتعلق بالصحراء فيجب أن يعمل البدو الذين ظلوا فيها بصبر على التحلي عن حروبهم وغاراتهم . ويمكن أن يتحقق هذا عن طريق توفير الحماية لتلك القبائل التي قررت هجر القتال نهائياً ومكافأتها على ذلك . [ويجب اتخاذ خطوات لتوفير المراعي الصيفية لمواشها] ، وبذلك يمكن جعل الصحراء ، كما اعتقد ، تستوعب عدداً كبيراً من السكان الرعويين المزدهرين ... » .^(٤٢)

ويبدو القنصل هنا مغرماً في تفائله ، فلم يتحقق لقبائل البادية في ظل الحكم العثماني ما توقعه من أمن ورخاء - وما كان بإمكان الحكومة العثمانية في الواقع أن توفر ذلك لهم - فهي لم تكن معنية في سياستها بذلك الجانب من ناحية ، وكانت إمكانياتها المادية منهكة تماماً في أخريات أيامها من ناحية أخرى . ويحسن في هذا السياق التعليق على الرأي السيء الذي أبداه القنصل

في العرب . والواقع أن هذا القنصل لم يكن منفرداً في إبداء هذا الرأي ، بل إنه يتردد في كتابات كثير من الدبلوماسيين الغربيين الذين عملوا في المنطقة العربية حينئذ . واعتقد أن ذلك الرأي كان نتيجة مقارنة ظالمة يعقدها الدبلوماسيون في أذهانهم بين إنتاجية الفرد ونشاطه العام في المجتمع العربي مع إنتاجية ونشاط مثيله في مجتمعاتهم . ولكن تلك المقارنة تغفل أمراً مهماً جداً وهو أن الفرد الغربي لم يظهر تلك الإنتاجية العالية والنشاط الجَم إلا بعد أن توفر له حدٌ أدنى من الغذاء والتعليم الكافيين ، وقامت المشاريع الاقتصادية الكبيرة من صناعية وزراعية التي وفرت له الميكان المناسب لابتداء مهاراته ، وتمتع بقدر كبير من الأمن ، وتلك ظروف لم يبيء للفرد العربي أن يحيا في ظلها حينئذ .

الخلاصة :

كان مد السكة الحديدية الحجازية ذا هدف ديني رئيسي ، ولكنه مصحوب بهدف سياسي ، تمثل في الرغبة بتعزيز قبضة الدولة العثمانية في غربي شبه الجزيرة العربية ، وربما وسطها أيضاً . وقد أدركت القوى السياسية المحلية ذلك الهدف السياسي وتخوفت من نتائجه . ولذلك كان موقفها أقرب للحفاظ تجاه مد السكة ، ويتجلى ذلك التحفظ في أبرز صوره في رفض الشريف حسين للمحاولات الكثيرة والإغراءات الكبيرة التي بذلتها الحكومة العثمانية لإقناعه بالموافقة على مد السكة في المدينة المنورة إلى مكة المكرمة وجدة .^(٤٦) ولعل ذلك التحفظ هو الذي جعل الشريف حسين بن علي وسلفه الشريف علي بن عبد الله لا يبدلان جهوداً جدية في التوسط لدى القبائل وإقناعها بعدم معارضة مد السكة ، مع ما هو معروف عن نفوذ أشرف مكة الكبير بين تلك القبائل . وهذا النفوذ هو الذي مكن الشريف حسين من إقناع تلك القبائل عام ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م بالكف عن المقاومة كما مر ، وربما كان تحركه في هذا السبيل قد جاء في النهاية نتيجة قناعته بأن السكة لن يقدر لها بعد ذلك الوصول إلى مكة المكرمة . ويلاحظ هنا أن أشرف مكة وغيرهم من القوى المحلية المجاورة رغم تحفظها على سكة حديد الحجاز فإنها لم تقم بمجهود حربي مباشر أو تحرك سياسي مكشوف ضدها .

وقد وقع عبء المقاومة المسلحة على عاتق قبائل المناطق الحجازية التي مدت فيها السكة . وكان الدافع الأساسي لتلك المقاومة دافعاً اقتصادياً ليست له أبعاد سياسية ظاهرة ،

ويلفت النظر هنا أن قبائل جنوب سوريا وشرق الأردن التي تتمر السكة في أراضيها أيضاً لم تسهم في تلك المقاومة التي انحصرت على القبائل المقيمة حول المدينة المنورة والتي تضررت اقتصادياً من السكة نتيجة فقدانها للموارد المالية التي تعودت على تقاضيا عند كل موسم حج ، ويدلل انحصار المقاومة على القبائل اخطئة بالمدينة على أن تلك المقاومة لم تكن انعكاساً لرفض حضاري لخطرات المدينة الحديثة كما حاول القنصل العام الأمريكي في بيروت أن يوحي بذلك ، إذ لو كان الأمر على تلك الصورة لاشتركت فيه أغلب القبائل التي تتمر السكة في ديارها في سوريا والأردن والحجاز .

وأخيراً يلاحظ أن السلطات الحكومية العثمانية لم تبد كفاية في تهيئة أذهان القبائل لتقبل فكرة مد سكة الحديد في ديارها ، ولم توفر لها بدائل للموارد المالية التي خسرتها من جراء مد السكة . واكتفت بإغداق الهبات والعطايا على مشايخها ، أو سوق القوات الحكومية ضدها في حملات غير مجدية كلفت الدولة الكثير من الخسائر المادية والمعنوية ، وكان من الأجدي للسلطات الحكومية لو أنها طرحت مشروع إنشاء السكة على القبائل وأقنعتها به باعتباره جزءاً من مشروع حضاري اقتصادي متكامل ، يتم بموجبه حفر الآبار على امتداد السكة الجديدة لتوطين القبائل حولها وحول محطات السكة الجديدة . وبذلك كان يتوفر لأبناء القبائل مصدر بديل للعيش من خلال الزراعة والرعي حول الآبار ، ومن خلال استيعاب كثير منهم في العمالة اللازمة للسكة حراساً وعمالاً يدويين ، ولعل خزانة الدولة المنهكة والمقضلة بالأعباء في هذه الفترة هي التي حالت بينها وبين النهوض بمشروع كبير مثل هذا ■

• الموامش •

- (١) د. محمد كمال الدموقي ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٣٠٧ .
- (٢) نبيل عبد الحفي رضوان ، الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس ، جدة ، ١٤٠٣ ، ص ١٧٠ .
- (٣) وجيه الخيمي ، الخط الحديدي الحجازي : ماضيه وحاضره ومستقبله ، في مجلة « الفيصل » ، العدد ٣٢ ، صفر ١٤٠٠ هـ ، ص ١٢٨ .
- (٤) رضوان ، مرجع مر ذكره ، ص ١٧١ .

- (٥) الخيمي ، مرجع مر ذكره ، ص ١٢٩ .
- (٦) رضوان ، مرجع مر ذكره ، ص ١٧١ .
- (٧) حرب نشبت بين الدولة العثمانية وروسيا عام ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣ م ، ثم تدخلت فيها بريطانيا وفرنسا ، وانتهت بتوقيع معاهدة باريس عام ١٢٧٢ هـ/ ١٨٥٦ م .
- (٨) N.A.R.S., RG 84, Misc. No. 1982, Bie Ravndal, Am. Con. - Gen., Beirut, to W. Magelssen, Am. Con., Bagdad, Dated 31/8/1908, P. 17.
- (٩) عن تلك الحملة راجع ؛ خالد السعدون ، أضواء على حملة شريف مكة على القصيم عام ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠ م ، في الدارة ، العدد الأول ، السنة العاشرة ، شوال ١٤٠٤ ، ص ٦٧ - ٧٢ .
- (١٠) أوصلت السكة إلى تبوك في أول سبتمبر ١٩٠٧ ، راجع : الخيمي ، مرجع مر ذكره ، ص ١٢٩ .
- (١١) PRO, FO. 424/219, No. 71, Consul Devy to Sir G. Lowther, Dated 23/3/1909.
- (١٢) N.A.R.S., RG 84, Misc. NO. 1092, P. 17.
- (١٣) Ibid, P. 18
- (١٤) Ibid, P. 19
- (١٥) 10 R, R/14/5/25, No. 609, Sri G. Lowther to Foreign Office, London, Dated 29/7/1909.
- (١٦) OP. CIT., PP. 20 - 21
- (١٧) قبيلة تعيش في المنطقة الممتدة بين خيبر وقلعة الزرقاء . راجع : أيوب صبري باشا ، مرآة جزيرة العرب ، ت . د . أحمد فؤاد متولي و د . الصفصافي أحمد المرسي ، الرياض ، ١٤٠٣ ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ .
- (١٨) حي عظيم من قضاة ، يقيمون في وادي ينبع وشماله إلى العيص وأم لج . راجع : عاتق بن غيث البلادي ، معجم قبائل الحجاز ، جدة ، ١٣٩٩ ، ج ١ ص ٨٩ - ٩٠ .
- (١٩) بطن من بني سنان من جهة . راجع : البلادي ، معجم قبائل الحجاز ، ج ١ ص ١١١ .
- (٢٠) PRO, FO. 424/219, No. 17
- (٢١) ولد محمد في بني سالم من حرب ، راجع : عاتق بن غيث البلادي ، رحلات في بلاد العرب ، جدة ، بدون تاريخ ، ص ٩ .
- والحوازم بطن كبير من بني سالم من حرب ، دياره في وادي الصفراء قرب المدينة . راجع : البلادي ، معجم قبائل الحجاز ، ج ١ ، ص ١١٦ .
- (٢٢) N.A.R.S., RG 84, Misc. No. 1092, P. 18
- (٢٣) Ibid
- (٢٤) 10R, R/15/5/25, NO. 23, H.B. M's Consul. Jeddah, to Sir G. Lowther, Dated 5/5/1909, endosure 1
- (٢٥) OP. CIT., P. 18
- (٢٦) رضوان ، مرجع مر ذكره ، ص ١٧٥ .

- OP. CIT., P. 18 (٢٧)
- N.A.R.S., RG 84, NO. 177, Bie Ravndal, Am. Con. - gen., Beirut, to J. Leishman, Am. Amb, (٢٨)
Const., Dated 16/7/1908.
- OP. CIT., P. 20 (٢٩)
- N.A.R.S., RG 84, No. 181, Bie Ravndal, Am. Con. - Beirut, to J. Leishman, Am. Amb., Const., (٣٠)
Dated 3/8/1908.
- Ibid (٣١)
- N.A.R.S., RG 84, Misc No. 1092, P.21. (٣٢)
- N.A.R.S., RG 84, No. 177 (٣٣)
- N.A.R.S., RG 84, No. 92, T. Struve, Am. Con. Agent, Haifa, to Bie Ravndal, Am. Con. - Gen., (٣٤)
Beirut, Dated 12/8/1908.
- Ibid (٣٥)
- Ibid (٣٦)
- PRO, FO. 424/219, No. 18, Sir G. Lowther to Sir E. Grey, Dated 5/4/1909, Enclosure 2. (٣٧)
- PRO, FO. 424/219, No. 17. (٣٨)
- Ibid (٣٩)
- 10R, R/15/5/25, No. 25, H.M's Consul, Jeddah, to Sir G. Lowther, Dated 30/5/1909. (٤٠)
- PRO, FO. 424/219, No. 18, enclosure 2 (٤١)
- N.A.R.S, RG 84, Misc. No. 1982, PP. 21 - 22 (٤٢)
- (٤٣) الحيمي ، مرجع مر ذكره ، ص ١٢٩ .

• المصادر والمراجع •

(١) الوثائق غير المنشورة :

- National Archives and Records Services (N.A.R.S.), Washington,
Record Group (RG) 84 :
- 1 — No. 1092, Bie Ravndal, Am. Con. Gen., Beirut, to W. Magelseen, Am. Con., Baghdad, dated 31/8/1908.
- 2 —No. 177, Bie Ravndal to J. Leishman, Am. Amb., Const., dated 16/7/1908.
- 3 —No. 181, Bie Ravndal to J. Leishman, dated 3/8/1908.
- 4 —No. 92, T. Struve, Am.-Con. Agent, Haifa, to Bie Ravndal, dated 12/8/1908.

Public Records Office (PRO), London, Foreign Office (FO):

1 —424/219, No. 17, Consul Devy to Sir G. Lowther, dated 23/3/1909.

2 —424/219, No. 18, Sir G. Lowther to Sir E. Grey, dated 5/4/1909, with two enclosures.

India Office Records (IOR), London:

1 —R/15/5/25, No. 609, Sir G. Lowther to Foreign Office, London, dated 29/7/1909.

2 —R/15/5/25, No. 23, H. M's Consul, Jeddah, to Sir G. Lowther, dated 5/5/1909.

3 —R/15/5/25, No. 25, H. M's Consul, Jeddah, to Sir G. Lowther, dated 30/5/1909.

(٢) المراجع :

- ١ - أيوب صبري باشا ، مرآة جزيرة العرب ، ترجمة د. أحمد فؤاد متولي ود. الصفصافي أحمد المرسي ، ج ٢ ، الرياض ، ١٤٠٣ .
- ٢ - خالد السعدون ، أضواء على حملة شريف مكة على القصيم عام ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م . في « الدارة ، العدد الأول ، السنة العاشرة ، شوال ١٤٠٤ هـ » .
- ٣ - عاتق بن غيث البلادي ، رحلات في بلاد العرب ، جدة ، بدون تاريخ ، معجم قبائل الحجاز ، ج ١ ، جدة ، ١٣٩٩ هـ .
- ٤ - محمد كمال دسوقي (الدكتور) ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
- ٥ - نبيل عبد الحفي رضوان ، الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس ، جدة ، ١٤٠٣ .
- ٦ - وجيه الخيمي ، الخط الحديدي الحجازي : ماضيه وحاضره ومستقبله ، في « الفصل ، العدد ٣٢ ، صفر ١٤٠٠ هـ » .



- دراسة لحالة مدينة حريملاء شمال غرب السعودية -

نموذج للنمو العمراني في مدينة سعودية صغيرة

مقدمة :

ركزت دراسات نمو المدن
السعودية على حالات المدن
الكبيرة أساساً أو المتوسطة^(١)، بينما لم تلق
المدن الصغيرة اهتماماً يناسب انتشارها الواسع
مؤخراً إثر ارتباط قيامها بإنشاء البلديات .



● د . صلاح عبدالجبار عيسى ●

وقد وقع الاختيار على حالة مدينة حريملاء كمدينة صغيرة لدراسة نشأة ونمو العمران
بها بهدف التأصيل الجغرافي للمظهر العمراني القائم حالياً من جانب ، ومحاولة استخلاص النموذج
الذي سار ويسير عليه النمو العمراني في مدينة سعودية صغيرة وقديمة من جانب آخر . فمن
المعلوم أولاً أن الوراثة التاريخية للظاهرة العمرانية له تأثير واضح على كل عناصرها التوزيعية
والبنائية والوظيفية . ويرتبط فهم وتفسير تلك العناصر بالأبعاد التطورية ، وثانياً فإن المدينة
السعودية عموماً شهدت وتشهد في الفترة الأخيرة قفزات تطورية ضخمة بكل المقاييس تواكب
في ذلك النهضة الشاملة بالمملكة والتي تخطط لها وتدعمها الدولة ، وتمثل حريملاء نموذجاً لمدينة
صغيرة قديمة اجتمع فيها العمران القديم التقليدي ، والعمران الحديث المخطط ، وفيما بين
ازدواجية هذين النوعين قامت عملية تحول عمراني بارز له خصائصه ودوافعه ، وربما تلقى دراسة
نمط تطور العمران في حريملاء الضوء على الأحوال التطورية للمدن السعودية المماثلة .

ويحسن أن نعالج الموضوع من خلال العناصر التالية :

- ١ - الصورة التوزيعية العامة للعمران الحالي بمدينة حرملاء كآخر ما أسفر عنه النمو العمراني وكمدخل يفيد في استجلاء الصور التطورية السابقة للعمران المدينة .
- ٢ - العوامل المؤثرة على نشأة ونمو العمران بمدينة حرملاء في الماضي والحاضر على وجه الإجمال ثم تتبع آثارها فيما بعد .
- ٣ - مراحل واتجاهات النمو العمراني ، وخصائص كل مرحلة تطورية وهي محور الدراسة .
- ٤ - النموذج العام للنمو والتطور العمراني بمدينة حرملاء وهو بمثابة نتيجة الدراسة . أما مصادر المادة العلمية للدراسة فيمكن تصنيفها كالتالي :

أ - الكتابات السابقة : وتشمل :

- ١ - مصادر تاريخية عن نجد وتاريخ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وجغرافية المملكة السعودية .
- ٢ - الدراسات والبحوث وأهمها ما كتبه صالح الطعيس عن مدينة حرملاء سنة ١٣٩٩ هـ .
- ٣ - تقارير بيوت الخبرة عن حرملاء وأهمها تقرير دار الرياض وبلغفور في رمضان سنة ١٤٠١ هـ .

ب - الخرائط والمخططات وتم الحصول على الأولى من وكالة وزارة الشؤون البلدية والقروية لتخطيط المدن ، وتغطي منطقة حرملاء أربع لوحات بمقاييس ١ : ٢٥٠٠ معدة عن صور جوية التقطت سنة ١٩٧٦ م . أما المخططات فحصل عليها من بلدية حرملاء وهي تشمل جميع مخططات الحزم (سبعة مخططات) ومخططات تحيط بالبلدة القديمة خاصة في الشمال فضلاً عن مخططات تعديل أجزاء بالبلدة القديمة .

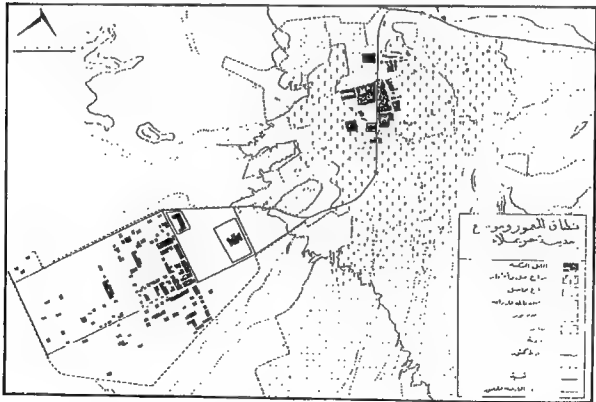
ج - الدراسة الميدانية : أجريت الدراسة الميدانية للعمران في حرملاء من خلال الجهد المشترك لمجموعة دراسة العمران المؤلفة من د. محمد حجازي ، د. محمد بهجت ، والباحث ، من قسم الجغرافيا بكلية العلوم الاجتماعية بالرياض ، في الفترة من ربيع أول ١٤٠٣ هـ (ديسمبر ١٩٨٢ م) إلى جمادى الثاني ١٤٠٣ هـ (إبريل ١٩٨٣ م) وقد أمكن عن طريق الدراسة الميدانية :

- ١ - التحقق من الآثار العمرانية والشواهد الحضارية لحرملاء وأهمها بقايا الأسوار والقلاع والبوابات .

- ٢ - اللقاء مع الثقافات من أهل الخبرة في حريملاء ومنهم (الشيخ ناصر - عبدالله بن قضيبي - عبدالرحمن المشعل) وإمكان وضع أول خريطة تفصيلية لأحياء البلد القديمة .
- ٣ - المسح التفصيلي لأحوال المساكن والمباني بحريملاء واعتبار ذلك أحد مؤشرات أعمار المباني وفترة إنشائها .
- ٤ - توقيع التوسع العمراني الحديث على الخريطة في البلد القديمة وإنشاء أول خريطة لتوزيع وحدود العمران القائم وتحت الإنشاء في مخططات منطقة الحزم .
- ٥ - حصر وتسجيل عمليات الإحلال والتجديد في البلد القديمة ومحاولة استكمال حلقات التطور العمراني من خلال ذلك .
- ونعالج فيما يلي العناصر السابقة للموضوع .

أولاً : الصورة التوزيعية العامة لعمران حريملاء :

يمكن تحديد النطاق المعمار في حريملاء بالمساحات التي تشغلها مساكن المدينة ومبانيها ، القائم منها وفي دور الإنشاء يرافقها مختلفة المبينة والمكشوفة وكذلك بمساحة الأراضي المستخدمة استخداماً اقتصادياً مرتبطاً بوظيفة عمران ونشاط سكان المدينة .



شكل رقم (١)

وبناء على ما سبق فإن النطاق المعمور في حريملاء يشغل مساحة ٧,٦٨٢,٥٠٠ متراً مربعاً^(١)، أي أنها تمثل ١,٧٦٪ فقط من جملة مساحة منطقة حريملاء الطبيعية (٤٣٥ كم^٢)^(٢) والتي تمتد فيما بين خطي عرض ٥٧° - ٢٤°، ١١° - ٢٥° شمالاً، وفيما بين خطي طول ٥٥° - ٤٥°، ٩° - ٤٦° شرقاً، ويكاد المعمور أن يتركز في الشمال الشرقي للمنطقة الطبيعية حيث ملتحق بمجموعات الأودية التي تنصرف إليها مياه حوض حريملاء الطبيعي (خريطة رقم ١).

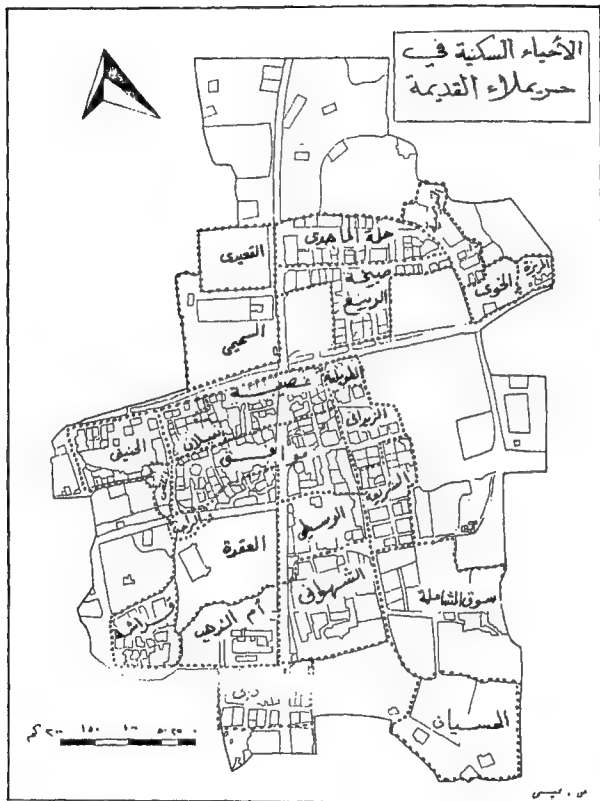
ولا يتخذ النطاق المعمور شكلاً مساحياً منتظماً بل تظهر له أطراف وامتدادات في معظم الاتجاهات، وبشكل عام يمكن تصور امتداد المعمور في محور شمالي شرقي جنوبي غربي شبه متصل، وإذا ضرب عليه شكل هندسي يسائر الإحداثيات الفلكية يصبح الامتداد الشمالي الجنوبي للمعمور في مسافة ٣,٣٧٥ كم، والامتداد الشرقي الغربي في مسافة ٤,٢٥ كم. وتتوزع مساحة المعمور على نوعين رئيسيين من الاستخدام:

أ - أراضي المزارع: ويمارس فيها النشاط الزراعي بالمدينة وتبلغ مساحتها ٦,٩٣٢,٥٠٠ متراً مربعاً، أي نحو ٩٠,٢٪ من جملة المعمور، ويمكن أن نميز فيها بين المزارع القديمة التي يغلب عليها زراعة النخيل وتقع في الوسط وتبلغ مساحتها نحو ٣,٠٠٠,٠٠٠ متراً مربعاً (٣٩٪ من المعمور) ثم المزارع الحديثة للمحاصيل المحلية والمشروعات الإنتاجية الزراعية وتقع على الهوامش وتمثل ٥١,٢٪ من المعمور إذا أضيف إليها مساحات مجاري الأودية الرئيسية المتخللة لنطاق المعمور.

ب - الأراضي البنية: وهي محور الاهتمام في دراسة العمران وتبلغ مساحتها ٧٥٠,٠٠٠ متراً مربعاً أي ٩,٨٪ من جملة معمور حريملاء.

ومن خريطة توزيع العمران (شكل ١) يتضح أن المعمور المبني ينقسم حسب نمط التواجد إلى نوعين: عمران كتلي متجمع - عمران مساكن منفردة وتجمعات صغيرة.

١ - العمران الكتلي المتجمع: وهو المظهر العمراني الغالب والمعبر عن مدينة حريملاء أساساً إذ يشغل نحو ٦٧٠,٦٠٥ متراً مربعاً (٨٩,٤٪ من العمران أو المعمور المبني)، ويقع العمران المتجمع في كتلتين كتلة قديمة، وكتلة حديثة.



— **الكتلة القديمة :** وهي حريملاء القديمة وتكاد تتوسط نطاق المزارع القديمة في شمال وسط المعمور ، وتبلغ مساحتها ٢٢٥,٦٨٨ متراً مربعاً (٣٠,١ ٪ من مساحة العمران) . والكتلة شبه مندرجة يمكن أن تستوعبها دائرة نصف قطرها ٤٠٠ متر ، مع وجود بعض المزارع داخل الدائرة ويتوزع عمران الكتلة على ٢٢ حياً سكنياً^(٥) في الوقت الحالي تتضح من الخريطة (رقم ٢) يحيطها بعض الأحياء غير السكنية والأحياء السكنية من الشمال والشرق إلى الجنوب ، والغرب هي : التويمية - حلة الماجدي - القعيدى - المريزة - الخوى - صبيخة الربيع - الطويلعة - غصيبة - نميلان - الحنيني - الزيداني - موافق - الملقى - الشريعة - الوسيطى - العقدة - سوق المشاعلة - الشهباني - أم الذهب - قراشة - الحسيان - أم الخواني . وتختلف هذه الأحياء في مساحتها وأعداد المباني السكنية وغير السكنية القائمة بها (جدول ١) ومن الحصر الميداني اتضح وجود ٣٦٧ مبنى قائم بالكتلة القديمة وهذا يعني أن متوسط عدد المباني في الحي الواحد نحو ١٦ مبنى ، ويتضح من الخريطة أن بعض الأحياء السابقة تتخللها مساحات فضاء واسعة مثل العقدة ونميلان والشهباني ، وبعضها يتضمن مزارع مثل الحنيني وأم الخواني والحسيان وسوق الشاعلة والتويمية والخوى والمريزة ، والبعض أزيل بعض مساكنها لشق وتوسيع الشارع العام الذي يقطعها من الشمال إلى الجنوب مثل حي غصيبة وموافق والعقدة (بدأ الشق في سنة ١٣٨٧ هـ ، والتوسع في سنة ١٣٩٢ هـ) . والجدير بالذكر أن بعض المباني الحديثة قد قامت على مسافة تتراوح بين ١٠٠ - ١٥٠ متر من الكتلة المجمعة مثل المدرسة المتوسطة الجديدة في الشرق والفندق الجديد في الشمال .

— **الكتلة الجديدة :** وتمثل في مباني حي الحزم القائمة وتبلغ مساحتها ٤٤٤٩١٧ متراً مربعاً أي ٥٩,٣ ٪ من مساحة عمران حريملاء الحالي ونحو ضعف مساحة عمران البلد القديمة وتوجد كتلة الحزم في أقصى جنوب غرب معمور حريملاء ويفصلها عن كتلة البلد القديمة ١,٣٥٠ كم على خط مستقيم ونحو ١٥٠٠ متر على طول الطريق الرئيسي الموصل بينهما ويقع في المساحة الفاصلة بين الكتلتين مزارع النخيل - جهة الكتلة القديمة ، ومزارع المحاصيل المهجورة مؤقتاً - جهة الحزم ، وبينهما مساحة تقترب من ٦٥ ألف متراً مربعاً تشغلها مقابر ، والجدير بالذكر أن منطقة المقابر هذه كانت تقع على هامش المعمور مثلها مثل منطقتي المقابر الآخرين للمدينة ، لكنها أصبحت واسطة عقد لمحور السكن البشري بحريملاء ، طرفاه للأحياء ومرتكزة للأموال .

جداول رقم (١)
العمران في الأحياء السكنية في حريملاء القديمة^(١)

م	اسم الحي	المساحة/متر ^٢	عدد المباني الحالية	مباني مزالة	مباني مزالة للشوارع	العدد الأصلي
١	التويمية	٨٣٧٥	٧٧	-	-	٧٧
٢	حلة الماجدي	١٥٦٢٥	٣١	-	-	٣١
٣	العقيدى	١٠٩٣٧,٥	١	-	-	١٥
٤	المريضة	٢٥٠٠	٥	-	-	٥
٥	الحوى	٤٠٦٢,٥	٣	-	-	٣
٦	صبيخة الربيع	١٣١٢٥	٤٢	-	-	٤٢
٧	الطويلعة	٢٨١٢,٥	٧	-	-	٧
٨	غصيبة	١٣٤٣٧,٥	٤٣	٢	٥	٥٠
٩	نمىلان	٤٦٨٧,٥	١٥	١	-	١٦
١٠	الحينى	١٠٣١٢,٥	٢٥	-	-	٢٥
١١	الزبداني	٨١٢٥	١٢	٣	-	١٥
١٢	موافق	٢٢٥٠٠	٥٢	-	٧	٥٩
١٣	الملقى	٢١٨٧,٥	٥	-	-	٥
١٤	الشريعة	١٠٩٣٧,٥	١٧	٣	-	٢٠
١٥	الوسيطى	١٠٧٥٠	١٠	٧	-	١٧
١٦	العقدة (والبراحة)	٢١٨١٢,٥	١٣	٣٠	٥	٤٨
١٧	سوق المشاعلة	٩٠٦٢,٥	١٥	-	-	١٥
١٨	الشهووى	٢٠٩٣٧,٥	٢٤	-	-	٢٤
١٩	أم الذهب	١٣٠٠٠	١	-	-	١
٢٠	قراشة	١٠٣٧٥	١٤	-	-	١٤
٢١	الحسيان	١٢١٨٧,٥	٥	٣٥	-	٤٠
٢٢	أم الحواوي	١٠٨١٢,٥	٢٠	-	-	٢٠
	الجملة	٢٣٨٥٦٢,٥	٣٦٧	٨١	١٧	٤٦٥

ويقوم العمران الحالي في الكتلة الجديدة بصفة أساسية على ثلاثة من المخططات السبعة التي وضعها البلدية للتوسع العمراني منذ سنة ١٣٩٧ هـ وهي مخطط ٣٩٨ ، ٣١٠ ، ٣١٩ . ويلاحظ من الخريطة أنها تشغل الجزء الشرقي والأوسط من منطقة الحزم ، وهي أقرب المخططات إلى البلد القديمة ، ولم يقط العمران القائم حالياً سوى ٢٦,٥٪ من جملة مساحة المخططات الثلاثة (١,٦٨٢,٥٠٠ متر^٢) . وأكبر المخططات إشغالاً المخطط ٣١٠ (٣٣,٦٪ من مساحته مبنى) يليه مخطط ٣٩٨ (٣٠٪) ثم مخطط ٢١٩ (١٦٪) . والملاحظ عموماً أن القطع المبنية في المخططات متجاورة إلى حد كبير . ويبلغ عدد المباني القائمة حالياً بالحزم ٣٢٦ مبنى تمثل ٢٧٪ من العدد المخطط له في المخططات الثلاثة ، هذا فضلاً عن ثلاثة مباني قائمة في المخطط رقم ٣٧٠ من بين ٤٤٦ مبنى متوقفاً . والجدير بالذكر أن ٧٧,٥٪ من جملة مباني منطقة الحزم تقوم على المخطط رقم ٣١٠ .

٢ - عمران المساكن المنفردة والكتل الصغيرة :

ويحتل مساحة نحو ٧٩٣٩٥ متراً مربعاً ، أي ١٠,٦٪ من مساحة المعمار المبنى ويقوم عليها ١٥٥ مبنى من مساكن المزارع .

وإذا أخذنا من كتلة العمران القديم بؤرة للمنظور التوزيعي لعمران المزارع يمكن تسجيل ملاحظتين أساسيتين :

— يتوزع نحو ٨٠٪ من عمران المزارع إلى الجنوب وإلى الشرق من الكتلة القديمة بحكم الامتداد الواسع للمزارع في الاتجاهين ، ويحظى الجنوب بنحو ١/٣ العمران تقريباً (٧٥) مسكن ، والشرق بنحو ١/٣ العمران (٥١ مبنى) هذا بينما يقع في المزارع الغربية ٢١ مبنى وفي الشمالية ٨ مباني .

— تختلف مساكن المزارع في نمط تجمعها بين مسكن منفرد وبين تجمع صغير ، ويختلف نمط توزيع هذين الشكلين حسب البعد من عمران البلد القديمة وتوضح هذه الملاحظة إذا طبقنا على مساحة عمران المزارع ثلاث دوائر متتالية مركزها نقطة متوسطة بأقدم أحياء البلد القديمة وأنصاف أقطارها (نصف ، واحد ، واحد ونصف) (خريطة رقم ٣) فسوف تظهر لدينا أربعة نطاقات أو مجالات مساحية متتالية حول المدينة القديمة

ومزارع الباتل ، العطاس ، الناصر ، العمار (٦ مباني في كل منها) . ومتوسط التباعد في هذا النطاق ١٤٢,٦ متراً ، ويتفق النطاق مع مزارع النخيل .

النطاق (ج) : ومساحة مزارعه نحو ١,٠٠٠,٠٠٠ متر^٢ ، ويقوم به ١٧ مبنى غالبيتها مساكن منفردة ومتوسط التباعد فيه ٢٦٠ متراً ، ومعظم مزارعه للمحاصيل الحقلية .

النطاق (د) : وتقع مزارعه في أقصى شرق وجنوب الممرور ومساحتها نحو ٧٥٠,٠٠٠ متر^٢ ولا يقوم بها سوى ٣ مباني منفردة ، وبالتالي فمتوسط التباعد ٥٣٧ متراً .

الخلاصة أن النطاق ب والذي يقع على مسافة تتراوح بين ١/٤ - ١ كم عن مركز البلد القديمة وأكثر قليلاً من نصف كم عن أطرافها هو النطاق الرئيسي لمساكن المزارع ، ويقل التوزيع حجماً وكثافة خارجه وداخله .

ثانياً : عوامل نشأة وتطور العمران بحرملاء :

يرتبط قيام العمران في منطقة ما بعدة عوامل من أهمها : ١ - توافر إمكانيات إعالة السكان غذائياً ، وهذا يعتمد أساساً على وجود المياه ومقومات الإنتاج الاقتصادي . ٢ - توافر عنصر الأمن من الخطر المحلي والخارجي ، وقدرة السكان على ذلك . كما يرتبط تطور العمران أساساً بما يطرأ على العاملين السابقين من تغير قد يعزى إلى أسباب طبيعية أو سكانية أو اقتصادية أو سياسية ... الخ .

ويمكن أن نميز ثلاث مجموعات من العوامل التي أثرت وتؤثر على نشأة وتطور العمران بمدينة حرملاء وإن اختلفت درجة تأثير كل منها في الماضي والحاضر ، وهي :

أ - عوامل الموضع : وأكثرها أهمية ثلاثة :

١ - توافر المياه :

توجد ثلاثة موارد للمياه بمنطقة حرملاء هي :^(١)

— جريان الأودية الجافة التي تستمد ماءها من الأمطار السيلية الشتوية أساساً ، وتخرج الأودية من نطاق المرتفعات المحيطة بالمنطقة وتتقارب مجاريها حول وخلال النطاق الممرور لتتجمع في وادي أبي قتادة ، (خريطة ١) ونظراً لقصر فترة جريان الأودية - مع غزارته -

فإن الاستفادة المباشرة من مياهها محدودة ، اللهم إلا إذا ظهرت وسيلة لتخزين المياه بإقامة العواقي أو السدود .

— المياه تحت السطحية ، وهي المختزنة من مياه الأمطار والأودية في طبقات الحصى والحصباء والرمال ، ويتوقف توافرها على سمك ونوعية الصخور وكذلك منسوب السطح وعلاقته بمجري الأودية كما تتأثر كمياتها بحجم وفصل سقوط المطر وتستخرج المياه تحت السطحية بواسطة حفر آبار بأعماق تتراوح بين ٤٠ - ٤٥ متراً ، وقد أحصى الباحث ٧٩ بئراً في المنطقة المعمورة حالياً في حرملاء^(١) ويلاحظ أنها تتركز في المعمور المزروع ، بل ويقترب ٣٤ بئراً بمساكن المزارع على حين لا تظهر الآبار داخل كتل العمران المتجمع سواء القديم أو الجديد وإن ظهر عدد محدود على أطراف المدينة القديمة ، وتعد الآبار السابقة المصدر الرئيسي لمياه الزراعة وكانت كذلك لمياه الشرب حتى أدخلت المياه الحكومية إلى المدينة منذ سنة ١٣٩٣ هـ ، وعلى ذلك فقد تغير عدد الآبار مع التطور العمراني والاقتصادي للمدينة في مراحلها المختلفة .

— المياه الجوفية العميقة : ولم يبدأ حفر الآبار للحصول عليها إلا في سنة ١٣٨٩ هـ ، وهي تستخدم حالياً للشرب فقط حيث تعتمد المدينة القديمة أساساً على بئرين مهمين أحدهما خاص ، ونوعية مياهها معقولة لكن كميتها محدودة ، والثانية تابعة للبلدية ومياهها كافية لكنها تميل إلى الملوحة .^(٢) وقد حفرت بئر جديدة لتغذية شبكة المياه في الحزم ضمن خطة لإقامة سبع محطات طلبمبات مياه جوفية لكل من الحزم والمدينة القديمة .

٢ - توفر التربة الزراعية :

تتميز تربة منطقة حرملاء بأن معظمها رسوبية منقولة بواسطة مياه الأودية وهي عموماً تصلح للزراعة مع توافر المياه ويمكن أن نغيز منها عدة أنواع :^(٣)

— تربة الروضات أو مناطق الشجيرات الطبيعية وهي غنية بالدهال ومرتفعة الإنتاجية والزراعة فيها بعلىة وهي أرض مشاعة لجميع سكان المدينة .

— تربة السهول وهي نوعان : تربة سهول فيضية رسوبية في مناطق ملتقيات الأودية والمصاطب الفيضية وهي تربة خصبة تشكل حالياً أراضي مزارع النخيل القديمة ومعظم

مزارع المحاصيل الحديثة ، والنوع الثاني تربة السهول التحتاتية وهي تربة محلية مشتقة من صخر منطقتها وتغطي أراضي منطقة الحزم لكنها ضعيفة الاحتفاظ بالمياه قليلة الخصوبة .
 — تربة سرير الوادي المتكونة في مجاري الأودية وهي فقيرة الدبال ، ملحية ، ناقصة المقطع ، قليلة الخصوبة ، ويمكن زراعتها في فترات الجفاف بإضافة الغرين والمخضبات .
 — تربة سفوح المرتفات وهي قليلة السمك ، قليلة الخصوبة ، ضعيفة الإنتاجية .

٣ — مناسيب الأرض :

هناك ثلاثة خطوط كتور رئيسية لها أهميتها الخاصة بالنسبة لعمران حرملاء هي :

- خط كتور ٧٧٠ متراً فوق سطح البحر ، ويمثل نقطة الانتقال من المرتفعات المحيطة إلى السهول الوسيطة ، أو هي في الغالب نقط مخارج الأودية من أقدام المرتفعات .
 - خط كتور ٧٥٠ متراً ، ويمر في أقصى شرق معمور حرملاء حيث تصل مياه الأودية المتعددة بعد التمامها في وادي واحد هو أبوقادة ، وفيما بين هذين الخطين تنحدر الأرض عموماً نحو الشرق ، وتفصيلاً مع اتجاه جريان الأودية ، ويبلغ معدل الانحدار بين الخطين من الغرب إلى الشرق ١ : ٢٢٠ تقريباً .
 - خط كتور ٧٦٠ متراً ، ويكاد أن يحدد المعمور المزروع من الغرب كما يفصل بين المدينة القديمة ومساكن المزارع من جانب ، وبين المدينة الجديدة من جانب آخر .
- وفضلاً عن ذلك يمكن تسجيل الملاحظات التالية :

- الأراضي الواقعة فيما بين الأودية أو عند مقارنها ، أعلى منسوباً من غيرها ، وتظهر على هيئة مصاطب فيضية كانت بقعاً مناسبة لقيام العمران فوقها . وتقوم المدينة القديمة في منطقة اقتران أودية الشعبة والشرج الأيمن وأبو قتادة .
- يميل العمران المتكامل إلى اختلال الأجزاء الأعلى منسوباً فالمدينة القديمة تحتل أعلى المناسيب في غرب المعمور المزروع والحزم الجديدة تقع إلى الغرب منها على منسوب أعلى من ٧٦٠ متراً .

وواضح من العرض السابق أن عوامل الموضع قد ساهمت في اختيار مناطق السكنى الأولى وكذلك مناطق التوسع العمراني اللاحق .

ب (عوامل الموقع : وأكثرها أهمية ثلاثة أيضاً :

١ - مجاورة حريملاء كواحة زراعية لمناطق رعوية ولبعض الواحات الفقيرة مثل القرينة (٣ كم) وسدوسي وملهم (٢٠ كم من كل) . ونظرا للغنى النباتي والزراعي النسبي في حريملاء أصبحت هدفاً لأغارات البدو خاصة في فترات الجفاف ، وكذلك قام النزاع المستمر بينها وبين الواحات المجاورة وأغار أهل حريملاء عليها في سنوات متعددة^(١) بهدف السيطرة

٢ - الاقتراب من العينة والدرعية

الواقعتين إلى جنوبها الشرقي بمسافة ٣٥ كم^(٢) ، ٦٠ كم على الترتيب ، وترتبط المدينتان بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وبتأسيس الدولة السعودية وانعكست آثارها على حريملاء فيما تعرضت له من غزوات وما أقيم فيها من قلاع وحصون وأسوار حول العمران ومن قبل الوهابية غزا صاحب العينة ومعه صاحب الدرعية حريملاء في سنة ١٠٩٦ هـ ، كما غزاها مرة ثانية سنة ١٠٩٨ هـ . لاحتلالها^(٣) وكرر غزوها مرتين أخريين في سنة ١١٢٣ ، ١١٢٨ هـ .^(٤) وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد انتقل مع والده من العينة (مولده) إلى حريملاء سنة ١١٣٩ ، وبدأ منها دعوته التي لم تلق فيها قبولاً واسعاً ، فغادرها الشيخ إلى العينة بعد وفاة والده سنة ١١٥٣^(٥) ، ثم إلى الدرعية حيث آزره أميرها محمد بن سعود في نشر الدعوة ، ودخلت حريملاء منذ سنة ١١٥٨ تحت ولاية الدرعية وشاركت في نشر الدعوة وتكوين الدولة وما ارتبط بها من حروب . وحينما سقطت الدرعية على يد إبراهيم باشا خضعت له حريملاء سلباً سنة ١٢٣٣ هـ .^(٦)

المهم أن العاملين السابقين قد ساهما في اختلال الأمن والاستقرار مما دعا السكان إلى تحصين مساكنهم ومزارعهم بالأسوار درعاً للغزو والمهجوم المتوقع ، بل لجأ السكان في بعض الفترات إلى هجر المساكن المنفردة والتجمع في أحياء سكنية محصنة ومسورة .

٣ - الاقتراب من الرياض :

تقع مدينة حريملاء على نحو ٩٠ كم شمال غرب الرياض ويصلها طريق جيد مرصوف ، وكان لهذا الاقتراب من عاصمة الدولة أثراً متناقضاً على تطور عمران حريملاء . الأول سلبى يحدد النمو العمراني والوظيفي ، حيث اشتدت هجرة أهل حريملاء إلى العاصمة ،

كما أصبحت الرياض المركز التجاري والخدمي المباشر لأهل حريملاء التي تضاعف قدرها التجاري والخدمي تبعاً لذلك . أما الأثر الإيجابي المشجع للنمو فيتمثل في التأثير الحضاري الذي انتقل من العاصمة إلى أهل حريملاء فضلاً عن اهتمام العاصمة بحريملاء كأحد منتسقاتها الحلوية ومصدر قريب للمنتجات الغذائية الزراعية .

جـ) عوامل مرتبطة بخطط التنمية في المملكة :

أخذت المملكة بسياسة الخطط الإثمانية الخمسية منذ سنة ١٣٩٠ (١٩٧٠) حيث بدأت الخطة الأولى والتي انتهت سنة ١٣٩٥ ، ونفذت الخطة الثانية من سنة ١٣٩٥ حتى ١٤٠٠ ، وكانت ميزانية هذه الخطة نحو ١٢ ضعفاً لميزانية الخطة الأولى نتيجة لارتفاع عائدات البترول خلال سني الخطة ،^(١) وتنفذ الآن سني الخطة الخمسية الثالثة (١٤٠٠ - ١٤٠٥) . وتعد سياسات التنمية هذه المسؤولة أساساً عن التطور العمراني الشامل في كل المملكة في الفترة الأخيرة ، وقد ارتبط بهذه السياسة ثلاثة متغيرات أساسية أدت إلى النمو العمراني الطفرى والضخم هي :

- ١ — ارتفاع دخول الأفراد نتيجة لسياسة التوظيف والتوسع في المشروعات الاستثمارية بدعم الدولة .
- ٢ — الدعم الحكومي للتوسع العمراني ، بمنح أراضي البناء ، وتيسير قروض صندوق التنمية العقارية .
- ٣ — قيام البلديات بإعداد وإنجاز مخططات التوسع العمراني وإنشاء المدن الجديدة ، وتزويد العمران القام بالخدمات والمرافق الشبكية المتقدمة .

ثالثاً : مراحل واتجاهات النمو العمراني لحريملاء

تقوم الدراسة المتكاملة للنمو العمراني على تتبع التغير الحادث في كل المساحة المبنية ، وفي عدد المباني ، وأعداد السكان ، وهي العناصر الرئيسية الثلاثة للهيكل العمراني ، وذلك منذ فترة نشأة عمران حتى صورته الراهنة .

ولا تتوافر عن مدينة حريملاء بيانات موثوق بها يمكن أن تسعف الباحث لتتبع ذلك وعلى فترات زمنية محددة ، ولكن المتاحة لا يتجاوز بعض الأرقام السكانية في تعداد ١٣٩٤ هـ

(١٩٧٤ م) ، وبعض التقديرات لمساحة المساكن وأعدادها وجملة سكانها في المدينة القديمة والمدينة الجديدة أوردتها تقرير بلفور سابق الإشارة عن سنة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

ومع ذلك فهناك بعض القرائن أو الشواهد التي تعين على تمييز مراحل عامة للنمو العمراني أهمها :

١ - الأسوار^(١) : وقد بنيت - كما ذكر - لتوفر الحماية لسكان المدينة في مساكنهم أو في مزارعهم ، وتتابع على حرملاء خمسة أسوار تختلف في الزمان والمكان فهي من أقدمها إلى أحدثها : (خريطة رقم ٤) .

- سور أبو ريشة ، وأقيم في نهاية القرن التاسع الهجري .
- سور الحسيان بني في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري .
- سور العقدة ، بني في أوائل القرن الثاني عشر الهجري .
- سور البلد (الجماعة) في أوائل النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري .
- سور ابن قاسم ، بني فيما بين سنة ١٢٢٨ - ١٢٣٢ هـ .

أما من حيث المكان فيلاحظ توزع الأسوار في إطارات متتابعة ، ولا يعني هذا اتفاق التابع التاريخي والمكاني ، فأقدم الأسوار يحيط بثلاثة أسوار أحدث منه ، بينما يعد أوسع الأسوار (الخارجي) أحدثها . وترتب على هذا اختلاف الأسوار حسب استخدام الأرض التي أحاطت بها أو تحيطها بحيث يمكن أن نميزها إلى نوعين :

- أسوار أحاطت بالعمران المبني ، وتشمل سور الحسيان في الجنوب ، والعقدة في الوسط .
 - أسوار أحاطت بالمزارع والكتلة المبنية ، وتشمل أسوار أبو ريشة والبلد وابن قاسم .
- ويتضح من هذا أن الاعتماد على الأسوار وحدها لا يكفي في تصور كيفية تطور العمران .

٢ - فترات تعمير الأحياء السكنية في البلد القديمة : وقد أمكن تحديد الفترات التقريبية لتعمير هذه الأحياء بالاستعانة بالكتابات التاريخية ، ومراجعة الثقافات من أهل حرملاء المعمرين ، فضلاً عن ملاحظات الحصر الميداني التفصيلي لحالات المباني في جميع أحياء المدينة القديمة . ومع أن تحديد فترات التعمير هي أحد محصلات الدراسة إلا أنه مؤشر رئيسي تمييز مراحل النمو العمراني .



شكل رقم (٥)

— وفيما بين منتصف القرن الثاني عشر الهجري وأوائل الرابع عشر عمرت خمسة أحياء ، أربعة منها متصلة وتقع شرق العمران الأقدم وهي حي غصيبة - موافق - الشهواني - الوسيطى ، وهو أحدثها والحي الخامس منفصل عنها وهو سوق المشاعلة في الجنوب الشرقي .

— وفي أواخر القرن الرابع عشر هجري عُمرت ستة أحياء تحيط بالعمران السابق من الشمال (الحلة - الصبيخة) والشرق (الطويلة - الزيداني - الشريعة) والجنوب (أم الخواوي) . كما نشأت مباني حديثة في أحياء زراعية مجاورة للكتلة السابقة هي الإمارة في حي القعيدي في الشمال ومساكن التويمية والحوي والمريزة في الشمال الشرقي ، ومساكن سوق المشاعلة الحديثة والمدرسة المتوسطة الحديثة في الشرق . ومعهد المعلمات الثانوي (١٣٩٨ - ١٣٩٩ هـ) في مزرعة أم الذهب في الجنوب .

وواضح مما سبق أن ثمة اطراداً في نمو الأحياء السكنية خلال الفترات المتتابعة ، كما أن التوزيع المكاني للأحياء المتزامنة يتخذ أشباه أقواس تحيط بالعمران الأقدم مع استثناء في الجهة الغربية التي توقف نمو إحيائها عند منتصف القرن الثاني عشر الهجري .

ومن خلال الربط بين الصورة التوزيعية العامة للعمران الحالي ، والعوامل المؤثرة على نمو العمران بحريلاء ، واستناداً إلى القريتين السابقتين يمكن تمييز أربع مراحل للنمو حسب طبيعة الامتداد العمراني وتوزيعه ومعدله وهي :

أ) مرحلة النشأة : (عمران مزارع مشمت)

ذكر البكري (متوفى سنة ٤٨٧ هـ) في كتابه معجم ما استعجم ، حرملاء (تصغيرها حريملاء) ، مما يدل على قدم وجودها ، ويستشهد البعض على ذلك أيضاً من ورود الاسم في بعض الأشعار الجاهلية ، ومن هنا يرى بعضهم أن حريملاء الحالية قد قامت على أطلال حريملاء المنذرة أو أنها قامت بالقرب من مكانها واستعارت اسمها لشهرته ^(١) .

وأول ما يرد عن تاريخ تعمير حريملاء الحالية تلك الرواية المتداولة حتى الآن ، والتي سجلها صالح الطعيسي في بحثه ^(٢) وهي تعزو بدء العمران الحالي إلى أحد رؤساء القبائل البدوية في الشام ويسمى يوسف أبو ريشة ، وهو نجدي الأصل ، قرر أن يعود إلى نجد مع رجاله بعد تزايد الاقتتال مع قبيلته وبحث عن مكان طيب الأرض ، صحي المناخ ، وفير المياه ، محمي بالجبال ، فلم يجده إلا في حريملاء ، ومكث سبع سنين يحفر الآبار ويشق القنوات ، ويشيد العمران كما بنى سوراً يحيط بالمنطقة التي عمرها لحمايتها من غارات البدو وتم كل هذا في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر ، ونتيجة لبعض الظروف السياسية بالشام عاد أبو ريشة ومعظم رجاله إليها في سنة ٨٩٣ هـ .

وحسب هذه الرواية التي يرجحها الكثيرون ويؤكد جوهرها وجود بقايا سور (حامي) أبو ريشة يمكن استنتاج خصائص العمران في مرحلة النشأة .

فقد بلغ محيط السور (أبو ريشة) ٣٠٧٥ متراً ، والمساحة التي يحتويها ٦٤٩٣٧٥ متراً مربعاً ، وهو بذلك ثاني أكبر الأسوار محيطاً ومساحة (أكبرها سور ابن قاسم) رغم أنه أقدمها ، وتتركز مساحته في القطاع الغربي من المعمار الزراعي حالياً ، وهو أعلى منسوباً عن الشرق . وإذا وضعنا في الاعتبار اتساع المساحة المسورة بالنسبة لعدد السكان المصاحبين لأبي ريشة ، فضلاً عن اعتماد الزراعة الممارسة على مياه الآبار ، يصح ترجيح أن العمران الأول كان عبارة عن عمران متفرق يقتصر بمجرى البئر ، مصدر مياه الشرب والري معا ، كما كان محدود الحجم ، عشوائياً التوزيع .

ويبدو أن ظروف عمران هذه المرحلة قد استمرت بعد رحيل أبي ريشة حتى منتصف القرن الحادي عشر ، إذ دخلت حرملاء في إمارة العطيان ، ثم في إمارة عيينة إلى أن قدم آل أبي رباح من الوشم واشتروا حرملاء من رئيس العيينة سنة ١٠٤٥ هـ وواصلوا عمرانها .^(٢)

ب) مرحلة العمران المتجمع :

وتبدأ مع منتصف القرن الحادي عشر الهجري ، وكانت حرملاء قد بلغت شأواً كبيراً من التقدم الاقتصادي والعمراني على يد آل أبي رباح ومع ذلك اجتمع عليها خطران ، الأول خارجي وتمثل في إغارات البدو والبلاد المجاورة على حرملاء طمعاً في نهب خيراتها وضمها ، والثاني داخلي وتمثل في الخلافات والانقسامات بين سكان حرملاء نتيجة لانتقال السلطة والامارة فيما بينهم . وقد ترتب على الخطر الأول تزايد الرغبة في التجمع السكاني والتخلي عن مساكن المزارع البعيدة ، ومن ثم ظهرت الأحياء السكنية المسورة داخل مساحة سور أبي ريشة ، كما ترتب على الخطر الثاني تعدد الأحياء السكنية المسورة والمتولدة عن بعضها ، فمع نشوب الشقاق يخرج المنشقون عن الحلي ويؤسسون حياً جديداً .

وقد شهدت هذه المرحلة بناء ثلاثة أسوار حول الأحياء السكنية داخل حامي أبي ريشة ، أقدمها سور الحسيان^(٣) (في النصف الثاني من القرن ١١ هـ) وبلغ طوله نحو ٤٣٧ متراً وأحاط بمساحة نحو ١٢١٨٨ متراً مربعاً ، وذلك في الركن الجنوبي الشرقي داخل حامي أبي ريشة ، وكان سور الحسان يحتضن عموم سكان حرملاء في فترة إنشائه^(٤) ، ثم انقسم السكان

إلى فئتين متناحرتين ، فانتقلت إحداها خارجه وسكنت في حي يتوسط نطاق حامي أبي ريشة ، وهو حي العقدة والبراحة ، وأنشأت حوله سوراً في أوائل القرن الثاني عشر الهجري عرف بسور العقدة ، الذي بلغ محيطه نحو ٤٦٢ متراً ، ومساحة حوزته نحو ١٢٣١٢ متراً مربعاً . ويبدو أن عملية توالد الأحياء السكنية الناجمة عن نمو السكان قد أسفرت عن ظهور أربعة أحياء في الشمالي الغربي ، والجنوب الغربي لحي العقدة ولكن بدون أسوار وهي الملقى وقراشة الذين ارتبطا بفترة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ففي الأول بنى داره سنة ١١٤٠ هـ ، وفي الثاني بنى مسجده ، والحيان الآخران هما غمیلان والحنييني .

وفي أوائل النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري اشتد الهجوم الخارجي على حريملاء ، فبنى رئيسها حمد المبارك سوراً أوسع يجمع السكان القاطنين داخل الأسوار السابقة وخارجها ويضم مساحة من المزارع تؤمن حاجة السكان من الغذاء في فترات أحكام الحصار على المدينة^(١) وسمي بسور البلد أو الجماعة ويبلغ محيطه ١٥٥٠ متراً ، ومساحة حوزته ١٥٥٦٨٨ متراً مربعاً ويتضح من الخريطة أنه يحيط بسور العقدة ويتوسط حوز حامي أبي ريشة .

وقد ارتبط ببناء سور الجماعة هدم سور وحي الحسيان وإجبار ساكنيه على الانتقال إلى داخل السور الأول ، فنشأ عن ذلك حيان جديدان هما الشهبواني في الجنوب وغصيبة في الشمال ، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري .

والملاحظ أن مرحلة العمران المتجمع والتي استغرقت أكثر قليلاً من قرن من الزمان قد شهدت قيام تسعة أحياء سكنية مجمعة - بما فيها حي الحسيان - تمثل نحو ٤٠٪ من جملة أحياء المدينة القديمة حالياً ، كما تبلغ مساحاتها نحو ٨٦٥٩٨ متراً مربعاً أي ٣٨٪ من مساحة الأحياء السكنية ، وتُبنى فيها نحو ٢٢٢ مبنى تمثل نحو ٤٨٪ من جملة المباني الأصلية قبل الإزالة والهدم (٤٦٥ مبنى تقريباً) ، ويعكس اختلاف نسب المساحة والسكان حالة التكسب والتلاصق البنائي الذي هو سمة الأحياء القديمة ومتطلبات الأمن فيها .

والملاحظ أيضاً أن النطاق المعمور في مرحلة العمران المتجمع تركز داخل سور أبي ريشة ، ولم يتجاوز النطاق المبني سور الجماعة في آخر مراحلها .

ج - مرحلة العمران المتجمع والمشت :

يمكن أن نحدد بدايتها مع أواخر القرن الثاني عشر ، وتستمر حتى أواخر القرن الرابع عشر . وتتميز بأن النمو العمراني فيها قد اتخذ اتجاهين : اتجاهاً محدوداً نحو العمران المشت في المزارع - مرة ثانية ، واتجاهاً مستمراً وقوياً نحو التجمع حول الكتلة القديمة .

فأما عن العودة إلى عمران المزارع فيلاحظ أنها اقترنت بحالة الاستقرار النسبي في حرملاء ، بعدما تحالفت مع الدرعية لنشر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأصبحت حرملاء توجه مقاتليها إلى الخارج أكثر مما تواجهه من غزوات ، بل أن الدرعية قد درأت عنها بعض المواجهات الحربية حتى بعد مجيء حملة إبراهيم باشا وسقوط الدرعية في سنة ١٢٣٣ هـ ، وأول ما ظهر من عمران المزارع في هذه المرحلة مساكن سوق المشاعلة خارج سور البلد من الجنوب الشرقي ، وذلك في أواخر القرن الثاني عشر الهجري ، ويبدو أنه قد تبعها ظهور بدايات التجمعات الصغرى لمساكن مزارع النخيل الحالية خاصة إلى الشرق وإلى الجنوب خارج سور أبو ريشة ، وترتب على ذلك اتساع المعمور وتأثر المساكن فيه ، وحينما داهمت حملة إبراهيم باشا نجد طلب أمير الدرعية الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد من واليه أمير حرملاء موسى بن قاسم بأن ينشئ سوراً لتحصين المدينة ، فبنى في الفترة من ١٢٢٨ - ١٢٣٢ ، ما عرف بسور ابن قاسم^(١) حول المنطقة المعمورة سواء بالزراعة أو السكن ، وبلغ طول السور ٦١٧٥ متراً ، ويحيط بمساحة نحو ٢,٨٦٧,٥٨٥ متراً مربعاً ، ويلاحظ من الخريطة اتجاه النمو الجديد صوب الشرق والجنوب أكثر من الغرب والشمال .

وقد تزايد نمو مساكن المزارع في هذه المرحلة حتى أن ٧٢٪ من جمعتها تتركز فيما بين سور أبي ريشة (حد المعمور في المرحلة السابقة) وسور ابن قاسم ، وفي الفترة الحديثة ، والتي تلاشى فيها أثر الأسوار ووظيفتها ، واصل امتداد العمران وسكن المزارع انتشاره فيما وراء سور ابن قاسم ، حيث يتوزع فيه حالياً ١٥,٥٪ من جملة مساكن المزارع بحرملاء .

وبالنسبة لنمو السكن المتجمع يلاحظ أنه شمل منطقتين مختلفتين في المكان والزمان الأولى داخل سور الجماعة نتيجة لعملية النمو العمراني الطبيعي ، حيث عُمِّر حيان هما موافق في أواخر القرن الثالث عشر ، والوسيطي في أوائل القرن الرابع عشر ، وقد أضافا نحو ١٥٪ من مساحة الأحياء السكنية ، ونحو ١٦٪ من مساكنها . أما النطاق الثاني فيقع خارج سور الجماعة إلى

الشرق والشمال الشرقي والجنوب ، وقد بدأ تعميره منذ أواخر القرن الرابع عشر ، فالجدير بالذكر أن النمو العمراني ظل محصوراً داخل سور الجماعة حتى سنة ١٣٨٨^(١) ثم انطلق بعدها بسرعة إلى خارجه ، فنشأت سبعة أحياء سكنية (الحلة - الصبيخة - الطويلة - الزيداني - الشريعة - أم الخواوي) واقتطع حي التويمية السكني من مزرعته ، وظهرت كتل سكنية مجاورة للمدينة في حي الخوى والمريزة ، كما انشئ مبنى الأمانة على مساحة حي القعيد ، ولم يضاف إلى العمران داخل سور الجماعة إلا مدرسة المعلمات الثانوية بنات بحي أم الذهب .

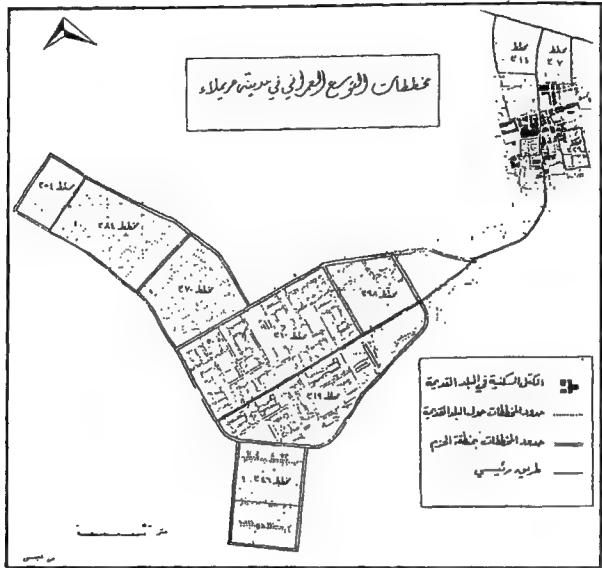
المهم أنه فيما بعد سنة ١٣٨٨ أسفر النمو عن تسعة أحياء جديدة تمثل مساحتها نحو ٤٥٪ من مساحة الكتلة القديمة ، وتضم نحو ٢٥٪ من مساكنها الأصلية (٣٠٪ من المساكن القائمة) هذا بالإضافة إلى أعداد المباني الحديثة بالمزارع المجاورة للكتلة القديمة ، والظاهرة الملفتة للنظر أن هذا النمو الضخم وقع في أقل من عشرين سنة ، وهو يعزى بالتأكيد إلى عوامل التنمية والتحول الاقتصادي الذي تشهده المملكة منذ أواخر القرن الماضي .

والخلاصة أن مرحلة العمران المتجمع والمشتت - رغم طولها النسبي (نحو قرنين) ، إلا أنها تعد مرحلة النمو الرئيسي في البلاد القديمة ، سواء على مستوى العمران المشتت ، (٨٥٪ منه) أو العمران المتجمع خاصة في الفترة الأخيرة .

د - مرحلة العمران المخطط :

وهي تتداخل زمنياً مع نهاية المرحلة السابقة ، لكنها تختلف عنها في مكان التوسع ، وأهم ما يميز هذه المرحلة أن التوسع أصبح يتبع مخططات أعدتها البلدية ، وفي مناطق جديدة ، بينما انكمش التوسع في الكتلة القديمة واقتصر البناء في الغالب على عمليات الإحلال والتجديد . وربما ترتبط بداية العمران المخطط بحرملاء باقتراح بلديتها سنة ١٣٨٥ - ١٣٨٦ ، والتي بدأت في تنفيذ مشروعات تحسين الأوضاع العمرانية من شق شوارع ، وتوزيع مرافق ، ولكن الذي يعبر عن أثرها العمراني هو إعداد المخططات العمرانية والإشراف على تنفيذها . ويمكن تقسيم المخططات عموماً إلى نوعين :

١ - مخططات لتعديل مناطق قديمة ، وأهمها مخطط رقم ٣٨٢ الذي أقر في أول شعبان سنة ١٤٠٠ لتعديل المنطقة المحيطة بالمسجد الجامع بالمدينة القديمة .



المصدر : مخططات بلدية حرملاء شكل رقم (٦)

٢ - مخططات للتوسع العمراني ، وهي تتوزع على جزئين : (أنظر الخريطة ٦)

- مخططات حول المدينة القديمة .

- مخططات منطقة الحزم ، والجدول التالي^(١) يبين أهم معالمها :

وما يذكر أن مخططات التوسع شمال وشرق المدينة القديمة لم ينفذ منها شيء ، ويبدو أن تنفيذها قد أوقف حفاظاً على الأراضي المزروعة أو القابلة للزراعة التي خططت عليها ، بينما تركز تنفيذ المخططات على منطقة الحزم التي خططت كجناح جديد للمدينة يمكن أن يستوعب

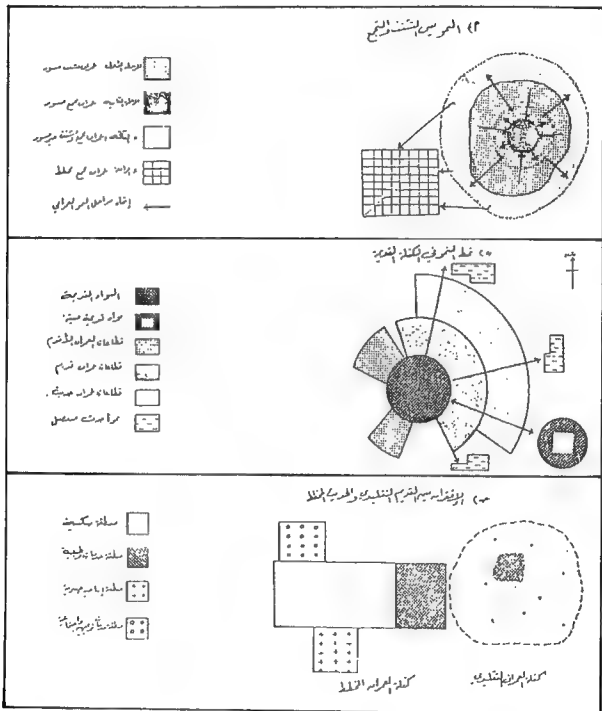
المو السكاني والسكاني في المستقبل ، كما يوفر درجة أكبر من الخدمات العامة والحكومية لمدينة حريملاء جميعاً فضلاً عن القرى التابعة لها .

جدول (رقم ٢) مخططات التوسع العمراني في حريملاء

رقم المخطط	استخدامه العمراني ومكانه	تاريخ إعداده	مساحته متر ^٢	عدد القطع السكنية المقترحة	عدد المباني غير السكنية
٣٠٧	أ) حول المدينة القديمة تنظيم الأراضي شرق الشارع العام	١٣٩٧/٤	٨٤,٠٠٠	-	-
٣١٤	تقسيم الأراضي غرب الشارع العام	١٣٩٧/٤	٩٥,٠٠٠	-	-
٣٢٩	تخطيط الأراضي المملوكة شرق الشارع	١٣٩٧/١٢	٤٠,٠٠٠	-	-
٣١٠	ب) منطقة الحزم : سكن ذوي الدخل المحدود	١٣٩٧/٥	٧٨٠,٠٠٠	٧٤٤	١٤
٣١٩	منطقة خدمية وسكن دخل محدود	١٣٩٧/٧	٦٦٠,٠٠٠	٤٥٢	١٠
٣٤٦	للمنطقة الصناعية	١٤٠٠/١	٣٨٥,٠٠٠	-	-
٣٥٤	الأستاد الرياضي	١٤٠٠/١	١٥٠,٠٠٠	-	-
٣٧٠	أراضي حكومية يضاء للسكن	١٤٠٠/٤	٣٩٠,٠٠٠	٤٤٦	٨
٣٨٤	د د د	١٤٠٠/٨	٣٩٦,٩٠٠	٣٦٠	١٢
٣٩٨	منطقة الدوائر الحكومية والخدمات	١٤٠٢/٥	٢٤٢,٥٠٠	-	-

وتقوم مخططات الحزم على مساحة تزيد عن ٣ كم^٢ ، وأول ما بدى عمرانته كانت المخططات السكنية (٣١٩ - ٣١٠) ثم أنشئت بعض المباني الخدمية على المخطط ٣٩٨ وتمثل

في المعهد العلمي ومبنى البلدية الجديد ، والملاحظ أن العمران يتجه من الشرق إلى الغرب أي من جهة المدينة القديمة - أصل العمران .



شکل رقم (۷)

نماذج النمو العمراني لمدينة حرملاء

وقد أسفر النمو العمراني في منطقة الحزم منذ بدئه (١٣٩٩ هـ) حتى وقت إعداد هذا البحث (رجب وشعبان سنة ١٤٠٣ هـ) عن مساحة نحو ٤٤٤,٩١٧ متراً مربعاً من العمران المبني ، تمثل نحو ١٥٪ من مساحة المخططات بالمنطقة ، ونحو ضعف مساحة الكتلة السكنية المجمعة في المدينة القديمة ، كما أسفر النمو عن ٣٢٦ مبنى حديث تمثل نحو ١٦٪ من عدد المباني المتوقعة ، ونحو ٨٩٪ من مباني الكتلة المجمعة في المدينة القديمة . ويرجع الفرق في نسب النمو المساحي والسكني في الحزم إلى أثر التخطيط في ترك مساحات فضاء ترويحية بين المباني فضلاً عن شبكة الشوارع الواسعة (يتراوح عرضها بين ١٠ - ٢٠ متر) كما أن نمط المسكن الغالب هو الفيلا المسورة والتي تشغل قطعة مربعة مساحتها ٤٠٠ متراً مربعاً في المتوسط .

رابعاً : النموذج العام لنمو العمران في حريملاء

تهدف محاولة استخلاص نموذج عام للنمو والوصول إلى تصور مبسط للكيفية التي مر بها تطور العمران في حريملاء استجابة لظروفها الجغرافية الخاصة ، ويسر هذا فيما بعد للدراسات المقارنة ، بهدف تعميم النماذج التطورية للعمران .

ومن خلال العرض السابق يمكن أن نلاحظ ثلاثة أبعاد لنموذج حريملاء التطوري .

أ) النمو بين التشتت والتجمع : (أنظر شكل ٧ - أ)

ويحاول النموذج تبسيط مراحل النمو العمراني لوحدة صحراوية قديمة شهدت تحولاً ملحوظاً في مرحلتها الراهنة ، كان من معالمة استتباب أحوال الأمن ، وتوافر مقومات التنمية الشاملة والتوسع في تنفيذ مشروعاتها . وعلى ذلك يمكن أن يمر النمو العمراني في أربع مراحل متعاقبة قد تختلف فتراتنا حسب كل حالة ، وهي :

١ - مرحلة العمران المشتت المسور ، وهو قرينة نشأة العمران في الواحات الزراعية المعتمدة على مياه الآبار للشرب والزراعة ، وعادة ما تستخدم البئر مزرعة ، ويقوم حولها سكن الزرعة ، والسور هنا يحيط بالمعمور المزروع للحماية من الخطر الخارجي .

٢ - مرحلة العمران المجمع المسور ، وتبدأ مع نمو السكان ، وازدهار الحياة الاقتصادية ، وظهور الضرورة للتنظيم والوحدة بين الجماعات القبلية لمواجهة الأخطار الخارجية ، وهنا ينتقل المستوطنون من سكن المزارع لإقامة أحياء سكنية مجمعة تعكس الأصل القبلي ،

وقد يكون بعضها مسوراً ، وقد يضرب سوراً آخر على الكتلة المبنية إمعاناً في الدفاع من وراء سورين .

٣ - مرحلة العمران المجمع والمشتت غير المسور ، فبعد أن يحقق التجمع السابق وظيفته في الحفاظ على كيان المجتمع ، ويستشعر المستوطنون أهميته لتوفير الخدمات المركزية ، يظهر النمو العمراني المتزايد حول الكتلة المجمعة ويتجاوز العمران السور القديم . ومع التقدم الاقتصادي والاستقرار الأمني والسياسي للمنطقة وما يحيط بها تتلاشى أهمية الأسوار ، وينطلق العمران خارجها إلى أقصى ما تستطيعه إمكانات السكان المحليين ، على هيئة عمران مشتت .

٤ - مرحلة العمران المخطط : وترتبط بالاستقرار السياسي والاقتصادي للدولة مركزياً وإقليمياً والتفات الحكومات إلى مشاكل العمران الراهن ومواجهتها بمشروعات التنمية المخططة لدى بعيد ، كما يرتبط نجاح ذلك بتوافر الركيزة الاقتصادية القوية لتمويل التخطيط والتنمية . وفي هذه المرحلة قد يتناول التخطيط تعديلاً وتحسيناً في العمران القائم ، وقد ينصب على إنشاء أحياء ومدن سكنية جديدة كاملة المرافق ، منفصلة أو متصلة بالعمران القديم ، وقد يتناول لتخطيط العمليتين معاً ، وفي الحالتين تشهد المرحلة انتقال أعداد من المستوطنين لتعمر الأحياء المخططة .

ب) النمو في الكتلة القديمة للمدينة : (شكل ٧ - ب)

من الملاحظ في تطور المدن أنها تنمو ككرة الثلج ، بمعنى أن يكون لها نواة يتوالى النمو والتراكم العمراني حولها ، ولكن على عكس كرة الثلج قد يتخذ التراكم حول المدينة أشكالاً متعددة حسب الظروف الجغرافية الشاملة المؤثرة على العمران ، وحسب عدد المستويات التي نما حولها عمران المدينة فقد تكون المدينة وحيدة النواة أو يكون لها نواتان أو أكثر ، وبعض أشكال النمو العمراني منتظمة مثل النمو الحلقي أو النمو القوسي أو النمو القطاعي ، وبعضها غير منتظمة أو عشوائية .

وفي حالة حرملاء يلاحظ أن الكتلة القديمة بدأت بنواتين ، أولاهما متطرفة (الحسيان) ، والثانية متوسطة (العقدة) . وقد تلاشت الأولى ولم تجذب حولها عمراناً ، بل حل مكانها عمران حديث في إطار النواة المتوسطة والتي نما حولها العمران طوال فترات التطور . ويبدو

النمو العمراني حول العقدة كما لو كان حلقياً أو شبه حلقياً ، فالعمران الأحداث يحيط بالنواة من كل الجهات باستثناء ثغرة صغيرة في الغرب ، هذا مع إغفال مراحل النمو ، ولكن مع أخذها في الاعتبار يظهر النمو في نمط قوسي أو قطاعي ، فالقوس المحيط بالنواة من الغرب هو أقدمها ، يليه القوس الشرقي ثم تتوالى الأقواس أو القطاعات الأحداث جهة الشرق والشمال والجنوب ، ومع أن الغرب أعلى منسوباً من الجهات الأخرى وأصلح للنمو من حيث الموضع إلا أنه أبعد عن امتدادات المجال الزراعي للمدينة ، بعكس الجهات الأخرى التي أصبحت أصلح للنمو من حيث الموقع .

جـ (الاقتران بين العمران القديم والعمران المخطط : (شكل ٧ - ج)

تمثل حرملاء نموذجاً للاقتران التكاملي ، وليس الانفصالي ، بين نطاق أصلي للعمران القديم ، ونطاق مخطط للعمران الجديد ، وبرغم المسافة الفاصلة بين الكتلتين القديمة والجديدة (١,٥ كم) إلا أن العمران المخطط لم يتخذ نمط المدينة المستقلة التي يتوسط قلبها التجاري والخدمي الكتلة المبنية ، وإنما اتخذ نمط الجناح الغربي الجديد لمدينة متكاملة ولذلك خصصت أطرافه الشرقية لتركيز الدوائر الحكومية والخدمات المركزية وهي القائمة حالياً في المدينة القديمة وذلك لكي تصبح أقرب ما تكون إلى الوضع المركزي بين الجناح السكني القديم في الشرق والجناح السكني الجديد في الغرب ، أما مساحات المرافق والأنشطة الجديدة (الأستاذ الرياضي ، المنطقة الصناعية) فقد خططت على أطراف الجناح الغربي الجديد ■

• الموامش •

- (٥) من أمثلة ذلك دراسة عمر الفاروق رجب عن مدن الحجاز ، ودراسة محمد الحماد عن بعض المدن الكبيرة في سنة ١٤٠٣ هـ .
- (١) حسب الباحث المساحات التالية بعد توقيع أحداث التطورات على الخرائط الطبوغرافية حتى منتصف سنة ١٤٠٣ هـ .
- (٢) صالح بن ناصر الطبعسي ، جغرافية منطقة الشعيب ، مدينة حرملاء ، الجزء الأول ١٣٩٩ ص ٦٨ - ٧٠ .
- (٥) تبلغ مساحة هذه الأحياء ٢٣٨٥٦٣ متر^٢ ، ويضم بعضها مثل الخنيني وأم الذهب مساحات للمزارع .
- (٥) الجدول من تجميع الباحث من خلال الخرائط التفصيلية ، والدراسة الميدانية وتحديد الأحياء وقياس مساحتها .

- (٥) متوسط التباعد = ١,٠٧٤٦ $\frac{\text{المساحة}}{\text{عدد المساكن}}$
- (٣) انظر الطميسي ص ١٣٣-١٤٥ .
- (٤) تم الحصر من واقع خريطة حرملاء مقياس ٢٥٠٠:١ المعدة عن الصور الجوية سنة ١٩٧٦ م .
- (٥) المملكة العربية السعودية وزارة الشؤون البلدية والقروية ، تقرير لتقييم توزيع المياه في حرملاء . إعداد دار الرياض وبلغور . رمضان ١٤٠١ هـ - يوليو ١٩٨١ م . ص ٣-٤ .
- (٦) انظر الطميسي ص ١١٦-١٢٢ .
- (٧) عبد الله بن محمد بن خميس ، المعجم الجغرافي للمملكة العربية السعودية ، معجم الحمامة ، الجزء - طبعة أولى سنة ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م) ص ٣١٨ .
- (٨) عثمان بن بشر النجدي ، عنوان المسجد في تاريخ نجد ، الجزء الأول ، طبعة الرياض ، ص ٨٤ ، ص ٨٨ .
- (٩) عبد الله بن خميس ، المرجع السابق ص ٣١٨ .
- (١٠) ابن بشر ، المرجع السابق ص ٨-٩ .
- (١١) نفس المرجع ص ١٩٣ .
- (١٢) عبد الكريم غزال ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠-١٤٠١ هـ ، ص ٢٦٦-٢٦٦ .
- (١٣) تم متابعة الأسوار من خلال ما كتبه الطميسي ص ١٨٥-٢٠٧ ، وأمكن تتبع بقاياها على الطبيعة مع بعض أهالي القرية ووقعت على الحرائط الدقيقة وحسب الباحث أطوالها والمساحات التي تحتويها .
- (١٤) انظر عبد الله بن خميس ، المرجع السابق ص ٣١٧ .
- (١٥) الطميسي ، ص ١٤-٢١ .
- (١٦) عبد الله بن خميس ص ٣١٧ .
- (٥) الحسيان في اللغة جمع حسي ، وهي مناطق تجمع الماء ، وربما ارتبط موقع حي وسور الحسيان بذلك ، انظر المعجم الجغرافي لابن خميس ص ٣٢٣ .
- (١٧) انظر الطميسي ص ١٩٢ .
- (١٨) انظر الطميسي ، ص ١٦٥ .
- (١٩) وصل الباحث إلى هذا الرقم من خلال تتبع عدد المساكن المزالة للمخططات والتوسع في الشوارع ، وافترض أن مباني حي الحسيان نحو ٤٠ مبنى ، وهو يقترب من مباني حي العقدة .
- (٢٠) الطميسي ، ص ٤٠ .
- (٢١) الطميسي ص ٢٠٠ ، والتأكد من خلال حالة المباني ورواية السكان .
- (٢٢) استخلص الباحث أرقام هذا الجول من واقع المخططات ومن المسؤولين في بلدية حرملاء .



إدارة الرسول صلى الله عليه وسلم

للصراع في شبه الجزيرة العربية

ونتائجه الاستراتيجية

• لواء أ. ح. محمد جمال الدين محفوظ

عبرة التاريخ :

• لقد أصبح من الحقائق التاريخية التي لا تنازع أن الأمم التي تتعاضد عن بناء قوتها ، والاستعداد لدفع العدوان عنها ، تقع فريسة لأمة أقوى منها ، وتستباح حرمانها ، وتغتصب حقوقها ، وتسلب مواردها ، ولا يكون لها وزن ولا قيمة في المحيط الدولي .

• وليس من شك في أن التحديات الجسام التي تواجهها أمتنا الإسلامية تشكل أخطر تهديد يمكن أن تواجهه أمة ، وتضعها أمام موقف تاريخي حاسم ينبغي أن تتخذ منه منطلقاً لإبراز كل ما لديها من الملكات الإنسانية والذخائر المادية والحضارية ، وهي واعية كل الوعي لكل ما يهدد أمنها وسلامتها من أخطار ، وحريصة كل الحرص على بناء قوتها وقدرتها على هزيمة الخطر الذي يهددها حتى تخطو إلى عزتها وتشق طريقها إلى نهضة حضارية ، تميدها إلى سابق عهدها ، أمة قوية مرهوبة الجانب ورائدة للحضارة الإنسانية ، وتبوئها مكانتها اللاتقة بها بين الأمم .

• من أجل ذلك ينبغي أن تفتح الأمة الإسلامية صفحات تاريخها الحافلة بالدروس النافعة ونخص بالذكر تاريخ عصر النبوة لكي تتأمل في منجز الرسول ﷺ في إدارته للصراع مع أعدائه والنتائج الاستراتيجية التي حققها ثم تستخلص منها الدروس والعبر ، فالله تعالى يقول :

﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبَّيْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود ١٢٠) .

● وسوف نحاول في هذا البحث عرض عناصر المنهج الذي اتبعه الرسول ﷺ في إدارته للصراع مع أعدائه .

أولاً : دراسة أحوال العدو

● إن معرفة العدو ودراسة أحواله ضرورة حيوية لأمن المسلمين والدفاع عنهم ، وهو ما يتضح من « الربط الوثيق » بين الأمر بإعداد القوة والمرابطة وبين التعريف بالأعداء في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (الأنفال ٦٠) . ففي هذه الآية تعريف للمسلمين بأعدائهم الظاهرين وأعدائهم الخفيين الذين عليهم أن يعدلوا لهم من القوة والمرابطة ما يوقع الرهبة في قلوبهم ، وأول مقتضيات هذا الإعداد ؛ دراسة الأعداء واستطلاع أحوالهم ، لأن على أساس هذه الدراسة يتم بناء القوة الكفيلة بتحقيق الهدف الذي حدده الإسلام ...

من أجل ذلك كانت للرسول ﷺ عيون وأرصاد داخل شبه الجزيرة وخارجها يحصلون على المعلومات عن نوايا الأعداء وحركاتهم ويحققون له الإنذار المبكر بتدابيرهم وتجهيزهم للعدوان على المسلمين .

(١) ففي المدينة : كانت له عيون وأرصاد يطلعون على كل صغيرة وكبيرة تضر بالمصلحة العامة للمسلمين في السلم والحرب على حد سواء ، فاختر مثلاً حذيفة بن اليمان العبسي لياثيه بأخبار المنافقين ونواياهم .

(٢) وفي مكة : كان عمه العباس وبشير بن سفيان العتكي ، وكانت أيضاً قبيلة خزاعة ، قال الزُّهري : « وكانت خزاعة عَبيَّة نُصِّحَ رسول الله ﷺ (أي خاصته وأصحاب سره) مسلمها ومشركها ، لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة » .^(١)

(٣) وفي القبائل العربية الأخرى : كانت له عيون ، ومنها مثلاً عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي في قبيلة هوازن يوم حنين .

(٤) أما خارج شبه الجزيرة فكانت له عيون وأرصاد في بلاد فارس والروم .

● وعني الرسول ﷺ بأن يتعلم المسلمون لغة العدو ، ومن ذلك أنه أمر زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود ، يقول زيد : « أمرني رسول الله ﷺ فتعلمت له كتاب اليهود بالسريانية وقال : إني والله ما آمن يهود على كتابي ، ثم يقول زيد : فوالله ما مرُّ بي نصف شهر حتى تعلمته وجُدْتُ فيه فكنت أكتب له إليهم ، وأقرأ له كتبهم إليه » (رواه البخاري) وصدق من قال : « من تعلم لغة قوم أمن شرهم » .

● وفي الوقت الذي كان فيه الرسول ﷺ معنياً بالحصول على كافة المعلومات عن الأعداء ، فقد كان حريصاً على حرمان أولئك الأعداء من الحصول على معلومات عن المسلمين ونواياهم وحركاتهم .

● ومن أمثلة نشاط رجال الاستخبارات أن الرسول ﷺ كان على علم بخروج قريش لقتاله في أحد وفي الخندق عن طريق عمه العباس ، ولعل أبلغ دليل على أن الإنذار كان يأتيه مبكراً جداً هو أن المسلمين تمكنوا من حفر الخندق وهو عمل يستغرق حوالي عشرين يوماً « قبل » أن تصل قريش التي « فوجئت » به فقال قائلهم : « والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها » وهذه الواقعة لا تدل على كفاءة أرصاد النبي ﷺ فحسب ، بل تدل - في الوقت نفسه - على عجز قريش عن الحصول على المعلومات عن نظام الدفاع عن المدينة بحفر الخندق بدليل مفاجئها به ، كما تدل على نجاح المسلمين في كتمان أسرارهم وأسرار خططهم وحرمان العدو من كشفها .

● ثم إن هذه العيون والأرصاد بنجاحها في تحقيق الإنذار المبكر مكنت المسلمين من « إجهاض تدابير أعدائهم لمهاجمة المدينة » كما سيأتي بيانه .

ثانياً : إقامة جبهة داخلية صلبة

● كان أول ما عمد إليه الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة إقامة جبهة داخلية صلبة :

(١) فعمد إلى ربط المهاجرين - الذين هاجروا من مكة إلى المدينة - بالأنصار أهل المدينة الأصليين ، فأخى بينهما بصلة الأخوة ليصبحا فئة واحدة مترابطة وملتزمة وليكون الجميع متعاونين على أسباب العيش ، وبدلاً واحدة تعمل لهدف واحد .

(٢) وعمد إلى توحيد صف الأنصار أنفسهم حيث إنهم كانوا أوساً وخزرجاً ، وكانت بين الفئتين خلافات مستمرة وعداوات سابقة ، فأراد الرسول ﷺ - وقد جمع بينهم الإسلام - أن يشكّلوا قوة واحدة متضامنة ، وأن يقضي على كل شبهة قد تثير العداوة القديمة بينهم .

(٣) وعقد معاهدة بين المسلمين من جهة ، وبين اليهود والمشرّكين من أهل المدينة من جهة أخرى كانت نتائجها من الناحية العسكرية قيادة الرسول ﷺ لكافة سكان المدينة مسلمين ومشرّكين ويهود ، وتعاون أهلها جميعاً في رد كل اعتداء يقع عليها من الخارج وأنه في حالة الحرب لرد العدوان عن المدينة : تتولى كل طائفة الإنفاق على نفسها .

● بهذا العمل السياسي والاستراتيجي البارِع ، حقق الرسول ﷺ وحدة المدينة وتماسك الجبهة الداخلية ، وجعل أهلها جميعاً على اختلاف دينهم يدأ واحدة على أعدائهم كما وضع لمجتمع المدينة نظامه الاجتماعي والاقتصادي والعسكري ، وقد حرص عليه الصلاة والسلام على التصدي لمحاولات تفتيت هذه الجبهة الداخلية من جانب اليهود والمنافقين مثل أساليب التشكيك والتخذيل وإشاعة البلبلة ، وأساليب التفرقة والقضاء على وحدة الأمة كمحاولة اليهود الواقعة بين الأوس والخزرج .

● وأصبحت المدينة « قاعدة الإسلام الوطيدة » - كما يقول رجال الاستراتيجية - التي تنطلق منها القوات للدفاع عن الإسلام ، وقد سجل التاريخ صلابة هذه القاعدة وقدرتها الفائقة على الصمود في مواجهة مختلف الأخطار والتحديات :

(١) فقد بلغ عدد العمليات العسكرية في عهد النبي ﷺ قرابة السبعين ما بين غزوات وسرايا في خلال سبع سنوات فقط .

(٢) وحاربت القاعدة أكثر من عدو في أكثر من جبهة ، فواجهت المشرّكين واليهود والروم ، وتعرضت للغزو المباشر ، وتعرضت للغزو من داخلها بينما كان أبناءؤها يحاربون العدو خارجها ، وكان التفوق في العدد والعدة في جانب الأعداء .

(٣) لكنها - مع كل ذلك - بقيت قاعدة وطيّدة صلبة - حتى تمت كلمة ربك في شبه الجزيرة ، وأبى الرسول ﷺ كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفوداً عليه يقدمون الطاعة ويعلمون الإسلام .

ثالثاً : تطبيق استراتيجية الردع

● تتمثل استراتيجية الردع الإسلامية في قول الله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ (الأنفال ٦٠) وقول الرسول ﷺ : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » (رواه البخاري عن جابر) .

● فالهدف من إعداد القوة والمرباطة هو إيقاع الرهبة في قلوب الأعداء وإخافتهم من عاقبة عدوانهم ، ويفهم من الحديث « نصرت بالرعب .. » أن الأعداء كانوا يرهبونه عليه الصلاة والسلام ويخافونه مع بعدهم عنه بحيث لو أراد حربهم لقطع المسافة التي هي بينه وبينهم في شهر بسير الابل ، كما يفهم أيضاً أن إظهار القوة للأعداء وإخافتهم يحقق النصر عليهم .

● وتدل إحصائيات معارك عصر النبوة على تطبيق نظرية الردع عملياً ، فالرسول ﷺ قاد بنفسه ثمان وعشرين غزوة ، حققت تسع عشرة غزوة منها أهدافها بغير قتال حيث أثر الأعداء ألا يواجهوا قوة المسلمين في أغلبها ، ولم ينشب القتال إلا في تسع غزوات فقط هي (بدر وأحد والخندق وبني قريظة وبني المصطلق وخيبر وفتح مكة ، وحنين والطائف) ويلاحظ أننا ذكرنا غزوة الفتح رغم أن القتال الذي وقع فيها لا يكاد يذكر .

صور الردع الإسلامي :

● ويستخلص من سنة الرسول ﷺ في إدارته للصراع مع أعدائه أن هناك أربع صور للردع هي كما يلي :

الصورة الأولى : الردع بإظهار القوة

- وقد تمثلت هذه الصورة في عدة غزوات وسرايا مثل (سرية حمزة في رمضان سنة ١ هـ - سرية عبيدة بن الحارث في شوال سنة ١ هـ - سرية سعد بن أبي وقاص في ذي القعدة سنة ١ هـ - غزوة ودان في صفر سنة ٢ هـ - غزوة بواط في ربيع الأول سنة ٢ هـ - غزوة ذي العشيرة في جمادى الأولى سنة ٢ هـ - غزوة بدر الأولى في جمادى الآخرة سنة ٢ هـ) .
- هذه العمليات بدأت بعد ثمانية أشهر فقط من مقام الرسول ﷺ والمهاجرين بالمدينة ،

ويلاحظ أنها وقعت بتركيز شديد في معدلها الزمني (سبع عمليات في عشرة أشهر) ، وأن الرسول ﷺ حرص على أن يتولى بنفسه قيادة أكبر عدد منها ، وأن معظمها كان بعيد المدى (من ١٥٠ إلى ٢٠٠ كيلومتر تقريباً) على طريق التجارة إلى الشام على ساحل البحر ، وأنه لم يقع فيها قتال بالمعنى المفهوم .

- وقد حققت هذه العمليات عدة أهداف من بينها إيقاع الرهبة في قلب قريش بإشعارها بأن المسلمين « قادرون » على الإيقاع بتجارها وإيصاد طريقها في وجهها وقد عبر عن ذلك قول صفوان بن أمية : « إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا .. فما ندري أين نسلك ؟ » .
- ثم يضاف إلى هذه العمليات غزوة فتح مكة وهي أكبر عملية طبقت فيها نظرية الردع عن طريق إظهار القوة إلى الحد الذي جرد قريشاً كما جرد زعيمها أبا سفيان من إرادة القتال فدعاها إلى الاستسلام بقوله : « يا معشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به .. » .

الصورة الثانية : الردع بإجهاض تدابير العدوان

- وقد تمثلت هذه الصورة في سبع غزوات هي (بني سليم - ذي أتر - بحران - ذات الرقاع - ثومة الجندل - بني المصطلق - بني الحيان) (انظر الجدول) .
- ويكشف التحليل العام لهذه الغزوات عما يلي :

 - (١) كان سببها أن الرسول ﷺ بلغه أن تلك القبائل تتجمع بهدف العدوان على المدينة .
 - (٢) خرج الرسول ﷺ - على الفور - إلى مواضع القبائل لمهاجمتهم في عقر دارهم .
 - (٣) كانت القبائل عند شعورها بحركة المسلمين ، تفر تاركة أموالها وديارها .
 - (٤) كان المسلمون لا يعودون مباشرة إلى المدينة ، بل كانوا يبقون في ديار تلك القبائل الهاربة مدداً تراوحت بين بضعة أيام إلى شهرين لتحقيق الردع .
 - (٥) كانت النتيجة النهائية « إجهاض تدابير العدوان » وردع المُدْبِرِينَ لها حتى لا يعودوا إلى التفكير في العدوان مرة أخرى .

- وهذه الصورة تؤكد أن الإسلام لا يقف مكتوف الأيدي أمام تدابير العدوان ، بل يتحرك فوراً للقضاء عليها في مهدها ، وبذلك يحرم العدو من مزية المفاجأة ، ومن المبادأة أو حرية

العمل ، لأننا « نسبته » في التصرف والحركة إليه ، ولا ننتظر حتى يتصرف هو ويتحرك إلينا ، وبذلك تصبح كل أعماله بمثابة « رد فعل » لما تقوم به .

● ثم إن حرص الرسول ﷺ على « أن يتولى بنفسه » قيادة هذه العمليات كلها يؤكد ما لها من شأن كبير وخطير في تقدير الإسلام وأن المبادرة بالقضاء على العدوان في مهده ، ضرورة حيوية لأمن المسلمين والدفاع عنهم .

● ويكشف نجاح عمليات إجهاض تدابير العدوان عن عدة مقومات كان المسلمون يملكونها وأهمها ما يلي :

(١) الإنذار المبكر بنوايا الأعداء مما يدل على يقظة وكفاءة العيون والأرصاد كما ذكرنا .

(٢) امتلاك « القدرات الهجومية » ، فالمسلمون في هذه العمليات « خرجوا » من قاعدتهم بالمدينة ، « وساروا » إلى مواضع أعدائهم « لتوجيه ضربتهم » إليهم ، ولولا ذلك لما استطاعوا إجهاض تدابيرهم للعدوان ، وهنا لا بد أن نصصح ما في بعض الأذهان من فهم معني « الهجوم » على أنه مرادف للعدوان أو ينطوي على نواياه ، فالهجوم « علمياً » هو حركة نحو العدو لتوجيه الضربة إليه ، وظروف المارك قد تدعو إلى القيام بالهجوم حتى في إطار العمليات الدفاعية . ثم إن « إيقاع الرهبة » في قلوب الأعداء الذي هو الهدف من إعداد القوة في الإسلام لا يتحقق إلا إذا أدركوا أن لدينا القدرة على التحرك إليهم وضربهم لرد عدوانهم أو القضاء على تدابيرهم في مهدها ، والمدهش أن ما قرره الإسلام منذ أربعة عشر قرناً يقترب منه ما أجمع عليه رجال الاستراتيجية الحربية في عصرنا حين يقولون : « إن العقيدة العسكرية ذات الطابع الدفاعي البحث لن تكون لها إلا قيمة ضعيفة في الردع ، إلا إذا توفرت لديها القدرة الهجومية ، لأن مفتاح الردع هو القدرة على التهديد »^(١)

وتظهر القدرة الهجومية وآثارها في قول الله تعالى : ﴿ والعاديات ضبحا ﴾ فالمرورات قدحا * فالغفريات ضبحا * فأثرن به تقعا * فوسطن به جمعا ﴾ (العاديات ١ - ٥) ففي هذه الآيات يقسم الله تعالى بخيل الجهاد المسرعات التي يسمع لأنفاسها صوت هو « الضبح » من شدة الجري ، وتطايير الشرر من تحت حوافرها من شدة قدحها للأرض الحجرية والتي يهجم بها فرسانها على العدو في وقت الصباح ليأخذوه على غرة ، والتي يكون من شدة جريها أنها تثير غبار الطرق في وقت الصباح فتدخل وسط جمع الأعداء فتشتته .

الصورة الثالثة : الردع بالقتال :

● إذا لم يتخل العدو عن التفكير في العدوان ، وركب رأسه واعتدى ، فإن المسلمين يقاتلون « مدفوعين بفكرة الإرهاب » أيضاً ، وذلك بأن تكون ضربتهم التي يوجهونها إليه على النحو الذي يردعه ويرهبه ويمنعه من التفكير في العدوان مرة أخرى . وذلك بعض ما يفهم من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة ١٢٣) وقوله سبحانه : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُوا عَنْكُمْ وَيَقْبُوا إِلَيْكُمْ فَاصْلُوا إِلَهُكُمْ وَأَقْتُلُوا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْصَرُوا بِرُءُوسِهِمْ لَكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ فِي الْحَرْبِ وَالْفِتْنَةِ وَأُولَئِكَ مُبْتَغِى الْوَعْدِ الْحَقِّ لِمَنِ الْكَلِمَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُولَئِكَ الْمَتْلُوكُونَ لِلَّذِينَ هَارَبُوا مِنْكُمْ فِي الْحَرْبِ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدِيرٌ ذَكَاةُ الْعَالَمِينَ ﴾ (النساء ٩١) .

● ففي غزوة بدر مثلاً استطاع الرسول ﷺ إحداث خلل كبير في « التوازن النفسي » لقريش ، فقد حرص « منذ اللحظة الأولى » على اختيار أفضل المبارزين من أصحابه لمواجهة مبارزي قریش فصرعهم جميعاً^(٣) ، ونظم جيشه ووجهه للقتال مادياً ومعنوياً حتى كتب الله له النصر بأقل الخسائر على عدوه المتفوق الذي فقد من رجاله سبعين قتيلاً ، وسبعين أسيراً ، قال ابن اسحق : « ناحت قریش على قتلاهم ثم قالوا : لا تفعلوا فيبلغ محمد وأصحابه فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنسوا بهم (أي تؤخروا فداءهم) لا يارب (أي لا يشتد) عليكم محمد وأصحابه في الفداء »^(٤) .

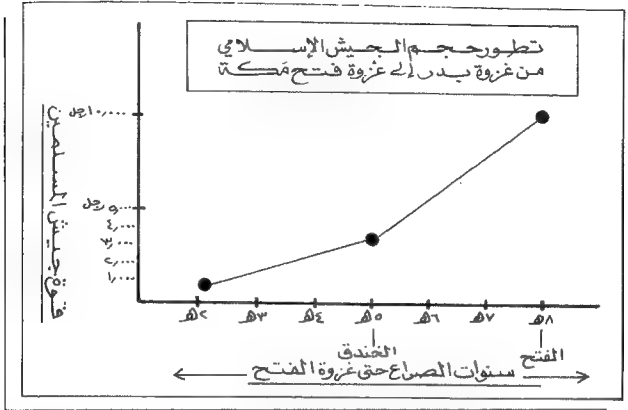
الصورة الرابعة : ردع الأعداء الأخطياء :

● ومن أمثلة هذه الصورة إحراق مسجد الضَّرَّار ، فقد بنى جماعة من المنافقين بذي أوان (وهو بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار) مسجداً كانوا يحاولون فيه أن يحرقوا كلام الله عن مواضعه ، وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضراراً وكفراً ، فلما عرف الرسول ﷺ أمر هذا المسجد وحقيقة ما قصد به من إقامته أمر بهدمه وتحريقه^(٥) .

رابعاً : انتزاع المبادأة من أيدي الأعداء :

● إن من يملك المبادأة في الحرب يملك حرية التصرف ويحصر خصمه في نطاق رد الفعل لما يفعل وذلك من أكبر ما يساعد على التغلب عليه .

● وفي الصراع بين المسلمين والمشركين في عصر النبوة كان المشركون في البداية يملكون المبادأة ، فطوال الفترة التي قضاها المسلمون في المدينة من يوم الهجرة إلى ما قبل غزوة الخندق



كانوا يتلقون هجمات أعدائهم ويواجهونهم « بمعارك دفاعية » كان أبرزها غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة ، وغزوة أحد في السنة الثالثة ثم كانت غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة التي واجه فيها المسلمون قريشاً والقبائل العربية واليهود .

● لكن الرسول ﷺ بعد غزوة الخندق وجد الفرصة سانحة « لانتزاع » المبادرة من أيدي أعدائه ، فكان ذلك نقطة تحول بارزة في الصراع ، فقد روى الإمام أحمد والبخاري عن سليمان بن صرد ، والبخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، والبيهقي عن قتادة رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال حين أجلى الله تعالى عنه الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم »^(١)

● إن معنى هذا القرار الخطير أن « يتحول » المسلمون من الدفاع إلى الهجوم ، وأن يسيروا إلى أعدائهم بدلاً من البقاء انتظاراً لضرباتهم ، وبعبارة أخرى أن يتحول المسلمون من حالة « رد الفعل » إلى « الفعل » ، وقد حافظ المسلمون على هذه « المبادرة » التي انتزعوها حتى تم فتح مكة في رمضان عام ٨ هـ وارتفع لواء الإسلام فوق شبه الجزيرة .

● ومن المفيد أن ندرس ظروف وأسباب هذا القرار الخطير :

(١) فلقد فشلت قريش - رغم امتلاكها للمبادأة - في تحقيق هذا الأساس وهو القضاء على الإسلام أو القضاء على المسلمين في موطنهم الجديد بالمدينة .

(٢) وحتى في تلك الغزوة الأخيرة (الخندق) التي أرادت لها أن تكون « فاصلة » فحشدت لها « كل ما أمكنها حشده » من قوى أخرى إلى جانب قوتها متمثلة في القبائل العربية واليهود ، باءت بالفشل .

(٣) والذي يُتصور هو أن قريشاً - إزاء هذا الفشل - سوف تضعف عزيمتها ويفتر استعدادها للعودة إلى التجربة مرة أخرى .

(٤) وهنا تظهر عبقرية الرسول ﷺ في فهمه لطبائع البشر ، وفراسته في « رصد ملامح الضعف في خصمه » ، وسرعته الفائقة في اتخاذ القرار الصحيح في الوقت الملائم تماماً لتوجيه « الضربة القاضية » : « الآن نغزوهم ، ولا يفزوننا ، نحن نسير إليهم » .

خامساً : الضغط الاقتصادي على العدو

• قام المسلمون بعدة عمليات استهدفت تهديد طريق تجارة قريش إلى الشام كما ذكرنا ، فنجحوا في فرض نوع من الحصار الاقتصادي حتى قال صفوان بن أمية : « إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجربنا ، فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندري أين نسلك ، وإن أقمنا في دارنا هذه ، أكلنا رؤوس أموالنا ، فلم يكن لها من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء » .

• فأشار عليه الأسود بن عبد المطلب أن يتخذ طريق العراق ، ففعل ، وتجهز من البضائع والفضة بما قيمته مائة ألف درهم ، غير أن الرسول ﷺ بعث زيد بن حارثة في مائة راكب فاستولى على القافلة وهي في طريقها عند ماء يقال له (القَرْدَة) من مياه نجد .

• وهكذا بهذا الأسلوب في الضغط الاقتصادي لم يعد أمام قريش إلا التجارة مع الحبشة ، وكان لذلك أسوأ الأثر على حياتها الاقتصادية .

سادساً : تجريد العدو من الحلفاء

• ليس من شك في أن تجريد العدو من الحلفاء يحرمه من قُوَى كان يمكن أن تسانده وتقوي

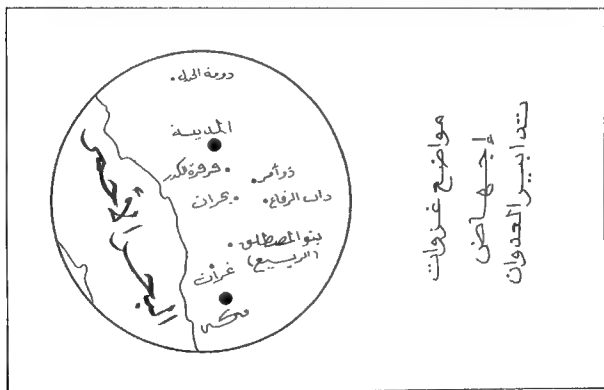
عزيمته ، وقد فعل الرسول ﷺ ذلك مع قريش فكان لذلك أثر كبير في إقناعها بتغيير موقفها من المسلمين ثم الاستسلام في النهاية :

(١) فقد عقد الرسول ﷺ اتفاقات مع مختلف القبائل العربية المجاورة مثل بني ضمرة (في غزوة ودان) وبني مدلج وحلفائهم (في غزوة ذات العشيرة) وقد كان من نتائج تلك الاتفاقات ما يلي :

- كفالة حرية المسلمين في نشر الدعوة مما يشكل تهديداً لحاضر المشركين ومستقبلهم .
- كفالة حسن الجوار والمعاملة .

- حرمان قريش من محالفة هذه القبائل والحصول على معاونتها سواء بتأمين طريق التجارة ، أو بشد أزرها بالعنوان على المسلمين بالمدينة أو تهديد طرق مواصلاتهم أو تحركاتهم .

- « تحييد » القبائل التي بينها وبين قريش مودة ومن أمثلة ذلك ما حدث في سرية حمزة في رمضان سنة ١ هـ ، فقد كان مجدي بن عمرو الجهني موادعاً لقريش وللمسلمين ، فحجز بين الطرفين ومنع نشوب القتال بينهما ، فيكون بذلك قد اتخذ موقف الحياد ولم ينأصر طرفاً منهما على طرف ، ولو لم يكن المسلمون قد وادعوه من قبل ، فربما ناصر قريشاً على المسلمين .



- حرمان قريش من « حرية العمل » وذلك « بتضييق المساحة » التي تستطيع التحرك فيها للعمل ضد المسلمين .

- وحرمانها أيضا من « القواعد الخارجية » التي تسمح لها بأن تقوم بعدوان غير مباشر ضد المسلمين .

(٢) وبالقضاء على اليهود عسكرياً في شبه الجزيرة بعد إجلاء بني قينقاع وبني النضير والقضاء على بني قريظة وبعد غزوة خيبر ، جرد المسلمون قريشاً من حليف كان يشجعها ويشد أزرها ويحرضها على قتالهم .

(٣) ثم إن انتشار الإسلام في قريش نفسها وفي القبائل العربية الأخرى أضعف من موقفها في مواجهة المسلمين وجعل من الصعب بل من المستحيل أن تتوحد كلمتها لقتالهم .

سابعاً : استغلال فترات الهدنة والسلام

● كان لصلح الحديبية الذي عقد بين المسلمين وقريش في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة آثار استراتيجية لصالح الدعوة في حاضرها ومستقبلها ولتقوية مركز المسلمين في صراعاتهم مع أعدائهم :

(١) فقد أصبحت المنطقة التي تقع جنوب المدينة « منطقة أمينة » بالنسبة للمسلمين بعد أن كانت قبل ذلك مصدر الخطر الأكبر الذي يهدد الدعوة ويهدد المسلمين .

(١) وانحصر الخطر في المنطقة الشمالية التي تضم خصمين هما اليهود في خيبر وما حولها ، والأعراب شمال المدينة ، الأمر الذي يمكن المسلمين من القضاء على هذين الخصمين ، ليصبحوا بعد ذلك متفرغين للتحويل - في الوقت المناسب - نحو الخصم الأكبر : قريش ، وإلى هدفهم الرئيسي : مكة المكرمة .

(٣) وانفتح المجال للرسول ﷺ لعقد محادثات مع القبائل التي أصبحت لا تتهيب الانضمام إلى المسلمين مادامت قريش قد التزمت بتأمين من يدخلون في حماية الرسول ﷺ وحلفه ، وخير دليل على ذلك إعلان خزاعة حلفها للرسول ﷺ قبل أن يجف مداد العهد ، قال الزُّهري : « فتوأثت خزاعة فقالوا : نحن في عهد محمد وعهده »^(٧)

(٤) وكسب المسلمون عطف كثير من القبائل وكثير من قريش نفسها وكثير من أهل المنطقة المجاورة لقريش بسبب صد قريش المسلمين عن زيارة البيت الحرام وتعظيمه وهو الهدف الذي

خرج الرسول ﷺ من المدينة من أجله ، وقد كان لهذا التعاطف أثره في تيسير عملية فتح مكة على المسلمين فيما بعد .

(٥) وفي ظل مناخ الهدنة المستقر زادت قوة جيش المسلمين ، فبعد أن كانت في غزوة الخندق (عام ٥ هـ) ثلاثة آلاف مقاتل ، وصلت إلى عشرة آلاف عند فتح مكة (عام ٨ هـ) ثم قفزت بعد الفتح إلى ثلاثين ألفاً في غزوة تبوك (عام ٩ هـ) (انظر اللوحة) .

(٦) وبعد الحديبية بشهرين بدأ الرسول ﷺ مخاطبة الملوك ورؤساء الدول الأجنبية يدعوهم إلى الإسلام : هرقل وكسرى والمقوقس وملك الحيرة وملك اليمن ونجاشي الحبشة .

ثامناً : تطوير وتدعيم القوة الإسلامية :

● في فترة وجيزة لا تتجاوز سبع سنوات تطور جيش الإسلام بقيادة الرسول ﷺ حتى لحق بمقتضيات عصره :

(١) القوة المضاربة من الفرسان :

فقد زادت قوة الفرسان في التركيب التنظيمي لجيش الإسلام حتى بلغت ثلث قوته ، وذلك خلال زمن قصير نسبياً ، فبعد أن كانت في أول معركة وهي بدر لا تكاد تذكر (فرسان اثنتان) قفزت إلى عشرة آلاف فارس في جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل في آخر معركة وهي تبوك ، والباحث المدقق يلاحظ أن جيش الإسلام قد لحق في هذا المجال بالعسكرية الفارسية والعسكرية البيزنطية ، إذ كانت كل منهما تقيم التركيب التنظيمي لجيشها على أساس تشكيل القوة المضاربة الرئيسية من الفرسان .^(٨)

(٢) ارتفاع مستوى الكفاءة القتالية :

كان مستوى المسلمين من الرمي في بادئ الأمر أقل من مستوى الفرس الذين وصفهم الرسول ﷺ لأصحابه بقوله : « هم أكثر منكم رمية » ، فبلغ اهتمامه بتدريبهم على الرمي إلى حد أنه جعله « أساس القوة وجوهرها » ، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : صعد رسول الله ﷺ المنبر يوماً ، فقرأ قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ثم قال : « ألا إن القوة الرمي ، إن القوة الرمي ، إن القوة الرمي » (رواه مسلم) وكان عليه الصلاة والسلام يكرم الرماة المهرة من أصحابه ، يقول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « ما جمع رسول

الله ﷻ أبويه لأحد غير سعد بن مالك (هو سعد بن أبي وقاص) ، فإنه جعل يقول له يوم أحد : ارم فذاك أبي وأمي » (رواه الشيخان والترمذي) .

وكان عليه الصلاة والسلام يحذر من الانقطاع عن التدريب على الرمي حتى لا ينخفض مستواهم فيه إلى حد أنه اعتبر ذلك من المعاصي أو جحود النعمة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « من ترك الرمي بعد ما علمه فإنما هي نعمة جحدتها » (رواه أبو داود وغيره) وقال : « من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو فقد عصي » (رواه أحمد ومسلم) .

وقد برع المسلمون في الرمي نتيجة لهذه العناية الفائقة بتدريبهم عليه حتى استحقوا أن يطلق عليهم « رماة الخلق » أي أن الرامي منهم كان إذا صوب سهمه نحو عين عدوه لم يخطئها .

(٣) دعم تسليح الجيش بأسلحة جديدة .

وأضاف المسلمون إلى أسلحتهم أسلحة جديدة لم تكن لديهم من قبل وهي أسلحة الحصار ودك الحصون والأسوار وهي المجانيق والدبابات ، قال ابن هشام : « ولم يشهد حيناً ولا حصار الطائف عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمة ، كانا بجرش يتعلمان صناعة الدبابات والمجانيق والضبور »^(٩)

(٤) شهادة القادة البيزنطيين .

وقد اعترف للمسلمين بملاحقتهم لعصرهم في هذه المجالات الامبراطور البيزنطي « ليو » ، فقد نقل عنه فون كيرمر قوله : « إن الجندي العربي ما كان يفتقر عن الجندي البيزنطي في المؤن والسلاح » كما قال عنهم : « إن العرب أمهر الشعوب الأجنبية وأبرعها على الإطلاق في العمليات الحربية » .

النتائج الاستراتيجية لإدارة الصراع .

وقد كانت النتائج الاستراتيجية لجهاد المسلمين في عصر النبوة نتائج بعيدة المدى أصبحت من الحقائق التاريخية نذكر منها ما يلي :

١ - تأمين الدعوة وقيام الدولة الإسلامية :

● فقريش العدو الرئيس ، أقبلت على الإسلام بعد أن ظلت عشرين عاماً تصد عن سبيل الله بكل أساليب الضغط والإيذاء والحرب .

● والمستضعفون الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، عادوا إلى بلدهم تحت أعلام الإسلام والسلام .

● وأتم الرسول ﷺ - في أول يوم لفتح مكة - ما دعا إليه منذ عشرين عاماً وما حاربه قريش أشد الحرب فيه ، أتم تحطيم الأصنام والقضاء على الوثنية في البيت الحرام .

● وتمت كلمة ربك في شبه الجزيرة العربية ، وتوفر الأمن والاستقرار للدولة الإسلامية لأداء رسالتها السامية لخير البشرية .

٢ - تحويل اتجاهات الأعداء نحو الإسلام :

● لقد برز خلال الصراع أمر بالغ الأهمية ينفرد به الإسلام ولا نظير له في الصراعات عبر العصور بسبب ما يتصف به من سماحة وعدل ، فالصراع بين المسلمين وأعدائهم لم ينته باستسلام الأعداء فحسب ، بل أنه كان ينتهي بتحويل الأعداء وتحول اتجاهاتهم من العداء للإسلام إلى الدخول فيه والحرص عليه ، بل - وأكثر من ذلك - إلى رفع راية الجهاد في سبيل الله .

● وقد ظهر هذا الأمر واضحاً في موقف قريش والقبائل العربية الأخرى بعد الفتح ، ثم ظهر واضحاً أيضاً بعد عصر النبوة في الفتوحات الإسلامية حتى أن المشرك مونتجمري في كتابه (الحرب عبر التاريخ) تنبه إلى هذه الظاهرة وأبدى دهشة منها فقال : « من العجيب أن القوة الرئيسية للجيوش الإسلامية في فتح أسبانيا كانت مشكلة من الليبيين والتونسيين ! »

٣ - استعداد المسلمين لمواجهة الفرس والروم :

فالرسول ﷺ لم يلق ربه إلا وكان جيش الإسلام مُعَدّاً لمواجهة القوتين العظميين في عصره وهما فارس والروم ، وقد وقعت هذه المواجهة على الفور ومنذ عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

الإسلام دين قوة وسلام :

● وبعد .. فإن الإسلام رسالة الخير والحق والحيمة والسلام ، قد ارتضاه الله ديناً لتوجيه الناس إلى أقوم السبل ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم ، ليصلوا منه إلى سعادتي الدنيا والآخرة ، والسلام في مبادئ الإسلام أصل في عقيدته ، وتحمل فكرته المقام الرئيسي بين أهداف الإسلام ومقاصده العامة .

غزوات إجهاض تدابير العدد للدعوان

رقم مسل	اسم الغزة	التاريخ	المكان	الأعداء	قوة المسلمين	النتائج
١	بني سليم	شوال عام ٢ هـ	قرقرة الكثر بين المدينة ومكة	بنو سليم وطهقان	٢٠٠	فرار بني سليم وطهقان تاركين أموالهم للمسلمين
٢	ذي أمز	الحرم عام ٣ هـ	قرب أمز مخرج في نجد	بنو ثعلبة ومحارب	٤٥٠	فر بنو ثعلبة ومحارب وبني المسلمون في ديارهم حوالي شهر
٣	بحران	ربيع الأول عام ٣ هـ	بحران على طريق المدينة بمكة	بنو سليم	٣٠٠	فر بنو سليم بقى المسلمون في ديارهم حوالي شهر
٤	ذات الرقاع	شعبان عام ٤ هـ	ذات الرقاع بجند	بنو محارب وبنو ثعلبة من غطفان	٤٠٠	فرار بني ثعلبة وبني محارب
٥	كومة الجندل	ربيع الأول عام ٥ هـ	كومة الجندل	قبائل كومة الجندل	١٠٠٠	فرت القبائل
٦	بني المصطلق	شعبان عام ٥ هـ	الربيع	بنو المصطلق	١٠٠٠	فر بنو المصطلق بعد معركة لقوة جند المسلمين
٧	بني حيان	جنادي الأول عام ٦ هـ	حوران	بنو حيان	حوالي ٣٠٠٠	فرار بني حيان

● لكن الإسلام - في الوقت نفسه - « دين عملي » يأخذ الحياة من واقعها ، فقد راعى طبائع الخلائق وميلها إلى المشاحنات ، من أجل ذلك اقتضت حكمة الله جل شأنه أن يكون الإسلام « دين قوة أيضاً » ليدافع بها عن نفسه ويرغم أعداءه على أن « يلزموا حدودهم » .

● إنه لا يفوت الباحث المدقق أن ذكر الجنوح للسلم ورد « بعد » الأمر بإعداد القوة والمراقبة في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ . وَإِنْ جُنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْجَحْ لَهُا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الأنفال ٦٠ - ٦١) فيفهم من ذلك ما يلي :

(١) لا جنوح للسلم مع ضعف أو قلة ، أي لابد من استمرار وجود « القوة الرادعة » .

(٢) ولا جنوح للسلم مع تهاون أو غفلة ، أي لابد من استمرار وجود « الرباط » .

أي أن الجنوح للسلم في الإسلام يكون مع قوة المسلمين الرادعة ومع يقظتهم التامة ، وأن السلام الذي يدعو إليه الإسلام : سلام تحميهِ القوة والاستعداد ، لأنهما أقوى ضمان لتحقيق السلام بمعناه ■

الهوامش

(٧) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٣١٨ .

(٨) أرنست ديبري وتريفور ديوي : دائرة

معارف التاريخ الحربي ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٩) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٤ ص ٤٧٨

- والضيور : نوع من الدبابات ، قال السهيلي :

الدبابة آلة من آلات الحرب يدخل فيها الرجال

فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها . وقال أبو ذر :

الدبابات آلات تصنع من خشب وتغشى بجلود

ويدخل فيها الرجال ويتصلون بمقاطع الحصن .

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٣١٢

(٢) اندريه بوفر : مدخل إلى الاستراتيجية

المسكينة .

(٣) هم عبيدة بن الحارث ، وحمزة بن عبد

المطلب ، وعلي بن أبي طالب (ابن هشام : السيرة

النبوية جـ ٣ ص ٦٢٥) .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٦٤٨ .

(٥) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٥٢٩ - ٥٣٠ .

(٦) محمد بن يوسف الصالحى الشامي : سبل

الهدى والرشاد في سيرة خير العباد جـ ٤ ص

٥٤٩ .

مفتاح القرب

في آداب الأكل والشرب

• د . محمد عثمان الملا •

هذه جولة سريعة في مخطوطة طريفة عنوانها (مفتاح القرب في آداب الأكل والشرب) ، وتقع المخطوطة في مائتين والثني عشرة صفحة من الحجم المتوسط ،^(١) ومؤلفها هو الشيخ محمد بن عبد الرحيم ،^(٢) وهي شرح منظومة في آداب الطعام والشراب ، لجد الشارح الشيخ إبراهيم بن حسن العمدي ،^(٣) وتبلغ أبيات هذه المنظومة مائتان وواحد وسبعون بيتاً ، وقد بدأها بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله وآله ، ثم أشار إلى آلاء الله التي أنعم بها على خلقه ، ومنها تعلم آداب الأكل والشرب التي ينبغي أن يهتم بها كل إنسان ، كما أشار إلى أن هذه الآداب التي نظمها موجودة في الكتب ، وبخاصة كتاب إحياء علوم الدين للغزالي . وقد جاءت المقدمة في أربعة عشر بيتاً منها قوله^(٤)

الحمد لله الذي تفضلا	على الأنام بالنوال جلا
ثم صلاة الله مع سلامه	على النبي المصطفى وآله
وبعد فإله الكريم المحصي	جاد بفضل ما له من محصي
فمن عظيم جوده ومته	تعليم ما به قوام بيته
وليس كل من عني بالأكل	يحسن آداباً أتت في النقل
وينبغي اعتناء كل آكل	بها لكي يفوز بالفضائل

ثم شرع الناظم في بيان آداب الأكل في ستة وستين بيتاً ، تبدأ بيسم الله وتنتهي بحمده وأوجب هذه الآداب أكل الحلال ، ومن سنتها غسل اليدين قبل الطعام وبعده ، والأكل باليد

اليمينى ، وعدم الأكل من وسط الإناء ، وبدء الأكل بالملح وختمه به ، وأكل الطعام الجامد بالأصابع الثلاثة الإبهام والسبابة والوسطى ، وعدم النفخ في الطعام ، وأكل التمر وترا وإبعاد نواه عن إنائه ، وعدم التربع في الجلوس أثناء الأكل ، وترك البدء بالطعام لصاحب المائدة أو أفضل القوم ، ثم تحدث الناظم عن آداب الشرب في اثنين وعشرين بيتاً ، منها تناول الإناء باليمين ، وشرب الماء مصباً لا عباً ، وفي حالة القعود لا القيام ، وترك التجشؤ في الإناء ، ومناولة الكأس لمن يجلس إلى يمين المناول ، ثم بين السنة في وضع الطعام وهي وضعه على الأرض أو فوق السفرة . ثم تناول في عشرين بيتاً آداباً تتعلق بالمجتمعين على الطعام ، منها الحديث الطيب تأنيلاً للآكلين ، وألاً يستأثر أحد دون إخوانه بلون من ألوان الطعام ، وترك القيام على المائدة للسلام ، وترغيب المضيف لضيفه في الأكل بلا إلحاح ، وأخذ الضيف حظه المعتاد من الطعام . ثم تكلم الناظم خلال ثلاثة عشر بيتاً عن فضيلة تقديم الطعام للإخوان ، منها أن الله سبحانه لا يحاسب الإنسان على ما يبذله فيه ، ومنها عدم ذهاب المرء لطعام لم يدع إليه . وتحدث الناظم عن آداب تقديم الطعام للإخوان ، منها تقديم ما تيسر وترك ما تبسر ، وعدم حرمان العيال منه ، ثم عرض في تسعة أبيات آداباً تتصل بالزائر والمزور ، أما الزائر فلا ينبغي أن يشترط على مزوره طعاماً إلا إذا أنس عنده القدرة والرغبة ، وأما المزور فلا يليق به أن يستفهم من زائره عن رغبته في الأكل ، بل يبادر بتقديمه إليه ، فإن أكل فحسن ، وإلا فقد ثبت له الأجر ، وخص الناظم لبيان فضل الضيافة وآدابها ستة وعشرين بيتاً ، فذكر حث النبي ﷺ عليها ، ودعوته إلى إكرام الضيف بتقديم أفضل ما عنده من الطعام والشراب من غير إجحاف بحق الأهل والعيال ، وتعميل القرى له ومقابلته بالبشر والطلاقة ، وأن ييوأه أفضل منزل لديه ، ويبىء له أحسن فراش ، ويعرفه القبلة وبيت الماء ، ويشرف على خدمته بنفسه . وتحدث الناظم عن آداب انصراف الضيف ، فأشار إلى عدم إقامته أكثر من ثلاثة أيام ، وأن يستأذن من مضيفه عندما يرغب في الخروج من منزله ، وأن يخرج راضياً وإن بدا بعض التقصير في حقه من مضيفه ، وأن يشيعة إلى باب البيت . وخص الناظم آداب الدعوة بسبعة أبيات ، فيبين أن السنة دعوة الأتقياء والفقراء والأقرباء والجيران ، وألاً يقصر الداعي دعوته على الأغنياء بغية التباهي أو الانتفاع ، وآلاً يدعو من يشق عليه الحضور . وسجل في سبعة أبيات آداب تقديم الوليمة ، فذكر أفضلية تقديم الفاكهة قبل الطعام والحلوى بعده ، ووضع كل ألوان الطعام على المائدة لصيب كل واحد حاجته منها ، وتحدث في عشرة أبيات عن آداب لإجابة الدعوة ، فذكر حث النبي ﷺ على تليتها ، وإن اقترنت ببعض الكلفة كطول المسافة أو صوم المدعو ، وألاً يخص بالإجابة الغني دون الفقير ،

ثم نظم في ستة أبيات بعض آداب من يحضر الدعوة ، كالتواضع والجلوس حيث ينتهي به المجلس ، أو حيث يشير رب المنزل ، والتقيد بموعده الدعوة ، وتجنب الجلوس أمام حجرة النساء ، وعدم الالتفات إلى موضع الطعام ، وقد ختم الناظم منظومته بمثل ما افتتحها به وهو الحمد لله والصلاة على رسوله ﷺ وآله ، ملتصقاً العذر والصفح فيما بدا فيها من خطأ أو تقصير ، يقول^(٥) :

والحمد للإله في انتهاها والشكر للمولى الذي حباها
كذا الصلاة مع سلام دائم على نبي حض بالمكـارم
فإن رأيت خطأ فأصلحن أو غلطاً فسامحن وأصفحـن

وواضح أن النظام قد استمد معاني منظومته من آداب الإسلام في هذا الموضوع المهم ، ولهذا اعتمد شارحها في المقام الأول على السنة النبوية المطهرة ، ففي شرحه لقول الناظم - مثلاً -

وادع بخير بعد أكل واطلبن زيادة عقيب شريك اللبن^(٦)

يورد أثناء الشرح ما جاء في سنن أبي داود والترمذي قال قال رسول الله ﷺ : إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه ، وأطعماً خيراً منه ، ومن سقاه الله لبناً فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ، وفي شرحه لقول الناظم أيضاً^(٧) :

والنفخ في السخن خلاف الأولى والصبر كي يرد منه أولى

يقول : ومن آدابه ترك النفخ في الطعام ، قال عبد الله بن عباس : لم يكن رسول الله ﷺ ينفخ في طعام ولا شراب ، ولا يتنفس في الإناء ، كما تناول الشرح بعض الآيات القرآنية الكريمة ، وتفسيرها ففي تعليق على قول الناظم^(٨) :

وقدمن فأكهة في الوضع قبل الطعام لحصول النفـع

يورد الآية الكريمة وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون . وعند ذكره لقول الناظم^(٩)

والأكل بالثلاثة الأصابع إن تكف أو زد في طعام مابـع

يعرض ما جاء في الكشف : من أن الرشيد أحضر طعاماً ، فدعا بالملاعق ، وعنده أبو يوسف فقال : جاء عن جدك ابن عباس في تفسير هذه الآية « ولقد كرمت بني آدم » جعلنا لهم أصابع يأكلون بها ، فأحضرت الملاعق فردها ، وأكل بأصابعه . واحتوى الشرح على بعض الأمور

الفقهية ، ومن ذلك ما نقله المؤلف عن الغزالي في الإحياء ، وهو قوله : واعلم أننا وإن قلنا إن الأكل على السفرة أولى ، فلنسنا نقول الأكل على المائدة منهي عنه نهي كراهة أو تحريم ، إذ لم يثبت فيه نهي ، وما يقال من أنه أبدع بعد رسول الله ﷺ فليس كل ما أبدع منهي عنه ، بل المنهي عنه بدعة تضاد سنة ثابتة ، وترفع أمراً من الشرع مع بقاء علته ، بل الإبداع قد يُحبُّ في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب ، وليس في المائدة إلا رفع الطعام عن الأرض ليتيسر الأكل ، وأمثال ذلك مما لا كراهة فيه . كما تخللت الشرح مسائل في اللغة والنحو والبلاغة ففي قول الناظم^(١١) :

وسرعة الاحضار للطعام يعد للضيف من الاكرام

يقول الشارح : الضيافات ثمان كما في شرح الأربعين النووية للفاكهاني : الوليمة للعرس ، والحرس للولادة ، والاعذار للختان ، والوكيرة للبناء ، والنقعة لقدم المسافر ، والعقيقة يوم سابع الولادة ، والوضيمة طعام المصيبة ، والمأذبة : المتخذ ضيافة بلا سبب ويقول المؤلف معلقاً على قول الناظم^(١٢) :

واعلم بأن تشبهة المزور أخاه من محاسن الأمور

والأمر إن أريد به القول الطالب للفعل على سبيل الاستعلاء جمع على أوامر ، وإن أريد به الفعل والشأن جمع على أمور . ويقول بعد شرحه لقول الناظم^(١٣) :

ويكثر السؤال عن تعكف وهاك معناه بقول مصنف

واعلم أن الطلب والسؤال والاستخبار والاستفهام والاستعلام ألفاظ متقاربة مترتب بعضها على بعض ، فالطلب أعمها لأنه يقال فيما تسأله من غيرك وفيما تطلبه من نفسك ، والسؤال لا يقال إلا فيما تطلبه من غيرك ، فكل سؤال طلب ولا ينعكس ، والسؤال يقال في الاستعطاء ، فيقال سألتك كذا ، والاستخبار استدعاء الخبر وهو أخص من السؤال ، فكل استخبار سؤال ولا ينعكس ، والاستفهام طلب الافهام ، وهو أخص من الاستخبار فإن قوله تعالى « أأنت قلت للناس » استخبار وليس استفهام ، فكل استفهام استخبار ولا ينعكس ، والاستعلام طلب العلم ، وهو أخص من الاستفهام ، إذ ليس كل ما يفهم يعلم بل قد يظن ويخمن ، فكل استعلام استفهام ولا ينعكس . وتناول المؤلف في شرحه بعض الشواهد الشعرية ، والأقوال المأثورة ، ففي أعقاب قول الناظم^(١٤) :

ومن أتى فليأت بالتواضع لا قاصدا لأحسن المواضع
يقول ما أحسن ما قيل :

كن فاضلا وأرض بصف النعال لا خير في الصدر بغير الكمال
من طلب الصدر بلا آلة صير ذاك الصدر صف النعال
وعند إيراد لقول الناظم^(١٤) :

وليس كل من عني بالأكل يحسن آدابا أنت في النقل

يذكر قول الجنيد مؤاكلة الاخوان رضاع ، فانظروا من تواكلون . ثم يورد قول سهل بن عبد الله من لم يحسن أدب الأكل لم يحسن أدب العمل . وفي ثنايا شرحه لقول الناظم^(١٥) :

وسرعة الاحضار للطعام يعد للضيف من الإكرام

يقول : كان يقال أربع لا ينبغي لشريف أن يأنف منهن وإن كان أميراً قيامه من مجلسه لأبيه ، وخدمته لضيفه ، وخدمته للعالم ، والسؤال عما لا يعلم ، وقد يتطرق المؤلف لبعض النواحي الطبية . فحين يورد قول الناظم^(١٦) :

وأكل ذي الإيمان في معاء وكافر في سبعة أمعاء

يقول في ثنايا شرحه : وقال أهل الطب لكل إنسان سبعة أمعاء ، المعدة ثم ثلاثة متصلة بها رقاق البواب ثم الصائم ثم الرقيق ، ثم ثلاثة غلاظ الأعور والقولون والمستقيم وطره الدبر . ثم يذكر حكاية طبية حول ذلك ، وهي أن الرشيد جمع أربعة أطباء هندي ورومي وعراقي وسوادي ، وقال : ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لا داء منه ، فقال الهندي هو الأهليلج الأسود ، وقال الرومي هو حب الرشاد الأبيض ، وقال العراقي هو الماء الحار وقال السوادي وكان أعلمهم الأهليلج يضعف المعدة وهو داء ، وحب الرشاد يرق المعدة وهذا داء ، والماء الحار يرخي المعدة وهذا داء ، قالوا فما عندك يا سوادي قال الدواء الذي لا داء معه ألا تأكل الطعام حتى تشتهي وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهي ، فقالوا صدق . وربما تضمن الشرح بعض الوقائع التاريخية وتراجم للشخصيات التي تمر في النظم ، من ذلك ما روي من أن هارون الرشيد

دعا أبا معاوية الضرير ، وصبّ الرشيد على يده في الطست ، فلما فرغ قال يا أبا معاوية أتدري من صب على يدك ؟ فقال : لا ، فقال صب أمير المؤمنين ، فقال يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجلته فأجلك الله وأكرمك ، ومما جاء في ترجمته للسيوطي : ويورك في عمره بحيث وزعت مؤلفاته على أيام عمره فكانت من حين ولادته لوفاته كل يوم كراساً ، ونقل مثل ذلك عن النووي ، وأعجب منه ما نقل عن ابن الجوزي وزعت مؤلفاته على أيام عمره فكانت كل يوم سبعة كراريس تأليفاً وكتابة . ولم يخل الشرح من بعض الإشارات المتصلة بطبائع الحيوان كقول المؤلف قال أبو الليث في البستان : ويستحب لصاحب الضيافة أن يقول للضيف أحياناً كل من غير إلحاح ، لأن الفرس قد يشرب بغير الصفيّر ومع الصفيّر يكون أكثر شرباً والبعير يشرب بغير حذاء ومع الحذاء أكثر ، فكذلك الضيف إذا قلت له كل كان أهناً وأشهى ، ولا يلح عليه فإن الإلحاح مذموم . وثمة قضايا أخرى في الكتاب وتعريفات وقصص وأخبار كثيرة متناثرة هنا وهناك ، كقضية الشفاعة الخاصة بالرسول ، وتعريف الفتوة عند الصوفية ، وهي أن يكون العبد ساعياً في أمر معين بأن يقضي حاجته ويترك خصومه ويتغافل عن زلته ويقرب من يؤذيه ويعتذر إلى من جنى عليه . وما إلى ذلك من الأخبار والقضايا . وفي الكتاب طرائف وفكاهات ساقها المؤلف على سبيل الترويح عن النفس ودفع السآمة والملل مع مناسبتها لمقتضى الحال ، فعند حديث المؤلف عن التمر يذكر أن أعرابياً أسر رجلين فخيرهما في العشاء بين اللحم والتمر ، فاختار أحدهما التمر والآخر اللحم فأطعمهما ثم ألقاهما بفناء بيته في ليلة شديدة بردها ، فأصبح آكل اللحم جامداً ، وأصبح آكل التمر تدر عيناه ، وعند كلامه حول البخل والكرم ، يروي عن الستوري أنه كان مزاحاً فحضر دعوة لأحد البخلاء ، فلما رأى القوم قد مزقوا الحمل كل ممزق ضاق صدره وقال يا غلام إرفع إلى الصبيان ، فنقل الحمل إلى داخل الدار ، فقام الستوري خلف الحمل ، فقيل له إلى أين ، فقال آكل مع الصبيان ، فاستحيا الرجل وأمر برد الحمل . وعكس هذا الخيل ابن المبارك ، فقد كان يقدم فاخر الرطب إلى إخوانه ، ويقول : من أكل أكثر أعطيته لكل نواة درهماً ، وكان يعدّ النوى فيعطي كل من له فضل نوى بعدده دراهم ، وذلك لكسر الحياء وزيادة النشاط في الانبساط .

وهذه الأقباسات والنقول الشائعة في الكتاب لا تعني اختفاء شخصية المؤلف ، بقدر ما تعني اتساع ثقافته وتنوعها ، فشخصيته العلمية ظاهرة في هذا الكتاب ، حيث نراه يحلل ويناقش ويوجه ويصوب ، فعلى سبيل المثال عندما يذكر قصة الأنصاري الذي أثار ضيفه بطعامه وطعام زوجته وصبيانه نراه يقول : قلت هذا محمول على أن الصبيان لم يكونوا محتاجين إلى الطعام

حاجة ضرورية ، لأن العادة أن الصبي وإن كان شبعاناً يطلب الطعام إذا رأى من يأكله ، ويُحمل فعل الرجل والمرأة على أنهما آثرا بنصبيهما ضيفهما ، ولو كان الصبيان بحاجة ماسة إلى الطعام لوجب تقديمهم على الضيف .^(١٧) وفي توضيحه لقول الناظم :

وجاز مع علم رضا ومثله قران تمر لا يجوز مثله

يقول وكذا قرانه أي جمعه تمرتين أي ونحوهما في لقمة (في الطعام المشترك بين جماعة) إلا إذا أؤذنوا أو فعلوا ذلك فيجوز ، وهذا معنى قوله ومثله قران تمر لا يجوز الخ ، وفي مسلم عن عمر رضي الله عنهما نبى رسول الله ﷺ أن يقرن بين تمرتين حتى يستأذن أصحابه ، قال النووي : هذا النهي متفق عليه حتى يستأذنهم فإذا أذنوا فلا بأس ، واختلفوا في هذا النهي على التحريم أو الكراهة والأدب ، فنقل القاضي عياض عن أهل الظاهر أنه للتحريم ، وعن غيرهم أنه للكراهة والأدب ، والصواب التفصيل فإن كان الطعام مشتركاً بينهم فالقران حرام إلا برضاهم .. وإن كان لغيرهم أو لأحدهم اشترط رضاه وجده ، فإن قرن بغير رضاه فحرام .. وإن كان الطعام لنفسه ، وقد ضيفهم به ، فلا يحرم عليه القران ، ثم إن كان في الطعام قلة فحسن ألا يقرن ليساويهم ، وإن كان كثيراً بحيث يفضل عنهم فلا بأس بقرانه ، لكن الأدب مطلقاً التأدب في الأكل ، إلا أن يكون مستعجلاً ويريد الإسراع لشغل آخر ، وقال الخطابي : إنما كان هذا في زمنهم ، وحين كان الطعام ضيقاً ، فأما اليوم مع اتساع الحال فلا حاجة إلى الإذن ، وليس كما قال بل الصواب ما ذكرناه من التفضيل ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، لو ثبت السبب وهو غير ثابت ، والله أعلم .

وهكذا نجد شرح المؤلف ثرياً متعدد الجوانب يدل على ثقافة دينية وعربية واسعة في الحديث والتفسير والفقه واللغة والنحو والبلاغة والتاريخ وغير ذلك . وما يزيد من قيمة هذه المخطوطة اعتماد المؤلف - غالباً - على المنهج العلمي في توثيق النصوص وجمع الروايات^(١٨) والتوفيق بينها وذكر المصادر والمراجع^(١٩) . وقد فرغ المؤلف من شرحه لهذه المنظومة سنة خمس وتسعين بعد الألف للهجرة ■



(١) عندي نسخة كاملة مصورة من هذه المخطوطة ، وهي بخط الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن عرفة ، وقد فرغ من كتابتها سنة ست وخمسين ومائتين بعد الألف للهجرة . ومما جاء في مقدمتها : هذا تعليق لطيف أحيت وصفه على نظم آداب الأكل والشرب للإمام العلامة النحرير العلم الشهير جدي المذكور إبراهيم بن حسن الحنفي طيب الله فراه لأبين مقاصده وأوضح مزاياه على منهل قريب ليقرب تناوله ويكثر تداوله ، فلذا ناسب أن أسميه مفتاح القرب لنظم آداب الأكل والشرب راجياً من الله تعالى المعونة والتوفيق .

(٢) وللشارح مؤلفات أخرى منها شرح تحفة المبتدي ، وهي منظومة في فقه الحنفية لجده الشيخ إبراهيم ، قام المؤلف بشرحها . ومن آثاره أيضاً المنح الوفية باختصار شرح المنظومة العمريية ، وفي كتاب إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون لإسماعيل أمين (ص ٥٢٧) ترجمة قصيرة للمؤلف .

(٣) للشيخ إبراهيم بن حسن مؤلفات أخرى منها دفع الأسى في أذكار الصبح والمساء ، وشرح نظم الأجرومية العمريية في النحو ، وترجمته في كتاب الإعلام للزركلي ومعجم المؤلفين لرضا كحالة وخلاصة الأثر للمحيي وتاريخ الاحساء لابن عبد القادر وبعض بيوت الملا الأسرة المعروفة بالاحساء تنتمي إلى واضع المنظومة وشارحها .

(٤) ص ٢ / ٧ من المخطوطة .	(١١) ص ١٥٧ .
(٥) ص ٢٠٦ من المخطوطة .	(١٢) ص ١٦٣ .
(٦) ص ٢٠ .	(١٣) ص ٢٠٤ .
(٧) ص ٣٦ .	(١٤) ص ٧ .
(٨) ص ١٩٢ .	(١٥) ص ٦٣ .
(٩) ص ٣٣ .	(١٦) ص ١٧١ .
(١٠) ص ١٧٥ .	(١٧) ص ١٢٥ .

(١٨) في ص ٣١ من المخطوطة مثال لطريقة المؤلف في محاكمة الرواية للأحاديث الشريفة ، والتوفيق بينها ، ومناقشة درجة الاسناد .

(١٩) ذكر المؤلف في شرحه أكثر من خمسة وأربعين مرجعاً ، ولعل بعضها لا يزال مخطوطاً حتى الآن ، ومن ذلك شرح جوهرة اللقاني وعقود المشائخ لعبد الوهاب الشعراني وكتاب الغصب لابن نجيم ومختصر الفتاوى لابن ظفر والفوائد الفقهية للطوسي ، ومنظومة ابن العماد الأقفهي في آداب الأكل وقد طبعت هذه المنظومة محققة ، ويبلغ عدد صفحاتها بفهارسها حوالي تسعين صفحة من الحجم المتوسط .

« تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء »

تأليف : الدكتور دريد عبد القادر نوري
منشورات : جامعة الموصل - الجمهورية
العراقية ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م
عدد الصفحات : (٣٤٤) صفحة

من القرن ٤ - ١٠ هـ / ١٠ - ١٦ م

● عرض الأستاذ : فاضل خليل إبراهيم ●

إن دراسة تاريخ أفريقيا ، وإبراز طبيعة العلاقات العربية الأفريقية ، وتوثيقها على مدى التاريخ القديم ، وربطها بالتاريخ المعاصر ، أمر مهم ذو ميزات إيجابية لكلا الطرفين . إذ أن من أهداف الاستعمار العمل على إضعاف تلك الروابط مع أفريقيا المسلمة ، وفك ارتباط عرى القرى والجوار مع الوطن العربي ، من أجل دوام ارتباطها به وبحضارته .

ويأتي كتاب « تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء » ، محاولة لتسليط الضوء على حقبة تاريخية مهمة من تاريخ الإسلام في بقعة يكاد يكتفها الغموض ، وبشكل خاص على القارئ العربي ، لأن جُل ما كتب عنها هو باللغات الأجنبية ، وبعض هذه الكتابات ليست أمينة في عرضها للحقائق ، ويشوبها الدس والتلفيق على الإسلام وعقيدته ، لتحقيق مآرب تبشيرية ، مرتبطة بقوى أجنبية .

والمنطقة - موضوع الكتاب - تشمل بلاد السودان الكبرى والتي تقع إلى الجنوب من الصحراء الأفريقية الكبرى والممتدة من المحيط الأطلسي غرباً وحتى البحر الأحمر شرقاً ، والواقعة بين خطي عرض ٥٦ شمالاً إلى ٥٢٥ شمالاً . إضافة إلى الحبشة والساحل الأفريقي الشرقي .

يقع الكتاب في ستة فصول ، بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة والملاحق ، والعديد من الخرائط لفهم بعض الجوانب التاريخية المتعلقة بالموضوع .

يتناول الفصل الأول « أفريقيا جنوب الصحراء قبل دخول الإسلام » . من حيث الإطار الجغرافي واللغة والسكان والعادات والتقاليد والدين والمعتقدات .

إن بلاد السودان الكبرى ، بلاد متسعة الأرجاء ، يحدها من الغرب المحيط الأطلسي ومن الشرق البحر الأحمر ومن الشمال الصحراء الكبرى ومن الجنوب الغابات الاستوائية المطيرة ، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام : السودان الشرقي والأوسط والغربي . أما جغرافية الساحل الأفريقي الشرقي ، المنطقة التي يسميها الجغرافيون العرب باسم (أرض الزنج) فيحدها من الشمال الصحراء ومن الجنوب نهر روفما ومن الشرق المحيط الهندي ومن الغرب البحيرات الكبرى . ويسكن هذه البلاد ، السودان والزنوج ولا يعرف عنهم قبل إسلامهم إلا القليل ، وهم يتكلمون العديد من اللغات أهمها : اللغة السودانية ، ولغة البانتو ، واللغة السواحيلية ولغة الهوسا . أما معتقداتهم قبل الإسلام فقد اتخذت أشكالاً مختلفة ، فهناك جماعة ليس لهم شريعة يراجعونها بل رسوم رسمها ملوكهم ، في حين أكدت جماعة أخرى على قوة الطبيعة وعبدت الأسلاف ، بينما اعتقدت جماعة ثالثة بالمجوسية أو الوثنية . ويبدو أن هذه المعتقدات يسودها التشويش ويغلب عليها السحر والشعوذة .

ولهؤلاء عادات قبل الإسلام يغلب عليها طابع البداوة منها : العري والتعري وأكل لحوم البشر ، والاعتقاد بالعرافة . ومن عاداتهم أيضاً تعظيم شيوخ قبائلهم وسلوكهم تعظيماً كبيراً ، حتى اعتبرهم البعض أرباباً من دون الله يطلبون منهم البركة والخصب .

أما الفصل الثاني فيبحث في « أهمية أفريقيا وصلاتها القديمة بالوطن العربي » ، من خلال فقرات عديدة ، منها : « أفريقيا في مصادر التاريخ والجغرافيا العربية » . فقد عرفها العرب منذ وقت مبكر ، وخاصة الرحالة منهم ، حيث سجلوا عنها ما شاهدوه في أسفارهم الشيء الكثير . ومن أبرز هؤلاء : ابن خرداذبه ، والاصطخري ، وأبو زيد السيرافي ، وأبو عبيد البكري ، وابن فضل الله العمري وابن بطوطة وغيرهم .

وقد شهدت أفريقيا جنوب الصحراء ، اتصالاً وثيقاً بالوطن العربي قبل الإسلام ، حيث دلت الآثار على وجود « صلات قديمة بين اليمن والساحل الأفريقي الشرقي » ، وأكدت هذه

الصلوات أيضاً المصادر الأغريقية والرومانية . كما كانت هناك صلوات أخرى مع « العديد من دول الخليج العربي والعراق وكانت التجارة هي المحور الأساسي الذي قامت عليه تلك الاتصالات » . أما « الصلوات القديمة بين شمال أفريقيا وجنوبها » فيبدو أنها واضحة ، وبشكل خاص مع مصر ، فقد أشارت « بعض الدراسات الأثرية إلى أن المصريين ذهبوا إلى السودان الغربي ، وكانت لهم علاقة ببعض سكان غانة » .

وفي الفصل الثالث دراسة عن « انتشار الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء » . عرض فيه المؤلف الخلفية التاريخية لدخول الإسلام في السودان الغربي والسودان الأوسط والشرقي ثم الحبشة والقرن الأفريقي . ففي السودان الغربي « كانت دولة غانة هي أول دولة عرفت الإسلام بشكل رسمي ودعت إليه ، ثم أعقبها دولة مالي الإسلامية التي ضمت تحت نفوذها دولة غانة التي أصبحت تضم مدينة غانة فقط بعد تدهورها . ولما ضعفت دولة مالي كانت قبائل الصنغاي التي تشعبت بالإسلام قد قويت ، وعمد حكامها إلى توسيع دولتهم تحت راية الجهاد من أجل نشر الإسلام ، وما كان منهم إلا أن مدوا نفوذهم نحو الغرب فضموا إليهم دولة مالي المنهارة ، من أجل تشكيل إمبراطورية إسلامية قوية ، كي تتمكن من مقاومة القبائل الوثنية في الجنوب » . ومن الواضح « أن الإسلام لم ينتشر في بلاد السودان لولا أن استقر الإسلام في شمال أفريقيا والصحراء الأفريقية الكبرى . ويرجع الفضل في عملية انتشار الإسلام واستقراره في الصحراء إلى المرابطين » . أما في الحبشة والساحل الأفريقي الشرقي ، فكان الإسلام قد « انتشر بشكل سلمي وبمحبة وبالتداخل مع السكان الأصليين عن طريق الهجرة والتجارة . وقد تغلغل الإسلام في الساحل الشرقي كله امتداداً من باجون في ساحل باندر حتى موزمبيق وجزر القمر » .

وفي هذا الفصل إشارة مهمة إلى « سبل انتشار الإسلام في أفريقيا » حددها المؤلف بالنقاط التالية ، أولاً : دور التجار في نشر الإسلام ، ثانياً : الدعاة والعلماء ، ثالثاً : الأربطة ، رابعاً : حركات الفتح .

أما « الكيانات السياسية الإسلامية في أفريقيا جنوب الصحراء » . فهي موضوع الفصل الرابع . وكان ظهورها لأول مرة في تاريخ المنطقة كنتيجة طبيعية لظهور الإسلام فيها . واتخذت بعد قيامها مظهراً إسلامياً واضح المعالم يتمثل بخروج الملوك المسلمين إلى الحج ، ثم في اتصافهم بالقوى الإسلامية والتشبه بنظم حكمهم ، ثم باتخاذهم اللغة العربية وسيلة للأداء والتعبير الرسمي ، ثم بتبنيهم سياسة الجهاد ، وأهم هذه الكيانات هي :

أولاً : كيانات السودان الغربي (دولة غانة - امبراطورية مالي - امبراطورية الصنغاي) .

ثانياً : كيانات السودان الأوسط (امبراطورية البرنو - كانم) .

ثالثاً : كيانات السودان الشرقي والحبشة وساحل أفريقيا الشرقي (العبدلات - دولة الفونج - مملكة شوا - مقديشو - كلوة) .

ويتطرق الفصل الخامس إلى « الحياة الاقتصادية » ، بما فيها : التجارة والزراعة والصناعة والصيد والرعي . فبعد دخول الإسلام واستقراره في أفريقيا جنوب الصحراء ، شهدت الجوانب الاقتصادية بشكل عام والتجارة بوجه خاص تطوراً جديداً وشاملاً . وأدى ازدهار التجارة إلى ظهور نوع من الترابط التين بين الوطن العربي والإسلامي مع أقاليم بلاد السودان ، لأن التجارة كانت ومازالت من أهم الوسائل التي تعمل على تسهيل مهمة التبادل الحضاري والفكري بين الأمم . وكانت التجارة تتم بالمبادلة وبطريقة التجارة الصامتة حيث يبدل الملح بالذهب . أما أهم السلع التي نشطت تجارتها بعد الإسلام والتي كانت تصدرها بلاد السودان للعالم الإسلامي فهي (الذهب والعبيد) . فقد كان الذهب هو المنشط الأساسي للتجارة الإسلامية والعصب الذي حرك التطور العالمي في العصر الوسيط ، نظراً لأن ذهب السودان كان المورد الأساسي الذي يغذي مصانع ضرب العملة الذهبية . ومن الصادرات الأخرى : التوابل وأنياب الفيل وريش النعام والأخشاب والعطور والافاوية ، أما أهم الواردات فكان الملح الذي يستخدم في تحفيف الطعام والمحافظة عليه . إضافة إلى الأقمشة والحلي والتمور ...

أما بالنسبة إلى الزراعة ، فقد كانت طبيعة أفريقيا مناسبة لزراعة أنواع عديدة من الحبوب ، نظراً لتوفر مصادر المياه العديدة سواء كان ذلك بوجود أنهار عديدة كالنيل والنيجر والسنغال أو وجود مصادر أخرى للمياه كتوفر العديد من الواحات والبحيرات (كبهيرة تشاد الكبيرة) في السودان الأوسط . مع توفر مياه الأمطار الغزيرة . أما أهم المحاصيل الزراعية التي عرفت في المنطقة فهي الذرة والأرز والقمح إضافة إلى زراعة القطن وأشجار جوز الهند والبرتقال والموز ...

أما الصناعة فكانت هي الأخرى مزدهرة ، ومن أشهرها صناعة النسيج والجلود والصابون والأخشاب والتعدين ...

ونظراً لتوفر عوامل طبيعية مناسبة ، من أرض ومياه ، فقد نمت الأعشاب بكثرة واستمرت

حياة الغابات الكثيفة مما قدر لأنواع من الحيوانات العيش في تلك المناطق . وهكذا قُدر لأفريقيا جنوب الصحراء أن تكون من الموارد الأساسية لتوريد العديد من الحيوانات للعالم .

ويتمهي الكتاب بالفصل السادس والموسوم بـ « النظم الإدارية » . وتشمل نظام الحكم وإدارة الدولة والقضاء والجيش وتنظيماته .

كان نظام الحكم في بلاد أفريقيا جنوب الصحراء بعد الإسلام ، بشكل عام ، وراثياً ملكياً ، ولكنه بدا فيه نوع من أنواع الانتخاب ، وربما انتقل الحكم من فرع إلى آخر ، وربما انتقل الحكم إلى أحد رجال الدولة الكبار (كالوزير والأمير) ممن كان معروفاً بالشجاعة والمقدرة . وكان للملك (السلطان) في بلاده وعلى شعبه مطلق الصلاحيات ، ولم يحدد نفوذه وصلاحياته سوى القاضي المسلم . أما مجالس السلطان مع شعبه فكانت بشكل عام عامرة بالحضور من مختلف الطبقات . وإذا جلس السلطان جلس حوله العلماء والقضاة والطبقة العليا من رجالات الدولة ويحيط بهم السلاح والحراس من كل جانب .

أما إدارة البلاد فكانت من قبل موظفين لا يباشرون أعمالهم في مكاتبهم ولكن في حضرة الملك ، الذي كان يقضي معظم يومه في إدارة بلاده والنظر في المظالم والإشراف على الجيش . وقد ظهرت العديد من المناصب الإدارية منها : وظيفة (النائب) وهو لقب يطلق على القائم مقام السلطان وعرف محلياً في دولة مالي (قنجا) . ثم تأتي وظيفة الحاجب الذي كان وسيطاً بين السلطان ورعيته . وهناك الوزير أيضاً .

أما القضاء فهو منصب إسلامي بحت ، ويتمتع القاضي باحترام كبير جداً من قبل الزوج المسلمين . وكثيراً ما كان السلطان يستشير القاضي ويطلب منه النصيح والإرشاد ، وقد تمتع القاضي بصلاحيات خاصة لحفظ المؤسسات الدينية والتعليمية ، وفي تعيين الأئمة وإصدار الفتاوى وكثيراً ما كان يتولى بناء المساجد والمدارس أو توسيعها . أما تعيين القضاة فكان يتم بشكل عام بأمر ومشورة السلطان الذي كانت بيده مطلق الصلاحيات ، وكانت له وحده صلاحية النظر في القضايا الإجرامية ، وخاصة ما يتصل بالأمن العام وقضايا المساس بالدولة ، أما القاضي فكان ينظر في القضايا الشرعية وما يتصل بها .

أما بالنسبة للجيش ، فقد كان الاهتمام به ضرورة من الضرورات التي أملت عليها طبيعة الحال في المنطقة بعد انتشار الإسلام ، حيث برزت عملية الجهاد بين دول الإسلام والدول الوثنية ، وعليه فقد أصبح لهذه الكيانات جيش ثابت ومنظم إضافة إلى العساكر الاحتياطية ، وهم

المتطوعون الذين كانوا يشتركون في الحروب إلى جانب العساكر النظامية لأسباب مصلحية أو عقائدية محبة في الإسلام .

أما مكونات الجيش ، ففي غانة تألف معظمه من عناصر أساسية من قبيلة الملك الساراكولة ، وكان الملك هو القائد الأعلى للجيش . وفي مالي اتخذ الجيش صفة ثابتة وكان معظمه يتألف من شعب المللكة ومن القبائل الخليفة . وانقسم الجيش في معظم بلاد السودان والساحل إلى فرق عسكرية ، لكل فرقة قائد يرأسها . وهؤلاء القادة والأمراء إلى جانب الملك يشكلون القيادة العامة للجيش . وسلاح الجيش بشكل عام كان في الفترة المتقدمة القسي والنشابة وكذلك الدبابيس . وهناك فرقة الفرسان الذين يحملون في أيديهم الحراب وعلى أكتفاهم النشاب أما فرقة المشاة فأغلب أسلحتهم الحراب والسهم . أما أساليبهم في القتال فكانوا يعتمدون على الكر والفر وقد حدثت تطورات في أسلحة الجيش وتنظيماته في عصور مختلفة .

ويختتم المؤلف فصوله الستة بخاتمة يبين فيها فضل الإسلام على بلاد أفريقيا جنوب الصحراء وسكانها . إذ بفضلته تعرفوا على وحدانية الله تعالى وأقاموا كيانات سياسية مستقلة ، وامتلكوا ثقافة واضحة المعالم ، استمدوا أصولها من القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه الإسلامي .

ووضع المؤلف ثلاثة ملاحق في نهاية الكتاب : الملحق الأول خاص بالتعاريف المهمة الواردة في متن الكتاب مرتبة حسب حروف الهجاء . والملحق الثاني يتعلق بسلطنات الطراز الإسلامي في أرض الحبشة . أما الملحق الثالث فهو « رسائل متبادلة بين سلطان المغرب وحكام السودان الغربي » .



إن الكتاب - موضوع العرض - يعتبر مرجعاً لا غنى عنه لكل باحث أو قارئ لتاريخ الإسلام ، فهو رغم تناوله لفترة طويلة بمقياس البحث التاريخي - حوالي ستة قرون من تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء - في صفحات قليلة ، واعتماده التركيب دون التحليل في عرضه للكثير من الحقائق ، فإنه يبقى دليل عمل ومرشداً لمن يريد التخصص في دراسة جانب معين من جوانب الحياة في هذه المنطقة أو البحث في تاريخ إحدى دولها أو كياناتها السياسية . كما أن المؤلف قد أسدى خدمة كبيرة للمكتبة العربية والإسلامية ، في الوقت الذي تفتقر فيه إلى مثل هذه الكتب ، قياساً لما هو مكتوب بالعربية عن فترات تاريخية أخرى للإسلام ■


الفرق بين (مِنْ) التبعيضية

و (مِنْ) التبيينية

• تأليف : أحمد بن سليمان بن كمال باشا •

• تحقيق د. محمد صدين أبو الفتوح •

المقدمة :

(مِنْ) حرف من حروف الجر ، ولكل حرف من حروف الجر معنى يطلبه ويستفاد من قرينة في الكلام . 

وتأتي (مِنْ) لمعانٍ كثيرة ، قال النحاة عنها : أهم المعاني لـ (مِنْ) ابتداء الغاية ، فقد قال المبرد في كتابه المقتضب : (مِنْ) وأصلها ابتداء الغاية ، ولكنها في التبعيض راجع إلى هذا) . وقد تكون هذه العبارة غير صحيحة ويمكن إثبات ذلك عن طريق إحصاء (مِنْ) في القرآن وبيان معانيها فإني أرى أن الأصل فيها التبعيض ، حتى في حال كونها مزيدة في سياق النفي ، ولذلك يقول علماء اللغة عنها : إنها زيدت للتوكيد وهذا في مثل قوله تعالى ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) .

فطريق إفادتها التوكيد مع هذه النكرة التي أفادت العموم بنفسها أنّ (مِنْ) معناها التبعيض ، فإذا سُلِّط النفي على معنى التبعيض المستفاد من (مِنْ) انتفت البعضية ومن هنا جاء معنى التوكيد .

وتكررت (مِنْ) في القرآن الكريم كله في (٣٢٢١) ثلاثة آلاف ومائتين وواحد وعشرين موضعاً . فإذا قمنا بعملية إحصاء (مِنْ) في القرآن الكريم وبيان مرات تكرارها في كل معنى من معانيها سوف نجد أن تكرارها في معنى التبعية أكثر من غيرها ويكاد يكون هو الأصل في معانيها .

وإني إذ أدعو إلى هذا أقدم أولاً معنى (مِنْ) التبعية في القرآن الكريم من خلال رسالة في (الفرق بين (مِنْ) التبعية و (مِنْ) التبيين لأحمد بن سليمان بن كمال باشا) .

. التعريف بابن كمال باشا .

هو أحمد بن سليمان ، شمس الدين ، المعروف بابن كمال باشا زادة ، شيخ الإسلام ، رومى وحنفى المذهب^(١) ..

أُسْرته : كان جده كمال باشا زادة من أمراء الدولة العثمانية فنشأ ابن كمال في حجر العز والدلال ..

موطن ولادته : وُلد أحمد بن سليمان بن كمال باشا في أدرنة^(٢) ولم أجد في المراجع ما يشير إلى تاريخ ولادته ..

وفاته : توفي سنة ٩٤٠ هـ أربعين وتسعمائة هجرية في دار السلطنة القسطنطينية ، حيث كان مفتياً فيها إلى أن تُوفّي^(٣) .. وقيل : إنه تُوفّي سنة ٩٤٢ هـ اثنتين وأربعين وتسعمائة هجرية^(٤) ولكن أكثر المراجع اتفقت على أن وفاته في سنة ٩٤٠ هـ ..

أخلاقه ومكانته العلمية : كان صاحبَ أخلاق حميدة وأدب تام وعقل وافر ، قيل عنه : إنه الإمام العالم العلامة الرحلة الفهامة ، أوجد أهل عصره وجمال أهل مصره ، لم تر العيون من جمع كاله وفضله ، جعله الكفوي من أصحاب الترجيح من المقلدين القادرين على تفضيل بعض الروايات على بعض^(٥) ..

سبب انصرافه إلى العلم وانشغاله به : السبب في اشتغاله بالعلم أنه رأى مرة عند إبراهيم باشا ابن خليل وزير السلطان المجاهد ، بايزيد خان شخصاً رثَّ الهيئة خلق الثياب ، جاء وجلس فوق بعض الأمراء الكبار المتقدمين في الدولة ، فاستغرب ذلك وسأل عن السبب فيه !

فقال له : هذا رجل من أهل العلم . يُقال له : المولى لطفي ، فقال ابن كمال : أبلغ

العلمُ بصاحبه هذه المنزلة ، قليل له : وأزيد ، فانقطع ابن كمال من ذلك الحين إلى العلم ، إلى أن مَهر وصار إماماً في كل فن^(٦) ..

وأضيف إلى ذلك استعداده الذهني والنفسي وميله الشديد إلى القراءة والتحصيل ، ورغبته في أن يرسخ مكانة أسرته في مجتمعه بين الملوك والسلاطين على أساس العلم بجانب الجاه والسلطان لما رآه من منزلة العلماء في عصره بين الملوك والأمراء ..

شيوخه : ١ - المولى لطفي الرومي التوقاني .. ٢ - خطيب زادة .. ٣ - معروف زادة .. ٤ - المولى مصلح الدين القسطلاني^(٧) ..

ثقافته : قرأ مباني العلوم في أوائل شبابه ، وله يد طويلة في الإنشاء والنظم بالفارسية والتركية وصنف كتاباً بالفارسية على منوال كتاب كلستان وسماه بنكارستان ، وهو محاضرات في الأدب من كتب الأدب مثل كتاب العقد الفريد وعيون الأخبار وكان بارعاً في العلوم قلما يوجد فن إلا وله فيه مصنف أو مصنفات ..

مصنفاته : صنف مصنفات كثيرة في مختلف العلوم أذكر بعضها على سبيل المثال :

أولاً : في التفسير :

١ - تفسير القرآن العزيز (مخطوط) مكتبة سُراي طبقو زادة (استانبول برقم عام ٨٩٧٧) ..

٢ - حواش على أوائل تفسير البيضاوي (مخطوط) مكتبة سُراي طبقو زادة ، (استانبول) ..

٣ - الكلام على البسملة والحمدلة (مخطوط) مكتبة سُراي طبقو زادة (استانبول) ..

ثانياً : في الحديث :

١ - شرح الجامع الصحيح للبخاري (مخطوط) مكتبة سُراي طبقو زادة (استانبول) ..

٢ - شرح حديث الأربعين (مخطوط) مكتبة سُراي طبقو زادة (استانبول) ..

٣ - شرح مصابيح السنة للبغوي (مخطوط) مكتبة سُراي طبقو زادة (استانبول) ..

ان الخطاب لم يكن بالاسلام والمغفرة على ما
 هو ما بينهم وبين عبادة من الذنوب وذلك
 في اداة التبيين كيف قال في
 غير سورة نوح بعض فؤادكم وهو ما
 سبق فان الاسلام كما نلوا اخذكم به
 الاخره حيث اخذكم الاسلام عام فوجي
 للذنوب فاضرب في توجيه البصيرة
 لي ان اعتبره بالنسبة الى جميع ما كان قبل
 اسلام وبعده من جنس الذنوب وفصل
 في غير خطاب الكفرة ووجه المؤمنين
 جميع القرآن تفرقة بين الخطابين فقال
 ايضا وفي تفسير سورة ابراهيم
 لعل المعنى فيه ان المغفرة حيث جاءت
 خطاب الكفار مرتبة على الايمان و
 حيث جاءت في خطاب المؤمنين
 مشغوعة بالاعتق والتجنب عن المعاصي
 فذلك فيتنوول اكره من الخطاب

على ان يغفر له ان الشكر في الذكر انما
 يتم ان لو لم يكن الخطاب لكفرة على العموم
 وقد جاء ذلك في قوله في سورة الاحقاف
 قل للذين كفروا ان غفرت لكم ما كفرت
 وقال الكلبي كتب وضي قاتل حرة رضى و
 احيا به من سكة انا ذنبا وقد سمعنا كنوا
 والمؤمنين لا يدعون مع الله الايات
 وقد فعلت كل ذلك فزت الامن تاب
 وامن وعمل صالحى فبعت اليهم فقا لوالا
 فومن ان لا عمل صالحى وذا رواية فقال
 الوحي صدى بشرط شديد لعل لا اقدر عليه
 فزت ان لا يغفر ان يشرك به ويغفر
 ما دون ذلك لمن يشاء فقالوا نحن ذ انا
 نكون ممن اهل المسية فزت ان لا يغفر
 الذنوب جميعا فاقبلوا مسلمين و
 قال الامام البيضاوى وتعبيره بالتوبة
 خلاف التوبة ويدل على اطلاقه في جملة اعداء

قوله ان لا يغفر ان يشرك به
 والتعليل بقوله انه هو الغفور
 ارحيم على الجاهل
 والحمد لله
 على انهم

ثالثاً : في التاريخ :

- ١ - طبقات الفقهاء (مخطوط) مكتبة سُراي طبقو زادة (استانبول) ..
- ٢ - طبقات المجتهدين (مخطوط) مكتبة سُراي طبقو زادة (استانبول) ..

رابعاً : في الأصول :

- ١ - تعليقة على أوائل التلويح للفتازاني (طبع) .
- ٢ - تغيير التنقيح على تنقيح الأصول (طبع) .

خامساً : في اللغة :

له عدة رسائل في اللغة ، قيل : إنها تزيد على ثلاثمائة رسالة في اللغة ، والذي طبع في اللغة منها زهاء أربعين رسالة ، منها :

(الكلمات المعربة ، كاد في أصل الوضع ، والتوسع في اللغة ، وفي تحقيق التغليب ، وفي أن التوسع شائع ، وفي تحقيق المشاكلة ، وفي رفع ما يتعلق بالضمائر من الأوهام^(٨)) .. .

من معاصريه : من معاصريه ، جلال الدين السيوطي ، واختلف العلماء في أيهما أدق نظراً ، قال عنه صاحب الفوائد البية : كان في كثرة التأليف وسعة الاطلاع في الديار الرومية كجلال الدين السيوطي في الديار المصرية ، وعندي أنه أدق نظراً من السيوطي وأحسن فهماً .

ولكن صاحب الفوائد استدرك قائلاً : وهو وإن كان مساوياً للسيوطي في سعة الاطلاع في الأدب والأصول ولكن لا يساويه في فنون الحديث ، فالسيوطي أوسع نظراً وأدق فكراً في هذه الفنون منه بل من جميع معاصريه^(٩) ..

المناصب التي شغلها :

- ١ - تولى التدريس والقضاء بمدينة أدرنة وولاية الأناضول ..
- ٢ - تولى أخيراً القضاء في القسطنطينية وصار بها مفتياً إلى أن توفي ..

تاريخ دخوله مصر :

كان ابن كمال باشا قاضياً بالمعسكر في ولاية الأناضول ، ولما اتجه سليم الأول إلى الشام سنة ٩٢٢ هـ صحبه ابن كمال باشا ..

وفي الثامن من محرم سنة ٩٢٣ هـ دخل السلطان سليم القاهرة لتخليصها من الجراكسة
وبصحبته ابن كمال ، وهناك التقى بعلماء مصر ولقي منهم حفاوة وتكريماً ، وتناظروا وتباحثوا
معه . (١٠)

وبعد ذلك يحتمل أن يكون ابن كمال باشا قد عاد إلى القسطنطينية في شهر شعبان سنة
٩٢٣ هـ الموافق أوائل سبتمبر ١٥١٧ م ..

نسخ المخطوطات وتوثيقها :

النسخ التي عثرت عليها هذه المخطوطة ثمان :



١ - واحدة مطبوعة ، بدون تحقيق ضمن عدة رسائل لابن كمال باشا في كتاب برقم ٢١٠/٨ بالمكتبة المركزية بجامعة الملك سعود بالرياض، نشره أحمد جودت، مؤرخ تركي وصاحب جريدة إقدام بالآستانة ، طبعه في مطبعة إقدام بدار الخلافة العلية سنة ١٣١٦ هـ ، وقد جعلت هذه النسخة هي الأصل لطبعها ، ورمزت لها بالرقم (١) ..

٢ - ثلاث نسخ من جامعة الملك سعود ، المكتبة المركزية ، قسم المخطوطات ، الأولى ، كاملة وبمعنوان : « رسالة في تفسير (من) التبعية » للمولى الشهير بابن كمال باشا ، وهي برقم ٨/٢٣٨ وصفحاتها أربع ، الصفحات الثلاث الأولى ، كل منها ٢١ سطراً والرابعة عشرون سطراً .. وفي نهايتها تاريخ الانتهاء من نسخها بالعبرة الآتية : (تمت الرسالة بعون الله وفرغ منه في آخر شهر رجب سنة ٩٥٩ هـ) ورمزت لها بالرقم (٢) ..

الثانية ، كاملة أيضاً ، وبدون عنوان ، ضمن مجموعة برقم ١٦٦٨ وكلها منسوبة إلى ابن كمال باشا ، وصفحاتها اثنتا عشرة صفحة ، الصفحة الأولى بها خمسة عشر سطراً ، وباقي الصفحات كل منها سبعة عشر سطراً والسطر الأول من الصفحة الخامسة والسادسة غير واضح ، وفي نهايتها عبارة (والحمد لله على اتمام) .

والثالثة ، ناقصة ، ورقة واحدة عدد أسطرها ٢١ ، وبمعنوان : (رسالة تتعلق بـ (مِنْ) التبعية لابن كمال باشا زادة .. وهي برقم ٤٧٦٩ ضمن مجموعة لابن كمال باشا ، ولم يذكر اسم الناسخ في هذه النسخ الثلاث ، وقد رمزت لهذه النسخة بالرقم (٤) ..

٣ - أربع نسخ من المكتبة العربية للمخطوطات النادرة بجامعة برنستون بأمريكا ، وهي كالآتي :

الأولى ، برقم ٢٩٠٤ ، وهي أربع صفحات ، الصفحة الأولى ٢١ سطراً .. والثانية والثالثة كل منهما ٢٣ سطراً ، والرابعة ٢٤ سطراً .. والعنوان فيها غير واضح ، والصفحة الثانية بها طمس خفيف وفي نهايتها عبارة (قد تم : الرسالة التبعية لابن كمال باشا .. رحمه الله رحمة واسعة) ورمزت لها بالرقم (٥) ..

الثانية ، برقم ٨٣٢ وهي ست صفحات واضحة ، بالصفحة الأولى عشرون سطراً وفي كل من الثانية والثالثة والرابعة والخامسة ٢١ سطراً .. أما السادسة ففيها أربعة عشر سطراً ، وعنوانها : هذه رسالة في التبعية لابن كمال باشا ، ورمزت لها بالرقم (٦) ..

الثالثة ، برقم ١٠٢٨ وهي ست صفحات ، بالصفحة الأولى أربعة عشر سطراً ، وفي كل من الثانية والثالثة والرابعة والخامسة واحد وعشرون سطراً ، أما الصفحة السادسة ففيها ثمانية عشر سطراً ، وبها هامش لا يخص الرسالة وإنما يخص رسالة قبلها خاصة بالأحكام الفقهية ، وفي نهايتها : (تمت الرسالة التبعية بعون الله تبارك وتعالى وتوفيقه) ، وقد رمزت لها بالرقم (٧) ..

الرابعة ، برقم ٣٣٣٠ ، وبدون عنوان وبها خمس صفحات بالصفحة الأولى خمسة عشر سطراً وفي كل من الثانية والثالثة والرابعة ٢٣ ثلاثة وعشرون سطراً .. أما الخامسة فيها سبعة أسطر ، والعبارة في نهايتها (تمت الرسالة) وقد رمزت لها بالرقم (٨) ..

● التحقيق ●

رسالة في الفرق بين « من » التبعية و « من » التبعية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لولاه والصلاة على نبيه ..

اعلم^(١) أن التبعية المقبرة في (من) التبعية هي التبعية في الأجزاء لا التبعية في الأفراد على خلاف التكبير الذي يكون للتبعية على زعم الفاضل الشريف ،^(٢) فإن المتبصر فيه هي التبعية في الأفراد لا التبعية في الأجزاء وبه تفارق^(٣) « من » التبعية « من » التبيينية على ما صرح به الرضي حيث قال^(٤) في شرح الكافية : وتعرفها أي (من)^(٥) البانية بأن يكون قبل (من) أو^(٦) بعدها متبهم يصلح أن يكون المجرور بـ « من » تفسيراً له ، ويقع^(٧) ذلك المجرور على ذلك المتبهم ، كما يقال مثلاً للرجس : إنه الأوثان وللعشرين^(٨) إنها الدراهم ، في قولك عشرون من الدراهم^(٩) ، وللضئير في قولك : عز من قائل : إنه القائل ، بخلاف التبعية ، فإن المجرور بها لا يطلق على ما هو مذكور قبلها أو بعدها ، لأن ذلك المذكور بعض المجرور ، واسم الكل لا يقع على البعض ، فإذا قلت : عشرون من الدراهم ، فإن أشرت بالدراهم إلى دراهم معينة أكثر من عشرين ، فمن معينة ، لأن العشرين بعضها ، وإن قصدت بالدراهم جنس الدراهم فهي معينة لصحة^(١٠) إطلاق المجرور إلى^(١١) العشرين .. إلى هنا كلامه ..

وَأَمَّا أَنَّ الْمُتَعَبِّرَ فِي التَّكْيِيرِ ^(٢٧) لِلتَّبْيِضِ هُوَ ^(٢٨) التَّبْيِضُ ^(٢٩) فِي الْأَفْرَادِ عَلَى خِلَافِ مَا فِي (مِنْ) التَّبْيِضِ ، فَقَدْ صَرَّحَ بِهِ الْفَاضِلُ الشَّرِيفُ فِي الْحَوَاشِي الَّتِي عَقَّلَهَا عَلَى شَرْحِ التَّلْخِصِ وَبَيَّنَّ عَلَيْهِ الرَّدَّ عَلَى الشَّارِحِ فِي : ^(٣٠) وَكَتْلِيلِ ^(٣١) الْمُدَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَبَّحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ ^(٣٢) ذَكَرَ لَيْلًا مَعَ أَنَّ الْإِسْرَاءَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاللَّيْلِ ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَقْلِيلِ الْمُدَّةِ وَأَنَّهُ أَسْرَى فِي بَعْضِ اللَّيْلِ ، حَيْثُ قَالَ : الدَّلَالَةُ عَلَى التَّبْيِضِ مَذْكُورَةٌ فِي الْكَشَافِ ، وَاعْتَرَضَ عَلَيْهِ بِأَنَّ التَّبْيِضَ الْمُسْتَفَادَ مِنَ التَّكْيِيرِ هِيَ الْبُضْيَةُ فِي الْأَفْرَادِ لَا الْبُضْيَةُ فِي الْأَجْزَاءِ ، فَكَيْفَ يُسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ : لَيْلًا : أَنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ فِي بَعْضٍ مِنْ أَجْزَاءِ لَيْلَةٍ ، ^(٣٣) فَالْصَّوَابُ أَنَّ تَنْكِيرَهُ لَدَفْعِ تَوَهُّمِهِ كَوْنُ الْإِسْرَاءِ فِي لَيْلٍ أَوْ لِإِفَادَةِ تَعْظِيمِهِ . ^(٣٤)

وَأَمَّا قُلْنَا : فِي زَعْمِهِ لِأَنَّهُ تَخَالَفَ فِيهِ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ ^(٣٥) فَإِنَّهُ قَالَ فِي دَلَالِ الْإِعْجَازِ : إِنَّ التَّكْيِيرَ فِي « حَيَاةٍ » فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ^(٣٦) ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْحَيَاةَ بَعْضُ حَيَاةِ الْمَهْمُومِ ^(٣٧) بِقُتْلِهِ ، وَالْعَلَامَةُ الزَّرْخَشَرِيُّ ^(٣٨) ، فَإِنَّهُ صَرَّحَ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْكَشَافِ ^(٣٩) بِأَنَّهُ قَدْ يُقْصَدُ بِالتَّكْيِيرِ الدَّلَالَةُ عَلَى التَّبْيِضِ فِي الْأَجْزَاءِ مِنْهَا مَا ذَكَرَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَبَّحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ ..

وَمِنْهَا مَا ذَكَرَهُ فِي تِلْكَ السُّورَةِ أَيْضًا حَيْثُ قَالَ : فَإِنْ قُلْتُ ^(٤٠) هَلَّا عَرَفَ الزُّبُورَ ، كَمَا عَرَفَ فِي قَوْلِهِ ^(٤١) : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ ^(٤٢) ﴾ قُلْتُ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الزُّبُورُ ^(٤٣) وَزُبُورًا ، ^(٤٤) كَالْعِبَاسِ وَعِبَاسٍ ، وَالْفَضْلِ وَفَضْلٍ وَأَنْ يُرِيدَ ^(٤٥) : وَآيَاتِنَا دَاوُدَ بَعْضَ الزُّبُورِ وَهِيَ الْكُتُبُ ، وَأَنْ يُرِيدَ مَا ذَكَرَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مِنَ الزُّبُورِ ^(٤٦) ، فَسَمِيَ ذَلِكَ زُبُورًا لِأَنَّهُ بَعْضُ الزُّبُورِ كَمَا سُمِّيَ بَعْضُ الْقُرْآنِ قُرْآنًا ^(٤٧) ..

وَمِنْهَا مَا ذَكَرَهُ فِي سُورَةِ الْحَجَرَاتِ ^(٤٨) وَتَنْكِيرِ الْقَوْمِ وَالنِّسَاءِ ، يَحْمِلُ مَعْنَيْنِ ، ^(٤٩) أَنْ يُرَادَ : لَا يَسْخَرُ بَعْضُ ^(٥٠) الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِنْ بَعْضٍ ، وَأَنْ يُقْصَدَ إِفَادَةُ الشُّيُوعِ ^(٥١) وَأَنْ يَصِيرَ كُلُّ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ مَنِيَّةً عَنِ السَّخَرِيَّةِ .. ^(٥٢)

وَخَالَفَ الْمَقُولَ أَيْضًا ، ^(٥٣) لِأَنَّ مَعْنَى التَّكْيِيرِ فِي الْأَصْلِ التَّقْلِيلُ وَاسْتِعْمَالُهُ فِي التَّبْيِضِ بِاعْتِبَارِ تَضَمُّنِهِ التَّقْلِيلَ وَلَا اخْتِصَاصَ ^(٥٤) لِهَذَا ^(٥٥) الْإِعْتِبَارِ بِأَحَدٍ وَجَهَيِ الْبُضْيَةِ .. ^(٥٦)

ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ الْبُضْيَةَ الَّتِي تَدُلُّ ^(٥٧) عَلَيْهَا « مِنْ » الْبُضْيَةُ هِيَ الْبُضْيَةُ الْمَجْرُودَةُ الْمُنَافِيَّةُ لِلْكَلِيَّةِ لَا الْبُضْيَةُ الَّتِي تَنْتَظِمُ مَا فِي ^(٥٨) ضَمَنِ الْكَلِيَّةِ ، يُرْشِدُكَ إِلَى هَذَا أَنَّهُ قَالَ صَاحِبُ

الكشاف في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُتَفَقَّهُونَ ^(٥٤) ﴾ : وأدخل « مِنْ » التبعيضية صيانة لهم وكفًا عن الإسراف والبذير المنهي عنه ^(٥٥) ولم يتكرر عليه أحد من الناظرين فيه ..

ومبنى ما ذكره على أن مدلول « مِنْ » التبعيضية هو ^(٥٦) البعضية المجردة عن الكلية وأيضاً يرشد ^(٥٧) إليه زيادة ^(٥٨) « مِنْ » التبعيضية في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَنُوا بِهِ ^(٥٩) يُغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ^(٦٠) ﴾ فإنه لو كانت دلالتها على مطلق البعضية الشاملة لما في ضمن الكلية لصاع تلك الزيادة وفات الدلالة على أن المغفور بالإيمان بعض الذنوب لا كله ..

قال الإمام البيضاوي في تفسيره بعض ذنوبكم ، وهو ما يكون عن ^(٦١)خالص حق الله تعالى ، فإن المظالم لا تُغفر بالإيمان ^(٦٢)، بل نقول : لو كان مدلول « مِنْ » المذكورة البعضية الشاملة لما في ضمن الكلية المجمعة معها لما تحقق الفرق بينها وبين « مِنْ » البيانية من جهة الحكم ولما تيسر ^(٦٣) تمشية الخلاف بين الإمام ^(٦٤) وصاحبيه ^(٦٥) فيما إذا قال : طَلَّقِي نَفْسَكَ مِنْ ثَلَاثٍ مَا شِئْتَ ، بناء على أن « مِنْ » للتبعض عنده وللبيان عندهما ، قال في الهداية ^(٦٦) : وإن قال لما طَلَّقِي نَفْسَكَ مِنْ ثَلَاثٍ مَا شِئْتَ فلها أن تُطَلَّقَ نفسها واحدة وثنتين ولا تطلق ثلاثاً عند أبي حنيفة ..

وقالا : تُطَلَّقُ ثلاثاً إن شَاءَتْ : لأن كلمة « مَا » محكمة في التعميم ، وكلمة « مِنْ » قد تستعمل للتمييز فيحمل على تمييز الجنس ، ولأبي حنيفة أن كلمة (مِنْ) حقيقة في التبعض ، و (مَا) للتعميم ، فيعمل بهما ، ^(٦٧) انتهى ..

ولا خفاء في أن بناء الجواب المذكور على كون « مِنْ » للتبعض إنما يصح إذا كان مدلولها البعضية المجردة عن الكلية المنافية .

وبا عجباً لصاحب ^(٦٨) التوضيح في تقرير ^(٦٩) الخلافية المذكورة حيث استدلل على أولوية التبعض بتيقنه ، قائلًا ^(٧٠) : التبعض ^(٧١) مُتَيَقَّنٌ ، لأن « مِنْ » إذا كان للتبعض فظاهراً ، وإن كان للبيان فالبعض مراد ، فإرادة البعض مُتَيَقَّنَةٌ ^(٧٢) ، ولم يذَرِ أن البعض المراد قطعاً على تقدير ^(٧٣) البيان ، ^(٧٤) البعض العام لما في ضمن الكل لا البعض المجرد ، المراد ههنا ..

فبالتعليل على الوجه المذكور لا يتم التقريب بل لا انطباق بين التعليل والمعلل فتأمل .. ولقد أصاب الفاضل الفتازاني ، ^(٧٥) حيث قال فيما علقه على التلويح مستدلاً على أن

البعضية التي تُدَلُّ عليها « من » ، هي البعضية المجردة المنافية للكلية لا البعضية التي هي أعْمُ من أن تكونَ في ضَمَنِ الكلِّ أو يُلَوِّنه ،^(٧٦) لاتِّفَاقِ التَّحَاوِي على ذلك حيث احتاجوا إلى التوفيق بين قوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾^(٧٧) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾^(٧٨) .. بأن^(٧٩) قالوا : لا يَتَعَدُّ أن يغفر جميع الذنوب لقوم وبعضها لقوم ، أو يخطأ البعض لقوم نوح - عليه السلام - وخطاب الجميع لهذه الأمة ، ولم يذهب أحد^(٨٠) إلى أن التبعض لا ينافي الكلية ..^(٨١)

ولم يُصَبِّب الشريفة الفاضلة في ردِّه عليه قائلاً : وفيه بحث إذ الفاضل الرضي صرَّح بعدم المنافاة بينهما حيث قال :

ولو كان أيضاً خطاباً إلى أمة واحدة فغفران^(٨٢) بعض^(٨٣) الذنوب لا يناقض غفران كلها ،^(٨٤) بل عدم غفران بعضها يناقض غفران كلها ، لأن قول^(٨٥) الرضي غير مرضي ، لما عرفت أن مدلول « من » : البعضية^(٨٦) المجردة المنافية للكلية ،^(٨٧) ففي قوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ دلالة على عدم غفران بعض الذنوب وتصريحه بعدم المنافاة بينهما لا يَنقُذُ الاحتجاج باتِّفَاقِ السلف الثابت بإظهارهم الاحتياج^(٨٨) إلى التوفيق المذكور ..

ثم^(٨٩) إن في تحريره قصوراً ، فإن عبارة أيضاً في قوله : ولو كَانَ أيضاً خطاباً إلى أمة واحدة لم يصب محزها وكان حَقُّ التعبير أن يُقَالَ وعلى تقدير أن يَكُونَ الخطاب إلى أمة واحدة ... إلخ ..

وكذا لم يُصَبِّب صاحب^(٩٠) المقاليد في ردِّ ما نقله ابن الحاجب ، حيث قال : وَحُجَّةُ أَبِي الحسن^(٩١) أنه قد جاء : إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، فلو لم يُحْمَلْ قوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ ، على الزيادة لَحُمِلَ على التبعض فيلزم التناقض ،^(٩٢) كذا قاله ابن الحاجب ، وهو غير سديد ،^(٩٣) لأنَّ المَوْجِبَةَ الجُزْئِيَّةَ مِنْ لَوَازِمِ المَوْجِبَةِ الكلية ولا تَنَاقُضُ بين اللزوم والملزوم ،^(٩٤) لأنَّ مَبْتَأَهُ أيضاً^(٩٥) الغفول عن أنَّ مدلول « من » التبعية هي البعضية المجردة عن الكلية المنافية لها لا الشاملة^(٩٦) لما في ضمنها ..

واعلم أن الإختبارَ عَنْ مَقَرَّةِ بعضِ الذُّنُوبِ وَرَدَ في القرآن في مواضع ، منها قوله تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ ومنها قوله تعالى في سورة الأحقاف : ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دُعَاءِي اللَّهَ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ ومنها قوله تعالى في سورة نوح

- عليه السلام - ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا مَا يَأْمُرُكُمْ مِنْ دُونِكُمْ ﴾ وما ورد في قوم نوح - عليه السلام - إنما هو هذا ..

وأما ما ذُكر في سورة الأحقاف فقد وَرَدَ في الجَنِّ،^(٩٧) وما ذُكر في سورة إبراهيم فقد وَرَدَ في قوم نوح - عليه السلام - وعاد وتعود على ما أفصح عنه سياق القول المذكور ..

وإِذَا وَقَفْتُ عَلَى هَذَا فَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ قَوْلَ النَحْوِيِّينَ : خُطَابُ الْبَعْضِ لِقَوْمِ نُوْحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَخُطَابُ^(٩٨) الْجَمِيعِ^(٩٩) لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِمَّا لَا وَجْهَ لَهُ ، لِأَنَّ مَبْنَاهُ عَلَى أَنَّ لَا يَكُونُ خُطَابُ الْبَعْضِ وَإِرَادًا^(١٠٠) لِقَوْمٍ آخَرِينَ ،^(١٠١) وَلَا صِحَّةَ لذلِكَ الْمَبْنَى عَلَى مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ ..

والمعجبُ أَنَّ الْإِمَامَ الْبَيْضَاوِيَّ مَعَ تَصْرِيحِهِ فِي^(١٠٢) سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ وَتَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَحْقَافِ بِأَنَّ الْمَظَالِمَ لَا يَجِبُهَا الْإِسْلَامُ وَالْمَغْفُورُ بِهِ إِنَّمَا هُوَ مَا بَيْنَهُ تَعَالَى وَمَا بَيْنَ^(١٠٣) عِبَادِهِ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَلذلِكَ جِيءَ بِأَدَاةِ التَّبَعِضِ ، كَيْفَ قَالَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ نُوْحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَعْضُ ذُنُوبِكُمْ ، وَهُوَ مَا سَبَقَ ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُهُ ، فَلَا يُؤَاخِذُكُمْ بِهِ فِي الْآخِرَةِ حَيْثُ أَخَذَ مَا يَجِبُهُ الْإِسْلَامُ غَائِلًا لَتَوْعِي الذُّنُوبِ ، فَاضْطَرَّ^(١٠٤) فِي تَوْجِيهِ الْبَعْضِ إِلَى أَنَّ اعْتِبَارَهُ^(١٠٥) بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَمِيعِ مَا كَانَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ مِنْ جِنْسِ الذَّنْبِ ،^(١٠٦) وَقِيلَ : جِيءَ بِهِ (مِنْ) فِي خُطَابِ الْكُفْرَةِ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ تَفَرُّقًا بَيْنَ الْخَطَايَا ..^(١٠٧)

وَقَالَ الْبَيْضَاوِي فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ : وَلَعَلَّ الْمَعْنَى فِيهِ أَنَّ الْمَغْفِرَةَ حَيْثُ جَاءَتْ فِي خُطَابِ الْكُفَّارِ رُبَّةً عَلَى الْإِيمَانِ وَحَيْثُ جَاءَتْ فِي خُطَابِ الْمُؤْمِنِينَ مَشْفُوعَةً بِالطَّاعَةِ وَالتَّجَنُّبِ عَنِ الْمَعَاصِي وَنَحْوِ ذلِكَ فَيَتَأَوَّلُ الْخُرُوجَ عَنِ الْمَظَالِمِ ..^(١٠٨)

وَلَا يَخْفَى^(١٠٩) عَلَيْكَ أَنَّ التَّفَرُّقَ الْمَذْكُورَ ، إِنَّمَا يَتِمُّ أَنْ لَوْ لَمْ يَجِيءِ الْخُطَابُ عَلَى^(١١٠) الْكُفْرَةِ عَلَى الْعُمُومِ ، وَقَدْ جَاءَ كذلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ ﴿ .. قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتُوبُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾^(١١١) .. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ^(١١٢) : كَتَبَ وَخَشِيَ قَاتِلُ حِزْبَةٍ وَأَصْحَابُهُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مِنْ مَكَّةَ ، إِذَا تَدِمْنَا وَقَدْ سَمِعْنَاكَ تَقْرَأُ ، وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ...^(١١٣) الْآيَاتِ ،^(١١٤) وَقَدْ قَعَلْنَا كُلَّ ذلِكَ ، فَزَلْتَ ، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ فَقَالُوا : لَا تَأْمَنُ أَنْ لَا نَعْمَلَ صَالِحًا ، وَفِي رَوَايَةٍ ، فَقَالَ الْوَحْشِيُّ^(١١٥) : هَذَا شَرْطٌ شَدِيدٌ لَعَلِّي لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَزَلْتَ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ^(١١٦) .. ، فَقَالُوا : نَخَافُ أَنْ لَا نَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْمَشِيعَةِ ،

فنزلت ، إن الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ،^(١١٨) فَأَقْبَلُوا مُسْلِمِينَ ..^(١١٩)

وقال الإمام البيضاوي : وتقيده بالتوبة خلافاً للظاهر وَيَذُلُّ على إطلاقه فيما عدا الشرك ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ ، والتعليل بقوله : إنه هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ على^(١٢٠) المبالغة^(١٢١) ..

التعليق :

١ - عرض المؤلف رأي العلماء في الفرق بين (مِنْ) التبعضية ، (مِنْ) التبيينية فذكر كلام الرضى في الكافية حول الفرق بينهما بأن (مِنْ) التبيينية تعرف بأن يكون قبل (مِنْ) أو بعدها مبهم يصلح أن يكون المجرور بها تفسيراً لما قبلها . وهذا هو ما اتفق عليه العلماء في كتب اللغة والتحو .

ولكنه حدث خلاف بين العلماء في كتب الأصول والفقه بسبب معنى (مِنْ) وكونها بين التبعيض والبيان .

فاللغوي التي وضعت لـ (مِنْ) في اللغة متصورة لا عن طريق الجوهري والأساس فيها وإلا كانت أصلية فيها . فمثلاً في قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (النور ٥٥) قيل : إن (مِنْ) بيانية ، أي الذين هم أنتم ، لأن الخطاب للمؤمنين ، فهذا لم يتصور فيها التبعيض . (البرهان في علوم القرآن ج ٤ ص ٤١٧) ، وقد يتصور فيها التبعيض ويقدر الخطاب عاماً للمؤمنين وغيرهم ، ومن هنا كان الخلاف بين أبي حنيفة وصاحبيه في المسألة التي ذكرها ابن كمال باشا في رسالته هذه ، وأيضاً بين علماء اللغة .

ثم نجد الأخفش في كتابه معاني القرآن (ج ٢ ص ١٤٣) يقول في قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا ثَبَّتْنَا فِي الْأَرْضِ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا ﴾ ، وإن شئت جعلته على قوله : ما رأيت من أحد ، تريد ما رأيت أحداً ، وهل جاءك من رجل ، تريد : هل جاءك رجل ، فهو بذلك جعل (مِنْ) زائدة في الآية ، ولكن الحقيقة كما بين ابن كمال في الرسالة ، أن (مِنْ) هنا بيانية ، ذلك أن الآية أولاً تشير إلى ما تنبت الأرض من بقلها وقثائها إجمالاً وعاماً في الاسم للوصول (ما) دون بيان وإيضاح جنس المزروع وذلك في قوله (يخرج لنا لما تنبت الأرض) فجاءت الآية بعد ذلك ببيان ما يراد جنسه بقوله تعالى (من بقلها وقثائها) ، ولم يذكر المفعول للمفعول (يخرج) لتعظيم شأنه عند اليهود ، وهو المفهوم من سياق الآية كما أنه إذا جعلنا المفعول مفعولاً على تقدير (شيئاً) كما قال الأخفش لزم على ذلك وجود (مِنْ) لتكون هي ومجرورها صفة للمحذوف ، وفي هذه الحال ، هي بيانية أيضاً لأنها

بيّنت وأوضحت المفعول به ، فبقي ما يؤكد أنها بيانية - كما قال العلماء - بأن ما بعدها يصدق على ما قبلها ، ومن ثمّ كان القول بأنها زائدة ضعيفاً .

٢ - (مِنْ) بين التبعيض والزيادة :

قال سيبويه : لا تزداد (مِنْ) إلا في النفي ، ورد عليه الرضى قائلاً : (فلو قال : في غير الموجب كان أسدً) .

والخلاصة أن علماء اللغة والنحو اتفقوا على أن (مِنْ) لا تزداد إلا في كلام موجب .

وأمام هذا يلزم أن نقول : إن زيادة (مِنْ) جاء لمعنى ، إلا أن الكلام يخلو من هذا المعنى الذي زيدت فيه (مِنْ) من أجله ؛ لأننا إذا لم نقل بهذا ألزم على زيادة (مِنْ) في القرآن الكريم زيادة حرف بلون معنى وهذا باطل .

هذا وإن كانت زائدة ، فإن المعاني التي وضعت لها متصورة فيها لا عن طريق الجوهر والأساس ، ولهذا اشترط النحاة في زيادة (مِنْ)

١ - أن يكون ما دخلت عليه نكرة عامة .

٢ - أن تكون في غير الموجب ؛ لأن التبعيض في أصل الوضع والمراد من زيادتها نفي التبعيض فينسلط النفي على معنى التبعيض المستفاد منها فيتأكد المعنى المراد ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ (الأنعام ٥٩) ، لهذا لا يرى سيبويه وجهور النحاة زيادة (مِنْ) في الموجب ؛ لأن استغراق الجنس في الموجب محال ، إذ لا يتصور مجيء جميع الناس في مثل : جاءني من رجل ويتصور ذلك في النفي وهذا في مثل : ما جاءني من رجل فلا نقول : جاءني من رجل وهذا هو الصواب وما أجمع عليه النحاة ، بخلاف ما قاله الأخفش من جواز زيادة (مِنْ) في الموجب ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ (الأحقاف ٣١) لأن هذه الآية تتعارض على رأيه مع قوله تعالى : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ (الزمر ٥٣) كما احتج أيضاً بقوله تعالى : ﴿ ونكفر عنكم من سيئاتكم ﴾ (البقرة ٢٧١) وهذا هو ما جاء في كتاب المعاني (ج ١ ص ٩٩) : (فإن قلت : إما يكون هذا في النفي والاستفهام فقد جاء في غير ذلك ﴿ ونكفر عنكم من سيئاتكم ﴾ وقد مال إلى رأي الأخفش ابن مالك واستشهد بقول عائشة - رضي الله عنها - (كان يصلي جالساً فيقرأ وهو جالس فإذا بقي من قراءته نحواً من كذا) : [شواهد التوضيح من ص ١٢٥ - ١٢٨] فزيادة (مِنْ) في الآية (يغفر لكم من ذنوبكم) على رأي الأخفش لا مبرر له والصواب هو ما ذهب إليه النحاة .

والواقع أن النحاة أيضاً أخطأوا في فهم معنى التبعيض بـ (مِنْ) مما حمل الأخفش على التوفيق بين الآيتين دفعاً للتعارض .

وابن كمال في رسالته هذه أوضح عل النزاع والخلاف بين البصريين والأخفش حول زيادة (مِنْ) في الموجب .

والسبب المباشر في ضعف رأي الأخفش هو مبنى الكلام بينه وبين النحاة والمفسرين ، حيث إنهم اعتبروا معنى (مِنْ) في الآية (يغفر لكم من ذنوبكم) التبعيضية الشاملة لما هو في ضمن الكلية ، بمعنى أن الله تعالى ، يغفر لكم بعض ذنوبكم لما في ضمن الذنوب جميعاً ، فلا تنافي التبعيضية الكلية ، فاحتاج الأخفش إلى أن يحمل (مِنْ) وهي على هذا المبنى على الزيادة للتوفيق بين هذه الآية وبين الآية : ﴿ إن الله يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جميعاً ﴾ ، فلو أن الأخفش بنى كلامه على مبنى الكلام الذي أوضحه ابن كمال في رسالته هذه ويُنَبِّه به فساد اتجاه النحاة وضعف رأي الأخفش بأن التبعيضية هنا تنافي الكلية ، إذ المراد من بعض ذنوبكم : الذنوب التي هي في حق الله تعالى ، ولا تشملها الذنوب التي هي في حق العباد فكلها يطلق عليها لفظ الذنوب ، وهذا إذا كان الخطاب للمؤمنين ، أما الكفار فإن الإسلام يجب ما قبله : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ .

ومن ثَمَّ كان الصواب مع سيويه وجهور النحاة من جهة وليس معهم من جهة توجيه مبنى الكلام حول معنى (مِنْ) في الآية الكريمة ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ للتوفيق بينها وبين الآية ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ .

٣ - التكرير والتبعيض :

عرض المؤلف آراء العلماء حول التكرير الذي يراد به التبعيض ، وذكر أن في (ليلا) في قوله تعالى : ﴿ سبحانه الذي أسرى بعهده ليلا ﴾ للتقليل ، وبين رأي التفاضلي في أن التكرير في (ليلا) لتقليل المدة وأنه أسرى به في بعض الليل .

ثم بين رأي الجرجاني في تكرر لفظ (حياة) في الآية الكريمة ﴿ ولكم في القصص حياة ﴾ بأن المراد من التكرير التبعيض في الأفراد والأجزاء وكذلك رأي الزحاشي في الكشف أما التبعيض بـ (مِنْ) فإيما يكون في الأجزاء ، كما بين رأي السيد الشريف الجرجاني الذي قصر التكرير على التبعيض في الأفراد وبهذا أظهر ابن كمال آراء العلماء حول أن التكرير يراد به التبعيض وقد يراد به التقليل ، واستعماله في التبعيض باعتبار تضمنه التقليل ، كما أنه قد يراد به التعظيم ، كما في تكرر (ليلا) .

وبهذا ظهر لنا أن ابن كمال يعد من المجتهدين الذين قرأوا الأصول والفروع من العلوم ما هياً لهم أدوات الاجتهاد ■



- (١) الشقائق النعمانية . بيروت . دار الكتاب العربي ١٣٩٥ ص ٢٢٦ .
- (٢) الفوائد البية في تراجم الخفية . مصر السعادة ١٣٢٤ هـ ج ١ ص ٤٠٩ .
- (٣) المرجع السابق .
- (٤) مجلة المقتبس . المجلد السابع ١٤٠٦ هـ - دمشق . هامش .
- (٥) الفوائد البية ص ٢٢ .
- (٦) المرجع السابق .
- (٧) الشقائق النعمانية ص ٢٢٦ والطبقات السنية في تراجم الخفية ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .
- (٨) رسائل في اللغة لناصر الرشيد ط النادي الأدبي بالرياض ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ م .
- (٩) الطبقات السنية في تراجم الخفية ص ٤١٢ والفوائد البية في تراجم الخفية ص ٤١٢ .
- (١٠) الطبقات السنية ص ٤١١ وتاريخ الدولة العثمانية ص ٧٦ - ٧٧ .
- (١١) (اعلم) سقط من (٣) .
- (١٢) هو علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني (ت ٨١٦ هـ) .
- انظر الاعلام . بيروت . دار العلم للملايين ١٩٨٤ ج ٥ ص ٧ .
- (١٣) يفارق في جميع النسخ .
- (١٤) حيث قال : (ذكر في شرح الكافية) بزيادة (ذكر) في (٥) .
- (١٥) (أي تعرف) بزيادة (تعرف) في (٣) ، (٥) ، (٦) وهي من كلام المؤلف .
- (١٦) (وبعدها في (٣) .
- (١٧) في الكافية : (ويقع اسم ذلك المجرور) .
- (١٨) ولد (عشرين) في جميع النسخ فيما عدا الأصل وهو موافق لما جاء في الكافية .
- (١٩) (في قولك عشرون من الدراهم) سقط من النسخ كلها وهي في شرح الكافية ، (انظر شرح الكافية . بيروت . دار الكتب العلمية ١٣٠٠ هـ ج ٢ ص ٣٢٢) .
- (٢٠) في الكافية : (لصحة إطلاق اسم المجرور) .
- (٢١) لصحة إطلاق المجرور على العشرين في (٦) ، (على عشرين) في (٣) ، (٥) .
- (٢٢) (البعوض) في جميع النسخ وفي (١) . للتبعيض .
- (٢٣) (وهو) في (٦) .
- (٢٤) (التبعيض) في (٥) .
- (٢٥) (في قوله) في (٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) .
- (٢٦) (ولتقليل) في (٣) ، (٥) ، (٦) .
- (٢٧) الآية الأولى من سورة الاسراء .
- (٢٨) (كان في بعض أجزاء الليل) في (٣) وفي حاشية الشريف الجرجاني (ليلة واحدة) استانبول .
- دار سعادات - مطبعة عثمانية ١٣١٠ هـ ص ١٦٧ .

- (٢٩) حاشية السيد الشريف الجرجاني على المطول ، ص ١٦٧ .
- (٣٠) هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، النحوي اللغوي مؤسس علم البيان وصاحب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز (ت ٤٧١ هـ) . (انظر شذرات الذهب - بيروت ط ثانية . دار المسيرة ١٣٩٩ هـ ج ٣ ص ٣٤٠) .
- (٣١) (في قوله تعالى) سقط من (٧) ، (في) سقط من (٦) .
- (٣٢) العبارة (في) (٢) ، (٦) : على أن تلك الحياة المهموم بقطه ، وفي (٦) : (للدلالة على تلك الحياة المهموم بقطه) .
- والعبارة في الدلائل هي : (لما كان الإنسان إذا علم أنه إذا قُتِل قُتِل ، ارتدع بذلك عن القتل وسلم صاحبه ، وصارت حياة هذا المهموم بقطه في مستأنف الوقت مستفادة بالقصاص .. إلخ . (دلائل الإعجاز . مصر ط دار المنار ١٣٧٢ هـ ص ٢٢٤) .
- (٣٣) العلامة الزمخشري ، هو جار الله أبو القاسم محمد بن عمر الخوارزمي المعنزي ، صاحب الكشف ومصفات أخرى معروفة (ت ٥٣٨ هـ) (الأعلام للزركلي ج ٧ ص ١٧٨) .
- (٣٤) تفسير الكشف . بيروت . دار الكتاب العربي ١٣٦٦ هـ ج ٢ ص ٦٧٣ .
- (٣٥) (فإن قلت) سقط من (٥) .
- (٣٦) (تعالى) زيد في (٣) .
- (٣٧) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .
- (٣٨) الواو سقطت من (٥) ، (٦) .
- (٣٩) (وزبور) بدون ألف في (٣) .
- (٤٠) الواو سقطت من (٥) .
- (٤١) من أول قوله : (وهي الكتب ، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله - ﷺ - من الزبور) سقط من (٥) .
- (٤٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٦٧٣ .
- (٤٣) وهي الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۚ ۝١١ ﴾ من سورة الحجرات .
- (٤٤) (أي أن يراد .. بزيادة (أي) في (٦) .
- (٤٥) (بعض) سقط من (٢) .
- (٤٦) (الشياخ) ، في (٢) ، (٣) ، (٥) ، (٦) .
- (٤٧) تفسير الكشف ج ٤ ص ٣٦٨ .
- (٤٨) (أيضاً) سقط من (٦) .
- (٤٩) (والاختصاص) في (٢) .
- (٥٠) (بهلها) في (٢) ، (٦) .
- (٥١) (النعضية) في (٦) .

- (٥٢) (يدل) في (٥) .
- (٥٣) (في) سقط من (٣) .
- (٥٤) (الآية - رقم (٣) من سورة البقرة .
- (٥٥) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٠ .
- (٥٦) (التبعية - هو) سقط من (٢) .
- (٥٧) (يرشدك) بزيادة الكاف في جميع النسخ فيما عدا الأصل . .
- (٥٨) تعبير المؤلف بكلمة (زيادة) في عبارته : (وأينما يرشد إليه زيادة و من ، التبعية في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ لا يعني أن (من) زائدة في الآية مثل زيادتها في سياق النفي ، وإنما يعني أن سقط (من) من الآية يفوت علينا المقصود وهو أن المخفور بالإيمان بعض الذنوب ، وهي الذنوب التي هي في حق الله . .
- (٥٩) (به) سقط من الأصل ، وفي (٢) : (يفغر لكم من ذنوبكم) .
- (٦٠) الآية ٣١ من سورة الأحقاف .
- (٦١) (عن) سقط من (٥) .
- (٦٢) تفسير البضاوي ، مصر ، ط أولى مطبعة البابي الحلبي ١٣٥٨ هـ ج ٢ ص ٣١٠ .
- (٦٣) (ولا يتيسر) في (٢) = (وما يتيسر) في (٥) .
- (٦٤) هو الإمام أبو حنيفة ، النعمان بن ثابت (٨٠ - ١٥٠ هـ) انظر الأعلام للزركلي ج ٨ ص ٣٦ .
- (٦٥) يقصد بصاحبه : أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري (١١٣ - ١٨٢ هـ) ومحمد بن الحسن الشيباني (١٣١ - ١٨٩ هـ) .
- (٦٦) كتاب الهداية للإمام العلامة برهان الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر عبد الجليل الرشداني المرغيناني ، شيخ الإسلام (ت ٥٩٣ هـ) .
- (٦٧) انظر كتاب الهداية في كتاب شرح فتح القدير للإمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد المعروف بابن الهمام الحنفي (ت ٨٦٩ هـ) .
- مصر . ط أولى ١٣١٦ هـ ج ٣ ص ١٠٧ .
- (٦٨) هو صدر الشريعة الأصغر ، عبيد الله بن مسعود بن محمود بن أحمد المشهور بالبخاري الحنفي (ت ٧٤٧ هـ) .
- (انظر الأعلام للزركلي ج ٤ ص ١٩٧) .
- (٦٩) (تقدير) في (٦) .
- (٧٠) (قلا) في الأصل فقط (١) .
- (٧١) (الجنس) في (٢) .
- (٧٢) التوضيح في حل غوامض التقيح ، مصر ، ط المطبعة الخيرية المصرية ١٣٠٦ هـ ج ١ ص ٢٦٤ .
- (٧٣) (تقرير) في الأصل فقط (١) .
- (٧٤) في جميع النسخ (اليان) ولم تظهر (أل) من لفظ (اليان) في (٣) لسقوطها في التصوير .

- (٧٥) الفتازاني ، هو مسعود بن عمر بن عبد الله ، سعد الدين (ت ٧٩٣ هـ) .
 (انظر الأعلام للزركلي ج ٦ ص ٣١٩) .
- (٧٦) التلويح ، شرح على التوضيح . مصر . المطبعة الخيرية المصرية ١٣٠٦ هـ ، ج ١ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .
- (٧٧) الآية ٣١ من سورة الأحقاف .
- (٧٨) الآية ٥٣ من سورة الزمر .
- (٧٩) (بأن قالوا) في الأصل فقط ، (إلى أن قالوا) في بقية النسخ .
- (٨٠) (أحد) سقط من (٥) .
- (٨١) التوضيح في حل شواغل التقيح وبه حاشية على التلويح ج ١ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .
- (٨٢) (بغفران) في (٣) .
- (٨٣) (بعض) من (٦) .
- (٨٤) انظر هامش رقم (٨١) وقد تكررت عبارة (بل عدم غفران بعضها يناقض غفران كلها) في (٢) .
- (٨٥) (القول) في (٥) .
- (٨٦) (البهضية) في (٢) .
- (٨٧) (المنالفة للكلية) سقط من (٣) ، (٥) ، (٦) .
- (٨٨) (بإظهارهم الاحتياج باحياهم) بزيادة (باحياهم) في (٢) ، (٣) .
- (٨٩) (ثم ان) سقط من (٦) .
- (٩٠) نسب هذا الكتاب (المقاليذ) إلى الجندي أو الخجندي ، وهو أحمد بن محمود بن عمر بن قاسم شرف الدين تاج الدين (ت ٧٠٠ هـ) صاحب الأقلدي في شرح المفصل ، المقاليذ في شرح المصباح للمطرزي فقد ورد التعريف به في الأزهرية (ج ٤ ص ٤١٤) ، وفي بروكلمان : المقاليذ لتاج الدين الجندي (مكتبة اسكوريال) (٢٥٩) .
- (٩١) هو الأنخس الأوسط ، سعيد بن مسعدة الجاشعي (ت ٢١٥ هـ) .
- (٩٢) الإيضاح لابن الحاجب ، بغداد ط العالي ١٩٨٢ ج ٢ ص ١٤٣ .
- (٩٣) (فهى غرية) في (٢) ، (وهو) في (٣) .
- (٩٤) انظر الهامش رقم ٨٩ .
- (٩٥) (أينأ) سقط من (٢) .
- (٩٦) (لا البهضية الشاملة ..) في (٦) ، (الشاملة) سقط من (٢) .
- (٩٧) (في الجن) سقط من (٢) .
- (٩٨) (خطاب) سقط من (٢) .
- (٩٩) (الجمع) في (٣) .
- (١٠٠) (على أن يكون خطاب البعض وأزاد القوم الآخر) في (٢) .
- (١٠١) (آخر) في جميع النسخ ، وهو صواب ، كما حكى ثعلب أن العرب تقول : يأبأ القوم كفوا وكف

عنا ، على اللفظ وعلى المعنى ، ولكي أثرت الأوضح وهو اعتبار المعنى ، فبحث بالجمع (آخرين)
كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ (الفرقان - ٢٥) .

- (١٠٢) (في تفسير سورة إبراهيم) في (٥) ، (٣) .
(١٠٣) (وبين) بلون (ما) في (٥) ، (٦) ، (٣) .
(١٠٤) (فاضطرب) في (٣) .
(١٠٥) (اعتبره) في (٣) ، (٥) .
(١٠٦) (اللئوب) في (٣) ، (٥) .
(١٠٧) تفسير البيضاوي ج ٢ ص ٥٠٦ ، وفي الأصل (تفرقة بين الخطاب) .
(١٠٨) تفسير البيضاوي ج ١ ص ٤٣٥ .
(١٠٩) (ولا يذهب) في (٢) ، (٣) ، (٥) ، (٦) .
(١١٠) (للكفرة) في (٢) ، (٣) ، (٥) ، (٦) .
(١١١) الآية ٣٨ من سورة الأنفال .
(١١٢) يقال له : ابن الكلبي ، أبو المنذر بن هشام بن أبي النصر ، كان من أعلم الناس بعلم الأنساب ولد بالكوفة وتوفي بها سنة ١٤٦ هـ (انظر الأعلام ج ٦ ص ١٣٣) .
(١١٣) الآية ٦٨ من سورة الفرقان .
(١١٤) (الآية) في (٢) ، (٥) ، (٦) .
(١١٥) الآية ٦٠ من سورة مريم .
(١١٦) (آل) في (الوحشي) ليست للتصريف ، وإنما هي للعهد للذكر من قبل .
(١١٧) الآية ٣٨ ، ١١٦ من سورة النساء .
(١١٨) الآية ٥٣ من سورة الزمر .
(١١٩) البحر المحيط ، لأبي حيان (ت ٦٥٤ هـ) الرياض - مكتبة ومطابع النصر الحديقة ١٣٢٩ هـ ج ٣ ص ٢٦٨ .
(١٢٠) (على حقيقة المبالغة) في (٧) .
(١٢١) تفسير البيضاوي - مصر . الحلبي ١٣٨٨ هـ ج ٢ ص ٣٢٥ .

● المصراع ●

- (١) القرآن الكريم
(٢) الاسترابادي . محمد بن الحسن - رضى الله (٦٨٦ هـ) شرح الكافية - بيروت - دار الكتب العلمية ١٣٠٠ هـ .
(٣) بروكلمان . كارل (١٣٧٥ هـ) تاريخ الأدب العربي . ألماني اجي بريل ليدن سنة ١٩٤٣ م .
(٤) البيضاوي - عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الفارسي الشيرازي (٦٨٥ هـ) تفسير البيضاوي - مصر ، ط أولى شركة الباني الحلبي ١٣٨٥ هـ .

- (٥) الفتازلي . مسعود بن عمر بن عبد الله . سعد الدين (ت ٧٩٣ هـ) التلويح على شرح التوضيح . مصر . المطبعة الخيرية المصرية ١٣٠٦ هـ .
- (٦) النقي الغزي - تقي الدين بن عبد القادر القمي (ت ١٠١٠ هـ)
- (٧) الطبقات السنية - تحقيق عبد الفتاح الحلوة - مصر ، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٩٠ هـ .
- (٨) الجرجاني - أبو بكر عبد القاهر (ت ٤٧١ هـ) دلائل الإعجاز - مصر ، ط دار المنار ١٣٧٢ هـ .
- (٩) ابن الحاجب . الشيخ عثمان بن عمر أبو عمرو (ت ٦٤٦ هـ) الإيضاح - تحقيق موسى بن أبي العليل - بغداد - مطبعة العالي ١٩٨٢ م .
- (١٠) أبو حيان - محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان (ت ٦٥٤ هـ) - البحر ابيض - الرياض - مكتبة ومطابع النصر الحديثة ١٣٢٩ هـ .
- (١١) الرشيد . ناصر سعد . رسائل في اللغة لابن كمال باشا . الرياض ط النادي الأدبي ١٩٨٠ م .
- (١٢) الزركلي - غير الدين - الأعلام - بيروت - دار العلم للملايين ١٩٨٤ م .
- (١٣) الزمخشري - جاز الله أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي المعتزلي (٥٣٨ هـ) تفسير الكشاف - بيروت - دار الكتاب العربي ١٣٦٦ هـ .
- (١٤) الشريف الجرجاني - علي بن محمد بن علي (ت ٨١ هـ) حاشية السيد علي الطول - استانبول ط دار سعادات = مطبعة عثمان ١٣١٠ هـ .
- (١٥) صدر الشريعة الأصغر - التوضيح في حل غوامض التفهيم وعليه التلويح للفتازلي . مصر - ط المطبعة الخيرية المصرية ١٣٠٦ هـ .
- (١٦) طاشكيري زادة - أحمد بن مصطفى (ت ٩٦٨ هـ) الشقائق النعمانية - بيروت - دار الكتاب العربي ١٣٩٥ هـ .
- (١٧) الكنوي . محمد عبد الحمي بن محمد عبد الحليم الأنصاري الهندي أبو الحسنات (ت ١٣٠٤ هـ) القوائد البية في تراجم الحنفية . مصر - السعادة سنة ١٣٢٤ هـ .
- (١٨) مجلة المقتبس - دمشق ١٩٠٦ م .
- (١٩) محمد فريد بك (ت ١٣٣٨ هـ) تاريخ الدولة العثمانية - بيروت - دار الجيل ١٣٩٧ هـ .
- (٢٠) المرغنياني - برهان الدين ، أبو الحسنات . علي بن أبي بكر عبد الجليل (ت ٥٩٢ هـ) كتاب الهداية في كتاب فتح القدير للإمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد المعروف بابن الهمام (ت ٨٦١ هـ) مصر ، ط أولى ١٣١٦ هـ .



□ □ الرواية التاريخية

حول صدر الإسلام في بلاد الشام

بين الفن والتاريخ

● د . إبراهيم السكاكيني ●

مدخل :

لم يزل عصر صدر الإسلام عناية كافية من كتاب الرواية التاريخية الرواد . ولعل ذلك يعود إلى اهتمام معظم روائيي هذه الفترة (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) بالتماس موضوعات رواياتهم من الفترات السياسية التي تحفل بأحداث الفتن والمؤامرات والدسائس والمغامرات ، بما يتفق مع أساليبهم في كتابة الرواية في الأغلب الأعم .

وسنقصر حديثنا على أربعة روائيين وظفوا الأحداث التاريخية في رواياتهم على اختلاف ما بينهم في النظرة إلى التاريخ وهي الموهبة الروائية ، وهم : سليم البستاني في روايته : « الهيام في فتوح الشام »^(١) ، وجورجي زيدان في روايته « أرماتوسة المصرية »^(٢) لأن حوادثها تجري في كل من مصر والشام وفرح أنطون في روايته : « فتح العرب لبيت المقدس »^(٣) ومعروف الأرنؤوط في رواياته : « سيد قرينش »^(٤) و « عمر بن الخطاب »^(٥) و « فاطمة البتول »^(٦) .

ولعل من المفيد أن نتعرف على النظرية الروائية هؤلاء الكتاب وطبيعة أذواقهم في هذه الفترة .
فقد لاحظ الدكتور عبد المحسن بدر أن جورجى زيدان الذي عرف بروايته حول « تاريخ العرب والإسلام » سلك مسلكاً مغايراً لبعض كتاب الرواية التاريخية في الغرب مثل الكسندر دوماس الاب ووالتر سكوت رائد الرواية التاريخية ، ورأى أن الفارق الأساسي بين جورجى زيدان والكاتبين المذكورين ، أن روايات دوماس الاب ووالتر سكوت تأثرت تأثراً واضحاً بالإحساس القومي الذي ساد الفترة الرومانتيكية في الأدب الغربي ، وأن هذا الإحساس ألهم خيالهما وعاطفتيهما ، فجعلنا من التاريخ خادماً لهذا الإحساس ولذلك اهتموا بالجانب الخيالي أكثر من الجانب التاريخي ...

« وإذا كان كتاب الرواية التاريخية من الغربيين ، قد اهتموا بإحياء الماضي ولم يهتموا بصحة المعلومات التاريخية ، وحاولوا تقديم رواية ناجحة ، فإن جورجى زيدان يوشك أن يكون على نقيصهم ، فإن اهتمامه لم يكن موجهاً إلى إحياء الماضي القديم ، وذلك لأن الفكرة القومية لم تكن قد نضجت وتبلورت في مجتمعنا ...

وإذا كان جورجى زيدان يذكر أن غرضه أن يعلم التاريخ في قالب قصصي مشوق فإنه لا يلتزم الوقائع التاريخية تماماً ، وقد يختار روايات ضعيفة أو يخلق بعض الروايات أحياناً ، وهذا ما دعا بعض الدارسين إلى أن يذهبوا إلى أن جورجى زيدان « حين يختار موضوع رواياته لا يلجأ إلى الفترات المشروقة التي تمثل أبعاد التاريخ العربي دائماً ، ولكنه يختار المواقف الحساسة التي تمثل صراعاً بين مذهبين سياسيين أو كتلتين تتصارعان على النفوذ والسيطرة ... »^(٧) .

ولقد اهتم سليم البستاني أيضاً بالوقائع التاريخية في رواياته التاريخية ، وحاول ، مثلما فعل زيدان وغيره ، أن يقنع القارئ بتوثيق مادته العلمية من كتب التاريخ العربية والغربية ، بيد أنه كان أحياناً يفسر التاريخ على هواه ، وبما يتفق مع وجهة نظره إلى أحداث التاريخ ، وبما يتفق أحياناً مع تطور الأحداث والشخصيات . فهذا هو سليم البستاني يقول في مستهل روايته :

« إن خطب أمير المؤمنين والرسالات التي جرت بينه وبين قواد الجيوش العربية ، وهي منقولة عن تاريخ فوح الشام وغيره »^(٨)

مثلما أرفق جورجى زيدان بروايته « أرماتوسة أو فتح مصر » ثبناً بمراجعته العربية والغربية في نهاية الرواية .^(٩)

ويفسر سليم البستاني سبب تقديمه بعض الحقائق التاريخية إطاراً للجانب الغرامي بانصراف الناس عن هذه الحقائق وميلهم إلى متابعة أخبار العاشقين ، بما يوحي باهتمامه بالجانب التاريخي ، وبأهمية دوره في الرواية إذ يقول :

« هذا وربما لو كنا قد أطلنا الكلام المتعلق بوصف حالة الأمة العربية الساكنة في بلاد العرب

الأصلية في هذا الزمان وفي كل الأزمنة المعروفة التي سبقتها ، فإن كثيراً من قراء الروايات لا يحبون هذه الحقائق المفيدة ، بل يكتفون بالوقوف على خبر العاشق والمعشوقة وهذا خطأ مبين ، لأننا لا نقدر أن نفهم حقيقة مركز العاشق ولا مركز المعشوقة ولا الحوادث الجارية ، ما لم نقف على تواريخ أزماتهم وعلى عاداتهم وحروبهم ، وهذا وك من فائدة تاريخية يحصل الإنسان عليها بواسطة روايات فيكون قاصداً الوقوف على خبر المتحايين فيعثر بحقيقة تاريخية أو نتيجة حكمية أو إصلاح أو تنكيت يلزمه أكثر من غيره ، فالضجر من الكلام عن هذه الأمور في بلاد ظروفها كظروف بلادنا خطأ عظيم .^(١٠)

وعلى الرغم من أن البستاني يشعرا ، حين يقدم روايته ، بأنه يجمع بين دور الروائي ودور المؤرخ ، بل إنه يحاول إقناعنا بأن مهمته الأولى هي تحقيق دور المؤرخ فنراه يفسر مهمته في تعليقه على حادثة اقتحام أسوار بصرى بمائة رجل بحيلة رومانوس ضد الديرجان إذ يقول :

ومن المعلوم أنه يسوغ للمؤرخ في كل حال أن يستنتج ما هو ذو فائدة مع قطع النظر عن المتعلقات الدينية ، وتركها للكتب المنهجية ، لأن المقصود من تقرير التواريخ إنما هو إفادة القوم بحوادث مع تبيين أسبابها ونتائجها لتقاس بالحوادث الجارية عليها ، ويكتب باختبارها ، ويتقف العقل ويهذب بمعرفتها ولذلك لا نعول على ذكر الأسباب الدينية في هذه الرواية ونتائج حدوثها ، قدر التحويل على الأسباب والنتائج الدنيوية المجردة عن الاعتقاد المذهبي^(١١)

أما مفهوم فرح أنطون لكتابة الرواية التاريخية فقد ظهر في مقدمة روايته « فتح العرب لبيت المقدس » إذ يقول منها :

« والأمر الثاني : الذي أحيينا التنبيه عليه أن الروايات التاريخية لا يقصد بها سرد وقائع التاريخ وأرقامه . فإن طالب هذه الوقائع والأرقام يلتمسها في كتب التاريخ حيث تكون قريبة المثال ليجردها عما ليس منها ، لا في الروايات المطولة التي تشبك وقائعها الخيالية بها ، ولا يصير طالب التاريخ على مطالعتها ، وإنما المقصود من الروايات الخيالية (فوق سرد الوقائع والأرقام وتصوير الوسط المراد تصويره وإبراز العواطف والأفكار التي كانت تختلج في هذا الوسط تكميل التاريخ في جوانبه الناقصة .

ونعني هنا « بتكميل التاريخ » أن يضع المؤلف نفسه موضع الأشخاص التاريخيين الذي يتكلم عنهم ، ويعبر عن أفكارهم وآرائهم في المواقف التي يصورها لهم ، والتي لا أثر لهم في التاريخ مستدلاً على ذلك بما يعرفه عنهم .

وهذا الأمر في روايات « ديماس » المشهور كان أهم الأمور ، فكأنه به يحیی الأبطال ويكشف لك خبايا كانت مدفونة في صدورهم . ولقد سلكنا هذا المسلك في الرواية . غير أننا خشينا أن يختلط التاريخ بما ليس هو في شيء منه ، فيضل القارئ ، سيما القليل الإطلاع ، فوضنا علامات للتفريق بين التاريخ وبين التصنيف والاستدلال » الرواية ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

ولعل فرح أنطون هو الروائي الوحيد الذي تمسك بالحقيقة التاريخية من بين أقرانه موضوع هذا البحث ، ولم يورد ما يخالفها إلا بإشارة ترشد القارئ إلى التميز بين الحقيقة والخيال .

ويتضح من أسلوب معروف الأرنؤوط في فهم الرواية التاريخية أنه يلجأ كغيره من الروائيين السابقين إلى توثيق مادته التاريخية بالإشارة إلى المصادر والمراجع من مثل إشارته إلى كتاب السيرة وإلى كتاب الأصنام لابن الكلبي ، وسيرة عمر بن الخطاب ومعجم البلدان ، والأغاني ، وتاريخ العرب في سورية قبل الإسلام لسديو ، وشعراء النصرانية وغير ذلك من المراجع والمصادر ، وقد حملته عنايته بالتاريخ على أن يعود إليه في كثير من المصادر التي تعرضت لهذه الفترة التي تمتد من فترة ما قبل ظهور الإسلام حتى بعثة الرسول عليه السلام، وتحدثت عن أحوال العرب في مواطنهم المختلفة في الجزيرة ، والعراق ، والشام ، وعن الأمم ذات الصلة بحياة العرب من مثل الفرس والروم ، وقد خص الأرنؤوط بيزنطة بعنايته الشديدة ، لأنها ترتبط ارتباطاً مباشراً بالأحداث التي تعالجها رواية سيد قريش بخاصة (١٢) .

على أن الأرنؤوط كان ، إلى جانب التزامه الحقيقة التاريخية فيما يتصل بالجانب التاريخي ، متحمساً لتاريخ العرب والمسلمين ، مما جعله يزور البلاد التي وصفها في رواياته ، على نحو ما صنع من قبله الروائيون الرومانسيون ، سواء كانت هذه البلاد في الوطن العربي أم خارجه من مثل بيزنطة وأسيانيا ، ليكون على دراية بما يصف ، وحتى توحي له بمشاعر صادقة ، على نحو ما نرى في حديثه الشعري في مقدمة روايته « عمر بن الخطاب » إذ يقول فيها :

« هذه الأزهار التي جمعتها في أسفاري من سيناء ومكة وبوادي الشام والعراق (لعمر بن الخطاب) فلقد طويت من أجلها البر القسيح ، والبادية الغلفاء حتى وافيت سيناء ، وغيم علي الليل الصبارد في هضابها الشم ، ووقفت حيث وقف موسى ، تظللني كما أظلته سحابة فضفاضة ، ثم لم أطل مكثي في سيناء ففجفتها ، ونزلت بوادي سلح ، وهيمت عبر أولئك القتل الذين ماتوا في شباب الإسلام ، وهم يهتفون لسيد قريش وصحبه ثم أمعنت في السباحة ، فرأيت العراق ورأيت دجلة والفرات وطففت بالأطفال التي وثق بنيانها بكر وائل ، ثم جئت إل بيت المقدس ، وأظلني المسجد الجامع وذلك المسجد الذي أطل عمر أمير المؤمنين ، ومازلت كذلك حتى فيأتي جبل النور في مكة ، وبانت لي الطريق التي جازها محمد وأصحابه إلى العالم ثم إذا هذه الأزهار وهذه الأعشاب التي جمعتها من هنا وهناك تستحيل إلى كتاب جديد اسمه عمر بن الخطاب ... » (١٣) .

وعلى هذا النحو نجد هؤلاء الروائيين قد احتفلوا من الوجهة النظرية بالمادة التاريخية وحاولوا أن يوثقوها على اختلاف ما بينهم - بالمصادر والمراجع ، على أن الخلاف يبدو في حماسهم للتاريخ وتأثرهم العاطفي بأحداثه وشخصياته وحضارته عامة ، وهذا ما جعلهم ، عل اختلاف موقفهم الفكري أو العاطفي من التاريخ ، يلجأون إلى اصطناع قصة خيالية أو شبه أسطورية ليديروا عليها

أحداث الرواية ، ليتخلصوا من سطوة الواقعة التاريخية ، وليجدوا حرية واسعة في تحريك الشخصيات بما تلميه عليهم مواقفهم أو عواطفهم أو أمزجتهم الفنية .

ثمة حدث تاريخي معروف في كتب التاريخ تدور من خلاله أو على هامشه قصة غرامية أو اجتماعية مختلفة تبدو للقارئ وكأنها جزء لا يتجزأ من أحداث الفترة التاريخية التي تتناولها الرواية .

وسأحاول فيما يأتي أن أتحدث ، بانفراد ، عن أسلوب كل من الروائيين الأربعة في رواياتهم التاريخية ، من حيث تجسيد موقفهم الفكري ، أو عاطفتهم القومية أو مزاجهم الفني ، وقد قصدت إلى أن أتحدث بإيجاز شديد عن الروائي معروف الأرناؤوط لأنه يمثل امتداد فترة تأثير الرواية العربية الحديثة بالتراث الشعبي في بلاد الشام ، ولعل مسوغ اختياره يعود إلى تميزه بين روايي النشأة والامتداد في الحماسة للتاريخ وفي التطور الفني نسبياً .^(١٤)

الهيام في فتوح الشام لسليم البستاني

تعرضت هذه الرواية لفتوح الشام من خلال قصة غرامية ذات صلة بالأحداث التاريخية وبأحوال المتحاربين ، تجمع بين سلمى العربية وحبيها سالم ، وأوعسطا الرومية وحبيها جوليان . وهؤلاء شخصيات متخيلة ، جعل المؤلف مهمتها التعليق على الأحداث ، وتحليل الشخصيات العربية والرومية بصورة نمطية وربما من حيث هي نماذج .

ومن الطبيعي أن يختار البستاني الروايات التاريخية التي تتفق مع فكرته الأساسية ، وليس غريباً أيضاً أن نراه يفسر الأحداث ، ويحلل الشخصيات وسلوكهم بما يلائم العناصر التي أشرنا إليها . ولعل هذا ما دعاه إلى مناقشة الروايات التاريخية ومحاولة تفتيدها .

فحين أورد البستاني خير فتح دمشق ، علق على منح أبي عبيدة الأمان لأهل المدينة ، حين أشار إلى مشاجرة نشبت بين خالد وأبي عبيدة نتيجة هذا الأمان فرسم للفاتح العربي صورة نمطية تركز على الجانب المادي ، على نحو ما نرى في تلهفه على اقتناص الغنائم إذ يقول البستاني معلقاً : « ومن المؤكد أن وجود الغنائم للعربي كالمغناطيس للفولاذ »^(١٥)

وقد ورد هذا الخبر في فتوح الشام في شكل حوار بين أبي عبيدة وخالد ، إذ قال أبو عبيدة « أيها الأمير قد تم الصلح . فقال خالد وما الصلح ؟ لا أصلح الله بالهم وأنى لهم وقد فتحنا بالسيف ، وقد خضبت دماء المسلمين من دمائهم ، وأخذت الأولاد عبيداً وقد نهبت الأموال ، فقال الأمير : أعلم أنني ما دخلتها إلا بالصلح . فقال له خالد بن الوليد : إنك لم تزل مغفلاً ، وأنا ما دخلتها إلا بالسيف عنوة وما بقي لهم حماية فكيف صالحتهم »^(١٦) وانتهى الأمر بقبول الصلح .

وبوسعنا أن نلاحظ من الأخبار أن الخلاف في أمر الصلح لم يقتصر على أمر الغنائم ، بل كان لأسباب تتصل بتقويم عام للعناصر المختلفة ، ومنها الوضع الحربي ، إذ أسف خالد لنجاة الزعيمين هريس وتوما من القتل ، وفوات الأموال التي حملوها معهم ، مثلما فعل ضرار بن الأزور على نحو ما نرى في حوار عطية بن عامر معه :

« فقلت له : يا ابن الأزور ، مالي أراك كالمحتسر ، أما عند الله أكثر من ذلك ؟
فقال :

والله ما أعني مالا ، وإنما أنا متأسف على بقائهم وانفلاتهم منا . » (٨٣)

ولعل موقف أبي عبيدة وأمراء الريان يوضح هذا الأمر بصورة أكبر .
ولم يول المؤرخون أمر هذا الخلاف اهتماماً كبيراً فيما بعد ، على نحو ما نرى في تاريخ ابن خلدون ، إذ يقول معقلاً على فتح دمشق .

« فاختلف المسلمون قليلاً ، ثم اتفقوا على أمان الروم » (١٧)

ولم يقف الأمر عند حدود الروايات التاريخية وتفسيرها ، بل وقف البستاني من بعض الروايات موقف المفند المناقش ، فلم يقبل الروايات التاريخية التي تحدثت عن عدد كل من المسلمين والروم في معركة اليرموك ، ورأى أن عدد المسلمين أكثر مما ذكرت كتب التاريخ العربية بكثير ، إذ يقول معلقاً على روايات المؤرخين العرب :

« وما يشكل على الإنسان فهمه أن يرى في بعض التواريخ العربية ، ذكر عدد جيش الرومان ذكراً يحمل المطالع على أن يظن أن العرب كانوا قدر ثلثهم ، مع أنهم كانوا أكثر من ثلثهم فإن جيش العرب الذي كان تحت قيادة خالد بن الوليد في سوريا كان نحو خمسين ألفاً . » (١٨)

ويبدو أن البستاني استند في ذكر هذا الرقم إلى رواية الطبري التي أشارت إلى أن عدد الجنود الذين كانوا تحت قيادة الأمراء الذين توجهوا إلى اليرموك بلغ ستة وأربعين ألفاً . (١٩)

بيد أن البستاني لم يستند في تقدير نسبة جيش المسلمين إلى جيش الروم إلى رواية تاريخية عربية أو غربية ، إذ لم يذكر المؤرخون الغربيون الذين توافرت بين أيديهم المراجع العربية والغربية فيما أوردوه نحواً من هذا العدد ، إذ يقول « دونر DONNER

وحتى إذا لم تكن أرقام كلا الجانبين مضخمة ، فإن المراجع التاريخية تقدر أن جيش المسلمين كان حوالي ربع الجيش البيزنطي في معركة اليرموك .

ثم يذكر ما أوردته المؤرخون من التباين بين عدد كل من الجيشين ، إذ بلغ عدد المسلمين ستة وعشرين ألفاً ، وبلغ عدد البيزنطيين مائتين وأربعين ألفاً . (٢٠)

وينقل عن المصادر القديمة غير العربية أن البيزنطيين تحملوا من الضحايا ما بلغ مائة وخمسين ألفاً في هذه المعركة. (٢١)

ويوشك قارئ الرواية أن يطمئن إلى أن هوى البستاني لم يكن مع العرب ، بل ربما لم يكن مع التحليل الموضوعي للأحداث التاريخية ، فأرجع انتصار العرب إلى خلل معين في الجانب الروماني قد يبدو ، في أغلب الأحيان ، غير مفهوم منطقياً ، إذ جعل هذا الخلل في صورة « عى » مقدر مثلاً ، فيقول معلقاً على فتح بصرى :

« وبالواقع أنه عندما يريد الله سبحانه وتعالى سقوط أمة يعمي بصرها ، فإنه لو كان الرومان في الشام ذوي حكمة ودراية لما انتظروا وصول العرب إلى القرب من أبواب مدينتهم » (٢٢) .

ونراه من بعد ، يعلق على صنع الرومان مستغرباً ، دون أن يحلله منطقياً فيكتفي بالقول : « ومن الأمور التي تدل على تغفل الرومان عدم مبادرتهم إلى الهجوم على العرب من البابين بعد أن سار أكثر الجيش الذي كان عند الباب الشرقي ، ولو انتهبوا إلى ذلك لأضعفوا قوة العرب ، إذ لم نقل إنهم كانوا يقدرّون أن يفوزوا برفع الحصر عن مدينتهم » (٢٣) .

وقد أولى البستاني عنصر الخيانة في فتوح الشام أهمية كبيرة ، حتى كادت فكرة الرواية تقوم على أن سبب الفتوح يكمن في خلل ما في الجانب الروماني من مثل الخيانة والغفلة والعمى المقدر ونحو ذلك .

فقد أشار البستاني إلى خيانة في صفوف الرومان أدت إلى فتح بصرى ، إذ يروي أن « رومانوس » قد أسلم فخان مهمته ، وسهل اقتحام بصرى بحيلة ضد الديرجان ، استعان فيها بمائة رجل . (٢٤)

صحيح أن الواقدي أورد خبر إسلام « رومانس » بطريق « بصرى » وأن غلمانهم سهلوا دخول العرب عبر الأسوار وقتل الديرجان (٢٥) بيد أن عملية الاقتحام لا بد أن تفهم على ضوء الزخم الواضح لحركة الفتوح . إذ يبدو من الروايات التي ذكرتها المراجع أن أهل بصرى كانوا مضطرين إلى قبول الصلح . (٢٦)

وإذا كان البستاني قد أشاد بشجاعة خالد بن الوليد الملقب بسيف الله الذي كانت رايته « والنصر مجتمعين في كل حال ، ولذلك ذكر اسمه في قيادة الجيوش في باب الفوز والفتح » (٢٧) فإنه حاول أن يقلل من قيمة العناصر الموضوعية في انتصار المسلمين في معركة اليرموك ، فجعل ضعف الرومان وخيانتهم وانقسامهم على أنفسهم هي التي مهدت للمسلمين أسباب الانتصار . على أن الرومان ، على الرغم من إقرار البستاني بهذه العوامل ، لم يفارقوا صفاتهم ولا سجاياهم ولا تقاليدهم ، فالشجاعة الرومانية ، والأخلاق الرومانية التقليدية الثبيلة ظلت على سابق عهدها . ولذا عزا النصر إلى خيانة

قائدهم ويبدو أنه يعني « جرجة » الذي ذكرته المصادر التاريخية . إذ يقول البستاني في هذا الصدد :
 « فلما رأوا أنهم لم يكونوا قادرين أن يصمدوا للعرب وجهاً لوجه ، لشجاعتهم وسرعة أفراسهم وخفة حركتهم ، عولوا على أن يرسلوا فرقة لتحاول المسير إلى خلف جيش العرب بحيث يبيت في الوسط ، الأسوار أمامه ، وفرقة كبيرة ورائه ، ومن المعلوم أن ذلك كان من أصوب الحركات الحربية ، وربما كان علة فوز عظيم للرومان لولا خيانة قائدهم الممهود الذي كان يحب أوغسطا ، فإنه هو الذي أشار بهذه الحركة الحربية غير أنه كان قد أخبر خالد ابن الوليد قائد العرب بها فاستعد لها .^(٢٨) »

ولقد أعطى البستاني « الخيانة » دوراً كبيراً إذ يقول في هذه الواقعة :

« أما العرب فلما رأوا انكسار تلك الفرقة تشددوا جداً ، وتيقنوا بالفوز بعد أن كادوا يقطعون الأمل من الحصول عليه ، هذا بدون أن يكونوا يعلمون أن انكسارها إنما كان بالخيانة » .^(٢٩)

وتتحدث المصادر العربية عن هذه الواقعة ، فتذكر أن إسلام « جرجة » إنما تم في أثناء المعركة لا قبلها ، إذ لم تكن مرتبة من قبل ، وملخصها كما يأتي :

« ... وخرج جرجة إلى بين الصفيين وطلب خالد فخرج إليه فأمن كل منهما صاحبه ، فقال جرجة يا خالد اصلدني ولا تكذبني ، فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل ، هل أنزل الله على نبيكم شيئاً من السماء ، فأعطاكه ، فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ، قال : لا ، قال ، ففيم سميت سيف الله ، فقال له : إن الله بعث فينا نبيه ﷺ ، فكنت فيمن كذبه وقتلته ، ثم إن الله هداني فتابته ، فقال : أنت سيف سله الله على المشركين ، ودعالي بالنصر ، فقال : فأخبروني إلام تدعوني ، قال خالد : إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب ، قال : فما منزلة الذي يبيحكم ويدخل فيكم ، قال منزلتنا واحدة ، قال : فهل لكم مثله من الأجر والذخر ، قال : نعم وأفضل ، لأننا أتبعنا نبينا وهو حي ، يخبرنا بالغيب ونرى منه العجائب والآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا ، وسمع ما سمعنا أن يسلم ، وأنتم لم تروا مثلنا ، ولم تسمعوا مثلنا ، فمن دخل بنية وصدق ، كان أفضل منا ، فقلب جرجة ترسه ، ومال مع خالد ، وأسلم وعلمه الإسلام ، واغتسل وصلى ركعتين ، ثم خرج مع خالد فقاتل الروم ، وحملت الروم حملة أزالوا المسلمين عن مواقعهم إلى الحامية وعليهم عكرمة وعمه الحارث بن هشام ، فقال عكرمة :

قالت مع النبي ﷺ في كل موطن ، ثم أفر اليوم ، ثم نادى من يبايع على الموت ، فبايعه الحارث ابن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا قدام فسطاط خالد ، حتى ألتفتوا جميعاً جراحاً ، ففهم من برأ ومنهم من قتل ، وقاتل خالد وجرجة قتالاً شديداً ، فقتل جرجة عند آخر النهار ...^(٣٠) ولم يكن « جرجة » هذا قائد البيزنطيين في معركة اليرموك ، بل كان أحد قادتهم ويذكر المؤرخون الغربيون أنه كان على رأس فرقة من الأرمن قوامها اثنا عشر ألفاً ، وذكروا أن اسمه جرجا أو (جورج)^(٣١) .

ونرى البستاني - انسجاماً مع تعاطفه مع الرومان - يعلي من مبادئهم في هذه الرواية ، فيذكر أن بطرس يرفض قتل الأسيرات المتمردات : « فلما رأى بطرس عملهن قال لقومه : تفرقوا عن النسوة ولا تبدلوا فيهن السيوف ، ولا ينبغي أن يقتل أحدكم واحدة منهن ، بل خلوهن أسيرات^(٣٢) » ولم يتابع البستاني رواية الواقدي التي تضيف إلى قول بطرس السابق :

« ومن وقع منكم بصاحتي » أي خولة « فلا ينلها بمكره » ونعرف من الرواية أن بطرس تخلى عن أخذ « خولة » حين رأى شدة النساء في مقاومته ورجاله ورفضهن أن يؤخذن أسيرات ، إلى أن أسرع إلى نجدة من ضرر الذي قتل بطرس^(٣٣) .

« وتبدي عاطفة البستاني تجاه الرومان أيضاً ، في إظهار شجاعتهم الحارقة من مثل وصفه لهجوم الشخصية المبتدعة جوليان^(٣٤) أو في ما ينسبه إلى المؤرخين فيما يأتي :

« هذا وقد قال المؤرخون العرب ما يدل على أنه لو لم يشب ربيعة من مكانه أسرع من البرق ، ويضرب جرجيس بسيفه ويقتله لفتك جرجيس به . مع أن المعروف أن الغدر في مثل هذه الظروف لم يكن من شأن الرومان ، بعد أن تمدنوا وقبل التنصر وبعده ، ولذلك ربما كان من المرجح أن عدم وقوف ربيعة على عادات الرومان الحربية ومخافتهم على الزمام ، وما لحظه من غيظ جرجيس عندما بلغ بلغة في فهمها ربيعة أنه هو قاتل أخيه حمله على أن يجعل يقتله لدفع عذره^(٣٥) .

فلم يقف البستاني عند الرواية التاريخية وإنما فسر موقفه من خلال عاطفته التي وجّهت كثيراً من الأحداث ، فلقد أشار الواقدي صراحة إلى توقع الغدر من جرجيس على نحو ما ندرك من الرواية الآتية :

« فقال بعض الحجاب إن هذا هو الذي قتل أخاك ، فلما سمع ذلك لَزُورَتْ عيناه وغضب غضباً شديداً ، وهمَّ أن يشب على ربيعة ، ففهم ربيعة ذلك ، فوثب من مكانه أسرع من البرق ، وضرب بيده إلى قائم السيف ، وعاجل جرجيس بضربة فجنده صريعاً قتيلاً ، ووثب على فرسه فركبها ، فأسرعت البطارقة إليه وهو راكب فحمل فيهم »^(٣٦) . فتمة مقدمات في الرواية التاريخية تقود إلى ما حدث إذ إن من يتتبع السياق التاريخي يلحظ أن الروم أظهروا الغدر غير مرة^(٣٧) . وعلى الرغم من أن البستاني أشار إلى أن ظلم الرومان وإساءتهم حكم شعوب امبراطوريتهم عجل بتداعي حكهم ، فإنه لم يتعمق هذه الفكرة مثلما فعل جورجي زيدان فيما بعد في روايته « أرماتوسة المصرية أو فزع مصر » .

ومهما يكن ، فإن البستاني أفاد من التاريخ وحاول أن يلتزمه فيما يتصل بالأحداث التاريخية في حين تصرف على هواه في الوقائع الغرامية التي ربطها بالحقائق التاريخية ، فنسب إلى الشخصيات الخيالية أحداثاً تاريخية تتفق مع الجو التاريخي العام ، وتخدم الحبكة الروائية ولم تمنعه الحقائق التاريخية من تفسير الأحداث بما يتفق وموقفه الفكري وعاطفته ومزاجه الفني .

أرمانوسة المصرية لجورجي زيدان

وهي الرواية التاريخية الوحيدة التي كتبها جورج زيدان عن عصر صدر الإسلام ، وقد نشرها بعنوان « أرمانوسة المصرية أو فتح مصر » ضمن روايات تاريخ العرب والإسلام ، وحاول أن يشرح عنوانها ببيان مضمونها : « فيها تفاصيل فتح مصر والاسكندرية على يد عمرو بن العاص في صدر الإسلام (٦٤٠ م) ، مع بسط حال العرب وعاداتهم وأخلاقهم وأزيائهم وحال العرب والأقباط في ذلك العصر » وقدم للرواية على عادته بمقدمة تاريخية ، حوت خلاصة تاريخية عن فترة الرواية ومضمونها معاً . وألقت الضوء على حركة الشخصيات التاريخية وعلى الفكرة التاريخية العامة التي تحكم فهم المؤلف وتفسيره ، إذ يقول في هذه المقدمة : « فتح الرومانيون وادي النيل ، وأقاموا به قروناً ظهر في أثنائها الدين المسيحي ، وانتشر في العالم ، ودخل الديار المصرية فاعتنقه المصريون ، وهم الأقباط ، ثم اتخذته الدولة الرومانية ديناً لها بدلاً من الوثنية ، وهدمت تماثيلها .

ولكن ما كادت تستقر الأمور حتى حدث نزاع ديني بين كهنة القسطنطينية عاصمة المملكة الرومانية الشرقية ، وكهنة الاسكندرية عاصمة الديار المصرية واشتد النزاع حتى تمكنت الضغائن بين الرومانيين وهم الفئة الحاكمة ، وبين الأقباط وهم الشعب المحكوم ، وعرف المذهب الروماني بالملكي ، والمذهب المصري باليعقوبي . قال ذلك إلى نفور الأقباط من الرومانيين واستبدادهم ، وإلى رغبتهم في التخلص من نيرهم بأية وسيلة . وكان الرومانيون يسومون المصريين سوء العذاب ، فلم تفتهم فرصة الإيقاع بهم ، والانتقام منهم .

وفي أوائل القرن السابع للميلاد ، كان يحكم مصر والى يوناني الأصل ، اسمه المقوقس ، حنّا بن قرق ، وقد كانوا يدعونه بأسماء أخرى ، وكان متشيعاً لأهلها ومذهبيهم وتقاليدهم . وأقام بالاسكندرية شأن الولاة الرومانيين في ذلك العهد ، لأنها كانت عاصمة الديار المصرية ، ومقر الإمارة فيها . ويقول في المقدمة أيضاً : « ولم يكن للأقباط هم في تلك الأيام إلا التخلص من الرومانيين والتحدث بفظائع أعمالهم وظلمهم واستبدادهم ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون المجاهرة بعداوتهم ، خوفاً من سخطهم وزيادة الضغط عليهم » (٣٨).

أقام جورج زيدان بناء روايته التاريخية على الحقائق التي أوردتها في المقدمة ، وفصل بين الجانبين التاريخي والفرامي من حيث استلهم التاريخ ، بيد أنه جمع بينهما في سياق الأحداث التاريخية ، فقد جعل الامبراطور الروماني هرقل يحطّب أرمانوسة ابنة المقوقس والى الروم على مصر لابنه قسطنطين لما سمع من صفاتها المادية والمعنوية ولما كانت تتمتع به من أخلاق عالية وأدب رفيع ، وجمال نادر ، ومع أن خبراً كهذا ينبغي أن يلقى موضعاً للراحة والسرور في نفس « أرمانوسة » إلا أنها تحزن حزناً شديداً ليس عليه مزيد ، وتضطر إلى أن تكشف دخيلة نفسها لمريبتها « بربارة » وتفصح لها عن حبها

لأركاديوس ابن القائد الروماني « الأعرج » الذي يحاول جورجي زيدان أن يظهره بمظهر القوي المقدر ، الذي يباهه المقوقس ، حتى أن صورة المقوقس في الرواية تظهر وكأنه تابع للأعرج يباهه ويخشى بطشه . ومنذ اللحظة الأولى في الرواية نكتشف أن علاقة عدائية تحكم الصلة بين المقوقس والأعرج وابنه أركاديوس ، وتبدو المفارقة في حبّ يجمع بين الاثنين تنقّد العدواة في صديري والديهما ، وتتأزم العلاقة بينهما بتقدم الجيوش الإسلامية نحو مصر ، فالمقوقس على تعاطف مع أقباط مصر ، لا يرضى عن إذلالهم وظلمهم ، بل إنه أصبح بمثابة واحد منهم ، وهو من أجل ذلك يتعاطف مع الفاتح العربي الذي سيخلص المصريين من ظلم الرومان ولو كانوا في الحقيقة من بني جنسه . وتبدو هذه الصورة واضحة في الرواية ، بل إن « أرماتوسة » على حبّها لابن القائد الروماني تحمل هذا الشعور ، فهي تحب المصريين وتتألم لما يلحقهم من بطش وأذى وترويع وحرق لرجال الدين وتهديم للكنائس والصوامع ، وربما كانت مريتها « بربارة » المصرية القبطية رمزاً لهذا التعاطف ، وهي أيضاً تكره قسطنطين ابن الامبراطور وتأمل أن ينقذها الفاتح العربي منه بقتله أو احتلال البلاد أو بأية وسيلة أخرى . وتحرك الأحداث الغرامية إلى جانب الأحداث التاريخية ، فقرأ عن رسالة موجهة من قسطنطين إلى المقوقس بأمره فيها بأن يأتي بأرماتوسة إلى « بلبيس » لتحمل إليه في القسطنطينية ، وهنا يبدو المجال مواتياً للمغامرات والصدف والأحداث المشوقة التي تتداخل مع سياق الأحداث التاريخية بشكل عام . فتحمل أرماتوسة إلى بلبيس في حين تصل الأخبار إلى أركاديوس الذي يعلن أنه سيدافع عن حبه حتى الموت ، ويتعقد الأمر حين يأتي رسول أرماتوسة بشائعة تقول إن قسطنطين قتل في معارك فوح الشام ، وتبدو الخيل في هذه الرواية في صنيع بطريك حلب يوقنا الذي مال مع العرب ضد الروم حين رأى كفة العرب راجحة ، ولكنه لم يسلم حقاً ، ولم يوال المسلمين ، وكان يطمع في ضمّ « أرماتوسة » إليه ... فبعث أحد أتباعه ليخبر أرماتوسة أنّ عليها أن تتجهز حتى تحمل إلى « قسطنطين » بأمر منه ، في حين كان في معسكر عمرو بن العاص على حدود مصر الجنوبية ، ويتشاور معه في أمر القتال ويذهب بنفسه إلى حيث « أرماتوسة » ليصحبها ، ولم تجدها توسلاتها نفعاً متعلّقة بالمرض ، وأجبرها بالقوة على الرحيل معه ، بيد أن الحيلة تنكشف حين قدم رجال العرب ليحرروا أرماتوسة من حيلته ، وليؤي هو بعد ذلك الفرار ، فكان خلاصها على يد عمرو بن العاص ورجاله . إذ أن عمراً غضب غضباً شديداً حين علم حقيقة موقف حليفه البطريك . ويتحدث جورجي زيدان عن وقائع فتح مصر من العريش إلى الفرما ، إلى بلبيس إلى عين شمس إلى حصن بابليون ثم عن المعارك الأخرى ، حتى حصار الاسكندرية وما جرى فيها من مناوشات وكر وفر ثم فتح ومصالحة ، ثم غزوها في عهد قسطنطين على يد الخصي الأرمني (منويل) في عهد الخليفة عثمان ، وليصل بين هذه الأحداث وبين « أركاديوس » الذي أسره العرب وكيف استطاع بقوته أن يحطّم القيود وأن يعود وتحدث عن حيل أرماتوسة فهي التي كانت تمنعه من مواجهة العرب سواء كان ذلك في الحصن أم في الإسكندرية ، إذ أنه لو كان في أرض المعارك لما قرأ أبداً لما يتمتع به من قوة ومروعة وشهامة وللقي الموت عاجلاً

أو آجلاً ، وأشار جورجي زيدان إلى أن الأعرج اتهم المقوقس بالخيانة لأنه كان على علم باتصاله بالعرب وبعمرو بن العاص ، وهو الذي سهل لهم مهمة فتح مصر ، في حين كان المصريون يساعدونهم في تأمين المواصلات والتأمين . وبين غضب هرقل على المقوقس الذي عاد بعد موته والياً مرة أخرى . ويمكن بحسب النحوي الرومي يعقوبي من الجمع بين المقوقس وأركادايوس بعد أن أعلمه بحال البلاد تحت حكم الرومان ، وأن المقوقس ما فعل إلا الخير ، فهو يريد تأمين البلاد ولم يقتل أن تحول البلاد عن دينها . وهنا يحل اللوم وتنتهي هذه الحياة الحافلة بالعقبات والصعاب بزواج الحببيين أركادايوس وأرمانوسة .

هذه هي أبرز أحداث الرواية التاريخية والغرامية ، ولم نشأ أن نتحدث عن تفاصيل مختلفة تتصل في معظمها بالجانب الغرامي أو الخيالي من الرواية ، وقد أغفلنا بعض الأحداث التاريخية لأنها سترد في محاولة عرضها على كتب التاريخ لتبين موقعها من الحقيقة التاريخية .

وقد يبدو لنا أن جورجي زيدان التزم الحقيقة التاريخية في وصف بطش الرومان وظلمهم واضطهاد الأقباط لإصطناعهم المذهب يعقوبي ، فقد جعل رئيسة الراهبات وهي شخصية خيالية تعبر عن هذا المعنى من خلال الحقائق التاريخية بقولها : « وما الوسيلة ، وقد أصبح هذا الجند أبغض إلينا من عدو يقاتلنا ؟ أما كفانا ما يسوموننا من الخسف والجور وإهانة رجالنا ، وقتل بطاركتنا ، حتى جاءوا يخرجوننا من هذه الكنيسة ليجعلوا أماكن العبادة معاقل وحسواً » . ويلمح على لسانها برغبة الأقباط في أن تدول دولة الرمان : « أطلب من الله بكرامة العذراء مريم صاحبة هذا الدّير أن يسقط في أيديهم ، ويخرجوا من هذه البلاد على أعقابهم ، فإن أية أمة تحكمنا بعدهم أخف وطأة علينا منهم »^(٣٩) . ويذكر المؤرخون أن حاجزاً قوياً وقف بين المصريين والروم حال بينهم وبين انصهارهم في كتلة واحدة . بل كان كثيراً ما يثر بينهم الإحن ، ويحث الخصومات ، ويؤجج الروح القومية أن تخبو أو تذبل ، وذلك هو العقيدة الدينية^(٤٠) . ولقد كان طغيان الرومان أشدّ عنواً في مصر منه في أرجاء الدولة الإمبراطورية كلها^(٤١) . إذ قرّر الأساقفة إلى الجبال وساد الرعب والملع ، والقتل والتعذيب ، ومطاردة الأقباط والبحث الدؤوب عن أسقفهم المختفي بنيامين^(٤٢) .

ويبدو أن جورجي زيدان يخالف المراجع التاريخية في موقف المقوقس من الأقباط ، فجعله يونانياً امتزجت عواطفه بعواطف الشعب المصري ، حتى أصبح يحقد على الرومان ، ويتعاطف مع هموم المصريين ، ويرى رأيهم في المعتقد في المذهب يعقوبي ، وقد اختلف الدارسون في تحليل شخصيته فعده بعضهم من الظالمين « وهم جماعة ثالثة من الروم تتميز كذلك خلال حركة الفتح بموقف خاص غير موقف المقاومة وغير موقف المسألة . وتلك هي الجماعة التي خالطها الإيمان بأن الامبراطورية البيزنطية لن تستطيع أن تقف طويلاً أمام هذه الدفقة المتدفقة من الجزيرة العربية .. أو هي على الأقل لن تستطيع أن تبقى على صلاتها بمصر ، منذ أن استطاع المسلمون أن يقطعوا ما بينها

وبين مصر حين استولوا على سورية ، ففصلوا رأس الامبراطورية عن أطرافها .. ولذلك لن تستطيع هذه الأطراف على ذلك صبراً ، ولن يستطيع البحر أن يجمع شملها ، فسينتثرى العرب على البحر ، وسيقبلون عليه ، وسيحولون بينه وبين أن يكون طريقاً للامبراطورية ، وسيصفصون كل العرى بين الاسكندرية والقسطنطينية ... وليس في وسع مصر أن تقاوم كذلك ، وليس في وسعها أن تتحاز إلى هذا الدين الجديد .. فليس هناك إلا أن تداري هذه الجماعة الإسلامية بالجزية ، وأن تدرأ عنها الحرب بالصلح ، فالصلح وحده كفيل أن يحفظ عليها بقاءها وأنفسها وأموالها وذراريها ^(٤٣) وقد غالى بعض المؤرخين الغربيين في وصف المقوقس حين حملوه جريمة سوء العلاقات الحاد بين المصريين والرومان . ففي حين جعل جورجي زيدان للمقوقس حليفاً للأقباط ، ائتمر معهم على تسليم مصر للمسلمين أو التمهيد لهم بذلك ، تخلصاً من عسف الرومان ، نجد بتلر يكاد يخلص هرقل من التبعة ويضعها على عاتق المقوقس ، ويرى أن هرقل قام بمصيبة حين اختار المقوقس (قيرس) ذلك العبقري السيئ الذي لم يقتصر عمله على تحطيم آمال الامبراطور في الوحدة الدينية في مصر ، وإنما تعدى ذلك بأن جعل من نفسه رمزاً للعرب والكراهية تجاه الأقباط مدة عشرة سنين ، بعد سحق عقيدة القبط الدينية بأقصى ما يستطيع من الظلم والاضطهاد ، إذ جعل ولاء القبط للحكم الروماني مستحيلاً . ويقول عنه : إنه الطاغية الذي سلم البلاد واستسلم للعدو في اللحظة الحرجة ، لقد كان رجلاً سيئ السمعة عرف فيما بعد في تاريخ المصريين بالمقوقس ^(٤٤)

وتتفق الروايات العربية والغربية على أن « المقوقس » لم يكن عنيفاً في الرد على العرب ، بل كان يخشاهم ويتوعد إليهم ، غير أن الروايات العربية خاصة لا تشير إلى مساعدة العرب أو التواطؤ معهم ، بل إنه كان يخشى أن تقع مصر في أيديهم ذات يوم . ولعل جورجي زيدان ، اتساقاً مع بناء روايته الخيالي في اصطناعه حباً بين ابنة المقوقس وأركادبوس ، أراد أن يضمن خاتمة سعيدة تتسق معها الأحداث التاريخية ، فاختار أن يقف والدها موقفاً موالياً للعرب . ويبدو أن موقف المقوقس كان موقف المدرك لواقعه لا موقف المتعاطف . فقد تمت المناوشات وكانت الغلبة للمسلمين ، يذكر البلاذري : « أن المقوقس صالح عمرو بن العاص على أن يسير من الروم من أراد ، ويقر من أراد الإقامة من الروم على أمر سمّاه ، وأن يفرض على القبط دينارين ، فبلغ ذلك ملك الروم فتسخطه وبعث الجيوش ، فأغلقت باب الاسكندرية ، وأذنو عمراً بالحرب فخرج إليه المقوقس ، فقال : أسألك ثلاثاً أن تبذل للروم مثل الذي بذلت لي ، فإنهم قد استغشوني ، وأن لا تنقض القبط ، فإن النقض لم يأت من قبلهم ، وأن متّ فمر بدفني في كنيسة بالإسكندرية ذكرها ، فقال عمرو : هذه أهونهم ... وكتب عمرو بفتح الاسكندرية إلى عمر » أما بعد فإن الله فتح علينا الاسكندرية عنوة قسراً بغير عهد ولا عقد ، وهي كلّها صلح في قول يزيد بن أبي حبيب ^(٤٥) ويبدو أن جورجي زيدان استوحى موقفه من الروايات التي تشير إلى موقف الملاينة كما نجد في رواية ابن عبد الحكم عمّا تم بشأن الصلح على غير إرادة قومه ، وعلى رفض من هرقل فيما بعد ، إذ يقول ابن عبد الحكم إنّ المقوقس قال لقومه :

« أطيعوني وأطيعوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة ، ولئن لم تحييوهم إليها طائعين لتحييتهم إلى ما هو أعظم منها كارهين فقالوا وأتي خصلة نجيب إليها ؟ قال إذن أخبركم : أما دخولكم في غير دينكم فلا أمركم به ، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقوموا عليهم ، ولن تصبروا صبرهم ، ولا بد من الثالثة ، قالوا فنكون لهم عبيداً أبداً ؟ قال نعم تكونون عبيداً مسطرين في بلادكم ، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذرائعكم ، خير لكم من أن تموتوا عن آخركم ، وتكونوا عبيداً تباعون وغرقون في البلاد مستعبدين أنتم وذرائعكم »^(٤٦).

وتشير المصادر التاريخية إلى أنه لم يسلم إذ إن الرسول عليه السلام كتب إليه « يدعوه إلى الإسلام فلم يسلم »^(٤٧) وقد ذكر ابن خلدون ما أورده جورجي زيدان من أن « عمرو بن العاص » أعطى عهداً للمصريين^(٤٨).

وركّز جورجي زيدان على بيان ظلم الرومان واضطهادهم بينا تبين حسن معاملة العرب لشعوب البلدان المفتوحة ، ممّا جعلهم يتألفون قلوبهم ، ويحصلون على مساعدتهم بل على حبهم أحياناً^(٤٩). ولقد أورد الدكتور شكري فيصل روايات عن المؤرخين المسلمين تشير إلى معاونة القبط للفتح العربي إذ يقول : « يسوق ابن عبد الحكم في كتابه طائفة من الروايات عن مساعدة القبط في مراحل مختلفة من مراحل الفتح وعن طرق مختلفة من طرق الرواة : فهو يتحدث عن هذه المساعدة في الفرما : « فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعواناً » وهو يتحدث عنها بعد حصار بابلون : « وصارت لهم القبط أعواناً » ثم هو يتحدث عنها حين خرج عمرو يضرب في ريف مصر ، ويتجه إلى الاسكندرية « وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطريق ، وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصارت القبط لهم أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم » وهو يتحدث عنها أخيراً في حصار الاسكندرية بعد الكريون : « فنزل المسلمون ومعهم رؤساء القبط يملئونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة »^(٥٠).

ويبدو أن جورجي زيدان وقف طويلاً عند هذه الروايات التي ذكرها ابن الحكم ورأى فيها بجلاً لحركته الروائية ، وقد ربط بين موقف المصريين وما حدث في بلاد الشام ، إذ يقول على لسان إحدى شخصيات الرواية : « وقد سمعت من رجل قدم من الشام حديثاً أن العرب بعد أن فتحوا الشام أمنوا النصراري على أموالهم وأعراضهم ، وأباحوا لهم الصلاة في معابدهم لا يعارضهم أحد في ذلك ، أليسوا إذن خيراً من الرومان » ويسوق أيضاً طائفة من المعلومات التاريخية حول عسف الرومان^(٥١) ولعلّ فيما أورده زيدان إشارة إلى كتاب عمر بالأمان إلى أهالي القدس وهذا نصه « بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب لأهل إيلياء ، إنهم آمنون على دماءهم وأولادهم ونسائهم ، وجميع كنائسهم لا تسكن ولا تهدم »^(٥٢).

وقد حاول زيدان أن يلتزم وقائع التاريخ في تسلسل مراحل الفتح ، وحاول أن يربط بين هذه

الوقائع والجانب الخيالي من الرواية ففراه يبدأ بمقدمة تاريخية ثم يتحدث عن «أرمانوسة بنت المقوقس» و «أركاديوس» و «المسيحيون ومظالم الرومان» و «الاحتفال بضحية النيل»^(٥٧) و «أرمانوسة في بلبس» و «يوقنا وأرمانوسة» و «أركاديوس يبحث عن أرمانوسة» و «لقاء الحبيبين» ، ويعقد بعض العنوانات التاريخية من مثل «عمرو بن العاص» و «فتح الحصن» و «عقد الصلح» و «فسطاط عمرو» و «فتح الاسكندرية» . ولقد أورد الواقدي روايات تاريخية حول أرمانوسة بنت المقوقس وموقف يوقنا منها إذ أنه دير حيلة لحملها من منزلها في بلبس زاعماً أنه سيحملها إلى زوجها قسطنطين (فلسطين) في القسطنطينية بناء على أوامره ويورد بعض الأخبار عن مصيره مطابقاً لما جاء في الرواية التاريخية غير أن يشكك في إسلام يوقنا بطريك حلب السابق وأخلاقه ، ويصوره شريراً منافقاً لا تطبق صورته بأي مقياس على صورته عند الواقدي فهو عنده مسلم عميق الإيمان جاهد غلباً دفاعاً عن عقيدته ، ولم يدبر هذه الحيلة لمطمع مادي أو لنزوة رخيصة . وتصور الرواية التاريخية إطلاق سراح أرمانوسة لإكراماً لوالدها^(٥٨)

وقد مزج زيدان بين الجانبين الغرامي (الخيالي) والتاريخي في هذه العنوانات ، وحاول أن يحوّر ما وسعته الحيلة على ألاّ يحوّر كثيراً على الحقيقة التاريخية ، فاثبت مثلاً كتاب المقوقس إلى عمرو بن العاص^(٥٩) ويبدو أن مضمونه موضوع ، كما أنه نسب رسالة الرسول عليه السلام التي أرسلها إلى هرقل إلى المقوقس مع أن الرسول عليه السلام بعث برسالة معروفة إلى المقوقس بيد أن تسلسل كما أشرنا بالفتوحات على نحو يطابق ما روته كتب التاريخ من الفرما وبلبيس وعين شمس وحصن بالبلون فالتوجه إلى الاسكندرية مع اختلافات يسيرة .

وضمن روايته معلومات تاريخية متناثرة منها ما يتصل بالتاريخ عامة ومنها ما يتصل بفتح العرب لمصر خاصة . فأورد مثلاً معلومات كثيرة عن عادات المصريين وصناعاتهم ودياناتهم وآثارهم ، من مثل غزو الفرس لمصر ومحاربة هرقل لهم^(٦٠) ، وعبادة الصنم سرايس^(٦١) ، والحديث عن الطبيعة الواحدة والطبعتين^(٦٢) ، ومناطحة الثيران في مصر^(٦٣) ، وطريقة كل من العرب والمصريين في الكتابة ، ومواد الكتابة^(٦٤) ، وقصة جامع عمرو والفسطاط^(٦٥) ، إلى غير ذلك من المعلومات التاريخية المتناثرة .

وأما فيما يتصل بالشخصيات العربية في أحداث فتح مصر ، فقد تحدث عن عمرو بن العاص وذكر قصة إسلامه ، وهي كما رواها جورج زيدان تكاد تحفظ بصورتها الحرفية عند مقابلتها بما روى في كتب السيرة النبوية والتاريخ^(٦٦) . وكذلك ما ورد من حديث عمرو بن العاص في الرواية حول صفات الرسول عليه السلام^(٦٧) . ومن مثل حديثه عن عرفة بن مازن وقصته مع عمر بن الخطاب حول زهد الرسول وتعيم كسرى وقصر^(٦٨) . وقد أوردت بعض الكتب التاريخية ما ذكره زيدان عن قصة سفر عمرو بن العاص مع شماس من الاسكندرية أنقذ عمرو حياته في القدس قبل الإسلام^(٦٩) . ووردت كذلك قصة بنيامين الأسقف ، واختفائه تلبية لحلم دعاه إلى الاختفاء^(٧٠) .

كما ذكرت كتب التاريخ نبذة عن حياة ليحيى النحوي الروماني البعلبكي المذهب الذي اضطلع به لتقديته^(١٧) وقد ضمت الرواية أحداث وأقوالاً عن صلات القرى والأقباط ، وعن جرأة عبادة بن الصامت والوزير ابن العوّام ، وأشار زيدان إلى غزو منويل الأرمني « الخصمي » لالاسكندرية في عهد عثمان ابن عفان وما عاثه من تخريب وتدمير ، وإعادة عمرو بن العاص بعد أن ولي عليها عبد الله ابن أبي السرح . ومهما يكن فإن جورجى زيدان أراد أن يقدم المادة التاريخية حسب ورودها في المراجع التاريخية مع إتاحة الفرصة لترجيح ما يرى ترجيحه ، وللتعاطف مع ما يمكن أن يراه موافقاً لمواقفه ، ثم التوفيق بين الحقيقة التاريخية والحكاية الخيالية . ولعل أهم ثغرة عملت على توسيع الشقة بين الحقيقة والخيال هي إقحام قصة « المقوقس » وبيان خطته في تسليم مصر للعرب منذ اللحظة الأولى .

فتح العرب لبيت المقدس لفرح أنطون

يقدم المؤلف لروايته بتعريف موجز يقول فيه :

« وهي رواية تاريخية فلسفية اجتماعية جيدة تتضمن زحف العرب إلى بلاد الشام حين ظهور الإسلام ، وحصارهم مدينة القدس (بيت المقدس) العاصمة الدينية الكبرى للمسيحيين يومئذ ، وسفر الخليفة عمر بن الخطاب من بلاد العرب إليها لفتحها بطلب البطريرك صفرونيوس . إقامة المسجد الأقصى فيها على أنقاض هيكل سليمان القديم هيكل الإسرائيليين ، ويتخلل ذلك كلام عن أحوال اليهود والمسلمين والمسيحيين يومئذ ، والأفكار الدينية والسياسية التي كانت تشتعل في نفوسهم ، والأسباب السياسية والاجتماعية والدينية التي أضعفت سلطة الروم في بيزنطة (القسطنطينية) فكانت سبباً في سقوطهم وزوال ملكهم وقيام الأمم التي تليهم . »

بنت هذه الرواية حبكتها على قصة غرامية بطلها « إيليا » الفتى الناصري الذي يقيم في إيلياء ، و « أستير » ، اليهودية التي كانت بصحبة والدها في بيت لحم عشية أعياد الميلاد ، وتبدأ أحداث الرواية حين ذاع في الناس أن ثمة يهوداً في المدينة المقدسة ، فيما حاول « إيليا » أن يشكك في صحة هذه الإشاعة ، فكاد الرّاع أن يقتلوه لولا أن أنقذه « أرميا » من بين أيديهم . كانت أستير وأبوها يتهامسان وقد ظهرت عليهما أمارات الخوف والفرح فيما كانت الدّهماء تقترب منهما ، مما سهّل الشكّ فيهما فاقتردهما ومكّب البطريرك يشقّ شوارع المدينة .

ويجدّ « إيليا » في تخلص « أستير » والدها من قبضة الرّاع فيحدث البطريرك في شأنهما ، وفيما يحاول جهده أن تنكر « أستير » أنها يهودية ، تصرّ على أنها ليست « مسيحية » ، فلا يجد أمامه إلا الزعم بأنها « وثنية » ، أما والدها فيتخلص من المأزق المرعب بالاعتراف بأنه نصراني فيطلق سراحه . وترسل « أستير » إلى الدّير لتتخلص من وثنيها وتعتمد إنفاذاً لرغبة الدّهماء ، فيما

ينمو اهتمام «إيليا» بها إلى حبّ جارف ، إذ إنه كان رأى فتاة تشبهها قبل عشر سنوات وقع في حبها عند أول نظرة ثم ضاعت في الزحام .

يكيد لإيليا حتى يخلو له المجال . إذ إنه بعد أن سهّل «إيليا» لأستير سبيل الفرار من الدّير في ليلة ماطرة ، وآوئها في مزرعة الشيخ سليمان ، قرّت أستير برفقة «آرميا» من المزرعة حين أدركت صعبوبة الطريق الذي تسلكه وحبيبها «إيليا» . بيد أن إيليا وأستير يقعان - أثناء فرارهما - أسيرين في أيدي العرب المحاصرين لبيت المقدس ممّا يمهّد الطريق إلى أن يتنافس على أستير عدد من أبطال المحاربين ، وفيما كان إيليا يجمّد في البحث عن «أستير» يقع أسوأ في أيدي العرب فيحتجز في خيمة عمرو بن معد يكرب ، فيعلم «يوسف» والد أستير بأسره فيحزم أمره على إسداء خدمة لإيليا شكراً على صنيعه واعترافاً بالجميل فيفتاح أبا عبيدة في أمره فيأمر بإطلاق سراحه . إلا أن «إيليا» يعرف ، مصادفةً ، أن «يوسف» والد «أستير» عين للعرب ، حين ذكر لأبي عبيدة أمر «الرق» ففهم أن ثمة مهمة شائكة يقوم بها يوسف ضد مواطني إيليا وضد الرومان ، فيحرف عن حبّ «أستير» حميةً ووطنيةً وفي القلب جراح . وتتّجه الأحداث بعد هذا نحو حلول مثالية غير واقعية ، حين يتخذ «إيليا» موقفاً بالغ الشدة بصورة مفاجئة وغير مسوّغة ، بعد أن اتخذ موقفاً يخالف تقاليد قومه ومعتقدهم ، فيعرض عنها إغراضاً لا أثر فيه لتردّد أو معاودة ، فتمرض «أستير» بعد أن خرجت والولدها من معسكر العرب لهذا الإغراض ، فيشكو والدها ما حلّ بابنته إلى البطريك الذي ينجح في لقاء «إيليا» بـ «أستير» بعد فوات الأوان ، إذ يستفحل المرض ، تموت أستير ميتة رومانسية . ممّا يمهّد لأحداث أخرى يموت خلالها إيليا . ويبدو أن المؤلف قد توسّل بالموت ليضفي جواً من الفجائع على جوّ الرواية ، فيموت الشيخ سليمان مثلما مات من قبله الرجل الصالح الراهب «ميخائيل» الذي قضى حياته في خدمة الناس وتلقّى من أجلهم ظلم الهيأة الكليريكية إهاناتها ومؤامراتها إذ كان يخدم فقراء الناس ويشهر بالأغنياء ممّا أدى إلى الإيقاع به وطرده ، ثم التشهير به وتلوّث سمعته فزعموا أنه يهري من وراء ما يجمع من أموال الأغنياء ، فصّدق الناس ما قيل ، فتحاشاه من كان يخدمهم . وهو الذي قصّ فيما بعد على عمر ابن الخطّاب قصة بيزنطة والروم من منظور تاريخي حضاري ، وجعله المؤلف مثار إعجاب الخليفة .

وتترافق مع هذه الأحداث العاطفية - على نحو ما نرى - الأحداث التاريخية الاجتماعية التي هدف الكاتب منها إلى تقديم القوائد المترتبة عليها ، ففي روايته لقصة الراهب القديس «ميخائيل» صورة لفساد الهيأة الكليريكية ممثلة بزعمائها الذين ضاقوا بكلّ فكر يقود إلى عمل منتج ، وأبدوا تعصباً ذمياً ، فيما جرت الأحداث لتصوّر فساد الحاكم وكراهية البطريك وأهل القدس للحكم الروماني وللأمبراطور «هرقل» خاصة .

وتشير القصة الاجتماعية التي جرت في سياق الأحداث التاريخية إلى بعض الوقائع التاريخية من

مثل حصار العرب لبيت المقدس وتمركزهم خلف أسوارها ، وطلب البطريك « صفرونيوس » من العرب أن يحضر الخليفة عمر بن الخطاب نفسه لإجراء عهد التسليم بناءً على نصيحة عمرو بن معد يكرب إلى « إيليا » كما تزعم الرواية .

وتتحدث عن السرّ التاريخي الذي أسلفنا الإشارة إليه وهو « الرّق السري » فكان بمثابة حبكة فصمت العلاقة بين إيليا وأستير .

وتوحي قصة « الرّق السري » بوجود علاقة تواطؤ بين البطريك والمسلمين في مواجهة الامبراطور الروماني هرقل . وجعلت الرواية « إيليا » يرافق عمر بن الخطاب في زيارته للأماكن المقدسة في « بيت المقدس » و « بيت لحم » . ووصف المؤلف حصار العرب لبيت المقدس وطول أمده ، مثلما فصل في وصف بطولية المدافعين وقوة شكيمتهم ، وفي عناد المحاصرين وإصرارهم على دخول بيت المقدس ، وصوّر تشوّقهم لرؤيتها .

ويُضخ من سياق الأحداث ومن الفكرة الأساسية في الرواية أنها تقوم على المغامرة والمخاطرة وافتعال الحبكة وبروز الفكرة بصورة تكاد تحجب العفوية القصصية والمتعة الفنية . مع أن ثمة مواطن تستخدم أسلوباً يقرن الفكرة بالعاطفة فيرق ويسمح في بعض الفصول حين يخاطب المدينة المقدسة ، مثلاً ، من خلال ما اصطلاح عليها من حوادث وما فجّعها من نائبات .

وإذا اهتمّ فرح أنطون بتوضيح العناصر التاريخية في الرواية بصورة مباشرة فإنه ترك بعض الأحداث الروائية التي جاءت في السياق التاريخي لتوحي بتاريخيتها ممّا ينتظر إلى حين نعرض الحدث التاريخي على المصادر التاريخية .

ولعل من أبرز الأحداث التاريخية التي أشارت إليها الرواية في فتح بيت المقدس هو موقف البطريك من الحاكم الروماني من ناحية ومن الفاتح المسلم من ناحية أخرى . فالرواية تصوّر كراهية البطريك للحكم الروماني الذي يعدّ دخيلاً ، ولا يرحّب بالفاتحين المسلمين ، فينبههم حين يقرأ نبأ الحصار . فعلى الرغم من أن المؤلف ينصف العرب حين يوازن بينهم وبين الرومان فإنه يعدّ هذا الفتح حلقة في سلسلة التنافس على السلطة كما نرى فيما يأتي : « إن رمال قفار العرب قد تحركت يا ابنة صهيون . زحفت نحوك قاصدة الدنيا كلها . فأوسعوا وأوسعوا المكان في الأرض لأمة عظيمة ومدينة جديدة ، إن الدنيا كلها تتمتّع الآن بدين جديد وسلطنة جديدة . إن أبناء إسماعيل أخرجوا من قفارهم الجدداء للاقاة أبناء إسحاق الظرفاء . ولكن يا للأخوة يا لحرمة النسب ، إن ملاقاتهم كانت للإقتتال على سلطنة الأرض ، كأن هذه الدنيا الواسعة تضيق عن أخوين كريمين . فسدّوا أذانكم يا أيها البشر فإن أرضكم ستصير ميداناً واسعاً للحروب والمجازر المختلفة (الرواية ص ١٥٥) .

ونلاحظ أنه كان يشير إلى تواريخ بعض الأحداث في الحواشي من مثل انكسار قيودوروس أمام المسلمين في أجنادين سنة ٦٣٤ للميلاد (ص ١٥٨) ، ودخول الفرس بيت المقدس وأخذ الصليب

من المجلد سنة ٦١٤ للميلاد (ص ١٥٩) . وكان يتوخى أن يثبت أصل المتن حرفياً عند نقل بعض المعلومات التاريخية التي يوردها في متن الرواية . فيورد مثلاً : « وقف (أي هرقل) على نشر في حدود سوريا مودعاً وقال : السلام عليك يا سوريا لا اجتمع بعده »

إذ يقول في الهامش : « رواه ابن الأثير وأثبته درابيون . وهذه عبارة ابن الأثير بالحرف (السلام عليك يا سوريا سلام لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومي إلا خائفاً حتى يولد الولد المشعوم) (ص ١٥٩) .

وقد جاء عن ابن الأثير قوله : « وسار هرقل فنزل بشمشاط ثم أدرّب منها نحو القسطنطينية فلما أراد المسير منها علا على نشر ثم التفت إلى الشام فقال : السلام عليك يا سورية سلام لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً حتى يولد المشعوم وبأ ليه لا يولد فما أحلى فعله وأمر فنته على الروم » (١٨) وفي حديثه عن أرزة في جبل الزيتون يورد تفسيراً في الهامش قائلاً : « كان على جبل الزيتون في زمن مملكة إسرائيل أرزة وقد حفظ الإسرائيليون تذكّارها بعد تشتتهم » (١٧٤) .

وظل هذا دأبه في توثيق الأخبار التي يرويها بالروايات التاريخية في الأغلب الأعم من مثل حديثه عن مخالفة المصريين للمذهب الإمبراطورية ، فأشار إلى أن الأقباط يثنون مثل أبناء بيت المقدس تحت نير الرومان فيقول : « وقد اغتنموا فرصة القول بالطبعين والمشيئة الواحدة للانفصال عن الكرسي السكندري والقسطنطيني » . والمقوس كبيرهم ووالهم يحامل العرب نكاية بالإمبراطورية « ثم يورد في الهامش « لما كاتب صاحب الشريعة الإسلامية قيصر وكسرى والتجاشي والمقوس والحريث بن أبي شمّر الغساني يدعوهم إلى الإسلام أجابه المقوس صاحب مصر جواباً لطيفاً وأهدى إليه أربع جوار منهن مارية التي ولدت للنبي ولدأ سماء إبراهيم » « ابن الأثير » (الرواية ص ١٧٦) وتكاد الرواية تكون حرفية عند ابن الأثير الذي يقول « فأما المقوس فإنه قبل كتاب النبي ﷺ وأهدى إليه أربع جوار منهن مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ » (١٩) .

وأشار إلى معاونة العرب المنتصرة من غسان للروم على المسلمين والفرس في حروبهم معهم (الرواية ص ١٨٠) ، وأورد خبر ارتداد بعض العرب بعد وفاة الرسول عليه السلام وتسيير جيش أسامة ، ويرى فيه أن العرب لما رأّت مسير الجيش للشام هابوا الخلافة وقالوا « لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش . فكفّوا عن كثير ممّا كانوا يريدون أن يفعلوه » (ص ١٨٠) وقد ورد هذا النص حرفياً عند ابن الأثير (٢٠) الذي أشار إليه في الهامش .

وثمة مرويات عن جيش المسلمين المتجه لقتال الفرس في العراق ، والروم في الشام وعن قيادة خالد بن الوليد وفنوحاته في العراق والشام ثم عزله واستخلاف أبي عبيدة (الرواية ص ١٨١) . فقد ترك المؤلف أحد متصرة الغسانيين يحدّث البطريق صفرونيوس عن فنوح بلاد الشام في سياقها

الزمني . فحاول في الهامش أن يوضّح موقفه من الروايات التاريخية ، ومن المصادر التي ينقل عنها فهو يقول في هذا الصدد على لسان الرسول الغساني :

« بعد أن فتح أبو عبيدة دمشق ، وأقام فيها شهراً يتمتع فيها مع جنده بمظاهرها الجميلة ويستريح بعد عناء القتال جمع إليه أمراء المسلمين وقال لهم : « أشهروا عليّ بما أضع وأين أتوجه » فاتفق رأي المسلمين إمّا إلى قيسارية (قيصرية) وإما إلى بيت المقدس . فقال معاذ بن جبل « اكتب إلى أمير المؤمنين فحيث أمرك فسر واستمع بالله فقال : « أصبت الرأي يا معاذ » إلى آخر الرواية (الرواية ص ١٨١) فيشير إلى اتفاق المسلمين بالتوجه إلى قيسارية أو إلى بيت المقدس مرجحاً في الهامش إحدى الروايات : « لعلّ الأصح إما حصص وحماة وأنطاكية وإما فلسطين وبيت المقدس ، لأن قيسارية تابعة لفلسطين » . ويشير أيضاً إلى رأيه في المصدر نفسه فيقول : « نعتقد هنا على الواقدي في ما كتبه عن فتح بيت المقدس وإن كان تاريخه يكاد يكون في أكثر أقسامه قصّة عتريّة . والتناقض في الروايات والتفاصيل ظاهر بينه وبين باقي المؤرخين وفيما بين هؤلاء أيضاً . وإنما فضلناه عليهم لأنه أكثر تفصيلاً . والعبارات الموضوعية في هذا الفصل بين قوسين أو ضمتين دون ذكر مصدرها هي له » .

وحين يذكر خبر أمر الخليفة أبا عبيدة أن يسير من الجابية إلى بيت المقدس وأن أبا عبيدة عقد ليزيد بن أبي سفيان وأمره أن يزحف إلى بيت المقدس وفلسطين يعلق في الهامش : « حذفنا هنا اسم خالد بن الوليد لأن الواقدي وغيره يقولون إنه بقي مع أبي عبيدة ولم يرحل في مقدّمة الجيش » . (الرواية ص ١٨٢) بل كان يشير في بعض الروايات إلى إسنادها على نحو ما ذكر عن حقيقة المدافعين عن بيت المقدس ومعنوياتهم إذ جاء في الرواية « ما نزلنا ببلد من بلاد الشام فزأبنا أكثر زينة ولا أحسن عدّة من بيت المقدس ، وما نزلنا بقوم إلّا وتضعضعوا لنا وداخلهم الملح وأخذتهم الهيبة إلّا أهل بيت المقدس ، فلا يكلمنا منهم أحد ، ولا ينطقون غير أنّ حارسهم شديد وعدتهم كاملة » (الرواية ص ١٨٣) إذ جاء في هامش الرواية « رواه الواقدي عن المسيّب بن نجبة الفزاري » .

وكان فرح أنطون حين يشير إلى رواية تاريخية دون إرشاد إلى صحتها يعمد إلى شرحها في الهامش من مثل نقله على لسان البطريك صفر ونيوس قوله : « إن العرب ليسوا كالفرس بل هم يعبدون الله مثلنا ، ولذلك يحترمون المنقطعين إليه تعالى ، فلا تخافوا منهم على الدّير » فأحال إلى وصية أبي بكر جيش أسامة بن زيد في الكامل لابن الأثير ، فنقل النص (الرواية ص ١٨٣) نقلاً حرفياً عن ابن الأثير (٧١).

ونقل المؤلّف المعلومات التاريخية حول حصار بيت المقدس والمفاوضات المبدئية عن الواقدي موضحاً ذلك في الهامش : « كل ما وضع في هذا الفصل بين قوسين وراعاها نجمة » فهو نصّ حرفي للواقدي . غير أنّه كان ينقل معلومات روتها كتب الأدب والتاريخ على ألسنة شخصيات لم تروها ، حين نسب وصف الصخرة المشرفة إلى خولة بنت الأزور (ص ٢٤٤) في حين استقى المادة من

« العقد الفريد » (٧٢) ، وقام بنقده على عادته في نقد المصادر ، إذ يقول « وغني عن البيان أنّ هذه الأقوال من آراء العوام وإن وردت في العقد » (الرواية ص ٢٤٤) وما يفتأ يذكر الروايات بإسنادها فيقف عندها مستغرباً من مثل إشارته إلى قراءة يزيد بن أبي سفيان الآية الكريمة ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا ﴾ إذ يقول معلقاً : « ومن غرائب الاتفاق أن باقي أمراء الجند قرأوا في جندهم هذه الآية أيضاً فكأنهم كانوا على ميعاد واحد » (الرواية ص ٢٤٥) ونجده يحرص على نقد الروايات من مثل استيعاده لما يروى عن توهّم مقدم عمر بن الخطاب وأثره في كل من المحاصرين والمسلمين إذ يقول المؤلف : « الرواية التي رواها الواقدي هنا مخالفة للعقل بعيدة التصديق ، ولذلك لم نعبأ بها ، وأولناها هنا هذا التأويل » (ص ٢٤٦) ويشير إلى التصحيف في الروايات على نحو ما نجد في حديثه عن كنيسة القيامة إذ يقول : « في تاريخ الواقدي تارة الغمامة ، وطوراً القمامة ، وآونة الفخامة ، وهو خطأ في النسخ ظاهر ... » (ص ٢٤٥) .

وظل المؤلف ينبّه - بين الحين والآخر - على قيمة النصّ التاريخي من مثل إيراد صورة تعفّف المسلمين حين دخلوا بين المقدس فلم يمدّ أحدهم يداً إلى متاع ، وذكر تعليق البطريق « لا يقوى أحد على هؤلاء ماداموا على ما هم عليه من التزام الحق » (ص ٢٧٣) وجاء في الهامش : « معنى هذه العبارة منسوب في الواقدي لأبي الجعيد ، وهنا نعيد للمرة الثالثة قولنا « إنّ الذي لا يوضع عليه النجمة فليس من التاريخ في شيء إلا إذا نبها إليه » .

وإذا كان المؤلف قد صرح بأنه يلتزم أحداث التاريخ ويوثّق معلوماته ، فإنه كان يتصرّف في نقل بعض هذه المعلومات على نحو ما نرى في الخبر الذي نقله عن الواقدي (٧٣) حول قرار فتح القدس فأورد بنيتة الأساسية وحوّر في أجزاء أخرى مثل حوار عمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان (الرواية ص ١٨١ - ١٨٢) وجعل المؤلف بعض الشخصيات التاريخية تقوم بأحوار روائية من مثل حديثه عن غرام عمرو بن معد يكرب الزبيدي بأستير ، مع أنّ عمراً اشترك في فتوح الشام وحصار بيت المقدس إذ يقول المؤلف في هذا الخبر : « وفي الحقيقة أنّها كانت خيمة الفارس المغوار المشهور عمرو ابن معد يكرب الزبيدي الذي ترك بوادي اليمن وجاء في رجاله نصرة جند الشام مع مالك بن الأشتر النخعي في أواخر خلافة أبي بكر » (الرواية ص ٢٤٩) وقد أورد في الهامش خبر رسالة أبي بكر إلى خالد التي يعلمه بإرسال المدد وفيهم أبطال اليمن وأبطال مكة . (٧٤)

ومن مثله جعله خولة بنت الأزور تتحدّث عن الصخرة المشرفة مع أنّها لم تفعل . وهو قد استقى حديثها المزعوم من « العقد الفريد » حيث ورد هذا الحديث ، غير أن ابن عبد ربه لا يذكر صاحبه .

وكان المؤلف يتصرّف في الروايات التاريخية ويحاول أن يوازن بينها عند الاختلاف فحذف رواية الواقدي التي تقول إن أبا عبيدة عند الإعداد لفتح بيت المقدس سيّر خالداً على رأس الجند « فعندها

دعا أبو عبيدة بخالد بن الوليد وعقد له راية وضم إليه خمسة آلاف فارس من خيل الزحف وسرّحه إلى بيت المقدس^(٧٥).

فأشار فرح أنطون إلى هذه الرواية بقوله: « حلفنا هنا اسم خالد بن الوليد لأنّ الواقدي وغيره يقولون إنه بقي مع أبي عبيدة ولم يرحل في مقدمة الجيش » (الرواية ص ١٨٢) .

وكان يختار ما يرى أنه يخدم غرضه فيجتزئ منه ما يشاء من مثل حديثه عن قوّة حامية بيت المقدس وتمييزها عن غيرها من الحاميات فنقل جزءاً منها بتصرّف عن الواقدي: « ما نزلنا ببلد من بلاد الشام فرأينا أكثر زينة ولا أحسن عدّة من بيت المقدس وما نزلنا بقوم إلا وتضعضوا لنا ودخلهم الهلع وأخذتهم الهيبة إلا أهل بيت المقدس فلا يكلمنا منهم أحد ولا ينطقون ، غير أن حارسهم شديد وعدّتهم كاملة » (الرواية ص ١٨٣) فحذف معظم الخبر وسقط مما اجتزأه بعد « إلا أهل بيت المقدس » نزلنا بإزائهم ثلاثة أيام^(٧٦).

أما ما جاء في الرواية عن دور « يوسف » والد « أستير » في فتح القدس فلم يرد في كتب التاريخ ، ولعلّ فرح أنطون أفاد من رواية للبلاذري عن فتح قيسارية في اصطناع هذه الرواية وتوظيفها في الحكمة الروائية إذ يقول البلاذري « وكان سبب فتحها أن يهودياً يقال له يوسف أتى المسلمين ليلاً فدلّهم على طريق في سرداب فيه الماء إلى حقو الرجل مقابل أن أمّته وأهله ، وأتفد معاوية ذلك ، ودخلها المسلمون في الليل وكثروا فيها ، فأراد الروم أن يهربوا من السرداب ، فوجدوا المسلمين عليه ، وفتح المسلمون الباب فدخل معاوية ومن معه ، وكان بها خلق من العرب ، ... ، ويروي البلاذري أن بعض اليهود كانوا عيوناً للمسلمين إذ أنّ « أبا عبيدة بن الجراح صالح السامرة بالأردن وفلسطين ، وكانوا عيوناً وأدلاء للمسلمين ، على جزيرة رؤوسهم ، وأطعمهم أرضهم »^(٧٧).

ويرى فرح أنطون أنه أدعى إلى الإنصاف والموضوعية أن يستقي مادته التاريخية حول الروم وأمثالهم من المصادر التي كتبها هؤلاء لأن كل قوم أدري بتاريخهم ، مع أن هذه المقولة لا تصحّ دائماً . فقد استقى « الفصل الثاني والعشرين » وهو « حديث سياسي للشيخ سليمان » من تاريخ بيزنطة إذ أورد في الهامش: « كل ما يرد في هذا الفصل على لسان الشيخ ملخص من تاريخ بيزنطة وإن لم يوضع عنده نجمة » . (الرواية ص ٢٧٧) وينقل في موضع آخر عن كتاب « أسباب عظمة الرومان وأسباب سقوطهم » ، (الرواية ص ٢٨٢) ويشير إلى مصدر مونتسكيو أحياناً من مثل قوله « وقد نقل عن بروكوب المؤرخ اليوناني (ص ٢٨٢) .

وكان يشير إلى الترجمة الحرفية عن مونتسكيو في الهامش (الرواية/ ٢٨٥) وكان يتدخل في الهامش ليعلق على ما ينقله حرفياً عن مونتسكيو فيفسره تفسيراً مختلفاً . (الرواية/ ٢٨٦) وعلى هذا النحو حاول فرح أنطون أن يلتزم الروايات التاريخية التي أسعفته بها المصادر ، بيد أنه كان حريصاً على الطابع الروائي ، فاهتمامه بفتح الشام للواقدي تجاوز المادة التاريخية التي أسعفته في صياغة روايته

إلى طبيعة المادة التاريخية التي يغلب عليها طابع القصة والمغامرة والخيال أحياناً . ولعلّه أشار إلى ذلك بطريقة غير مباشرة (الرواية ٢٤٦ ، ٢٧٢) .

معروف الأرنؤوط وروايته سيد قريش ، عمر بن الخطاب ، فاطمة البتول

حين نحاول أن نتأمل هذه الروايات فإننا لا نقع على أحداث تاريخية مباشرة تتصل بهذه الشخصيات اتصالاً مباشراً ، فالأحداث الاجتماعية العاطفية التي تنفلت من قيود التاريخ هي التي تغلب على شخصيات الرواية ، مع أن احتفاله بالتاريخ كان كبيراً ، وكانت حماسته لأحداثه بالغة . فقد أدت حماسته للمادة التاريخية التي يعالجها في رواياته إلى خلق شخصيات لا صلة لها بالحقيقة التاريخية أو إلى التصرف في ممارسات الشخصيات الكبيرة ، مثلما نجد في شخصية ليلى الساحرة عمة امرئ القيس بن حجر التي تعدّ الشخصية الأولى في الرواية ، وفي شخصيتي ابنتي امرئ القيس « مارية » و « هند » ، وأمام الحقائق التاريخية المستمدة من كتب التاريخ والأدب والسير وغيرها ، لم يستطع الأرنؤوط أن يغير في هذه الحقائق تغييراً جوهرياً ، بل حاول ما استطاع أن يوثق معلوماته بالمصادر المختلفة كما أشرنا . ولما كانت شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام هي الشخصية الرئيسة في الرواية فإنه لا يمكن الأرنؤوط أن يبدل في موافقها أو أحداث حياتها ، ولهذا لم يجد في الشخصية الرئيسة « عنوان الرواية » مجالاً لحرية الحركة ، أو التصرف الواسع ، فحاول أن يأتي بشخصية بديلة تتيح له مثل هذه الحرية ، وهي شخصية « ليلى » الكندية لتقوم بالعنصر الروائي ، فيطلق بخياله دون قيود ، ينتقل في الزمان والمكان دون أن يجد أي حرج . فشخصيات ليلى ومارية وهند وعمر بن حنظلة من صنع الخيال . وإن كان خلقه لشخصية « ليلى » بصورة خاصة متمعداً ، فقد حاول أن يحقق في هذه الشخصية صلة مأساوية دائمة مع القوتين الكبيرتين في ذلك الحين ، وهما دولتا الفرس والروم . وتمثل تلك الصلة فيما يرويّه التاريخ من نزاع بين امرئ القيس والنعمان ابن المنذر حول الدروع ، وفيما يرويّه التاريخ أيضاً عن موت امرئ القيس مسموماً في رحلته إلى بيزنطة . وهذا ما يرمز إلى حقيقة القوتين اللتين تتمثلان في صنيعة الفرس : الملك اللخمي ، وفي زوجة القيصر « ثيودورا » . لقد اغتسم الأرنؤوط مأساة « امرئ القيس » ليخلق شخصية « ليلى » الحرة ، لتتحدث كما تشاء ، ولتتحرك كما تشاء ، ولتنتهي إلى النهاية التي يريدها المؤلف نفسه . وكانت الصلة المأساوية نفسها بين الشاعر والقوتين الكبيرتين هي التي حدّدت موقف « سيد قريش » من هاتين القوتين ، فقد أتى ، والعرب شتى ، رمزاً للوحدة المنشودة . فالتقى بذلك الخطان : خط الشخصية التاريخية المتمثلة في « سيد قريش » وخط الشخصية المختلفة المتمثلة في شخصية « ليلى » الساحرة ، التي كانت بلورها وليدة شخصية تاريخية هي شخصية امرئ القيس .

وقد التزم الأرنؤوط في حديثه عن « سيد قريش » بالحقيقة التاريخية كما ترونها كتب السيرة

النبوة غير أن معظمها قبل بعثة الرسول ﷺ وتبدو هذه المعلومات مفروضة على الحدث الروائي لإفادة القارئ بمزيد من المعلومات من مثل الحديث عن الفرس وذي قار والشاعر الأعشى وهاتئ ابن مسعود وحظلة ابن ثعلبة ، ونقرأ أيضاً من القصص الجانية عن المسلمين والكفار ، ويحدثنا أحاديث شتى تقترب من المقالة والبحث التاريخي ، غير أنه ترك لنفسه حرية اختيار الزاوية التي يلتقط منها الأحداث والزاوية التي يفسرها من خلالها ، فقد أقام الأرنؤوط صلة شبه عدائية بين الفساسة والقيصر كما بدأ في صنيع عمرو بن الحارث ضد القيصر ونجاة منه ، مع أن المراجع التاريخية تذكر أن الفساسة ظلوا على ودهم للروم حتى بعد هزيمتهم في معركة اليرموك . وأما قصة فاطمة البتول ، فعلى الرغم من طابعها التاريخي المعروف الذي يحمل ملامح المأساة الأليمة ، فإن الأرنؤوط شاء أن يجعل النهاية في غير صالح يزيد بن معاوية ، فجعله يفيق من غفلته ، ليقضي فريسة الهواجس والتذر المرعبة ، حتى أنه يموت ولم يحظ بالتكفير عن خطيئته بالجهاد ، وظل مصرع الحسين سوطاً يلهب ظهره حتى مات وعينا الحسين لتلاحقانه .

ويبدو أن الأسماء التي جاءت في رواية « عمر ابن الخطاب » مخترعة مع أن جو الأحداث يستند إلى حقائق تاريخية ، إذ لم تذكر المراجع الأجنبية التي تعرضت لتاريخ هذه الفترة هذه الوقائع الفردية . بيد أن التاريخ أورد أحداثاً عامة تتصل باضطهاد الدولة الرومانية لاثباع المسيحية في عهد جوستينيان ، ثم اضطهاد اتباع المذهب يعقوبي أو أصحاب الطبيعة الواحدة في سوريا ومصر . فلم يتقيد الأرنؤوط بذكر الأسماء التاريخية ولكنه التزم الأحداث التاريخية عامة . واختار بعض المواقف المتجادل فيها ، بل إنه أعطى نفسه الحرية في اختيار الرواية التي تناسبه ، بل إنه كان يختار ويحور كما يحلو له . وذلك فيما يتصل بموقف أصحاب البلاد من عرب وغير عرب من الفتح الإسلامي . ونظراً لحماسته لهذا التاريخ فقد وظفه توظيفاً رمزياً ، فجعل الشخصيات العربية وحدها تشارك في صنع التاريخ ، أما الشخصيات الأخرى التي حفلت بها من مثل « كريستيا » و « سافو » و « بنيامين » و « نفتالي » و « مارسيليوس » و « زكريا البطريك » في رواية عمر بن الخطاب ، فلم يشأ الأرنؤوط أن يجعل لهذه الشخصيات دوراً حقيقياً في تحقيق النصر على العدو ، لينقذها من بشاعة العبودية والاستغلال . فبنيامينا ونفتالي وكريستيا وسافو ومارسيلوس ضحايا لعسف الحاكم الروماني وأتباعه من رجال الدين .

وعلى الرغم من زواج سافو من فروة فإنها لم تشارك إيجابياً في الثورة على القيصر ، والانتصار للرسول عليه السلام ، بل لحقت بأخيها كريستيا في معتزله بالجبل ، وتركت زوجها بلاقي مصيره وحيداً وقد كان عملها الوحيد زيارة أرض المعركة بصحبة أخيها كريستيا ، لرؤية فروة على خشبة الصלב ، أما كريستيا فكان هدفه واضحاً يتمثل في استرداد التاج المفقود ، فلما شعر أن صراعه ضد القيصر لن يعود عليه بذلك التاج ، لأن التاج بعد اليوم ملك العرب ، أحس باليأس ، وآثر العزلة ، لموت مخضب الجراح على ضفاف الأردن عند حبيته بنيامين . وقتلت بليترا وابنتها مارية في قضية خاصة تدل على

ظلم القيصر ارعاياه . وأما نصرة القضية العربية فقد كانت وفقاً على العرب وحدهم . بل إن الشخصيات العربية كانت في موقف العون من رعايا القيصر نفسه .

وهكذا فإن الأرنأوط حكم الفترة التاريخية بالرمز الفني^(٧٨) الذي فرضه على أحداث الروايات وشخصياتها ، فخالف من المراجع التاريخية ما لا يحقوظيفة هذا الرمز على نحو ما رأينا في جعل العنصر العربي إلى صف القضية العربية ، وإن كانت الحقيقة غير ذلك من مثل موقف الحارث الغساني الذي قتل رسول النبي عليه السلام ، وفي موقف الغساسنة قبل معركة اليرموك وفي أثنائها ، ثم في موقف جبلة بن الأيهم الغساني الذي ارتحل إلى بلاد الروم نائراً لكرامته على رأس عشرين ألفاً من قومه .

وعلى هذا النحو لاحظنا أن الروائيين في هذه الفترة « أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين » وظفوا التاريخ في رواياتهم بما يتفق وأغراضهم وأفكارهم وأهوائهم ونظريتهم في فن الرواية .

وإذا كان الروائيون جميعاً يصمدون عن احترام للنص التاريخي ، ويحاولون تبعاً لذلك ، أن يوثقوا رواياتهم بالمصادر والمراجع التاريخية ، فإنهم أيضاً قد تباينوا في توظيف التاريخ في أعمالهم الفنية من الناحية الفعلية ، إذ نجد البستاني يخلب عاطفته ، تجاه الرومان ، على حسه القومي فينسب إلى التاريخ ما ليس منه حيناً ، ويفسر أحداثاً تاريخية تفسيراً يخالف الحقيقة التاريخية حيناً آخر مثلما نرى جورجى زيدان يعمد إلى تغليب فكرته على الحقيقة التاريخية ، إذ يظل وفيّاً للحقيقة التاريخية حتى تصطدم مع فكرته الأساسية فلا يجد حرجاً في مخالفة التاريخ ليحقق تلك الفكرة ، على نحو ما رأينا في وصفه المقوقس وصفاً يخالف التاريخ ، وفي توجيه علاقاته توجيهاً يتفق والفكرة الرئيسة .

ولعل الأمر ذاته هو الذي وجه فرح أنطون ، فعلى الرغم من أنه ، وثق مادته التاريخية توثيقاً علمياً أشرنا إليه في متن مناقشة الرواية فإنه كان يخالف الحقيقة التاريخية حين لا تتفق وفكرته الرئيسة .

ومهما يكن ، فإن هؤلاء الروائيين لم تتضح في أعمالهم العاطفة القومية ، تلك العاطفة التي وجهت رواد الرواية في الغرب من مثل والتر سكوت كما قدمنا ، ولعل معروف الأرنأوط يتفرد من بينهم بوجود الإحساس القومي الذي وجه رؤيته للتاريخ من أحداثه وشخصياته ومغزاه فكراً وحضارة ■



الموامش

- (١) الهيام في فتوح الشام مجلة الجنان ، بيروت مجلد عام ١٩٧٤ م .
- (٢) أرماتوسة المصرية - دار مكتبة الحياة - بيروت د. ت .
- (٣) فتح العرب بيت المقدس - القاهرة ١٩١٩ م .
- (٤) سيد قريش (٣-١) مطبعة فتي العرب - دمشق ١٩٢٩ م .
- (٥) عمر بن الخطاب (٢-١) مطبعة فتي العرب - دمشق ١٩٣٧ م .
- (٦) فاطمة البتول - مطبعة فتي العرب - دمشق ١٩٤٢ م .
- (٧) د. عبد المحسن بدر : تطور الرواية العربية الحديثة ص ٣٨ في مصر ٩٠-٩٤ .
وانظر أيضاً :

George Lucacs, The Historical Novel Translated From Germany by Hanna and Stanley Mitchell

Humanities Press Atlantic Highlands N.J U.S.A 1978.

حيث أشار لوكاتش إلى أن الرواية التاريخية نشأت بسبب الحروب النابوليونية التي أوجعت الروح القومية ، وأشار أيضاً إلى أن سكوت كان وطنياً فخوراً بتطور شعبه ، وهو أمر حيوي لإبداع رواية تاريخية حقيقية ، انظر مثلاً ص ٥٣ .

- (٨) الهيام في فتوح الشام ص ٨٦ .
- (٩) أشار إلى أن مراجع روايته هي : الخطط للمقريزي ، تاريخ الطبري ، تاريخ مصر الحديث لجورجي زيدان ، الواقدي ، ابن هشام ، ابن الأثير ، تاريخ ابن خلدون ، حسن المحاضرة للسيوطي ، تاريخ عبد اللطيف ، مؤلفات شاميلويه ، ومارسيل ، وماريت ، ولكتسن ، وشارب والعقد الفريد .

(١٠) الهيام في فتوح الشام ص ١٠٢ .

(١١) المصدر السابق ص ٢٨٦ .

- (١٢) إبراهيم السعافين : تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام ، دار الرشيد ، بغداد ١٩٨٠ .
- (١٣) انظر مقدمة رواية « عمر بن الخطاب » وشاكر مصطفى : القصة في سورية ٤٩٠ ، ٤٩١ .
- (١٤) تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام

(١٥) الهيام في فتوح الشام ص ٧٨٤ .

- (١٦) الواقدي (أبو عبد الله محمد بن عمر) فتوح الشام - ط ١ ص ٨٣ ، دار الجيل بيروت د. ت .
- (١٧) ابن خلدون ، عبد الرحمن : تاريخ ابن خلدون في أيام العرب والمعجم والبربر ومن عاصره

من ذوي السلطان الأكبر المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ١ ص ٣٦٤ ، مطبعة النهضة بمصر ١٩٣٦ م .

(١٨) الهيام في فتوح الشام ٦٨٤ .

(١٩) للطبري أبو جعفر بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار سويدان بيروت لبنان .

DONEER, FREDMC GRAW : The Early Islamic Conquests P. 140 Princeton University (٢٠) Press New Jersey 1981.

Ibid P. 144

(٢١)

(٢٢) الهيام في فتوح الشام ص ٣٩٣ .

(٢٣) المصدر السابق ص ٥٧٣ .

(٢٤) المصدر نفسه ص ٢٨٦ .

(٢٥) فتوح الشام ج ١ ص ١٦٣ .

(٢٦) البلاذري ، أحمد بن يحيى : فتوح البلدان ص ١٢٠ .

(٢٧) الهيام في فتوح الشام ص ١٧٦ .

(٢٨) المصدر السابق ص ٥٣٥ .

(٢٩) المصدر نفسه ص ٥٣٦ .

(٣٠) تاريخ الكامل ج ٢ ص ١٧٣ .

(٣١)

The Early Islamic Conquests P. 19.

(٣٢) الهيام في فتوح الشام ص ٦٤٧ .

(٣٣) فتوح الشام ج ١ ، ٥٢-٥٤ .

(٣٤) الهيام في فتوح الشام ص ٧٥٣ .

(٣٥) للمصدر نفسه ص ١٣٨ .

(٣٦) فتوح الشام ص ١٢ .

(٣٧) المصدر نفسه ج ١ ، ص ٦٥ ، ١٦٩ وغيرها .

(٣٨) أرماتوسة المصرية ص ٩ - ١٠ .

(٣٩) المصدر السابق ص ٢٤ .

(٤٠) د. شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ط ٥ ص ١٣٤ دار العلم للملايين ١٩٨٠ م .

Butler, Alfred J, The Arab Conquest of Egypt P. 3 Oxford 1962 .

(٤١)

Ibid P. 178, 188 .

(٤٢)

- (٤٣) حركة الفتح الإسلامي ص ١٣٤ .
 The Arab Conquest of Egypt P. 175
 (٤٤)
 (٤٥) فتوح البلدان ص ٢١٧ .
 (٤٦) حركة الفتح الإسلامي ص ١٣٩ .
 (٤٧) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٢٢٦ .
 (٤٨) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٧ .
 (٤٩) أرمانوسة المصرية ص ٣٩ .
 (٥٠) حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ص ١٤٣ .
 (٥١) أرمانوسة المصرية ص ٣٩ .
 (٥٢) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٣٤٥ .
 (٥٣) علق جورجي زيدان على ضحية النيل في هامش ص ٥٣ بقوله : « إن القول بضحية عند المصريين لم يثبت ، وإنما جئنا به هنا للإشارة إلى ما يقال في هذا القبيل ، وفيه لذة وتسلية ، أما رأينا فتجده مفصلاً في الجزء الرابع والعشرين من السنة الثالثة من (الهلال) الصادرة في ١٥ أغسطس ١٨٨٥ » وانظر فتوح الشام ج ٢ ص ٦٩ .
 (٥٤) فتوح الشام ج ٢ ص ٤٥ وما بعدها .
 (٥٥) المصدر نفسه ص ٨١ . وانظر نص كتاب الرسول عليه السلام إلى هرقل في تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٢٢٣ .
 (٥٦) انظر أرمانوسة المصرية ص ٤٢ .
 (٥٧) المصدر السابق ص ٤٠ - ٤١ .
 (٥٨) المصدر نفسه ص ٤٢ ، وانظر فتوح الشام ج ٢ ص ٦٤ .
 (٥٩) المصدر نفسه ص ٤٥ .
 (٦٠) المصدر نفسه ص ٤٥ ، ١٤٤ .
 (٦١) المصدر نفسه ص ١٥١ .
 (٦٢) انظر أرمانوسة المصرية ص ٨٢ وانظر كذلك السيرة النبوية لابن هشام القسم الثاني ص ٢٧٧ - ٢٧٨ تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شليبي ط ٢ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٥٥ .
 (٦٣) أرمانوسة المصرية ص ٨٢ وانظر لابن كثير : الإمام أبي الفداء إسماعيل : شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه ص ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ تحقيق مصطفى عبد الواحد مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة ١٩٦٧ .
 (٦٤) أرمانوسة المصرية ص ٨٤ ، وشمائل الرسول ص ٨٦ - ٨٩ ، وفتوح الشام ج ٢ ص ٣٧ .

- (٦٥) أرماتونسة المصرية ص ٧٤ وانظر حركة الفتح الإسلامي ص ١١٣ نقلًا عن ابن عبد الحكم .
- (٦٦) أرماتونسة المصرية ص ٢٧ ، ٣٤٢ وانظر The Arab Conquest of Egypt P. 188 ، وقد أورد ابن خلدون نص الخلف في تاريخه ج ٢ ص ٣٤٠-٣٤١ .
- (٦٧) انظر أرماتونسة المصرية ص ١٨٥ ، وكتاب تاريخ الحكماء مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات ، كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي ٣٥٣-٣٥٧ ، مكتبة المثنى ببغداد ، ومؤسسة الخانجي بمصر د. ت .
- (٦٨) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٠٩ .
- (٦٩) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٧ .
- (٧٠) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٣٩ .
- (٧١) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٣٩ .
- (٧٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٦ ص ٢٦٣-٢٦٤ تحقيق أحمد أمين وزملائه ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٩ .
- (٧٣) فتوح الشام ج ١ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .
- (٧٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٦٩ .
- (٧٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٩ .
- (٧٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٣٠ .
- (٧٧) البلاذري : فتوح البلدان ، القسم الأول ص ١٨٧ ، نشر صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٦ ، وفتوح الشام ج ١ ص ٧٧ .
- (٧٨) انظر تفاصيل ذلك في كتابي « تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام » ص ١٦١ وما بعدها . دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ .



رحلات علماء نجد إلى الشام طلباً للعلم

● الأستاذ عبد الله حمد الحقيـل ●

في موضوع سابق تحدثت عن علاقة نجد بالشام في الفترة من ١١٥٧ هـ إلى ١٢٢٥ هـ وفي هذا الموضوع نلقي الضوء على رحلات علماء نجد الذين انطلقوا يبحثون عن العلم والمعرفة .

ولا غرو فلهذه البلاد ماضي علمي عريق فهي منارة العلم وقلعة المعرفة مهد الفصاحة وموطن البلاغة ومنطلق الأدب ومأزر الفكر ومهوى أفئدة العرب والمسلمين ..

عرفت شبه الجزيرة العربية من قديم بصعوبة اجتياز صحاريها وبواديها ، وفي سبيل

التغلب على تلك الصعوبة ، استغلت الإبل كوسيلة للانتقال ، نظراً لقوة تحملها لحرارة الشمس ، وندرة الماء ، وتغطي الحصى والرمال والأشواك على حد سواء ، حتى قيل في وصف الجمل إنه سفينة الصحراء ..

وكان الناس يتحملون متاعب اختراق الصحاري والمفاازات بحثاً عن الرزق ، إما في صورة طلب مرتع أفضل وأخصب ، أو في تجارة يحملونها للأسواق والتجمعات العمرانية ، أو للهجرة لمكان أوفر أمناً ومرعاً .. أو غير ذلك من أسباب ، كما كانت قوافل الحجيج التي تشق طريقها إلى البيت العتيق قد اتخذت لنفسها الطرق والدروب عبر الصحاري ، تسلكها كل عام ، حتى عرفت تلك الطرق في بعض أجزاء منها باسمها ، فقيل درب الحاج الشامي ، أو العراقي ، أو المصري أو غير ذلك ..

كان هؤلاء الذين يجوبون المفاازات ، ويعبرون الصحراء ، على اختلاف أغراضهم في ذهابهم وإيابهم ، هم وسيلة نقل المعرفة الإنسانية من مكان لآخر .. بما يروونه من أخبار .. أو يحملونه من كتب مصنفة ، إما للقراءة ، أو للإتجار بها .. كما كان لتجار نجد دور بالغ الأثر في ذلك ، إذ وطئت أقدامهم ، أرض الشام ، والعراق ، ومصر ، وفلسطين ، والسودان ، وغيرها من دول أفريقيا .. بجانب شهرتهم بالتجارة في شرق آسيا .. وشبه القارة الهندية بالذات ..

كان بعض هؤلاء العابرين للصحراء يمرون ببلدان نجد فيستريحون من عناء السفر ، فيفيدون ويستفيدون ، و كان يوجد بجانب هؤلاء فئة تجوب الصحراء لغرض أنبل وأسمى ، وتستلذ المتاعب في سبيل غايتها النبيلة ، هذه الفئة هم طلاب العلم ، الساعون إليه أينما كان ، لا تعوق الصحراء بما فيها من مخاوف ومهالك حركة سعيهم ، أو تحول بينهم وبين ما يشتهون من فهم للعلم ..

كان الرُواد الأوائل من أبناء نجد ، يقطعون صحراء شبه الجزيرة العربية ، ذهاباً وإياباً .. إلى العديد من بقاع الأرض طلباً للعلم ، يبدأ تلقي العلم أولاً في بلده ، مسقط رأسه ، فإذا أراد المزيد انتقل إلى بلدة مجاورة اشتهرت بعلمائها ، فإذا لم يتحقق رغبته ، وفهمه للعلم لم يزل ، انتقل إلى بلدة أخرى تموج بالعلماء .. وهكذا حتى يحقق طموحه ورغبته ، ثم يعود لموطنه ، ومسقط رأسه .. يحمل إليها رسالة العلم ، بالتدريس والإفتاء والوعظ والإرشاد ،

والبعض من هؤلاء كان يستمر في البلدان التي أخذ عن علمائها ، ويتصدى فيها للتدريس ، والإفتاء ، لفترة تطول أو تقصر ، ثم يعودون بعدها لموطنهم في نجد ..

العجيب أنهم كانوا لا يملون من كثرة الترحال والتنقل داخل بلدان نجد ، وخارجها ، سعيًا في طلب العلم ، يبحثون عن العلماء ، ليأخذوا عنهم في مختلف العلوم والفنون ، فإذا ما رغب أحدهم في المزيد ، جمع همته وشد رحاله إلى بلد اشتهرت بوفرة علمائها .. كل ذلك مع صعوبة الحياة المعيشية وقتها ، وقلة ذات اليد ، والمعاناة . الانتقال من مكان لآخر ، وفي الحصول على الكتب والمراجع وأدوات الكتابة وغيرها ..

ومع قسوة الحياة ، والمعاناة التي واجهت هؤلاء ، فقد ارتقى العديد منهم مرتقى عالياً ، وصاروا من مشاهير العلماء ليس في نجد وحدها وإنما في البلدان التي سعوا إليها طلباً للعلم ، كالشام ، ومصر وغيرها .. وكانوا همزة الوصل بين نجد وغيرها من البلدان ، وشعاع المعرفة ، والصلة العلمية والثقافية المتدفق من قلب شبه الجزيرة العربية إلى أجزاء العالم العربي والإسلامي .

ومعروف أن قسوة الحياة المعيشية ترغم الناس على توظيف كل أفكارهم وجهدهم بحثاً عن الرزق أما أن يكتفوا باليسر منه ثم يسعون في طلب العلم فذلك شئمة أصحاب الهمم العالية .. أحد هؤلاء العلماء تلقى العلم في بلده القريبة من بريدة بالقصيم ، ثم رغب في المزيد فانتقل إلى الرياض وأخذ عن علمائها ، ثم علت همته طلباً في المزيد فسافر إلى الشام ، وجد واجتهد حتى أجزى في كثير من العلوم ، وأصبح مؤهلاً للتدريس والإفتاء .. فقرر العودة إلى بلده لينشر فيها شعاع العلم فكان كل هم أنه أن جمع مجموعة كبيرة من الكتب والمراجع ، وجعلها في صناديق حملها بعير اشتراه وسار به ضمن قافلة كانت قادمة من الشام إلى نجد ..

علم أهله بقرب وصوله إليهم بعد غياب طال أمده ، فكانوا في انتظاره على شوق ، ولما وصل استقبلوه في سعادة غامرة ، ثم وقفت راحلته المثقلة بما حملت ، وحطت رحالها أمام بيته ، وكان أبوه في استقباله ، فظن أهله أن ما حملته الراحلة هدايا ومؤن ونفقة ، فقد كانوا في غير ميسرة ، لكنهم فوجئوا بأنه يخرج من الصناديق كتباً وورقاً ، فالتفت إليه والده قائلاً : كنت أظن أنك تعاطيت التجارة خلال إقامتك في الشام ، وأن هذه مليعة بالمؤن والكسوة والنفقة .. فإذا بها قراطيس لا تغني من جوع .. فقال الابن ، وهو يبتسم في وجه والده : يا أبي إن هذه القراطيس خيرى الدنيا والآخرة .. وكان بالفعل كما قال : فما هي إلا فترة يسيرة إلا وجلس الابن للتدريس ، فأقبل الطلاب إليه من كل ناحية ، وذاع اسمه ، وتولى القضاء في بريدة والوعظ والإرشاد .. وخرج أهله من ضائقتهم المعيشية ، بنور العلم وهدايته .. إنه الشيخ سليمان

ابن علي بن مقبل ، المولود حوالي عام ١٢٢٠ هـ بقرية المنسي إحدى القرى القريبة من بريدة .. وهو واحد من عشرات غيره ، بل مئات .. لاقوا المتاعب والصعاب ، وجدوا واجتهدوا .. وتنقلوا من بلد لآخر سعياً في طلب العلم ، متغلبين على كافة العوائق ، حتى أصبحوا من مشاهير العلماء وكانت الشام تحظى بالنصيب الأوفر من تلك الرحلات العلمية في نجد .. ويصعب أن تقوم بحصر لأسماء هؤلاء العلماء الذين جابوا البلاد طويلاً وعرضاً ، طلباً للعلم ، وكان في مقدمتهم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب الذي تنقل في مرحلة طلبه للعلم بين العيينة والحجاز والبصرة والزيبر والاحساء ، كما هو معروف لكل دارس لتاريخه الخافل ، كما كان منهم العلماء الآتية أسماءهم : الشيخ إبراهيم بن أحمد بن يوسف الوهبي القميمي ، النجدي ، المولود في بلدة أشيقر عام ١١٤٦ هـ ، حيث نشأ فيها ، وقرأ على علمائها ، حتى حصل جانباً وافراً من العلم ، ثم رحل لأداء فريضة الحج ثلاث مرات ، وفي المرة الأخيرة سافر من مكة المكرمة إلى دمشق عام ١١٨١ هـ ، بصحبة الركب الشامي الذي كان يؤدي فريضة الحج نفس العام ، فاستقام في دمشق لطلب العلم حتى علا شأنه ، وأُجيز للتدريس ، فجلس يدرّس للطلبة في الجامع الأموي ، وأصبح مرجعاً في الفقه الحنبلي ، وأصوله ، واحتل مكانة مرموقة بين علماء دمشق ، وظل فيها هكذا إلى أن توفي فيها عام ١٢٠٥ هـ ، وهو يعتبر من ذوي المحاولات الأولى في كتابة تاريخ نجد ..



- الشيخ أحمد بن محمد بن مشرف ، الوهبي ، المتوفى عام ١٠١٢ هـ ، فقد ولد في بلدة أشيقر ، وقرأ على علمائها ، ثم لما جدّ في طلب العلم رحل إلى دمشق ، وأخذ عن علمائها ، ولازم الشيخ موسى الحجاوي ، مصنف كتاب « الإقناع » ولما أُجيز من بعض علماء دمشق ، وأصبح مؤهلاً للتدريس والإفتاء ، عاد لموطنه في نجد ، وجلس يدرس لطلاب العلم ، حتى اشتهر شأنه ، وانتفع به خلق كثير ، ولم يزل كذلك إلى أن توفي عام ١٠١٢ هـ في بلدة أشيقر ..

- الشيخ أحمد بن يحيى بن عطوة بن زيد ، القيمي ، ولد في العينة في النصف الأخير من القرن التاسع الهجري ، ونشأ فيها ، وقرأ على علمائها ، ثم رغب في المزيد من طلب العلم ، فجمع همته ورحل إلى دمشق ، وسكن في مدرسة أبي عمر ، المنسوبة إلى الشيخ محمد بن أحمد بن قدامة ، شقيق موفق الدين بن قدامة ، حيث كانت حافلة بالعلماء في ذاك الوقت ، ولازم فيها أكابر العلماء ، وأخذ عنهم ، وتزامل هو والشيخ موسى الحجاوي في طلب العلم والدراسة ، حتى حصل على قسط وافر من العلوم الدينية واللغوية ، ثم عاد إلى نجد ، وسكن بلدة الجبيلة ، وتصدى للإفتاء والتدريس ، وذاعت سمعته العلمية ، وتوافد إليه العديد من طلاب العلم ، وصار عين علماء نجد في زمانه ، وظل هكذا إلى أن توفي في شهر رمضان عام ٩٤٨ هـ ..

- الشيخ حسن بن علي بن عبد الله بن بسام ، المتوفى عام ٩٤٥ هـ ، فقد ولد في بلدة أشيقر ، ونشأ فيها ، وتلقى العلم عن علمائها ، وقرأ على الشيخ معين الدين محمد ، صاحب التفسير المسمى « جامع البيان » وذلك أثناء مروره على بلدة أشيقر في طريقه لأداء فريضة الحج عام ٩٠٣ هـ .. ثم لما جدّ في طلب العلم سافر إلى الشام ، وأخذ عن علمائها ، وكان من بينهم الشيخ موسى الحجاوي ، ثم لما أصبح مؤهلاً للتدريس والإفتاء عاد إلى بلده أشيقر ، وجلس فيها للتدريس والفتوى ، وظل هكذا إلى أن توفي عام ٩٤٥ هـ ..

- الشيخ زامل بن سلطان الخطيب آل يزيد ، من بني حنيفة ، ولد في بلدة مقرن في مطلع القرن العاشر الهجري ، ونشأ فيها ، وقرأ على علمائها ، وعلى علماء البلدان المجاورة ، ثم رغب في طلب المزيد فرحل إلى دمشق ، فأخذ عن علمائها ، ثم انتقل إلى مصر ، فأخذ عن علماء الجامع الأزهر ، ولازم الشيخ الفتوح قاضي الخنابلة في زمنه ، ثم عاد إلى موطنه في نجد ، فتولى القضاء في الرياض ، وجلس للتدريس والإفتاء ، وظل يزاوّل عمله هذا إلى أن توفي في النصف الأخير من القرن العاشر الهجري ..

- الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم السنائي السبيعي ، ولد في عنيزة ، ونشأ فيها ، وتلقى العلم عن علمائها ، ولما رغب في طلب المزيد انتقل إلى الشام ، وأخذ العلم عن علمائها ، ولازم الشيخ جمال الدين القاسمي ، ثم انتقل إلى العراق فأخذ عن الشيخ نعمان الألوسي ، والشيخ شكري الألوسي ، الذي أثنى عليه ثناء عظيماً ، نظراً لما لمسه فيه من جد واجتهاد ، وذكاء وسرعة إدراك ، وقد ظل بها يتلقى العلم ، وفي نفس الوقت يمارس أعمال التجارة كوسيلة يتعيش منها ، حتى وافاه أجله المحتوم بها عام ١٣٢٧ هـ ..

- الشيخ عبد الله بن أحمد الرواف الوهبي القيمي ، ولد في بلدة بريدة بالقصيم عام ١٢٩٢ هـ ، ونشأ فيها ، وبدأ يطلب العلم على يد علمائها ، ثم على يد غيرهم من علماء البلدان المجاورة ، وحين رغب في المزيد جمع همته وسافر إلى دمشق ، فأخذ عن علماء الحنابلة ، وجد واجتهد في تحصيل العلم حتى أجز في بعض العلوم ، وانتهر فرصة وجوده بدمشق وأخذ ينسخ كثيراً من الكتب ، وبخاصة كتب الحنابلة التي كانت تزخر بها المكتبة الظاهرية ، وأصبح لديه أكبر مكتبة خاصة في زمنه .. ثم عاد لموطنه بالقصيم ، لكنه ما لبث أن رحل إلى المدينة المنورة ، وأخذ عن علمائها ، ثم انتقل إلى عسير ، ثم حضرموت حيث تولى فيها القضاء عام ١٣٢٩ هـ ، حتى عام ١٣٤٦ هـ ، ثم انتقل إلى مسقط فأقام فيها عامين ، ثم انتقل عام ١٣٤٩ هـ إلى بلدة جعلان بعمان بناء على طلب أمرائها من آل حمود ، وكانوا حنابلة المذهب ، فظل بها إلى عام ١٣٥٩ هـ ، حيث وافته منيته وهو في عمله بالقضاء في بلدة جعلان ..

- الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف الشمري من آل ويار ، من بطن عبده ، من قبيلة فمر . جده عبد الله الشمري هو الذي أنشأ بلدة الجمعة عام ٨٢٠ هـ ، وسكنها هو وذريته من بعده ، ثم انتقل والد عبد الله إلى المدينة المنورة ، وأقام فيها طلباً للعلم ، وولد أبنائوه فيها ، ولما أدرك ابنه عبد الله وشب عن الطوق شرع في طلب العلم ، فأخذ عن والده ، وعن غيره من علماء المدينة المنورة ، ثم أراد المزيد فرحل إلى دمشق ، وأخذ عن علمائها ، وكان من أشهر من أخذ عنهم الشيخ أبي المواهب ، شيخ الحنابلة فيها ، ثم على الشيخ فوزان بن نصر الله النجدي ، ثم عاد إلى المدينة المنورة ليكمل طلبه للعلم ، فواصل جلوسه إلى أساتذته ، وجدّ واجتهد حتى أصبحت له مكانة علمية مرموقة بين العلماء ، فجلس للتدريس ، والإفتاء ، واشتهر أمره ، وعلا شأنه ، حتى عد من أكابر علماء المدينة المنورة ، وعندما حل الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالمدينة المنورة ، وقت طلبه للعلم ، جلس إليه ، وأخذ عنه ، وأشاد بعلمه وفضله ، توفي بالمدينة المنورة عام ١١٤٠ هـ ..

- الشيخ عبد الوهاب بن محمد بن حميدان بن تركي ، الحالدي نسباً .. العنيزي مولداً ومنشأً ، ولد في بيت علم ، فجده لأبيه وأمه من العلماء المبرزين في عصرهما ، فنشأ هذا على الاستقامة ، والهمة في طلب العلم ، فأخذ عن علماء بلده عنيزة ، ودفعته همته إلى المزيد ، فانتقل إلى الزبير وبغداد ، وأخذ عن علمائها ، حتى أجز في كثير من العلوم .. وقد ترجم له صاحب

السحب الوابلة ، ضمن ترجمة جده حميدان ، ثم رجع إلى بلده عنيزة ، فجلس فيها للتدريس والإفتاء والوعظ والإرشاد ، وظل هكذا إلى أن توفي فيها ..

- الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع ، ولد في عنيزة عام ١٣٠٠ هـ ، ونشأ فيها ، في بيت علم وصلاح ، ولما شب عكف على طلب العلم ، فجلس إلى علماء عنيزة ، وأخذ أيضاً عن علماء بريدة ، ثم رغب في طلب المزيد فسافر إلى بغداد ، وأخذ العلم عن علمائها ، وبخاصة العلوم العربية ، والفرائض ، والحساب ، ثم انتقل إلى مصر فأخذ عن علماء الجامع الأزهر ، وبالذات العلماء الحنابلة ، ثم انتقل إلى دمشق فأخذ عن علماء الجامع الأموي ، ثم انتقل إلى بغداد ثم البصرة حيث أقام فيها ، وأخذ عن علمائها ، ثم عاد لموطنه بعد أن صار من أكابر العلماء ، وقد تولى عدة مناصب ومهام علمية عديدة في المملكة ، وفي بعض دول الخليج العربي ، وعندما أنشئت أول مديرية للمعارف عام ١٣٦٥ ، أسندت إليه رئاستها ، إلى أن أصبحت وزارة فأُسندت إلى خادَم الحرمين الشريفين ، الملك فهد بن عبد العزيز ، حفظه الله ، حيث كان أول وزير لها .. فأطلق المسيرة التعليمية في البلاد وامتدت المدارس والمعاهد والجامعات ..

- الشيخ عثمان بن أحمد بن قائد النجدي ، ولد في بلدة العيينة ، أوائل القرن الحادي عشر الهجري ، وأخذ عن علمائها الذين كانت تحفل بهم ذلك الوقت ، كما أخذ على غيرهم من علماء البلدان المجاورة ، ثم رغب في طلب المزيد من العلم فرحل إلى دمشق ، وأخذ عن علمائها ، وجَدَّ واجتهد حتى حصلَ جانباً وافراً من العلوم الشرعية واللغوية ، ومهر في الفقه والأصول والنحو ، حتى ارتقى إلى مرتبة الفتوى والتدريس ، فتصدر لهما ؛ وحدث أن حصل بينه وبين مفتي الحنابلة بدمشق خلاف حول مسألة فقهية ، طال فيها النقاش والخلاف بينهما بشأنها ، واشتد أمره ، فكان من أثر ذلك أن ترك ابن قائد دمشق ورحل إلى القاهرة ، وواصل تلقي العلم في بقية العلوم الأخرى ، وكذلك الفقه الحنبلي حتى احتل مكانة علمية مرموقة ، واشتهر أمره ، وأُطْلِقَ عليه لقب المحقق ، وأثنى عليه العلماء ثناء عاطراً ، وانتهت إليه صدارة الإفتاء على المذهب الحنبلي في مصر ، كما انتفع بعلمه العديد من طلاب العلم في مصر ، من القادمين إليها من نجد والشام وغيرهم .. وكان له جهد واضح في تصنيف الكتب ، فقد أورد الشيخ عبد الله بن بسام في كتابه « علماء نجد خلال ستة قرون » أسماء مصنفاته .. وقد ظل مقيماً بمصر إلى أن توفي بها مساء الاثنين ١٤/٥/١٣٩٧ هـ ..

- الشيخ فوزان بن نصر الله بن محمد بن عيسى بن صقر بن مشعاب ، من المشاعيب ،

من آل جراح ، ولد في بلدة الجادة بالقرب من عنيزة ، ثم انتقل وهو صغير ، مع أهله إلى حوطة سدير ، فنشأ فيها ، وأخذ العلم عن علمائها ، كما جلس إلى علماء أشيقر ، وإلى غيرهم من علماء نجد ، وذلك أواخر القرن الحادي عشر الهجري ، وأجازه الشيخ أحمد القصير ، ثم رغب في المزيد من طلب العلم فرحل إلى الشام ، وأخذ عن علمائه ، حتى صار مؤهلاً للإفتاء والتدريس والوعظ والإرشاد ، فعاد إلى موطنه في حوطة سدير ، وجلس فيها للتدريس ، وتوافد إليه الطلاب ينهلون من علمه ، وظل هكذا إلى أن توفي عام ١١٤٩ هـ ..

هذه نماذج قليلة من أعداد كبيرة يصعب حصرها ، من طلاب العلم ، وراغبي المعرفة ، وناشري عبق الطيب ، ورقيق العرفان ، فيما بين نجد وغيرها من البلدان ، وبخاصة بلاد الشام التي ارتبطت مع نجد بعلاقات علمية منذ زمن بعيد ، وما زالت جذور تلك العلاقات ممتدة إلى عهد قريب ، حين انتشرت المدارس والمعاهد العلمية ، والكليات ، والجامعات ، وازدهرت مدن نجد وقراها ، وسائر بلدان ومناطق المملكة بحركة علمية زاهية زاهرة لم تشهدها من قبل ، وهذا بفضل الله ثم بفضل حكومتنا الرشيدة .. التي نقلت أبناء هذه البلاد إلى مرحلة متقدمة من التطور الحضاري وأصبحت دور العلم من أبرز المعالم في المدن وازدادت مرحلة التطوير والتكامل في مسيرة العلم والمعرفة ..

حقق الله لهذه البلاد ما تصبو إليه من عز ومجد وسؤدد .. فقد كانت ذات حضارة مشرقة وتاريخ مجيد وتراث حافل بالعطاء والأجداد .. ■



التربية التنموية

• د . عبد الرحمن محمد السيموي •

حولنا في كل دول العالم أن تصبح أمتا
العربية في سباق مع الزمن . ويضع التطور
العالمي أمتا في تحد ضخم يوجب عليها أن
تسارع الخطى في سعيها للتقدم . وتلعب
التربية دوراً رئيسياً في معركة التنمية .

تعتمد معارك التنمية التي نخوض
غمارها أمتا العربية في الوقت
الراهن اعتماداً كلياً على التربية ومؤسساتها .
فلقد أدى التطور المتلاحق الذي يحدث من



التفاعل بين التربية والتنمية :

تعتبر التنمية ، في الوقت الحاضر ، مطمحاً لجميع المجتمعات العربية والإسلامية ، وذلك للقضاء
على ما بها من تخلف ، وللإستفادة من منجزات العلم والتكنولوجيا الحديثة ، وللارتفاع بمستوى المعيشة
وتحسين نوعية الحياة^(١) .

ويعتقد البعض أن التنمية تشكل الحل السحري لجميع مشكلات المجتمع . وعلى هذا الأساس ،
قسمت المجتمعات إلى مجتمعات متقدمة نجحت في تحقيق خططها التنموية ومجتمعات متخلفة ، وأخرى
نامية ، وهي التي تسعى لتحقيق ارتفاع مستوى المعيشة على أرضها .

ومؤدى هذا أن الفرق بين هذه المجتمعات يكمن في درجة التنمية ونوعيتها . ويخطئ من يعتقد
بأن التنمية معادلة للنمو الاقتصادي ، ذلك لأن هناك مجتمعات ارتفع فيها متوسط دخل الفرد دون

أن يشارك الفرد في صنع الحياة . ومعنى هذا أن التنمية الحقيقية تظهر في إشباع الحاجات الأساسية لأفراد المجتمع ، بشرط أن يشمل هذا جميع حاجات الفرد من الغذاء والسكن والصحة والتعليم والعمل ، وتحقيق الذات ، والمشاركة في تقرير المصير ، وحرية التعبير والتفكير ، والأمن والشعور بالكرامة والاعتزاز بالوطن^(٢) .

ومن هنا يمكن اتخاذ التعريف التالي للتنمية :

« العملية المجتمعية الواعية الموجهة نحو إيجاد تحولات في البناء الاقتصادي والاجتماعي ، تكون قادرة على تنمية طاقة إنتاجية مدعومة ذاتياً ، تؤدي إلى تحقيق زيادة منتظمة في متوسط الدخل الحقيقي للفرد على المدى المتطور وفي نفس الوقت ، تكون موجهة نحو تنمية علاقات اجتماعية وسياسية ، تكفل زيادة الارتباط بين المكافأة وبين كل من الجهد والإنتاجية ، كما تستهدف توفير الحاجات الأساسية للفرد وضمان حقه في المشاركة وتعميق متطلبات أمنه واستقراره في المدى الطويل »^(٣)

إذا كانت المؤسسات الاجتماعية تلعب أدواراً مهمة في تحقيق العملية التنموية ، فإن التربية تحظى بدور مهم في تحقيق التنمية ، وضمان استمراريتها ، ولذلك فالتقدم التربوي يعد مؤشراً من المؤشرات الدالة على حصول التنمية ، وعلى اعتبار أن حاجة الشعب إلى العلم تعتبر من الحاجات الأساسية والمتزايدة ، والتي يقع على التربية عبء إشباعها .

ويحدد البعض الدور الذي يمكن للتربية أن تقوم به حيال العمليات الإنتاجية ، في نشر العلم بمجده الأدنى بين أكبر عدد ممكن من أبناء المجتمع ، والإسهام في تعديل قيم الناس واتجاهاتهم وطموحاتهم ، ومن ذلك الإيمان بالعمل كقيمة ، والإيمان بمجدوى غزارة الإنتاج وتحسينه ، وتكوين العادات الإيجابية في التفكير ، والتحلي بالموضوعية والدقة ، ونزب التواكل والسلبية ، والنزعات الاستهلاكية ، وإنتاج المنهج العلمي القائم على أساس الملاحظة والتجربة والتحليل والتطبيق والنقد والمقارنة والتركيب والتمييز والتعميم^(٤) . وإلى جانب هذا الدور ، على التربية أن تعمل على تأهيل القوى البشرية وإعدادها وتدريبها للعمل في جميع القطاعات ، على أن يتمشى هذا الإعداد مع الحاجات الأساسية والمتغيرة للمجتمع من القوى البشرية ، مع إعطاء الأهمية الكبرى لإعداد الأيدي العاملة المدربة والماهرة والتي يعاني المجتمع نقصاً شديداً فيها .

وإذا كانت التربية تؤثر في التنمية وتمدها بالعناصر البشرية الصالحة للقيام بمشاريع الإصلاح وال عمران والتطور ، فإن التنمية ، بدورها ، تؤثر في التربية . فلا شك أن تطوير المجتمع وتقدمه ورخائه ونموه يؤثر في التربية ، ويساعدها في التحسن من أداء رسالتها . فالتطور الأساسي والاجتماعي والاقتصادي يؤثر في عمليات التربية . وعلى هذا فإن العلاقة القائمة بين التربية والتنمية هي علاقة تفاعل أي أخذ وعطاء ، وتأثير متبادل ، فكل منهما يؤثر ويتأثر بالآخر ، بل لا بد لنا ، في هذه المرحلة ، من أن يكون للتربية ، في بلادنا ، دور قيادي^(٥) في حركة الإصلاح والتطور والتنوير والتنمية .

أهمية التربية في عصر النهضة

لا شك أن التربية من أهم المؤسسات الاجتماعية ، ذلك لأن التربية ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية ، لأنها منهج يحول الكائن البشري إلى كائن إنساني كامل ، وعن طريقها يتأقلم للمجتمع تعبيد سبل الحياة التي يحياها . ولما كانت المدرسة هي المؤسسة التي أوجدتها المجتمع لتقوم بتربية الناشئة الصغرى ، فإنها ، تحقيقاً لهذه الغاية ، تختار من الخبرات العديدة التي توجد في المجتمع وفي حياة الأفراد الذين يكونون هذا المجتمع ، ما يتناسب مع تحقيق أهدافها . وهذا الاختيار والتفضيل عملية أخلاقية ، في أساسها ، إنها أعمق عمليات النشاط الإنساني ، إذ ليس هناك عملية أخرى تضاهي في أخلاقياتها عملية تربية الأجيال .^(١)

وتتمكن التربية في أداء رسالتها على أساس الثقة في مرونة الكائن البشري الإنساني وقابليته للتغير ، وإمكانية التحكم في نشاطه في ضوء القيم والغايات الاجتماعية المرغوب فيها .

ولقد كانت التربية ، في الماضي ، تركز الاهتمام على المادة الدراسية ، ولكن التربية الحديثة تهتم بالانتماءات النفسية للمتعلم ، والتفاعل السوي بينه وبين المادة العلمية . ولقد شهدت شبه الجزيرة العربية أعظم حركة تنوير علمي عرفها التاريخ حين شهدت مكة المكرمة فجر النبوة ، وسطع فيها النور المحمدي ، الذي يمثل أكبر انطلاقة فكرية في وقت كان العالم كله يزرع فيه تحت ظلمة حالكة من الجهل والتدهور الحضاري^(٢) .

وفي العصر الحديث ، شهدت المملكة العربية السعودية نهضة علمية شائعة حيث بلغ عدد الجامعات بها سبع جامعات ، إلى جانب الرئاسة العامة لتعليم البنات ، وهذه الجامعات هي :

- ١ - جامعة الملك سعود .
- ٢ - الجامعة الإسلامية .
- ٣ - جامعة الملك فهد للبترول والمعادن .
- ٤ - جامعة الملك عبد العزيز .
- ٥ - جامعة أم القرى .
- ٦ - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- ٧ - جامعة الملك فيصل .

إلى جانب المعاهد الفنية والصحية ومراكز التدريب والمدارس الثانوية المهنية والصناعية والتجارية والزراعية ، ومراكز التدريب المهني والتكنولوجي^(٣) .

ويتميز التعليم في المجتمع السعودي بمزايا خاصة ، أبرزها الاهتمام بالجانب الديني والأخلاقي اهتماماً كبيراً ، وكذلك الاهتمام باللغة العربية ، مع الاهتمام بالمعارف العلمية والنظرية المعاصرة . علاوة على الاهتمام بإعداد المعلم ، والكتاب المدرسي الجيد ، وتطوير المناهج الدراسية ، وتوفير الوسائل المعينة على التدريس ، وكذلك المكتبات والمعامل والخبرات مع الاهتمام بتعليم الفتاة ، وبالتعليم الخاص ، بالسم والبكم ، وضعاف العقول ، والمكفوفين . وما زال أمام المملكة الكثير في ميدان النهضة العلمية .

مبادئ تربية التنمية :

لكل عصر من العصور نوع التربية أو النمط التربوي الذي يصلح له ، فالتربية في العصر اليوناني غيرها في العصر الروماني ، والتربية في العصور الوسطى غيرها في العصر الحديث . ذلك لأن التربية إن هي إلا وسيلة مهمة من وسائل تحقيق أهداف المجتمع ، وعلى ذلك فالتربية تختلف ، في أهدافها ومضمونها ومحتواها ومنهجها ، باختلاف الزمان والمكان . ولاشك أن التربية هي التي تقوم على إعداد الفرد الصالح للعيشة في مجتمع معين . وينطبق هذا على جميع الفلسفات التربوية ما عدا التربية الإسلامية ، ذلك لأن هذه الفلسفات من صنع البشر ، أما التربية الإسلامية فتستمد أصولها ومقوماتها ومنابعها من أقوال الخالق العظيم ، خالق البشر ، ومن سنة نبيه الكريم . ولذلك كانت التربية الإسلامية دون سواها من المذاهب التربوية ، صالحة لكل زمان ومكان ، لأنها أعلم بطبيعة البشر ودوافعهم ونوازعهم ، ولأنها تعتمد على الجوانب الإيمانية والروحية والخلقية ، وهي أسمى ما يوجد في الإنسان .

وإذا كانت التربية الصالحة تستهدف ، فيما تستهدف ، سد احتياجات المجتمع والوفاء بمطالب خططه التنموية ومشاريعه الإصلاحية ، من المتخصصين والمهرة في كافة المجالات ، فإن حركة التنمية التي تشهدها أمتنا الإسلامية ، في الوقت الحاضر ، تتطلب أن نعيد النظر في أنظمتنا التربوية من حيث محتواها ومنهجها وأهدافها وطرق التدريس فيها ، ووسائلها في تقويم أعمال التلاميذ ، ونظمها في القبول وتوزيع التلاميذ على أنواع التعلم المختلفة وفي أنماطها الإدارية والإشرافية وفي مصادر تمويلها وما إلى ذلك من العوامل التي تؤثر في العملية التعليمية وتجعلها أكثر فاعلية وأكثر قدرة على الوفاء بمطالب خطط التنمية ومشاريعها .

والجدير بالذكر أن التربية من أهم وسائل التنمية ، لأنها تمدّها بأعلى وأهم عناصرها ، وأعني به العنصر الإنساني البشري . وليست تنمية الإنسان المسلم وسيلة وحسب لدوره الفعال في معركة التنمية ، وإنما تنمية الإنسان المسلم إنما هي غاية في حد ذاتها ، لأن الواجب الإسلامي يقتضي منا أن نكرس الجهود لغرس قيم الحق والخير والصلاح والتقوى والورع في حس المواطن المسلم وعقله ووجدانه ، وأن نغرس فيه الإيمان الصادق للمقترن بالعمل الصالح . وعلى ذلك فيمكن اقتراح المبادئ الآتية لتكون الأساس للتربية الصالحة لعصر التنمية .

مبادئ التربية التتموية أو الإنشائية

- ١ - لابد من الاهتمام بالطفل ونموه الجسمي والعقلي والخلقي والاجتماعي ومن ذلك العمل على صقل مواهبه وتنمية ذكائه .
- ٢ - ويتطلب إعداد المعلم المسلم أن يلم إلماماً علمياً بالظروف النفسية للطفل ، وأن يعرف حاجاته ودوافعه وقدراته ، ومستوى ذكائه والمشاكل التي يعاني منها .. إلخ . ولا يكفي أن يكون ملماً بالمادة العلمية ، بل لابد من الإلمام بعلم نفس الطفل أو علم نفس النمو .
- ٣ - لابد من احترام شخصية الطفل وإشعاره بالأمن والأمان والطمأنينة ، وبث الثقة في نفسه ، وتمكينه من التعبير عن ذاته بمختلف أنواع التعبير ، وذلك حتى لا تكبت مشاعر الطفل ، وتصاب شخصيته بالضعف والوهن ، بل لابد من إتاحة الفرصة أمام الطفل لتنمية إرادته الحرة . ومن هنا فلا يفرض عليه المعلم إرادته هو ، ذلك لأن لكل جيل عصره وظروفه ومطالبه ، ولذا كانت ضرورة الاهتمام بتوفير فرص التعبير الحر أمام الطلاب ، في ظل التربية الإنشائية المنشودة ، من خلال الرسم والأشغال واللعب والرحلات والجمعيات الطلابية . ولا يفهم من هذه الدعوة الحرية المطلقة ، بل الحرية في ضوء احترام النظام والقانون والخضوع للإشراف والتوجيه والوعظ والإرشاد أي الحرية المقيدة بالصالح العام وبالقانون .
- ٤ - لا بد وأن تعتمد التربية الإنشائية على تشجيع النشاط الذاتي للطلاب ، من خلال التجربة والممارسة سواء في مجالات العمل أو اللعب .
- ٥ - يجب أن تصبح المدرسة ، في ظل عصر التنمية ، صورة صادقة من الحياة خارج جدرانها ، وعلى ذلك تتيح لتلاميذها فرص التعلم والاكتساب ، عن طريق الخبرة الشخصية ، وتشجيع التلميذ على الاعتماد على نفسه في تحصيل العلم والمعرفة وفي نماء شخصيته .
- ٦ - يجب أن تقوم الحياة المدرسية على أساس تنمية روح التعاون مع الجماعة ، وذلك عن طريق تشجيع النشاط التعاوني بين الطلاب ، وبينهم وبين الإدارة المدرسية .
- ٧ - يجب أن يسود المدرسة الجو الاجتماعي الصالح بحيث يسود العلاقة بين التلميذ وزملائه روح الاحترام المتبادل ، والأخذ والعطاء ، ومعرفة الحقوق والواجبات ، والالتزام بالقوانين واللوائح ، وذلك من خلال نشاط الجمعيات والأندية كجماعة الكشاف والجوالة .
- ٨ - يجب أن تهتم المدرسة بالصحة الجسمية والعقلية لتلاميذها . وهنا يلزم توفير فرص التدريبات والتمارين ، كما يلزم توفير الغذاء وأساليب العلاج والوقاية ، كما يلزم تحرير الطفل مما قد يصيبه من العقد والأمراض النفسية .

٩ - ينبغي أن يتحقق التعاون الكامل بين الأسرة المسلمة والمدرسة المسلمة في تربية الطفل وحل مشاكله أولاً بأول^(٩) استرشاداً بمبادئ إسلامنا الحنيف .

١٠ - يجب أن يكون من بين وظائف المدرسة الحديثة نقل التراث الإسلامي ، وكافة مظاهر الحضارة الإسلامية للأجيال الصاعدة ، ذلك لأن من لا ماضي له فلا حاضر له . وعلى المدرسة أن تتوخى في هذا النقل الأمانة والصدق . وإلى جانب هذا التراث عليها أن تعمل على تعريف الطلاب بالعناصر الصالحة فقط من التراث العلمي والتقني للعصر الحديث ، حتى يمكن الاستفادة من علوم هذا العصر ومنجزاته ، والاستفادة من خبرات الأجيال السابقة إذ لا يمكن الاعتماد على الخبرة المباشرة في جميع مظاهر حياتنا الصناعية والزراعية والطبية والثقافية وما إلى ذلك . ومن وظائف المدرسة حفظ التراث وتطويره إلى الأحسن دائماً^(١٠) .

١١ - لما كانت التنمية عبارة عن حركة نحو التقدم بمظاهر الحياة في المجتمع ، فإن المدرسة اللازمة لهذا المجتمع هي « المدرسة التقدمية » وهي التي تعد البيئة المناسبة ، وتعتمد على نشاط التلميذ وتوفر له المشكلات التي تستثير ذكائه لحلها وتقوم المدرسة بتشجيعه وتوجيهه نحو الأفضل .

١٢ - وعلى المدرسة ، الصالحة لمجتمع التنمية ، أن تحتفظ بالتراث ، وأن تسجل المنجزات الجديدة حتى يكون التراث الحضاري المتراكم تحت يد الأجيال القادمة للاستفادة منه .

١٣ - ومن مهام المدرسة ، المنشودة ، تبسيط الحقائق وعرضها للتلاميذ بالتدرج ، لأن الحضارة العلمية عبارة عن كل مركب ومعقد ، ولابد من تبسيطه حتى يتمكن التلميذ من فهمه واستيعابه . ومن هنا يلزم أن تعمل على تفهيم النشء النظم والقواعد والقوانين والعادات والتقاليد السائدة في المجتمع .

١٤ - على الرغم من أن مجتمع المدرسة ينبغي أن يحاكي المجتمع الخارجي ليسهل على الطلاب التكيف معه فيما بعد ، إلا أن المدرسة لا تنقل التراث كما هو بل عليها أن تغرله وتعمل على تنقيته من الشوائب ومن الخرافات والأباطيل ومن المفاصد الأخلاقية ومظاهر الشعوذة والتأخر ليكون الطالب ، فيما بعد ، عوناً للمجتمع في مقاومة هذه الأباطيل وتلك الخرافات والتقاليد الفاسدة ، ويعمل على انتشار العادات الطيبة التي تشرها في المدرسة . ولذلك يراعى القواعد الصحية ويسير وفقاً للنهج التعاوني . ومن هنا كانت « المدرسة التنموية » وسيلة في تخليص المجتمع من العيوب وإذكاء المحاسن والفضائل .

١٥ - من مهام المدرسة ، المنشودة ، إيجاد التقارب الفكري والثقافي بين طلابها . فالمدرسة تستقبل طلابها ولكل منهم ثقافته وعاداته الخاصة ، وعلى المدرسة أن تحقق التوحد والتجانس الفكري بين طلابها .

١٦ - وتحقيقاً لهذه الوحدة الفكرية والثقافية ، يتعين توحيد المناهج الدراسية في البلاد الإسلامية

لتكون المدرسة أداة وصل واتصال وانسجام ووثاق وتجانس واتحاد ، لتكون أداة المجتمع في القضاء على النزعات الطائفية والجماعات المنطوية ، أو المنعزلة ، فيشعر الطلاب بوحدة الأصل ، والمصير المشترك ، ووحدة الآلام والآمال ، والتاريخ المشترك .

١٧ - لما كانت التنمية تعتمد على سواعد قوية وعقول ناضجة ، فإن الصحة المدرسية عليها واجب مهم وهو المحافظة على صحة التلاميذ . وقاية وعلاجاً ، ونشر الوعي الصحي بينهم ، ذلك لأن العقل السليم في الجسم السليم .

١٨ - تعمل المدرسة على تنمية روح الإيثار وتفضيل المصلحة العامة على المصلحة الخاصة .

١٩ - على المدرسة أن تحرص على تنمية سمات المواطن الصالح في طلابها ، وهو المواطن المؤمن بربه وعقيدته الإسلامية السمحة ، والذي يتحمل المسؤولية ، ويرغب في التضحية ، ويؤدي ما عليه من واجبات ، ويؤمن بالفضيلة قولاً وفعلًا .

٢٠ - ولكي تقوم المدرسة بواجبها نحو التنمية ينبغي أن تكون هي نفسها بيئة مشبعة بالمواظف والمشاريع والحاصل الحميدة ، والتفاهم بين الطلاب والإدارة^(١١) .

٢١ - يجب أن توثق المدرسة من علاقتها ومظاهر تعاونها مع البيت ، بحيث تسهم في علاج ما يوجد في البيت من مشكلات .

٢٢ - يجب أن تفتح المدرسة ذراعيها وأبوابها على مصارعها للبيئة المحلية ، بحيث يستفيد أبناء المجتمع المحلي مما بها من أجهزة ومعدات ومعامل ومختبرات وورش وكتب ومكتبات ، وبحيث تصبح المدرسة بحق ، مصدرراً للإشعاع الثقافي والتثوير الحضاري في المجتمع الذي توجد به .

٢٣ - عليها أن تستقدم الخبراء ورجال الاختصاص بالمنطقة لكي يتحدثوا إلى طلابها ، كل في مجال تخصصه ، كما يخرج معلموها إلى البيئة الخارجية لإلقاء الدروس أو المحاضرات أو إعطاء التمارين والتدريبات^(١٢) .

٢٤ - يجب أن تعدل المدرسة من طرائقها في التدريس ، بحيث يتضح في ذهن الطلاب الغرض من كل ما يتعلمونه ، وبحيث يصبح له وظيفة في حياتهم وفي حياة المجتمع .

٢٥ - يجب أن تنقى المدرسة وتغربل مناهجها وتخلصها مما بها من الحشو الزائد والمعلومات عديمة النفع مع الاهتمام بتعليم الطالب كيف يتعلم ، فالمادة العلمية ليست هدفاً في ذاتها ، وإنما المهم هو تنمية قدرات الطلاب وصقل مواهبهم وتعديل اتجاهاتهم .

٢٦ - على المدرسة ، التنمية ، أن تؤمن قولاً وفعلًا ، بوجود الفروق الفردية بين طلابها . والحقيقة أنه لا يوجد شخصان يتشابهان تماماً . فالطلاب ليسوا نسخة واحدة ، ولا صورة واحدة ، وإنما هم يختلفون في كم وكيف ما يمتلكون من الذكاء والقدرات والاستعدادات والميول والمهارات والسمات

والأهداف والظروف ، وعلى ذلك يجب أن تتنوع المناهج الدراسية في مستوى صعوبتها ، وأن ينوع المعلم من طرائق تدريسه .

٢٧ - إن مدرسة تعمل في مجتمع يسعى للنمو ، لابد وأن تؤمن بقيمة الوقت ، وبمبدأ قصر الحياة ، وعلى ذلك تساعد طلابها على الاستثارة الأمل لوقتهم ، وأن تنتقي العناصر الصالحة من المعارف والمعلومات المتراكمة ، فتعليم الطالب لا يمكن أن يتناول كل شيء ، وإنما لابد أن يكون انتقائياً .

٢٩ - لما كانت عمليات التنمية تعتمد على تطبيق الحقائق والنظريات العلمية ومكتشفات العلم ومنجزاته ، فإن المدرسة مدعوة لتدريب طلابها على تطبيق هذه المعارف .

٢٩ - وحيث أن العمليات التنموية ، في جوهرها ، إن هي إلا تصدياً لمشاكل كبرى تواجه المجتمع ، وعلى ذلك فينبغي أن تنمي المدرسة في تلاميذها القدرة على حل المشاكل ، وفقاً للأسلوب العلمي^(١٣) .

ولقد حدد جون ديوي المشكلة « بأنها حيرة وشك وتردد تتطلب بحثاً أو عملاً يجري لاستكشاف الحقائق التي تساعد على الوصول إلى الحل^(١٤) » .

ويحدد جون ديوي في كتابه « كيف نفكر » الخطوات التي يمر بها الفرد حين تجابهه مشكلة ما يعكف على حلها :

- ١ - الشعور بالمشكلة أي شعوره بوجود مشكلة أمامه .
- ٢ - تحديد المشكلة ، أي وصفها وتحديد معالمها والتعرف على ماهيتها .
- ٣ - افتراض الحلول المحتملة ، أي وضع الحلول المبدئية التي يحتمل أن تكون حلولاً نهائية .
- ٤ - اختبار صحة هذه الفروض ، وذلك عن طريق جمع الأدلة والبراهين .
- ٥ - إصدار الحكم أو اتخاذ القرار .

وتعتمد التربية الجيدة على الاستعانة بوسائل الإيضاح السمعية والبصرية ومنها :

أولاً :

- ١ - ذوات الأشياء المراد توضيحها حية أو محنطة .
- ٢ - نماذج الأشياء .
- ٣ - الصور الشمسية أو الجغرافية أو غيرها .
- ٤ - رسوم الأشياء أو رسوم بعض أجزائها .
- ٥ - الرسوم البيانية والأشكال التوضيحية .
- ٦ - الشرائح .
- ٧ - الدوائر التليفزيونية .

ثانياً : وسائل إيضاح متعلقة بالشرح وتشمل :

- ١ - القصص .
- ٢ - الشرح .
- ٣ - التجارب العملية .

ثالثاً : وسائل إيضاح تفرج عن نطاق المدرسة وهذه تشمل :

- ١ - الرحلات المدرسية .
- ٢ - السينما .
- ٣ - الإذاعة اللاسلكية^(١٥) .

٣٠ - تتم « تربية التنمية » بصقل قدرات الإنسان ، وتنمية قدراته العقلية والجسمية ، ومهاراته ، واستعداداته ، وميوله ، وسماته ، وخصاله الطيبة . وعلى ذلك تزداد كفاءته الإنتاجية ، وفاعليته ، وإسهامه ، ومشاركته في حياة المجتمع ، ويزداد عطاؤه ، سواء كان في شكل خدمات أو سلع أو إدارة وإشراف ، وتحفيط وتصميم وابتكار .

٣١ - الإيمان بقيمة العمل كواجب وكحق وكهواية نافعة ، ومن ثم حب العمل ، ونبذ الكسل والتراخي والآنكالية والاعتماد على الغير ، واحترام العمل ، مهما كان نوعه ، وتقديره وممارسته بإخلاص وإتقان .

٣٢ - على التربية أن تحسن تنمية المواهب النافعة في أبنائها بما يضيف إلى الخير العام ، كتربية النحل ، أو دودة القز ، أو تربية الأسماك والطيور والدواجن أو زراعة البساتين والزهور أو حب القراءة والاطلاع والرحلات أو أشغال الأبرة والخياكة ... إلخ .

٣٣ - الاهتمام بالتعليم المهني الزراعي والصناعي والتجاري ، وتطوير مناهجه بحيث تتناول المهن الحديثة ، واستخدام التكنولوجيا والآلات الحديثة ، والاهتمام بالصناعات الدقيقة ، والوظائف الجديدة في المجتمع كالالكترونيات والأجهزة الحاسبة وما إلى ذلك .

٣٤ - تشجيع الأجيال الصاعدة على الانخراط في الأعمال اليدوية والحرفية ، وعدم احتقارها ، وغرس الاعتقاد بأنها لا تقل قدراً ولا شرفاً عن الأعمال المكتبية أو الذهنية . ويتطلب ذلك أن توسع التربية في إعداد العمال والصناع المهرة ، وتتم في إعدادهم برفع مستواهم الثقافي والمعرفي ، إلى جانب تزويدهم بالمهارات الحرفية الدقيقة ، حتى لا يشعروا بفقدان الثقة بالذات أو النقص والدونية .

٣٥ - على التربية أن تشجع أبنائها على العمل في المشاريع الإنتاجية والعمرانية مهما كانت بعيدة عن العمران ، وأن تحبب إلى نفوسهم العمل بالصحارى ، وفي المناطق النائية وفي المجتمعات الجديدة .

٣٦ - يجب أن تقوم المؤسسات التعليمية بتعريف تلاميذها بمخطط التنمية ومشاريعها ، وأن تفرس فيهم الإيمان بجدوى هذه المشاريع ، وتقدير الجهود المبذولة فيها ، ومن ثم دعوتهم للاشتراك فيها .

٣٧ - يجب أن تربى المدرسة أبنائها على الحياة الجادة وتحمل المسؤولية ، وذلك لأن خطط التنمية تحتاج إلى المخطط الجاد من الشباب .

٣٨ - لما كانت مشاريع التنمية تعتمد على المنهج العلمي ، فإن المدرسة مدعوة لتدعيم الاتجاه العلمي في أذهان طلابها ، والتمرس على ممارسة الأسلوب العلمي في تفكيرهم ، ومختلف ألوان نشاطهم ، وبذلك يبنون كل ألوان الحرافة ورواسب الشعوذة مع الالتزام بالحقائق العلمية والموضوعية .

٣٩ - لما كان المال أحد مقومات الخطط التنموية ، ولذلك فإن المدرسة مدعوة لكي تربى أبنائها على حب الادخار والاقتصاد في النفقات ، واستثمار ما لديهم من أموال ، أو ما سيكون في أيديهم من أموال من المشاريع العمرانية والإنتاجية ، مهما كانت هذه المشاريع بسيطة ، فإن لها قيمتها في ارتفاع الدخل الوطني . وعلى ذلك يتعلم الطالب ألا ينفق ماله إلا فيما هو ضروري ونافع ، وأن يلتزم الاعتدال والتوسط .

٤٠ - يتوقف الرخاء الاقتصادي والرفاهة الاجتماعية على وفرة الإنتاج وتحسين جودته ، وعلى ذلك ، فإن المدرسة الإسلامية المنشودة تعين عليها أن تنمي في طلابها حب إتقان العمل والتفاني فيه ، وتحسين مستوى جودته باستمرار ، بحيث تقوى منتجاتنا على المنافسة في الأسواق العالمية .

٤١ - يجب أن تجعل المدرسة التلميذ شخصاً منتجاً أكثر من كونه مستهلكاً ، ومعنى ذلك أن يزيد إنتاجه عن استهلاكه ، ومؤدى ذلك أن تعمل على ترشيد استهلاك الطلاب من السلع والخدمات وترشيد الطاقات .

٤٢ - يجب أن تحسن المدرسة استغلال أوقات الفراغ لدى طلابها ، بحيث يستفيدون منه في صقل مواهبهم ، وتنمية قدراتهم ومعارفهم ، أو في دخلهم وتحسين مستوى أسرهم .

٤٣ - لابد من تربية الفرد على الإيجابية ونبذ السلبية ، لأن مشاريع التنمية لا يمكن أن تؤدي ثمارها إذا وقف الناس موقف المتفرج حيالها .

٤٤ - يجب أن تفرس فيهم الشعور القوي بالانتماء للمجتمع ، لما لهذا الشعور من أهمية في دفع الفرد نحو الإيمان بكل ما يؤدي إلى سعادة المجتمع ورفائه وازدهاره ورفاهته .

٤٥ - لما كانت مشاريع التنمية تعتمد اعتماداً كلياً على القيم الخلقية وعلى ضمائر القائمين على تنفيذها ، فإن المدرسة الإسلامية مدعوة للاهتمام بالتربية الأخلاقية لطلابها ، وغرس قيم الفضيلة والعفة والزهارة والأمانة والصدق والوفاء والإخلاص والشعور بالواجب ... وما إلى ذلك من القيم الأصيلة التي يزرعها إسلامنا الحنيف .

٤٦ - يجب أن تفرص المناهج الدراسية على إبراز ما يوجد في باطن أرضنا من خيرات ، وما يوجد في مياها من أممناك ، وتعريف الطلاب بالمجالات الجديدة التي يمكن استغلالها واستثمارها ، ويتطلب ذلك العناية بالمناهج الجغرافية والموارد الزراعية والمعدنية والسياحية ، والمجالات التي يمكن إقامة المشاريع الجديدة فيها ، حتى يكون للمواطن العادي نصيب في القيام بمثل هذه المشاريع .

٤٧ - يجب أن تحيط المدرسة بتلاميذها علماً بأساليب زيادة الإنتاج التي يمكن أن تتم على المستوى الرأسي وتلك التي تتم على المستوى الأفقي ، وذلك لتنمية الوعي التتموي في عقولهم وتعريفهم بأساليب التتمية ومتطلباتها وعناصرها .

٤٨ - عدم احتقار الأعمال اليدوية كما كانت تذهب إلى ذلك المدرسة الأفلاطونية التي كانت تعتبر العمل اليدوي من اختصاص العبيد وحدهم ، أما « السادة » فيعملون في الأعمال العقلية^(١٦) .

٤٩ - لابد من الاهتمام بضعاف العقول وإعدادهم وتأهيلهم للاستفادة منهم في مجالات العمل المختلفة بدلاً من أن يظلوا عالة على المجتمع وعلى أسرهم .

٥٠ - ضرورة الاهتمام بالعلوم الإنسانية ، بإدخالها ضمن مقررات الدراسة بالمعاهد والكليات العلمية والصناعية ، لتخرج المواطن الماهر والمتقن أيضاً .

٥١ - يجب أن توام المؤسسات التعليمية مناهجها مع ظروف البيئات المحلية .

٥٢ - ضرورة العمل على محو أمية من تخلفوا عن ركب التعليم من الإناث والذكور .

٥٣ - يجب أن تدرّب المدرسة طلابها على كبح جماح الذات والسيطرة عليها .

٥٤ - يجب أن تهتم المدرسة اهتماماً كبيراً بتنمية القيم الخلقية لدى طلابها .

٥٥ - على المدرسة أن توفر لطلابها القدوة الحسنة والمثال الطيب الذي يقتدون به .

٥٦ - لا ينبغي أن تمارس المدرسة أي لون من ألوان العقاب البدني على تلاميذها .

٥٧ - يتعين على المدرسة أن تنمي روح الجماعة في نفوس طلابها .

٥٨ - يجب أن تتناسب المادة الدراسية ، في كمها وكيفها ، مع المستوى الذهني للطلاب .

٥٩ - يجب أن تعمل المدرسة على تنمية الشعور الجمالي بين طلابها واستحسان المظاهر الجمالية .

٦٠ - يجب أن تعمل المدرسة على تنمية النشاط الابتكاري عند الطلاب .

٦١ - ينبغي أن تكون عملية تقويم أعمال الطلاب مستمرة ومتصلة ، وأن تعتمد على الأساليب الموضوعية في القياس ، وأن تتعد عن أساليب الامتحانات التقليدية ، حتى تتمكن من تقدير جهود الطلاب تقديراً عادلاً .

٦٢ - ينبغي أن يتحقق مبدأ تكافؤ الفرص أمام جميع الطلاب في المجالات التعليمية والمهنية .

الإهتمام بالبحث العلمي :

لا شك أننا في عصر الاعتماد على العلم والبحث العلمي في تطوير المجتمعات « في هذه المرحلة من تطور العلم والصناعة والآلة ، يجار مطلب أساسي غذا في نظر العلماء والباحثين وسائر قادة المجتمع المعبر العميق عن روح العصر ومستلزماته ، نعتي به البحث العلمي . وغني عن القول أن هذا البحث العلمي الدائب يأخذ اليوم أبعاداً واسعة في ميدان التقدم التقني في شتى مجالات الحياة الاقتصادية ، من زراعية وصناعية وتجارية ، وإذا كان التطور التقني هو السمة المميزة لعصرنا ، بل هو أداة التقدم ومعياره ، ومقياس النمو الاقتصادي والاجتماعي في أي بلد ، فلا بد أن نضيف إلى ذلك أن البحث العلمي هو محرك هذا التطور وباعثه ورائد خطواته ، وهو الذي يستخلص منه أقصى مدها ويدفعه إلى مزيد من العطاء » (١٧) .

ولذلك فقد أصبح السباق الحقيقي بين المجتمعات سباقاً في مجال البحث العلمي ، سواء اتصل ذلك بالأرض أو بالفضاء أو بالذرة أو التمح . ولقد غدت الدول المتقدمة تخصص نسبة كبيرة من دخلها القومي لأغراض البحث العلمي ، فقد خصصت الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٦٤م نسبة مئوية ٣,٧ من جملة دخلها القومي لأغراض البحث العلمي ، بينما خصصت بريطانيا ٢,٧٪ . وتحظى هذه الدول بعائدات اقتصادية هائلة من وراء البحث العلمي ، وعلى سبيل المثال ، فلقد كان عائد الأموال التي خصصت ، في الولايات المتحدة الأمريكية ، على أبحاث الذرة الهجنية ٧٠٠٪ (١٨) . فما ينفق على البحث العلمي من مال إنما هو من قبيل الاستثمار الجيد .

ولذلك فإننا نحتاج في عالمنا الإسلامي إلى ثورة تربوية لاستخدام المبتكرات والتجديدات ونتائج التطور العلمي ، لتكون في خدمة المشكلات التربوية المتمثلة في زيادة أعداد المقبلين على التعليم .

أزمة التربية المعاصرة ومشاكلها :

يرى كثير من المفكرين أن التربية المعاصرة تعيش أزمة تفوق في حداثها أزمة الطعام أو الطاقة ، والأزمات السياسية والعسكرية ، وإن بدت في مظهرها أقل خطراً وجذباً للانتباه (١٩) ، وذلك على الرغم من التوسع الكبير في التعليم في مختلف دول العالم ، وعلى الرغم من تطور طرق التدريس ، وتكديس المؤلفات والأبحاث التي تعالج قضايا التربية . وأزمة التعليم ، وإن اختلفت في شكلها وحدتها من مجتمع إلى آخر ، تظهر آثارها على كل الشعوب .

وأزمة التعليم المعاصر تختلف في شكلها وحدتها من دولة إلى أخرى ، إلا أن آثارها تنعكس بوضوح على كل الشعوب ، مهما تباينت ظروفها من فقر أو غنى ، ومن عراقة أو حداثة ، ومهما كانت تلك الشعوب تتمتع بنظم تعليمية ثابتة أو تكافح من أجل تأسيس نظمها التعليمية كفاً قد يضطرها ، أحياناً ، إلى أن تتحمل ما لا يقبل لها به ، أو أن تقطع من لقمة العيش التي تقم أود أبنائها^(٢٠) . ولكن فم تبدو هذه الأزمة ؟

يرى بعض المفكرين أن هذه الأزمة ، تتمثل في تزايد عدد الأميين البالغين في العالم نتيجة للانفجار السكاني ، أو نتيجة للعجز المالي عن مسايرة التوسع في التعليم لنمو السكان . وتتمثل هذه المشكلة ، في نظر البعض ، في انخفاض مستوى التعليم ، ومستوى تحريميه ، ولكن هذه الأزمة تتمثل في حقيقة الأمر في إهمال الجانب الخلقي والروحي والديني من التربية ، وكما يرى البعض ، فإن هذه الأزمة « تنعكس بوضوح أكثر في الزيادة المضطربة لنوازع الشر في الإنسان المتعلم ، وميله إلى العنف ، وفي فساد مجتمعاته وخلوها من الثقافة ، وفي تحلل الأخلاقي ، وفشله في حمل رسالته في هذه الحياة كإنسان ، وهذه سمات أصبحت تميز عصرنا بصفة عامة ، وتميز الإنسان المتعلم والمجتمعات التي تدعي أنها متحضرة بصفة خاصة^(٢١) .

والحقيقة أن هذا التحلل الأخلاقي ليس إلا نتيجة لفشل التربية ، ذلك الفشل الذي يتأتى من إهمالها للقيم الإسلامية الأصلية . ولا شك أنه من جراء هذا الفشل التربوي انتشر الأمراض والعقد والأزمات النفسية بين الشباب ، وكذلك ليست حالات الحيرة والكبت والضياح والأناية والعنف إلا مظهراً من مظاهر هذا الفشل . وليست الجماعات الشاذة المنتشرة في أوروبا كالخناسف ، والهيز ، وجماعات إدمان الخمور والمخدرات ، وتسبب المرأة إلا مظهراً من مظاهر هذا الفشل الناجم بدوره عن الابتعاد عن التعاليم الدينية والتمسك بها .

وكان من نتائج فشل المؤسسات التربوية أن أصبح الحصول على المؤهل هو الغاية القصوى لدى الشباب . وإذا فسدت التربية فقد فسدت كافة مجالات الحياة الأخرى كالتجارة والزراعة والصناعة وغيرها . لأن التربية هي التي تمد هذه المؤسسات بالعناصر البشرية الصالحة أو الفاسدة . وكان من جراء الاعتماد عن قيم الدين وتعاليمه أن انتشرت الأناية ، والنفعية ، والتسبب ، والتعدي على حقوق الغير ، والوصولية ، والانتهازية ، والمناورات الاخلاقية ، وأصبحت الغاية تبرر الوسيلة . ومرد ذلك كله خلو التعليم للمعاصر ، في البلدان الأوروبية ، من التربية الروحية ، واقتصاره على الاهتمام بالقدرة المادية ، الأمر الذي أخرج الإنسان عن الفطرة الإنسانية السليمة المتزنة بين المادة والروح^(٢٢) . وبذلك يصبح الإنسان ، بهذه الحالة ، خطراً على نفسه وعلى الحياة كلها ، وليس أدل على ذلك من تكدر مخزون الأسلحة الذرية والهيدروجينية والتروجينية والكيميائية والجرثومية^(٢٣) . ومن سباق الإنسان « المتعلم » في معركة الموت والدمار . وغير ذلك من وسائل الدمار ، التي تكفي لتدمير كافة المنجزات الحضارية على هذا الكوكب . ويكفي أن نتأمل الجرائم التي اقترافها الإنسان « المتعلم » ضد أخيه

الإنسان . فلقد سقط ٥٥ مليون قتيل في الحرب العالمية الثانية ، ويكفي أن نتأمل ما ترويه مأساة شعب فلسطين الشقيق ، والمآسي التي خلفتها قبلة هروشيما وناجازاكي وغير ذلك من المجازر البشرية التي نشهدها في هذه الأيام ، ومظاهر التعصب والتمييز العنصري البغيض .

وهناك من يرجع أزمة التعليم إلى فساد النظم التعليمية نفسها التي أصبحت ، في نظرهم ، نظاماً تقليدية تتطلب ضرورة إعادة النظر . ويرجعها البعض إلى فقدان القدوة الحسنة في محيط التعليم الناتج من ضعف العقيدة ، وهناك من يرى أن الأزمة ، في جوهرها ، أزمة نفسية تتمثل في الفشل في الفهم الصائب للطبيعة البشرية وفطرة الإنسان . أما الأسباب الحقيقية فتكمن في فقدان التربية للقيم الخلقية وبعد المجتمعات المعاصرة عن الدين^(٢٤) الذي هو خير عاصم من الزلل ■

● الموامش ●

- (١) د . عبد العزيز عبد الله الجلال ، تربية السر وتغلب الصمة ، سلسلة عالم للمعرفة ، الكويت ، ١٤٠٥ هـ .
- (٢) المرجع السابق .
- (٣) المرجع السابق .
- (٤) المرجع السابق (ص ١٥) .
- (٥) د . عبد العزيز عبد الله الجلال ، تربية السر وتغلب الصمة ، سلسلة عالم للمعرفة ، الكويت ، ١٤٠٥ هـ .
- (٦) عبد الوهاب أحمد عبد الواسع ، الطلم في المملكة العربية السعودية بين واقع حاضره واستمراق مستقبله ، الطبعة الثانية ، جدة ، ١٤٠٣ هـ - ص ٢١ .
- (٧) المرجع السابق (ص ٢٥) .
- (٨) المرجع السابق (ص ٣١) .
- (٩) صالح عبد العزيز ، عبد العزيز عبد المجيد ، التربية وطرق التدريس ، الجزء الأول ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الخامسة عشر ، ١٩٨٢ م (ص ٦٤) .
- (١٠) المرجع السابق (ص ٨٠) .
- (١١) صالح عبد العزيز ص ٨٣ .
- (١٢) صالح عبد العزيز ص ٨٣ .
- (١٣) صالح عبد العزيز ص ١٩٢ .
- (١٤) المرجع السابق ص ٢١٨ .
- (١٥) صالح عبد العزيز ص ٢٨٤ .
- (١٦) صالح عبد العزيز ج ٢ - ص ٢١١ .
- (١٧) د . عبد الله عبد الدائم ، التربية الصربية والبحث التربوي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٩ م . ص ٥ .
- (١٨) المرجع السابق ص ٦ .
- (١٩) د . زغلول راغب محمد النجار ، أزمة الطلم المعاصر : مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٤٠٠ هـ ص ٩ .
- (٢٠) المرجع السابق ص ٩ .
- (٢١) المرجع السابق ص ١٠ .
- (٢٢) المرجع السابق ص ١١ .
- (٢٣) المرجع السابق ص ١١ .
- (٢٤) المرجع السابق ص ١٧ .



بيت الله

البيوت

● مسجد صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز «الدار البيضاء - المغرب» ●

١٩٤ □ المخطوطات العربية في المغرب الإسلامي

٢١٣ ○ تاريخ في صور

٢١٥ □ كتب حديثة

٢١٧ ○ أضواء على مكتبة الملك عبد العزيز

٢٢٦ □ أخبار : أخبار

بعضها (في مجلدات)



ندوة

المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي

وضعية المجموعات وآفاق البحث



● الأستاذ محمد بن عيسى وزير الشؤون الثقافية بالمغرب يفتتح الندوة ●

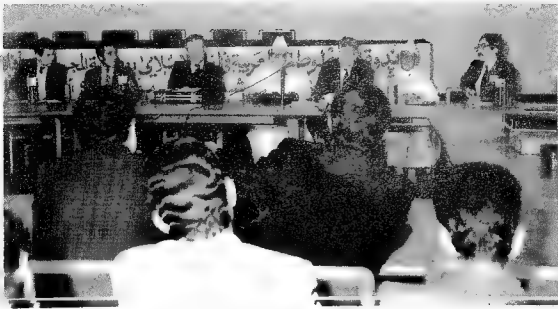
تم افتتاح ندوة المخطوطات في الغرب الإسلامي بكلمة السيد محمد بن عيسى وزير الثقافة الذي أكد ضرورة توجيه الاهتمام الأكبر للعناية بمخطط التراث المخطوط في المغرب . كما نوه بدور الوزارة في هذا الشأن رغم الإمكانيات المحدودة التي تتوفر لديها . وركز السيد الوزير على الأشواط البعيدة التي قطعتها الشقيقة تونس في مجال الاهتمام بالمخطوطات ودعا دول المغرب العربي إلى خلق تعاون بينها في هذا المجال كخطوة أولى نحو تحقيق الوحدة العربية على الصعيد الفكري وبالتالي التمهيد إلى تحقيق وحدة شاملة .

أشارت الكلمة إلى أن هذه الندوة خطوة أولى في إطار برنامج يرمي إلى تنظيم لقاءات دورية تسلط الأضواء على مخطوطات غير منشورة على الرغم من أنها تُعَدُّ من أمهات المراجع في التاريخ الإسلامي .

أما كلمة السيد إدريس السلاوي المتصرف ، المنتدب لمؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية ، والتي ألقاها بالنيابة عنه السيد عبده الفيلاي الأنصاري



● جانب من المشاركين في الندوة ●



● جانب من المشاركين في الندوة ●

مدير المؤسسة ، فقد تركزت حول أهمية التراث المخطوط رغم ضياع الكثير منه وضرورة فهرسته وتحقيقه ونشره ، وذلك للتعميم الاستفادة منه .

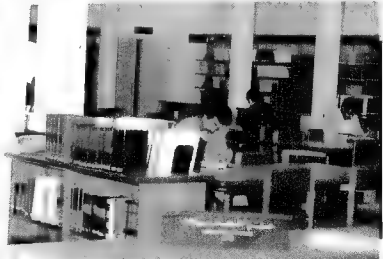
وقد ترأس الجلسة الأولى من الندوة الأستاذ محمد حجي الذي ألقى تقريراً تمهيدياً ركز فيه على ثروة العالم الإسلامي في مجال المخطوطات خاصة وأن إسهامات المسلمين على الصعيد العالمي تميزت بالخلق والإبداع الذي أعطى تراثاً عربياً ضخماً استفادت منه الحضارة الإنسانية .

وختم الأستاذ محمد حجي كلمته متمنياً أن تكون هذه الندوة فرصة لطرح قضايا التراث المخطوط وإفساح مجال الحوار بين الباحثين الذين قدموا من بلدان مختلفة .

واستهلّت الندوة عملها بمناقشة التقارير عن وضع المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي ، وكان أول المتحدثين الأستاذ محمد إبراهيم الكنائي الذي أعد تقريراً عن وضع المخطوطات العربية بالخزانة العامة بالرباط التي قطعت أشواطاً واسعة في فهرسة المخطوطات .

أما الدكتور يحيى محمود ساعاتي فقد تناول وضع المخطوطات في المملكة العربية السعودية مبرزاً تجربة هذا البلد المحدودة في هذا المجال ، خاصة وأن معظم المخطوطات بهذا القطر قد تم

● المكتبة من الداخل ●





• معالي وزير الشؤون الثقافية المغربي يلقي كلمة الافتتاح •

جمعها من الخارج عن طريق الشراء والافتناء . كما تناول جانباً آخر يتعلق بمجودة الخدمات الخاصة بالخطوط كأجهزة الميكروفيلم والاستساخ والتحميض مع وجود معاناة بسبب قلة المتخصصين والمهتمين بمسألة الترميم وصيانة المخطوطات .

وعن « خزنة القرويين ودورها الإيجابي في حفظ التراث المخطوط » تحدث الأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ ليرز دور هذه الخزنة في حفظ التراث المخطوط ، ودعا إلى تضافر الجهود للعناية بالمخطوطات التي تعرضت للتلاشي وذلك لإخراجها للمهتمين بها ، ثم أعطى نماذج من الكتب الموجودة بالخزانة مفسرة في فهرس مكون من ثلاثة أجزاء .

ونابة عن السيد الصديق بلعربي قام السيد أحمد متفكر بإلقاء كلمة حول « وضع المخطوطات العربية بخزانة ابن يوسف براكش » فبعد جرد تاريخي لحتوى الخزنة تعرض المتحدث إلى عملية فهرسة مخطوطات هذه الخزنة ، وأشار إلى الحاجة الماسة إلى وضع فهرس حسب التقنية الحديثة . وفي نهاية كلمته ناشد السيد أحمد متفكر وزارة الثقافة للقيام بصيانة ما بقي من المخطوطات .

وكان آخر المتحدثين هو السيد محمد أبو الأجفان الذي تحدث عن « وضع المخطوطات العربية بتونس » أعطى من خلاله نبذة عن المكتبات التونسية التي تهتم بالتراث المخطوط .



.. ملخص عن حوارات الاجتماع الثاني

ترأس الاجتماع الثاني الخاص بالموضوع الأول الذي كان حول «تقارير عن وضع المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي» الأستاذ عبد اللطيف الشاذلي .

وكان أول المتحدثين الأستاذ محمد حجي الذي تطرق في حديثه إلى وضع المخطوطات العربية بالخزانة العلمية الصيحية بسلا موضحاً الأهمية الكبيرة لهذه الخزنة وللذخائر النفيسة التي تحتوي عليها حيث إنها تشمل مختلف العلوم التي عرفها المسلمون والتي تتميز بطابع علمي محض . ومن مميزات هذه الخزنة إحتواؤها مؤلفات لعلماء من فاس، وسلا، والرباط وغيرها وتتميز هذه المؤلفات بكونها بخط أصحابها .

وقد أضيفت إلى هذه المخطوطات الأصلية مخطوطات أخرى حبست من طرف محافظها الحاج محمد الصيحي .

وأهم عمل عرفته هذه الخزنة هو عمل الفهرسة إذ إن المخطوطات التي فهرست في الجزء الأول من فهرس الخزنة صنفت إلى عشرة أصناف نذكر من بينها القرآن وعلومه ، اللغة وقواعدها إلى غير ذلك .

أما الكتب التي يحتوي عليها الجزء الثاني من الفهرس فتتميز من الناحية الجمالية بكونها في غاية الرونق والجمال .

● جانب من المشاركين في الندوة ●



وفي ختام كلمته أشار الأستاذ محمد حجي إلى أهم المخطوطات التي توفرت في الخزانة الصبيحية سواء الأصلية منها أو المصورة .

وفي عرضه حول « وضع المخطوطات العربية في مكتبة الكونجرس » قام السيد جورج عطية بتقديم جرد لأهم المخطوطات العربية التي توفرت في مكتبة الكونجرس ، والتي لم تفهرس بعد وتسعى المكتبة إلى القيام بفهرستها لتكون في متناول الباحثين .

ويرى السيد جورج عطية أنه إذا كانت الأمم الأوروبية سابقة إلى جمع المخطوطات العربية فإن الولايات المتحدة لم تدخل هذا السباق إلا أخيراً وذلك لقلة عدد المهتمين بالدراسات التاريخية ولكن هذا لا يمنع من وجود نقائص مهمة يعود تاريخ بعضها إلى القرن الثاني عشر الميلادي . وأخيراً قدم المتحدث مجموعة إحصائيات عن المخطوطات العربية الموجودة في الجامعات الأمريكية .

أما الأستاذة إيفات سوفان فقد سلطت الضوء عن « وضع المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية بباريس المقتنيات الأخيرة ، المخطوطات المغربية والأفريقية ، الفهرسة » مبرزة دور العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا من جهة والمغرب الأقصى والشرق الأوسط من جهة أخرى في إثراء الرصيد الفكري المخطوط الذي تحتوي عليه المكتبة الوطنية بباريس ، يضاف إلى ذلك اهتمام لويس الرابع عشر بشراء عدد من الكتب المتعلقة بالطب والعلوم مما زاد إثراء الخزانة بنصوص فريدة . وبعد ذلك قامت الأستاذة إيفات سوفان بعرض عناوين لأهم المخطوطات العربية الموجودة بهذه الخزانة .

وتركز حديث الأستاذ محمد العراشي عن « وضع مخطوطات خزانة الجامع الكبير بمكناس » حول خمسة محاور :

١ - التعريف بخزانة الجامع .

٢ - مخطوطات الخزانة التي يصل عددها إلى ١١ ٥٠٠ مخطوط مكتوب باليد والتي دخلت الخزانة عن طريق التحجيس من طرف الملوك السعديين والعلويين .

٣ - عناية ملوك الدولتين السعدية والعلوية بالمخطوطات .

٤ - التعريف بنوادير المخطوطات الموجودة بالجامع وأغلبها من المصاحف .

٥ - طريقة التعامل مع المخطوطات بما في ذلك الاقتناء والنسخ والإعارة .

وتميزت كلمة الأستاذ ياسين صفدي حول « المخطوطات العربية بالخزانة الوطنية البريطانية » بإعطاء لمحة تاريخية عن المكتبة الوطنية في لندن مشيراً إلى اهتمام البريطانيين بشراء المخطوطات العربية .

وصل عدد المخطوطات العربية بهذه الخزانة إلى حوالي ١٢ ٠٠٠ مخطوط والتي تعكس بحق الكمال الفني الراقي الذي وصل إليه العرب في الرسم والخط والتصوير ، بالإضافة إلى احتوائها على نوادر نفيسة من بينها أقدم مصحف في العالم .

وكان آخر المتحدثين الأستاذ محمد بن الأمين بوخيزة الذي تطرق في حديثه عن « المخطوطات العربية بالخزانة بتطوان » حيث بلغ مجموع المخطوطات بها إلى ٣٠٠٠ مخطوط . ونظراً لأهميتها فإنها تحتاج إلى عناية أكبر . وذكر السيد بوخيزة بأن الوثائق تكون أعظم رصيد بالخزانة كالثائق الرسمية للزعيم عبد الكريم الخطاطي . كما أعطى عرضاً لمجموعة المخطوطات والنوادر التي تفردت بها الخزانة .

وأخيراً أشاد بالتلازم الثقافي الموجود بين المملكة العربية السعودية والمملكة المغربية .

وتلت ذلك مناقشة لجميع العروض ، أثرت خلالها مشكلة سرقة ونهب المخطوطات العربية . وأعطى السيد محمد طريف السمان مثلاً على ذلك سرقة نابليون لكتب التمس بمختلف اللغات ، وبعد عهد نابليون طالبت فرنسا بإعادتها لها . وفعلت ذلك عن طيب خاطر . أما فيما يخص المخطوطات العربية الموجودة بالعالم الغربي من الصعب استرجاعها . وإذا سلمنا باسترجاعها فإن ثمنها باهظ للغاية .

وألبرت نقطة أخرى وهي عدم السماح بالاطلاع على المخطوطات إذ ضرب عليها حصار أو احتكار مما يجعل الباحثين يعانون الأمرين من أجل الاستفادة منها . وأعطى الأستاذ قاسم السامرائي مثلاً على ذلك ما يحدث في إنجلترا من تعصب واحتكار للعلم وطالب بنسخ تلك المخطوطات المحفوظ بها في مكتبات إنجلترا وجعلها في متناول الباحث العربي .

ومناسبة انعقاد هذه الندوة عرضت المكتبة الوطنية الجزائرية نماذج مخطوطات حُفقت ونشرت ليطلع عليها المهتمون .

... الاجتماع الثالث

تحت رئاسة الأستاذ محمد أبو الأجناف ابتدأت الجلسة الثالثة بحديث الأستاذ عصام محمد الشنطي الذي تناول موضوع « المخطوطات العربية : أماكنها ، الاشتغال بها ، فهرستها وتصنيفها » .

وتطرق فيه إلى أن موضوع المخطوطات العربية موضوع حساس ودقيق لما له من علاقة بعقيدتنا الإسلامية وتراثنا الفكري والحضاري .

إلا أن هذا التراث قد عرف تقصيراً في المجهود الأخيرة نتيجة التخلف والتدلي الذي اتسمت به تلك المجهود مع العلم أن أجدادنا راعوا تراثنا المخطوط وأولوه عناية خاصة .

فالعالم العربي يفتقر اليوم لمراكز متخصصة لصيانة وترميم المخطوطات وإلى قوانين تحمي هذه المخطوطات وتحمي تسريبها إلى الخارج باعتبارها ثروة قومية مهمة تستوجب الحفاظ عليها ورعايتها .

أما عن عملية فهرسة المخطوطات العربية فقد أكد الأستاذ المحاضر على ضرورة القيام بهذه العملية - عملية الفهرسة باعتبارها خطوة أولى تسهم في إعداد تحقيق لهذه المخطوطات .

وفي معرض حديثه عن عملية تحقيق المخطوطات ذكر الأستاذ عصام محمد الشنطي أنه علم ذو أصول وقواعد يحتاج وضعها إلى اتباع منهج من شأنه أن يكشف النقاب عن خبايا المخطوطات .

أما عرض الأستاذ محمود بوعباد والذي تناول وضع المخطوطات العربية بالجزائر « فقد استقبله بسرد تاريخي للدول التي تعاقبت على حكم هذا البلد مؤكداً على دورها في تشجيع الثقافة والفكر والذي ترتب عليه تعدد للمراكز الثقافية التي كانت تزخر بمجموعات مهمة من الكتب العربية الإسلامية ، يضاف إلى ذلك كون علماء الجزائر قد اهتموا بالتأليف في مختلف العلوم الإسلامية نذكر منهم على سبيل المثال : الثعالبي ، والتنسي وغيرهم كثير ، فمجموع هذه العوامل المتضافرة مكنت الجزائر من أن تمتلك عدداً هائلاً من المخطوطات العربية . وللأسف الشديد فقد تعرضت

معظم هذه المخطوطات إلى الضياع لأنها لم تسلم من الهجمة الاستعمارية التي تعرضت لها الجزائر . وما سلم منها إلا ما انتقل إلى كل من تونس والمغرب بعد أن قرّ به أصحابه حفاظاً على عرضهم ودينهم ومكتسباتهم .

وبالرغم من هذه المحن التي عرفت المخطوطات العربية في الجزائر فإن المكتبات الرسمية وشبه الرسمية ويقصد بها الزوايا وحتى المكتبات الخاصة قد بقيت تحتفظ بآلاف المخطوطات والتي استفاد منها المستشرقون في القرن الماضي ، فقاموا بتحقيق بعضها ونشره ونقله إلى لغتهم إضافة إلى إنجاز فهراس متعددة للتعريف بهذه المخطوطات .

وبعد ذلك تحدث الأستاذ قاسم السامرائي لسلط الضوء على « مشكلات فهرسة المخطوطات العربية » حيث تناول مسألة فهرسة المخطوطات التي لم تحظ بنفس الاهتمام الذي عرفته فهرسة المطبوعات العربية خاصة وأن طريقة التعامل مع المخطوطات تختلف اختلافاً جذرياً عن طريقة التعامل مع المطبوعات ، فالمخطوطات كانت ومازالت تشكل عالماً خاصاً مغالفاً تماماً لعالم المطبوعات ، وخلص إلى أن فهرسة المخطوطات ليست بالعمل الهين فهي فن وصناعة قوامها هواية وسداها الخبرة والمعرفة الواسعتان . إذ أن عملية الفهرسة لا تخلو من مشاكل نجم عنها في النقط التالية :

● المكتبة من الداخل ●



– ضرورة إعداد الم فهرس وذلك عن طريق إنشاء قسم خاص بالخطوط شبيه إلى حد ما بقسم المكتبات الذي أنشئ في العديد من الكليات بالعالم العربي .

– عدم وجود قواعد عامة وموحدة لفهرسة الخطوط العربية .

– المشاكل التدريسية الفنية التي يعرفها كل من الم فهرس والمحقق ، وإمكانات التغلب عليها .

وفي نهاية حديث الأستاذ قاسم السامرائي تقدم باقتراح على السادة الباحثين والأساتذة المهتمين يدعو فيه إلى تشكيل لجنة للنظر في مسألة وضع قواعد موحدة لعملية فهرسة الخطوط العربية تتولاها مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود أو غيرها من المؤسسات الأخرى الموجودة بالعالم العربي .

وفي عرضه حول « تقنيات فهرسة الخطوط العربية » قام الأستاذ أحمد شوقي بنين بالحديث عن الفهرسة باعتبارها أداة ضرورية فعالة لكل الباحثين في التراث الحضاري لأنها ساعدت وتساعد الإنسان على المحافظة وصيانة تراثه المخطوط .

فقد قام بعض الأوروبيين بفهرسة الخطوط العربية ، إلا أن تجربتهم أثبتت عدم خبرتهم في هذا الميدان ، فتمت المناذاة على أصحابها العرب العارفين بأصولها ، فكان أول الم فهرسين العرب للمخطوطات العربية الموجودة بأوروبا من السوريين واللبنانيين .

انتقل المحاضر بعد ذلك إلى الحديث عن بعض التقنيات والعناصر الضرورية للفهرسة والتي نعملها في النقط التالية :

١ – سعة اطلاع الم فهرس بالخط الذي كتب به المخطوط (مغربي ، شرقي ...) .

٢ – طبيعة ونوع الورق المخطوط (عربي ، أوروني) خاصة وأن الم فهرس يخلط في بعض الأحيان بين الورق والجلد والرق .

– مهمة الم فهرس تسجيل الناسخ وتحديد خط النسخة تحديداً علمياً .

وتقدم الأستاذ بنين باقتراحات نلخصها فيما يلي :

١ – العمل على إثارة اهتمام الطلبة الجامعيين بالخطوط ضمن برامج الجامعة ومدارس علم المكتبات .

٢ - إنشاء معهد للبحث وتاريخ النصوص على مستوى العالم الإسلامي تشرف عليه المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم به قسم خاص لدراسة المخطوطات .

وكان آخر المتحدثين هو الأستاذ محمد طريف السمان الذي تحدث عن « من هو ذلك الذي يشرف على المخطوطات ؟ » موضحاً أن الرغبة في التعامل مع المخطوطات تتطلب مؤهلات علمية وشهادات مدرسية وتدريب عملي مكثف .

فتضافر هذه المعطيات من شأنه أن يساهم في عملية فهرسة المخطوطات التي غالباً ما تبقى على الرفوف بدون فهرسة .

وتقدم الأستاذ المحاضر في نهاية عرضه بمجموعة اقتراحات من بينها :

- ضرورة التنظيم والإشراف على الأعمال التقنية (الترميم والتسجيل ...) .
- مراقبة المخطوطات من طرف المسؤول لا المساعدين .
- التحذير من نسخ المخطوط بطريقة مباشرة لأن من شأنها أن تحد من عمره وتفقد لونه .
- وضع معرض على مستوى الغرب الإسلامي للتعريف بالمخطوطة العربية .
- تنشيط وتوسيع البحث في تطور الخط بالغرب الإسلامي للتمكن من التفريق بين الخط المغربي والأندلسي من جهة والمغربي والمشرقي من جهة أخرى .

... الاجتماع الرابع

ترأس الاجتماع الرابع الأستاذ بيتر شورف فان كوتنكسفيلد الذي أعطى الكلمة لأول المتحدثين في هذا الاجتماع وهو الأستاذ محمد المنولي الذي أشار في عرضه « سرد لواقع المخطوط من الرحلات المغربية الحجازية » والذين قاموا بوصف لما رأوه في زيارتهم ؛ وهذه الرحلات مخطوطة وتعتبر كنزاً ثميناً وقام الأستاذ في آخر عرضه بسرد لست وعشرين رحلة مغربية حجازية .

وتلى هذا العرض عرض الأستاذ أحمد شحلان حول « المخطوطات العربية الإسلامية الأندلسية المكتوبة بالخط العبري أو المترجمة إلى اللغة العبرية » ، ويقصد بالمخطوطات العربية الإسلامية الأندلسية المكتوبة بالخط العبري أو المترجمة إلى اللغة العبرية ما يلي :

١ - مؤلفات ألّفت أصلاً إما بالعربية أو العبرية .

٢ - مؤلفات عربية لعلماء يهود أو مسلمين مشاركة أو مغاربة ترجمت إلى العبرية إما في أسبانيا أو فرنسا أو غيرها . وقد كانت اللغة العبرية هي لغة اليهود ، والمناهج العربية منهمجهم ، فكتبوا بالعربية في النحو واللغة والتفسير والكلام ونقلوا جُلّ المؤلفات من العربية إلى العبرية كمؤلفات ابن سينا وابن رشد .

وظل الحال على ما هو عليه إلى ما بين القرن التاسع والخامس عشر الميلادي حيث طرأ طارئ على واقع اليهود في الأندلس فغادروها متجهين إلى المغرب وشمال أسبانيا وفرنسا ثم إلى إيطاليا ، حاملين معهم الكثير من مؤلفاتهم العربية .

اللغة العبرية الحرف :

ويطرح الأستاذ المحاضر سؤالاً عن مصير هذه الأعمال . فقد تعرضت معظم هذه المخطوطات العبرية للنهب والحرق من طرف الكنيسة . وما تبقى من هذه المخطوطات يوجد في المكتبة الوطنية بباريس حيث تحتوي على أعنفها وأغناها . كما قام في نهاية العرض بسرّد للمؤلفات العبرية التي ترجمت للعربية .

أما الأستاذ محمّد حاتيبوجلي ، فقد تكلم عن « وضع المخطوطات بتركيا » ، كان هناك ثروة هائلة من المخطوطات العربية الإسلامية تملأ المكتبات الخاصة والمساجد والتكايا ، وكانت هذه المكتبات تحت إدارة أصحابها .

وقام الأتراك بفهرسة بعض المخطوطات ، وهناك مشروع كبير لفهرسة كل المخطوطات في تركيا . وقام بعرض لبعض الكتب المغربية الموجودة بتركيا .

في معرض حديثه عن « الأرشيف المغربي المخطوط » تطرق الأستاذ جرمان عياش لوثائق الدولة نظراً لأهميتها وكثرتها وغناها ، وتمثل في الرسائل ، والظواهر والعقود والرسم ... فغاية الوثائق

لا علمية ولا ثقافية عكس المخطوطات ، ولكنها لا تخلو من أي طابع علمي وأدبي . قيمتها تتمثل في كونها مصدراً لتاريخ البلاد . فقد مكنتنا الوثائق المغربية من تكذيب عدد لا يستهان به من النظريات الخاطئة التي أشاعتها الكثير من الكتب عن المغرب قبل الاستقلال . إذن فالالتجاء إلى الوثائق الوطنية سلوكاً للمسلك العلمي السليم .

في آخر عرضه اقترح الأستاذ عياش تجميع الوثائق التاريخية في مركز خاص بها ، وإنشاء فهارس لتسهيل استفادة الباحثين منها .

خلال مناقشة الجلستين الصباحية والمسائية ، تقدم الأستاذان محمود بوعيداد ومحمد طريف السمان باقتراح تكوين لجنة مصغرة تعد تقريراً حول تقنين وطرف وصف المخطوطات ، وتحدد المسائل الأساسية لوضع صيغة معينة للفهرسة .

وألمع الأستاذ السمان على أن الإنسان المتخصص الملم هو الذي يمكنه القيام بعملية الفهرسة وتصنيف مضمون المخطوط . كما طالب الأستاذ عبد الحفيظ منصور بتوظيف تراثنا العلمي المخطوط وذلك بالتطرق إلى مضمونه .

أما الأستاذ عصام محمد الشنطي فقد لفت النظر إلى أن هناك كمّاً كبيراً من المخطوطات في الغربة ذو قيمة أثرية وعلمية ، علينا القيام بتصويره وتوفيره للباحثين في العالم الإسلامي . إن إنشاء معهد للكوديكولوجيا في نظر الأستاذ بنين سيساعد على البحث في النسخ والنسaxe ، ولتناسق الجهود في مجال تحقيق التراث العربي المخطوط .

وحتى لا نقع في التكرار والازدواجية ، اقترح الأستاذ الشنطي مسألة إخبار المختصين في أنحاء العالم الإسلامي بالأعمال التي تحقق في أي قطر من هذه الأقطار .

..... الاجتماع الخامس

ترأس الجلسة الخامسة الأستاذ محمود بوعيداد ، وكان أول المتحدثين الدكتور محمد السجلماسي الذي تقدم بعرض مجموعة من صور المخطوطات التي يحتوي عليها مؤلفه : « ذخائر

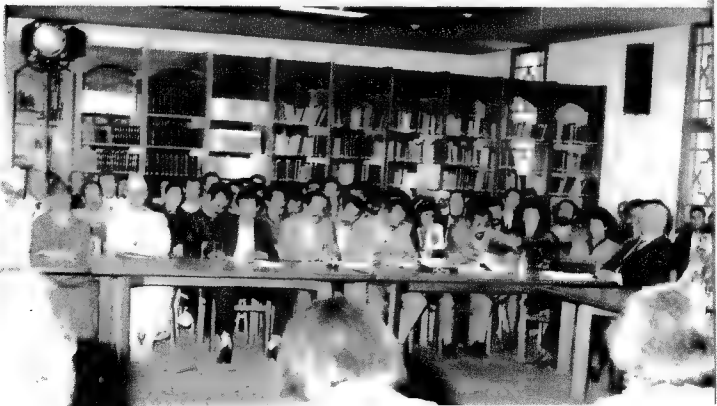
المخطوطات الملكية بالمغرب ». صَاحَبَ هذه الصور تعليق ألقى مزيداً من الضوء على فن الزخرفة والتجميل والخط الذي تحتوي عليه هذه المخطوطات . حيث أكد المحاضر أن دخول فنّ الزخرفة والتجميل إلى المغرب والأندلس في القرن التاسع الميلادي وهو فنّ كَفَنُ العمارة لقي بدوره تشجيعاً من طرف الملوك والأمراء المسلمين .

أما كلمة الأستاذة تريزا بيريز هيجيرا فقد تركزت حول « القيمة الوثائقية للمخطوطات الأسبانية من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر والمتعلقة بالحضارة الأندلسية » . عرضت المحاضرة خلالها مجموعة من الصور ، مع تعليق عليها أبرزت من خلاله أهميتها وقيمتها الوثائقية بصفتها ممثلة للشخصيات التاريخية وأنماط حياة المسلمين في الأندلس ومدى تأثيرها في الحضارة الأسبانية .

وعن « آفاق جديدة لدراسة المخطوطات في الغرب الإسلامي » تحدث الدكتور محمد بن شريفة عن الموضوع حديثاً عاماً جاء فيه أن الغرب الإسلامي الذي تمحورت حوله الموضوعات كان له حظ وافر وإسهام كبير في خدمة التراث العربي والإسلامي من خلال المخطوطات ومسألة تدوينها والعناية بها وتداولها .

فهذه المخطوطات التي حافظت عليها الخزائن في بلاد المغرب شكلت رصيذاً يرجع إلى عصور وأحقاب مختلفة ، وقد انتقلت بعض هذه المخطوطات إلى أقطار مختلفة كأسبانيا وهولندا وفرنسا

• جانب من المشاركين في الندوة •



وإنجلترا وألمانيا وغيرها ، فلا تكاد تخلو مكتبة من المكتبات العالمية من مخطوطات يرجع أصلها إلى المغرب .

ومن علامات حفظ المغرب على هذا التراث الإسلامي أن بعض المخطوطات التي ظهرت مؤخراً لا توجد إلا بالمغرب مثل بعض مؤلفات أبي العلاء المعري والجاحظ وساد هذا أبواباً وألواناً كثيرة من المعرفة . إلا أن المخطوطات في الغرب الإسلامي لم يوضع لها الوصف الكامل والشامل بعد ، مع أن هناك محاولات ظهرت مؤخراً ولكنها تظل مع ذلك تقليدية نكتفي بذكر اسم الناسخ إلى غير ذلك من المعلومات البسيطة المتواضعة عن المخطوط .

واقع المخطوطات في مكتبات الغرب الإسلامي ومكتبات المغرب في الوقت الحاضر لا يدعو إلى التفاؤل ، فهي تحتاج إلى عناية أكبر خاصة وأنها عرفت تأخراً كبيراً إذا ما قيسَت بمخطوطات المشرق العربي مثلاً الذي قطع أشواطاً بعيدة في مجال الاعتناء والعناية ، ولن يتأق لنا ذلك إلا بالتنسيق بين المكتبات والجامعات والجهات التي تقوم بنشر المخطوطات ، إذ نجد في كثير من الأحيان المخطوط الواحد ينشر في أكثر من جهة .

أما مداخلة الأستاذ بيتر سوردفان كونكسفيدل فقد دار حول « المخطوطات العربية المنسوخة في شمال أسبانيا النصرانية » .

الملاحظ أننا نجهل عدد المخطوطات العربية التي ترجع إلى عهود ملوك الطوائف في الأندلس . فعملية الحصول على هذه المعلومات مفيدة من الناحية العلمية لدارس الكيان المادي للمخطوطات الأندلسية والمغربية .

إن محاولة تنظيم قائمة تسجيلية لكل المخطوطات الأندلسية والمغربية عمل جسيم لا يستطيع أن يضطلع به إلا جماعة من العلماء المختصين ومن مناطق عديدة في العالم .

تشكل هذه المخطوطات تراثاً لثلاث أقليات دينية عاشت في أسبانيا النصرانية من نهاية القرن الحادي عشر حتى بداية القرن السابع عشر :

١ - المُصَرَّبِينَ النصراني .

٢ - الجماعات الإسلامية التي تسمى بالمندجيين .

٣ - الجماعات اليهودية .

قام الأستاذ كونكسفيلد بالتعليق على ٣٧ مخطوطة عربية من أسبانيا النصرانية من بينها معجم لاتيني عربي يعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي . كتبت معظم هذه المخطوطات على الرق . أما مخطوطات شمال أسبانيا العربية فتحتوي على كتب مدرسية تعنى بدراسة اللغة العربية والدين الإسلامي على مستوى ابتدائي .

كما تعكس هذه المجموعة الحقيقة التاريخية في أن الجماعات الإسلامية في شمال أسبانيا منذ القرن الثاني عشر وحتى السابع عشر قد انعزلت عن بقية العالم الإسلامي وخاصة عن جنوب الأندلس .

في حين تعكس المخطوطات العربية العائدة إلى الجماعات اليهودية في شمال أسبانيا ، الحقيقة التاريخية في أن يهود شمال أسبانيا كانوا أهم جماعة ورثت العلم العربي وبالأخص الطب والفلسفة . أما الأستاذة جوزي بالانيا فقد تطرقت لموضوع « المخطوطات العربية والأرشيف في عصر النهضة في فرنسا » .

تميز عصر النهضة في فرنسا باهتمام ملوكها بجمع المخطوطات العربية إلى حد جعل فرانسوا الأول يقوم بإرسال سفارات وبعثات من أجل شراء مخطوطات عربية من تركيا ، فتجمع لهم بذلك عدد مهم من المخطوطات العربية مثل قوانين التلاميذ المسيحيين ورسائل إخوان الصفا وغيرها .

وفي نهاية عرضها تقدمت الأستاذة بطرح مجموعة من الأسئلة من بينها : هل عملية الاحتفاظ بالمخطوطات العربية من طرف الفرنسيين في القرن السادس عشر تدخل ضمن حجم للعلم ؟ وهل كان بفرنسا علماء قادرين على دراسة هذه المخطوطات ؟

والجواب عن هذه الأسئلة يوجد في مؤلف سيصدر في السنة الجارية .

وفي آخر جلسة هذا الاجتماع تحدث الأستاذ هيربرت لانج وأعطى نخبة عن « علم الاستشراق في ألمانيا » فأشار إلى اهتمام المستشرقين بدراسة الإنتاج الفكري العربي وخاصة الألمان منهم إذ إن أعمالهم في هذا الميدان تفوق الأعمال التي قدمها كل من الإنجليز والفرنسيين مجتمعين في هذا المجال . وقد مر علم الاستشراق في ألمانيا بمراحل عدة كان أهمها بداية هذا العصر حيث جعل للدراسة الإسلام قسماً خاصاً بها ضمن أقسام الإستشراق .

كما تخلل هذا العرض ذكر بعض المستشرقين الألمان ودورهم في الاهتمام بدراسة وترجمة التراث الإسلامي . فالحزانات الألمانية تزخر بزخم مهم من المخطوطات العربية التي تمت فهرسة معظمها وهذا أهم عمل قام به العلماء الألمان تجاه المخطوطات العربية .

... ملخص أحاديث الاجتماع السادس من الموضوع الثالث

ترأس الاجتماع الدكتور يحيى محمود ساعاتي فكان أول المتحدثين الدكتور محمود علي مكبي الذي تطرق لموضوع التراث والمعاصرة باعتباره موضوعاً دار حوله الكثير من النقاش واشتد حوله الجدل واختلفت الآراء بصده مما وسع دائرة البحث في الموضوع . ونوقشت مسألة المقصود بالقديم في تراثنا العربي الإسلامي القديم حيث إن الحدائثة تعني طريقة التعامل مع هذا التراث .

فترائنا العربي الإسلامي يعتبر أغنى تراث عرفته البشرية لما شهدته من تطورات مكانية وزمانية جد مهمة ، وموضوع حديثنا يستدعي توضيح الدائرة حول التراث الفكري الذي وصل إلينا في صورته المكتوبة .

فقد اتضح أن مجموعة من النظريات التي تعتبر حالياً حديثة كتنظرية ديكرارت مثلاً كانت لها جذور في تراثنا القديم وهذا ما يؤكد ضرورة اهتمامنا بتراثنا المخطوط ، وصيانه وترميمه ودراسته والاعتناء به .

وعن « مخطوطات الزوايا بالمغرب : نموذج تنغملت » جاء حديث الأستاذ أحمد توفيق ليريز حيث تطرق إلى :

– أهمية الخزانات بالمغرب وخاصة تلك التي كان لها ارتباط بالدولة حيث كانت هذه الأخيرة تعنى بإنشائها ورعايتها وذلك لما يوجد من علاقة وطيدة بين الدين والدولة .

– دور الزوايا في نشر الدين والعلم في المدن والبوادي ، والتي تكونت فيها – بسعي شيوخها – خزائن تزخر بالمخطوطات العربية الإسلامية والوثائق المهمة جداً ، وفي معرض حديثه عن الزوايا بالمغرب ودورها في نشر العلم تركر حديث الأستاذ المحاضر حول زاوية (تنغملت)

الموجودة بقلب الأطلس عارضاً للمراحل التاريخية التي مرت بها هذه الزاوية انطلاقاً من تأسيسها على يد أحد صلحاء القرن الحادي عشر إلى عصرنا الحالي حيث عرفت الزاوية زيارة ملكية اقترنت بوضع قائمة لكتبها والتي وصلت إلى ٨٠٠ كتاب من بينها كتب مشرقية وأندلسية ومغربية نذكر منها :

- التعريف لمن عجز عن التأليف .

- ديوان المعري .

- الأجوبة الناصرية .

- الدرر المرصعة .

إلى جانب هذه الكتب تزخر الزاوية بمجموعة مهمة من الكتب يعرف بعضها ويجهل الكثير منها إن لم نقل عنه بأنه نادر .

ويني الأستاذ أحمد التوفيق حديثه بعرض لحالة الخزنة بزاوية (تنغملت) فالكتب لم يعتن بها بعد حيث لازالت في البيت المظلم الذي خصص لها ، لا تتم صيانتها أو ترميمها فيصبح من الصعب على الباحث المهم الإطلاع عليها والاستفادة منها .

أما عرض الأستاذة ماري ج. فيجيرفا فقد سلط الضوء على « وضع البحوث عن مخطوطات الموريسكيين » تناولت المحاضرة الشطر الأول منه بتقديم خريطة أوضحت من خلالها المراكز التي توجد بها أهم الوثائق والمخطوطات العربية في الأراكون مع القيام بتاريخ هذه المخطوطات والوثائق .

فالملاحظ من خلال هذه المخطوطات أن المدحنيين بالأراكون قد استعملوا العربية بسهولة وذلك حتى القرن التاسع الهجري ، إلا أنه بعد هذا القرن نجد وثائق بالعربية تتخللها كلمات غريبة عن العربية أو أنها كلمات عربية قد كتبت خطأ كأن نجد هذا تكتب بدون ألف مثلاً ، وهذا دليل على أنه بعد القرن التاسع الهجري لم يعد للمدحنيين إلمام كبير باللغة العربية .

أما الشطر الثاني من الموضوع فقد تحدث عنه الأستاذ بوزيان الذي أكد على خاصيات المخطوطات الموريسكية والتي أجملها في كونها :

- استعملت لغة عربية محضة إذ إن الأدب الموريسكي جاء تعبيراً عن حاجة الموريسكي إلى الدفاع والحفاظ على هويته الإسلامية .

- تميزت الكتابات الموريسكية باستساخها بلغة عربية فصيحة تنم عن مدى تمكن أصحابها من اللغة « إذ عند قراءتها يتبادر إلى الذهن أننا بصدد مخطوطات عربية .

- تعبرها على حقيقة الشخصية الموريسكية وإبرازها للإزدواجية التي عاشها الإنسان الموريسكي .

قيمتها التي تكمن في النظر إليها من زاوية كونها تشكل طريقة حياة أناس كانوا يعيشون حياة مضطربة ، فهو أدب مقاومة سعي إلى البقاء بمختلف الطرق .

وفي نهاية حديثه أشار الأستاذ المحاضر إلى أن البحث في ميدان المخطوطات الموريسكية قد اختصر على الدارسين المهتمين بالجانب الرومانسي دون الاهتمام بالجانب العربي ، وهذا ما يستدعي زيادة الاهتمام بهذا التراث .

تميزت كلمة الأستاذ محمد الأمين البان حول المخطوطات العربية بموريتانيا بالحديث عن المخطوطات الموريتانية بالمعهد المريتاني والتي لا تشكل إلا نسبة بسيطة من هذا التراث العربي المخطوط إذ إن معظم هذه المخطوطات توجد الآن بالزوايا .

وكان أبرز ما ميزه حديث الأستاذ المحاضر هو النداء المؤثر الذي وجهه إلى الباحثين والمشاركين في الندوة من أجل إنقاذ المخطوطات الموريتانية التي تعاني من العديد من المشاكل الخطيرة وفي مقدمتها الجفاف الذي زحف على الزوايا فاضطر الشيخ إلى مغادرة زاويته باحثاً عن مكان يستقر به ، فيفر معه الطلبة الذين كانوا مهتمين باستساخ هذه المخطوطات ودراستها . فواقع المخطوطات العربية بموريتانيا واقع مزر ويقتضي إتفاقة من العلماء والباحثين والمهتمين .

وكان آخر المتحدثين هو الأستاذ عمر الجليدي الذي تحدث عن « مخطوطات علي بن ميمون الغماري في المكتبة الظاهرية » فأجمل كلمته في النقاط الثلاث التالية :

أ - حياة علي بن ميمون .

ب - استعراض المعروف من مؤلفاته .

ج - مؤلفاته الموجودة بالمكتبة الظاهرية بدمشق .

وأنهى المحاضر كلمته باستعراض لأهم الكتب التي ألفها ابن ميمون والموجودة بالمكتبة الظاهرية مع ذكر لأهم المواضيع التي يتطرق لها كل كتاب على حدة ■

مجلس الإدارة

- ١- صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز : رئيساً أعلى لمجلس إدارة المكتبة
ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني
- ٢- معالي الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري : نائب للرئيس الأعلى لمجلس الإدارة
نائب رئيس الحرس الوطني المساعد
- ٣- معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي : عضواً
مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
- ٤- صاحب السمو الملكي الأمير متعب بن عبد الله : عضواً
قائد كلية الملك خالد العسكرية
- ٥- سعادة الأستاذ عبد الرحمن بن إبراهيم أبو حميد : عضواً
- ٦- سعادة عميد شئون المكتبات بجامعة الملك سعود : عضواً
- ٧- سعادة عميد شئون المكتبات بجامعة الإمام محمد بن سعود : عضواً
- ٨- سعادة الأستاذ فيصل بن عبد الرحمن المعمر : سكرتيراً
مدير المكتبة



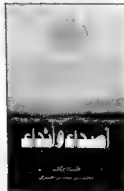




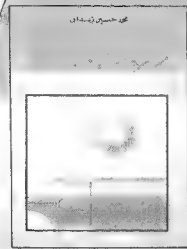
● النقد الأدبي في المغرب
العربي

د . عبده عبد العزيز قزقيلة
٤٢٧ صفحة - الطبعة
الثانية ١٩٨٨ م.
الناشر : الهيئة المصرية العامة
للكتاب .

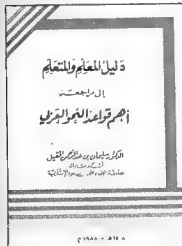
التجديد



● اصدااء والذاء
د . محمد بن سعد بن
حسين
٢٠٢ صفحة - الطبعة
الأولى ١٤٠٨ هـ .



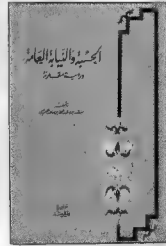
● ذكريات اليهود الثلاثة
محمد حسين زيدان
٣٧٠ صفحة - ١٩٨٨ م.
الناشر : المؤلف .



● دليل المعلم والمتعلم إلى
مراجعة قواعد النحو
العربي
د . سليمان بن عبد الرحمن
الحقيل
٣٥٤ صفحة - الطبعة
الأولى ١٤٠٨ هـ .



● اقتراءات الصليبي
و متابعات أولي
محمد عبد الله الحميد
٢٧٠ صفحة - ١٤٠٨ هـ .
نادي أبها الأدبي .



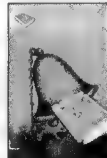
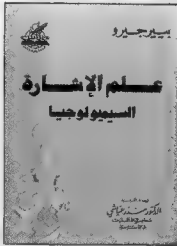
● احسبه والنيابه العامه
« دراسة مقارنة »
سعد بن عبد الله بن سعد
العريفي
١٢٠ صفحة - الطبعة
الأولى ١٤٠٧ هـ .
دار الرشد للنشر والتوزيع .



● الشعر الحديث
بين المحافظة والتجديد
د. محمد بن سعد بن حسين
١٤٠ صفحة - الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.

● جاك بريفير : قصائد
مختارة .
ترجمة منامي مهدي
١٩٢ صفحة
دار المأمون للترجمة والنشر
ببغداد .

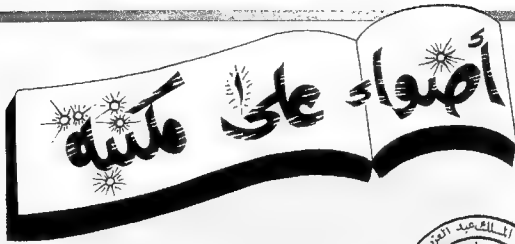
● الأمير عبد الله بن جلوي
آل سعود : دوره في
تأسيس الدولة السعودية
الثالثة .
(١٣٥٤/١٢٨٧ هـ -
١٩٣٤/١٨٦٧ م) .
إعداد : جواهر بنت عبد
الحسن بن عبد الله بن
جلوي آل سعود .
١٦٨ صفحة .



● علم الإشارة «السيمولوجيا»
بيتر جيمرو
ترجمة د. منذر عياشي
١٧٢ صفحة - الطبعة الأولى ١٩٨٨ م.
دار طلاس للدراسات
والترجمة والنشر بدمشق .

● علم الدلالة
بيتر جيمرو
ترجمة د. منذر عياشي
٢٠٧ صفحة - الطبعة الأولى ١٩٨٨ م.
دار طلاس للدراسات
والترجمة والنشر بدمشق .

● الجدور التاريخية لإرساليات
التصير الأجنبية في مصر
« دراسة وثائقية »
د. خالد محمد نعيم
٣٦٠ صفحة
الناشر : كتاب المختار
بالقاهرة .



الملك عبدالعزيز العامّة



يُعد تاريخ إنشاء مكتبة الملك عبد العزيز العامة لعام ١٤٠٥ هـ حينما قرر صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني إنشاء مؤسسة علمية ثقافية إيماناً من سموه بأهمية العلم والثقافة في حياة الشعوب وفي غمى البلاد وتقدمها وتطورها وتقديرًا من سموه للدور الذي تقوم به المكتبات العامة في نشر العلم والثقافة، حيث قام سموه بإنشاء مكتبة عامة تحمل اسم المغفور له الملك عبد العزيز طيب الله ثراهبة من سموه للمواطنين لكي ينهلوا من كنوز المعرفة التي ستوفرها حيث تم تشييد مبنى رخامي فخم وهجّل للمكتبة بجوار منزل سموه بحي الروضة. يتألف هذا المبنى من دورين مساحتهما الإجمالية تزيد على خمسة آلاف متر مربع تحتوي على صالات للقراءة والمطالعة وصالات لعرض الكتب والدوريات ومستودعات وغرف لتصنيف وفهرسة وتجليد الكتب واستلامها وغرف مايكرو فيلم ومايكرو فيش وتصوير ومكاتب إدارية واستراحات لرواد المكتبة والعاملين وما إلى ذلك من الأقسام اللازمة لأي مكتبة عامة حديثة بالإضافة إلى مسجد كبير وسكن للموظفين في منطقة هادئة وهجيلة يمكن الوصول إليها بسهولة حيث تتوفر المواقف المخصصة لرواد المكتبة.

مهام وأهداف المكتبة :

تعتبر المكتبات بكل أنواعها عنصراً مهماً في تقدم ورقي المجتمعات لما تقدمه من خدمات للباحثين والدارسين بالإضافة إلى دورها في تثقيف وتنمية المجتمع . والمكتبات أنواع ولكل منها رسالة تؤديها وفقاً لطبيعة مقتنياتها وحجمها ودقة تنظيمها والفئات التي تستفيد من خدماتها . والمكتبة العامة تمتاز بأنها تقدم خدماتها على نطاق أوسع لكل أفراد المجتمع من أستاذ الجامعة إلى العامل في المصنع وهذا يترتب عليه مسؤوليات جمة سواء من ناحية تأمين أوعية المعرفة وتيسير استخدامها أو خدمة الجمهور الكبير من المستفيدين ولهذا أنشئت مكتبة الملك عبد العزيز العامة لتصبح مؤسسة علمية ثقافية تربية وفي هذا الإطار تعمل على تحقيق الأهداف التالية :

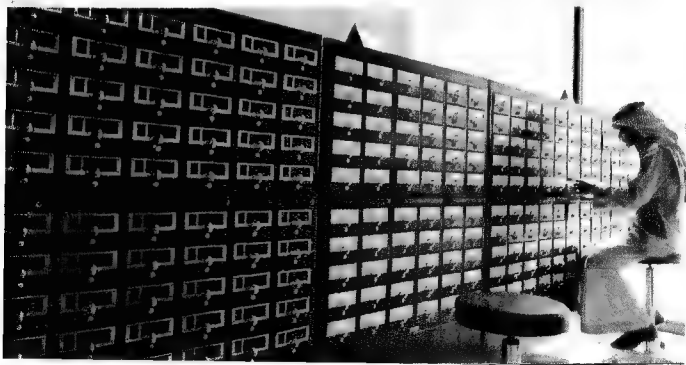
• مبني المكتبة •



- ١ - توفير مصادر المعلومات من كتب ودوريات ومواد سمعية وبصرية في كافة فروع المعرفة البشرية .
- ٢ - إتاحة الفرصة لكل فئات المجتمع للاستفادة من مقتنيات المكتبة والخدمات التي تقدمها لهم .
- ٣ - تنظيم المقتنيات باستخدام التقنيات والأساليب الحديثة التي تسهل استخدام هذه المقتنيات بدون عوائق مادية أو تنظيمية .
- ٤ - توفير أفضل الخدمات للقراء والباحثين ، وذلك بتقديم المعلومات وبشها لجميع المستخدمين بأفضل الوسائل المتاحة .
- ٥ - المساهمة في إحياء وحماية التراث الإسلامي والعربي .
- ٦ - المساهمة في تثقيف المجتمع وزيادة الوعي لدى أكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع بالاعتماد على شتى الوسائل ، مثل إقامة الندوات والمحاضرات والحلقات الدراسية والمشاركة في برامج التعليم المستمر ومحو الأمية .
- ٧ - التعاون مع المكتبات ومراكز البحث والهيئات المحلية والخارجية فيما يحقق أهداف المكتبة .

التزويد :

يعتبر هذا القسم من أهم وأبرز أقسام المكتبة حيث يتم من خلاله اختيار وتأمين أنواع المعرفة وذلك وفق سياسة شرائية وضعتها المكتبة تقوم على مراعاة طبيعة المكتبة ، ومن ثم



طبيعة المجتمع الذي تخدمه ، وبالتالي مستويات المستفيدين من المكتبة .
 ويقوم قسم التزويد بالاستعانة بأدوات الاختيار من قوائم وبيبلوغرافيات وأدلة وفهارس الناشرين بالمهام التالية :

أ - اختيار المواد المناسبة وطلبها من مصدرها مباشرة .
 ب - تلقي الكتب المطلوبة سواء كانت على سبيل الشراء أو الهدايا ، الإجراءات اللازمة لتسجيلها تمهيداً لفهرستها وتصنيفها وإعدادها للاستخدام .
 حيث وصل عدد ما اقتنته المكتبة من كتب ما يقارب ١٠٠,٠٠٠ مجلد .

نشاطات المكتبة

الفهرسة والتصنيف :

يعتبر هذا القسم من الأقسام المهمة حيث يتم فيه الإعداد والتنظيم الفني لمقتنيات المكتبة من الكتب والدوريات والمواد غير المطبوعة ، وذلك وفق التقنيات والنظم الحديثة في الفهرسة والتصنيف .

ففي مجال الفهرسة يستخدم التقنين الدولي للوصف البيبليوغرافي ، أما التنظيم الموضوعي فيتم وفق تصنيف ديوي العشري في طبعته العربية المعدلة لفؤاد اسماعيل ، وتستخدم في الفهرسة الموضوعية قائمة رؤوس الموضوعات التي أصدرتها عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود .



وبموجب هذه الأسس تم تكوين فهرس بطاقي يمثل كل مقتنيات المكتبة حسب التقسيم التالي :

فهرس المؤلف : رتب هجائياً حسب أسماء المؤلفين والمحققين والمترجمين ..

فهرس العنوان : رتب هجائياً حسب عناوين الكتب والأوعية الأخرى .

فهرس الموضوعات : يهدف إلى مساعدة الباحث في التعرف على الموضوعات التي تمثلها مقتنيات المكتبة ، وذلك وفق رؤوس الموضوعات ورتب هجائياً .

الفهرس المصنف : جمعت فيه البطاقات في ترتيب تسلسلي حسب أرقام التصنيف التي تمثل وتحدد موقع المادة على الرف .

ولا تقتصر أعمال الفهرسة والتصنيف على الكتب ، بل تشمل كل المواد من مخطوطات ودوريات ومطبوعات حكومية ووسائل سمعية وبصرية .

الدوريات :

تغطي الدوريات باهتمام خاص لدى المكتبات وبخاصة الدوريات التي تقوم على أساس علمي ، لاسيما في هذه الفترة مع التطور السريع في العلوم والتقنية ، فالدورية غالباً تحمل بين طياتها نتائج أبحاث ودراسات حديثة وسريعة التطور ، لذا يتم نشرها في الدوريات المتخصصة للمحافظة على حداثةها ، ويتم تزويد القسم بالدوريات عن طريق الإهداء والاشتراك ، وتعطى أولوياته



للدوريات الصادرة في دول الخليج العربية وتأتي في المرتبة التالية البلاد العربية فالدول الإسلامية ، وقد اشتركت المكتبة في عدد لا بأس به من الدوريات الأجنبية آخذة بالاعتبار التنوع الموضوعي لهذه الدوريات..

ويحرص القسم على تحديث مجموعة الدوريات حيث يبلغ حجم الدوريات الموجودة بالقسم ما يقارب ثلاثمائة وخمسون دورية عربية بالإضافة إلى خمس وأربعين دورية قديمة توقفت عن الصدور ، وما يقارب ثلاثمائة وخمس دوريات أجنبية .

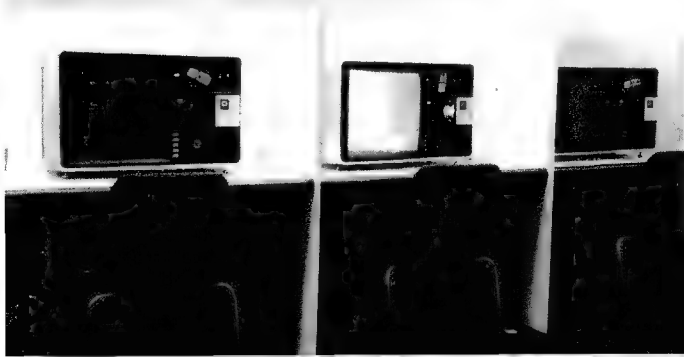
ومن حيث التنظيم فالدوريات مقسمة إلى مجموعتين : عربية وأجنبية ، وكل مجموعة مرتبة هجائياً حسب عنوان الدورية ، وهذا بالإضافة إلى فهرس بطاقي للدوريات ، وحصر بالأجزاء والمجلدات المتوفرة من كل دورية .

الخدمات :

أنشئت المكتبة لخدمة القراء والباحثين . وتتنوع الخدمات التي تقدمها المكتبة وفقاً لطلبات المستفيدين واحتياجاتهم ومن هذه الخدمات :

١ - الخدمة المرجعية وإرشاد القراء :

تعتبر هذه الخدمة من الواجبات الأساسية التي تقدم لجمهور القراء والباحثين ، حيث يمكن من خلال المراجع المتوفرة في المكتبة الإجابة على الاستفسارات العلمية وتقديم المعلومات



الموجزة التي يطلبها الباحث ، وإذا كانت حاجة الباحث تتطلب التفصيل والعمق في البحث ، فيتم اختيار وتوفير المراجع الملائمة لموضوع البحث .

٢ - الإعارة :

وضعت المكتبة في خطتها السماح بإعارة الكتب خارج المكتبة ، وسوف يتم لهذا الغرض وضع ضوابط تحدد فئات المستعيرين ومدة الإعارة وغير ذلك . وحتى يتم وضع هذه الضوابط واعتمادها من مجلس الإدارة فيقتصر استخدام مواد المكتبة على الإعارة الداخلية .

٣ - الاتصال بمراكز المعلومات الأخرى :

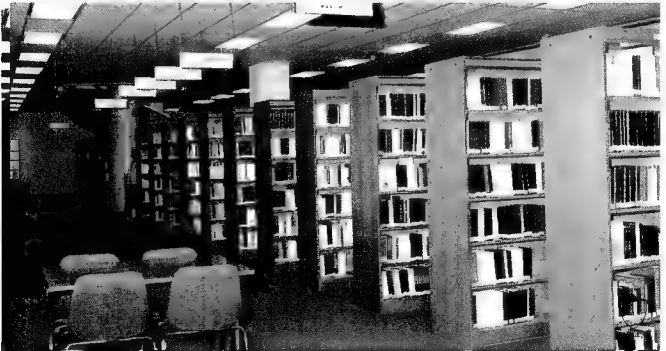
لتوسيع مجال خدمات المعلومات لرواد المكتبة فقد وضعت المكتبة ضمن مشاريعها ربط المكتبة ببعض مراكز المعلومات في داخل المملكة بواسطة الحاسب الآلي ، حيث يمكن لرواد المكتبة الاستفادة من المعلومات المتوفرة لديهم . ومن المتوقع أن يتم ذلك قريباً .

٤ - خدمات أخرى :

توفر المكتبة كل التسهيلات الممكنة : مثل آلات التصوير والبوفيه والهاتف ومواقف السيارات وغير ذلك من الخدمات .

القاعة الملكية :

تشرفت المكتبة بحمل اسم موحد المملكة وباني نهضتها ومؤسس انطلاقها المغفور



له الملك عبد العزيز طيب الله ثراه ، ومن الوفاء لهذا الاسم الكريم الذي تعزز به أن تعمل المكتبة على جمع المؤلفات والإصدارات والمخطوطات الشاملة الكاملة عن تاريخ المملكة منذ البدء على يديه وكفاحه وجهاده وتحركه الداخلي والخارجي . ولا تقتصر الدوافع لتأمين هذه المطبوعات والمخطوطات على كون المكتبة تحمل هذا الاسم الكريم ، بل تتجاوز ذلك إلى كون المغفور له جلالة الملك عبد العزيز يمثل (الرمز) الذي ترتبط به المملكة وتضعه نصب عينيها في إطلالتها على الماضي واستشفافها للمستقبل .

لذا فقد روعي تخصيص قاعة تضم كل ما كتب عن المغفور له الملك عبد العزيز وعن المملكة سواء كان ذلك على شكل كتب أو صور أو تسجيلات .

ولقد بلغ عدد الكتب الخاصة بتاريخ الملك عبد العزيز أكثر من ثلاثمائة كتاب والمكتبة تقتني عدداً كبيراً من الصور القديمة للمملكة ، إضافة إلى مشروع جمع وثائق تاريخ الملك عبد العزيز ومصادره ، وقد تم وضع قائمة بالمصادر الأجنبية وأخرى بالعربية وذلك للعمل على اقتنائها .

المخطوطات :

تعتبر المخطوطات جزءاً من تراث الأمة العربية والإسلامية ومؤشراً حضارياً لما كانت عليه الأمة العربية من العلم والثقافة ، ولهذا فالمخطوطات تجسد العناية الخاصة والاهتمام الواسع



ليس فقط على المستوى الإقليمي ، وإنما على المستوى العالمي ، وذلك لما لها من قيمة تراثية وحضارية .

وقسم المخطوطات بالمكتبة يقوم بدوره - قدر المستطاع - في سبيل حفظ وحماية التراث العربي والإسلامي وذلك بأحد طريقتين :

١ - الشراء : حيث قام القسم بشراء عدد لا بأس به من المخطوطات في بداية إنشائه بلغ ما يقارب من ٤٠٠ مخطوط ، ١٠٠ مجلد نادر وما يقارب من ١٠٠ مصور ورقي لمخطوطات نادرة ، وسياسة القسم تقوم على شراء ما يتاح له من المخطوطات لحفظها وحمايتها من الضياع ، وبالتالي تمكين الباحثين من الاستفادة منها .

٢ - التصوير : يحرص القسم على الحصول على نسخ مصورة للمخطوطات التي لا يمكن شراؤها سواء كان ذلك على أفلام مايكرو فيلم أو على ورق ، وقد قام القسم بشراء مصورات ورقية لمخطوطات نادرة من معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في جامعة فرانكفورت .

ويقوم القسم بإجراء العمليات الفنية للمخطوطات من فهرسة وتصنيف وتصوير وذلك لتسهيل السبل أمام الباحثين للإفادة من هذه المجموعات .

المطبوعات الحكومية :

أنشأت المكتبة قسماً خاصاً بالمطبوعات الحكومية يضم ما تنشره الهيئات الحكومية من مطبوعات تمثل الأنظمة والتقارير والإحصاءات والأدلة والمطبوعات الإعلامية . وتعطى أولوية للمطبوعات الحكومية السعودية الصادرة عن الوزارات والجامعات والمؤسسات الحكومية الأخرى بالإضافة إلى مطبوعات الدول العربية الأخرى . ومطبوعات الهيئات والمنظمات العربية والإقليمية مثل جامعة الدول العربية ومجلس التعاون لدول الخليج العربية ، وتحرص المكتبة على اقتناء هذه المطبوعات لما لها من أهمية للباحثين كمصادر للمعلومات . وقد وضعت خطة لمتابعة ما يصدر من مطبوعات جديدة . وتسهيلاً لاستخدام هذه المجموعة ، فقد تم وضع نظام تصنيف خاص بها ■



معرض الكتاب السعودي في المغرب

مستقوم مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض بإقامة معرض الكتاب السعودي في رحاب مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء وذلك في إطار التعاون والتبادلات الثقافية القائمة بين المؤسساتتين اللتين تترأسهما على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ورجس المحرس الوطني لتكونا في خدمة طلاب العلم والمعرفة في العالم العربي، وقد تقرر مشاركة عدد من الوزارات والمؤسسات والهيئات الحكومية السعودية بالمعرض كما يأتي :-

- ١- الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.
- ٢- الندوة العالمية للشباب الإسلامي.
- ٣- دار الملك عبد العزيز.
- ٤- جامعة الملك فهد للبترول والمعادن.
- ٥- جامعة الملك عبد العزيز.
- ٦- جامعة الملك سعود.
- ٧- معهد الإدارة العامة.
- ٨- وزارة الإعلام.
- ٩- الرئاسة العامة لرعاية الشباب.
- ١٠- مكتب التربية العربي لدول الخليج العربية.
- ١١- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- ١٢- الجامعة الإسلامية.
- ١٣- وزارة الحج والأوقاف.

حوار مع مدير مؤسسة

الملك عَبْدُ الْعَزِيزِ آلِ سَعُودٍ

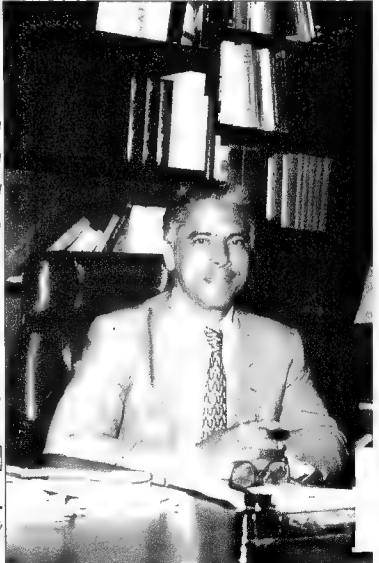
لدراسات الإسلاميّة والعُلومِ الإنسانيّة

بإلدار البيضاء - المغرب

● أجري الحوار الأستاذ عبدالله إبراهيم الحقيّل ●

المؤسسة هيئة مستقلة لا تتوخى
الربح، أنشأها في مدينة الدار
البيضاء بالمغرب، صاحب السمو الملكي
الأمير «عبد الله بن عبد العزيز» ولي عهد
المملكة العربية السعودية، لرعاية العلم
والعلماء في هذا الجزء من العالم الإسلامي.

ولأهمية هذا الصرح في تشجيع البحث
العلمي في مجالات الدراسات الإسلامية،
التفت المجلة بالأستاذ «عبد الفيلالي»
الذي تحدث عن نشاطات وإنجازات
المؤسسة من خلال هذا الحوار ..



نود أن نتحدثنا عن فكرة المؤسسة وبداية تأسيسها .

بسم الله الرحمن الرحيم ،

أود قبل كل شيء أن أعبر عن شكري بجلّة دار الملك عبد العزيز والمشرّفين عليها للأعمال الجليلة التي يقومون بها والاهتمام بكل ما يشجع الثقافة والعلم .

وردت فكرة المؤسسة كمبادرة من طرف صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية للمساهمة في العمل الثقافي وتشجيع البحث العلمي في مدينة الدار البيضاء .

وهذه الفكرة هي وليدة وعي سموه بالموقع الخاص الذي تحتله مدينة الدار البيضاء في أقصى غرب العالم الإسلامي وللدور الذي أصبحت تلعبه هذه المدينة على الصعيد الاقتصادي والمالي والاجتماعي والثقافي .

مدينة الدار البيضاء كما هو معلوم أصبحت اليوم ثاني أكبر مدينة في أفريقيا وأكبر مدينة في المغرب العربي حيث يتعدى سكانها ثلاثة ملايين نسمة ، كما تعتبر هذه المدينة القلب النابض للاقتصاد الوطني المغربي من جهة ومركزاً علمياً وثقافياً مهماً من جهة أخرى ، بسبب إقامة جامعة كبرى بها ألا وهي جامعة الحسن الثاني وعدد من المعاهد العليا ومراكز البحث والثقافة .

وموقع الدار البيضاء في المغرب وفي المنطقة عامة جعل منها واجهة للعالم الإسلامي وحلقة وصل بين غربه من جهة والقارة الأفريقية وأوروبا الغربية من جهة أخرى ، وبذلك تعتبر هذه المدينة مركزاً تتواجه فيه الثقافات وتتواجد في محيطه معالم حضارات مختلفة ، مما يجعله أرضية للحوار والعمل الثقافي والحضاري .

بناء على هذا أراد سمو الأمير جزاءه الله خيراً أن يسهم في إغناء العمل الثقافي والبحث العلمي في هذه المدينة بمؤسسة رائدة تنحزم المبادئ الإسلامية الراسخة وتؤكد حضور الثقافة العربية الإسلامية في هذا المركز .

وقد أرادها سموه أن تكون مؤسسة تقدم خدمات ملموسة وفقالة لجمهور المثقفين والباحثين في مدينة الدار البيضاء وفي المغرب عامة وكل من يرتادون مؤسسات البحث في هذه المنطقة ، فاستقر رأي سموه على أن يجعل منها مؤسسة تستعمل أحدث التجهيزات المتوفرة في ميدان تسيير

المعلومات ومسايرة المعايير العصرية التي توفر للباحث والمثقف أكثر ما يمكن من الموارد بشكل عقلاني محكم .

لقد تمت عند انطلاق المؤسسة مشاورات واسعة مع مجموعة من الأساتذة والباحثين واستطلاعات وأبحاث ميدانية مركزة لاستجلاء نوعية الخدمات التي يمكن للمؤسسة أن تقدمها ، وبناء على ما لوحظ في مدينة الدار البيضاء من تواجد عدد مهم من المكتبات والخزانات الموجهة للجمهور الواسع ولطلبة المدارس والمعاهد والكلليات وكذلك من وجود عدد من المراكز الثقافية الوطنية والأجنبية فقد تبين أن خدمة البحث العلمي الرفيع المستوى في ميادين تاريخ وحضارة العالم الإسلامي تشكل ميداناً يحظى باهتمام واسع من طرف المثقفين والباحثين ، ويوفر إمكانيات العمل الجاد والناجح بالنسبة للمؤسسة فنية مثل هذه .

بناء على هذه المشاورات وعلى ما أظهرته الاستطلاعات استقر رأي سموه على أن يسند مسؤولية الإشراف على إنجاز المشروع إلى مجلس إدارة يضم مجموعة من الشخصيات السعودية والمغربية المعروفة باطلاعها وخبرتها وغیرتها على المبادئ الإسلامية السمحة .

- ما هي أهداف هذه المؤسسة وما هي أقسامها ؟

- أهداف المؤسسة :

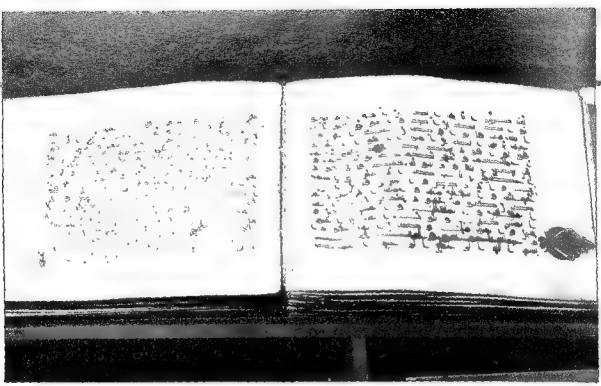
كما حددها النظام الأساسي للهيئة التي تم إحداثها وفقاً لمقتضيات القانون المغربي المتعلق بالهيئات الاعتبارية ، فإن أهداف المؤسسة هي كالتالي :

- تكوين وتسيير وصيانة خزانة ومركز للتوثيق في ميادين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية .

- تنظيم أنشطة ثقافية وعلمية في الميادين العلمية المشار إليها وذلك على شكل ندوات ومحاضرات .

- تشجيع النشر والتأليف في الميادين العلمية .

- المشاركة في المبادلات الثقافية والعلمية مع المؤسسات التي تتوخى نفس الأهداف .



- أقسام المؤسسة :

- تتكون المؤسسة من مركب يضم مساحة مبنية تقدر بـ ٩٠٠٠ متر مربع وتحتوي على :
 - مسجد كبير بني حسب الطابع المعماري العربي الإسلامي والطابع المغربي المتميز بالفن المغربي الأصيل ، ويعدُّ مفخرة من مفاخر الإسلام في هذا البلد يستطيع استقبال ٣٠٠٠ مصلي ، وأصبح معلماً من المعالم التاريخية والحضارية وعرف منذ افتتاحه إقبالاً منقطع النظير نظراً للدروس الدينية التي تقام فيه .
 - خزانة ومركز للتوثيق يوفران أهم موارد البحث العلمي حسب أحدث المعايير المعاصرة وباستعمال أحدث التجهيزات لتكون في مستوى طموحات الأمة الإسلامية إلى الازدهار والرفي الحضاري .

- أقسام الخزانة :

- قسم المراجع والتزويد : ينظم كل الموارد التي تتوصل بها الخزانة مثل الفهارس والمكانر والدوريات البليوغرافية ويتتبع الإنتاج العلمي وانتقاء العناوين التي تطابق معايير تكوين مجموعات الخزانة مع متابعة الاتصال بالخزانات ومؤسسات البحث للتعرف على منشوراتها والحصول عليها بالتبادل .

● قسم الفهرسة والتصنيف والتكشيف : يعمل على فهرسة الكتب ، صيانة المجموعات ، تتبع التطورات في مواصفات الفهرسة وتبويب دفاتر العمليات ، وضع وتبويب ملفات المعلومات .

● قسم المعلومات : يعمل على صيانة الحاسب الآلي والتجهيزات المرتبطة به وكل العمليات المرتبطة بقواعد المعلومات الببليوغرافية وغيرها ، كما يعمل على إصدار فهارس الخزانة .

● قسم الإدارة : يشرف على كافة المسائل الإدارية : تزويد ، ضبط ملفات الموظفين ، صيانة التجهيزات والمقرات ، المحاسبة وتقديم مختلف الخدمات لرواد الخزانة .

● قسم المخطوطات والكتب النادرة : يعمل هذا القسم على شراء الكتب النادرة والمخطوطات والأطروحات والرسائل الجامعية ، صيانة ، استنساخ وفهرسة الكتب النادرة ، متابعة التبادل مع الخزانات والمؤسسات المحلية ، الوثائق الرسمية ، ترميم المخطوطات ، تصويرها . كما يشرف على مختبرات الميكروفيلم والميكروفيش وعلى معمل التجليد .

● قسم الدوريات : يقوم بتتبع الاشتراكات ، فهرسة المقالات التي تهتم بتاريخ وحضارة الغرب الإسلامي ، صيانة المجموعات القديمة .

- خلال هذه الفترة حيث مضى على افتتاح هذه المؤسسة ثلاث سنوات ، ما هي الأعمال والمنجزات التي قامت بها ؟

قام صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز بتدشين المؤسسة في ١٢ شوال ١٤٠٥ الموافق ٥ يوليو ١٩٨٥ م بصحبة ولي عهد المملكة المغربية الأمير محمد بن الحسن ومضى على تدشينها أقل من ثلاث سنوات قطعت المؤسسة أطواراً كبيرة في تكوين خزانة علمية بلغت المجموعات التي تحتويها حالياً ما يزيد على ١٠٠,٠٠٠ مجلد و ١,٠٠٠ دورية باللغات العربية ، الفرنسية ، والإنجليزية . وفي ظرف وجيز استطاعت استقطاب آلاف الباحثين والأساتذة والطلبة الذين وفرت لهم كل الخدمات الضرورية لإنجاز أبحاثهم العلمية في أحسن الظروف . ويعد مركز الوثائق بالخزانة قاعدة بيانات ببليوغرافية مسيرة بالحاسب قصد توفير إعلام ببليوغرافي دقيق وشامل وسريع ، وكان من أولى ثمار هذه القاعدة إصدار فهرس بمحتويات الخزانة من مؤلفات إسلامية ودراسات عن العالم العربي ، حول الغرب

الإسلامي (المغرب العربي ، الأندلس وأفريقيا المسلمة) وهذا الفهرس هو الآن جاهز ويمكن إرساله إلى كل من يرغب في اقتنائه .

وللمؤسسة برنامج ثقافي طموح يهدف إلى خدمة الثقافة العربية الإسلامية والتعريف بالأبحاث العلمية المختصة للتراث العربي من جهة وللواقع الحالي للمجتمعات العربية الإسلامية من جهة أخرى .

فمنذ انطلاق المؤسسة تم تنظيم خمس ندوات حول مواضيع مختلفة تشمل مسائل متعلقة بـ « تجديد الدراسات حول الإسلام والعالم العربي » ، « تجديد الفكر الإسلامي » ، ندوة حول « مكتبات العلوم الإنسانية : ترشيد التنظيم ومعالجة المعطيات » ، ندوة حول « القانون والمحيط الاجتماعي في المغرب العربي » وندوة حول « المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي وضعية المجموعات وآفاق البحث » شاركت فيها نخبة من العلماء الأجلاء وأساتذة حضروا من المملكة العربية السعودية ، المشرق العربي ، المغرب العربي ، أوروبا وأمريكا .

— هل يوجد تعاون بينكم وبين المؤسسات الثقافية والتعليمية في العالم وما مدى هذا التعاون ؟

عملت المؤسسة على تكثيف علاقاتها مع المؤسسات العلمية في العالم العربي الإسلامي خصوصاً منها المؤسسات الثقافية في المشرق العربي سواء الجامعات أو مراكز البحوث أو الخزانات والمعاهد الدينية ...

ومن أهم النتائج التي توصلت إليها هي الحصول على كميات مهمة من منشورات علمية أساسية للتوزيع عبر السوق التجارية مثل المجلات التي تصدر عن الجامعات والهيئات العلمية والأطروحات وبعض المنشورات العلمية المتخصصة . ونلاحظ والحمد لله في هذه الفترة الوجيزة أن مبادرة الاتصال وطلب ربط علاقات تعاون أصبحت تأتي من مختلف الهيئات عبر العالم ، مما يظهر أن المؤسسة أصبحت الآن تتمتع بصيت جيد وسمعة طيبة مما جعلها تصبح مطلوبة لا طالبة .

— هل في نية المؤسسة ضم مجالات أخرى لنشاطاتها ؟

يتحدد نشاط المؤسسة في البرنامج السنوي الذي يقترحه مجلس إدارتها ويقره صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز وفي هذا الصدد يجب التأكيد على أن صيانة المجموعات

التي تم تكوينها ومواصلة الجهد المبذول في عرض رصيد غني ومتكامل من الموارد العلمية الأساسية يعد في حد ذاته عملاً كبيراً ويتطلب القيام بمجهودات كبيرة ومتواصلة لجعل هذه المؤسسة مكتسباً ملموساً ودائماً لفائدة البحث العلمي في هذه المنطقة من العالم العربي الإسلامي .

كما أن الأعمال الأخرى التي شرعت المؤسسة فيها ، لازالت في بدايتها من الواضح أنها تتطلب توظيف إمكانيات مادية وبشرية مهمة للقيام بها على الوجه المطلوب ، مثل إنشاء بنك للمعلومات حول تاريخ وحضارة الغرب الإسلامي (المغرب العربي ، الأندلس وأفريقيا المسلمة) من جهة وبرامج الندوات والأنشطة الثقافية من جهة أخرى ، لذلك فإننا نظن أن برامج المؤسسة حالياً في مرحلة الانطلاق وأنها تعد بالكثير من العطاءات نطلب من الله عز وجل أن يساعدنا على القيام بها على الوجه الذي يرضيه ويرضي صاحب الفضل في إنشاء هذا المشروع وكل العلماء الأجلاء والباحثين الذين يتوجه لهم .

ـ ما هي أبرز الخطط المستقبلية التي تنوي المؤسسة تحقيقها ؟

لقد أوصى مجلس إدارة المؤسسة بأن تعمل الخزانة على جمع أكثر ما يمكن من الموارد العربية الإسلامية وأن تعمل على تقديم مجموعات متكاملة من الإنتاج العلمي العربي لجمهور المثقفين والباحثين في هذا الجزء من العالم العربي والإسلامي لتكون بمثابة الجسر الذي يربط بين مشرق العالم العربي ومغربه ويقارب بين العلماء والباحثين في شقيه . لذلك فإن الخطط المستقبلية للمؤسسة تتركز على توريد أكثر ما يمكن من أوعية المعلومات وخاصة منها تلك التي لا توزع عبر القنوات التجارية .

كما تدخل في إطار تلك الخطط ضبط تلك الموارد بالوسائل الحديثة التي يوفرها الحاسب الآلي بشكل يسمح بتقديم خدمات متكاملة وعصرية للبحث العلمي .

وأخيراً ستسهم المؤسسة بتنظيم أنشطة ثقافية تتركز حول التعريف بالأبحاث العلمية العالية المستوى التي تعرف بالتراث العربي الإسلامي من جهة وبالواقع المعاصر للمجتمعات العربية من جهة أخرى .

ـ بعد اختتام ندوة المخطوطات والتي عقدت في رحاب المؤسسة في الفترة من

١٩٨٨/٤/٩ م ، نود أن تعطينا انطباعاتكم عنها وعن أبعادها ؟

لقد كانت هذه الندوة بالنسبة لنا حدثاً مهماً طالما ارتقيناه وتطلعنا إليه ، وقد سعدنا كثيراً لما وقع بالفعل واجتمع في رحاب هذه المؤسسة ذلك الجمع الغفير من أهم المسؤولين عن مجموعات المخطوطات الإسلامية في أكبر الخزانات الدولية والمهتمين والباحثين والمختصين في دراسة التراث العربي الإسلامي .

وقد كانت تلك الندوة والحمد لله كما أردناها وكما خططنا لها وفق التوجيهات السامية لصاحب السمو الملكي أدام الله عزه شبه مؤتمر عام تمت خلاله دراسة مختلف القضايا المتعلقة بالتراث العربي الإسلامي المخطوط فتبذلت أثناءه معلومات ثمينة حول وضعية المجموعات المتواجدة في خزانات أوروبا وأمريكا والمغرب العربي ونوقشت بإسهاب الوسائل والتقنيات الكفيلة بفهرسته وصيانتها وتقديمه للبحث العلمي .

وأخيراً نوقشت الكيفية المثلى لتوظيف ذلك التراث في البحث العلمي المعاصر بصفة خاصة وفي بناء تصور متكامل للأعمال الجبارة التي قام بها العرب والمسلمون في الحقل العلمي والثقافي وبناء تصور جديد للشخصية العربية الإسلامية .

ومن أهم أبعاد هذه الندوة تلك التدابير التي اتخذت لضمان استمرار الاتصال والتعاون والتنسيق بين كل الأطراف التي حضرت الندوة ومن أهمها تكوين لجنة تقنية كلفت بوضع قواعد موحدة لعملية الوصف والفهرسة والتي تهدف إلى تقديم معلومات متكاملة للباحثين المهتمين بالميدان .

- هل في نية المؤسسة عقد ندوات أخرى في مواضيع جديدة ؟

نعم فكما أوصى مجلس الإدارة تقوم المؤسسة بتنظيم مناظرة علمية كل سنة في أحد مجالات المعرفة التي تغطيها وداخل إطار اختصاص الخزانة وتوجيهاتها في التعريف بالأعمال العلمية والاتجاهات الفكرية المرتبطة بتاريخ وحضارة العالم العربي عامة والغرب الإسلامي خاصة (المغرب العربي ، الأندلس وأفريقيا المسلمة) .

لقد أصبحت هذه المؤسسة تحل والحمد لله مكانة بارزة بين مرافق البحث العلمي وأصبحت تعد قبلة لكل العلماء الأجلاء والمحققين والمهتمين في هذه الربوع ، مما يزيد في عزمننا على المضي قدماً في العمل على تحقيق توجيهات صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله ابن عبد العزيز آل سعود « حفظه الله ورعاه » ■

الأئمة الشائخة

بين الوراثة والاكساب

● د . محمود جبر الربداوي ●

في الأدب العربي ظاهرة يكاد ينفرد بها من بين الآداب العالمية الأخرى فيما أعلم^(١) تلكم الظاهرة هي ظاهرة (الأسر الشاعرة) ، ونعني بالأسر الشاعرة تلك الأسر التي ينبغ فيها شاعر متميز ثم لا يقف جيل الشعر عنده ، وإنما يتوالى في نسله وذرائبه ، ويتوارث ذروته من أبناء وبنات وأخوة وأخوات موهبة الشعر هذه ، ثم تتواصل هذه الموهبة عبر الأحفاد وأبناء الأحفاد ، لتصل أحياناً إلى أحفاد الأحفاد ، ولو كانت هذه الظاهرة مقصورة على أسرة بعينها أو أسرتين لما غدت ظاهرة يجدر الوقوف عندها ، ولكنّها من التوفّر والشيوع بمكان كبير ، توفراً يجعلها غير قاصرة على عصر واحد فقط ، وإنما تتجاوز العصر الأدبي إلى عصرين وربما إلى ثلاثة ، إذ ينبغ الشاعر ، عميد الأسرة ، في العصر الجاهلي مثلاً ، ويتوالى بنوه وأحفاده في عصر صدر الإسلام ، وقد يوغل هذا التواصل فيعبر العصر الأموي إلى العصر العباسي ، هذا من الناحية الزمنية أو (العصرية) إن صحّت التسمية ، وأمّا إذا أمعنا النظر في البعد الأفقي لهذه الظاهرة وجدناها ، في العصر الواحد ، غير مقصورة على أسرة واحدة ، وإنما هناك أسر كثيرة متعددة ، في العصر الواحد ، أو في البيئة الواحدة ، وهذا ما جعل هذه الظاهرة تفرّج من حيّر الملاحظة الأدبية ، وترتقي إلى مستوى الظاهرة الأدبية التي تسمح بالدراسة المتعمقة المتميزة بالغنى والعمق والشمول .

وإنني لشديد الاعتقاد بأن المكان الطبيعي لدراسة هذه الظاهرة إنما يجب أن يكون في ظل الدراسات التي عنت بدراسة شعر القبائل ، وطبيعي أن يكون المهتمون بشعر قبيلة معينة أقدر على تلمس خصائص أسرة ما تنتمي إلى قبيلة معينة ، ففي ظل انتهاء هذه الأسرة لتلك القبيلة يتبين الباحث التفاعلات الاجتماعية والفكرية واللغوية بين القبيلة بوصفها مؤسسة « اجتماعية » كبيرة ، والأسرة بوصفها وحدة « صغيرة » من وحدات هذه المؤسسة الاجتماعية الكبرى ، ولعله من نافلة القول أن نعيد إلى الأذهان صورة الفخر الذي كان يملك القبيلة بأسرها عندما ينبغ فيها شاعر ، وصور التعبير عن هذا الفخر والاعتزاز بإيلام الولائم ، وما يصاحبه من مظاهر الفرح والغبطة .

ولكن الدراسات التي عنت بشعر القبائل كانت تنطلق من دراسة الشاعر بوصفه الوحدة الصغرى في القبيلة التي هي موضوع الدراسة ، وتنتهي إلى الصورة الشمولية بدراسة خصائص القبيلة كلها بصفتها وحدة كبرى لها مجموعة خصائص الوحدات الصغرى الداخلة فيها ، ولكنها ، في إطار هذا المرور من الوحدة الصغرى : الشاعر ، إلى الوحدة الكبرى : القبيلة ، تغفل الوقوف بالدراسة عند الوحدة الوسطى التي هي الأسرة ، ولهذا ضاعت دراسة الأسر الشاعرة في ثنايا النظرات الجزئية أو الكلية ، فدرست الأسرة في إطار شعراء مستقلين ، كأن لم يربطهم رابط بأقاربهم الأدين ، أو أنهم درسوا بصفتهم يتمون إلى هذه المجموعة الكبيرة المعبر عنها بالقبيلة .

ومن المسلم به أن (الشعر القبلي) قد حظى باهتمام الدارسين منذ القديم حتى هذا الزمن الحديث ، ولعل أقدم ملاحظة عن جمع شعر قبيلة معينة في كتاب ما نلاحظه في شعر (بشر ابن أبي خازم) الذي قرأ شيئاً في كتاب (بني نمير) إذ يقول :

قرأنا في (كتاب بني نمير) : أحق الخيل بالركض المعار

وإن فاتنا الاطلاع على هذا الكتاب فإنه لم يفتنا الاطلاع على كتب أشعار القبائل التي ألفها (أبو سعيد السكري) والتي بلغت - كما يقول ابن النديم في الفهرست^(١) - خمسة وعشرين ديواناً . في أيدي الناس منها (ديوان المهذلين) ، أما الآمدي فقد عدد لنا أسماء ستين ديواناً من دواوين أشعار القبائل^(٢) ، واقتبس هو منها ، وقد سبقه أبو تمام إلى تأليف كتابين في هذا الاتجاه القبلي أحدهما اسمه (الاختيار القبائلي الأكبر) والثاني (الاختيار القبائلي)^(٣) هذا بالإضافة إلى مجموعة غير قليلة من العلماء في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، الذي عنوا عناية شديدة بجمع أشعار القبائل وشرحها والتعليق عليها ، وفي زمننا الحديث يطالع الباحث مجموعة طيبة من الدراسات لأشعار القبائل دراسة أكاديمية جادة أضافت الكثير من المعرفة عن الشعر القبلي وخصائصه^(٤) . ولكن يظل الشعر في إطار الأسرة الصغيرة غير ذي بال عند هؤلاء الدارسين . وعلى الرغم من أن كتب (الشعر والشعراء)

وكتب تاريخ الأدب العربي تحفل بأسماء الكثيرين من الشعراء بعضهم المشهورون وبعضهم المغمورون ممن ينتمي إلى أسرة واحدة ، إلا أن هذه الأسماء ترد في كثير من الأحيان مفككة لا تلمح فيها رابطة الأسرة ، ولا تكشف هذه الرابطة إلا بقسط غير قليل من الجهد المقتصد ، والتتبع المهادن الذي قد يكون مضنياً في بعض الأحيان . صحيح أن المصادفة قد تلعب دوراً في كشف صلة النسب القريبة بين شاعر وآخر ، ولكن المصادفة وحدها ليست بكافية لتقديم المادة الأولية المطلوبة لإقامة الدرس والبحث ، فلابد ، والحالة هذه ، من التتبع والاستقصاء والاستعانة بالأخبار الرافدة والمعلومات الموضحة التي تصل بالباحث إلى درجة اليقين واستنباط ملاحظاته وتلويحها بقدر غير قليل من الثقة .

وما يؤكد على أن هذه الظاهرة ، أقصد ظاهرة الأسر الشاعرة ، مما ينفرد به الأدب العربي ، وقد لا يشاركه فيها أدب آخر هو شدة عناية العرب بالأنساب ، الأنساب على نطاق الأسرة الصغيرة ، والأنساب على نطاق القبيلة الكبيرة ، عناية تجاوزت حد القصص إلى حد المبالغة والعلو ، وأحياناً قليلة إلى حد التلفيق ، لأن العربي ، شاعراً كان أم غير شاعر ، يأنف أن يظل خارج إطار الوعاء الاجتماعي الذي هو القبيلة ، فلهذا يلتمس كل الأسباب والوسائل التي تبلغه الانتماء لأي تجمع صغير ، هو جزء من تجمع أكبر منه فتتألف الأفخاذ والبطون والفروع وتنتهي إلى الأصول وكبريات القبائل ، وهذا الانتماء يضمن له بالإضافة إلى الأمن الاعتزاز والمناخ الذي يسمح بتفتح الشاعرية والعناية الجماعية بها . ولهذا قلت أن الأجدد بدراسة هذا الموضوع هم المتخصصون بدراسة أشعار القبائل لأن دراسة الأسر الشاعرة هي ، في ذاتها ، دراسة لأشعار القبائل في أصغر وحداتها الاجتماعية التي هي الأسرة .

رب معترض يعترض علينا ، هازلاً أو جاداً ، فيقول : لماذا نحاول أن تثبت أن أسرة ما أو قبيلة نبلغ أفرادها في قول الشعر ، فتوارثوه وتتابعوا في قرضه ، ونحن نعلم أن الأمة العربية وليست الأسرة العربية أو القبيلة العربية ، أمة شعر ، لا يضاهيها في ذلك أمة أخرى ، حتى ليكاد يكون كل عربي شاعراً ، فإذا كان العرق العربي كله يتمتع بالشاعرية ، فمن المسلم به أن جميع أفرادها سواء كانوا منتسبين إلى أسرة صغيرة أم كبيرة يحملون في موروثاتهم العرقية قدراً من الشاعرية التي تبرز إلى حيز الوجود عندما

تتوفر لها الشروط الملائمة . وهذا الاعتراض في ظاهره صحيح ، ولكن أن يزعم زاعم أن كل فرد من هذه الأمة العربية شاعر بالقطرة ، مستمد حكمه هذا من الكثرة الكاثرة من الشعراء الذين أنجبتهم الأمة العربية على مر الدهور ، فهذا اعتراض مرفوض ، ذلك أن هذه (الكثرة الكاثرة) من شعراء العربية الذين لحنهم على مر العصور لا يسوغون أن يكون كل العرب شعراء ، ويطلقون نظرية البحث عن الشعر الموراث في نطاق الأسرة ، لأن نسبة الشعراء في كل جيل تكاد لا تذكر أمام نسبة السواد الأعظم من عامة الناس ومن غير الشعراء منهم ، فالشعراء الذين أحصتهم كتب (الشعر والشعراء) وذكرتهم كتب تاريخ الأدب عبر عصور متعددة يظلون قلة أمام ذلك السواد الأعظم من الناس الذين

لا يتمتعون بميزة (الشاعرية) ، ولذلك يظل البحث عن هذه (الميزة) ومتوارثها في إطار الأسرة الواحدة له ما يسوغه ، ويحمس الباحث على الولوج فيه .

يقع الدارس للعصر الجاهلي على مجموعات كثيرة من الشعراء ، تربط بين بعضهم روابط الأسرة كقراءة الدم أو قرابة النسب كالأخوة والبنوة والخؤولة والعمومة ، مثل ذلك ما نجده في المجموعة التي فيها (طرفة بن العبد) وأخته (الحزرق) ولست أدري من أين ورثا موهبة الشعر أمن خالهما (المتلمس) أم من عمهما (المرقش الأصغر) الذي هو بدوره ابن أخي الشاعر (المرقش الأكبر) وهذا الأخير عم (عمرو بن قميئة) الشاعر المشهور ، وكل هؤلاء مجموعة من الشعراء ينحدرون من آباء شعراء ، وينحدر منهم أبناء شعراء ، غير أن تشابه نسب هذه المجموعة يوقننا في الاضطراب ، فلنأخذ مجموعة أخرى من شعراء العصر الجاهلي تساعدنا على وضوح الرؤية أكثر من المجموعة السابقة ، ولتكن المجموعة (الهذلية) التي على رأسها الشاعر المشهور (أبو خراش الهذلي) ، وقد عدّه الأصمباني من فحول الشعراء الجاهليين وإن كان قد أدرك الإسلام فأسلم فحسن إسلامه ، يشاركه في الشاعرية أخوه (أبو جندب الهذلي) وهو أحد الفرسان الموهوبين والشعراء سليطي اللسان في الجاهلية والإسلام ، يشارك هذين الأخوين أخ ثالث لهما اسمه (الأبع بن مرة الهذلي) ترجمت أشعاره إلى الألمانية مع أشعار أخويه أبي جندب وأبي خراش ، ومالي أعدد هذه الأسرة واحداً واحداً ، ففي كتاب (تاريخ التراث العربي) لفؤاد سزكين يعدد تسعة من أخوة أبي خراش ويصفهم بأنهم كلهم شعراء على تفاوت في نسبة الشاعرية لدى كل واحد منهم^(١) . فالسؤال الذي ينشأ في الذهن الآن : لماذا يوضع الشعر في هؤلاء الأخوة التسعة ؟ أهناك ميراث واحد اقتسموه فقال كل واحد منهم نصيباً ؟ قد يقول قائل إن موهبة قول الشعر ليست مقصورة على هؤلاء الأخوة من هذه القبيلة ، فالذي نعرفه أن شعراء هذيل يعدون بالعشرات ، بعضهم يمكن أن يندرج في النظام الأسري المشار إليه ، ولكن بعضهم الآخر لا يخضع لهذا النظام ، وإنما هم ينتمون لقبيلة شاعرة ، لا لأسرة شاعرة وهذا القول صحيح أيضاً ، ولكن أن يكثر الشعراء في قبيلة واحدة لا يلغي وجهة النظر التي تذهب إلى إمكانية تكاتف هؤلاء الشعراء في داخل الأسرة الواحدة بفعل وراثته المواهب الفنية ، ومن الطريف أن بعض أفراد الأسرة الواحدة لا يرثون الموهبة الفنية ، بل يرثون المنزع النفسي الكامن وراء الموهبة الفنية ، فهذا أبو جندب الهذلي كان شاعراً سليط اللسان في الجاهلية والإسلام ، وكان أخوه الأبع بن مرة شاعراً هجاءً ذا نزعة علوانية .

ولعل من الأمثلة الأكثر دلالة على ما نقول : أسرة الشاعر الجاهلي المشهور زهير بن أبي سلمى ، فوالده (أبو سلمى) المسمى (ربيعة ابن رباح المزني) كان شاعراً ، وابنتاه سلمى والحسناء كانتا شاعرتين . وابنته سلمى هذه ، تزوجت رجلاً اسمه (عمرو) فولدت له مجموعة أولاد كانوا كلهم شعراء . ولنترك فرع سلمى لتتابع تسلسل الشعراء في فرع أخيها زهير ، فمعلوم أن زهيراً تزوج امرأتين

الأولى (أم أوفى) وهذه لم تترك عقباً ، والثانية (كبشة بنت عمار) التي ولدت لزهير ثلاثة أولاد :
بجير وسالم وكعب ، وكل الناس يعرفون أن (كعب بن زهير) شاعر ، وكان أخوه (بجير ابن زهير)
شاعراً أيضاً ، وهو الذي أسلم قبل كعب وحض أخاه كعباً على الإسلام وقد أرسل له كعب رسالة
قال فيها :

ألا أبلغا عني بجيراً رسالة فهل لك فيما قلت في الخيف ، هل لك ؟
شريت مع المأمون كأما روية فأنهلك المأمون منها وعلكا
وخالفت أسباب الهدى وتبعه على أي شيء ويب غيرك ذلكا
على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه ، ولم تدرك عليه أحما لكا

فأجابه بجير :

من مبلغ كعبا ، فهل لك في التي تلوم عليا باطلاً ، وهي أحزم
إلى الله (لا العزى ولا اللات) وحده فتجرو ، إذا كان النجاء ، وتسلم
لدى يوم لا يتجو وليس بمفلت من النار إلا طاهر القلب مسلم
فدين زهير ، وهو لا شيء دينه ودين أبي سلمى عليّ محرم

وقصة قنوم كعب على الرسول (ﷺ) وإسلامه وإنشاده قصيدته (البردة) بين يدي استفاضة
في الحديث عنها كتب الأدب .

وإذا أحجمنا الآن عن حديث الشعر ، ومضينا إلى ما يهنا من تتابع الشعر في نسل زهير وابنه
كعب ألفينا كعباً يخلف ولدين : ذكرأ وأثنى ، الذكر منهما اسمه (عقبة بن كعب) وهو المشهور
في تاريخ الأدب بلقبه (المضرب) ، وهو الذي تُنسب إليه الأبيات الحائية^(٧) التي تداولتها كتب
النقد ، ومنها الأبيات :

ومازلت ترجو نفع سلمى وودها وتبعد ، حتى أبيض منك المسائح
وحى رأيت الشخص يزداد مثله إليه ، وحتى نصف رأسي واضح
علا حاجتي الشيب ، حتى كأنه ظباء جرت منها سنيح وبارح
ألا ليت سلمى كلما حان ذكرها تلبفها عني الرياح اللوافح
وهزة أظمان عليهن بهجة طلبت ، وريمان الصباي جامع
فلما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حذب المهاري رحالنا ولا ينظر الغادي الذي هو رائع
أخذنا بأطراف الحديث يتنا ومالت بأعناق المطي الأباطح

وعقبه بن زهير خلف أولاداً ثلاثة : عبد الرحمن وضرغاما والعوام ، وعبد الرحمن هو والد الشاعر (بشير بن عبد الرحمن) أما (العوام) فهو شاعر رقيق ، من شعره الأبيات الغزلية المشهورة^(٨) .

وخبرت. لسيلى بالمعراق مريضة فأقبلت من مصر إليها أعودها
فوالله ما أدري إذا أنا زرعيها ألبرئها من دائها أم أزيدها

وقفت عند هذه الأسرة أطول من غيرها لاعتبارات كثيرة ، منها : أن هذه الأسرة توارث الشعر فيها كابر عن كابر ، سرى الإرث الشعري من الآباء إلى الأبناء ، ثم إلى الأحفاد ، وتوالى إلى أحفاد الأحفاد ، بدءاً من (ربيعة بن رباح) الجد الأكبر ، الذي عاش هو وابنه زهير في العصر الجاهلي ، وانتهى بـ (بشير بن عبد الرحمن) و (ابن ميادة) حفيد (سلمى بنت كعب) اللذين أدركا العصر العباسي ، فهي سلسلة تطاولت حتى اخترقت عدة عصور أدبية ، ولعله لهذا الاعتبار قال ابن قتيبة : « ويقال إنه لم يتصل الشعر في ولد أحد من الفحول في الجاهلية ما اتصل في ولد زهير ، وفي الإسلام ما اتصل في ولد جرير »^(٩) . فهذه الشهادة من ابن قتيبة دفعني إلى استقصاء أعلام هذه السلسلة . وثمة أمر آخر جعلني أهتم بهذه الأسرة وأقف عندها طويلاً ، على الرغم من أن بعض أعضاء هذه الأسرة عاش في الحقبة الجاهلية كزهير الشاعر الجاهلي الذي كان أبوه ربيعة شاعراً جاهلياً أيضاً ، وخاله بشامة بن الغدير من فحول الشعراء الجاهليين ، أقول على الرغم من أن هؤلاء جاهليون ، وقالوا شعراً كثيراً في الجاهلية ، وهناك نظرية قديمة تنذهب إلى أن كثيراً من الشعر الجاهلي منحول ، وربما تطرفت هذه النظرية فزعمت أن بعض الشعراء الجاهليين ليس لهم وجود في الحقيقة ، وإنما هم أشخاص متخيلون متوهمون نسبت إليهم أشعار وألصقت بهم لأسباب واعتبارات استفاضت في ذكرها كتب الدراسات الأدبية ، ونادى بها بعض المستشرقين وبعض الدارسين من العرب ، ولكن هذه التهمة لا يمكن أن توجه إلى أعضاء هذه الأسرة ، لأن كل واحد كان - في الغالب - راوية لأبيه قبل أن يصبح شاعراً مستحصداً للشاعرية ، فكون هذا الشعر الجاهلي المنحدر إلينا رواية لابن عن أبيه ، وهي رواية موثوقة ، حتى وصل إلى عصر التدوين ، فالشعر المروي بهذه الطريقة شعر موثق إلى درجة كبيرة من الثقة ، ويرتّب على هذه الثقة أننا نستطيع أن نستخلص خصائص الشعر وميزاته بقدر غير قليل من الطمأنينة ومجانبة الحذر . كما يترتب على هذا أننا ، بفضل ما استخلصناه من خصائص فنية متوفرة متواترة في شعر الأسرة الواحدة ، نتيجة عنصر الوراثة وعنصر الاكتساب بالرواية ، نستطيع أن نمجد ملاحم مدارس فنية شعرية ، لها خصائص مميزة وسمات واضحة ، كأن تكون هناك مدرسة (زهيرية) ابتدع الجد الأول خصائصها وأعطاهما طابع سماتها المعروفة بتقليب وجهات النظر في صنيعه الفني ، ثم انحدرت إلى أولاده وأحفاده ، ولا أقول - هنا - بفعل الوراثة ، وإنما بفعل الرواية ، وهو ما سأتمحدث عنه بعد قليل ، وبهذا المنظور يخرج أوس بن حجر من (المدرسة الأوسية) التي درج بعض الأدباء على اعتبارها نموذجاً لمدرسة جاهلية لها خصائصها في الشكل والمضمون والمنهج^(١٠) ، فبدلاً من أن يكون

أعلام المدرسة الأوسية على النحو التالي : (أوس وزهير وكعب والحطيئة وجميل وكثير) يمكن أن يكون أعلام مدرسة الأسرة (الزهيرية) على النحو التالي : (زهير وبجير ، وكعب وعقبة والعوام وبشير والقريض والعبوثان وابن ميادة) لتواترهم في الرواية التي تستدعي وتستقطب مجموعة من الميزات والسمات ، وحتى اللهجة أو اللغة التي تنفرد بها بعض الأسر التي تنتمي إلى قبائل لها ميزات لغوية أو لهجية ، كالذي نجد من ميزات لغوية طائفة في شعر أسرة (زيد الخيل) وأبنائه الشعراء (عروة والحريث والمهلل)^(١١) . ومادامنا في معرض الحديث عن خصائص شعر الأسر في إطار القبيلة يمكننا أن نشير إلى قبيلة (هذيل) التي سبق أن ذكرنا منها أسرة (أبي خراش) وأخوته التسعة الشعراء ، ونضيف إلى تلك الأسرة أسرة أخرى هي أسرة (أسامة بن الحارث الهذلي) وأخيه (مالك ابن الحارث) و (سهم بن أسامة بن الحارث الهذلي) و (إلياس بن سهم) و (أمية بن عائذ) ابن أخي سهم ، وهاتان الأسرتان تتسمان في كثير من خصائصهما بالصفات التي يتصف بها أكثر شعراء قبيلة هذيل ، نتيجة وحدة التفكير النابعة من وحدة المصير ، ونتيجة المعطيات البيئية المقاربة لدى كل أفراد قبيلة هذيل التي تنساح فوق حيز مكاني وزماني محددين . رب قاتل يقول إن هذه الفروق الفنية والمحيطية وحتى اللغوية المتصورة بين القبائل التي أعطى شعراؤها مجموعة الشعر الجاهلي ، هي فروق متصورة ، وخصائص قبلية متخيلة ، ليس لها ما يعضدها في واقع الأمر ، ويؤيد هذا القائل رأيه الذي يذهب إليه بأن العرب في جاهليتهم كانت قبائلهم تلتقي حول الكعبة ، وتلتقي في الأشهر الحرم في عكاظ ، ويلقي شاعر كل قبيلة شعره على مسامع جمهور القبائل الأخرى ، بالإضافة إلى الرحلات التجارية ، ورحلات البحث عن طلب الكلا والمروعي ومحافل السمر ، كل ذلك ذوب الفروق الفردية من اللهجات المحلية ، والمعطيات البيئية ، وأصبحت الجزيرة العربية لغة شبه موحدة انصهرت فيها جميع الفروق التي كانت تميز بها القبائل في إطارها المحدودة ، وعلى الرغم من تأييدنا لأكثر هذا القول فإن الفروق اللهجية بين القبائل ، وخاصة القصصية منها ، ظلت قائمة ، كما أن العقلية البدوية وما يحيط بها من معطيات تستمد منها تصورها ومقومات ذهنيها تختلف عن العقلية الحضرية ، ولعله لهذا السبب ولتلك الفروق تنبه ابن سلام الجمحي عندما ألف كتابه (طبقات فحول الشعراء) فقسم الشعراء إلى شعراء الحاضرة فأوردهم عن شعراء البادية ، آخذاً بعين الاعتبار المعطيات البيئية وما تستتبعه من تصورات ذهنية وفنية ، ولعله أيضاً بسبب الفروق التي تفرضها طبيعة المحيط ، وما يتوضع فيه من قبائل ، قسم شعراء الحاضرة إلى مكيين ومدنيين وطائفيين وبحرانيين ، وتميز قبائل النحلة اليهودية بفروق لا يكاد يدركها إلا المتحرسون ، جعل شعراء اليهود طبقة قائمة بذاتها . ويمكن أن تكون مثل هذه الفروق البسيطة التي تميز شعر كل قبيلة وتسود في معاني شعرائها وألفاظهم ، هي التي جعلت رجلاً كأبي سعيد السكري ينفق جهداً كبيراً في تصنيف الشعر على أساس قبلي ، فيجمع شعراً لأكثر من خمس وعشرين قبيلة . كل قبيلة على حدة ، ومثل هذا يقال عن أبي عمرو الشيباني الذي جمع وعمل - كما قال ابنه - شعر نيف وثمانين قبيلة^(١٢) وأودعها في مسجد الكوفة ، كما أن محمد بن حبيب تناول

شعر القبائل من الناحية الشكلية ، فألف (متفق القبائل) و (مختلف القبائل) و (تسمية شعراء القبائل) و (فهرسة أسماء الشعراء في القبائل) و (كتاب القبائل الكبير والأيام) جمعه للفتح بن خاقان في نيف وعشرين جزءاً في كل جزء مئة ورقة وأكثر^(١٣) . وغير ذلك . وكم تكون معرفتنا ثرية عن القبائل ، ولهجاتها وما يحيط بها لو أن مثل هذه المصنفات سلمت من عوادي الدهر فوصلت إلينا .

هناك أسرة شاعرة كبيرة أريد أن أقف عندها قليلاً ، لاعتبارات مستتيةها من خلال العرض ، وهذه الأسرة هي أسرة (آل أبي حفصة) وهي أسرة عرفت في التاريخ الإسلامي وتاريخ الشعر العربي منذ منتصف القرن الأول الهجري إلى منتصف القرن الرابع منه . وعميد هذه الأسرة رجل اسمه يزيد ، لم يكن عربياً صليبةً ، كما تتفق على ذلك أغلب الروايات ، وإن كان من بينها من يذهب إلى عروبة الرجل فإنه من قبيلة (عكل) العربية والأرجح أنه كان مولى لثمان بن عفان ولكاتبه مروان بن الحكم ، فأعتقه مروان ، لنجاجة كانت فيه ، وزوجه أم ولد كانت له اسمها (سكر) ولها من مروان بنت اسمها (حفصة) . فحضرها يزيد ، فعرّف (بأبي حفصة) ومهما يكن من أمر الرجل فإنه وذريته وأحفاده قد صاهروا الأشراف من بني تميم وامتزجوا بصميم القبائل العربية ، واستوطنوا البهامة في صميم الجزيرة العربية ، وتملكوا فيها ، وكرّ عدهم ، فأصبحوا من أهلها .

وهنا أتصور أن مذكراً يذكّرني بأنني ابتدأت حديثي عن (الأسر الشاعرة) وقررت أن ظاهرة الأسر الشاعرة (يكاد) ينفرد بها الأدب العربي ، فما آنذا الآن استشهد بأسرة شاعرة ليست عربية الأصل ، فكيف يمكن التوفيق بين تلك الفكرة وهذه ؟ والجواب ينحصر في عدة نقاط :

١ - قلت إن هذه الظاهرة (يكاد) ينفرد بها الأدب العربي . ولفظه (يكاد) تسمح بأن تكون مثل هذه الظاهرة موجودة في غير الأدب العربي ، وإن كانت غير متوفرة فيه توفرها في الأدب العربي ، وأردت من (يكاد) أن أتحدث عن ظاهرة في حدود علمي ، وفوق كل ذي علم عليم ، فقد تكون هناك ظاهرة مشابهة لها في آداب أم أخرى لم يصل إليها علمي ، علماً بأنه كثر الحديث ، في هذا الزمن ، عن أسر في الغرب والشرق توارث أفرادها عبقرية الفن أو الاختراع أو الشعر أو المناصب المرموقة ، وواصل الخلف النبوغ الذي بدأ به السلف .

٢ - لو سلمنا أن عميد هذه الأسرة (أسرة آل أبي حفصة) كان مولى ، فنحن لا ننفي النبوغ عن الموالى ، ولا ننفي أن يورث هؤلاء التابعون ذرائعهم شيئاً من نبوغهم . فهذه مسألة (بيولوجية) - سنناقشها بعد قليل - ولكننا عندما وصفنا الأدب العربي بأنه يكاد ينفرد بهذه الظاهرة ، عللنا ذلك بأن العرب محافظون ، إلى حد كبير ، على الأنساب ، ولذلك يبحث الباحث في هذه الظاهرة ، وهو مطمئن إلى أنه يضع قدمه على أرض صلبة ، قوامها نقاء النسب ، ووضوح الوراثية . والذي يقدر له أن يتحرى نسب هذه الأسرة يتضح له أن أفرادها امتزجوا امتزجاً صميمياً بقبائل عربية عريقة مثل تميم كتنزوح (يحيى بن أبي حفصة) من (أميرة بنت زياد بن هوزة بن شماس من بني أنف الناقة

من سعد بن زيد مناة من تميم (وهي التي ولدت له ابنه جميلاً ، وقيل أيضاً أن يحيى تزوج بنت إبراهيم بن النعمان بن بشير الأنصاري ، ومعروف ما هو موقع إبراهيم وأبيه النعمان وجده (بشير) من الأنصار ، ويروون أيضاً أن يحيى هذا خطب من مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم بنتيه وأختيه ، فأنعم له بذلك ، فبعث يحيى إلى بنيه فأتوه فتزوجوه^(١٤) ، وأن شريفة بنت المزلق بن قيس بن عاصم المنقري كانت زوجة لجميل بن يحيى وأما للمؤمل . ولتعد ، بعد هذا التوضيح الذي لا بد منه ، إلى أسرة (آل أبي حفصة) فشيخ هذه الأسرة تزوج مولاة لبني عامرة ، فولدت له عدة أولاد هم : يحيى ومحمود وعبد الله وعبد العزيز . وذكر أبو الفرج الأصبهاني أن أم يحيى بن أبي حفصة هي (لحناء بنت ميمون من ولد النابغة الجعدي) ، وعقب أبو الفرج على ذلك بقوله : « وأن الشعر أقي آل أبي حفصة بذلك النسب »^(١٥) وهذه إشارة مهمة جداً ، ولفتة علمية مبكرة ، تشير إلى انتقال الموهبة الشعرية بالوراثة . على كل حال إذا لم يكن الشعر قد انتقل لآل أبي حفصة عن طريق الأم ، فالأب وهو أبو حفصة كان شاعراً ، أورد له أبو الفرج في شعره في يوم (الدار) قوله :

وما قلت ، يوم الدار ، للقوم : صالحوا أجل ، لا ، ولا اخترت الحياة على القتل
ولكنني قد قلت للقوم : جالدوا بأسيا فكم لا يُخلَصَنَّ إلى الكهل

وجاء ابنه يحيى شاعراً ، قال عنه صاحب الأغاني : « ليحيى أشعار كثيرة ، وإنما ذكرناها هنا لتعرف أعراق مروان من الشعر . »^(١٦) ونبه - هنا - إلى كلمة (أعراق) ومن شعره المذكور في الأغاني :

لا يصلح الناس إلا السيف إذ فتوا ففني عليك ولا حجاج للدين
لو كان حياً غداة الأزد إذ نكثوا لم يحض قلاهم حساب ديرين
لم تأت الأزد عند الباب تربصه مثل الجراد تنزى بالتباين

وليحيى هذا ولد شاعر غزل اسمه (جميل بن يحيى) يلقب بـ (قتيل الهوى) من شعره :

قلن : من ذا ؟ قلت : هذا إليما مي ، قتيل الهوى أبو الخطاب
قلن : بالله أنت ذاك يقيناً ؟ لا تقل قول مازح كذاب
إن تكن أنت هو ، فأنت منانا خالياً كنت أو مع الأصحاب

ولجميل ولد شاعر غزل أيضاً اسمه (المؤمل بن جميل) من شعره :

يأح من حر الهوى إنما يعرف حر الحب من جربا
أصبحت للحب أسيراً فقد صعدني الحب ، وقد صوبا
لاشك أني مـــــيت حسة إن لم أزر - قبل غد - زينا
تلك التي إن نلتها لم أبـل من شرق - الدهر - ومن غرباً^(١٧)

ولو تركنا الشاعرين جميل بن يحيى ، وابنه المؤمل بن جميل ، والتفتنا إلى سليمان بن يحيى لوجدنا

له ولدين شاعرين أحدهما (مروان بن أبي حفصة) الشاعر المشهور ، وسنعود إلى سلسلة أولاده بعد قليل ، والثاني من أولاد سليمان اسمه (إدريس بن سليمان) ، وهو أديب شاعر ، له في الأدب كتاب عن (الجمامة)^(١٨) وله في الشعر قصائد ذكر بعضها صاحب الحماسة البصرية ، وذكر بعضها صاحب الأغاني ، ومنها رثاؤه لإسحق بن إبراهيم الموصلي بقصيدة منها :

سقى الله يابن الموصلي بوابل من الغيث قبراً أنت فيه مقيم
ذهبت فأوحشت الكرام ، فما بني بعبرته يكسي عليك كسريم
إلى الله أشكو فقد إسحق ، إنني - وإن كنت شيخاً بالعراق - يتم

ولأبي الفرج الأصبهاني تعليق لطيف ، ذكره وهو يترجم لإدريس بن حفصة ، وهو تعليق ذو دلالة مهمة على أن السجايا والطباع وبعض السمات النفسية تخضع للوراثة ، يقول أبو الفرج : « إن إدريس هذا كان سخيّاً من بين آل أبي حفصة » فكأنه يريد أن يصف سخاءه بأنه شلّوذ على القاعدة المضطردة في الأسرة وهي سجية البخل التي توارثتها الأسرة ، فهل يفهم من هذا القول أن السجايا والمواهب يرثها المرء من والديه كما يرث لون بشرته ولون شعره ولون عينيه ؟ هذا تساؤل سنطرحه للنقاش في الصفحات القادمة . ولنعُد إلى الفرع الثاني من فروع سليمان ، وهو فرع ابنه مروان ، المسمى بـ (مروان الأكبر) وهو الشاعر العباسي المشهور (١٠٣ - ١٨٢) هـ ، يروى عن الأصمعي أنه قال : إن أهل بغداد قد ختموا به الشعراء^(١٩) ، وقالوا : كان مروان موصوفاً بالبخل مع يساره وكثرة ما نال من الخلفاء من المال^(٢٠) . ومن شعره النقدي الذي جعل النقاد يكبرونه قوله :

ذهب الفرزدق بالهجاء ، وإنما حلو القريض ومرة لجريـر
ولقد هجا - فأَمْض - أخطئ تغلب وحوى النبي بيانه المشهور
كل الثلاثة قد أجاد ، فمدحه وهجاؤه قد سار كل مسير
ولقد جربت فقلت غير مهمل بجراء لا قـُـرف ولا مهور
أي لآسف أن أحبر مدحة أبداً لغير خليفة ووزير
ما ضربي حسد اللئام ، ولم يزل ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

وخلفه في الشعر ابنه (أبو الجنوب : يحيى بن مروان) ، وشعره دون شعر أبيه جودة ، منه قوله بمدح (شراحيل بن معن بن زائدة) :

ما يجهل الناس من أمر فقد علموا أن ابن معن : شراحيلاً قتي العرب
أعطى أبوك أي ، قدماً ومولاه فأعطني مثل ما أعطى أبوك أي
ما كان يقدم من أرض يكون بها إلا أنا بأوقار من الذهب^(٢١)

ثم خلفه ابنه (مروان الأصغر) وكان يكنى (بأبي السمط) ، وقد عاصر من خلفاء بني العباس

المأمون والمعتمد والمتوكل والواثق ، وأخذ جوائزهم ، ومن جميل شعره أبيات له من قصيدة في نجد يقول فيها :

سقى الله نجداً ، والسلام على نجد ويأجذا نجد على النأى والبعد
نظرت إلى نجد ، وبغداد دونها لعل أرى نجداً ، وهيات من نجد
ونجد بها قوم ، هواهم زيارتي ولافيء أحلى من زيارتهم عندي (٢٢)

ولمروان هذا ولدان شاعران ، أحدهما السمط بن مروان ، والآخر محمود ، أما السمط فقد قال في عياش بن حنيفة الخثعمي البجلي :

تعشت يعياش من فضل كسبها وعدت سميناً بعد طول هزالكا
بعاتبني عياش ألا أعوده فأهون به حيا علي ، وهالكا
وإني لاستحيي من الناس كلهم ومن خالقي من أن أرى بفنائكا
والثاني هو (محمود بن مروان الأصغر) ويكنى بأبي مروان له شعر أشهره قوله :

لي حيلة فيمن ينم وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقو ل فحيتني فيه قليلة

ويذكر أبو الفرج أن هذه الأسرة الشاعرة انتهت بـ (متوج) وكان ساقطاً بارد الشعر ، وهنا نلتقي بتعقيب آخر لطيف يسوقه أبو الفرج عن أبي هفان ، وهو تعقيب ذو دلالة مهمة أيضاً في اضمحلال ملكة الشعر من جيل إلى جيل في الأسرة الواحدة ، قال أبو هفان : « شعر آل أبي حفصة بمنزلة الماء الحار ، ابتداءه في نهاية الحرارة ، ثم تلين حرارته ثم يفتت ، ثم يبرد ، وكذا كانت أشعارهم ، إلا أن ذلك الماء لما انتهى إلى (متوج) جمد » (٢٣) . فهل عنصر الوراثة والاستعداد الشعري هو الذي يدركه الثلاثي والاضمحلال من جيل إلى جيل ؟ سنرى .

لزيد من التعرف على الأسرة الشاعرة يمكننا أن نلتقي بأسرة عريقة في الشعر ، هي أسرة الشاعر (النعمان بن بشير) فأبوه (بشير بن سعد) كان شاعراً وعمه (الحسين بن سعد) كان شاعراً أيضاً ومن قبله جده (سعد) كان شاعراً أيضاً ، وبشير تزوج أخت (عبد الله بن رواحة) الشاعر الصحابي ، فجاءه الإرث الشعري من مصدرين : من الأبوة والأمومة ، ونعرف أن للنعمان ابن بشير أختاً اسمها (إبراهيم بن بشير) كان شاعراً ، أما أولاد النعمان فهم (عبد الله بن النعمان) شاعراً ، وبنته (حميدة بنت النعمان) شاعرة ، وابنه يزيد خلف (شبيب بن يزيد) وهو شاعر ، أما ابنه الآخر (عبد الواحد) فقد وُلد له ولدان شاعران مجيدان أحدهما (عبد الخالق) والثاني (عبد القدوس) وكلاهما حفيد للنعمان بن بشير .

ولو تركت التفاصيل التي أخشى أن تجر إلى الملل لوجدت أسرة كأسرة (عبد المطلب بن هاشم) التي تتابع أنباؤها الشعراء، وخاصة أولاد أبي طالب. وأسرة كأسرة (عمرو بن الحارث) والد الخنساء الشاعرة وأخوها الشاعرين: صخر ومعاوية، وأولادها من عبد العزى ومرداس، كلهم شعراء ذكوراً وإناثاً (كعمرة بنت مرداس)، وأحفادها (كسهم بن عباس) وابنه (أبو بلال) كلهم شعراء. هناك أسرة كبيرة قدمت للشعر العربي مجموعة من الشعراء أحب أن أتوقف عن استعراض الأسر الشاعرة عندها، وهي التي سبق أن أشار إليها ابن قتيبة فجعلها إحدى أسرتين ما اتصل الشعر في ولد أحد من الشعراء مثل ما اتصل فيها، الأولى في الجاهلية: هي أسرة زهير، والثانية في الإسلام وهي أسرة جرير. فشيخ هذه الأسرة يسمى (الخطفي) وهو شاعر جاءته هذه التسمية من لفظة في بيت شعر قاله، وقد ترك هذا الشيخ ولدين أحدهما عطية والآخر عطاء، وعطاء خلف (أبا الزحف) وهو شاعر معروف، وعطية هو والد (جرير) وله غير جرير ولدان أحدهما عمرو والآخر أبو الورد، وأولاد جرير كثر، كلهم شعراء على تفاوت في الشاعرية بينهم، (فروح وعكرمة) كانا مقلين، ومثلهما (حجاء والعلاء) وبنته (ربداء)، شاعرة وأما (بلال) فإنه أفضلهم وأشهرهم، وهو والد الشاعر (عقيل بن بلال) صحيح أنه شاعر مقل أيضاً، ولكن ولده (عمارة بن عقيل) كان شاعراً معروفاً محسناً وراوية مرموقاً، أدرك العصر العباسي، وهو والد (كسيب ابن عمارة) الذي ولد له ولدان شاعران: مسحل وأيوب وهناك مجموعة من أولاد جرير وبناته (حكيم وموسى وسودة، وحزرة وجعادة وحيلة وموفية وأم غيلان) وهذه الأخيرة كانت راوية لأبيها. والحقيقة أننا نريد أن نقف قليلاً عند أسرة جرير لأنها تعطينا عدة مؤشرات ذات صلة بالسجاية والطباع التي توارثتها الأسرة، فعدا عن موهبة الشعر التي تنقلت فيهم تلفت نظرنا في سلوكهم ظاهرة البخل، فكل الكتب التي ترجمت لأعلام هذه الأسرة نقلت عن شيخها (الخطفي) أنه كان يرمى بالبخل^(٢٤)، وأن ابنه عطية كان يوصف بالشح^(٢٥)، حتى أنه كان يبخل على ابنه، فمما ينسب لجرير أنه قال شعراً مشهوراً إلى هذه الظاهرة حيث يقول^(٢٦):

فأنت أي مالم تكن لي حاجة فإن عرضت أيقنت أن لا أبا لي
وإني لمغرور أعجل بالنسي ليالي أرجو أن مالك مالي

وتنقل كتب الأدب أن ثمة ظاهرة سلوكية أخرى كانت تطبع أفراد الأسرة، وهي العقوق، فأبو الفرج يقول: كان جرير من أعق الناس بأبيه، وكان ابنه بلال أعق الناس به.. (٢٧) كما كانت في الأسرة نزعة عدوانية تتمثل برغبتهم في مهارشة أناس زمانهم وابتدائهم بالعداء يتمثل هذا في الشعر على شكل هجاء برعت فيه الأسر، وحفلت به دواوين شعرائها، فابن قتيبة يقول عن جرير: «كان من أشد الناس هجاء... أخبرنا شيخ من أهل البصرة قال: مر (راعي الإبل) في سفره فسمع إنساناً يتغنى على قعود له بشعر جرير:

وعاوي عوا من غير شيء رميته بقافية أنفاذها تقطر الدما
خروج بأفواه الرواة كأنها قرا هندواي إذا هز صمما

فقال : لمن هذا ؟ قيل : لجريز ، فقال الراعي : لعنة الله على من يلومني أن يغلبني مثل هذا^(٢٨) . أما تصديه لشعراء عصره كالفرزدق والأخطل وغيرهما فهو أكثر من أن ندل عليه بشاهد ، ومناقضته لهما استفاضت بها كتب الأدب والمحافل الأدبية وقد ورث ابنه (بلال) هذا النزعة العدوانية ، فهجا قوماً من بني فقيم بقصيدة رائية ، وهجا حماد المنقري ، وهجا مسعود بن طعمة من بني ببيعة ، فقال :

أسمعود أنت اللئيم الأثيم كأنك قفزة في ضعة
سمعنا له إذ نزلنا به كلاما كما تنطق الضفدعة
فأي اللئيمين أشبهته أطعمة أم أمك الكوتعة
عددنا عديا وآباءهم فشر عدي بني ببيعة
لما أعطش الضيف لما غدا من البيدعات وما أجوعة

وتحدر الروح العدوانية من جريز وابنه بلال إلى الحفيد عمار بن عقيل الذي اشتهر بين شعراء العصر العبّاسي بكثرة هجائه ، ونماذجه كثيرة منها هجاؤه بني كلاب^(٢٩) ، وقد يقول قائل إن شعر الهجاء ظاهرة عامة وغرض فردي وليس طابع أسرة ، هذا صحيح ، ولكن أن يطغى شعر الهجاء على ديوان الشاعر حتى يلبأ أكثره ثم تحدر هذه الخاصة إلى أولاده أيضاً فتغزو السمة العامة الغالبة على أشعارهم ، فهذا الذي يسمح لنا أن نفسر غرض الهجاء عند هؤلاء الشعراء على ضوء من المنزغ النفسي المتمثل بالنزعة العدوانية المتوارثة عند هؤلاء .

كنت على وشك الانتهاء من استعراض الأسر الشاعرة ، على الرغم من أن الذي لم أعرضه منها أكثر بعشرات المرات مما عرضته ، ولكنني أحب أن أختم استعراضي للأسر بمحدث مقتضب عن أسرة صغيرة ، إلا أنها ذات لون خاص ، تختلف عن سائر الأسر التي عرضناها ، فهي تلتقي معها في الشاعرية ولكنها تختلف معها في اللون الشعري الذي طرقت ، وهذا اللون هو لون (الرجز) ومن المعروف عند دارسي الأدب أن الرجز يؤلفون طبقة من الشعراء ينظر إليها الأدباء والنقاد نظرة غير تلك التي ينظرونها إلى شعراء القصيد ، وليس هذا مكان التفصيل في هذه القضية ، والطريف في هذه الأسرة أنها تؤيد ، من جهة ، ظاهرة توارث الأسر لفن الشعر ، وتؤيد ما هو أعمق من ذلك ، أن الموهبة المتوارثة هي موهبة محصورة في (فن الرجز) . وشيخ هذه الأسرة (العجاج بن رؤبة) من قبيلة تميم الذي قيل إنه ولد في الجاهلية ، واستمرت به الحياة حتى خلافة الوليد بن عبد الملك ، وهو والد الرجز المشهور (رؤبة بن العجاج) الذي قيل إنه فاق أباه في هذا الضرب من النظم ، وكانت أراجيزه وأراجيز أبيه مستودعاً للغة الغريب ، ولهذا قال الخليل بن أحمد بعد جنازة رؤبة : « دفنا اللغة والفصاحة

والبلاغة اليوم»^(٢٠) وقد خلفهما في هذا الفن الحفيد (عقبة بن ربيعة بن العجاج) وقد كان رجازاً موهوباً ، ونكتفي بالتلميح إلى هذه الأسرة وإلى تخصصها الدقيق في فن هو (فن الرجز) .

من خلال استعراض بعض هذه الأسر وتعداد بعضها الآخر أحسب أن الصورة أصبحت واضحة جلية ، ولكن الذي يحينا أكثر من توضيح الصورة وجلالها هو تفسير هذه الظاهرة . واعتقد أن مهمة هذا البحث تفسير هذه الظاهرة ، وأنه منوط به أن يجيب عن التساؤل المطروح لتفسيرها وهو : هل مرد نبوغ الشعراء وتآليهم في الأسرة الواحدة إلى عامل الوراثة أم إلى عامل المحيط أو البيئة التي فرض على الشاعر ظروفاً معينة جعلته يكتسب شيئاً كثيراً من تقاليد حرفة الأدب وخصائص فن الشعر ؟ هذه الثنائية : الوراثة والاكساب هي المرشحة للإجابة عن هذا السؤال ، وفيها يكمن تفسير هذه الظاهرة .

ولنأخذ العنصر الأول من هذه الثنائية وهو عنصر الوراثة ، ولنسأل أولاً علماء العرب ما هي معلوماتهم عنه لعلنا نجد لديهم ما يمكننا من تفسير الأسر الشاعرة على ضوء من معرفتهم لعلم الوراثة ومع أننا نقول إن إيمان العرب بالوراثة كبير ، ولكن معلوماتهم فيها لا تعدو علم القراسة والقيافة وعلم الأنساب ، واهتموا بالعلم الأخير اهتماماً شديداً ، حتى تجاوزوا في هذا العلم أنساب الإنسان إلى أنساب الخيل والإبل ، ولهذا يتمتعون عند الزواج بعراقه نسب البنت ، لأنهم يعتقدون أن العرق دساس ، ويروون القول المأثور وهو قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « تخبروا لنطفكم فإن العرق دساس » . والحقيقة التي يؤسف لها أن معلومات العرب عن علم الوراثة معلومات ضحلة لا تعطي إلا صورة باهتة لمفهوم الوراثة ، لا تعدو أن تكون مجموعة من الحكم والأمثال تشير إشارات سريعة إلى الوراثة ، منها قولهم : « الولد سر أبيه » و « العرق دساس » و « من شابه أباه فما ظلم » .

و « لا تخطبن إلا كريمة معشر فالعرق دساس من الطرفين »

وقولهم : « فرخ البط عوام » وقول شاعرهم :

أفعال من تلد الكرام كريمة وفعال من تلد الأعاجم أعجم

وقولهم : « لا تسترضعوا الحمقاء فإن اللبن ينزع بالشبه إليها .. » إلخ : لهذا سنتوجه إلى الدراسات الحديثة في علم الوراثة ، لأنها دراسات علمية تجريبية نستطيع أن نطمئن إلى كثير من النتائج التي انتهت إليها : فماذا تقول الدراسات الحديثة في علم الوراثة لتفسير ظاهرة الأسر الشاعرة ؟؟

إن النتائج العلمية التي قدمها لنا علم الوراثة في منتصف القرن التاسع عشر تؤكد على أن الخصائص الفيزيولوجية أو الجسمية هي وحدها التي تنتقل بالوراثة ، إذ إن إسهام الوالدين في إنتاج البويضة المخصبة ، وهي المشيج الذي يربط الأجيال المتعاقبة ببعضها ، إنما تمثل الجسر الوحيد الذي

تعبه الصفات المتوارثة من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة ، فتلكم البيضة المحصبة تعمل في ثنائها كل الصفات التي تميز الكائن الجديد من طول أو قصر في القامة ، وبياض أو سواد في البشرة ، وشقرة أو زرق في لون الشعر ولون العيون ، وصمت علم الوراثة القديم عن الحديث في انتقال الخصائص النفسية للكائن الحي ، والحقيقة أننا نلتبس العذر لعلماء الوراثة القدامى لسكوته عن الخوض في مشكلة انتقال الخصائص النفسية بالوراثة ، ذلك لأن التجارب التي قام بها علماء الوراثة كمندل ومورغان كان ميدان التجربة الوراثية عندهم هو عالم النبات وعالم الحيوان دون عالم الإنسان فلهذا جاءت نتائجهم منصبة على الخصائص الفيزيولوجية لا الخصائص السيكلوجية ، التي عرى عن مثلها عالم النبات والحيوان . ولم يطل انتظارنا حتى طلعت علينا دراسات (جولتون) في الوراثة ، وخاصة عندما نشر كتابه سنة ١٨٦٩م بعنوان (العبقرية الموروثة) ، Hereditary Genius ، وقد جعل فئة (العبقرية) واسعة إلى حد غير قليل ، إذ جمع مجموعة كبيرة من سلاسل نسب رجال حققوا (شهرة) في مختلف ميادين النشاط من سياسيين ومشرعين وعلماء وشعراء ورجال دين وقادة عسكريين وبحرين وهلم جرا ، وقد وجد في كل الأحوال أن معدل الوصول إلى الشهرة يزيد كثيراً بين أسلاف وأقارب هؤلاء الأشخاص عنه بين عامة الشعب أو سواد الناس ، واستنتج (جولتون) من ذلك أن الطبيعة وهو ما يمكن أن نسميه الآن بالخط الجيني أهم كثيراً في تطور القدرات البشرية من التنشئة أو ما يسمى بالاكساب من البيئة .

والواقع أن العقبة التي أعاقت الدراسات العلمية لسمات الشخصية وللسمات الإنسانية هي صعوبة قياس هذه السمات على نحو موثوق به . وإنك لتجد مثل هذه الآراء عن الوراثة موغلة في القدم منذ عهد أرسطو : يتداولها العلماء جيلاً بعد جيل ، إلا أنها كانت آراء نظرية دعماها المشاهدة دون التجريب ، حتى اخترع المجهر الذي تمكن العلماء فيه من دراسة الخلية التي وظيفتها تنظيم نقل الصفات الوراثية إلى الجيل الجديد .

على أن الملاحظ أنه إذا كان الوالدان على حظ من النبوغ والذكاء فإن الغالب أن يكون الأولاد الذين ينسلونهم على مثل حظهم من النبوغ ، وبالمثل إذا كان الوالدان قد تميزا بغناء ومحمول ، فإن الغالب أن يكون أولادهما لم مثل حظ أبيهما من هذه الناحية . وقرأت منذ فترة وجيزة كلمة للأديبة الفرنسية الشهيرة (جورج صاند) تقول فيها : « الوراثة تلون الشخصية إلى حد بعيد ، فإذا شاء قرائي أن يفهموني فليعرفوا شيئاً عن أبي وأمي » ثم توالى مجموعة من الدراسات في أواخر القرن التاسع عشر في علمي الوراثة والطباع تؤيد دراسة الخصائص النفسية والفنية ، فهذا (سبنسر) ومريدوه من أمثال (مورغان) و(مكوكال) و(بنه) يصرحون بأن الذكاء قدرة عامة وموروثة .

وفي دراسة لـ (دولاكروا وبرغسون) عن شروط قيام الشاعر ، يحددان قيام الشاعر بأربعة شروط (الحساسية الخاصة ، والقدرة الانطباعية ، والقدرة الفائقة على البناء ، والقدرة الفائقة على

الحدس) ، ويرجعان هذه القدرات إلى الموهبة الموروثة . ويذهبان إلى أن وراثة الطفل لا يحددها الآباء المباشران فقط ، بل أن المرء يرث جلوده الأقدمين أيضاً .

قد تكون الموروثات في خاصة من الخصائص النفسية أو الفنية موجودة في إنسان ما . وإن لم تظهر نتائجها ، فإنها كامنة عفوياً ، وقد تكون مكتوبة لأسباب اجتماعية ، أو ضعيفة ضعفاً لا يسمح لها بالظهور ، وتستمر بالكمون تنتظر الفرصة المواتية ، حتى تزول عنها الرقابة الشخصية أو القيود الاجتماعية ، أو تقيض لها عوامل القوة . فتبرز . وعوامل القوة هنا مكتسبات محيطية كالثقافة والتعليم والخبرات الرافدة ، فتنتلق بعد هذا الكمون معبرة عن ذاتها ، وقد لا يقيض لها مثل هذه العوامل فتميل الموروثات إلى الضمور وربما إلى التلاشي والاضمحلال . وإني لأستطيع القارئ العذر عن الإمعان في أساسيات علم الوراثة ، إمعاناً يكاد يقربنا من جفاف العلم ، وينأى بنا عن بهجة الأدب ، ولكن طبيعة بحثنا هذا تضطرنا إلى ولوج ميدان العلم . ولكي نفي الموضوع حقه لا بد من التعرّيج مرة أخرى على علم الوراثة لنقف عندما يسمى بالصينيات (الجينات) وحسراً عند موروثات الفن والشعر بالتحديد ، فمن المسلم به عند علماء الوراثة أن الجينات لا تورث المرء ملكة الشعر كاملة ، وإنما تورث المرء الاستعداد الفني فتبيته لأن يكون شاعراً . ثم يأتي دور المحيط والاكتساب ورحلة العمر الطويلة فتسمي هذا الموروث وتممقه وتصقله وإذا كانت يدنا قاصرة عن التحكم في الصينيات الوراثية فهي قادرة على التحكم في ظروف المحيط والخبرة المكتسبة التي تدعم البذرة الموروثة ، ولعل على رأس العوامل المكتسبة في ميدان الشعر هي ظاهرة (الرواية) التي نغصها بشيء من الحديث . وللرواية في اللغة العربية معان كثيرة ، بعضها حقيقي وبعضها مجازي ، ولسنا بحاجة إلا لعنى واحد منها وهو المعنى الذي يلزمنا عندما نتحدث عن (الرواية) ، والرواية - بهذا المعنى الذي نقصده هو ذلك الإنسان الذي يوكل إليه حفظ ما أنتجته قريحة شاعر آخر ، ثم إعادة تلاوة ما حفظه الراوي إذا اقتضت الظروف ذلك ، ولهذا يشترط في الرواية قوة الذاكرة وقوة الاستحضار ، أو قوة الذاكرة وقوة التذكر . ومعلوم أن الرواية قد قام بدور مهم جداً في حفظ التراث القديم في مجتمع تغلب عليه الأمية ، طوال فترة شيوع الأمية ، وما تخلى الرواية عن دوره هذا إلا في فترة لاحقة عندما شاعت الكتابة ونشطت حركة التدوين ، وانتقل مافي الصدور إلى السطور .

والذين قبلهم أن يطلعوا على الشعر الجاهلي أدركوا أنه يكاد يكون لكل شاعر منهم رواية ، فهمة الشاعر تنحصر في إنتاج الشعر ، ومهمة الراوي حفظ شعره وإعادة قراءته في محافل معينة ، فكنا نسمع أن الأعشى - مثلاً - رواية خاله المسيب بن غنم ، وأن بلال بن أبي بردة رواية حاتم الطائي ، وأن زهيراً رواية طفيل الغنوي ، وقد يتسلسل الرواة ويتتابعون فيشكلون مدرسة روائية - إن جازت هذه التسمية - مثل هذا ما نجده في سلسلة رواة المدرسة الأوسية ، فشيخ هذه المدرسة أوس بن حجر ، كان راويته زهير بن أبي سلمى ، وكان لزهير راويان ابنه كعب وتلميذه الحطيئة ، وقد روى للحطيئة أكثر من راو لعل أشهرهم هذبة ابن خشرم ، ثم روى شعر هذبة الشاعر الغزل جميل ، وكان الشاعر

الغزل الآخر كثير رواية جميل ، وُجِّت هذه السلسلة بالسائب بن زكوان ، فكان رواية لكثير ، وربما لاحظنا من خلال استعراض هذه السلسلة من الرواة أنها تجاوزت حقبة العصر الجاهلي إلى العصر الإسلامي وضمحت في أواخر العصر الأموي ، ويترتب على هذه الملاحظة نتيجة مهمة سنبينها بعد قليل ، ولعل المهمة الأولى للرواية - كما أشرنا - تنحصر في كونه مستودعاً للشعر ، ولكن الشعراء الفحول المنتجين درجوا على اختيار روايتهم من الذين يجمعون بالإضافة إلى قوة الذاكرة الموهبة الشعرية ، ولما كان الرواة شديدي الالتصاق بالشعراء المنتجين ، وكانوا يحكم ما أنيط بهم من عمل يظنون على مقربة من العملية الشعرية ، كان من البديهي أن يصبحوا مرشحين لأن يكونوا شعراء في قادمات الأيام ، وهذا ما لاحظناه من الكثرة الكثيرة من الرواة الذين تحولوا إلى شعراء فالرواية يبدأ في ميدان الشعر هاوياً ثم يتحول محترفاً ، فكان عمل الرواية رفاً الموهبة الشعرية الموروثة لدى الرواية فيتضافر العنصران : الموهبة والمكسوب أو الموروث والمكتسب على تقديم شاعر منتج جديد ، وكأني بالرواية لا يعدو أن يكون شاعراً صغيراً متدرباً يعد بشاعرية خصبة ، ولذا يعد فحول الشعراء إلى اصطفاء بعض أبنائهم الذين يلمحون فيهم المواهب الشعرية المهمة الرواية ، كالذي صنعه زهير بن أبي سلمى مع ابنه كعب ، وقد ذكر لنا أبو الفرج الأصفهاني قصة تدريب زهير لابنه كعب تدريباً لا يخلو من قسوة تهدف إلى إحكام الصنعة ، وتهدف إلى إكساب المتدرب ضرباً من تقاليد المهنة . تقول الرواية إن زهيراً عندما أنس في ابنه كعب الرغبة الملحة في قول الشعر - وكان روايته - دعاه وأردفه وراءه على ناقة ، وأحب أن يختبره ، فقال زهير :

وإني لتعديسي على الهمة جسرة تخب بوصول صروم وتعنق
ثم ضرب كعباً ، وقال له : أجز بالكعب ، فقال كعب :
كبنانة القرنى موضع رحلهما وآثار نسعها من الدف أبلق
فقال زهير :

على لا حب مثل المجرة خلصه إذا ما علا نشرا من الأرض مهرق
ثم ضرب كعباً وقال له أجز بالكعب ، فقال كعب : ... إلخ

ثم قال زهير ... فأجاز كعب ... ثم قال زهير ... فأجاز كعب^(٣١) . ثم انتقل زهير من وصف الإبل إلى وصف النعام ، وهو يقول البيت وابنه يتم المعنى بيت آخر ، فلما أنس زهير في ابنه القوة ، أخذ بيده ، ثم قال : قد أذنت لك يائني في الشعر ... إلخ القصة ، وليس لنا من تعليق عليها إلا أن زهيراً لم يثق - فقط - بما عند ولده من موروث شعري وإنما استعمله حتى أضاف إلى هذا الموروث شيئاً غير قليل من المكتسبات التي من شأنها أن تفصل موهبة الفنان وتجود مهارته .

والحقيقة أن عملية الرواية هذه ستترتب عليها نتائج مهمة نلمسها في تاريخ الأدب العربي منها :

١ - استمرار الخطية المنهجية في نظم القصيدة العربية ، كوصف الأطلال ووصف الرحلة والراحلة كمقدمات للغرض الأساسي ، واعتقد أن المحافظة على هذه الخطية قد ترسخت بفعل الرواة لأن كل واحد منهم - كما في المدرسة الزهيرية - كان يجب عليه أن يعرف رسوم القصيدة قبل أن يتصدى لقول الشعر ، فهو يتسلمها من شيخه ويسلمها لتلميذه ، ولهذا استمرت تقاليد القصيدة الجاهلية طوال فترة النقل والرواية حتى جاء عصر التدوين فبدأ منهج القصيدة القديم يتزعزع على يد أبي نواس وأضرابه من الذين ثاروا على هذه الخطية المنهجية .

٢ - وبفعل توالي الرواة ، وخاصة في الأسر الشاعرة - استمرت خصائص أخرى للقصيدة القديمة ، فظلت وحدة البيت هي المسيطرة على عقلية الشعراء ، ولم تحتل وحدة القصيدة مكانها إلا في وقت متأخر جداً .

٣ - ساعدت الرواية على استمرار سيادة لهجة وسط الجزيرة العربية أو لهجة الخط الوهمي ما بين نجد والحجاز أو كما سماها بعض الدارسين (لغة عكاظ) ، هذه اللهجة العربية هي التي نقلها الرواة إلى خارج الجزيرة العربية ، ونقلوا معها الصور التي حفل بها الشعر القديم .

٤ - وبفعل الرواة وقيامهم بدور الحضرة بين عصرين لم تقع في العصر الإسلامي مثلاً - على خصائص للعصر اللاحق تختلف كلية عن العصر السابق ، فلهذا ضوّلت الخصائص الفنية بين عصر وآخر ، وغدت حركة التطور والتجديد ضئيلة وهذا ما جعل بعض الدارسين يسم الشعر العربي بالمحافظة الشديدة على خصائصه وتقاليد .

وخلاصة كل ما تقدم تؤدي بنا إلى التعرف ثم الاعتراف بالأسر الشاعرة بوصفها ظاهرة شعرية ذات وزن كبير ، ونستطيع أن نفسر النبوغ الشعري على ضوء من تضافر العنصرين الأساسيين معاً : عنصر الوراثة وعنصر الاكتساب .

وإذا لم يكن بد من ترجيح أحد هذين العنصرين فأنتني ، على الرغم من إيماني بالنظرية التربوية ، وآراء رجال علم الاجتماع الذين يولون أهمية كبرى لعامل الاكتساب المتمثل في البيئة والمحيط الاجتماعي ، وبالعوامل التنقيفية والتعليمية والتدريبية ، أقول ، على الرغم من إيماني بكل هذا ، فأنا أشد إيماناً بالدور الذي يقوم به عنصر الوراثة ، إذ لا قيمة للعوامل المكتسبة إذا طبعناها على نفس خالية من الموهبة ، فصنعنا هذا صنيع من يجلب أحسن الغراس والبذور ليزرعها في أرض سبخة أو على صخرة صماء .

إنني أشد ميلاً إلى رأي علماء الوراثة الذين يقولون : « إن نواة التمر هي نخلة كاملة كامنة في النواة » . فإذا كانت النواة نخلة من نخل الزينة فمن العبث أو حتى المستحيل أن نلتبس منها في قاداتم الأيام رطباً جنباً ، مهما كانت يد المؤبر صناعاً . ومن هذه الرؤية نستطيع أن نقول إن النطفة البشرية

تشتمل على جميع مقومات الإنسان المكتمل ، إن الوراثة مجرد بداية للوجود وليست الوجود نفسه ، فهي تشبه « عود الثقاب ساعة اشتعاله ، أما الحريق الهائل الذي ينجم عن اشتعال عود الثقاب وقد امتدت النار منه إلى الأشياء فإنه لم يكن موجوداً بدخيلة رأس عود الثقاب ساعة اشتعاله » . فبينما تشبه الوراثة يعود الثقاب فإننا نشبه البيقة بالمواد التي تقبل الاشتعال والتي تلتصق رأس عود الثقاب ساعة اشتعالها ■

● الخواشي ●

(١٥) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء ٨ ص ٦٧٦
صفر ١٣٨٧هـ - أيار ١٩٦٧م .

(١٦) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء ٨ ص ٦٨١
صفر ١٣٨٧هـ - أيار ١٩٦٧م .

(١٧) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء ٨ ص ٦٨٢
لهما بعد صفر ١٣٨٧هـ - أيار ١٩٦٧م .

(١٨) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء ٨ ص ٦٩٠
و ٦٩١ نقلاً عن الأغاني للأصفهاني ١٢٢/٥ .

(١٩) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء الثامن ص
٦٨٣ صفر ١٣٨٧هـ - أيار ١٩٦٧م .

(٢٠) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء الثامن ص
٦٨٢ صفر ١٣٨٧هـ - أيار ١٩٦٧م .

(٢١) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء الثامن ص
٦٨٩ صفر ١٣٨٧هـ - أيار ١٩٦٧م .

(٢٢) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء الثامن ص
٦٨٧ .

(٢٣) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ٧٢/١٢ .

(٢٤) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ٥١/١٢ .

(٢٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٩٨/١ .

(٢٦) ويقال إنه كان يشرع الحليب من ضرع العنزة حتى لا
يسمع أحد صوت الحليب فيطلب منه الحليب .

(٢٧) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ٧٤/٨ طبعة دار الكتب
المصرية .

(٢٨) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٧٧/١ .

(٢٩) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ١٨٦/١٣ .

(٣٠) تاريخ التراث العربي لفؤاد سركين المجلد الثاني - الجزء الثالث
ص ٨٦ . نقلاً عن الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ٩١/٢١ .

(٣١) مقنعة حيوان كعب بن زهير ص ٦ .

(١) برز في الآداب والفنون الأجنبية أسر محدودة مثل أسرة
(سينول Siweil) فالأخوة : ليديت وساسفرل ولؤزيرت كانوا
أدباء وشعراء ترعرعوا في شمالي الجزائر في مقاطعة (درمشير) ،
وكذلك أسرة (بروتسي) الأخوات المشهورات اللواتي شهرن في
أدب الفصحى في القرن الخامس عشر ، وفي القرن أسرة اللوسيفار
(باخ) فمن هذه الأسرة (٥٧) موسيقاراً كانوا قطعاً موسيقية ،
خلد منهم (٢١) موسيقاراً ، منهم (جمال سيستيان باخ) اللوسيتي
المشهور .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ١٥٧ .

(٣) تاريخ التراث العربي لفؤاد سركين ، المجلد الثاني - الجزء الأول
ص ٥٦ .

(٤) تاريخ التراث العربي لفؤاد سركين ، المجلد الثاني - الجزء الأول
ص ٦٣ .

(٥) مثل دراسة الدكتور و فام السنديوني لشعر طيخ ، ودراسة
الدكتور حسن أبو ياسق لشعر حمدان وغيرها .

(٦) تاريخ التراث العربي لفؤاد سركين ، المجلد الثاني - الجزء الأول
ص ٦٦ - ٧٠ والمجلد الثاني - الجزء الثاني ص ٢٥٥ - ٢٦٠ .

(٧) آمالي المرتضى ١١٠/٢ .

(٨) آمالي المرتضى ١١٠/٢ .

(٩) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٧٦/١ .

(١٠) كتاب في الأدب الجمال للدكتور طه حسين .

(١١) تاريخ التراث العربي لفؤاد سركين المجلد الثاني - الجزء الثاني
ص ٢٠١ .

(١٢) تاريخ التراث العربي لفؤاد سركين المجلد الثاني - الجزء الأول
ص ٦١ .

(١٣) تاريخ التراث العربي لفؤاد سركين المجلد الثاني - الجزء الأول
ص ٦٥ .

(١٤) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء ٨ ص ٦٨٠
صفر ١٣٨٧هـ - أيار ١٩٦٧م .



فَافِيكَ الشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ

وَمَحَاوِلُ الْخُرُوجِ عَلَيْهَا

بِالْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ عَنِ

الرُّسُلِ وَالْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ



١ - يرى الأكثرون أن القافية مشتقة من « قفوت أثره قفوا وقفوا : أي أثبتته ، وقفيت على أثره بفلان : أي أثبتته إياه ... ومنه الكلام المقفى ، ومنه سميت قوافي الشعر ، لأن بعضها يتبع بعضاً » (١).

والعروضيون شأنهم شأن أصحاب المعاجم اللغوية يردّدون هذا الاشتقاق ، ولكنهم اختلفوا : قيل هي قافية ، لأن كل واحدة منها تقفو أثر كل بيت فتأتي في قفاه أو لأنها تقفو الكلام ، وقيل : قافية ، لأنها تقفو أخواتها . قال ابن رشيق : والأول هو الوجه ، لأن الأخير يلزمه القول عن القافية الأولى ماذا تقفو ؟ وقال أبو موسى الحامض : قافية بمعنى مقفية ، قال ابن رشيق : وهو قول سائق (٢) وواضح أن القولين الأولين تكون القافية فيما اسم فاعل على ظاهره ، وعلى قول الحامض تكون بمعنى مفعول ، ولكن يلزم قول الحامض ما لزم غيره مع الفارق إذ القافية في البيت الأخير من القصيدة ماذا يقفوها ؟ .

٢ - وغالبية العلماء من عروضيين وبلاغيين يرون القافية ركناً من أركان الشعر ، ودعامة من دعاماته لازمة (٣) . ولكن « ألغى بعضهم لفظ المقفى وقال : إن التقفية ... لا تلزم الشعر لكونه شعراً ، بل لأمر عارض ككونه مصرعاً أو قصيدة ... وإلا فليس للتقفية معنى غير انتهاء الوزن ، وإنه أمر لا بد منه ، جار من الموزون مجرى كونه مسموعاً ومؤلفاً وغير ذلك ، فحقه ترك التعرض ، ولقد صدق (٤) » . هكذا قال السكاكي . وهذا القول يمكن حمله على ما رآه ابن رشيق : « الوزن أعظم أركان حد الشعر ، وأولاها به خصوصية وهو مشتمل على القافية ، وجالب لها ضرورة إلا أن تختلف القوافي فيكون ذلك عيباً في التقفية لا في الوزن » (٥) . وعلى هذا يمكن من ظاهر القولين التسامح بعدم ذكر (القافية) شرطاً من شروط الشعر ، لا للاستغناء عنها بحال من الأحوال ، بل لدخولها ضمن كلمة (الوزن) . وهذا واضح في كلام ابن رشيق إذا كان قد قصد شيئاً من ذلك ، لأنه قد عدّ التقفية أحد أركان الشعر الأربعة : « اللفظ ، والوزن ، والمعنى والقافية » (٦) في موضع آخر . ولكن الأمر قد يختلف بالنسبة للسكاكي حيث يحتمل كلامه إنكار القافية شرطاً في الشعر مستقلة مصرحاً بها ، أو ضمن الوزن ، لأنه فيما يظهر ، يعتقد بصحة نسبة المسمطات ذات القوافي المتعددة إلى العرب الأوائل ، كما سيأتي ، وأن الخليل أهملها (٧) أو هو ممن لا يرى الشعر موقوفاً على الوزن الذي عليه أشعار العرب ، ولذلك استكثر هذا القول من أبي إسحاق الزجاجي قائلاً : « ولا أدري أحداً أتبعه في مذهبه هذا » (٨) . وفي مكان آخر ربط الأوزان « بالطبع المستقيم » (٩) . ويميل كثير من المحدثين إلى « أن النثر المسجوع سبق الشعر في الوجود ومعنى ذلك أن اكتشاف القافية سبق اكتشاف الوزن » (١٠) . وهذا يعني أن القافية من أسس الوزن الذي أضيف إليها . ومن عجب أن هذا التدرج الطبيعي المقبول عقلاً ، يناقض ما رجحوه من أن الرجز - وهو المكمل بقيود القافية - أول الأوزان ظهوراً ، كما يتناقض ذلك مع القول إن الشعر العربي قد التزم القافية لا لضرورتها له ،

بل لوقوفه عن التطور لأسباب تاريخية. (١١) لأن تعدد الروى في القافية مرحلة سابقة على توحيده عقلاً . إلا أن تتجدد الأدوار . وبمناسبة ذكر الخليل فإنه يظهر من كلام ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ) أن الخليل لا يشترط أن يكون الشعر جارياً على سنن شعر العرب الذين يحتج بهم ، بل هناك شعر عربي قح ، وشعر عربي مولد ، ويخالفه ابن عبد ربه قائلاً :

من كل ما قالت عليه العرب	وهذا الذي جرئته الجرب
فإننا لم نلصق إليه	فكل شيء لم تقل عليه
لأنه ممن قولنا محال	ولا نقول غير ما قد قالوا
خلافها لجاز في اللغات	وإنه لو جاز في الأبيات
ولا أقول فيه ما يقول	وقد أجاز ذلك الخليل
والسيف قد ينبو وفيه ماه	لأنه ناقض في معناه
ثم أجاز ذا وليس مثله	إذ جعل القول القديم أصله
والخير قد يخونه التحيير (١٢)	وقد يزل العالم التحرير

ويشفع لطول هذا النص وضوحه الذي لا يحتاج إلى تعليق إلا على مخالفة ابن عبد ربه فيه لقواعد الرجز عند العرب حيث أتى به (مزدوجاً) ، وقد قال إنه لا يرى مخالفتهم ، وهذا يمكن حمله على أنه يراها منظومة تعليمية لا شعراً .

وعلى كل حال يجب أن نفرق بين أمرين : الأول : أن ينظر إلى الشعر وشروطه من منطلق عموم الشعر عربيه ومولده بدون تفریق ، والثاني : أن نطلق لفظ الشعر على كلام المولدين الشعري ، غير الملتزم بشروط شعر العرب الأفصاح ، وإنما التزم بشروط الشعر المولد ، وهنا فيما يبدو ، هو موقف الخليل بن أحمد وهو الموقف الوسط . أما الموقف الأول فموقف جدّ متساهل ، لأننا لا نتكلم عن الشعر من حيث هو شعر فقط ، إذ كل لغة لها شعرها الخاص ، وإنما نتكلم عن الشعر العربي . على أنني لا أعتقد أن هؤلاء المتساهلين على اختلاف درجات مولفهم ، بمن فيهم من قلل بإسقاط شرط القافية ، قد بلغ بهم الأمر بالانكفاء في هذا على ما ورد من « أن عبد الرحمن بن حسان لسمعه زنبور فبجاء أباه يكيكي . فقال له مالك ؟ فقال : لسعني طائر كأنه ملتف في بردتي جيرة . قال قلت والله الشعر » وما ورد عن ليبي حينما قالت له ابنته : إن الملوك لا يستحي من مسألتهم ، قال : « وأنت في هذا أشعر . (١٣) لأن ذلك على سبيل التجويز . وفي الطرف الثاني المقابل لهذا الموقف المتساهل ، يقف أصحاب الرأي المتشدد ، وهم كثيرون ، مرّ معنا منهم الزجاجي وابن عبد ربه ، القائلون بنفي إطلاق كلمة (شعر) عن كل شعر لم يلتزم بنمط شعر العرب الذين يحتج بهم في اللغة العربية ، لأننا نتكلم عن الشعر العربي لا غير ، ولأن هؤلاء المجددين ، اقتبسوا تجديداتهم المخالفة للعرب من أمم أعجمية ،

وهو رأي له نصيبه من الوجاهة ، والإجابة عليه طويلة ليس هذا محلها ، منها ارتباط الشعر بالغناء ، والغناء متنوع ومتطور .

٣ - أما عن تحديد القافية ، فقد اختلف قدمائنا في هذا فقال قوم هي القصيدة كلها ، وقال آخرون : هي البيت الواحد كله من القصيدة ، وقال بعضهم : هي الشطر الأخير كله من البيت ،^(١٤) قال ابن رشيق : « وذلك اتساع وجاز » .^(١٥) وقال السكاكي : « وحق هذا القول أن يكون من باب إطلاق اسم اللازم على الملزوم ، وباب تسمية المجموع بالبعض » .^(١٦) وقال الأخفش سعيد : « القافية آخر كلمة في البيت »^(١٧) مستدلاً بأنه لو قيل لك اكتب قوافي القصيدة لكتبت الكلمات في آخرها ،^(١٨) قال ابن رشيق : « وهو المتعارف بين الناس اليوم » أي في زمانه واعترض عليه بوقوع (ي) في آخر بيت للمثنوي ، وأردف : « لا يستطيع أن يقول لي كلمة » ،^(١٩) وقال الزجاجي : « بعض الناس من العلماء يرى أن القافية حرفان من آخر البيت ، وحكى أنهم سألو أعرابياً قد أنشد :

● بنات وطاء على خدّ الليل ●

ما القافية ؟ فقال : خدّ الليل .^(٢٠) قيل : إن الذي سأل الأعرابي هو الأخفش الأوسط ، ولكن البيت المنشد مختلف .^(٢١) وذكر بعضهم أن القافية عند الزجاجي « الكلمتان في آخر البيت ، وحكى أنهم سألو أعرابياً ... »^(٢٢) ، وهذا صريح في أن الزجاجي تابع هذا الرأي ولا فرق بين حرفين وبين كلمتين ، لأن « حرفين » أراد بهما الأعرابي « كلمتين » ، لكن هذه الحكاية رويت غير منسوبة مُستدلاً بها قوم على أن القافية « هي الكلمة الأخيرة وشيء قبلها » .^(٢٣) وكلمة شيء لا تطابق بالضرورة حرفين أو كلمتين إذ قد يكون حركة مثلاً . وقال الفراء : « إن القافية هي حرف الروي ، واتبعه على ذلك أكثر الكوفيين منهم أحمد بن كيسان وغيره »^(٢٤) ، وهي كذلك « عند أبي علي قطرب (من البصريين) ، وأبي العباس ثعلب »^(٢٥) ، واختاره ابن عبد ربه الأندلسي واقتصر عليه قائلاً : « القافية حرف الروي الذي يبنى عليه الشعر ، ولا بد من تكريره في كل بيت » ،^(٢٦) وعند الخليل بن أحمد : « القافية من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه من قبله ، مع حركة الحرف الذي قبل الساكن [قال ابن رشيق وأيده ابن القطاع والسكاكي] وهو الصحيح ... وعلى هذا أبو عمر الجرمي [البصري] وأصحابه ... ورأي الخليل ... أصوب وأرجح » ،^(٢٧) ونُسب للخليل بن أحمد رأي آخر أن « القافية ... ما بين الساكنين الأخيرين من البيت مع الساكن الأخير فقط » .^(٢٨) وقال القرطاجني : « القافية هي ما بين أقرب متحرك يليه ساكن إلى منقطع القافية ، وبين منتهى مسموعات البيت المقفى »^(٢٩) وهو رأي الخليل الأول تقريباً إلا أنه عكسه . كما حوّل بعضهم بمعناه إلى نظام المقاطع الصوتية .^(٣٠) وهناك رأي لأبي موسى الخامض قال فيه « القافية ما يلزم الشاعر تكريره في كل بيت من الحروف والحركات ، وهذا قول جيد » .^(٣١) كما قال ابن المحسن التنوخي ، ورواه

مختصراً أيضاً ، ابن رشيق وقال عنه : « وهذا كلام مختصر مليح الظاهر ، إلا أنه إذا تأملته ، كلام الخليل [الأول] بعينه لا زيادة فيه ولا نقصان » ، وعلق محمد محيي الدين على ذلك بأن قوله الخامض هو قول الفراء لا قول الخليل ، وذكر ابن منظور رأي الخامض منسوباً لابن كيسان السابق ولعله سهو ، وقال : « وقد لا هذا بنحو من قول الخليل لولا خلل فيه » ولم يفصل الخليل .^(٣٢) ويتضح لنا الفرق بين رأي ابن رشيق وابن منظور ورأي محمد محيي الدين في تعريف الروى : هو « حرف بنيت عليه القصيدة ، ونسبت إليه أي الحرف الذي تلزمه القافية وتسمى به ... وقال البلوي : كل حرف وقع ملتزماً في آخر البيت فهو روى إلا أربعة أحرف يجمعها قولك (يهوا) فقد تكون رويًا ، وقد تكون وصلاً ، والروى ما قبلها » .^(٣٣) فالروى يلزم الشاعر تكراره ، ولكنه جزء من القافية التي يلزم الشاعر تكرارها ، وأعتقد لذلك أن الأمر سهو من محمد محيي الدين ، وبذلك يكون رأي الخامض يؤدي تعريف الخليل للقافية ، ويفضله في السهولة والاختصار والدقة ؛ ذلك أننا لو تدبرنا رأي الخليل – أعني الأول كما هو عند ابن رشيق وغيره – لوجدناه يقول : « القافية من آخر حرف في البيت » والتعبير الأدق أن يكون من آخر حركة معينة في البيت تنقلب إلى صوت مد ساكن مجانس لتلك الحركة في القوافي المطلقة ، أو من آخر سكون في القوافي المقيدة لأن ذلك يلزم الشاعر مراعاته (الوصل) ، وبغض النظر عن الخلاف الحاصل هل الحركة تحدث مع الحرف ، أم بعده عند قدمائنا لأنه يشترط حركة معينة لا مطلق حركة . ويقول « ... إلى أول ساكن يليه من قبله » وهذا يبنى عليه لزوم ما لا يلزم كما قال بحق بعض الباحثين^(٣٤) ويتضح ذلك بالمثال ، لنأخذ معلقة امرئ القيس آخر البيت الأول فيها (... فحومل) فعل هذا التعريف تكون القافية : اللام الأخيرة – لاحظ كما قلت أنه أهمل حركة اللام وهي الكسرة ، والميم ... الخ ، فهل الميم يلزم الشاعر تكرارها إلا إذا التزم ما لا يلزم ، ولذلك رأينا امرأ القيس يأتي بآخر البيت الثاني بقوله (شمأل) فاهمزة تقابل الميم في آخر البيت قبله وهكذا . ويقول « إلى أول ساكن يليه من قبله » ونحن نعرف أن المذ الواي ، والمذ البائي يتناوبان كثيراً عند الشعراء في هذا الموضع (الردف) ، فلو أخذنا بآية امرئ القيس (قد أشهد الغارة الشعواء ...) مثلاً ، لوجدناه استعمل (... سوب) إحدى عشرة مرة فيها ، واستعمل (... ييب) ثمان مرات . ويقول : « مع حركة الحرف الذي قبل الساكن » يقصد الساكن الأول ، ونظرة خاطفة إلى قصيدة امرئ القيس البائية المشار إليها تعطينا أنه لم يلتزم حركة معينة ، فهي ضمة قبل الواو ، كسرة قبل الباء ، بالإضافة إلى أنه يوجد شعراء لم يوحّدوا هذه الحركة قبل ساكن ليس بحرف مد ، ولكنهم في الحقيقة قلة . ونفي القرطاجني وقوع تبادل الفتحة مع الكسرة والضمة في شعر الجاهلية وحصره في شعر الإسلام ،^(٣٥) وقد يقابلون صوت المد للموماً إليه بحرف صحيح ساكن ويمكن أن يكون مخالفاً لكثرة .

ولو نظرنا إلى الرأي الثاني للخليل بن أحمد لوجدناه يقول « ... ما بين الساكنين الآخرين من البيت ، مع الساكن الأخير فقط » لوجدناه غير دقيق بالدرجة المطلوبة ، وإن استحسنته بعضهم وفضله ،^(٣٦)

نعم هو أخصر من الأول ، وأكثر استفامة ، ولكن نصه الأخير « مع الساكن الأخير فقط ، يخرج الساكن الأول ، وهنا يرد عليه إذا كان الشاعر حرّاً في الساكن الأول يعامله معاملة غيره من أجزاء البيت ، لأنه ليس من القافية بحيث يقابل مطلق الحركة بمطلق حركة ، ومطلق السكون بمطلق سكون ، وقد مر معنا أنه إذا كان ذلك الساكن صوت مد طويل ولوي ، أو يأتي فهما يتناوبان كما سلف (٣٧) لكن حسب هذا التعريف الأخير هل يجوز أن تتناوب معهما ألف المد هنا كما جاز ذلك في غير هذا الموضع من البيت ؟ الجواب كما هو معروف : لا ، وهنا يعني أن لهذا الساكن أهمية غير أهمية ما مثله داخل البيت (٣٨) على أن هذه الملاحظات مأخوذة من هذه التعريفات دون ربط هذه التعريفات بأجزاء القافية المكونة من ستة أحرف وست حركات ، وهذه الأجزاء لها تعريفاتها التي قد تكون محل خلاف بين العلماء ، لأن الحد على الرغم من ذلك يجب أن يكون جامعاً مانعاً ، والتعريف للقافية وحدها . وبهذا أحسب أن تعريف أبي موسى الحامض هو التعريف السليم ، وأنه ليس تعريف الخليل بعينه كما ادعى ابن رشيق ، وسلامته في عمومهِ وجهاله في إيجازه وسهولته ، ذلك أن تعريف القافية بمساحة معينة أمر صعب لم يفز به أحد من الذين حاولوا التجديد فيه حتى الآن حسب معرفتي ، ولو نظرت مثلاً إلى تعريف إبراهيم أنيس لها لوجدته لا يختلف عن تعريف أبي موسى الحامض في المعنى وقد قال ابن منظور عن تعريف الحامض : إنه مطوي على خلل ، ولكن الشتريني اختاره وانتقد ما سواه (٣٩)

٤ - وإذا كانت أجزاء البيت عند السنسكريتين واليونانيين تسمى أرجل البيت ، فإن القوافي هي بمثابة الحوافر لتلك الأرجل كما يقول القرطاجني (٤٠) وفيها ومنها الروي الذي « حقيقة الشعر تتوقف بروايته عليه ، وتروى به النفوس » (٤١) لذلك نجد شعر العرب الأوائل الذين يحتاج بعريتهم قد وحد هذه القافية ولم يتهاون فيها إلا ما حصل من بعض العرب ، عن طريق الوهم لاشتباه حروف تقاربت مخارجها ، فاختلط الأمر عليهم ، بسبب ذلك ، أو لسبب آخر ، وقد قسمها علماؤنا إلى قسمين : أ - الإكفاء : وهو أن ينكفيء الشاعر ، وينقلب عن حرف رويه ، إلى روي من حرف آخر ، بسبب علاقة التشابه لقرب المخرج (٤٢) ومثلوا لذلك بأثلة منها : ما روه عن أبي الدهماء العبدي ، وفُلّ الحبلى إن أصاب الركبا يستخرج الصبيان منه خذما (٤٣) فخلط بين الباء والميم ، لاشتراكهما في المخرج ، وهو الشفتان .

وقال رغب بن قيس العبدي :

نظرت بأعلى الصوق والباب دونه	إلى نعم ترعى قوافي مسرد
..... عجيل مخلط (٤٤)
ومثله : والله لولا شيخنا عبّاذ	لكمرونا عندها أوكادوا
فُرشط لما كُره الفُرشاط	بقيشة كأنها ملطاط (٤٥)

ومثله : « إلا أنه قد يكون من خلط الرواة بين قصيدتين

كأن تحت درعها الثقيل شطاً رميت فوقه بشطاً

ومثله كذلك

إذا رجلت فاجعلولي وسطاً إلي كبير لا أطيق العدا^(٤٦)

فخلط بين الدال والطاء ، لاشتراكهما في المخرج ، وهو أسناني لثوي ، كما اشتركا في الشدة ، وإن كانت الأولى رقيقة ، والثانية مفخمة .

وقال أبو محمد الفقعسي :

يا دار هند وابتنى معاذ كأنها والعهد مذ ألبا^(٤٧)

فخلط في رجزه بين الدال والطاء ، لأنهما يشتركان في المخرج من الأسنان . وكلاهما رخوان ، والفرق بينهما أن الأولى مرقة ، والثانية مفخمة . وقال آخر :

كأن أصوات القطا المنقش بالليل أصوات الحصى المنقر^(٤٨)

ويروى المنقص بالصاد أيضاً وهو الأقرب حيث الصاد والزاي لثويان رخوانان إلا أن الأولى مهموسة مفخمة والثانية مجهورة مرقة .

وقال أبو الدماء العبدي أيضاً :

فلا عيب فيما غير أن جينها جهيضى وفي العنين منها تخاوض

..... بالتياب الأطالس

..... والماء جاسس^(٤٩)

فخلط بين الصاد والسين الأسليتين ، لاشتراكهما في المخرج وهو الأسنان واللثة ، كما يشتركان في الرخاوة والمهس ، ويفترقان في أن الأولى مفخمة ، والسين مرقة ، وحصل الجمع بينهما من راجز آخر أيضاً :

وصاحب يتعصى امتعاصاً كأن في حال استه أحلاصا

يزداد ما استعملته خفاصا^(٥٠)

ويندرج تحت هذا ، الخلط بين الأصوات التي يجمعها قولك (لم نر) وتسمى لشبهها بأصوات اللين الأصوات المائعة ، أو المتوسطة والثلاثة الأولى منها من أحرف الذلاقة ، والخلط بينها موجود في كثير من اللغات ومنها اللغة العربية ، من ذلك قول الشاعر :

أأن رَمَ أجمال وفارق جيرة وصاح غراب البين أنت حزين

تنادوا بأعلى منخرة وتجاوبت هواز في حافاتهم وصهيل^(٥١)

ومن ذلك ما أنشده أبو العتاف :

أرمى بها مطالع النجوم رمي سليمان بذي غصون^(٥٦)
وقول أبي جهل :

ما تنقم الحرب العوان مني بأزل عامين حديث سني
مثل هذا ولدني أمي^(٥٧)

وقول جدّة أبي سفيان :

بني إن البر شيء هين المنطق الطيب والطيم^(٥٨)
وما رواه الفراء عن أبي الجراح :

والله ما فضلي على الجيران إلا على الأحوال والأعمام
وأنشد غيره :

يا ربّ جعدي فيهم لو تدرين يضرب ضرب السيط المقاديم^(٥٩)

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم في فواصله يرلوح في نهاياتها بين هذه الأحرف المائعة ، أو بعضها كما يرلوح قبلها بين المد الطويل الواوي ، وبين المد الطويل اليائي ، ولو تأملت نهايات فواصل سورة (ن) مثلاً لوجدتها (...نُون ، أو : ...ين) أو (...نُوم ، أو : ...ييم) ، ومثل ذلك في سورة (الصفافات) من الآية الثانية عشرة حتى آخر السورة .

ب - الإجازة بالزاي المعجمة :

وهي اجتماع الحرف مع لصيقه في التهجئة ، كالتاء مع الشين ، والسين مع الشين ، والعين مع الغين ، حيث تتناوب رويًا .^(٦٠) والإجازة مشتقة من التجوّز ، وقيل : إن عامة أهل الكوفة يسمّون ذلك (الإجازة) بالراء المهملة من الجور والتعدي^(٦١) ، ومن أمثلة الإجازة عندهم قول السموأل بن عدياء :

ربّ ششم معمه فصافم — ش وعنى تركه فكفيت
ينفع الطيب القليل من الرزق ولا ينفع الكثير الخيث^(٦٢)

(الخيث) بالتاء المثناة . ويروى هذا البيت بالتاء المثناة (الخيث) قلبت التاء تاء وقيل : هذه لغة لليهود .^(٦٣) فيكون ذلك من الإبدال لا من الإجازة وهو إبدال منتشر في بعض اللهجات العربية الحديثة . ومن الجمع بين الحاء والخاء ما أنشده ابن الأعرابي :

أزهر لم يولد بنجم الشحّ مُيمم البيت كريم السخّ^(٦٤)

والحاء والحاء وإن اختلف مخرجهما ، فقد اجتماعا في الرخاوة والمهمس وعدم التفتيح . ومن الجمع بين السين والشين قول لراجز :

أَلَذَّ مِنْ ظَهْرِ فَرَسٍ نَوْمٌ عَلَى بَطْنِ فَرَسٍ^(٦١)

ومن الجمع بين العين والغين قول جواس بن هرم :

قَبِحتُ مِنْ سَالِفَةٍ وَمِنْ صُدُغٍ كَأَنَّهَا كُتِبَتْ ضَبٌّ فِي صُدُغٍ^(٦٢)

فالتاء والتاء اختلف مخرجهما ، كما أن الأولى شديدة والثانية رخوة ، لكنهما اتفقا في المهمس والترقيق ، وواضح أن الذين يبدلون التاء تاء يميلون لنطق الحروف من الداخل . أما السين والشين فاختلف مخرجهما ، ولكن اتفقا في الرخاوة والمهمس والرقّة ، كما أن العين والغين اختلف مخرجهما ، واتفقا في الرخاوة والجهر والرقّة .

ج - هناك أبيات منسوبة للمعجم بن عبد الله السلولي (ت ٩٠ هـ تقريباً) هي :

أَلَا قَدْ أَرَى إِنْ لَمْ تَكُنْ أُمُّ مَالِكٍ بِمُلْكٍ يَدَى إِنْ الْبَقَاءُ قَلِيلُ
رَأَى مِنْ رَقِيقَتِهِ جَفَاءً وَبِعَةً إِذَا قَامَ يَتَنَاقِ الْقَلَامُ ذَمِيمُ
فَقَالَ لِحَلِيهِ ازْجَلَا الرُّخْلَ إِنِّي بِمُهْلِكَةٍ وَالْعَاقِبُكَ تَدَوُّرُ
فِيَتَنَاءُ يَشْرِي رَحْلُهُ قَالَ قَابِلُ لِمَنْ جَعَلَ رَحْلُو الْبِلَاطِ نَجِيبُ

فالقافية مبنية في هذه الأبيات على (ل + م + ر + ب) على التوالي ، والحروف الثلاثة الأولى منها من الأصوات المتوسطة ، ولكن الحرف الرابع ليس منها ، ولكنه ذو علاقة بحرف الميم حيث كل منهما شفهي ؛ لذلك نجد بعض العروضيين كالتنوخى مثلاً يدرجها تحت الإكفاء ، على حين يدرجها آخرون كالدمامي مثلاً تحت الإجازة . ويمكن توجيه مثل هذا التفاوت بأنه راجع إلى الاختلاف المعروف حول تعريف الإكفاء والإجازة ، أو إلى أن الأولين غلبوا جانب النظر إلى الحروف الثلاثة الأولى ذات العلاقة ، وأن الآخرين صبّوا الاهتمام على حرف الباء ، لا سيما أن الدمايني اقتصر على ذكر البيتين الأخيرين ، ونص على اختلاف مخرج الراء والباء^(٦٣) . وقد أثرت إيراد هذه الأبيات وحدها .

ويرى العلماء أن هذا الخلط بين الحروف من الغلط فيها ، لأمية هؤلاء وبدلوتهم^(٦٤) ؛ لذلك فإني عددتهم جميعاً من عصور الاحتجاج على الرغم من أن نزرأ منهم من العصر العباسي ، لأن عصر الاحتجاج في الشعر البلدي تناوهم . وما يحسن التنبيه إليه أنني لم أدخل معي الأشعار التي تبدو لأول وهلة غير موحدة الروى ، على حين تكون موحدة في ذلك ، وسبب هذا أن حروف الوصل المتقدمة (يهوا) قد يحتملها الشاعر أساساً للروى لا وصلاً له ، والأمثلة على ذلك كثيرة^(٦٥) . وينقل عبد القادر البغدادي عن عبد اللطيف البغدادي قوله عن الإكفاء - وهو ينسحب أيضاً عندي على

الإجازة - إن المرتكبين لذلك هم من الأعراب غير الفحول لأميّتهم ولكون الرجز يقال بداهة ، وإنه من قبيل الغلط الذي لا يقاس عليه من قِبَل المُحدّثين لتعلّمهم وتوقّرههم على أشعارهم. (٦٦)

ويدخل في عصر الاحتجاج مع عدم وحدة الروى ما تُسبب لامرئ القيس الشاعر الجاهلي المشهور من أربع مسطّطات : الأولى مطلعها :

يا صَحْبنا عَرَّجُوا تَقِفْ بكم أُنْجُ
مَهْرَنة ذُلُجْ في سِيرها مُعْجُ
طالت بها الرُّحْلُ (٦٧)

وهي ثلاث مجموعات يلتزم في كل أربعة أشطر منها قافية معينة ، ويلتزم في الشطر الخامس رويًا موحدًا في كل المجموعات هو اللام المضمومة .

والثانية مطلعها :

ومستلّم كَشَفْتُ بالريح ذيله أقمت بعَضْب ذي شقائق ميله
فجعت به في ملتقى الكَرّ خيله تركت عناق الطير تحجل حوله
كَأَن على سرباله نضح جربال (٦٨)

وغثى عن البيان أن هذه المسطّطة على نمط المسطّطة الأولى .

والثالثة مطلعها :

توهّت من هند معالم أطلال غَفَاهن طول الدهر في الزمن الخالي
مرايح من هند خلّت ومصايِفُ يصيح بمفناها صدى وعوازِفُ
وغَيرها هوج الرياح العواصفُ وكل مُسَيِّفٌ ثُمَّ آخِرُ رادِفُ
بأسُخَم من لَوءِ السُّمّاكِين هَطّال (٦٩)

والشاعر هنا أتى بشطرين على روى واحد هو اللام المكسورة ، ثم أتى بأربعة أشطر على روى واحد هو الفاء المضمومة ، ثم أتى بعدها بشطر واحد على روى اللام المكسورة أي أنه مماثل لروى الشطرين الأولين ، ثم يستمر بإيراد أربعة أشطر ملتزمًا فيها أي روى يختاره ، لكنه يقفلها بشطر خامس لها بروى اللام المكسورة دائماً إذا أراد الاستمرار .

والرابعة مطلعها :

خيال هاج لي شجنا فببت مكابدا حزنا
عميد القلب مرعنا بذكر اللهو والظرب (٧٠)

وهذه تشبه المسمطتين الأولى والثانية ، ولكنها تختلف عنهما بجعل الروى المتغير ملتزماً بثلاثة أشطر فقط بدلاً من أربعة كما حصل هنا ، ثم الروى للقافية الناتجة في نهاية الشطر الرابع بدلاً من الشطر الخامس هناك .

وهناك خامسة منسوبة له رسمت هكذا :

هـ ألا يا عيين فابكسي	على فقدي المكي
وإتلاقي لـالي	بلا حرف وجهي
تخطيت بلادا	وضيقت قلابا
وقد كنت قديما	أخا عز ومجدي ^(٧١)

ولو نظر إليها بهذا المنظار لعدت متعددة الروى بدون نظام تقريباً ماعدا الروى الموحد بين الشطرين الأولين ، ثم هناك روي (الدال) بين الشطر الرابع والثامن ، ولكن حقيقة هذا الشعر أنه من بيتين

فقط رويهما الدال ، قيسل

إنهما يمتثلان بحرأ أمهله الخليل^(٧٢) وإذا كانا بيتين فليسا مما أنا بصده ، وإن كان من الواضح أنهما يتقسمهما يمتدان الأساس - إن صحا لامرئ القيس - لما سُمي عند المؤلدين (بذات القوافي) .^(٧٣)

وهناك مسمطة أخرى غير منسوبة ، أدرجها في عصور الاحتجاج ، لأن الجوهري ذكرها قبل مسمطة امرئ القيس وإن قيل إنها لبعض المُحدثين وهي :

وشية كالقسم غير سود اللّم داويتها بالكّم
زورا وهاها^(٧٤)

هذا ما تيسر الوصول إليه في هذا الشأن من أشعار عصور الاحتجاج ، على أن المجموعة الأولى ذات الخلط بين الأحرف المتشابهة في الروي نتيجة الجهل بها لغلبة الأمية على قائلها ، يرجح ثبوتها ، قال القرطاجني « اختلاف القافية وقع ممن لا يحفل به من العرب »^(٧٥) وأحسبه يعني هذا النوع منهم . أما المجموعة الثانية وكلها منسوبة لامرئ القيس ماعدا واحدة ، فقد علق أبو العلاء المعري على المسمطة الأولى قائلاً : « وأحسب هذا لبعض شعراء الإسلام وقد ظلمني وأساء إلي »^(٧٦) ونسب الجوهري الثانية لامرئ القيس وقال له مسمطة ثانية ولم يذكرها ولعلها من بين ما أوردت ، وعلق المحقق على ذلك بأنه كُتب عليه في بعض النسخ قول الصاغاني : « ليس هذا من شعر أحد من يسمى بامرئ القيس أصلاً » ونقل الزبيدي ذلك أيضاً^(٧٧) وقال ابن رشيق عن المسمطة الثالثة : إنها منحولة وأنه لا يصححها لامرئ القيس ..^(٧٨) وقيل عن الرابعة : إنها لمجهول^(٧٩) وعلى هذا فإن كانت هذه المسمطات نتاج عصر يستشهد به فهي قنوة ، ولا يهم ثبوتها لامرئ القيس أو عدم ثبوتها ومثلها

ما معها ، لأن العروض مقيس على النحو واللغة ، والثاني مطالب بيهان أقوى من المثبت ، إلا أن كثيراً من الباحثين يميلون إلى أنها لمولدين ، وأن المسططات نشأت بعد المربعات والخمسات ^(٨٠) . وهو قول ترجحه النفس لكنه يحتاج لإثباته إلى ما هو أقوى من الترجيح .

٥ - في العصر العباسي عصر نضج الانفتاح على الثقافات المختلفة ، ومنها الغناء المرتبط بالشعر وأوزانه وقوافيه برباط وثيق ، وضحت محاولات إبداء الضيق بالقافية وكانت بواذر تلك المحاولات قد اتخذت مسارين :

الأول : بدا واضحاً في بحر الرجز ، سواء في أوزانه ولست بصدد بحثها ، أو في قوافيه وهي المهمة هنا ولعل تعرض بحر الرجز للتغيير أكثر من غيره لوطأة كنفه ، حتى ليراه بعضهم أقرب للسجع منه إلى الشعر ، ^(٨١) وكان بعض الشعراء كالفرزدق يقول « إني لأرى طرقة الرجز ، ولكنني أرفع نفسي عنه » ^(٨٢) ، ولأبي العلاء المعري الكثير من الأبيات في الحط من قدره ^(٨٣) . كأنما هو منزله بين الشعر والسجع ، ولذلك سمي حمار الشعراء ^(٨٤) . وقد قسمه الفارابي إلى ثلاثة أنواع : تام : وهو ما يلزم في قافيته رويّاً واحداً ، وهو جاهلي ، ومنفصل : وهو ما يلتزم فيه الشاعر رويّاً واحداً لكل شطرين ، مثل ذات الأمثال لأبي العتاهية ولم يسمع عن الجاهليين ، ومتصل : وهو ما يلتزم فيه الشاعر رويّاً واحداً لعدد من الأشطر ، ثم يغير الروي مع عدد آخر من الأشطر مثل قصيدة مدرك بن علي الشيباني لكل أربعة أشطر رويّ خاص ، وقال : المنفصل والمتصل غير جاهليين ، والمنفصل أشهر من المتصل هذا ما قاله الفارابي ، وقال ابن رشيق عن نهج قصيدة مدرك « لا أشك أنه مولد محدث » ^(٨٥) . والحق أنني قد اخترت هذا التقسيم للفارابي مفضلاً لإياه على غيره ، ويمكن أن يُدخل في القسم الثالث ما مثله ، وإن تنوّعت قافيته فيما أتى على بحر الرجز من مسططات ومربعات .. إلخ . وأحسب أن قول الفارابي عن المنفصل (المزدوج) ، والمتصل « غير جاهليين » عبارة موزونة جداً ، فلم يقل مولدين ، ربما لأنه يتوقف في تاريخ نشأتها ، نعم روي المنفصل (المزدوج) لبشر ابن المحتر الذي قيل هو أول من فعله ، ولبشار بن برد وقد كان يصنع المزدوجات والخمسات عبثاً واستهانة بالشعر ، ولأبي العتاهية ، ولأبأن اللاحقي في العصر العباسي الأول ثم تابعهم الكثير من الشعراء ^(٨٦) . لكن السؤال المهم في القضية ، هل كان هؤلاء مبتدعين له ، أم متبعين أناساً قبلهم عاشوا في عصور الاستشهاد وربما العصر الجاهلي ؟ يميل كثير من الباحثين إلى أنهم مبتدعون له غير مسبوقين إليه ^(٨٧) . وربما يؤيد ذلك بعض التأييد ما روى عن أبي العتاهية من تجديدات في الأوزان لم يتقدمه الأوائل فيها ^(٨٨) . وذكرها منها قوله :

للمنـون دائـرا
ت يـدون صـرفها
ثم يتقـنـنـا
واحدا فواحدا ^(٨٩)

هكذا يرسمها الكثيرون ، وهذا الرسم يشعر بأنهما بيتان اختلفت قافيتهما ، فإن لم ننظر للرسم ، وجعلناهما بيتاً واحداً تكون كلمة (صرفها) نهاية الشطر الأول وكلمة (واحدا) نهاية البيت وفيها الروى الدال ، فلا علاقة له بهذا البحث ، وإن كان على وزن جديد ، ومثل ذلك محاولة تُنسب لأحد المولدين التزم فيها حرف روى موحد ، لكنه التزم في حركة هذا الروى أن يكون مرة مرفوعاً ومرة مجروراً عن قصد ، وشبهوه بقواديس السانية فقالوا (القواديسي) .^(٩٠)

الثاني : مسار اتخذ طابع الهزل في ظاهره ، والتبرّم بقيد الروى الواحد في مضمونه ، من ذلك ما رواه العتبي قال : قال أبي : « أنشدني أبو وائل :

ما أوجع الينُّ من غريبٍ فكيف إن كان من حبيبٍ
يكاد من شوقه فؤادي إذا تذكرته يموت

فقال له أبي : إن هذا باء ، وهذا تاء . قال : لا تنقُط أنت شيئاً . قلت : يا هذا إن البيت الأول مخفوض ، وهذا مرفوع . قال : أنا أقول لا تنقُط وهو يشكّل .^(٩١) ويروى عن جماعة أنهم عملوا شعراً رائجاً - أي : لا معنى له ، أو أنه مختلف القوافي - في مدح شجاع من رجال الخليفة المنتصر العباسي (٢٢٢ - ٢٤٨ هـ) وألقاه أحدهم عليه ونال جائزته منه ، لجهل شجاع بالشعر ، وهو :

شجاعٌ لجاع كاتب لايبُ معاً	كجلمود صخر حطه السيل من على
خبيص لبيص مستمرٌ مقرّم	كثير أثير ذو شمال مهذب
لطين لطين أمرٌ لك زاجر	حبيب لصيف كل ذلك يُعلم
بلوغ ليبلغ كلّ ما شئت قلته	لديه وإن تسكت من القول يسكن
أديب لبيب فيه عقل وحكمة	عليّم بشعري حين أنشد يشهد
كريم عليم قابض متبسط	إذا جتته يوما إلى البذل يسمخ ^(٩٢)

ومنه ما أورده الباقلاني (ت ٤٣٠ هـ) دون نسبة أو تحديد عصر :

ربّ أخ كنتُ به مضطرباً	أشدُّ كُفّي بصرى صحيحه
تمسكاً مئّي بالودّ ولا	أحسبه يزهد في ذي أمل
تمسكاً مئّي بالودّ ولا	أحسبه يُغير العهد ولا
يُحوّل عنه أبداً	فخاب فيه أملّي ^(٩٣)

وهذا الشعر قد جمع بين عدم تساوي الأشطر في التفعيلات ، وبين عدم توحيد القافية ، وأحسبه مما يُؤيّد به على أن الكلام الجاري على الألسنة قد يشتمل على نوع من الوزن ، كما مثل لذلك أبو العتاهية :

« يا صاحب المسح تبع المسحا تعال إن كنت تريد الربح »^(٩٤)

وعلى أي حال يقول أحد الباحثين « لم يُعهد عن العرب القدماء أنهم قالوا بيتين أو أكثر في معرض واحد إلا جاعوا بذلك من بحر واحد ، وجعلوا أواخر الأبيات حرفاً واحداً مع ما اشترطوا في هذه الأواخر من شروط مجموعها هو علم القوافي » ويردف : الخروج على الوزن الموحد والقافية الموحدة حدث في العصر العباسي لضعف أهله في الفصحى .^(١٥) ولعل هذا هو رأي الغالبية ، لترجيحهم عدم صحة نسبة مسططات امرئ القيس له مع أن بعضها منسوب من القرن الثاني في كتاب العين للخليل أو الليث بن المظفر لتنزيه الخليل ، فيما يظهر ، عن بعض ما ورد فيه ، ومن ذلك نسبة المسطط لامرئ القيس . وسيتبقى هذا الرأي هو الأقوى على الرغم من أنه نفى ترجيحي ، حتى يكشف البحث عن جديد ■

● الموامش ●

- (١) إسماعيل بن حماد الجوهري : الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، مادة (قفا) ص ٢٤٦٦/٦ .
- (٢) أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش ، كتاب القوافي ، تحقيق : عزت حسن ، دمشق ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م ، ص ١ ، وأبو يعلى عبد الباقي عبد الله بن الحسن التنوخي ، القوافي ، تحقيق : عوني عبد الرؤوف ، نشر مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٧٨ م ، ص ٥٩ و ٦٣ . وأبو علي : الحسن بن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجليل للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م ص ١٥٤/١ ، وعلي بن جعفر بن علي بن القطاع ، المختصر الشافي في علم القوافي ، مخطوط ضمن مجموع بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية تحت رقم ١٦٤٠ ، ل ٢٢ ، وأحمد كشك ، القافية تاج الإيقاع ، ١٩٨٣ م ، ص ٨ .
- (٣) أحمد بن فارس ، الصحاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تحقيق : مصطفى الشويخي ، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر - بيروت ١٩٦٣ م - ١٣٨٢ هـ ص ٢٧٣ وأبو الحسن : حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء ، وسراج الأدباء ، تحقيق : محمد بن الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨١ م ، ص ٧١ ، وعبد بن عبد الملك الششتري ، المعيار في ميزان الأشعار والكافي في علم القوافي ، تحقيق محمد رضوان الدايدة ، دار الأنوار ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م . ص ١٢ ، عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمته ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر بدون تاريخ ، ص ٥٦٦ ، ٥٧٢ و ٥٧٣ .
- (٤) أبو يعقوب ، يوسف بن أبي بكر محمد ابن علي السكاكي ، مفتاح العلوم ، مطبعة البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م ، ص ٢٤٤ ، وانظر في عدم اشتراط القافية :

عند أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عمر الدماميني ، العيون الغامزة على خبايا الرامزة ، تحقيق الحسائي حسن عبد الله ، مطبعة المدني بمصر ، بلون تاريخ ص ١٧ - ١٨ ، والسيد محمد المنهوري ، الحاشية الكبرى (الإرشاد الشافي) ، الطبعة الثانية بمصر ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م ، ص ٢٠ .

(٥) ابن رشيقي : العمدة ١٣٤/١ .

(٦) المصدر السابق ١١٩/١ .

(٧) السكاكي : مفتاح العلوم ص ٢٦٩ .

(٨) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

(٩) المصدر السابق ص ٢٦٨ .

(١٠) شكري عياد ، موسيقى الشعر العربي ، دار المعرفة القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ م ، ص ١١٤ .

(١١) المرجع السابق ١١٥ عن الرجز ، و ١١٠ عن القول الآخر .

(١٢) أحمد بن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإياري ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م ، ص ٤٤٢/٥ على أن الدماميني ، العيون الغامزة ١٧ قال : عند الخليل « الشعر هو ما وافق أوزان العرب » .

(١٣) أبو العباس ، محمد بن يزيد المعروف بالمرجّد ، الكامل في اللغة والأدب ، مكتبة المعارف - بيروت ، بلون تاريخ ، ص ١٥٤/١ ، و ٦١/٢ .

(١٤) الأخفش ، كتاب القوافي ٣ و ٤ و ٥ ، والتنوخي : كتاب القوافي ٦٣ ، وابن رشيقي ، العمدة ١٥٤/١ ، وابن القطاع ، المختصر الشافي في علم القوافي ل ٢٢ ، والسكاكي : مفتاح العلوم ٢٧٠ .

(١٥) ابن رشيقي : العمدة ١٥٤/١ .

(١٦) السكاكي : مفتاح العلوم ٢٧٠ .

(١٧) الأخفش : كتاب القوافي ؛ وأبو الفتح عثمان بن جني ، مختصر القوافي ، تحقيق : حسن شاذلي فريهود ، مطابع الحضارة العربية - مصر ، الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م ، ص ١٩ .

(١٨) التنوخي ، كتاب القوافي ٦٣ ، وابن القطاع ، المختصر الشافي في علم القوافي ل ٢٢ .

(١٩) ابن رشيقي : العمدة ١٥١/١ ، وابن القطاع ، المختصر الشافي في علم القوافي ل ٢٢ ذكر أن الناس في عهده كذلك .

(٢٠) ابن رشيقي ، العمدة ١٥٣/١ .

(٢١) محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري ، لسان العرب ، المطبعة الميرية ببولاق ، الطبعة الأولى ١٣٠٧ هـ ، (قفا) ص ٥٧/٢٠ .

- (٢٢) ابن القطاع ، المختصر الشافي في علم القوافي ل ٢٢ .
- (٢٣) التنوخي ، كتاب القوافي ٦٥ .
- (٢٤) ابن رشيقي ، العمدة ١٥٣/١ ، وابن القطاع ، المختصر الشافي في علم القوافي ل ٢٢ دون ذكر ابن كيسان .
- (٢٥) السكاكي : مفتاح العلوم ٢٧٠ ، ونسبة لقطرب فقط التنوخي في كتاب القوافي ٦٦ ، وكذا عند ابن منظور ، لسان العرب (قفا) ٥٧/٢٠ ، وعياد ، موسيقى الشعر العربي ٩٩ نسبة لشعلب وقال : « لا يزال هو المفهوم الشائع للقافية » .
- (٢٦) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ٤٩٦/٥ .
- (٢٧) ابن جني ، مختصر القوافي ١٩ واختاره ، وابن رشيقي العمدة ١٥١/١ - ١٥٢ وله النص ، وابن القطاع ، المختصر الشافي في علم القوافي ل ٢٢ ، والسكاكي ، مفتاح العلوم ٢٧٠ ، وابن منظور ، لسان العرب (قفا) ٥٧/٢٠ وذكر اختيار ابن جني له .
- (٢٨) التنوخي ، كتاب القوافي ٦٨ .
- (٢٩) القرطاجني ، منهاج البلغاء ٢٧٥ .
- (٣٠) عياد ، موسيقى الشعر العربي ٩٩ .
- (٣١) التنوخي ، كتاب القوافي ٦٦ .
- (٣٢) ابن رشيقي ، العمدة ١٥٣/١ ، وابن منظور ، لسان العرب (قفا) ٥٧/٢٠ .
- (٣٣) عبد البر بن عبد القادر العوفي ، حسن البيان في شرح إقامة الأوزان ، مخطوط ضمن مجموع بجامعة الملك سعود تحت رقم ف ٢/٩٦٥ ، ل ٧ وانظر أيضاً إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة (٤) ١٩٧٢ م ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .
- (٣٤) كشك ، القافية تاج الإيقاع ١٥ .
- (٣٥) القرطاجني : منهاج البلغاء ٢٧٣ - ٢٧٤ .
- (٣٦) كشك ، القافية تاج الإيقاع ١٥ .
- (٣٧) عبد الله الطيب ، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، الدار السودانية الخرطوم ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٠ م ، ص ٤٢ يعيب المستشرقون ذلك على الشعر العربي وفي شعر الإنجليز ما هو أشنع منه ، أما أنيس ، موسيقى الشعر ٢٩٤ فيوافق المستشرقين .
- (٣٨) انظر اعتراضات أخرى عليه عند كشك : القافية تاج الإيقاع ٢٠ .
- (٣٩) أنيس : موسيقى الشعر ٢٤٦ ، ابن منظور ، لسان العرب ٥٧/٢٠ ، الشنتريني ، المعيار والكافي ٩٠ - ٩١ .
- (٤٠) القرطاجني : منهاج البلغاء ٢٧١ .
- (٤١) العوفي ، حسن البيان في شرح إقامة الأوزان ل ٧ .

- (٤٢) الجوهري ، الصحاح (جوز) ٨٧٠/٣ وهذا قول أبي زيد ، والتحليل يسميه الإجازة وستأتي .
وانظر : الدماميني ، العيون الغامرة ٢٤٧ .
- (٤٣) أبو عبد الله ، محمد بن عمران المرزباني ، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٣ هـ ، ص ٢٣ « وعن تبادل الميم والباء ، انظر المبرّد : الكامل في اللغة والأدب ١١٧/١ .
- (٤٤) المرزباني ، الموشح ٢٣ .
- (٤٥) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، أدب الكاتب ، تحقيق : محمد الدالي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، ص ٤٩٠ .
- (٤٦) ابن قتيبة ، أدب الكاتب ٤٩١ وأبو منصور ، موهوب بن أحمد الجواليقي ، شرح أدب الكاتب ، مكتبة القدس القاهرة ١٣٥٠ هـ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٦ وروى : كأن تحت درعها ...
لشاعرين الأولى دالية كلها ، والثانية طائية كلها . وابن السيّد البطليوسي ، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، دار الجليل - بيروت ١٩٧٣ م ، ص ٤١٥ رواها لأبي النجم العجلي وكلها طائية ، وزاد على (لا أطيق العتدا) : (ولا أطيق البكرات الشردا) .
- (٤٧) أحمد بن يحيى ، ثعلب ، قواعد الشعر ، تحقيق : رمضان عبد التواب ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٦٦ م ص ٦٨ ، وابن قتيبة أدب الكاتب ٤٩٢ برواية (أسّ جراميز على وجاذ) ، والجواليقي ، شرح أدب الكاتب ٣٣٧ ، والبطليوسي ، الاقتضاب ٤١٦ مع اختلاف في الرواية ، والجرموز : الحوض ، والوجاذ : المرتفع .
- (٤٨) ابن قتيبة ، أدب الكاتب ٤٩٠ ، والجواليقي ، شرح أدب الكاتب ٣٢٣ ، والبطليوسي ، الاقتضاب ٤١٤ ورواه بالصاد .
- (٤٩) المرزباني : الموشح ٢٣ ، ونظيره عند عبد القادر البغدادي ، خزانة الأدب ، طبعة بولاق الأولى ، ص ٥٣٣/٤ (لص ، يمس) .
- (٥٠) أبو زيد ، سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري ، كتاب النوادر في اللغة ، تعليق وتصحيح سعيد الخوري الشرتوني ، دار الكتاب العربي - بيروت ، بدون تاريخ ص ١٦٨ .
- (٥١) المرزباني ، الموشح ٢٤ .
- (٥٢) المصدر السابق ٢٣ .
- (٥٣) المبرّد ، الكامل في اللغة والأدب قال لاشتراكهما في الفتحة ٧٤/٢ ، والبغدادي ، خزانة الأدب ، ٥٣٤/٤ ووجهه توجيهات منها أن تكون الياء هي الروى ، ومثله ما رواه ابن قتيبة ، أدب الكاتب ٤٩٢ (قطا ، طفا) حيث يُحتمل أن الروى الألف . ومثله ما رواه البغدادي ، خزانة الأدب ٥٣٢/٤ حيث يُحتمل أن الياء هي الروى ، وما رواه الدماميني ، العيون الغامرة ٢٤٥ (عصيتا ، إيكَا) حيث يُحتمل أن الألف هو الروى ، مع روايته (عصيكا) . وأمثال ذلك كثير .

(٥٤) أبو زيد الأنصاري ، النوادر في اللغة ١٣٤ ، وتعلب ، قواعد الشعر ٦٩ ، والمبرد ، الكامل في اللغة والأدب ٧٤/٢ ، ويرى ابن بري في رده على انتقادات ابن الحشاش لمقامات الحريري (ملحقه بمقامات الحريري ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٣٢٦ هـ) ، ص ١١ أن السجع كالشعر تماماً .

(٥٥) ابن قتيبة ، أدب الكاتب ٤٩٠ ، والجواليقي ، شرح أدب الكاتب ٣٣١ - ٣٣٢ ، والبطلوسي ، الاقتضاب ٤١٤ وزاد فيها .

(٥٦) ثعلب ، قواعد الشعر ٧٠ ، وانظر : التنوخي ، كتاب القوافي ١٩٢ .

(٥٧) الدماميني ، العيون الغامزة ٢٤٧ .

(٥٨) ثعلب ، قواعد الشعر ٦٩ - ٧٠ .

(٥٩) الأنصاري ، كتاب النوادر في اللغة ١٠٤ ، وانظر : أحمد علم الدين الجندي ، اللهجات العربية في التراث : الدار القومية للكتاب - ليبيا - تونس ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ، ص ٤٣٢/٢ .

(٦٠) ابن قتيبة ، أدب الكاتب ٤٩١ ، والجواليقي ، شرح أدب الكاتب ٣٣٧ ، والبطلوسي ، الاقتضاب ٤١٦ .

(٦١) ثعلب ، قواعد الشعر ٦٩ ، والتنوخي ، كتاب القوافي ١٩١ .

(٦٢) التنوخي ، القوافي ١٧١ ، والدماميني ، العيون الغامزة ٢٤٦ .

(٦٣) المصدر السابق ٦٩ ، وابن قتيبة ، أدب الكاتب ٤٩١ ، والجواليقي ، شرح أدب الكاتب ٣٣٧ ، والبطلوسي ، الاقتضاب ٤١٧ .

(٦٤) المرزباني ، الموشح ٢٣ ، وابن منظور ، لسان العرب ٥٧/٢٠ .

(٦٥) انظر : المرزباني ، الموشح ٢٦٨ وتأمل مقصورة ابن دريد المشهورة .

(٦٦) البغدادي : خزنة الأدب ٥٣٢/٤ - ٥٣٣ ملخصاً .

(٦٧) أبو العلاء المعري ، رسالة الغفران ، تحقيق ، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ص ٣١٨ - ٣١٩ وديوان امرئ القيس تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة ، ص ٤٧٢ - ٤٧٣ .

(٦٨) حسين السندوني ، شرح ديوان امرئ القيس ، المكتبة الثقافية - بيروت ، الطبعة السابعة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ص ١٩٦ ، الجوهري ، الصحاح ، (سمط) ١١٣٤/٣ ، وسفك ١٤٩٧/٤ ، ومحمد مرتضى الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، جمعية المعارف بمصر ١٢٨٥ هـ ، (سمط) ١٦١/٥ نقلاً عن الجوهري وقال : « هكذا هو في العين ، وقد روى الأزهري في كتابه على الوجه الذي ذكره الليث تقليداً » .

(٦٩) ديوان امرئ القيس السابق ٤٧٤ - ٤٧٥ ، والسندوني ، شرح ديوان امرئ القيس ١٩٦ ، وابن رشيق ، العمدة ١٧٩/١ ، والزبيدي ، تاج العروس (سمط) ١٦١/٥ .

- (٧٠) السكاكي ، مفتاح العلوم ٢٦٩ ، والزبيدي ، تاج العروس ١٦١/٥ بدون نسبة ، وكذا عند مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، دار الكتاب العربي - بيروت ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م ص ٣/٣٨٥ .
- (٧١) السكاكي ، مفتاح العلوم ٢٦٩ .
- (٧٢) المصدر السابق ٢٦٩ .
- (٧٣) انظر : الرافعي ، تاريخ آداب العرب ٣/٣٧٠ .
- (٧٤) الجوهري ، الصحاح (سمط) ٣/١١٣٤ ، والزبيدي ، تاج العروس سمط ١٦١/٥ ونقل عن ابن بري أنها لبعض المخدثين .
- (٧٥) القوطاجني ، منهاج البلقاء ٢٧٢ .
- (٧٦) المعري ، رسالة الغفران ٣١٩ .
- (٧٧) الجوهري ، الصحاح (سمط) ٣/١١٣٤ والزبيدي ، تاج العروس (سمط) ١٦١/٥ .
- (٧٨) ابن رشي ، العمدة ١/١٧٨ و ١/١٨٢ .
- (٧٩) للمصدر السابق ١/١٧٩ والرافعي ، تاريخ آداب العرب ٣/٣٨٥ .
- (٨٠) الرافعي ، تاريخ آداب العرب ٣/٣٨٤ - ٣٨٥ ، وصفاء خلوصي ، فن التقطيع الشعري ، الطبعة الثالثة - بيروت ١٩٦٦ م ، ص ٢٩٨ .
- (٨١) أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي : إعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م ، ص ٥٤ .
- (٨٢) أبو العلاء ، أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري ، الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ ، تحقيق : محمود حسن زفاني ، دار الآفاق الجديدة ، مطابع دار السراج - بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٣١٩ .
- (٨٣) أبو العلاء ، أحمد بن عبد الله المعري ، لزوم ما لا يلزم - اللزومات ، تحقيق : إبراهيم الأعرابي ، مكتبة صادر - بيروت بدون تاريخ ، ص ٢/٣١٧ ، ٢/٣٣٠ ، ٢/٣٢٤ .
- (٨٤) الرافعي ، تاريخ آداب العرب ٣/٢٨ .
- (٨٥) الفارابي (لم يوضح اسمه ولعله : أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان) المقصد الوافي في العروض والقوافي مخطوط بجامعة الملك سعود تحت رقم م ف/٤١٦ - ٢٧٤٤ ، ل ٨ . وانظر قصيدة مدرك عند : ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، مطبعة المأمون ، بدون تاريخ ص ١٩/١٣٦ ، وابن حجة الحموي ، ثمرات الأوراق في المحاضرات (بهامش المستظرف من كل فن مستظرف للإبشيبي) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بدون مكان أو تاريخ (٢/٤٠) ، وانظر كلام ابن رشيقي في : العمدة ١/١٨١ .
- (٨٦) ابن رشيقي ، العمدة ١/١٨٢ ، وكارل ناليتو ، تاريخ الآداب العربية ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ص ٢١٥ ، وخلوصي في التقطيع ٢١٥ .

- (٨٧) ابن رشيقي ، العملة ١/١٨٢ ، وابن خلدون ، مقدمته ٥٨٣ ، ومحمود مصطفى ، أهدي سبيل إلى علمي الخليل مطبعة صبيح وأولاده بمصر ، الطبعة العاشرة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م ، ص ١٥١ ، ونالينو ، تاريخ الآداب العربية ٢١٥ ، وخلوصي ، فن التقطيع الشعري ٢٨٨ .
- (٨٨) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، -مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ، ص ٨/٤ و ١٣/٤ .
- (٨٩) ابن قتيبة عبد الله بن مسلم ، الشعر والشعراء ، دار الثقافة - بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٨٠ م - ١٤٠٠ هـ ص ٦٧٦/٢ .
- (٩٠) ابن رشيقي ، العملة ١/١٧٨ .
- (٩١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ٧/١٨٤ - ١٨٥ .
- (٩٢) أبو الحسن غرس النعمة محمد بن هلال الصائغ ، المفوات النادرة ، تحقيق : صالح الأشتري ، مطبوعات مجمع اللغة العربية - بدمشق ، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م ، ص ٢٦٩-٢٧٠ ، وأكثر الكلمات من الإتيان انظر : ابن فارس ، الصحاحي ٢٧٠ .
- (٩٣) الباقلائي ، إعجاز القرآن ٥٦ ، وعنه : الدماميني ، العيون الغامزة ١٨ .
- (٩٤) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ٣٩/٤ وانظر ابن حجة الحموي ، ثمرات الأوراق ٩٩/١ - ١٠٠ نثر للمعري صيف على بحر الرجز .
- (٩٥) مصطفى ، أهدي سبيل إلى علمي الخليل ١٥١ .

مجلة البحوث والدراسات العربية



- تعنى المجلة بنشر البحوث العلمية والدراسات الأصيلة التي لم يسبق نشرها ، ويقدم بها الأساتذة والباحثون من أعضاء هيئات التدريس بالجامعات العربية وغيرهم ، وذلك في المجالات المتصلة ببحث القضايا والمشكلات العربية المعاصرة في أمادها السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والتاريخية ، والجغرافية ، والقانونية . كما تعنى بإبراز الملامح الرئيسية للأدب والفكر العربي المعاصر ، وبخاصة ما يعكس منها الروابط الثقافية بين الأقطار العربية . إلى جانب اهتمامها الخاص بالدراسات الفلسطينية .
- يراعى في البحث أن يتراوح حجمه بين ستة آلاف وثمانية آلاف كلمة . وأن يوفق به موجز بإحدى اللغات الأوروبية لا يزيد عن ألف كلمة ، ويطبق هذا أيضاً على البحوث المقدمة للنشر بلغات أجنبية .

تصدر سنوياً
عن معهد البحوث
والدراسات العربية

ترسل المكاتبات الخاصة بالمجلة على العنوان التالي :

الأستاذ الدكتور/محمد صفي الدين أبو البر . رئيس معهد البحوث والدراسات العربية .

١ شارع الطلاب - جاردن سيتي - القاهرة (ص . ب ٢٢٩) . تليفون : ٣٥٤٠٦٥١ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

أ - المخطوطات :

- العوفي ، عبد البر بن عبد القادر الفيومي (ت ١٠٧١ هـ) ، حسن البيان في شرح إقامة الأوزان ، (مخطوط ضمن مجموع بجامعة الملك سعود تحت رقم ف ٢/٩٦٥) .
- الفارابي [لعله : أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان] ، للمقصد الوافي في العروض والقوافي (مخطوط بجامعة الملك سعود تحت رقم م ف/٤١٦ - ٢٧٤٤) .
- ابن القطاع ، علي بن جعفر بن علي (ت ٥١٤ هـ) : المختصر الشافي في علم القوافي ، (مخطوط ضمن مجموع بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، تحت رقم ١٦٤٠) .

ب - المطبوعات :

- الأخفش ، أبو الحسن : سعيد بن مسعدة (ت ٢٢١ هـ) : كتاب القوافي ، تحقيق : عزت حسن ، دمشق ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .
- الأصفهاني ، أبو الفرج ، علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ) . الأغاني ، مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية .
- الأنصاري ، أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت (ت ٢١٥ هـ) : كتاب النوادر في اللغة ، تعليق وتصحيح : سعيد الخوري الشرتوني ، دار الكتاب العربي ، بيروت (بدون تاريخ) .
- الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب بن القاسم (ت ٤٠٣ هـ) : إعجاز القرآن ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م .
- ابن بري ، أبو محمد عبد الله بن بري بن عبد الجبار (ت ٥٨٢ هـ) : رده على انتقادات ابن الخشاب لمقامات الحريري ، (ملحقة بمقامات الحريري ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٣٢٦ هـ) .
- البطليوسي ، عبد الله ابن السيد ، (ت ٥٢١ هـ) : الانتصاب في شرح أدب الكتاب ، دار الجليل ، بيروت ١٩٧٣ م .
- البغدادي ، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ) : خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب ، طبعة بولاق الأولى .
- التنوخي ، أبو يعلى : عبد الباقي عبد الله بن الحسن (حان حيا سنة ٤٨٧ هـ) : القوافي ، تحقيق : عوني عبد الرؤوف ، مطبعة الحضارة العربية - القاهرة ١٩٧٥ م .

- ثعلب ، أحمد بن يحيى. (ت ٢٩١ هـ) : قواعد الشعر ، تحقيق : رمضان عبد التواب ، دار المعارف - القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٦٦ م .
- ابن جني ، أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢ هـ) : مختصر القوافي ، تحقيق : حسن شاذلي فرهود ، مطابع الحضارة العربية - مصر ، الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .
- الجواليقي ، أبو منصور : موهوب بن أحمد (ت ٥٤٠ هـ) : شرح أدب الكاتب ، مكتبة القدس ، القاهرة ١٣٥٠ هـ .
- الجوهري ، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣ هـ) : الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- ابن حجة الحموي ، نقي الدين : أبو بكر ابن علي بن محمد (ت ٨٢٧ هـ) : ثمرات الأوراق في المحاضرات (بهامش المستطرف من كل فن مستظرف للإبشيبي) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (بدون مكان أو تاريخ) .
- الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦ هـ) : معجم الأدباء ، مطبعة المأمون (بدون تاريخ) .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) : مقدمته ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر (بدون تاريخ) .
- الدمايني ، أبو عبد الله ، محمد بن أبي بكر ابن عمر (ت ٨٢٧ هـ) : العيون الغامرة على خبايا الرامة ، تحقيق : الحساني حسن عبد الله ، مطبعة المدني بمصر (بدون تاريخ) .
- الدمنهوري ، السيد محمد (١٢٨٨ هـ) : الحاشية الكبرى (الإرشاد الشافي) ، الطبعة الثانية - مصر ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م .
- الرافعي ، مصطفى صادق : تاريخ آداب العرب ، دار الكتاب العربي - بيروت ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .
- ابن رشيق ، أبو علي ، الحسن القيرواني (ت ٤٥٦ هـ أو ٤٦٣ هـ) . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة - بيروت - الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م .
- الزبيدي ، محمد مرتضى (ت ١٢٠٥ هـ) : تاج العروس من جواهر القاموس ، جمعية المعارف بمصر ١٢٨٥ هـ .
- السكاكي ، أبو يعقوب : يوسف بن أبي بكر محمد بن علي (ت ٦٢٦ هـ) مفتاح العلوم ، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م .
- السندي ، حسن ، شرح ديوان امرئ القيس ، المكتبة الثقافية - بيروت ، الطبعة السابعة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

- الشنتريني ، محمد بن عبد الملك (ت ٥٥٠ هـ) المعيار في أوزان الأشعار ، والكافي في علم القوافي ، تحقيق : محمد رضوان الداية ، دار الأنوار ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
- ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد (ت ٣٢٨ هـ) : العقد الفريد ، تحقيق : أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الإياري ، مطبعة لجنة التأليف والنشر - القاهرة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .
- أبو العلاء المعري ، أحمد بن عبد الله بن سليمان : (ت ٤٤٩ هـ) :
أ - رسالة الغفران ، تحقيق ، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة .
- ب - الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ ، تحقيق : محمود حسن زناقي ، دار الآفاق الجديدة ، مطابع دار السراج ، بيروت (بدون تاريخ) .
- ج - لزوم مالا يلزم - اللزوميات ، تحقيق : إبراهيم الأعراي ، مكتبة صادر - بيروت (بدون تاريخ) .
- غرس النعمة ، أبو الحسن محمد بن هلال الصائغ (ت ٤٨٠ هـ) : المغوات النادرة ، تحقيق : صالح الأشر ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
- ابن فارس ، أحمد (ت ٣٩٥ هـ) : الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تحقيق : مصطفى الشويخي ، مؤسسة أ . بدران للطباعة والنشر - بيروت ١٩٦٣ م - ١٣٨٢ هـ .
- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) :
أ - أدب الكاتب ، تحقيق : محمد البالي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- ب - الشعر والشعراء ، دار الثقافة - بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
- القرطاجني ، أبو الحسن حازم (ت ٦٨٤ هـ) : منهاج البلغاء ، وسراج الأدباء ، تحقيق : محمد بن الحبيب بن الخوخة ، دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٩٨١ م .
- المبرد ، أبو العباس : محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ) : الكامل في اللغة والأدب ، مكتبة المعارف - بيروت (بدون تاريخ) .
- امرئ القيس (ت ٨٠ ق . هـ) : ديوان امرئ القيس ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة .
- المرزباني ، أبو عبد الله محمد بن عمران (ت ٣٨٤ هـ) : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٣ هـ .
- مصطفى ، محمود : أهدى سبيل إلى علي الخليل ، مطبعة صبيح وأولاده بمصر ، الطبعة العاشرة ١٣٩١ هـ .

— ابن منظور ، محمد بن مكرم الأنصاري (ت ٧١١ هـ) : لسان العرب ، الطبعة الميرية ببولاق ، الطبعة الأولى ١٣٠٧ هـ .

ثانياً : المراجع :

— أنيس ، إبراهيم (دكتور) : موسيقى الشعر ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م .
— الجندي ، أحمد علم الدين (دكتور) : اللهجات العربية في التراث ، الدار القومية للكتاب — ليبيا — تونس ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

— خلوصي ، صفاء (دكتور) : فن التقطيع الشعري ، الطبعة الثالثة — بيروت ١٩٦٦ م .
— الطيب ، عبد الله (دكتور) : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، الدار السودانية — الخرطوم ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٠ م .

— عياد ، شكري (دكتور) : موسيقى الشعر العربي ، دار المعرفة — القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ م .

— كشك ، أحمد (دكتور) : القافية تاج الإيقاع ، القاهرة ١٩٨٣ م .
— نالينو ، كارل : تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ، عناية : مريم نالينو ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية .

Bulletin of Arab Research and Studies



**Published
Annually
By the
Institute
of Arab
Research
and Studies**

- Contributions are invited from all over the Arab World especially from members of the teaching staff of Arab Universities. The focal domain of this Bulletin embraces All studies and researches relevant to current Arab problems in the fields of: Politics, Economics, Sociology, Law, Geography, History, Arabic Literature and Palestinian Studies.
- Papers written in Arabic or in any other foreign language must be accompanied with a resume or abstract of not more than 1000 words. The average length suggested is 6000 words.

All correspondences should be addressed to the following:
Prof. Dr. M.S. Abulezz

1, Sharia El-Tolombat,
Garden City, Cairo, Egypt, (P.O. Box 229).



السِّيَاسَةُ الخَارِجِيَّةُ السَّعُودِيَّةُ



عبدالله بن عبدالعزيز
عبدالله بن عبدالعزيز

صدر الكتاب الذي نعرض له منذ
فترة ، وهو الكتاب الثاني للمؤلف حيث
كان كتابه الأول حول « السعودية
والمنظمات الدولية » وقد صدر عام
١٩٨٠ م .

عرض وتحليل :

• د . عبدالله حسن الأشعل •

ويقع الكتاب الجديد في ما ينيف على الخمسمائة صفحة بقليل بما في ذلك ما يقرب من خمس عدد صفحاته للفهرس والمقدمة والملاحق والمراجع .

ويضم الكتاب اثني عشر فصلا . في الفصل الأول عكف المؤلف على دراسة السياسة الخارجية والعوامل المؤثرة فيها ومناهج دراستها وهي المنهج التحليلي والأيدولوجي والمقارن . أما العوامل المؤثرة في السياسة الخارجية السعودية فقد أورد المؤلف منها عشرة عوامل هي الموقع الجغرافي الذي يتطلب قوة للدفاع عن الأراضي المتراصة الأطراف ، والموارد الطبيعية وأهمها التترول ، والقدرة الصناعية والعسكرية والتكنولوجيا حيث بدأ تشجيع الصناعات الوطنية ونقل التكنولوجيا وتنويع العوائد ، رغم استمرار الاعتماد على مصادر التسليح الغريبة وإن كان مشروع التوازن الاقتصادي الذي أورد المؤلف تفاصيل كثيرة عنه ومشروع درع السلام المرتبط به قد أسهم في تطوير عملية نقل التكنولوجيا في المجال الدفاعي . ومن هذه العوامل المؤثرة في السياسة الخارجية السعودية عامل السكان ، حيث يقدر سكان المملكة عام ١٩٨٥ بحوالي ٩١/٢ مليون نسمة مقارنا بـ ٥١/٣ مليون عام ١٩٦٥ م مشيرا إلى أن نسبة الزيادة السنوية قد ارتفعت من ١,٩ ٪ عام ١٩٦٥ م إلى ٣,١ ٪ عام ١٩٨٥ م . ولم يوضح المؤلف انعكاسات عامل السكان على السياسة الخارجية بعد تفصيله لتطوير السكان . وهناك عامل العقيدة الدينية حيث الإسلام هو الركيزة الأساسية للتشيعات والحياة .

أما ثقل التازيح كما يسميه المؤلف ، فيعني لديه إحساس الأسرة السعودية بمسؤولية المحافظة على السلطة وضممان استقرارها لخدمة المواطنين ونشر العقيدة الإسلامية . وأما الانتماء العربي الإسلامي للسعودية كعامل مؤثر في سياستها الخارجية فلا يرى المؤلف أي تعارض بين السياسة السعودية في العالمين العربي والإسلامي وأن ما يميزها عن أقطار هذين العالمين هو مكانتها الخاصة التي تسمح لها بدور مؤثر في سياسات هذين العالمين . ويتطرق المؤلف إلى عامل العلاقة السعودية الخاصة مع الغرب فيشرح دوافعها مشيرا إلى أن أبرز عقباتها هو الانحياز الأمريكي لإسرائيل . ثم هناك عامل العداء للشيوعية الذي لم يمنع الملك عبد العزيز من إقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي عام ١٩٢٦ م التي انتهت عام ١٩٣٨ بسحب البعثة الدبلوماسية السوفيتية من جدة .

ويورد المؤلف عددا من القوى والقطاعات التي يرى أنها مؤثرة في صنع السياسة الخارجية السعودية وهي النخبة الملكية ، علماء الدين ، الدبلوماسيون المحترفون ، أجهزة جمع وتحليل المعلومات ،

التكنوقراطيون ، المثقفون وأساتذة الجامعات ، رجال الأعمال ، ثم قطاع الصحافة والإعلام حيث يرى المؤلف أنه يقوم « بدور مساند لاتجاهات الحكومة في الداخل والخارج » .

وفي الفصل الثاني تناول المؤلف تطور السياسة السعودية والنظام العربي السعودي مستعرضا تاريخ محاولات إقامة الدولة السعودية منذ عام ١٩٤٤ م ، مركزا على السياسة السعودية في عهد الملك عبد العزيز وخاصة منذ سيطرته على الرياض في عام ١٩٠٢ م حتى « تحرير الحجاز » .

وأشار المؤلف إلى استمرار مبادئ السياسة الخارجية السعودية في عهد الملك سعود تجاه البلاد العربية والجامعة العربية والعالم الإسلامي والأمم المتحدة ، وسياسة الملك فيصل أيضا الذي رحب بفكرة المؤتمرات العربية الإسلامية لتحسين علاقاته بالدول العربية المعتدلة ، واهتمامه بالقضية الفلسطينية ، ورفع شعار التضامن الإسلامي . ولم تتغير السياسة السعودية عن ذلك في عهد الملك خالد ، ثم تطورت خطوات هذه السياسة على النحو الذي فصله المؤلف في عهد الملك فهد حيث عمدت السعودية إلى التوفيق في النطاقين العربي والإسلامي ، ودعم الأمم المتحدة والتعامل مع الأزمات الدولية المتفجرة بحكمة مكنت السعودية من أن يكون لها دور متميز في حل الصراعات الإقليمية والدولية .

وعقد المؤلف **الفصل الثالث** لتحليل أهداف السياسة الخارجية السعودية في أربع دوائر هي الدائرة الخليجية ، العربية ، والإسلامية ثم المحيط الدولي .

ففي الخليج ، للسعودية مصالح استراتيجية ونفطية وروابط عائلية تجعل هدف الاستقرار فيه منطلقا لسياستها . واستعرض المؤلف جانبا من المواقف السعودية تجاه القضايا العربية لتحقيق التلاحم العربي ، وكذلك التضامن الإسلامي في النطاق الإسلامي .

خصص المؤلف **الفصل الرابع** لعملية صنع القرار في السياسة الخارجية السعودية حيث عالج أجهزة صناعة السياسة الخارجية في السعودية بعد تقديم نظري للموضوع ، وهي الملك الذي يتمتع بسلطات نابعة من كونه رئيسا للدولة ورئيسا للوزراء وفقا للنظم السعودية ، ثم مجلس الوزراء الذي يضم إلى جانب الملك نائبين ، ووزراء دولة ومستشاري الملك ، ثم وزارة الخارجية التي أنشئت عام ١٩٣٠ م كأولى وزارات الدولة ، وأجهزة المخابرات . ويعالج المؤلف دور بعض المؤسسات غير الرسمية في عملية صناعة القرار في السعودية مثل النخبة الملكية ورجال الأعمال والمجالس واللقاءات المفتوحة بين كبار المسؤولين وقطاعات الشعب المختلفة وأوضح المؤلف أن اتخاذ القرار في السياسة الخارجية السعودية ، يمر بثلاثة مستويات هي الملك وولي عهده ، مجلس الوزراء ثم وزارة الخارجية التي تقوم بمهمة التنفيذ ، وذلك كله في ضوء مراعاة القضايا المهمة التي تحكم القرار وأهمها العقيدة الإسلامية والأمن الوطني والالتزام السعودي بالقضايا العربية والإسلامية .

أما الفصل الخامس فيعالج وسائل وأدوات الدبلوماسية السعودية منذ عهد الملك عبد العزيز ومن أعقبه من أبنائه ، وتنوع هذه المسائل وسط التغيرات في الظروف السياسية والإقليمية والعالمية ، مركزا على وسائل الدبلوماسية الاقتصادية (مشيرا إلى المساعدات الخارجية السعودية من خلال الصندوق السعودي للتنمية المنتسأ عام ١٩٧٤ م الذي قدم المؤلف معلومات ضافية عنه وعن عملياته حتى عام ١٩٨٥ م وعن طريقه احتلت السعودية المركز الأول في العالم من حيث مساعداتها للدول النامية) .

وهناك أيضا الوسائل الإعلامية والدعائية التي تقوم بها وزارة الإعلام منذ نشأتها عام ١٩٦٣ م والبعثات الثقافية والإعلامية في الخارج ، ثم الوسائل العسكرية مشيرا إلى حالات استخدام القوات المسلحة السعودية مع اليمن عام ١٩٣٤ م وفي فلسطين عام ١٩٤٨ م وخلال العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ م ، وعام ١٩٦١ م لدعم استقلال الكويت وغيرها . ولذلك لا تتوانى الحكومة في تعزيز القدرات العسكرية .

وإذا كانت الفصول الخمسة الأولى قد اهتمت بالجانب النظري فيمكن القول إن الفصول الخمسة التالية قد اهتمت بالجانب التطبيقي .

ففي الفصل السادس عالج المؤلف علاقات السعودية العربية خاصة مع دول الخليج العربي حيث العلاقات تضرب في جذور التاريخ مع هذه الدول التي يضمهم معها مجلس التعاون .

وكذلك أفاض المؤلف في تاريخ العلاقات السعودية اليمنية والمصرية حيث أشار إلى أزمة العلاقات في عهد الملك فهد ثم تولت العلاقات في عهد الثورة ، ثم توترت العلاقات المصرية السعودية إبان انفصال سوريا وتطبيق القرارات الاشتراكية في مصر وما أعقب ذلك من صدام سياسي وعسكري بسبب الثورة اليمنية الذي أنهته اتفاقية جدة مشيرا إلى الدور الحيوي الذي لعبته السعودية في حرب أكتوبر ومعارضة السعودية لمعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية لكنه يقرر أن العلاقات المصرية السعودية تمر بمحلة تحسن واضح ومتزايد منذ تولي الرئيس مبارك .

واهتم المؤلف بتطور العلاقات السعودية العراقية حيث سويت مشكلة الحدود بين البلدين في اتفاقية الحمرة عام ١٩٢٢ م ، وبروتوكولات العقير المكمل لها والبروتوكولات في المن وما أعقب ذلك من اتفاقات مختلفة لم تفلح في تطوير التعاون بين البلدين . وعارضت السعودية حلف بغداد كما لم تؤيد نظام قاسم الشيعي وأبدت الكويت ضد تهديداته . ولم تحف السعودية موقفها في الحرب العراقية الإيرانية القائم على نبذ العدوان ، ودعم فرص السلام واحترام القوانين الدولية .

وقدم المؤلف الخلفية التاريخية للعلاقات السعودية الأردنية مروراً باتفاقية حداء سنة ١٩٢٥ م بشأن الحدود بين نجد وشرق الأردن ، واعتراف الأمير عبد الله عام ١٩٣٣ م بالملكة العربية

السعودية ، عقب اتفاقية القدس بشأن الصداق وحسن الجوار حيث توقفت بمرور الأيام علاقات البلدين حتى الآن .

أما العلاقات السعودية مع سوريا ولبنان فقد أشار المؤلف إلى دعم السعودية لاستقلالهما وعضويتهما في الجامعة العربية وتطوير علاقاتها بهما . ويرى المؤلف أن السعودية تعتبر سوريا عنصراً مؤثراً في السياسة العربية أملين أن ينسجم مع الأهداف العربية لكنه يرى أن الموقف السوري من الحرب العراقية الإيرانية وعلاقاتها بإيران يثير جدلاً واسعاً ويمثل خروجاً عن الخط العام لميثاق الجامعة ومعاهدة الدفاع المشترك خاصة بعد تحفظ سوريا على الفقرة المتعلقة « بإدانة العدوان الإيراني على العراق » من قرارات المؤتمر الخامس والثمانين لوزراء الخارجية العرب عام ١٩٨٦ م (تحفظت أيضاً ليبيا والجزائر واليمن الجنوبي) . ويقرر المؤلف في هذا الصدد أنه مع أن « السعودية تدرّك جيداً طبيعة وأسباب الخلافات السورية العراقية إلا أنها لا تشاطر السوريين موقفهم من النظام الإيراني الذي مايزال يحتل جزءاً من الأراضي العراقية ويهدد سلامة وأمن الدول الخليجية » (ص ٢٨٢ - ٢٨٣) .

كذلك أفاض المؤلف في مواقف السعودية تجاه القضية الفلسطينية منذ بوادر نشأتها وجهود الملك عبد العزيز في هذا الصدد وكذلك جهود خلفائه حتى اليوم مشيراً إلى خطة فاس القائمة على المبادرة السعودية .

وكان للسعودية دور في مساندة دول المغرب العربي في السعي لنيل استقلالها ، كما تقيم المملكة علاقات وثيقة معها .

وفي الفصل السابع عالج المؤلف علاقات السعودية بالعالم الإسلامي مشيراً إلى الدور الإسلامي والمكانة التي تحتلها السعودية في العالم الإسلامي انطلاقاً من التزامها بالشريعة وتخدمتها للأماكن المقدسة ولذلك قامت سياستها على تحقيق التضامن الإسلامي منذ عهد الملك عبد العزيز حتى الآن كما كان الملك فيصل يرى في الشيوعية والصهيونية والامبريالية خطراً على الأمة الإسلامية ، وكان يقسم العالم على أساس اقتراب دوله أو بعدها عن وحدانية الله ، وكان له دور في إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي والهيئات التابعة لها ، والعمل من أجل قضية القدس ، كما أن المساعدات الاقتصادية السعودية تستهدف ترسيخ التضامن الإسلامي .

وتناول الفصل الثامن العلاقات السعودية الأوروبية فبدأ بالعلاقات السعودية البريطانية التي احتلت جزءاً كبيراً من تاريخ السعودية بحكم وجود بريطانيا في الخليج واتصلت بشكل أو بآخر بمراحل توحيد الجزيرة ولذلك أقام الملك عبد العزيز علاقات وثيقة مع بريطانيا لخدمة كفاحه مشيراً إلى توتر العلاقات البريطانية - السعودية - لمدة طويلة بسبب النزاع حول البويري ، وبسبب العدوان على مصر . ثم تناول العلاقات السعودية الألمانية منذ أول اتصال بينهما عام ١٩٢٨ م ومعاهدة الصداقة عام ١٩٢٩ م ، وتابع

خلفاء الملك عبد العزيز سياسة الصداقة مع ألمانيا وتوثيق العلاقات في مختلف المجالات . أما فرنسا فقد اعترفت بالسيطرة على الحجاز عام ١٩٢٦ م وعقدت أول معاهدة صداقة مع الملك عبد العزيز عام ١٩٣١ م ، لكن اشتراك فرنسا في العدوان الثلاثي أدى إلى قيام السعودية بقطع العلاقات معها ثم توثقت العلاقات بفضل موقف ديجول المعادي للعدوان الإسرائيلي .

ورغم معاداة إيطاليا للملك عبد العزيز بسبب منافستها لبريطانيا فقد اعترفت بالملكة العربية السعودية وأبرمت معها معاهدة صداقة كانت أساسا في تطور العلاقات فيما بعد ، لكن العلاقات جمدت خلال الحرب العالمية الثانية واستؤنفت بعدها في خط بياني متطور .

أما في الفصل التاسع فقد تناول المؤلف العلاقات السعودية الأمريكية التي بدأت في وقت متأخر لأسباب تعود لظروف البلدين وارتبطت في البداية باستخراج البترول ثم تطورت إلى المجالات السياسية والتسليح والمجالات الاقتصادية ولكن هذه العلاقات شهدت توترات كثيرة بسبب الاختلاف البين بين الموقعين الأمريكي والسعودي من الصراع العربي الإسرائيلي . ولعل الملك خالد قد أصاب كيد الحقيقة عندما أشار إلى هذا المائق بقوله : « إذا كان أصدقاؤنا لا يستطيعون إقناع إسرائيل بقبول الحق العربي فإننا نتوقع من أصدقاؤنا ألا يحاولوا إقناعنا بقبول الباطل الإسرائيلي » .

ثم تناول المؤلف في الفصل العاشر العلاقات السعودية السوفيتية مشيرا إلى أن موسكو كانت أول من اعترف بالملك عبد العزيز بعد سيطرته على الحجاز وتبادلت معه العلاقات الدبلوماسية إلى أن سحبته بهتتها الدبلوماسية عام ١٩٢٨ م ، كذلك استعرض اهتمامات موسكو المتصلة بإقامة هذه العلاقات آملين أن تسوي موسكو القضية الأفغانية وهي على ما يبدو العقبة الوحيدة في هذا المجال .

واستعرض المؤلف في الفصل الحادي عشر سياسات السعودية النفطية منذ اكتشاف البترول فيها منذ عام ١٩٣٨ م ، وتطور هذه السياسة بقبول شركة أرامكو عام ١٩٥٠ م مبدأ مناصفة الأرباح وحذت حذوها دول الخليج الأخرى ، ثم تغيرت الصورة مع نشأة الأوبك عام ١٩٦٠ م التي خاضت حربا عنيفة ضد الشركات البترولية وتحكمت في أسعار البترول مشيرا إلى ثقل السعودية وأهمية موقعها داخل الأوبك والمساعدات التي قدمتها للدول النامية مستفيدة من عوائد البترول حيث بلغت نسبة هذه المساعدات إلى الناتج القومي أعلاها وهي ما يقرب من ٨ ٪ عام ١٩٧٥ م ، فضلا عن استخدام أعداد وفيرة من العمالة العربية والآسيوية إليها . ودافع المؤلف عن اتهام وجه للمملكة بأنها تسبب في أزمة الأسعار الحالية ، وعن سياستها بعيدة النظر في هذا المجال .

أما عن آفاق المستقبل بالنسبة للسياسة السعودية ، فقد خصص لها الفصل الثاني عشر والأخير مستعرضا تلك الآفاق في ضوء تصوره لمستقبل العوامل الداخلية المرتبطة بحركة السكان والظواهر الاجتماعية الأخرى ، وتغير أحوال العرض والطلب العالمي على البترول . وينتهي المؤلف في هذا الصدد إلى توقع أن

تكون السعودية الدولة العربية الأولى عام ٢٠٠٠ في مجالات البترول والاستخدامات التكنولوجية الحديثة ، يساعدها في ذلك سهولة عملية التحول الاجتماعي وانسجام هيكلها وقيمتها الاجتماعية ، وارتفاع مستوى الترابط والتكامل في البنية الاجتماعية والسياسية ، وفتحها بالاستقرار السياسي مما يمكنها من تحقيق مكانة بارزة بين الأمم .

ملاحظات ختامية :

بعد الكتاب أول دراسة شاملة عن السياسة الخارجية السعودية بقلم سعودي ، ولاشك أن أهمية السعودية قد دفعت العديد من الباحثين وخاصة الأجانب إلى تناول جوانب هذه الأهمية ، سواء ما ارتبط بأوضاعها الداخلية أو علاقاتها الخارجية . ولقد أدرك المؤلف منذ البداية أهمية العمل الذي يقوم به ، إلا أننا مع تقديرنا الكبير لجهده ، فإننا نشعر أن من أهم مزايا هذا العمل أنه سيفتح الباب فعلاً أمام محاولات جديدة لكي تفي الموضوع ما يستحق من العناية .

ويحمد للمؤلف أنه رجع إلى عدد كبير من الثقافات لمعالجة الموضوع ، ولكن تشعب الموضوع وأهميته قد تركا في كثير من الوجوه مجالاً للمستزيد .

ولما كان الكمال لله وحده واهتماماً ببناء المؤلف في مقدمة الكتاب وترجييه بملاحظات الباحثين ، فإنني آمل أن تخلو طبعاته المقبلة من بعض الهنات وأقصها .

١ - عند معالجة سياسة السعودية في العالم الإسلامي ، جاءت المعالجة أقل بكثير مما يستحقه هذا الموضوع الحيوي ، إذ البعد الإسلامي في نظرنا هو محور السياسة الخارجية السعودية بأكملها .

٢ - خلط المؤلف بين منظمة المؤتمر الإسلامي ورابطة العالم الإسلامي ، واستشهد ببحث الأستاذ/عبد الله سندي الذي وقع في الخطأ نفسه (٣١٣ - ٣١٥) ولاشك أن أفراد معالجة خاصة لموقف السعودية ومساندتها للمنظمتين وتقديم معلومات كافية عنهما للقارئ أمر لا غنى عنه في هذا المقام .

٣ - لا شك أن المؤلف يعلم أن إيراد مقتطفات مطولة باللغة الإنجليزية دون ترجمتها لا سيما في صلب المتن ، مهما كانت أهميتها في سياق الموضوع ، أمر يخالف أصول البحث العلمي ، وينطبق ذلك أيضاً على المعلومات الكثيرة التي أوردها والمتضمنة نصوص بعض الاتفاقيات الدولية ثم بيان الدول التي تبادلت التمثيل الدبلوماسي مع السعودية وغيرها .

٤ - كذلك نأمل أن يفيض المؤلف في الطبعة القادمة في تأصيل الدور السعودي في الصراع العربي الإسرائيلي ، وفي جميع الصفوف العربية ، وفي مجلس التعاون الخليجي .

وأخيراً ففي الكتاب أخطاء لغوية كثيرة يحتاج معها الكتاب إلى مراجعة لغوية شاملة في طبعته القادمة إن شاء الله ■

جهاد شعب فلسطين

ضد الهجرة اليهودية والصهيونية

● د . إسماعيل أحمد ياغي ●



فلسطين قلب العالم العربي والإسلامي ، ولها أهمية دينية لدى أصحاب الديانات السماوية كما أنها ذات موقع استراتيجي هام ، جعل منها جسراً يربط قارات العالم القديم ، ومهماً عالمياً ومركزاً لعدد كبير من الحضارات . وكانت أرضها - التي وصفها التوراة أرض السمن والعسل - مسرحاً لحروب طاحنة ومكاناً للاقتتال بين الغزاة والجيوش المتجهة إلى مصر وبالعكس وبين سكانها الكنعانيين العرب . ومع ذلك فقد ظلت فلسطين كنعانية عربية صفة وسيادة ، ذلك أن صلة العرب بفلسطين لم تنقطع منذ أقدم العصور وحتى الفتح الإسلامي . وظل العرب يشكلون الكثرة العددية العالية في البلاد وتعضد وجودهم بمن جاء إليهم من عرب الجزيرة مع الفتح العربي الإسلامي ، الذي صبغ البلاد بطابعها العربي لغة وثقافة وتاريخاً ومصيراً^(١) وصادت في البلاد مظاهر الحضارة العربية الإسلامية .

ومنذ الفتح الإسلامي لفلسطين عام ٦٣٧م أصبحت فلسطين جزءاً لا يتجزأ من الدولة العربية الإسلامية واستقر العرب المسلمون فيها وتكاثروا . وكان اليهود قد غادروها وتفرقوا في الأرض منذ القرن الأول الميلادي عندما طردهم الرومان منها . ولم يبق منهم إلا للة ذابت في المجتمع العربي وضاعت معالمها ككفنة لها أهداف أو طموح سياسي لا بل عاشوا في رحاب^(٢) الدولة العربية الإسلامية حياة تحرية وعدل وتسامح بمقتضى القيم التي نص الإسلام على معاملة أهل الكتاب بها . وقد حل الفتح العربي الإسلامي اليهود إلى أفريقيا الشمالية وإلى أسبانيا (الأندلس) وعرضوا هناك معاملة حسنة في حين كانت أوروبا تنضطهدهم^(٣) وفي ذلك يقول ...

نجيب صدقه « وفي حين كانت أوروبا الغربية المسيحية تنضطهد اليهود باسم الدين وتذيقهم ألوان العذاب في القرون الوسطى ، وتنضطهم إلى النزوح إلى شرقي أوروبا وغربها ، كانت الدولة العربية توليهم أسمى المناصب وتعترف لهم بحق المساواة المطلقة فيتجرون ويأثرون ، ويلبسون شأواً في السياسة والإدارة والاقتصاد لم يسبق له مثيل »^(٤) .

وانطلاقاً من تعاليم ديننا ، عاش العرب واليهود أجيالاً في فلسطين في سلام ووثام ، ولم تكن للحوادث النادرة التي تحدث بينهم في بعض الأحيان إلا مظهراً من مظاهر أي مجتمع متعدد الطوائف والأجناس . ولذلك كانت المنازعات القليلة التي حصلت قبل أن تتكشف أهداف الغزو الصهيوني حالات فردية وعادية .^(٥) فلم يشعر عرب فلسطين تجاه اليهود بأي إحساس يضر بالمصالح القومية للشعب الفلسطيني ، فقد كانت صلة اليهود بفلسطين مجرد صلة دينية عاطفية ورغبة لدى بعض الفئات اليهودية المتدينة في الإقامة قرب الأماكن المقدسة للتعبد وممارسة الطقوس الدينية لقضاء أيامهم الأخيرة في المدن الأربع المقدسة (القدس ، صدد ، لبريا ، الخليل) ناهيك عن أن اليهود المتدينين كانوا يؤمنون بفكرة بعث الدولة اليهودية في فلسطين بحدوث معجزة إلهية ، يظهر معها المسيح المنتظر الذي سيعيد بناء « هيكل سليمان » ويقود العالم نحو الخير والسلام .^(٦)

تمتع اليهود في فلسطين إبان الحكم العثماني بقسط كاف من الحرية الدينية ، لم تكن من نصيبهم في أي بلد أوروبي ، فخلال الحكم العثماني لم تتخذ أية إجراءات رسمية ، تستحق الذكر تناهض اليهود ، أو تميز بينهم وبين باقي السكان كما كان الحال في معظم الدول الأوروبية ، إن لم يكن فيها كلها . وإذا كانت أوضاعهم في الدولة العثمانية عامة غير مرضية ، فإنها لم تكن تختلف كثيراً عن أوضاع باقي السكان . كذلك تعزز مركز اليهود ومركز باقي الطوائف الأخرى غير الإسلامية بمنحهم امتيازات كثيرة تتعلق بالمحافظة على حقوقهم الدينية ومنحهم حكماً ذاتياً في هذا المجال ، وتوسع نظام الحماية كذلك بحيث أصبح الكثيرون من اليهود والمسيحيين بمثابة مواطنين للدول الأجنبية التي تتولى حمايتهم بواسطة قناصلها .^(٧) فكان اليهود في فلسطين في القرن التاسع عشر ، أقلية ضئيلة بين السكان العرب ٢٪ ، لا تلفت النظر ، ولا تثير الشبهات حولهم لقلة عددهم وضآلة شأنهم ،^(٨) وعاش الجميع في ظل الحكم العثماني لا يفكرون بغير أرزاقهم اليومية .^(٩) فالسلام كان سائداً بين العرب واليهود ، لكنه سلام من النوع الذي يسود بين فريقين ليس لأي منهما علاقة بالآخر أو يربطهما علاقات محدودة .^(١٠) وحقيقة الأمر أن الجاليات اليهودية كانت مفعمة بروح الانغلاق والتعصب ، والتعالي ، مما جعلها غير قادرة على الاندماج مع العرب وغيرهم ، هذا فضلاً عن عدم قدرتها على قبول نظرية التعايش مع العرب وغيرهم . وربما كانت هذه الروح لدى اليهود هي السبب في كراهية الآخرين لهم إلى غير ذلك من الأسباب الأخرى كالاستغلال والتجسس وغير ذلك .

وفي الوقت الذي كانت فيه مذابح اليهود كثيرة الوقوع في روسيا وبولونيا ، وكانت هناك حركات في فرنسا وغيرها من أعرق أمم أوروبا حضارة ترمي إلى ما يشبه القضاء على اليهود ، حتى كادت قضية دريفوس أن تشعل نار الثورة في فرنسا ، كان اليهود يجدون في البلاد الإسلامية أطيب معاملة ، ويعتبرونها الملجأ الآمن لهم وكانت هذه البلاد الإسلامية ترى واجباً عليها حماية اللاجئين إليها منهم والمساواة بينهم وبين المسلمين في المعاملة .

وقد عبرت جريدة الشمس اليهودية في عددها الصادر بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٣٥ م عن هذه العلاقة في مقال لها ، فقالت « إن هذا الحماس الذي يبدو على المهاجرين القادمين ، يرتد إلى شعورهم بخلاصهم من بلاد تضطهد الساميين ، وعودتهم إلى حضن الأوطان السامية العربية وهم يعلمون أن فلسطين الصغيرة محوطة بملايين من العرب الذين ينظرون إليها نظرة تقديس واحترام ، ولا يعقل أن يخطر ببال المهاجرين الإساءة إلى العرب في قطر وهم الذين رحبوا بهم وأفسحوا لهم صدرهم الآن وعلى مدى عصور التاريخ »^(١١)

وقبيل بدء الهجرة الأولى عام ١٨٨٢ م ، حدثت عدة حوادث فردية وعادية ، منها قيام مظاهرات ضد اليهود في فلسطين ومصر بسبب تمسحهم لاحتلال العثمانيين فلسطين ، وتعاونهم مع الجيش العثماني ، وتضرر نتيجة لذلك يهود صفد ، وحين وافق السلطان سليمان عام ١٥٦١ م على تحويل مدينة طبريا إلى مدينة يهودية عارض المسيحيون ، وتدخل البابا مع الصدر الأعظم لإفساد المشروع ورفض العمال العرب أن يعملوا ، ولكن والي دمشق ساعد على إتمام بناء السور إلا أن التطور توقف بموت السلطان سليم سنة ١٥٧٤ م^(١٢) . ولكن هيمنة العثمانيين فتحت المجال أمام الهجرة مع أن الأتراك لم يشجعوا الهجرة ولم يعرقلوها . كما هاجمت القبائل العربية صفد سنة ١٥٦٧ م ، ثم دمشق سنة ١٥٨٧ م ، فأخذ اليهود يهربون إلى طبريا ويبروت ودمشق ومصر ، وهاجم القحط والطاعون صفد سنة ١٥٩٩ م وسنة ١٦٠٦ م ، ثم هاجمها الدروز ١٦٠٤ م واحتلوها سنة ١٦٢٨ م وسنة ١٦٣٦ م مرة ثانية . وقد عفا الجوع والمرض والنهب على الخليل ، وأنهاك القرى اليهودية في القرن السادس عشر وأدى ذلك إلى ازدهار القدس بعد اضمحلال صفد ، ولكن اليهود ضعفوا نتيجة مقاومة وتسلب بعض المسؤولين عليهم^(١٣)

وتذكر بعض المراجع إلى أن يهودا حاسيد « قاد أول حركة اشكنازية إلى فلسطين في عام ١٧٠٠ م واقترض أموالاً من عرب القدس على أمل سداها من المساعدات التي ستصله . ولما لم تصل المساعدات ، وطال الزمن بالدائنين دون أن يتسلموا ديونهم من اليهود والاشكناز ،

هجموا عليهم وحرقوا كنيساتهم ، وهدموا مؤسساتهم ، فعاد من الاشكناز من عاد إلى أوروبا واعتنق الباقي الدين الإسلامي أو المسيحي ، ولم يجزؤ اليهود على الظهور في فلسطين حتى عام ١٨١٦م حين أصدر السلطان إرادة سامية بإعفائهم من ديونهم ^(١٤) . وليس هناك ما يشير إلى وقوع حوادث أو اصطدامات تذكر بين العرب واليهود خلال الثلاثة أرباع الأولى من القرن التاسع عشر فيما عدا بعض الشكاوى اليهودية من الحكومة العثمانية ومن الباشاوات المسؤولين والتي وردت في تقارير قناصل بريطانية . كما ذكرت نفس التقارير سوء تصرفات اليهود تجاه سكان البلاد ووجهت اللوم إليهم ^(١٥) .

وفي عام ١٨٧٥م بدأت موجات الهجرة تتدفق ، وكان معدل عدد المهاجرين يصل إلى ألفين في العام ، مما جعل قنصل الولايات المتحدة يكتب إلى وزارة خارجيته محذراً من أن تدفق اليهود على فلسطين من روسيا يمثل هذه الكثافة سوف يقلب الحالة في البلاد ، فلا تغطي سنوات حتى يصبح اليهود هم سكان البلاد - لا سكانها الأصليون ^(١٦) . ونتيجة لهذه الهجرة ازداد عدد اليهود فبلغ في نهاية القرن التاسع عشر خمسين ألف يهودي نصفهم تقريباً في القدس ، كما بلغ عدد مستعمراتهم تسع عشرة مستعمرة عدد سكانها ٤٣٥٠ شخصاً ^(١٧) في حين ذكرت مصادر أخرى بأن عدد اليهود في نهاية القرن بلغ ٣٥ ألف يهودي وعدد العرب ٤٥٠ ألف شخص ^(١٨) .

أثارت هجرة اليهود إلى فلسطين تخوف عرب فلسطين من الاستيطان اليهودي ، فقد وردت أول إشارة مبكرة لذلك من القدس في رسالة نشرتها مجلة الجوائب اللبنانية في عددها ٨/٢٥٦ عام ١٨٦٨م ، ذكر فيها الكاتب عن قدوم أحد أعضاء الجمعية الإسرائيلية في باريس (الأليانس) إلى القدس وقال فيها « إن مراد الجمعية أن تشتري حقولاً ومزارع في الأراضي المقدسة ليتعلم أولاد اليهود الزراعة والحراثة » وylت الكاتب نظراً للدولة العليا « أن تنظر في أمرنا وتتدارك أحوالنا ، وإلا فإن اليهود لا يلبثون أن يجلونا من هذه الأرض كما أجلبناهم من جزيرة العرب » ^(١٩) . ويتضح من ذلك أن عرب فلسطين أحسوا بالخطر الحقيقي الذي يهددهم من وراء الهجرة اليهودية الاستيطانية ويظهر لنا أن هناك أرضية تاريخية رسبت في عقول عرب فلسطين إحساسهم بالخطر الصهيوني المتمثل في الهجرة وجعلتهم يعتقدون أن الصهيونية هي الخطر الذي يهددهم ، وأنه ينبغي تركيز جهودهم تجاه مقاومتها . ومنذ أن تأسست مستعمرة « بتاح تكفا » والتي تعني الأمل في عام ١٨٧٨م ، احتج رؤوف باشا حاكم القدس التركي إلى القنصلين الألماني

والرؤمي لانتشار فكرة أحلام العودة إلى فلسطين بين اليهود وأوضح الحاكم أن ما يفعله ضد هذه المستوطنات إنما هو لإزالة هذا الحلم . وتشجع عرب فلسطين فقاموا باحتلال الأراضي التي استولى عليها اليهود ، وتكرر الهجوم من العرب مع زيادة الهجرة إلى فلسطين .^(٢٠)

ومع بداية عام ١٨٨٠م بدأ التحرك الفلسطيني يسجل نضاله الوطني المتصل ضد موجات ومشاريع الاستيطان للهجرة الصهيونية ، وطالبت الحركة الوطنية الفلسطينية في كل مذكرة أو احتجاج قدم للسلطنة العثمانية بطلب واحد متكرر وقف انتقال ملكية الأرض واستملاكها للصهيانية . كما اتخذت الحركة الوطنية الفلسطينية مجموعة من الإجراءات لوقف انتقال الأرض ، إذ إنها حرمت البيع بفتاوى شرعية وشجعت عملية وقف الأرض ، واتخذت جميع الإجراءات السلبية والإيجابية لمنع انتقال الأرض إلى الأيدي الصهيونية .^(٢١)

وأياً ما كان الأمر ، فلم يرافق الشعور القومي عند عرب فلسطين في القرن التاسع عشر أي شكل من أشكال العداء لليهود ، قبل بداية الغزو الصهيوني والهجرة الصهيونية الواسعة عام ١٨٨٢م ، فقد بدأت الاصطدامات المسلحة بين الفلاحين العرب والغزاة الصهيونية والمستوطنين الجدد عام ١٨٨٦م عندما هاجم الفلاحون العرب المطرودون من الخضيرة وبتاح تكفا « ملبس » التي أجّلوا عنها رغماً عن إرادتهم . ودفعت هذه الاصطدامات المسلحة الحكومة العثمانية عام ١٨٨٧م إلى فرض قيود على هجرة المستوطنين الصهيونية الذين كانوا يدخلون البلاد كسياح ... بحيث لم يعد يسمح لهم بالإقامة لمدة تزيد على ثلاثة أشهر في البلاد ، وذلك بموجب جوازات سفر حمراء ، عوضاً عن جوازاتهم الأصلية عند دخول البلاد .^(٢٢)

وبالرغم من ذلك فإن الهدوء ساد العلاقات بين العرب واليهود خلال السنوات العشر الأولى من الهجرة الكثيفة (١٨٨١ - ١٨٩١م) ولكنه سرعان ما انقلب إلى شعور بالشك والاستنكار للهجرة ، وبدأ العرب يفتقون ويتنبهون للخطر الصهيوني ، وأصبح مألوفاً أن تحصل اعتداءات من السكان العرب على المستعمرات اليهودية ، وسقطت الصداقة القديمة أمام عداء العرب للهجرة ، فقد كان إحساس العرب بابتعاد المستعمرات الصهيونية عنهم يزداد ، حيث حرص اليهود على أن تكون مستعمراتهم عبرانية خالصة ، وقاوموا كل ما يخالف بالشكل العبراني .^(٢٣)

واتضح الرؤية والقصد من الهجرة الصهيونية أمام عرب فلسطين ، وزالت الأتعة وأزيج الستار عنها ، ووجد عرب فلسطين أن لا مناص لهم من الكفاح ومقاومة مخططات الصهيونية بعد أن تأكد لهم أن الهجرة اليهودية هدفها استيطان فلسطين وبالتالي طرد أهلها منها على المدى

البعيد ومن هنا كان الصراع في فلسطين صراعاً بين استعمار سياسي عسكري استيطاني صهيوني وبين شعب يدافع عن حريته ووجوده وكيانه ضمن ظروف الصراع بين القوى الاستعمارية الكبرى على السيادة والأسواق في العالم . وقد حدد هذا كله طبيعة الصراع بين الطرفين كما بين التناقض بين الحركة الوطنية العربية والحركة الصهيونية . فلم تكن الجاليات اليهودية للمفعمة بروح الانفلاق والتعصب المستسلمة للأحلام الصهيونية قادرة على قبول نظرية التعايش مع العرب واندماجهم مع المجتمع العربي الفلسطيني .

وانكفاً عرب فلسطين على التصدي للهجرة اليهودية ومخططات الصهيونية ، ففي أيار (مايو) ١٨٩٠ م قام وفد من وجهاء القدس بتقديم عريضة احتجاج للصدر الأعظم ضد رشاد باشا (متصرف القدس) الذي أبدى محاباة وتحيزاً للصهاينة بخلاف سلفه رؤوف باشا^(٢٤) وعاد وجهاء القدس في عام ١٨٩١ م فأرسلوا إلى الصدر الأعظم في الاستانة احتجاجاً طالبوا فيه بإصدار (فرمان) « بمنع هجرة اليهود وتحريم استيطانهم واستملاكهم للأراضي الفلسطينية » بعد أن لاحظوا بداية النشاط الصهيوني لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .^(٢٥) وقد حدد هذا الاحتجاج شعاري الجماهير الفلسطينية الأساسيين خلال مراحل كفّل الشعب الفلسطيني حتى عام ١٩٤٨ م .

استجابات الاستانة للاحتجاج إلا أن التدخل البريطاني أبطل مفعول فرمان السلطنة العثمانية ، ولكن عرب فلسطين واصلوا الاتصال بالاستانة ، وصدر قرار في السنة التالية ١٨٩٢ م يمنع اليهود من شراء الأراضي ويمنع أيضاً الرعايا من بيع الأراضي لليهود ، ولكن بريطانيا وبعض الدول الكبرى تدخلت ، فاستطاعت أن تقلل من فاعلية المنع بالرغم من تشبث الحكومة العثمانية برأيها حتى خلع السلطان عبد الحميد (ابريل ١٩٠٦ م) .^(٢٦) وهذا يوضح أن الصهيونية لجأت إلى أسلوب الرشوة للموظفين الأتراك بحيث أوقفت مفعول القرار هذا عدا عن الأساليب المتنوية الأخرى بمخالفة قوانين الإقامة والبقاء في فلسطين في ظل قانون الحماية للأجانب برعاية الدول الأجنبية .

وقد عاد الفلاحون الذين فقدوا أراضيهم فهاجموا الخضرية وملبن عام ١٨٩٢ م ،^(٢٧) وفي عام ١٨٩٦ م قبل المؤتمر الصهيوني نهبت بعض صحف القاهرة إلى النتائج الخطيرة المترتبة على الهجرة الصهيونية إلى فلسطين .^(٢٨)

وفي عام ١٨٩٧م أخذت المقاومة العربية تشتد في مواجهة الاستيطان الصهيوني في أعقاب المؤتمر الصهيوني الأول . فقد ترأس مفتي القدس محمد طاهر الحسيني هيئة محلية ذات صلاحيات حكومية مهمتها التدقيق في طلبات نقل الملكية لتصرفية القدس ومحاربة الهجرة اليهودية والاستيطان الصهيوني ، فحال ذلك دون حصول اليهود على أراض زراعية جديدة لسنوات عديدة .^(٢٩) وأشارت تقارير عام ١٨٩٨م إلى أن أهل فلسطين وقفوا موقفاً حازماً ضد المشاريع الصهيونية والهجرة اليهودية وإمكان قيام إسرائيل في بلادهم لأنهم اعتبروا ذلك خطراً على حقوقهم وامتيازاتهم .^(٣٠)

وشهد عام ١٩٠٠م حملة احتجاجية واسعة من العوائص الجماعية ضد تملك اليهود للأراضي الزراعية وسجلت تقارير البرت عتبيي المعتمد الرسمي للجمعية الاستعمارية اليهودية وكانت حينذاك مؤسسة صهيونية ، بأن هذه الحملة تدل دلالة قاطعة على الوعي الفلسطيني المبكر ، وتثبت أن الصهيونية هي التي سمحت العلاقات العربية اليهودية في فلسطين ، كما سجلت هذه التقارير امتداد المعارضة للصهيونية إلى صفوف موظفي الحكومة من أهالي البلاد .^(٣١)

وفي عام ١٩٠١م صدر قرار آخر يمنع دخول أي يهودي إلى أرض فلسطين (إلا إذا كان سيغادرها خلال ثلاثة أشهر) ولم ينفذ هذا القرار بسبب تدخل السفير البريطاني في العاصمة العثمانية علاوة على دخول الصهاينة إلى أرض فلسطين بمساعدة بريطانيا بطرق غير مشروعة .^(٣٢) وهذا يؤكد تواطؤ بريطانيا مع اليهود نظراً لأطماعها في فلسطين والتي ترجع إلى عهد بعيد ، وبالتحديد منذ عصر الفزوات الصليبية ، ولكن أطماعها قد ظهرت من جديد إثر حملة نابليون على مصر وبلاد الشام لذا ، فإنها وقفت في طريق محمد علي بعد أن اكتسحت جيوشه سوريا بهدف إقامة دولة عربية ، فتحالفت مع الدول الأوروبية فأجبرت هذه الدول محمد علي على التراجع والعودة إلى مصر بموجب معاهدة لندن ١٨٤٠م بحجة المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية . والواقع أنها (بريطانيا) تريد تحقيق أطماعها في فلسطين لما لموقعها من أهمية اقتصادية وعسكرية ودينية ولذلك افتتحت لها قنصلية في القدس ، وأخذت على عاتقها حماية الجالية اليهودية في فلسطين بموجب نظام الحماية توطئة لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

وكانت الصحف العربية قد عبرت عن اهتمامها بالحركة الصهيونية ومدى أخطارها ، وقد وردت إشارات عابرة في بعض الصحف العربية في مصر (وأصحابها سوريون) ، حيث ظهر

أول رد فعل للمؤتمر الصهيوني الأول في جريدة المقطم بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٨٩٧م في مقال بعنوان « مملكة صهيون » نه فيه إلى خطورة الصهيونية وأهدافها الرامية إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وإن كان يستبعد إمكانية تحقيق ذلك. (٣٣)

وفي أبريل ١٨٩٨م نشرت المقتطف مقالاً خاصاً تحت عنوان « عودة اليهود إلى فلسطين رداً على سؤال قارئ من فرانكفورت في ألمانيا عن مدى اهتمام الصحف العربية في مصر وسوريا بالحركة الصهيونية ، فأجاب المقتطف بأن ما نشر في الصحف العربية حول الحركة الصهيونية لم يكن اهتماماً خاصاً ، واستبعد المقتطف إمكانية استعمار فلسطين لأن اليهود المهاجرين إلى فلسطين حتى عام ١٨٩٨م كانوا أهل صناعة وتجارة ، ولا نظن أنهم سيعكفون على الفلاحة. (٣٤)

والواقع أن مقال المقتطف قد قلل من شأن الأطماع الصهيونية في ذلك الوقت ، كما أخطأ في تقدير قيمتها هذا فضلاً عن عدم معرفة نوعية المهاجرين اليهود إلى فلسطين ، فقد ادعى المقتطف خطأ أن المهاجرين كانوا من أرباب الصناعة والتجارة وغاب عن باله أن البلاد تشهد نوعاً جديداً من المهاجرين اعتباراً من عام ١٨٨١م ، تمكنوا من تأسيس المستعمرات الزراعية واشتغلوا بالزراعة .

وساهمت مجلة المنار على لسان صاحبها محمد رشيد رضا في التنديد بالصهيونية وفضح مخططاتها وأطماعها فعقب محمد رشيد رضا على مقال المقتطف السابق وخاطب فيه العرب منبهاً ومخبراً من هجرة اليهود إلى فلسطين. (٣٥) كما كتب مقالاً آخر بعنوان « حياة أمة بعد موتها - جمعية اليهود الصهيونية » فضح فيه أطماع الصهيونية وأوضح كيف أنها تتظاهر بنقل الفقراء اليهود إلى فلسطين للعيش في ظل السلطان بينما هي في واقع الأمر تطلب تملك البلاد ، ثم حل على الحكام المسلمين والعرب وطلب من الأمة عدم الاعتقاد عليهم . وفي مقال آخر اتهم رشيد رضا اليهود بالعمل على استغلال فلسطين واحداث ملك لهم فيها. (٣٦) وبذلك تكون مجلة المنار قد حذرت من الخطر الصهيوني الذي يحاول التسلل إلى فلسطين بهدف قيام وطن قومي يهودي فيها وطرد سكانها الأصليين العرب ، كما أنه يدل على الفهم والإدراك العميق لحقيقة الصهيونية وأبعادها .

وحذر كذلك المفكر العربي نجيب عازوري - الذي أقام في فلسطين - من المخططات الصهيونية وتناقضها مع أماني الأمة العربية . وفي عام ١٩٠٤م أصدر نجيب عازوري بيانه

التاريخي « بلاد العرب للعرب » ، وصدر في العام التالي (١٩٠٥م) في باريس كتابه « يقظة الأمة العربية Le Reveil de la Nation Arabe » نبه فيه إلى خطورة التوسع الصهيوني في فلسطين وأثره على الأمة العربية . وكانت تصورات وتوقعاته تنبئ ببعيد نظر فريد ورؤية ثاقبة لأبعاد الخطر الصهيوني ، وقد عبر عن مطامع القوميين اليهود في مقدمة كتابه : الصراع بين اليقظة العربية القومية والحركة الصهيونية وقال في هذا الصدد : « ... تبرز في هذا الوقت وبشكل لم يفر الاهتمام سابقاً ، ظاهرتان خطيرتان متعارضتان ، رغم طبيعتهما ، هما يقظة الأمة العربية وجهود اليهود لإعادة تأسيس مملكة إسرائيل القديمة على نطاق واسع للغاية . إنه مقدر لهاتين الحركتين أن تتصارعا باستمرار حتى تتغلب إحدهما على الأخرى . ومصير العالم كله يعتمد على نتائج هذا الصراع بين الشعبين اللذين يمثلان مبدئين متناقضين . » وفي مكان آخر من الكتاب يدرك عازوري عظم الخطر الصهيوني الذي يرسم لإعادة تأسيس ما يسمونه وطنهم القديم ، باحتلال الحدود الطبيعية لهذا الوطن فيقول : « ... هذه الحدود الطبيعية هي بالنسبة إليهم جبل الشيخ الذي يضم نهر الأردن ووادي بردى من الشمال ، مع الأراضي المحصورة بين راشيا وصيدا كمقدمة ، وفتاة السويس وشبه جزيرة سيناء من الجنوب ، والجزيرة العربية في الشرق ، والبحر المتوسط في الغرب ، وبكونها هذا تصبح فلسطين بين يدي شعب يعرف كيف يدافع عنها » .^(٣٧)

وخشيت السلطات العثمانية من انتشار أفكاره بين العرب ، خاصة بعد أن طبع بيانه (بلاد العرب للعرب) بكميات كبيرة ، ووزع في فلسطين ، فقامت الحكومة العثمانية بحركة اعتقالات في يافا وغيرها من المدن ، ولكنها اضطرت تحت الضغط العربي في عام ١٩٠٦م إلى تعيين متصرف جديد للقدس بدلاً من سلفه « رشيد بيك » الذي كان قد ساند الهجرة اليهودية إلى فلسطين وخالف القوانين العثمانية التي فرضت الحظر عليها .^(٣٨)

ومما يجدر ذكره أن كتابات نجيب عازوري ،^(٣٩) كانت تعبيراً عن ظهور الحركة العربية والتي تجلّت فيها أول ظاهرة سياسية لمعارضة الحكم العثماني . فقد كانت يقظة القومية العربية التي ظهرت منذ مطلع القرن العشرين ، قد تطورت من حركة إحياء ثقافي إلى وعي سياسي ومطالبة بالحقوق القومية في ظل الحكم العثماني . وكان لها بالتالي تأثير على حالة العرب في فلسطين مما كان له أثر كبير على العلاقات العربية الصهيونية فحدث تغير جوهري وأصبح الصراع بين قوميتين متناقضتين .^(٤٠)

ويبدو أن مشاعر الفلسطينيين العرب كانت ذات تأثير في مواقف السلطان عبد الحميد الراضية من محاولات هرتزل لإغرائه ببيع فلسطين لليهود ، على الرغم من حاجة الامبراطورية العثمانية الماسة حينذاك للدعم المالي . فقد رفض السلطان عبد الحميد العثماني محاولات هرتزل بمنح حقوق غير محدودة للهجرة اليهودية إلى فلسطين نظير قيام اليهودية العالمية لتسديد الديون العامة للدولة العثمانية ، وأرسل السلطان إلى هرتزل يقول : « ... إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض لأنها ليست ملك يميني بل ملك شعبي ، لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه ... فليحفظ اليهود بملايينهم لأنه لو قدر لأمبراطوريتي أن تتمزق فقد يحصلون على فلسطين دون مقابل ، ولن يتم ذلك إلا إذا مزقت أوصالنا ، ولن أوافق على أن تتمزق وأنا حي » .^(٤١)

وقد أثار توافد يهود الهجرة الثانية (١٩٠٤ - ١٩١٤ م) استياء الفلسطينيين الذين عبروا في أكثر من مناسبة عن معارضتهم منذ اللحظة الأولى لوصول المستعمرين الصهيونيين . ورافق الاستياء من قدوم المستعمرين اليهود موجة من الغضب على الملاكين الاقطاعيين (آل سرقس ، مصطفى باشا ، فؤاد سعد) الذين كانوا يجنون الأرباح من بيع الأراضي للصهيونيين .^(٤٢) كما اشتد العداء بين العرب واليهود في أعقاب الموجة الثانية من الهجرة اليهودية والتي أدت إلى طرد الفلاحين والعمال العرب من المستعمرات الصهيونية ، بالإضافة إلى المقاطعة الصهيونية المنظمة للمنتجات العربية ، ونتج عن ذلك أن ساد التذمر أوساط العرب الذين تأثروا مباشرة لتصرفات اليهود العنصرية ، ف وقعت مصادمات في يافا بين العرب واليهود في مارس ١٩٠٨ م استدعت على أثرها الحكومة المركزية قائم مقام يافا للتحقيق معه في أسباب الاضطرابات .^(٤٣)

وبعد أن قامت الجمعيات اليهودية بشراء مساحة واسعة من الأرض من عائلة سرقس اللبنانية بالقرب من طبريا ، هاجم فلاحو القرى المجاورة الفنين الذين جاءوا لمسح الأرض تمهيداً لنقل ملكيتها ، وذلك بقصد محاولة منع إتمام الصفقة . ونجح العرب بالفعل في استصدار أحكام من الباب العالي بإلغاء بعض الصفقات التي عقدها الصهاينة في مطلع القرن العشرين .^(٤٤) ويلاحظ أن الفلاحين والعمال المضطربين مباشرة من الهجرة هم الذين قاموا بمهاجمة اليهود وكرهوا الملاك الذين باعوا أراضيهم ، وذلك بتأثير من الحملات الصحفية التي وصلت إلى الفلاحين والبدو في أكوأخهم فألهبت مشاعرهم ، وزادت حماسهم الوطنية ودفعتهم للهجمات المسلحة على المستعمرات اليهودية والأفراد .^(٤٥)

لكن الأوضاع أخذت شكلاً جديداً بعد ثورة ١٩٠٨م،^(٤٦) فقد شارك اليهود الطوائف الأخرى ابتهاجاً بإعلان الدستور ، بل فاق يهود القدس جميع الطوائف في إظهار عواطفهم ، فنشط الخطباء منهم وبالغت جرائدهم المحلية في الترحيب بالعهد الجديد . ورفعت الحركة الصهيونية في يافا ، وصرح الصهيونيون بوجوب تمثيلهم في مجلس المبعوثان (البرلمان العثماني) ليتمكنوا من عرض قضيتهم والمطالبة بالحكم الذاتي في فلسطين .^(٤٧) كما أنشأوا مكتباً لشراء الأراضي في يافا وباشروا ببناء الأحياء اليهودية قرب يافا ، وأنشأوا شركات أخرى في نفس العام لعبت دوراً هاماً في توسيع الاستيطان الصهيوني وتوطيده فيما بعد .^(٤٨)

وكانت مشاعر الود التي أبدتها اليهود تجاه الحكم الجديد على أمل أن يحقق لهم ما عجزوا عن تحقيقه في العهد السابق ، وخاصة إلغاء الإجراءات القانونية السابقة المقيدة للهجرة والتملك . ومع ذلك فقد دخل صهيونيون في فرع حزب الاتحاد والترقي بصفتهم عثمانيين ، وسعوا لضمان مقعد واحد في مجلس المبعوثان يمثل الحركة الصهيونية ولكنهم فشلوا في ذلك . وقد نجح ثلاثة مرشحين عن القدس يمثلون الأُسَر الإسلامية البارزة فيها هم : روجي الخالدي ، حافظ السعيد وسعيد الحسيني . أما في ولاية بيروت فقد فاز عن لواء نابلس الشيخ أحمد الخماش وعن لواء عكا الشيخ أسعد الشقيري .^(٤٩)

وما لا شك فيه أن مشاعر الود والفرح والابتهاج التي أبدتها اليهود للحكم الجديد لم تكن عفوية بقدر ما كانت مدروسة ومعروفة تماماً بالنسبة لهم ، ذلك أنه كان لهم يد في الانقلاب الذي أطاح بالسلطان عبد الحميد الذي رفض محاولاتهم المستمرة ببيعهم أراضي فلسطين وقيد هجرتهم وتملكهم الأرض بقوانين وإجراءات قانونية . وفي هذا المجال اهتم جريدة نهضة العرب التي كان يصدرها نجيب عازوري في باريس الاتحاديين بالتحالف مع اليهود والماسونيين الأحرار ، وأن اليهود تسلطوا على جمعية الاتحاد والترقي وأنهم دبروا ثورتها على السلطان عبد الحميد بهدف إيجاد الفوارق بين الأتراك والعرب من أجل هدم الامبراطورية العثمانية ، وإقامة مملكة يهودية على أنقاضها . ومثل هذه الأفكار لم تكن بين العرب فقط بل كانت بين قسم من الأوروبيين أيضاً ، كما وجدت طريقها إلى وزارة الخارجية البريطانية .^(٥٠)

ولعبت الصحافة العربية التي واكبت ثورة ١٩٠٨م ، دوراً هاماً في زيادة الوعي واليقظة العربية فظهرت بعض الصحف في فلسطين في أعقاب الثورة وإعلان الدستور ، ومن الصحف التي صدرت في فلسطين عام ١٩٠٨م (الأصمعي) في يافا لصاحبها حنا عبد الله عيسى ،

والقدس لصاحبها جورجي حنايا ، وتبعتهما جريدة الكرمل في حيفا لصاحبها ورئيس تحريرها نجيب نصار . وأخذت هذه الصحف على عاتقها كشف المطامع الصهيونية وأخطار الهجرة وبيع الأراضي لليهود ، وكانت في طليعة تلك الصحف جريدة الكرمل والتي توقفت مراراً بسبب مقالاتها العنيفة التي كشفت الخطر الصهيوني . ومع ذلك استمر نجيب نصار في حمل لواء مناهضة الحركة الصهيونية فاضحاً أطماعها وسعيها لامتلاك الأرض وإقامة الدولة اليهودية ، وكاشفاً زيف ادعاء اليهود العثمانيين ومهيباً بالعرب أن يهبوا جميعاً لمقاومة الغزو الصهيوني العنصري لفلسطين بجمع الكلمة ووحدة الصف .^(٥١)

وبعد أن جرت انتخابات مجلس المبعوثان في السلطنة العثمانية ، انتقل الصراع ضد الصهيونية داخل المجلس أيضاً ، ففي عام ١٩٠٩م أجبر النواب العرب في مجلس المبعوثان رئيس الوزراء على أن يعلن « أنه لن يسمح لليهود باستيطان فلسطين » . كما أنهم أجبروا كذلك وزير الداخلية على أن يعلن معارضته للأهداف الصهيونية .^(٥٢)

وظهرت في هذه الفترة (٧/١٠/١٩٠٩م) أول وثيقة هامة عن موقف الفلسطينيين من اليهود والحركة الصهيونية ، وهي دراسة نشرها المثقف الفلسطيني يوسف الخالدي بين فيها أن هدف الحركة الصهيونية هو إنشاء دولة صهيونية في فلسطين . وقد حذر من قيام تلك الدولة لأن قيامها لا يمكن أن يتم دون اصطدامات وصراع دموي بسبب المعارضة العربية لقيام مثل هذه الدولة . ويطرح الخالدي في دراسته قضيتين هامتين : أولاًها : أنه يلزم أن في أوروبا « مشكلة يهودية » ولذلك فقد اقترح إقامة وطن قومي لليهود خارج فلسطين . وثانياً : أنه يفرق بين الصهيونيين وغير الصهيونيين من اليهود .^(٥٣)

وكان النضال داخل مجلس المبعوثان وخارجه يتفاعلان ، ففي عام ١٩٠٩م أنشئت منظمة محلية مهمتها الحيلولة دون بيع الأراضي لليهود ، كما واصلت الصحف العربية وفي طليعتها الكرمل حملاتها على الذين يبيعون أراضيهم للمهاجرين الصهيونيين . وتقدم نائب مدينة يافا باستجواب في مجلس المبعوثان تسأل فيه عما تقصده الصهيونية ، وعما إذا كانت الحركة الوطنية لليهود تنسجم مع مصلحة الامبراطورية العثمانية ، وطالب بإغلاق ميناء يافا في وجه المهاجرين الجدد من اليهود .^(٥٤)

وفي النصف الثاني من عام ١٩٠٩م وجهت جريدة الأهرام هجوماً مباشراً للشركة الصهيونية لأطماعها السياسية في فلسطين وتحدثت في المقالات التي نشرتها عن مؤامراتهم الصهيونية ، وعن

بحث الاسرائيليين عن وطن لهم في فلسطين وأشارت الجريدة إلى مطامع الصهيونيين بالاستقلال في فلسطين ، وكيف أن المستعمرات الصهيونية أشبه بولايات مستقلة لا تخضع لقوانين الدولة وأنظمتها بدعوى أنها أجنبية . وطالبت الحكومة العثمانية بوضع حد لأطماع الصهيونية في فلسطين .^(٥٥)

وكانت جريدة الأهرام . قد أوفدت مراسلاً إلى فلسطين فدرس الوضع عن كثب ، واتصل بالفلسطينيين وشعر بمخاوفهم وعرف منهم حقيقة أطماع الصهيونية ، فكتب يقول « إن الفلسطينيين قلقون من الحركة الصهيونية فالهجرة اليهودية المستمرة تخلق لديهم المخاوف والقلق ، فالبلاد تكاد تكون في أيدي الأجانب » وأشار المراسل إلى أن الفلسطينيين يتهمون الحركة الصهيونية في فلسطين بأنها تهدف إلى إقامة دولة صهيونية مستقلة ، ويؤكدون أن بعض اليهود قد بدأوا يدفعون الرشوة للحكومة العثمانية في فلسطين لإعفاء اليهود من الخدمة العسكرية ويكرسوا كل جهودهم للنشاط الاستعماري في وقت لم يكن للمسلمين والمسيحيين خيار في تحمل أعباء تلك الخدمة العسكرية البغيضة .^(٥٦)

وإزاء الشعور بالخطر الصهيوني ، استمرت الفئات الوطنية والحملات الصحفية في المطالبة من السلطات باتخاذ موقف حاسم لمنع الخطر قبل وقوعه ، فطلب مبعوث القدس في مجلس المبعوثان العثماني في التشديد على فعالية إجراءات منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، فأعادت الحكومة العثمانية العمل بالقيود التي فرضت في نوفمبر ١٩٠٠ م .^(٥٧) وقام بعض الوطنيين بإنشاء معهدين هما معهد الدستورية والروضة لخلق وعي قومي عن طريق نشر الثقافة القومية لهاربة الصهيونية^(٥٨) كما استمرت البرقيات الاحتجاجية وعرائض الاحتجاج والاستنكار وإرسال الوفود وكلها تطالب بوقف الهجرة ومنع بيع الأراضي لليهود ، وتتهم الصهيونية بالعمل على حرمان السكان الأصليين من أراضيهم . وحثت البرقيات المبعوثين العرب على الحصول على تأكيد من وزير الداخلية العثماني بوضع قيود مشددة لمنع دخول اليهود إلى فلسطين وتمليك الأرض لهم .^(٥٩)

وواصلت الصحف العربية حملاتها على الذين يبيعون أراضيهم للمهاجرين الصهاينة ، ففي شهر أيار (مايو) ١٩١٠م هاجمت الصحف العربية آل سرسق لاعتزامهم بيع الأراضي في قريتي فولة وعفولة لليهود . وفي صيف عام ١٩١٠م كانت عدة صحف عربية نافذة قد بدأت تنبئ الحملة المتواصلة لبيع الأراضي العربية للمسؤولين الصهاينة بينما صحيفة المقتبس الدمشقية

وصحف المفيد والحقيقة والرأي العام البيروتية . كما كونت جميع الصحف جبهة واحدة ضد الصهيونية فكثبت مقالات كثيرة ضد الصهيونية ، كما كشفت أيضاً أساليب ووسائل اليهود ، كرشوة الحكام العثمانيين وكبار موظفي الباب العالي بقصد تسهيل نقل ملكية الأراضي العربية في فلسطين إلى اليهود .^(٦٠)

وكانت جريدة المقتبس قد حثت مجلس المبعوثان ليقف بحزم في وجه الهجرة اليهودية إلى فلسطين والتي نشطت بعد إعلان الدستور ، وأنحت بالأكمة على الأمة التي تسهل للحركة الصهيونية الوصول إلى أهدافها ، ثم دعت المبعوثين العرب لاستيضاح الحكومة عن أسباب توسع حركة الاستيطان اليهودي ومطالبها بتخاذ كافة الإجراءات لإيقافها . وعزت نجاح الحركة الصهيونية إلى جهل الوطنيين وغفلتهم وفقرهم ، وإلى خيانة بعض الموظفين والسماصرة . وشرعت في نشر سلسلة من المقالات بعنوان الاستعمار الصهيوني نهبت فيها إلى الأضرار التي لحقت بالبلاد من جراء النشاط الصهيوني في فلسطين . وذهبت الجريدة إلى أبعد من ذلك فاتهمت الحكومة العثمانية بإزالة العقبات التي كانت قائمة في طريق الاستيطان اليهودي في عهد السلطان عبد الحميد .^(٦١)

كما نشرت جريدة المقتبس خطاباً مفتوحاً من شكري العسلي قائمقام الناصرة إلى سامي باشا الفاروقي قائد الحملة الحورانية في أواخر عام ١٩١٠م ، أوضحت فيه استيلاء الحركة الصهيونية على أجزاء كبيرة من أفضية طبريا وصفد ويافا والقدس وحيفا بأسماء الرعايا العثمانيين وبواسطة السماصرة الذين يعدون أنفسهم من الأعيان . ولفتت الانتباه إلى أن الحركة الصهيونية لها علمها ويريدوا الخاص وتعمل على شروعاتها في مخططاتها السياسية وأهابت بالنواب والحكومة أن تضع حداً للأطماع الصهيونية قبل أن تصبح فلسطين ملكاً لليهود . ومما جاء في هذه الرسالة ما يلي : « ... وعليه فإن اليهود قد سعوا ومازالوا يسعون إلى شراء القرى والأراضي والديساكر في أمبراطوريتنا البهية . إن اليهود لا يختلطون مع العثمانيين إطلاقاً كما أنهم لا يشتركون منهم ، ولليهود بنك خاص هو بنك الأنجلو بلستين الذي يقرضهم النقود بفائدة ١٪ سنوياً . لقد أسسوا في كل قرية مستعمرة لجنة مركزية ومدرسة ، ويقف على رأس كل مدينة ومستوطنة مدير ومدير متدرب ، ولليهود علم أزرق في وسطه نجمة داود ، تحتها كلمة عبرية تعني « صهيون » كناية عن القدس التي تصفها التوراة « ابنة صهيون » وهم يرفعون هذا العلم بدلاً من العلم العثماني . وفي مهرجاناتهم واجتماعاتهم ينشدون النشيد الوطني الصهيوني ، وعندما يأتي اليهود إلى دوائر الحكومة يقولون أنهم مسجلون في السجلات العثمانية وهذا كذب وخداع . ولكن عندما يجلبون

أمام محكمة عثمانية ينكشف مكرهم لأنهم يرجعون بسرعة إلى ممثلهم الأجانب (أي القناصل) لحمايةهم وترثتهم من جريمتهم ولإنهاء أعمالهم وشؤونهم دون معرفة الحكومة إطلاقاً ... وعندما تدخل بيوتهم ترى كيف يملأونها بالأسلحة وبنادق المرتين . ولهم خدمات بريدية خاصة وما شابه » .^(٦٧)

ولعل رسالة شكري العسلي خير ما يدل على النظرة آنذاك للحركة الصهيونية فقد وضعت النقاط على الحروف وأزاحت الستار عن خفايا الصهيونية وكانت خير عون للوطنيين للمضي قدماً في مكافحة الصهيونية . ومن الجدير بالذكر أن شكري العسلي قائمقام الناصرة بذل أفضل مساعيه لمنع إتمام بيع أراضي مرج بن عامر التي تملكها أسرة سرسق اللبنانية ، ولكن تم بيعها نهائياً في مطلع عام ١٩١١ م . وعندئذ أثارت الصحف العربية ضجة حول بيع هذه الصفقة والتي تبلغ مساحتها ٢٤٠٠ فدان من أجود أراضي فلسطين .^(٦٨)

ومن الظواهر المثيرة للانتباه أن منشورات وزعت باليد في يافا تدعو إلى مناهضة الصهيونية ، كما بدت تظهر في الصحف الأسبوعية الهزلية رسوم كاريكاتيرية لليهود هذا فضلاً عما ساهم به نجيب نصار في الكتابة بالصحف العربية مندداً بالصهيونية ، وداعياً الزعماء العرب للكتابة في الموضوع نفسه .^(٦٩)

وسجل عام ١٩١١ م تصاعداً في الموقف المعادي للصهيونية ، فقد قام نجيب نصار بجمع مقالاته التي كان ينشرها في أعداد جريدة الكرمل ونشرها في كتاب بعنوان « الصهيونية - تاريخها - غرضها - أهميتها » وتعرض نصار في مجموعة مقالاته بالبحث والتعليق لمراحل الحركة الصهيونية ، وفضح الأسس العنصرية التي قامت عليها كما سخر من أسلوبها في التويه والتضليل وحمل أيضاً على الذين يمتنون أنفسهم بالانتفاع من الصهيونيين في تعميد البلاد وانهيهم بالجهل والسطحية ، وأن الصهيونية قد غررت بهم ، كما هاجم الحكومة أيضاً لعدم اهتمامها بمنع الهجرة اليهودية ، أشار إلى رفع اليهود لعلمهم أثناء احتفالاتهم وبيعهم الطوابع اليهودية تحت سمع الحكومة وبصرها .^(٧٠)

وعلى صعيد العمل السياسي في مجلس المبعوثان فقد عرض النواب العرب مناقشة قضية الصهيونية ، وقاد شكري العسلي نائب دمشق وروحي الخالدي نائب القدس حملة مركزة ضد الحركة الصهيونية خلال جلسة مناقشة الميزانية فقوقعت كلمة الخالدي من أحد المبعوثين ، واحتج بأن الجلسة يفترض أن تكون للدراسة الموازنة وليس لدراسة التوراة . ومن ذلك فإن

المبعوثين العرب قد تلقوا من الحكومة تعهداً أدبياً يفيد بأن الحكومة ستنظر بعناية بتنفيذ القيود المفروضة على الهجرة.^(٦٦)

وكان لخطابات العسلي والخالدي أثر في إثارة المشاعر المناوئة لليهود بين الفلاحين في القرى ولما شعر العرب بأن موقف السلطة متذبذب وقراراتها لا تنفذ تماماً ، جاعوا يفكرون في حل آخر وأسلوب أمثل يدافعون به عن أنفسهم فقرروا إنشاء الحزب الوطني في يافا وكان من أبرز مؤسسيه الشيخ سلمان التاجي الفاروقي ، وكان هدف الحزب هو الحيلولة دون تقدم الحركة الصهيونية في فلسطين بمنع التعامل مع المؤسسات الصهيونية وحظر بيع الأراضي لها . وأهاب بالأمة أن تستيقظ من غفلتها ، وطالب الحكومة بما يلي :

أولاً : منع الهجرة واستخدام قانون الجواز الأحمر .

ثانياً : منع بيع الأراضي .

ثالثاً : إجراء إحصاء لليهود وإعطاء العثمانيين منهم بطاقات هوية واضحة .

رابعاً : فرض رقابة حكومية وبرنامج الدراسة الرسمي على مدارسهم ..

خامساً : حظر الاجتماعات الخاصة باليهود إلا بعد الحصول على ترخيص رسمي من الحكومة .

سادساً : إحصاء أملاك وأراضي المستعمرات واستيفاء الأموال الأميرية منهم.^(٦٧)

إن هذا البرنامج السياسي يستهدف ولأول مرة ، لا منع الهجرة وبيع الأراضي فحسب بل يستهدف إخضاع المهاجرين الصهيونيين أفراداً وأملاكاً لأنظمة الدولة وفرز اليهود العثمانيين من غيرهم . كما طالب بمقاطعة جميع المؤسسات الصهيونية واعتبر التعامل مع الصهيونيين جريمة.^(٦٨)

وإثر عودة روجي الخالدي نائب القدس إلى مدينته في صيد عام ١٩١١م حث الموظفين في المصرفية على العمل بمنع انتقال أراضي لليهود ، وفي ديسمبر ١٩١١م شرعت شورى الدولة في البحث لسن قانون يمنع اليهود الأجانب من الهجرة إلى بلاد الشام بما فيها فلسطين تنفيذاً للوعد الذي قطعه الحكومة على نفسها للمبعوثين العرب.^(٦٩)

وفي عام ١٩١٢م تفجرت في فلسطين حملة معارضة وانتقاد ضد السلطات المحلية والحكومة المركزية الائتلافية ، وفقد الفلسطينيون ثقتهم بأي حكومة مهما كان لونها ، وذلك إثر قديم

المتصرف الجديد مهدي بيك إلى القدس الذي أرسل من قبل الاتحاديين والذي أبدى تعاطفاً كبيراً مع اليهود في فلسطين ، وزار بعض المستعمرات والجمعيات الإسرائيلية ، وخطب في اليهود وطمانهم حول موقف الحكومة منهم . كما أبدى إعجابه بما حققه الصهيونيون واعتبرهم كنموذج مثالي وقُدوة للقرى العربية وأساتذة لأهاليها ، وطلب إليهم أن ينشئوا دائرة بلدية منظمة وسمح لهم باختيار حراس منهم ووعدهم بمدعمهم بالسلاح ، وربط مستعمراتهم بالتليفونات مع مراكز الحكومة حتى تخف قوات الحكومة لنجدتهم في حالة وقوع أي حادث ... وأشار المتصرف في نهاية خطابه بأن يذلل كل ما في وسعه لمنحهم جميع التلال الرملية حتى شاطئ البحر ليقوموا بغرسها بأشجار الكالبيتوس على حساب البلدية الجديدة .^(٧٠)

أثار الخطاب موجة انتقادي في صحف فلسطين ، فتناولت صحف فلسطين والكرمل الخطاب بالتفنيد ودحض أفكاره وآرائه وطالبت الصحف الحكومة أن تعيد النظر في موظفيها وتتهم بإسناد الوظائف إلى موظفين أكفأ معتدلين وليسوا مروجي آمال جمعيات سياسية أجنبية . ولعل هذا الموقف دفع الرأي العام في فلسطين إلى اليأس من أي حكومة عثمانية مهما كان لونها .^(٧١) ولا شك أن موقف الاتحاديين هذا المؤيد للصهيونيين نابع من الروابط القومية بينهم من خلال الحركة الماسونية التي جمعت بينهما قبل استلام الاتحاديين الحكم ، ولقد هاجم الرأي العام في الاستانة علناً في المساجد والصحافة ودوائر الحكومة الاتحاديين والصهيونيين والماسونيين .^(٧٢)

ولم تقتصر جماعة الصحافة في فلسطين على التنبيه للخطر الصهيوني أو مقاومة البيع بل عملت على توعية أهل البلاد وذلك في محاربة الصهيونية بنفس السلاح الذي تحاربنا هي به عن طريق نشر التعليم ، وحث الأهالي على تأليف الجمعيات والشركات الزراعية والاقتصادية التي تنهض بأحوال الزراعة وتحسين أساليب الفلاحة واستثمار إمكانيات البلد والمحافظة على الصناعة التقليدية والعمل على تطويرها .^(٧٣)

وواصلت الصحف العربية حملتها على الصهيونية دون لين أو هوادة ، فنشر محمد صلاح الصمادي الحسيني في القدس مقالاً في صحيفة الرأي العام عن أخطار الصهيونية العشرة أوضح فيه أن الصهيونية ترمي في النهاية إلى السيطرة على البلاد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً .^(٧٤) كما حث بعض الصحف الفلسطينية إلى الاعتماد على أنفسهم لمواجهة الخطر الصهيوني ، خاصة بعد أن أدرك العرب حقيقة تواطؤ الحكومات العثمانية سواء الاتحادية منها أم الائتلافية بسبب إفلاس خزينتها وأمل المسؤولين في سد العجز من أموال الحركة الصهيونية ، وهاجمت جريدة فلسطين

الحكومة الائتلافية ووصفت الأوامر العديدة التي صدرت بمنع الهجرة اليهودية بأنها كلها حبر على ورق ، وأنها لم تحقق الأغراض التي سنت من أجلها بل استعملها الموظفون لكسب الأموال. (٧٦)

واحتجت جريدة فلسطين ثانية على القدس عندما بيعت أراضي كفرورية وقرية أبو شرشة لليهود ، وحذرت بأنه إذا استمر هذا الحال فإن الصهيونيين سيستولون على فلسطين قرية قرية . ثم ترحيل الدولة عنها كما لفتت انتباه المتصرف إلى أن اليهود يتعاملون فيما بينهم بالنقود الصهيونية والأوراق المطبوعة ولهم أعلام تخفق على أبنيتهم ويتعلمون الفنون العسكرية تحت ستار الألعاب الرياضية وأنه لا فرق بينهم وبين أي حكومة رسمية مستقلة. (٧٧)

واهتمت الصحف المعادية للحركة الصهيونية (الكرمل ، فلسطين ، المقتبس) بمسألة الأراضي المدورة التي لعبت دورها في العهد الدستوري ، فقاومت والمبعوثون العرب مشروع الأصفر مما جعل الحكومة المركزية تردد بين الأخذ به وصرف النظر عنه ، فاستمر المشروع معلقاً فترة طويلة ، ونشبت الحرب العالمية الأولى ولم ييت فيه . ويمكن القول أن مشروع الأصفر كان عاملاً في توحيد الجهد الفلسطيني في مواجهة الخطر الصهيوني فعندما لحت الحكومة في صيف عام ١٩١٣م إلى نيتها بالأخذ بالمشروع ، تنادى السكان العرب في لواء نابلس ففقدوا اجتماعاً كبيراً في نابلس في صيف العام التالي للمطالبة بصرف النظر نهائياً عن مشروع بيع الأراضي بالمرزاد العلني - مشروع الأصفر - وإعطائها بدل المثل بالتقسيم للمزارعين العرب الذين نزع ملكية الأراضي من أيديهم بوسائل استبدادية وغير مشروعة . واستجابت الحكومة للمفاوضة وتراجعت عن خطواتها. (٧٨)

وشهدت البلاد طيلة صيف عام ١٩١٣م حملة عامة من الاجتماعات الاحتجاجية ضد محاولات بيع أراضي الدولة الحكومية (الميري) في بيسان لليهود واشتدت النقمة الجماهيرية حتى أن مظاهرات قامت في نابلس سنة ١٩١٣م احتجاجاً على اعتزام السلطة بيع أراضي بيسان للمنظمات الصهيونية، (٧٩) وحرق الشعب الفلسطيني وخاصة الشباب حرشا من الأشجار التذكارية التي غرسها بعض رجالات الصهيونية عند زيارتهم لفلسطين في ذلك العام. (٨٠) كما قام الفلاحون بمهاجمة المستعمرات اليهودية في منطقة طبريا والخليل ويافا وقد ربط الصهيونيون ذلك بمحسد الفلاحين لهم إلا أنها كانت اعترافاً بأن حياة المستوطنات لم تكن آمنة ، وتعددت شكاوى اليهود لدى الباب العالي لحماية سكان المستوطنات ، وكانت أشهر هذه الحوادث هي

حادثة الاشتباكات بين أهالي قرية زرنوقا ومستعمرة ديران (رحبوت) في أواخر تموز (يوليو) ١٩١٣م ، والتي بدأت بحادث صغير بين بعض أهالي القرية وحراس المستوطنة اليهودية حول قطف بعض العنب من كروم المستوطنة واتسع الاشتباك ليشمل أهالي القريتين ، واستخدم السلاح ووقع بعض القتلى والجرحى من الطرفين وبدأت القضية تأخذ دوراً مهماً فاستغل الصهيونيون الحادث لتصوير أهالي البلاد بمظهر المتوحشين المتعصبين .^(٨١)

وتأسست في نفس العام « جمعية مكافحة الصهيونية » في نابلس ، وأقامت لها فروعاً أخرى في بعض المدن الفلسطينية ودعت هذه الجمعية إلى إقامة المظاهرات ضد بيع الحكومة للأراضي بالمراد العلني ، كما أرسلت برقيات احتجاج واقترحت أن تحفظ حقوق الفلاحين في أراضيهم التي اغتصبها الحكومة وذلك بأن يدفع الفلاح الديون المترتبة عليه بأقساط سنوية .^(٨٢) وهكذا قادت جمعية مكافحة الصهيونية الصراع ضد الصهيونية وعملت على نشر الوحدة بين العناصر العربية وتقديم مساعدات في الشؤون الاقتصادية والتجارية والزراعية وإرسال ممثلين عنها للمهتمين بالمسألة .^(٨٣)

واستمرت الصحافة العربية (الكرمل وفلسطين) في التنديد بالصهيونية وكشف نواياها وأخطارها وآثار ذلك استياء الحكومة العثمانية وعدم رضاها عن المعارضة العربية للصهيونية ، فكانت الحكومة كثيراً ما تعطل هذه الصحف بسبب هذه المقالات غير أن تعطيل الصحف العربية أثار شبهات العرب حول تحالف وتعاون الحركة الطورانية التركية والحركة الصهيونية ضد الحركة العربية المناهية بالاستقلال .^(٨٤)

وجرت محاولات التفاهم والاتفاق بين العرب والحركة الصهيونية ، فقد جرت اتصالات بين حزب اللامركزية وجمعية يبروت الإصلاحية والحركة الصهيونية سبقها مناظرات هامة جرت على صفحات جريدة الأهرام بهدف عقد تحالف عربي صهيوني بإيعاز من حزب الاتحاد والترقي كي يرفع القيود عن اليهود في فلسطين ولكن هذه الاتصالات التي دامت أكثر من عام لم تسفر عن نتيجة تذكر وتوقفت بنشوب الحرب العالمية الأولى . ولم تعلق الصحف الفلسطينية على هذا الموقف ، فلم تعر المناظرات المشار إليها أي اهتمام وسكتت عنها هذا فضلاً عن عدم وجود أعضاء فلسطينيين في قائمة العشرين عضواً الذين اجتمع بهم ممثل الحركة الصهيونية هوتشرغ .^(٨٥)

كما انعقد المؤتمر العربي الأول في باريس في يونيو ١٩١٣م ، وخرج بمجموعة قرارات ولم يشر فيها إلى منع الهجرة اليهودية والتدنيد بالصهيونية بالرغم من مطالبة عرب فلسطين ببحث هذه المسألة الصهيونية فأعربت صحف فلسطين عن استيائها من المؤتمر العربي في باريس واستنكرت تقصيره في اتخاذ موقف حازم من الصهيونية كما اتهمت المؤتمر بعدم شرعية تمثيله للعرب لأنه لم يتم انتخابه من قبل المجالس المحلية .^(٨٦)

وانتقدت الصحف الفلسطينية كذلك موقف الحكومة العثمانية الذي ألغى القيود المفروضة على الهجرة اليهودية طمعاً في الحصول على المال اليهودي في أوروبا وظل عرب فلسطين يرفضون محاولات التفاهم مع الحركة الصهيونية فقد كانوا يعتقدون أنها تريد ابتلاع فلسطين والاستقلال الإداري التام بها ، بل إنها قامت بتنفيذ مخططاتها واستولت على قسم من البلاد ، لذلك طالبوا الحكومة العثمانية بتلبية دعوة السكان لإيقاف الخطر الصهيوني قبل ضياع فلسطين .^(٨٧)

وفي غضون الأشهر التي سبقت الحرب العالمية الأولى كانت الحركة المناهضة للصهيونية في فلسطين قد بلغت ذروتها ، وظهرت دلائل جديدة على وجود معارضة منظمة للصهيونية . وكان جميع أولئك العرب الذين يتعاونون مع الصهيونية يتعرضون للنقد الشديد والشجب الأكيد كما أن الصحافة وقفت ضد الصهيونية بشكل لا لبس فيه ولعبت مكافحة الصهيونية دوراً بارزاً في الحملة الانتخابية لمعظم المرشحين الفلسطينيين للبرلمان العثماني ، وأدرك اليهود أن عرب فلسطين على استعداد تام لمحاربتهم بمختلف الوسائل في جميع أنحاء فلسطين .^(٨٨)

وفي منتصف عام ١٩١٤م تأسست في فلسطين مؤسسات وطنية وخيرية في القدس بقصد « الوقوف في وجه الأخطار الوشيكة التي تهدد أرض الوطن وإنقاذ البلاد من الدمار » والمؤسسات هي : الجمعية الخيرية الإسلامية ، جميع الإخاء والعفاف ، وشركة الاقتصاد الفلسطيني العربي وشركة التجارة الوطنية الاقتصادية وكانت جميع الجمعيات المذكور تنادي بالتوعية ونشر التعليم ومساندة الصناعات الوطنية . كما أسس الطلبة الفلسطينيون بالأزهر الشريف « جمعية مقاومة الصهيونية » وأسس طلبة ناهلس في بيروت جمعية « الشبيبة النابلسية » وتأسست جمعية « المنتدى الأدبي » في حيفا . وشاركت النساء العربيات الفلسطينيات في هذا المجال فأسسن جمعية « الإحسان العام » وجمعية « يقظة الفتاة العربية » وكانت كلتا الجمعيتين وطنية تتولى برعايتها الصناعات المحلية .^(٨٩)

ولعبت الصحافة العربية المعادية للصهيونية في الأشهر السبعة الأولى من عام ١٩١٤م دوراً حساساً وبارزاً في توعية الرأي العام والتمهيد للقيام بأعمال منظمة منسقة ضد الصهيونية وقد هاجمت الصحافة دون هوادة « موقف أولئك الأثرياء المتنفذين الذين تعميم مصالحهم الشخصية فلا يرون الخطر الصهيوني المهدق بهم ويؤثرون حاضراً ذهبياً على حساب مستقبل مظلم لأبنائهم ».^(٩٠) ووجهت جريدة الكرمل نداءً عاماً إلى الفلسطينيين حذرهم فيه من خطر الصهيونية المتمثل في احتلال فلسطين وطرد شعبها منها ، وحثهم على القيام بأعمال كثيرة منها : توجيه ضغط على الحكومة للعمل على حظر بيع الأراضي الأميرية للأجانب وتطوير الصناعات والمهن الوطنية وعدم التعامل مع الصهيونيين ومنع البيع إلى اليهود بالقوة ، ومحاولة منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، والمطالبة بفتح مدارس عربية وجعل اللغة العربية لغة التعليم وأخيراً حثت الشباب على ممارسة الأعمال الزراعية والتجارية والصناعية.^(٩١)

وكشف هذا النداء النقاب عن أن الفلسطينيين قد فقدوا الأمل أن تتخذ الحكومة أي إجراء ضد العدوان الصهيوني ومن ثم تحركوا نحو تنظيم أنفسهم والاعتقاد عليها . وعشية الحرب العالمية الأولى كان الفلسطينيون يفكرون بالانقضااض على الحكم التركي فانضم الكثيرون منهم إلى جمعيتي « العهد » و « الفتاة » اللتين كانتا تناضلان في سبيل استقلال العرب ووحدهن ذلك إيماناً من الفلسطينيين بأن الصهيونيين حلفاء الأتراك في وجه النهضة العربية . ولم يكن مما يثير الدهشة بالطبع أن يكون شباب فلسطين قد بدأوا التفكير باللجوء إلى العنف آخر الدواء ضد الصهيونية ، وذلك في وقت كانوا فيه يعملون أيضاً على القيام بثورة ضد الأتراك لتحقيق استقلال العرب.^(٩٢)

ولمآء هذا الشعور المعادي للصهيونية تصاعدت النقمة الشعبية نتيجة اتضاح المخاطر الصهيونية من جهة وإفدام السلطة المركزية على تقديم تنازلات من جهة أخرى ، فأدى ذلك إلى تحول في الموقف الشعبي وذلك باللجوء إلى العنف فأصبح قتل المستوطنين اليهود أكثر تواتراً ولم يكن محصوراً بشمال فلسطين كما كانت الحالة فيما مضى تقريباً.^(٩٣) وقامت مظاهرات في مدينة القدس تعبر عن غضبتها على الصهيونية ، ورجعوا بالحجارة مؤسسات الصهيونية ومتاجرها.^(٩٤)

وتعود نقمة الشعب الفلسطيني على اليهود بسبب اعتداءات الآخرين على العرب هذا فضلاً عن عمليات الشراء وطرد الأهالي من الأراضي فقد تجاوز الصهيونيون حدودهم في القرى التي

اشتروها : واعتدوا على سكان القرى المجاورة وحاولوا إكراههم على الخروج من أرضهم وبيعها لهم . من ذلك ما حدث في قرية (لوييه) في قضاء طبريا وما حدث في إحدى القرى القريبة من القدس . يضاف إلى ذلك حوادث التعديات المختلفة التي يشنها سكان المستعمرات على أبناء القرى المجاورة مستغلين تساهل السلطات معهم وسماعها لهم بالتمسح .^(٩٥) وجرّت اشتباكات بين أهالي قرية غابة الجركس وبين أهالي الخضرية من اليهود بسبب اعتداء اليهود على أرض تخص العرب فوصفت جريدة مرآة الغرب هذا الاعتداء بقولها « هذا ما توصل إليه المستعمرون الإسرائيليون الذين كانوا قبلاً يوصفون بالمسالمة والجانبة ، أصبحوا الآن وقد اشتد ساعدتهم فاخذوا يعتدون على أهالي القرية موصوفين بالشدة والبأس . فماذا يكون نصيب سائر البلاد معهم بعد أن يزداد عددهم ويملكون مواردها الاقتصادية ويقضوا على أجنة الثورة . »^(٩٦) كما لمس الأهالي العرب بأن اليهود الأجانب الذين حلوا بفلسطين لهم كل مقومات الحكم الذاتي في مستعمراتهم وإحيائهم ، فلهم نقودهم ويريدهم وعملهم ونشيدهم ولغتهم العبرية واحتفالاتهم القومية الخ .^(٩٧)

ولما اشتدت وطأة الحركة الصهيونية على عرب فلسطين ، استغاث الأعيان في القدس وبافا وغزة في ابريل ١٩١٤م بالمتنّدی الأدبي في الاستانة وناشدوه العمل بحزم ضد التيار الصهيوني الجارف الذي هدد المواد الاقتصادية للفلاح والتاجر ، ولفتوا الانتباه إلى نفوذ الحركة الصهيونية في دوائر الحكم في المتصرفية ، وأن حكومة إسرائيلية تأسست بينهم ، تقاضي وتجازي وأوضحوا أنه إذا كانت الحاجة إلى الإصلاح شديدة فإن الحاجة إلى دفع الخطر الصهيوني أشد ، ثم ناشدوا المتنّدی باسم الوطنية أن يستعمل كل ما لديه من الوسائل المشروعة لينبه الحكومة إلى الخطر الصهيوني .^(٩٨)

كما اتخذ المجلس الإداري في نابلس قراراً يقضي بعدم البيع للصهيونيين في اللواء ، فحاولت الحركة الصهيونية السعي لفصل ارتباط عدد من قرى اللواء وإلحاقها بقضاء بافا بدعوى قربها ليسهل عليهم شراء الأرض فيها ، واشتدت مناوئة الصهيونية فوزعت منشورات في القدس تحذر من الخطر الصهيوني ، وتضمنت نداء حاراً إلى أبناء البلاد ثم طلبت منهم ما يلي :

١ - مطالبة الحكومة بإلحاح لصد تيار الهجرة الجارف .

٢ - السعي لتقوية التجارة الوطنية والصناعية .

٣ - عدم بيع الأراضي لليهود .

٤ - النظر في كل الوسائل التي تدعو إلى عدم هجرة العرب من فلسطين .^(٩٩)

وهكذا واصلت الصحف حملتها على الصهيونية بالرغم من تعطيل بعضها دون لين أو هوادة ، حتى بداية الحرب العالمية الأولى في آب (أغسطس) ١٩١٤ م . ومع ذلك فإن نشوب الحرب لم يمنع العرب من التفكير فأتخذوا إجراء ما ضد الصهيونيين ، إذ يستفاد مما قاله بيرلمان أو الأوراق والمستندات التي وضع الأتراك أيديهم عليها عام ١٩١٥ م تكشف عن وجود خطة للتخلص من الصهيونية تقضي بإضرام النار في المستعمرات اليهودية وطردهم السكان اليهود . وجاء في تلك الأوراق أن الصهيونيين هم ألد أعداء العرب وهذا هو السبب الذي من أجله كان الأتراك على استعداد تام لمساعدتهم .^(١٠٠)

وبنشوب الحرب العالمية الأولى ، توقف النشاط ضد الحركة الصهيونية لانتقال مركز نشاطها إلى مجالات عالمية أوسع من جهة ، ولأن الشرق العربي نفسه قد شغلته أحداث الحرب بعد أن أصبح أحد ميادينها العسكرية من جهة أخرى ، ولتغير موقف تركيا نفسه من اليهود إبان الحرب أيضاً ، فقد ألغت تركيا امتيازات نظام الحماية التي كان المواطنون الأجانب ومن ضمنهم المهاجرون اليهود يتمتعون بها .^(١٠١) واعتبرت تركيا يهود روسيا مواطنين دولة معادية كانت في حالة حرب مع تركيا ، فاضطر حوالي ٣٠ ألف يهودي إلى النزوح من فلسطين وبذلك وصل عدد السكان اليهود فيها في نهاية الحرب إلى نحو ٥٦ ألف نسمة بدلاً من ٨٥ ألف عند بدايتها . ونال اليهود أيضاً في فلسطين نصيبهم من سياسة الاضطهاد^(١٠٢) والتي انتهجها جمال باشا في سوريا الكبرى ، فقامت السلطات العثمانية بحظر النشاط الصهيوني في البلد ، وأمرت بحل كل المنظمات الصهيونية العاملة فيه . وقام جمال باشا بنفي عدد من الزعماء الصهيونيين البارزين من فلسطين وكان من بينهم دافيد بن غوريون واسحق بن زفيه وغيرهم . كما اشتدت الإجراءات القمعية ضد اليهود في أواخر عام ١٩١٧ م عندما اكتشفت السلطات العثمانية شبكة تجسس (نيلي) وتعمل بين يهود فلسطين لصالح بريطانيا ونتيجة لذلك فرض الأتراك حصاراً حول بعض المستوطنات اليهودية ، ونكلت بسكانها واعتقلت أعداداً كبيرة منهم ، وأعدمت بعض قادة شبكة التجسس (نيلي) وزاد من حدة الإجراءات التي اتخذت ضد سكان المستوطنات اليهود الاضطراب الذي ساد في صفوف القوات التركية مع بدء الهجوم البريطاني من سيناء على جنوب فلسطين .^(١٠٣)

أدى الغاء تلك الامتيازات إلى خروج تظاهرات تأييد عربية في يافا والقدس وقام المتظاهرون في إحداها بوضع قبة من ذلك النوع الذي يستعمله المستوطنون الصهيونيون على رأس كلب ورجوه بالحجارة وهم ينشدون « الحماية مثل الصرماية » (الحذاء) .^(١٠٤)

كما أبدى عرب فلسطين تأييدهم وترحيبهم بالإجراءات القمعية ضد اليهود ، ولكنهم مع ذلك كانوا غير راضين عن موقف السلطات منهم من تنفيذ مخططاتهم السرية ضد اليهود . وربما كانت السلطات العثمانية آنذاك معذورة لأنها مشغولة في ميادين الحرب وتخشى قيام حرب أهلية في منطقة العرب قد تؤثر عليها ولربما كان بعض الساسة العثمانيين متعاطفين معهم .

وهكذا كانت نظرة عرب فلسطين للحركة الصهيونية نظرة واقعية ، فقد أحسوا بخطر الغزو الصهيوني الذي يهددهم وكانوا يخشون من قيام دولة صهيونية في فلسطين من خلال تحركات الصهيونية فأدركوا أن المعركة مع الصهيونية هي معركة بقاء أو فناء وأن نجاح الحركة الصهيونية يعني أن الصهيونيين سيمتلكون البلاد ونصبح نحن فيها غرباء وكان التخوف الشعبي يذهب أبعد من ذلك وكأنه يتنبأ بالمستقبل ، ويخشى من المصير الأسود الذي سيلقيه الفلسطينيون إذا لم ينهضوا ويخلصوا لانقاذهم .

ولا شك أن الحملات والنشاطات التي قام بها الفلسطينيون كانت تستهدف تعبئة البلاد ضد الحركة الصهيونية (جمعيات ، برقيات ، مظاهرات ، شركات) وممارسة ضغط على السلطات من أجل اتخاذ إجراءات تحول دون تمكن الحركة الصهيونية من التوسع والتغلغل وتعبئة الرأي العام فلسطينياً وعربياً ضد السماسرة وباتعي الأراضي وكبار الملاك . وعلى ذلك فإن مقاومة عرب فلسطين للصهيونية كانت سابقة على وعد بلفور . وهذا يدل على وعي وإدراك عظيمين لأبعاد الخطر الصهيوني إذا ظهر مع تبلور الصهيونية السياسية عام ١٩٨٧م وبدأ الصراع العربي الصهيوني منذ ذلك الوقت ، ولكنه ظل ضيقاً ومحدوداً حتى إعلان وعد بلفور ، ثم زاد تأججاً بعد وضع سياسة الوطن القومي موضع التطبيق خلال الانتداب البريطاني على فلسطين ، وقد حدد هذا كله طبيعة الصراع بين الطرفين ، وأوضح التناقض بين الحركة الوطنية العربية والحركة الصهيونية . ولا شك أن خلفية الصراع وجذوره تعود إلى عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية فض الناحية السياسية تسعى الحركة الصهيونية إلى السيطرة والاستعمار والاحتلال شأنها في ذلك شأن الدول الاستعمارية الكبرى لما بينهما من ترابط في المصير والوجود والمصالح المشتركة ومن الناحية الاجتماعية فإن المجتمع الفلسطيني

يعتبر مجتمعاً زراعياً في الدرجة الأولى ومجتمع كهذا لا بد أن يكون محافظاً ، وأن يكون أهله ملتصقين بالأرض كما أن مثل هذا المجتمع ينظر بريبة إلى الغريب دائماً لما بينهما من تفاوت واختلاف في العادات والتقاليد . أما من الناحية الاقتصادية فقد شعرت فئة الفلاحين والعمال والحرفيين بأن الصهيونية قد قدمت تحدياً لكل هؤلاء بما في صفوفها من حرفيين وخريجي جامعات وعمال مهنيين ورؤوس أموال وخبرة يهودية عالمية في كل المجالات وأنه بالتالي ستسيطر الصناعة اليهودية على الصناعة العربية وتعمل على عرقلتها ، ولذا كانت المعارضة العربية للصهيونية معارضة عنيفة وشرسة ، وتطورت إلى معركة بقاء أو فناء استمرت حتى بعد قيام الحرب العالمية الأولى خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين إلا أن الظروف الدولية والعربية والمحلية كانت أقوى من طاقات الفلسطينيين وإمكاناتهم للحيلولة دون تحقيق نصر حاسم للصهيونية بتحقيق حلمهم وإنشاء دولتهم عام ١٩٤٨ م ■



● الموامش ●

- (١) محمد أديب العامري : عروبة فلسطين في التاريخ ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٦ ، ٤١ ، ٧٤ .
- (٢) منذ أن فتح المسلمون فلسطين ، سمح الخليفة عمر بن الخطاب لليهود بالعودة إلى القدس ومنحهم قطعة أرض على جبل الزيتون لإقامة الصلوات ، كما سمح لهم بعد ذلك السلطان صلاح الدين الأيوبي بالعودة بعد الاضطهاد والإبادة التي لاقوها أثناء الحروب الصليبية ، وأخيراً سمح لهم العثمانيون بالعودة إلى فلسطين بعد طردهم من الأندلس . انظر نبلاء عز الدين : العالم العربي ، القاهرة ١٩٦٣ م ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .
- (٣) زاهية قلورة : تاريخ العرب الحديث ، بيروت ١٩٧٢ م ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .
- (٤) نجيب صدقه : قضية فلسطين ، بيروت ١٩٤٦ م ، ص ٧ .
- (٥) أنيس صايغ : المهاجرون وقضية فلسطين ، بيروت ١٩٦٦ م ، ص ٤٣ .
- (٦) أمين محمود عبد الله : نشأة النزعة الاستطانية في الفكر اليهودي الغربي خلال القرن التاسع عشر « مجلة العلوم الاجتماعية ، جامعة الكويت ، العدد الثاني ، يوليو ١٩٧٩ م ، ص ٤٩ .
- (٧) صبري حريس : تاريخ الصهيونية ، الجزء الأول ، بيروت ١٩٧٧ م ، ص ٦٠ - ٦٢ .
- (٨) اختلفت التقديرات حول عدد اليهود قبيل وصول طلائع المهاجرين الجدد إليها ، ويستفاد من إحصاء جرى للسكان اليهود عام ١٨٣٩ م فذكر أن عددهم نحو ٦٥٠٠ نسمة نصفهم في القدس وارتفع هذا الرقم في السنة التي تليها ليصل إلى ١٠,٥٠٠ نسمة ثم ارتفع ليصل إلى ١٤,٥٠٠ نسمة في

عام ١٨٥٦م ، ووصل في نهاية عام ١٨٨١م إلى ٢٢,٣٥٠ نسمة وكان أكثر من نصف أولئك السكان يعيشون في القدس بينما يعيش الباقون في صفد وطبريا وعكا وحيفا وتابلس والخليل وفي قرى شفا عمرو والبقية انظر صبري حريس المصدر السابق ص ٥٦ - ٦٠ . بينما يذكر التقرير الإحصائي للحكومة فلسطين ١٩٤١م بأن عدد اليهود في عام ١٨٣٩م لم يتجاوز ٦٠٠٠ نسمة في حين بلغ عدد العرب ٣٠٠,٠٠٠ نسمة أي أن نسبة اليهود لم تتعدى ٢٪ ولم يتجاوز عدد اليهود في عام ١٨٨٠م عشرين ألفاً .

انظر Statistical Abstract of Palestine 1914 P. 18

(٩) محمد بدیع شریف وآخرون : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(١٠) تقرير اللجنة التي عينها المندوب السامي لفلسطين للتحقيق في الاضطرابات التي وقعت في يافا عام ١٩٢٩م ، ص ٦٠ - ٦٢ .

(١١) عادل غنيم : « موقف فلسطين من اليهود والصهيونية من الحرب العالمية الأولى حتى اضطرابات البراق ١٩٢٩م . » مجلة الشرق الأوسط ، العدد الأول ، القاهرة ١٩٧٤م ، ص ٢١٤ .

(١٢) Ben Gurion, David : The Jews in their land (London 1966) PP. 228-237.

(١٣) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ١٨٨٢ - ١٩٤٨م بيروت ١٩٧٤م ، ص ٨٦ وانظر كذلك Ben Gurion, D. OP. CIT. P. 320

(١٤) مانويل فرانك أ : بين أمريكا وفلسطين ، ترجمة يوسف حنا ، منشورات دائرة الثقافة وزارة الثقافة والإعلام ، عمان ١٩٦٧م ، ص ١٢-١٣ .

(١٥) أنيس صايغ . المهاجرون وقضية فلسطين ، ص ٤٣-٤٤ .

(١٦) مانويل ، فرانك أ : بين أمريكا وفلسطين ، ص ١٠ .

(١٧) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ٧٨ .

(١٨) مازن البندك وخيرية قاسمية : أطلس الصراع العربي الصهيوني ، بيروت ١٩٧٨م ، ص ٧ .

(١٩) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ - ١٩١٨م ، بيروت ١٩٧٣م ، ص ٣٢ .

(٢٠) المصدر السابق .

(٢١) الأرض الفلسطينية بين الشرعية والأغصاب ، منشورات اتحاد الحقوقيين الفلسطينيين ، الكويت ١٩٧٥م ، ص ٢٣ .

(٢٢) كامل محمود خله : فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٣٩م ، بيروت ١٩٧٩م ، ص ٧ .

(٢٣) عبد العزيز عوض : « الحركة العربية في متصرفية القدس » مجلة الشرق الأوسط ، القاهرة العدد الأول يناير ١٩٧٤م ، ص ١٤٥ .

(٢٤) ناجي علوش : المصدر السابق ص ٨٩ .

(٢٥) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، بيروت ١٩٧٠م ص ٤٩ .

- (٢٦) عبد العزيز عوض : « الحركة العربية في متصرفية القدس » : مجلة الشرق الأوسط ص ١٤٥ .
- (٢٧) كامل خله : المصدر السابق ص ٧ .
- (٢٨) عبد الوهاب الكيالي : المصدر السابق ص ٤٩ .
- (٢٩) مجاهد علي شراب : « كفاح ونضال الشعب العربي الفلسطيني منذ الحرب العالمية الأولى » دراسة تاريخية : جريدة الوطن الكويتية ، ١٠/٨/١٩٧٦ م .
- (٣٠) عبد الوهاب الكيالي : المصدر السابق ، ص ٥٠ .
- (٣١) Mandel, Neville : Turks, Arabs add Jewish Immigration into Palestine (London 1955) P. 214
- (٣٢) Mandel, Neville : OP. CIT., P. 214
- (٣٣) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ٣٤ .
- (٣٤) المتقطف ، ابريل ١٩٩٨ م ، مجلد ٢٢ ، ص ٣١ . اقتباساً من عبد العزيز عوض ، مصدر سابق ، ص ١٤٦ .
- (٣٥) المنار ، مجلد ١ ، ج ٦ ، ص ١٠٨ .
- (٣٦) مجلة المنار ، مجلد ٤ ، ج ٢١ ، ص ٨٠١-٨٠٩ ، نقلاً عن خيرية قاسمية ، المصدر السابق .
- (٣٧) أسعد رزوق : إسرائيل الكبرى . دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني ، بيروت ١٩٦٨ م ، ص ١٤٩-١٥٠ .
- (٣٨) المصدر السابق .
- (٣٩) كان نجيب عازوري يعمل في الإدارة التركية في القدس قبل أن يلجأ إلى باريس ليؤسس عصبة الوطن العربي ، والتي بنص برنامجها على تكوين امبراطورية عربية تمتد من دجلة والفرات إلى قناة السويس ومن البحر المتوسط إلى البحر العربي ويكون أسلوب الحكم فيها دستورياً مبنياً على المساواة لكل المواطنين أمام القانون . انظر خيرية قاسمية ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .
- (٤٠) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ٣٧ .
- (٤١) حسان حلاق : « موقف الدولة العثمانية من النشاط الصهيوني الدولي » ١٨٩٧ - ١٩٠٤ م ، مجلة شؤون فلسطينية ، العدد ٧٤ يناير ١٩٧٨ م ، ص ١٦٢ .
- (٤٢) Mandel, Neville : OP. CIT., P. 300
- (٤٣) فايز صايغ : الاستعمار اليهودي في فلسطين ، بيروت ١٩٧٣ م ، ص ٩ ، ١٠ .
- (٤٤) ناجي علوش : المصدر السابق ، ص ٩٥ .
- (٤٥) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الجديد ، ص ٩٦ .
- (٤٦) في عام ١٩٠٨ م أجبرت (ثورة تركيا الفتاة) السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور وإجراء انتخابات للهيئة التشريعية (المبعوثان) وقد نص الدستور العثماني على إطلاق الحريات وحق إصدار الصحف ووجوب إجراء انتخابات للمجلس التشريعي . انظر الكيالي ص ٥٢ .
- (٤٧) Mandel, Neville : OP. CIT., P. 92
- (٤٨) ناجي علوش المصدر السابق ، ص ٩٥ .

- (٤٩) خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ٦٥ .
- (٥٠) Mandel Neville : OP. CIT., PP. 93-94
- (٥١) خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ٦٧ .
- (٥٢) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، ص ٤٧ .
- (٥٣) الأهرام ، ١٠/٧/١٩٠٩م . وانظر كذلك الأرض الفلسطينية بين الشرعية والاعتصاب ، ص ٢٨ .
- (٥٤) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ٩٨ .
- (٥٥) عبد العزيز عوض : المرجع السابق ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .
- (٥٦) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٦٠ .
- (٥٧) Mandel, Neville : OP. CIT., P. 96
- (٥٨) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ص ٤٦ .
- (٥٩) Mandel, Neville : OP. CIT., P. 95
- (٦٠) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ٧٢ .
- (٦١) أنظر جريدة المتنبس مارس ١٩١٠م ، ١٥ مايو ١٩١٠م ، ٤ ، ٦ ، ٨ سبتمبر ١٩١٠م ، ٢٠ نوفمبر ١٩١٠م نقلاً عن عبد العزيز عوض ص ١٥٠ .
- (٦٢) Mandel. Neville : Turks, Arabs and Jewish Immigration into Palestine PP. : 90 - 99
- (٦٣) Mandel, Neville : OP. CIT., P. 95
- (٦٤) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ٩٩ - ١٠٠ .
- (٦٥) عبد العزيز عوض : المصدر السابق ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .
- (٦٦) Mandel, Neville : OP. CIT., PP. 97 - 98
- (٦٧) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٦٣ .
- (٦٨) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، ص ٤٧ - ٤٨ .
- (٦٩) عبد العزيز عوض : المصدر السابق ، ص ١٥٠ :
- (٧٠) خيرية قاسمية : المصدر السابق ، ص ١١٩ .
- (٧١) نفس المصدر : ص ١٢٠ - ١٢١ .
- (٧٢) المصدر السابق ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .
- (٧٣) انضمت صحيفة أخرى جديدة في النادي أنشئت في فبراير ١٩١٢ لصاحبها سعيد جارالله وابتعت خطأً سياسياً واضحاً هو مكافحة الصهيونية ، كما تركت معارضة الصهيونية آثارها على المؤلفات والآثار الأدبية مثل كتاب إسعاف الناشئين والساحرة اليهودي وكتاب معروف الأرنؤول وفاة صهيون ، انظر خيرية قاسمية ص ١٣٩ .
- (٧٤) الكرمل ١٩١٣/٧/١٩١٣م نقلاً عن خيرية قاسمية ص ١٣٦ .
- (٧٥) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ص ٦٦ وانظر Mandel, Neville : OP. CIT. P. 476
- (٧٦) جريدة فلسطين ، العدد ١٨٥ ، ١١/٢/١٩١٢م .
- (٧٧) عبد العزيز عوض : المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

In 1897, immediately after the Zionist Conference, a patriotic anti-Zionist movement began to appear as a reaction to the Jewish settlement. It took on the form of organized opposition to Zionism.

The mufti of Jerusalem, Mohammad Taher Al-Hussayni, was appointed head of the local authority with the aim of hindering the Jewish and Zionist settlements.

Newspaper articles in Arab Press presented an anti-Zionist opposition. The first reaction to the First Zionist Conference appeared in the "Muqattam" newspaper under an article dated 23rd, October, 1897 entitled "The Kingdom of Zion" in which the editor had exposed the aims and conspiracies of Zionism to establish 'a National Home' in Palestine.

In 'Al-Manar' magazine, Muhammad Rasheed Ridha wrote "A life of a nation after its death, the Jewish - Zionist Organization."

In 1904, Najeeb 'Azouri issued his historical communiqué entitled "Arab lands are for Arabs." In 1905 he wrote in Paris his book "Le Reveil de la Nation Arabe" in which he clarified the dangers of the Zionist expansion in Palestine.

In 1908, the Arab Press played an important part by producing some precautionary articles against Zionism. In the same year, Palestine remarked the issue of some famous newspapers as "Al-Asmaie" in Jaffa, "Jerusalem" and "Karmil"

In 7/10/1909 there appeared the first important document on the Palestinian attitude towards Jews and Zionism.

In the latter half of 1909, "Al-Ahram" newspaper launched a direct attack on the Zionist conspiracies. it should be borne in mind that the Arab newspapers maintained a violent campaign against those Arabs who sold their lands to Zionists especially "Al-Sarsaq" of Lebanon.

In Jaffa, the Arabs established the "Patriotic Party" with an aim of hindering the development of the Zionist Movement.

Against such anti-Zionist feelings, the public resentment escalation found no way better except violence versus Zionism. Such a bitter opposition continued even after the First World War during the British Mandate period on Palestine.

In 1948, Jews realized their dream of establishing a "National Home" in Palestine since the Arabs failed to accomplish peremptory triumph over Zionism due to some international and Arab circumstances. Not to Forget that the struggle is still in force ■

Prior to the first Jewish immigration to Palestine in 1882 some ordinary and individual incidents occurred due to the Jews' enthusiastic attitude towards the Ottoman presence in Palestine. There were anti-Jews riots in Palestine and Egypt. During the first three quarters of the 19th century no available evidence whatsoever came to indicate disturbances between Arabs and Jews except for Jewish complaints against the Ottoman authority which were reported by British Consuls.

Almost in 1875 a great influx of Jewish immigrants into Palestine arrived. As a result, the number of Jews increased to reach 50,000 Jews establishing 19 settlements. The U.S. Consul in Palestine reported to his Secretary for Foreign Affairs that such continuous migration of Jews to Palestine would tip the balance. He added that in a short time Jews would replace the native inhabitants due to the large increasing number of immigrants.

In this sense, the Jewish migration began to arouse the fears of the natives lest it should take the form of settlement. It is worth noting, also, that the establishment of "Pitah-Tikvah" i.e. "hope" settlement in 1878, made Raut Pasha, the Turkish governor of Palestine, protest indignantly to both the German and Russian consuls against the Jewish attempts of setting up settlements which Jews had established as a basis for a Jewish nation. The governor repressed the establishments of Jewish settlements, as he indicated, by encouraging Palestinian Arabs to occupy them.

At the beginning of 1880, the hostile Arab reaction encompassed all parts of the country. An anti-Zionist activity began to emerge and a continuous struggle against Jews settlements became a necessity.

Arabs of Palestine sent a petition to the Ottoman authority demanding the prevention of the further Jewish immigration to Palestine and purchase of lands by them. In 1887, the Ottoman government imposed certain restrictions on the Jewish immigrants who entered the country as tourists.

It became clear then among the natives that the Jewish migration aimed at the establishment of settlement. Therefore, repression was intensified to a great extent.

In 1892, in protest against the purchase of lands by Jews a decree was issued by the Ottoman authority preventing the process of Jews' purchase of lands. But Britain and some other countries refrained it.

In 1896, prior to the Zionist Conference, Cairo press maintained an anti-Zionist campaign exposing the dangers of the Zionist migration and its repercussions on Palestine.

The Palestinians' Jihad versus the Jewish and Zionist immigration

Prepared by: **Dr. Ismail Ahmed Yaghi**

Abridged and translated into English by: **Mr. Abdul Salam Abdul Moneim**



No doubt that Palestine has always been regarded as the heart of the Arab and Islamic world. It has a certain religious significance to Jews, Christians and Moslems. Its strategic importance lies in its geographical position at the cross-roads of three continents Europe, Asia and Africa.

The emergence of Islam has widely influenced its population historically, linguistically, culturally and in fate.

It is important to emphasize the fact that most of the Jews left Palestine by the first century A.D. except for a small sect that was welded into the Arab community. They enjoyed freedom and religious toleration accorded to them by the Islamic religion.

From the religious angle, Jews were only related to Palestine for matters of worship.

Under the Ottoman authority, Jews had received religious freedom together with social rights that were never to be granted to them in Europe.

It should be remembered that in the 19th century, Jews as minority, had only numbered 2 per cent of Palestine's population. Even though, they had always caused troubles owing to their religious fanaticism and self-arrogance. These troubles were the real cause behind an increasing tendency among them to congregate in a closed society, as they failed to enjoy social co-existence with Muslims and the other sects.



Cover Picture:

King Abdul Aziz Public Library



Annual Subscriptions

- Saudi Arabia : 20 Riyals.
- Arab Countries : The equivalent
of 4 issues price.
- Non-Arab Countries : US 6 \$.

- Articles can not be returned to
authors whether published or not.



- Articles are arranged technically
regardless of the writer's prestige.

• PRICE

PER ISSUE •

— Saudi Arabia	: 3 Riyals	— Morocco	: 5 Dirhams
— U.A.E.	: 4 Dirhams	— Tunisia	: 400 Millimes
— Qatar	: 4 Riyals	— Non-Arab	: 1 U.S. \$
— Egypt	: 40 Piastres	Countries	

Saudi Arabia : Al-Greisy Distributing Est.,
P.O.Box 1405, Riyadh, Tel. : 4022564

Abu-Dhabi : P.O.Box 3778, Abu Dhabi,
Tel. : 323011

Dhubai : Dar-Al-Hikma Library,
P.O.Box 2007, Tel. : 228552

Qatar : Dar-Al-Thakafa,
P.O.Box 323, Tel. : 413180

Bahrain : Al-Hilal Distributing Est.,
Manama, P.O.Box 224, Tel. : 262026

Egypt : Al-Ahram Distributing Est.,
Al-Gala'a Street, Cairo, Tel. : 755500

Tunisia : The Tunisian Distributing
Company 5, Nahg Kartaj.

Morocco : Al-Sharafia Distributing Company,
P.O.Box 683, Casablanca, 05.



EDITOR-IN-CHIEF

Muhammad Hussein Zeidan

Director General
of "ADDARAH" and
Secretary General of King
Abdul Aziz Research Centre

Abdullah Hamad Al-Hoqail

EDITORIAL BOARD

DR. MANSOUR IBRAHIM AL-HAZMI

ABDULLAH ABDUL-AZIZ BIN EDRIS

DR. ABDUL-RAHMAN AL-TAYYEB AL-ANSARI

DR. ABDULLAH AL-SALEH AL-UTHAYMEEN

DR. MOHAMMAD AL-SULAYMAN AL-SUDAIS

Subscriptions should
be directed to the
Secretary General of
"Addarah"

☎ : 4412571

Articles should be directed
to the Editor-in-Chief
☎ : 4417020

Editorial and Technical Secretary

MUSTAFA AMEEN JAHEEN

Editorial Board
All correspondence should be directed to the
☎ : 4412316 - 4412317



An Academic Quarterly
Issued by King Abdul Aziz Research Centre

No. 2 • Year 14 • Muharram, Safar, Rabi'1 1409 A.H. Aug., Sept., Oct., 1988 A.D.

King Abdul Aziz Research Centre

- *Established by a Royal decree No. M/45 dated 5/8/1392 A.H. as an autonomous body with independent juristic identity.*
- *Run by a Board of Directors vested with full authority to have its objectives materialized.*

Objectives :

- *To further studies pertaining to the history of the Kingdom, its geography, literature, intellectual and cultural heritage in particular as well as those of the Arab and Islamic world in general.*
- *To issue a cultural magazine carrying its name.*

ADDARAH

- *In accordance with the Royal approval No. 5/12608 dated 20/5/1396 A.H. the Centre has become the home of the National Saudi Archives and Manuscripts.*

Dr. Muhammad Al-Sayid

P.O.Box 2945

Riyadh 11461 • Kingdom of Saudi Arabia

• Facsimile No :

00/966/1/4417020



• مدخل مكتبة الملك عبد العزيز - الدار البيضاء - المغرب



• منى مكتبة الملك عبد العزيز العامة - الرياض - المملكة العربية السعودية



AL-BAYAN

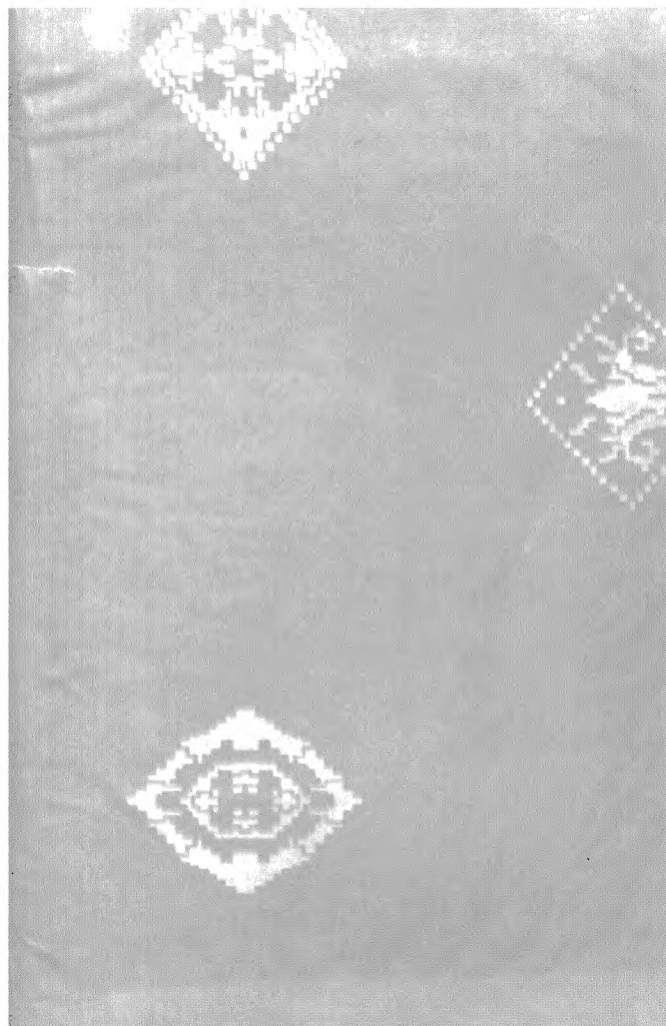


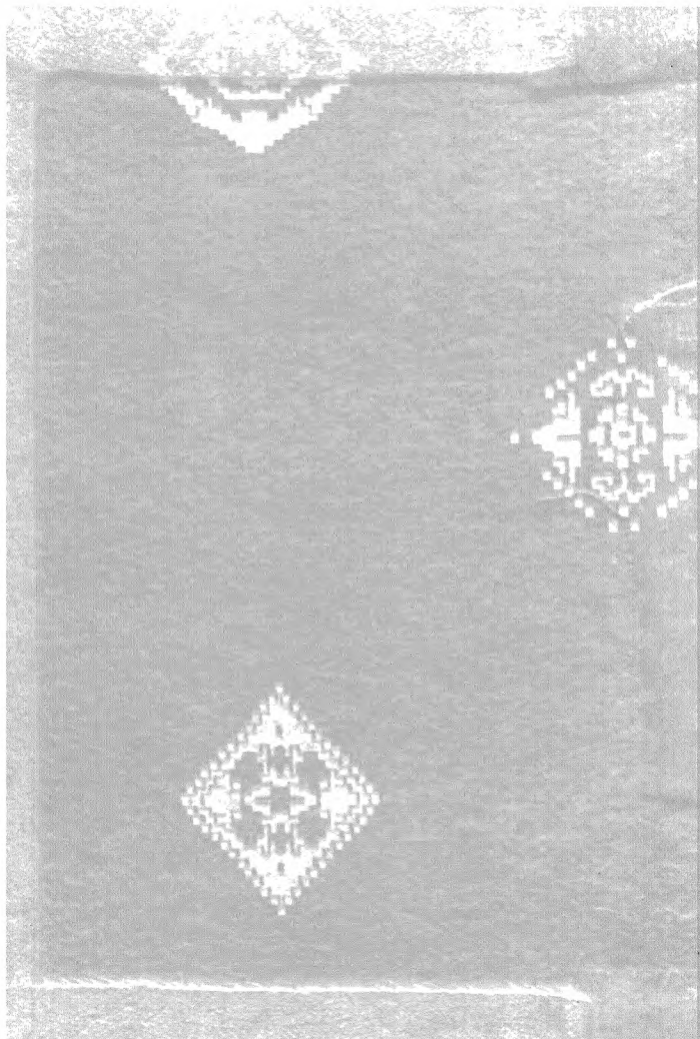
• Khatib Abdul Aziz Public Library

■ A Model of the Urban Growth in A Minor Saudi Town (Muraimila).

AL-BAYAN









Bibliotheca Alexandrina



0530545